

أول
دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م

العدد الأربعون
السنة الحادية عشرة
يونيو ٢٠١٨ - رمضان ١٤٣٩

ISSN: 2090 - 0449
Universal Impact Factor UIF
Global Serials Directory UlrichsWeb
Impact Factor for Arabic Scientific Journals AIF
Arabic Index of Measuring the Quality of Scientiffic Journals AIMSJQ
www.kanhistorique.org





kanhistorique





رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء



دورية كان التاريخية.- س١١، ع٤٠ (يونيو ٢٠١٨/ رمضان ١٤٣٩)

Dawriyyat Kān al-Tārīḫiyyat
Iliktrūniyyat, muḥakkamat , rub' sanawiyyat
Vol. 11, no. 40 [June 2018]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: www.kanhistorique.org/Archive/2018/Issue40

تصنيف ديوي العشري – مقالات ودراسات ع٤٠ يونيو ٢٠١٨

٩٠٩,٠٧	الحروب الصليبية
٩٥٣	التاريخ العام للعرب والمسلمين
٩٥٣,٠٩	الدولة العثمانية في أقطار العالم العربي
٩٥٣,١	المملكة العربية السعودية
٩٥٣,٠٧١	تاريخ الأندلس
٩٥٣,٠٧٣٩	الدولة السلجوقية
٩٦٤,٠٩	تاريخ المغرب الحديث
٩٦٥	تاريخ الجزائر – الاحتلال والاستقلال

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠١٨.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2018.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.



أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر ٢٠٠٨م

ISSN: 2090 – 0449 Online



حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المُحَكَّمة

مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤

رئيس التحرير

د. أشرف صالح محمد

أستاذ مساعد تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



A MERCHANT AND HIS WARES

Painted in 1881.

Vicente March Marco (1859 – 1927)

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

historicalkan

groups/kanhistorique

kanhistorique

kanhistorique.blogspot.com

goodreads.com/kanhistorique

www.kan.nashiri.net

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

رخصة التشارك الإبداعي

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.





دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشْرِ

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألّا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بـالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**
يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.
- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**
يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفة الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).
- **صورة شخصية:**
ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.
- **ملخص البحث:**
يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.
البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.
- **الكلمات المفتاحية:**
الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجها في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.
- **مجال البحث:**
الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".
- **المقدمة:**
تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.
- **موضوع البحث:**
يراعى أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).
- **الجداول والأشكال:**
ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.
- **الصور التوضيحية:**
في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)
- **خاتمة (خلاصة):**
تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.
- **الهوامش:**
يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.
- **المراجع:**
يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَّشَر

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل،
- ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَوريةُ كَان التَّارِيْخِية أربع مرات في السنة:
- (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات للبريد الإلكتروني:
  info@kanhistorique.org
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:
  mr.ashraf.salih@gmail.com

مُحْتَوَيَاتُ العَدَدِ

كُتَّابُ العَدَدِ

العربي بنرمضان	كلية الآداب والعلوم الإنسانية - فاس	المغرب
إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أشرف صالح محمد سيد	جامعة ابن رشد	هولندا
بديع العابد	جامعة الإسراء	الأردن
تومي الطاهر	جامعة آكلي محند أولحاج	الجزائر
حنان رزايقية	جامعة الجزائر (٣)	الجزائر
خالد حسين محمود	جامعة حائل	السعودية
رضا بن علال	المدرسة العليا للأساتذة	الجزائر
سعاد يمينة شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
سميحة ديفل	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
عاطف عبد الستار	جامعة تونس	تونس
عبد الرزاق السعيدي	مركز الدراسات والأبحاث تافيلالت	المغرب
عولمي الربيع	جامعة باتنة	الجزائر
غانم بودن	جامعة ابن خلدون	الجزائر
غسان محمود وشاح	الجامعة الإسلامية (غزة)	فلسطين
فرهاد محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
محمد أبرهموش	وزارة التربية الوطنية	المغرب
محمد أيت صالح	أستاذ التعليم الثانوي	المغرب
محمد عبد المومن	أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي	المغرب
معمر العايب	جامعة تلمسان	الجزائر
ناظم يونس عثمان	جامعة دهوك	العراق
هشام البقالي	أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي	المغرب

* حسب الترتيب الأبجدي

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

مقالات

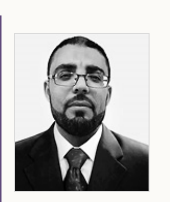
الخطّ العربي من اللّحظة الأنطولوجيّة إلى اللّحظة الإستيتيقيّة
قداسة تكاد تضاهي قداسة الصّوتي ومجال للفنّ والمُمارسة الجماليّة

عاطف عبد الستار

باحث دكتوراه في التراث الإسلامي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة تونس – الجمهورية التونسية



مُلَخّصٌ

حظي الخطّ العربي عبر التّاريخ باهتمام كبير لا باعتباره أداة تسجيل الأفكار والمعلومات وحسب، بل لكونه مرتبطا بالدّول المتعاقبة في العالم الإسلامي، طالما أنّ الدّولة كانت في حاجة ملحّة إلى الخطّ لترتيب شؤونها ولتسيير أمورها، ومع تعاظم الدّول تعاظم دور الخطّ وعلا شأنه وصار الخطّاط مقرّبا من الحاكم أو الخليفة ملازما له، لذلك لم يقتصر على تصوير حروف الكلمات العربيّة وإعجامها وتشكيلها على وجه فنّي جذّاب فحسب، بل حوت مباحثه– علاوة على ذلك– أصول الكتابة وقواعد الإملاء الّتي يفرض على الكاتب أن يراعيها في رسم المفردات والمركّبات من الكلمات العربيّة. إنّ مقاربتنا للخطّ العربي في هذه الدراسة سوف تنطلق من قراءة تاريخيّة تتتبّع بدقّة نشأة الأبجديّة العربيّة في أشكالها الأولى المجرّدة وتطوّرها عبر العصور، ثمّ قراءة ثانية تشكيليّة تبيّن كيفيّة استلهام الحرف العربي وتوظيفه كعنصر تشكيلي يقتحم فضاءات الحداثة وعوالمها الإبداعيّة، وسنعمل في هذه الدراسة على الالتزام بالمنهج التّالي: في لحظة أولى سنعمل على تقصّي أصول الخطّ العربي وتطوّره عبر التّاريخ. في لحظة ثانية سنحاول التعرّف على ظروف إرساء قواعد الخطّ العربي وتفرّعه إلى عدّة أنواع أو أنماط. وفي لحظة ثالثة وأخيرة سنسعى إلى بيان كيفيّة اقتحام الحرف العربي عالم الفنون التّشكيليّة ليصير عنصرًا تشكيليّا مؤثّثًا للّوحة ومفردة أساسيّة أكسبت العمل الفنّي قيمًا جماليّة ورمزيّة معاصرة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٧ مايو ٢٠١٦

تاريخ قبـول النشـر: ٠٢ أغسطس ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:

الخطّ العربي، خطّ المسند، الخطّ النبطي، الحضارة العربية الإسلامية، تاريخ الخطوط

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052951

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عاطف عبد الستار. "الخطّ العربي من اللّحظة الأنطولوجية إلى اللّحظة الإستيتيقية: قداسة تكاد تضاهي قداسة الصوتي ومجال للفنّ والمُمارسة الجمالية".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص ١٠ – ١٩.

مُقَدِّمَةٌ

ارتبط الخطّ العربي في الحضارة العربية الإسلاميّة بمجالات الثّقافة والفنون والعمارة والصّنائع والتّعليم والإدارة، وتطوّر بشكل ملحوظ في علاقته بتلك المجالات، كيف لا وقد أضحى تعبيرا حيّا عن هويّة الأمّة الإسلاميّة المرتبطة بالعلم والكتاب، بما يعكسه من عمق تاريخي وما ينطوي عليه من حسّ فنّي وما يُغذّيه من تذوّق جمالي، وقد حظي الخطّ العربي عبر التّاريخ باهتمام كبير لا باعتباره أداة تسجيل الأفكار والمعلومات وحسب، بل لكونه مرتبطا بالدّول المتعاقبة في العالم الإسلامي، طالما أنّ الدّولة كانت في حاجة ملحّة إلى الخطّ لترتيب شؤونها ولتسيير أمورها، ومع تعاظم الدّول تعاظم دور الخطّ وعلا شأنه وصار الخطّاط مقرّبًا من الحاكم أو الخليفة ملازما لـه، لـذلك لم يقتصر على تصوير حروف الكلمات العربيّة وإعجامها وتشكيلها على وجه فنّي جذّاب فحسب، بل حوت مباحثه- علاوة على ذلك- أصول الكتابة وقواعد الإملاء الّتي يفرض على الكاتب أن يراعيها في رسم المفردات والمركّبات من الكلمات العربيّة.

وقد اختلف المؤرّخون حول نشأة الخطّ العربي، فمنهم من يرى أنّ الأبجديّة العربيّة اشتقّت من الخطّ المسند الّذي انتقل عن طريق القوافل إلى بلاد الشّام ويُعرف أيضا باسم الخطّ الحميري، ومنهم من يرجّح أنّ أصول الخطّ العربي تتّصل مباشرة بالأبجديّة النبطيّة، وهذا ما تؤكّده النّقوش الّتي ترجع إلى ما قبل

الإسلام والقرن الهجري الأوّل ومنها نقش "أمّ الجمال" الّذي يعود تاريخه إلى ٢٥٠م، ونقش شاهد قبر أمرؤ القيس الّذي يعود تاريخه إلى ٣٢٨ م، وقد وجد في منطقة حوران إحدى ديار الأنباط، ثمّ انتقل إلى الأنبار والحيرة ومنها عن طريق (دومة الجندل) إلى الحجاز. وعلى هذا النّحو انطلقت مقاربتنا للخطّ العربي في هذه الدراسة من قراءة تاريخيّة تتتبّع بدقّة نشأة الأبجديّة العربيّة في أشكالها الأولى المجرّدة وتطوّرها عبر العصور، ثمّ قراءة ثانية تشكيليّة تبيّن كيفيّة استلهام الحرف العربي وتوظيفه كعنصر تشكيلي يقتحم فضاءات الحداثة وعوالمها الإبداعيّة، وقسّمنا هذا المقال إلى ثلاثة لحظات أساسيّة: في لحظة أولى سنحاول تعريف الكتابة والخطّ والوقوف على تعدّد مدلوليهما في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، وفي لحظة ثانية سنعمل على تقصّي أصول الخطّ العربي وظروف نشأته وتفرّعه إلى عدّة أنواع أو أنماط، ثمّ سنحاول في لحظة ثالثة وأخيرة بيان كيفيّة اقتحام الحرف العربي عالم الفنون التّشكيليّة ليصبح عنصرًا تشكيليًا مؤثّثا للّوحة المسنديّة أو غيرها ممّا أكسب العمل الفنّي قيما جماليّة ورمزيّة تتخطّى الرّؤية البصريّة ولا تتوقّف عندها.

١-مصادر ومراجع البحث

نودّ في البداية أن نُشير إلى بعض المصادر القيّمة والّتي لا غنى عنها في دراسة تاريخ الكتابة العربيّة (أي الإملاء) وتطوّرها عبر التّاريخ فيها يجد الباحث ما يروي به عطشه ويُمتّع ناظره ويُنمّي معرفته حول علم لا يقلّ أهميّة عن بقيّة العلوم الّتي ظهرت وترعرعت في ظلّ الحضارة الإسلاميّة، علم يقدّم توضيحات عن أصل العلامات الكتابيّة ودلالتها، ويمدّنا بتفسيرات لغويّة وتاريخيّة لكلّ اختلاف بين المنطوق والمرسوم، وكلّ ذلك من شأنه أن يجعل الباحث يتعامل مع نظام واضح الأبعاد محدّد الدّلالات فيمنحه ذلك معرفة بالبعد التّاريخي للخطّ العربي ويمنعه من ارتكاب أخطاء كتابيّة كثيرة ثبت شيوعها وللأسف الشّديد عند فئة لا بأس بها من الكتّاب اليوم. ومن هذه المصادر نذكر: كتاب "**المطالع النصريّة في الأصول الخطيّة**" للهوريني، و"**كتاب الهجاء**" للكسائي (علي بن حمزة، ت ١٨٩هـ)، وللسّجستاني (أبو حاتم سهل بن محمد البصري، ت ٢٥٥هـ)، و"**كتاب أدب الكاتب**" لابن قتيبة الدّينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت ٢٧٦هـ)، و"**كتاب الخطّ والهجاء**" لابن يزيد المبرد (أبو العبّاس محمّد، ت٢٨٥هـ)، و"**كتاب الهجاء**" لابن كيسان (أبو الحسن محمّد بن أحمد، ت٢٩٩ هـ)، و"**كتاب الخط والقلم**" لابن سلمة (أبو طالب المفضل، ت حوالي ٣٠٠هـ)، و"**كتاب الخطّ**" لابن السرّاج (أبو بكر محمّد بن السري، ت ٣١٦هـ)، و"**كتاب الهجاء**" للجعل (أبو بكر محمّد بن عثمان، ت بعد٣٢٠هـ)، وللأنباري (أبو بكر محمّد بن القاسم بن بشّار، ت٣٢٨هـ)، و"**كتاب أدب الكتّاب**" للصّولي (أبو بكر محمّد بن يحيى، ت٣٣٦هـ)، و"**كتاب الخطّ**" للزّجاجي (أبو القاسم عبد الرّحمن بن إسحاق، ت٣٣٧هـ على الأرجح)، و"**كتاب الهجاء**" لابن درستويه (أبو محمّد عبد الله بن جعفر، ت ٣٤٧هـ)، و"**متن الشافية، مجموع مهمات المتون**"، لابن الحاجب (جمال الدّين أبي عمرو عثمان بن عمر، ت ٦٨٦هـ)، و"**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**" للقلقشندي (أحمد بن علي بن أبي اليمن، ت ٨٢٥هـ/١٤١٨م) وغيرهم الكثير...[١]

ومن المعاصرين: غانم قدوري الحمد، **علم الكتابة العربيّة**، دار عمار للنّشر والتّوزيع، الأردن، ٢٠٠٤، وأحمد صبري زايد، **تاريخ الخطّ العربي وأعلام الخطّاطين**، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٨، وسهيلة الجبوري، **الخطّ العربي وتطوّره في العصور العبّاسيّة**، مطبعة الزّهراء، ١٩٦٢، وشربل داغر، **مذاهب الحسن: قراءة معجميّة تاريخيّة للفنون العربيّة**، المركز الثّقافي العربي، بيروت، لبنان، وصلاح الدّين المنجد، **دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي**، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٢، وعبد العزيز الدّالي، **الخطاطة الكتابيّة العربيّة**، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩، وولفنسون إسرائيل، **تاريخ اللّغات السّامية**، مطبعة الاعتماد بمصر، ط١، ١٩٢٧، محمّد طاهر الكردي، **الخطّ العربي تاريخه وآدابه**، مكتبة الهلال، ط١، ١٩٣٩، وحسن المسعودي، **الخطّ العربي**، دار فلاماريون، باريس، ١٩٨٠، وعبد الكبير الخطيبي ومحمّد السجلماسي، **ديوان الخطّ العربي**، ترجمة محمّد برادة، دار العودة، الدّار البيضاء، ١٩٨٠. كامل بابا، روح الخطّ العربي، دار الملايين للنّشر بيروت، لبنان، ١٩٩٤. محمود الجبوري، نشأة الخطّ العربي وتطوّره، مطبعة بيت الحكمة، بغداد، ١٩٨٤، وغيرهم.

٢-في معنى الخطّ والكتابة وتعدّد مدلوليهما في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة

يُعتبر الخطّ كما هو معلوم فنّا مبنيّا على أسس زخرفيّة وقواعد هندسيّة سواء في الحروف الهجائيّة أو في الكتابة المختزلة أو في الأرقام العدديّة،[٢] والخطّ والكتابة والرّقم والسّطر والزّبر كلّها تعني شيئا واحدا، وقد استخدمها الإنسان منذ زمان طويل، ثمّ قام بإدخال التّعديلات والتّحسينات عليها، ومن معاني خطّ فكّر يُقال: فلان يخطّ في الأرض، إذا كان يُفكّر في أمره ويُدبّره،[٣] وفي هذا يُصنّف الجاحظ في كتاب "**الحيوان**" الخطوط إلى خطّ الحازي والعرّاف والزّاجر، وخطوط أخر تكون مستراحا للأسير والمهموم والمفكّر، كما يعتري المفكّر من قرع السنّ، والغضبان من تصفيق اليد وتجحيظ العين.[٤] والأخطّ الدّقيق المحاسن، ورجل مخطط أي رجل جميل. وقد عرّف الإمام جمال الدّين عثمان بن عمرو المعروف بابن الحاجب (٥٧٠-٦٤٦ هـ) الخطّ قائلا: "**الخطّ تصوير اللّفظ بحروف هجائه**"،[٥] واعتبر ابن خلدون أنّ الخطّ: "**هو رسوم وأشكال حرفية تدلّ على الكلمات المسموعة الدالّة على ما في النّفس فهو ثاني رتبة عن الدّلالة اللّغويّة**"،[٦] وهو "**ما تعرف به صور الحروف المفردة، وأوضاعها، وكيفيّة تركيبها خطّا**"،[٧] وقال أبو دلف "**الخطّ رياض العلوم**"،[٨]

وقال النظّام "**الخطّ أصيل في الرّوح وإن ظهر بحواسّ البدن**"،[٩] وقال أفلاطون "**الخطّ عقال العقل**"، وقال إقليدس "**هندسة روحانيّة وإن ظهرت بآلة جسمانيّة**"،[١٠] وهو "**آلة جسمانيّة تضعف بالتّرك وتقوى بالإدمان**"،[١١] وهو "**ملكة تنضبط بها حركة الأنامل بالقلم على قواعد مخصوصة**."[١٢] وأمّا كمال عبد جاسم الصّالح الجميلي فقد عرّف الخطّ قائلا "**هو فنّ كتابة الحروف بقواعد خاصّة تزيدها وضوحا وجمالا وجذبا**"،[١٣] ومن العلماء من عدّ الخطّ أشرف العلوم منزلة وأعمّها نفعا بقوله "**وجميع العلوم تُعرف بالدّلالة عليها أو اللّفظ أو الخطّ، فالإشارة تتوقّف على المشاهد، واللّفظ يتوقّف على حضور المخاطب والسّماع، أمّا الخطّ فلا يتوقّف على شيء من ذلك، فهو أعمّها نفعا وأشرفها**."[١٤]

وللكتابة لغة معان عديدة، منها الفرض[١٥] والحكم[١٦] والقدر،[١٧] وتأتي بمعنى الجمع، وذهب القلقشندي إلى اعتبار أنّ "**أعظم شاهد لجليل قدرها (الكتابة)، وأقوى دليل على رفعة شأنها، أنّ الله تعالى نسب تعليمها إلى نفسه واعتدّه من وافر كرمه وأفضاله فقال عزّ اسمه ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣-٤]**".[١٨] فالكتابة هي الأداة النّاقلة للعلوم والأفكار، بها يُطلب العلم ويتطوّر، وبها تُحفظ أصناف العلوم ومختلف إنتاجات البشر، وهي "**حرفة يحترفها طائفة من النّاس وكانت تتطلّب معرفة بفنون مختلفة من العلوم وسعة في الإطّلاع على النّحو الّذي ألّف فيه صبح الأعشى- للقلقشندي، ونهاية الإرب للنّويري**"،[١٩] و"**الكتابة، والكتاب، والكُتُب، مصادر (كَتَبَ) إذا خطّ بالقلم، وجَمَعَ، وخَاطَ، وخَرَزَ. يُقال (كَتَبَ قِرطاسا)، أي: خطّ فيه حُروفا وضمّها إلى بعضها، و(كَتَبَ الكتائب)، أي جمعها..**".[٢٠] وقالوا "**بُنيت الكتابة على خمس: قوّة الأخماس، وحدة الألماس، وجودة القرطاس، ولمعان الأنفاس، وحبس الأنفاس**."[٢١]

فالخطّ إذا يأخذ أهميّة الكتابة ويفوقها لأنّه بلاغتها وكمالها وجمالها، وهو الصّورة النّاصعة لها. وفي هذا الإطار يُفرّق بن خلدون بين الخطّ والكتابة وذلك لقوله "**ودُرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخطّ والكتابة والعلم إلى مصر والقاهرة**"،[٢٢] كما قال في موطن آخر "**ولمّا احتاجت الدّولة إلى الكتابة استعملوا الخطّ وطلبوا صناعته**"،[٢٣] ولم يقل استعملوا بالعود على الكتابة وإنّما خصّ الخطّ بالإستعمال لأنّه يلحقه في ما بعد بالإتقان فيسترسل "**فطلبوا صناعته وتعلّموه وتداولوه فرقّت فيه الإجادة**"،[٢٤] وهكذا يُفاضل ابن خلدون بين الخطّ والكتابة على الرّغم من اجتماع كلّ منهما لديه وهذا ما يبدو واضحا من عنوان الفصل الثّلاثون "**الخطّ والكتابة من عداد الصّنائع الإنسانيّة**" من الباب الخامس "**في المعاش ووجوهه من الكسب والعلوم والصّنائع**" من المقدّمة.

٣-ظهور الخطّ العربي وتطوّره عبر التّاريخ

ذهب علماء اللّغة والمؤرّخون أشواطًا بعيدة في البحث عن نشأة الخطّ والأبجديّة في العالم، فدرسوا أيّام الأمم القديمة وآثارهم ونقوشهم وأثبتوا بعد دقّة الاستقراء أنّ أوّل من اخترع الأبجديّة في العالم هم الفينيقيّون الكنعانيّون من نسل سام بن نوح عليه السّلام في عصر "حيرام" ملك بيبلوس سنة ١٣٠٠ ق م، ثمّ تبنّى اليونانيّون تلك الأبجديّة سنة ١٠٠٠-٨٠٠ ق م،[٢٥] وقد صارت أبجديّة الكنعانيين مصدرا لكلّ الكتابات الأبجديّة العالميّة، فتأثّرت بها جميع اللّغات السّامية من آراميّة وسريانيّة وكلدانيّة وعبرانيّة وعربيّة، واللّغات اللاّتينيّة من يونانيّة وإيطاليّة وفرنسيّة وإسبانية وإنجليزيّة... وقد استخدم العرب كغيرهم من الأمم الكتابة في كلّ مجالات الحياة تقريبا فسجّلوا أحداثهم اليوميّة،[٢٦] وكتبوا العهود والمواثيق وثبّتوا الأحلاف وخطّوا الرّسائل والصّكوك، وسند ملكيّة الرّقيق،[٢٧] ومن بين المدن والحواضر القديمة التي عرف أهلها الكتابة والقراءة في شبه الجزيرة العربية، المناذرة واللّخميين بالحيرة والغساسنة بتخوم الشّام، والقرشيّون بمكّة،[٢٨] والأوس والخزرج واليهود بالمدينة[٢٩] وثقيف بالطّائف، وهذا بالإضافة إلى بعض مدن شمال الجزيرة كدومة الجندل.

فظهرت بالتّالي أنواع كثيرة من الخطوط كانت شائعة في ذلك العصر- مثل الخطّ التّدمري،[٣٠] والخطّ النّبطي،[٣١] والخطّ السّرياني،[٣٢] المشتقّة جميعها من الخطّ الآرامي،[٣٣] فأمّا أهل الحجاز فمنهم من استعمل الخطّ السّرياني لفترات طويلة من الزّمن وخاصّة اليهود منهم الّذين كانوا يُحسنون قراءة هذا الخطّ وكتابته،[٣٤] وهذا ما أكّده أيضا المسعودي في "**مروج الذّهب**"، وابن عبد ربّه في "**العقد الفريد**"، ومنهم من كتب بخطّ المسند الحميري وهو خطّ أهل اليمن وحافظ عليه إلى أيّام النبيّ ﷺ[٣٥] تماما مثل عرب العراق الّذين آثروا الخطّ الحميري على بقيّة الخطوط[٣٦] لكثرة مبادلاتهم التجاريّة مع أهل اليمن ممّا يُسهّل المعاملات بينهم، كما عرف أهل الحجاز أيضا الخطّ النّبطي لاتّصالهم الوثيق بالأنباط ببلاد الشّام.

وعلى الرّغم من تعدّد الرّوايات وتباين المقاربات فيما بينها وإنّ مُعظمها يفتقر إلى التّوثيق، بما في ذلك بعض المصادر العربيّة القديمة الّتي تعود إلى القرن الرّابع الهجري (١٠م)[٣٧] والّتي تكشف بوضوح اضطراب الآراء وتباين الرّوايات بشكل يجعلنا أكثر حذرًا في التّعامل معها، وكذا الشّأن بالنّسبة للدّراسات المعاصرة الّتي ذهبت أشواطا بعيدة في تحديد الظّرفيّة التّاريخيّة التي شهدت بداية ظهور أولى معالم الحروف الأبجديّة العربيّة بالنّظر إلى كثرة الأمم المنتمية إلى الشّعوب السّامية والّتي سكنت الجزيرة العربية وبلاد ما بين النّهرين، ومنهم الأكاديّون والآراميّون والبابليّون والفينيقيّون والكنعانيّون والعبرانيّون والعرب.. إلاّ أنّنا يُمكن أن نُرجع نشأة الخطّ العربي إلى نوعين من الخطّ منذ الجاهليّة وقبل مجيء الإسلام وهما خطّ المسند

المشتقّ من الخطّ الكنعاني وريث الهيروغليفيّة، وهو القديم الواسع الانتشار في جنوب الجزيرة العربيّة وبعض أنحائها الشماليّة، وكان قد زال من الاستخدام في الفترة القريبة من ظهور الإسلام، وقد تبنّى هذا الرّأي كثير من الباحثين المعاصرين منهم محمّد طاهر الكردي، وحفني ناصف، ثمّ الخطّ النّبطي الّذي كان معروفا في الحجاز والمناطق الواقعة في شمال الجزيرة العربية وشمالها الشرقي، وقد استعمل في ما بعد في تدوين القرآن الكريم وفي كتابة العهود والمواثيق وكلّ شؤون الدّولة الإسلاميّة.

١/٣-خطّ المسند

فأمّا خطّ المسند فهو خطّ مشتقّ من الأبجديات السّامية الشماليّة، السينائيّة، أو الفينقيّة، أو الكنعانيّة، وهو **"أقدم الأقلام الّتي عرفت في شبه جزيرة العرب حتّى الآن، ويبدو أنّه كان معروفا في كلّ شبه جزيرة العرب قبل الإسلام، وربّما كان القلم العام للعرب قبل المسيح، أي قبل ظهور أقلام أخرى ولدت على ما يظنّ بعد الميلاد، ومن ثمّ سمّاه بعض المحدثين بالقلم العربي الأوّل، أو القلم العربي القديم"،**[٣٨] وقال الدّكتور غانم قدوري الحمد: **"وتسمية (المسند) بخطّ حمير لا تدلّ إلاّ على أنّهم آخر من كتب به"**[٣٩] لا على أنّه حكرا عليهم طالما أنّ خطّ المسند ينقسم إلى خمسة خطوط فرعيّة أخرى وهي الخطّ الصّفوي(نسبة إلى جبل الصّفاة الموجودة في بادية الشّام)، والثّمودي، واللّحياني(نسبة إلى قبائل ثمود ولحيان وهي قبائل عربيّة قديمة استوطنت شمالي الجزيرة العربية)، والسّبئي، والمتّصل.

ويتميّز خطّ المسند بالخصائص التّالية: فهو خطّ خال من أيّة علامة للحركات أو حروف المدّ وتتكوّن أبجديّته من تسع وعشرين حرفا تماما كالأبجديّة العربيّة الشماليّة، مع زيادة حرف واحد ينطق بين السّين والشّين، وتُكتب حروفه منفصلة، ويفصل بين الكلمة والأخرى خطّ عمودي، ويندر وجود الفاصل في النّقوش الشماليّة المتحدّرة عن المسند، وأمّا الكتابة فتبدأ على غرار الكتابة العربية من اليمين نحو الشّمال، يكتب الحرف المشدّد مرّتين غالبًا.

٢/٣-الخطّ النّبطي

وأمّا الخطّ النّبطي فأخذه العرب من أبناء عمومتهم من الأنباط،[٤٠] الّذين استخدموا الكتابة الآراميّة الّتي كانت سائدة في الشّام زمن قيام دولة الأنباط، وكان لهذا الاستخدام للكتابة الآرامية إيذانا ببداية ظهور الخطّ العربي الشّمالي، فعلى أيديهم تطوّرت أشكال الحروف الآراميّة، ثمّ طوّر العرب أشكال بعض الحروف النّبطيّة وابتكروا أشكالا مغايرة في محاولة لفصل الحروف ووصلها،[٤١] وما أن بزغ فجر القرن السّادس للميلاد إلاّ وكان للعرب خطّ جديد أطلق عليه العلماء "الخطّ العربي" الّذي تطوّر بين حوران وشمال الحجاز،[٤٢] وهذا ما جعل العلماء يقتنعون بأنّ أصل الخطّ العربي من الخطّ النّبطي.[٤٣]

وإنّ المتأمّل في عديد حروف الخطّ العربي يلاحظ أنّ لها شكل متميّز لا يتطابق مع النّقوش المتبقّية من الخطّ النّبطي كالألف والدّال والحاء والكاف والميم والسّين والشّين والرّاء والتّاء، كما حوّرت أشكال بعضها الآخر نحو التّبسيط كالواو والفاء والقاف، أمّا بقيّة الحروف كالجيم والطّاء واللّام والنّون والياء واللّام، فقد ظلّت نبطيّة واستمرّ استعمالها حتّى يومنا هذا. وذكر المورّخون أنّ الخطّ النّبطي جاء إلى مكّة والطّائف من العراق عن طريق التّجارة الّتي كان قريش يمارسونها مع سكّان تلك المدن، وجدير بالملاحظة أنّ الكتابة العربيّة الجاهليّة كانت خالية من الحركات والنّقط (التّشكيل والتّنقيط).[٤٤]

ومن هنا نستنتج أنّ العرب القاتنين بشمال الجزيرة العربيّة كانوا يكتبون ما يريدون تدوينه بالأحرف الآراميّة في بداية أمرهم ثمّ اشتقّوا أبجديتهم النبطيّة من الآراميّة، ومن أهمّ خصائص الخطّ النّبطي نذكر أربعة منها:

- خلوّه من التّنقيط والتّشكيل، ولم تكن للحركات علامات خاصّة بها، إذ يشترك أكثر من حرف برمز كتابي واحد، فيما يُحدّد السّياق الحرف المقصود.
- ثانيا تُحذف في الكتابة النّبطيّة الألف المتوسّطة الّتي ترمز إلى المدّ الصّوتي، وكذا الياء والواو في بعض الحالات، وهو ما حافظت عليه الكتابة العربية إلى اليوم حيث يُنطق المدّ وتُحذف الألف الّتي تُرمز إليه لتُكتب الكلمة على النّحو الآتي (لكن، هذا..).
- ثالثا: تُرسم تاء التّأنيث في آخر بعض الكلمات الّتي تتمّ بالهاء، بالتّاء المفتوحة مثل كلمة "قريت" (قريةٌ).
- رابعا: زيادة واو في آخر أسماء الأعلام، واستمرّ ذلك في اللّغة العربيّة مع بعض الأسماء مثل اسم "عمرو".

٤-نشأة الخطوط العربية وتفرّعها

كان للنّهضة العلميّة الإسلاميّة أساسًا علم الرّياضيات والهندسة تأثير كبير في ازدهار فنّ الخطّ العربي والفنون الإسلاميّة عموما، حيث وقع ترجمة النظريّات الهندسيّة والرياضيّة إلى علامات بصريّة تجلّت أساسا من خلال الفنّ المعماري الّذي أصبح بدوره شاهدا على تطوّر الهندسة العمليّة في ظلّ الحضارة الإسلاميّة. وفي هذا المناخ ظهرت أنواع مختلفة من الأقلام أو الخطوط وأخذت في التفرّع والانتشار فبدأت تتراءى لنا أولى المحاولات الجادّة في إرساء قواعد الخطّ العربي الّذي لم يكن في بداياته منقوطًا ولا مُشكلاً كما هو الحال اليوم، ولكنّ ضرورة التّمييز بين الحروف المتشابهة عندما تمّ تحويرها من الكوفي اليابس إلى مجموعة الخطوط جعل من الخطّاطين يعمدون إلى تنقيط الحروف وشكلها، ويُعدّ أبو الأسود الدّؤلي أوّل من نقّط الخطّ العربي في حين أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أوّل من شكله.[٤٥]

وينقسم الخطّ العربي إلى قسمين: الخطّ اليابس والخطّ الليّن، فأمّا فاليابس فهو الخطّ الكوفي الّذي اقتبسه الكوفيّون من الخطوط القديمة المستخدمة في العصر الجاهلي وحتّى العصر الأموي. وأمّا اللّيّن فهو أنواع: وأبرزها النّسخ والثّلث والفارسي والدّيواني والرّقعة والخطّ المغربي. وقد تفنّن الخطّاطون في اشتقاقها في الأقطار الّتي فتحها المسلمون، فالنّسخ والثّلث ظهرا في العراق وظهر الخطّ الفارسي في إيران والهند، والرّقعة والدّيواني في تركيا والخطّ المغربي في شمال أفريقيا والأندلس. وفيما يلي نماذج من هذه الخطوط عبر العصور:

١- الخطّ الكوفي: نسبة إلى الكوفة، وذكر القلقشندي نقلاً عن الشّاطبي أنّه يرجع إلى أصلين وهما التّقوير والبسط، أي اللّيّن والمزوي، وجاء في "علم الكتابة" للتّوحيدي أنّ قواعد الخطّ الكوفي في زمنه اثنتا عشرة قاعدة: **"الإسماعيلي والمكّي، والمدني والأندلسي، والشّامي والعراقي، والعبّاسي والبغدادي، والمُشعّب والرّيحاني، والمُجرّد والمصري".**(٤٦) وكلّ هذه التّسميات إقليميّة ليس بينها فروق وخصائص.
٢- الخطّ الفارسي: ظهر ببلاد فارس بعد الفتح الإسلامي:
٣- خطّ الرّقعة: نشأ هذا الخطّ في عهد السّلطان محمّد الفاتح، وهو يجمع بين حروف خطّ النّسخ والدّيواني الدّقيق القديم، وربّما كانت تسميته بالرّقعة نسبة إلى قلم الرّقعة الّذي كان يكتب به هذا النّوع من الخطوط.
٤- خط النّسخ: وسمّي بالنّسخ لأنّ الكتّاب كانوا ينسخون به المؤلّفات، وقد نشأ بالشّام:
٥- الخطّ الدّيواني: وهو الخطّ الّذي يختصّ بالكتابات الرسميّة في ديوان الدّولة العثمانيّة.
٦- خطّ الثلث: من الخطوط الصّعبة إذ لا يعتبر الخطّاط خطّاطًا إلّا إذا أتقنه، ويعبّر عنه بأمّ الخطوط، وسمّي بذلك لأنّ قلم الطّومار وهو أجلّ الأقلام مساحة، عرضه أربع وعشرون شعره، وقلم الثّلث منه بمقدار ثلثه وهو ثماني شعرات، ويستعمل لكتابة أسماء الكتب المؤلّفة، وأوائل سور القرآن الكريم، والحرف فيه يميل إلى التّقوير والإستدارة:
٧- الخطّ المغربي: هو سليل الخطّ الكوفي الدّيني اليابس المنقّط الّذي ظهر في مبدأ أمره في القيروان في أواخر العصر الأموي ثمّ انتشر في أرجاء شمال أفريقيا والأندلس وغرب أفريقيا.
٨- الخطّ الحديث: هو مجموع الخطوط الّتي اشتقّها الخطّاطون والمهتمّون بالفنون التّشكيليّة واستعملوها في تكوين لوحاتهم الفنيّة وفى عناوين الكتب والصّحف والمجلّات والإعلانات:

٥-القيم الجماليّة لفن الخطّ العربي

يُعدّ الخطّ العربي أكثر الخطوط تنوّعًا ومرونة وجماليّة وقابليّة للتطوّر والتّأقلم مع جميع الفضاءات وعلى كلّ الخامات تقريبا (رخام، حجارة، خزف، عاج، ذهب، فضّة، قماش، ورق..)، ولئن اقتصر هذا الفنّ في اللّحظات الأولى على تلك التّنويعات الّتي تجمع بين الخطّ والزّخرفة، إلاّ أنّه سرعان ما اندمج طيلة العصر الوسيط مع الرّسوم المنمنمة الّتي تحتوي على مخلوقات حيّة وبشريّة في الكتب المختلفة، على سبيل الشّرح والتّوضيح، أو لوحات مرافقة للقصص والمقامات، فكان الخطّ مرافقا ومكمّلاً لها. ولكنّ هذا الإحساس بالقيمة الفنيّة والجماليّة للخطّ العربي قد ازداد لمّا اقتحم الحرف عالم الفنون التّشكيليّة ليصير عنصرًا تشكيليّا مؤثّثا للّوحة المسنديّة أو غيرها أكسب العمل الفنّي قيما جماليّة، رمزيّة وتأمّليّة، وأبعادًا روحيّة وحضاريّة، تتخطّى الرّؤية البصريّة ولا تتوقّف عندها، فنجح الفنّان العربي والمسلم بذلك في استنباط أسلوب تشكيلي فريد من نوعه يعتمد بالأساس على توظيف الحروف العربيّة كعناصر تشكيليّة مستقلّة بذاتها، تتفاعل مع بقيّة العناصر داخل الفضاء ولكن لا تضمحلّ أو تفقد دورها أو تُفرغ من قيمتها الجماليّة.. ومن هنا يخرج الخطّ من إطاره الوظيفي المحض ليكتسب بعدًا جماليّا ينتشله من الجمود والجفاف ليلج به عالمًا جديدًا ملؤه الأشكال والألوان، فيه تتحوّل الكتابة إلى عنصر تشكيلي ويندمج الشّكل بالمضمون ليُعبّرا بوضوح عن قدرة الفنّان المسلم على صنع الجمال وأداء المعنى في كلّ عصر وبذلك أصبح الخطّ العربي قاسمًا مشتركًا لكلّ الفنون الإسلاميّة الّتي أعارها طابَعهُ الجمالي القائم على التّناسب بين الخطّ والنّقطة والزّخرفة بمُختلف أشكالها، وتحوّلت كتابة الخطّ العربي إلى آثار فنيّة منحت للمكتوب قداسة تكاد تُضاهي قداسة الصّوتي.

خَاتِمَةٌ

وهكذا نصل في آخر هذا البحث إلى القول بأنّ الخطّ قد خرج مع المسلمين من إطاره الوظيفي المحض ليكتسب بعدًا جماليّا ينتشله من الجمود والجفاف ليلج به عالمًا جديدًا ملؤه الأشكال والألوان، فيه تتحوّل الكتابة إلى عنصر تشكيلي ويندمج الشّكل بالمضمون ليُعبّرا بوضوح عن قدرة الفنّان المسلم على صنع الجمال وأداء المعنى في كلّ عصر وبذلك أصبح الخطّ العربي قاسمًا مشتركًا لكلّ الفنون الإسلاميّة الّتي أعارها طابَعهُ الجمالي القائم على التّناسب بين الخطّ والنّقطة والزّخرفة بمُختلف أشكالها، وتحوّلت كتابة الخطّ العربي إلى آثار فنيّة منحت **"للمكتوب قداسة تكاد تُضاهي قداسة الصّوتي، إذ القُرآن نزل خطابًا مسموعًا وظلّ إلى حدود فترة الخلفاء الرّاشدين يُتلى فحسب أو يُلقى شفويّا، لكن لمّا ظهرت الحاجة إلى تدوينه أخذت الكتابة تكتسب أهميّة كُبرى ذات طبيعة مُزدوجة فهي من ناحية سجلّ النصّ القُرآني ومحمله، وهي من جهة أخرى مجال للفنّ والمُمارسة الجماليّة".**(٤٧)

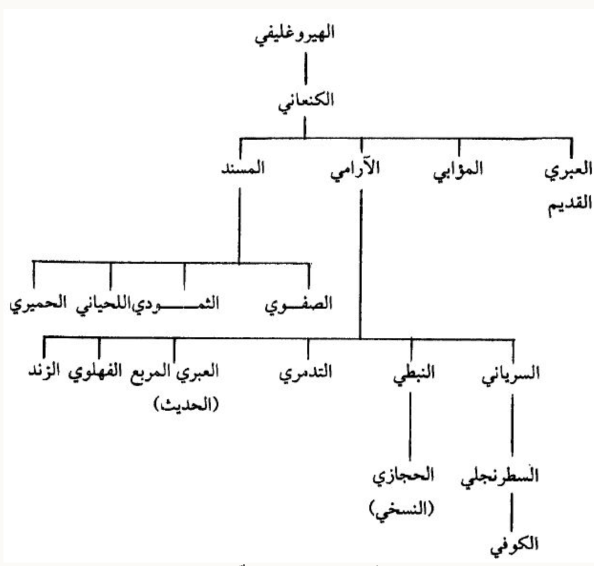
مقالات

وعلى الرّغم من أنّ العرب الأول قد برعوا في كتابة الخطوط وشرحها وتأليف كتب مستقلّة في بيان قواعد الكتابة وفي توضيح استخدام العلامات والحركات في تدعيم حضور الخطّ العربي في الحياة السياسيّة والثقافيّة والاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات الإسلاميّة، إلاّ أنّ تطوير نماذج الخطّ العربي وتشكيلاته لم يعد منذ القرن الثّاني الهجري (الثامن الميلادي) حكرًا على العرب وحدهم، بل هناك العديد من الشّعوب الإسلاميّة أضافت الكثير إلى الحرف العربي وسجّلت إبداعات رائدة وخطوات جبّارة، وساهمت بقدر كبير في انتشاره كالمغاربة والأتراك والفرس، كما أظهرت نماذج محليّة للخطّ العربي عند الأفارقة ومسلمي الصّين والقارّة الهنديّة مرونة الخطّ العربي وقابليّته غير المتناهية للتشكّل والتكيّف مع مختلف الثّقافات والبيئات الفنيّة، ولعبت هذه النّماذج أيضا دورًا حيويًا في تعزيز الإحساس بالقيمة الفنيّة والجماليّة للخطّ باعتباره مشروعًا حضاريًا وأسلوبًا فنيًا قائمًا بذاته، وليس فقط مجرّد كتابة وظيفيّة من ناحية، ثمّ في التّأكيد على كونيّة الحضارة الإسلاميّة وانفتاحها على الإنسانيّة جمعاء من ناحية ثانية.

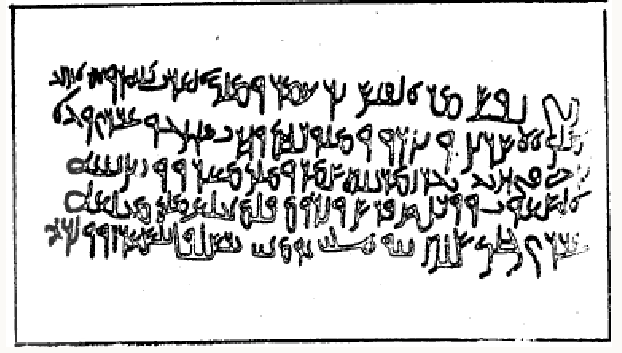
الملاحق (الأشكال)

	عربي مسند				
	صفوي	ثمودي	لحياني	سبأي	متصل
ا	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ب	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ت	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ث	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ج	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ح	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
خ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
د	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ذ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ر	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ز	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
س	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ش	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ص	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ض	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]
ط	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ظ	[illegible]			[illegible]	[illegible]
ع	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
غ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ف	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ق	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ك	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ل	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
م	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ن	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ه	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
و	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ي	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

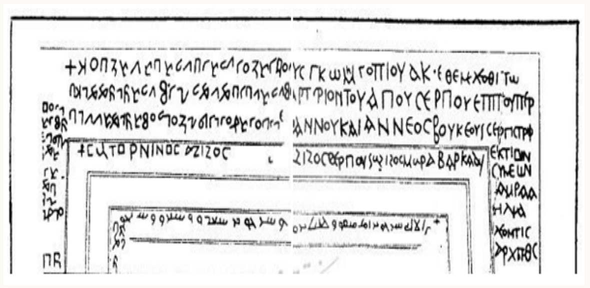
شكل (١) الخطوط المنبثقة عن خطّ المسند



شكل (٢) مراحل نشأة وتطوّر الخطّ العربي في جزيرة العرب



شكل رقم (٣) نقش النمارة النّبطي والمؤرّخ سنة ٣٢٨م وهو عبارة عن شاهد قبر الملك العربي امرؤ القيس بن عمرو وربّما يكون بن عدي ابن نصر أحد ملوك الحيرة. (ابن حبيب، المحبر، مطبعة جمعيّة دائرة المعارف العثمانيّة الدكن، ١٩٤٠، ص ٣٦٩).

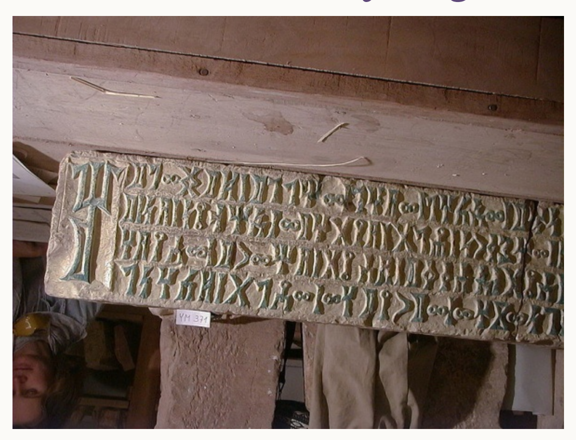


شكل رقم (٤) نقش زبد مؤرّخ سنة ٥١٢ ميلادي



شكل (٥) تطابق بعض حروف الخطّ العربي
مع حروف الخطّ النّبطي

الملاحق (الصور)







صورة رقم (١)
نقوش مختلفة بخطّ المسند الحميري



صورة (٢)
صفحة من مصحف بالكوفي المشرقي
بخطّ عثمان بن الحسين الوراق الغزنوي، إيران ٤٨٤هـ/١٠٩٢م،
مكتبة طوب قابي بإسطنبول





صورة رقم (٣)
نماذج من الخطّ الفارسي

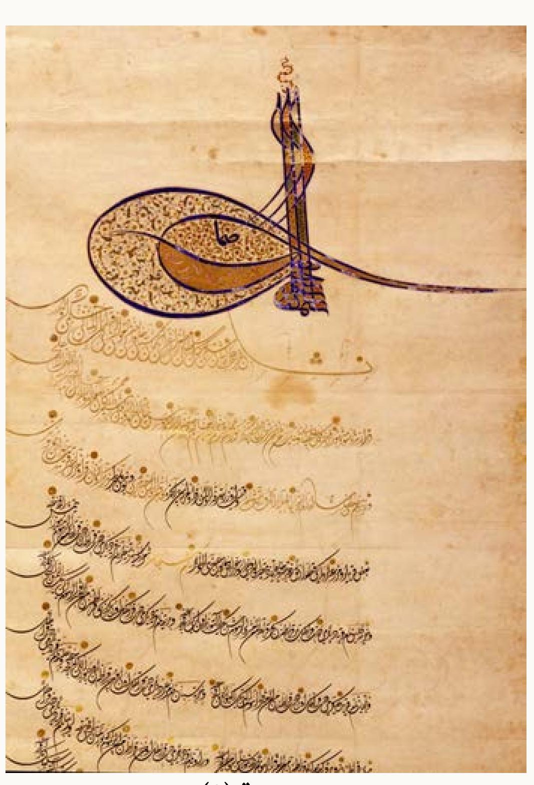
مقالات



صورة رقم (٤)
مصحف مزخرف ومذهب بخطّ النّسخ (٩٨٢هـ) للخطّاط الفارسي محمّد بن مطهر (تقي الدّين)، محفوظ في مكتبة تشستر بيتي برقم ١٥٣٤



صورة (٦)
مصحف مذهّب بخطّ الثّلث (٨٦٤هـ) للخطّاط عبد الله الطباخ الهروي، محفوظ في مكتبة تشستر بيتي برقم ١٤٩٩



صورة (٥)
فرمان عثماني بالخطّ الدّيواني ومزيّن بطغراء السّلطان سليم الثاني



صورة (٧)
صفحة قرآنيّة بالخطّ المغربي من الأندلس ٩هـ/١٤م

مقالات


تكن من الغافلين ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته
ويسبحونه سورة الانفال خمس وسبعون آية مدنية وله يسجدون
بسم الله الرحمن الرحيم
يسئلونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا
ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين انما المؤمنون
الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم اياته زادتهم ايمانا
وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون
اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق
كريم كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين

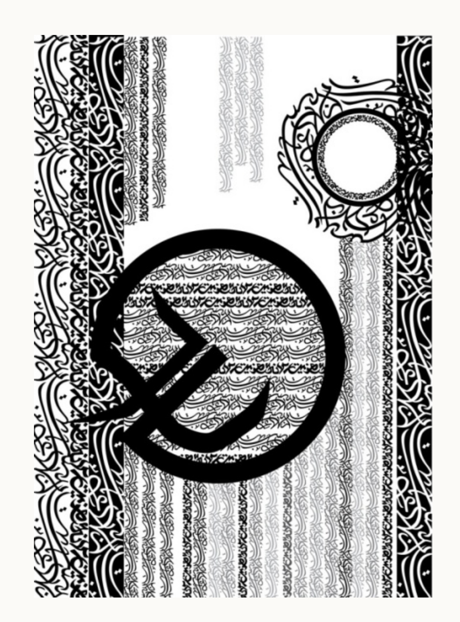
صورة (٨)
مصحف مذهّب بالخطّ المغربي المضبوط للخطّاط المصري محمّد بن أحمد جموع (١٠٤٤هـ)، محفوظ في المكتبة المركزيّة للمخطوطات الإسلاميّة في القاهرة

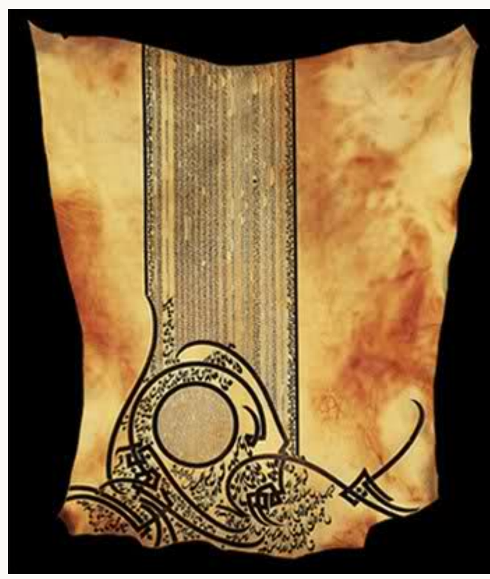


صورة رقم (٩) مثال من الخطّ الحديث


صورة رقم (١٠)
لوحة خطيّة للفنّان العراقي ضياء عزّاوي


صورة رقم (١١) نموذج من أعمال حسن شاكر آل سعيد




صورة (١٢)
بعض أعمال نجا المهداوي

الهَوامِشُ:

(١) الهوريني (أبو الوفا نصر الوفائي، ت ١٢٩١هـ/١٨٧٤م)، **المطالع النصريّة للمطالع المصريّة في الأصول الخطيّة**، تحقيق عبد الوهّاب محمود الكحلة، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠١/ بن قتيبة الدّينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت ٢٧٦هـ)، "**كتاب أدب الكاتب**"، تحقيق محمّد الدّالي، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٢.

(2) Abdul Kabir Khatibi and Mohammad Sejelmasi, the Splendour of Islamic Calligraphy, Thomas and Hudson: London, 1976, 20.

(٣) ابن منظور، **لسان العرب**، نفسه، مادّة خطط، ج٢، ص ١١٩٨.

(٤) الجاحظ، **الحيوان**، نفسه، ج١، ص ٦٣.

(٥) ابن الحاجب (جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر)، **متن الشافية، مجموع مهمات المتون**، ط ٤، ١٩٤٩، ص ٥٥١.

(٦) ابن خلدون، **المقدّمة**، تحقيق حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ١٠٥.

(٧) القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، المؤسّسة المصريّة العامّة، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميرية، مصر، د.ت، ج٣، ص ٨.

(٨) ابن النّديم، **الفهرست**، ص ١٦.

(٩) نفسه، نفس الصّفحة.

(١٠) نفسه، ص ١٣.

(١١) محمّد طاهر الكردي، **الخطّ العربي تاريخه وآدابه**، مكتبة الهلال، ط١، ١٩٣٩، ص ٧- ٨.

(١٢) نفسه، ص ٨.

(١٣) كمال عبد جاسم الصّالح الجميلي، أثر القرآن الكريم في الخطّ العربي، مجلّة **البحوث والدّراسات القرآنيّة**، بغداد، العدد التّاسع، ص ٣٠٣.

(١٤) الشّيخ شمس الدّين الأكفاني وهو طبيب باحث بالحكمة والرياضيات توفّي بالقاهرة في ٧٤٩هـ أنظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، نفسه، ج٣، ص ٧.

(١٥) ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر بيروت، ١٩٩٩، ج٥، مادّة "كَتَبَ"، ص ٣٨٦١.

(١٦) الرّاغب الأصفهاني (أبي القاسم الحسين بن محمّد)، **مفردات ألفاظ القرآن**، دار القلم، دمشق والدّار الشاميّة بيروت، ط١، ١٩٩١، ص ٦٩٩.

(١٧) ن.م، ن.ص.

(١٨) القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، نفسه، ج١، ص ٣٥.

(١٩) ابن النّديم، **الفهرست**، نفسه، مقدّمة المحقّق.

(٢٠) الهوريني (أبو الوفا نصر الوفائي، ت ١٢٩١هـ/١٨٧٤م)، **المطالع النصريّة للمطالع المصريّة في الأصول الخطيّة**، ص ١٣.

(٢١) شربل داغر، **مذاهب الحسن: قراءة معجميّة تاريخيّة للفنون العربية**، المركز الثّقافي العربي، بيروت، لبنان، ص ٣٣٧.

(٢٢) ابن خلدون، **المقدّمة**، دار القلم، بيروت، ١٨٩١، ط٤، ص ٤٢٠.

(٢٣) نفسه، نفس الصّفحة.

(٢٤) انظر أيضًا محمّد الهادي دحمان، الخطّ العربي في السّياق الخلدوني، مقال في مؤلّف جماعي بعنوان "**الخطّ العربي بين العبارة التّشكيليّة والمنظومات التواصليّة**"، نفسه، ص ٢٥.

(٢٥) فريد نان توتل، **المنجد في الأدب والأعلام**، المطبعة الكثوليكيّة، بيروت، ١٩٥٦، ص ٤٠٠.

(٢٦) ناصر الدّين الأسد، **مصادر الشّعر الجاهلي**، ص ٦٧.

(٢٧) نفسه، ص ٦٦-٦٧-٦٩-٧٣.

(٢٨) صلاح الدّين المنجد، **دراسات في تاريخ الخطّ العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي**، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٢، ص ٢٣.

(٢٩) عبد العزيز الدّالي، **الخطاطة الكتابيّة العربيّة**، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩، ص ٤٢.

(٣٠) تعود أقدم الكتابات التدمريّة إلى القرن الأوّل قبل الميلاد وتمتدّ تاريخها إلى القرن الثّالث الميلادي، لمزيد من التّفصيل تُمكن العودة إلى ولفنسون إسرائيل، **تاريخ اللّغات السّامية**، مطبعة الاعتماد بمصر، ط١، ١٩٢٧، ص ١٢٨.

(٣١) اشتقّ الأنباط الخطّ النّبطي من الخطّ الآرامي، وعلى الرّغم من تطوّره النّسبي منذ أواخر القرن الثّاني قبل الميلاد، إلاّ أنّه لم يأخذ طابعه المميّز إلاّ في القرن الأوّل قبل الميلاد.

Diringer (D), op. cit, pp 136-140.

(٣٢) علي جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النّهضة، بغداد، ط١، ١٩٦٩، ص ١٥.

(٣٣) الخطّ الآرامي وهو أحد الفروع الرئيسيّة للخطّ السّامي الشّمالي، وقد انحدر عنه في أواخر القرن العاشر أو أوائل القرن التّاسع قبل الميلاد. تُمكن العودة إلى:

Diringer (D), *The Alphabet*, London, 1968, VOL I, p 198

(٣٤) بن هشام (أبو محمّد عبد الملك)، **سيرة النبيّ**ﷺ، مراجعة وضبط وتعليق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار الطّلائع للنّشر والتّوزيع والتّصدير، القاهرة، ج١، ص ٢٠٧. المسعودي، **مروج الذّهب ومعادن الجوهر**، مطبعة السّعادة، مصر، ١٩٤٩، ج١، ص ٢٠٧/ ابن عبد ربّه، **العقد الفريد**، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، ١٩٤٧، ج٤، ص ١٥٦.

(٣٥) علي جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج٧، ص ٥٥.

(٣٦) القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، نفسه، ج٣، ص ١٤.

(٣٧) ابن النّديم، **الفهرست**، نفسه، ص ٦.

(٣٨) غانم قدوري الحمد، **علم الكتابة العربية**، دار عمار للنّشر والتّوزيع، الأردن، ٢٠٠٤.

(٣٩) غانم قدوري الحمد، **الكتابة العربية**، نفسه.

(٤٠) إبراهيم جمعة، **دراسة في تطوّر الكتابات الكوفيّة**، دار الفكر العربي، ص ١٧.

(٤١) سهيلة الجبوري، **أصل الخطّ العربي وتطوّره حتّى نهاية العصر الأموي**، مطبعة الأديب، بغداد، ١٩٧٠، ص ٤٨.

(42) Abbott Nabia, The Rise of the North Arabic Script and its kuranic Development with a full Discription of the Kuran Manuscripts in the Sriental Institute, Chicago, 1938, p 8-9.

(٤٣) علي جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، نفسه، ص ٦٧-٦٨/ نيلسن وداتليف وآخرون، **التّاريخ العربي القديم**، ترجمة حسين علي وزكي محمّد حسن، مطبعة النّهضة المصريّة، ١٩٥٨، ص ٣٨.

(٤٤) لم يكن الخطّ العربي في بداياته منقوطا ولا مُشكلا كما هو الحال اليوم، ولكنّ ضرورة التّمييز بين الحروف المتشابهة عندما تمّ تحويرها من الكوفي اليابس إلى مجموعة الخطوط جعل من الخطّاطين يعمدون إلى تنقيط الحروف وشكلها، ويُعدّ أبو الأسود الدّؤلي أوّل من نقّط الخطّ العربي في حين أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أوّل من شكله. فخري النّجار، **الخليل بن أحمد الفراهيدي، آراء وإنجازات لغويّة**، دار صفا للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠٨/ أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم، **معجم القراءات القرآنية**، مطبعة جامعة الكويت، ١٩٨٨، ص ٥١.

(٤٥) أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم، **معجم القراءات القرآنية**، مطبعة جامعة الكويت، ١٩٨٨، ص ٥١.

(٤٦) ناجي زين الدّين المصرف، **بدائع الخطّ العربي**، مؤسّسة رمزي للطّباعة والفنون، بغداد، ١٩٨٢، ص ٣٣.

(٤٧) فريد الزّاهي، **الجسد والصّورة والمُقدّس في الإسلام**، نفسه، ص ١٣٣.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

المستشرقون الألمان والتراث العربي الإسلامي المخطوط
بين التحقيق والتلفيق



د. عولمي الربيع
أستاذ مساعد التاريخ القديم والآثار
قسم التاريخ وعلم الآثار
جامعة باتنة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

يكتسي موضوع الاستشراق والمستشرقين في الوقت الراهن أهمية بالغة في الوطن العربي والإسلامي، وقد احتد النقاش حول هذا الموضوع بين الباحثين والمهتمين واتخذ أحيانًا طابعًا انفعاليًا ومازال يكتنفه الكثير من الغموض حتى الآن، وعندما نتكلم عن الاستشراق والمستشرقين فإننا نتكلم عن مدرسة أكاديمية تقوم على دراسة ثقافة وحضارة أخرى، بمعنى أننا نتكلم عن الغرب ودراساته للشرق. والاستشراق Orientalism تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل مَنْ يبحث في أمور الشرق بمفهومه الجغرافي والحضاري وثقافته وتاريخه، ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يهتم بالدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، التي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته، وقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة، وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة، معبرًا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري المحتدم بين الشرق والغرب.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٧ فبراير ٢٠١٦
تاريخ قبـول النشـر: ١٩ مايو ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
الاستشراق، المخطوطات، التراث العربي، تحقيق المخطوطات، المستشرقون الألمان

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052954

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
عولمي الربيع. "المستشرقون الألمان والتراث العربي الإسلامي المخطوط: بين التحقيق والتلفيق".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص ٢٠ – ٣٠.

مُقَدِّمَةُ

تتميز مكانة المخطوطات من كونها جزءًا هامًا من التراث العربي الإسلامي الذي قامت عليه الحضارة العربية الإسلامية، ودراستها تدفع إلى التعرف على أسباب النهوض وعوامله والتطور والإبداع عند العرب المسلمين، وتلمس الطريق الذي سلكه الأقدمون في مسيرة البناء الحضاري. لقد أصبحت المخطوطات محل اهتمام عدد كبير من المستشرقين، نظرًا لقيمتها العلمية والفنية، فضلا عن كونها جزءًا مهما من التراث العربي الإسلامي العريق. إن الاطلاع على الاستشراق ومناهج المستشرقين وأعمالهم يعدُ ضرورة ملحة لكل باحث متخصص، يطلع على الساحة الثقافية التي يتعامل معها، وبالخلفية الفكرية للصراع الحضاري مع الآخر، كما أن أعمال المستشرقين تنبع من بيئات مختلفة، وثقافات متعدّدة، ولذا يظهر التباين جليًّا بين تلك الأعمال. وانطلاقًا من هذا المفهوم وقع اختيارنا على المدرسة الألمانية كنموذج للمستشرقين في معرفة أعمال المستشرقين الألمان، وجهودهم في خدمة التراث العربي الإسلامي المخطوط.

أولاً: بداية ظهور الاستشراق

يتصدى الباحث في الاستشراق والمستشرقين إلى مدرسة أكاديمية تقوم على دراسة ثقافة وحضارة أخرى، بمعنى اهتمام الغرب بدراسة الشرق. والاستشراق (Orientalism) مصطلح يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل من يبحث في أمور الشرق بمفهومه الجغرافي والحضاري وثقافته وتاريخه. ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يهتم بالدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، التي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته. وقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة، وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة، معبرًا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري المحتدم بين الشرق والغرب.[1]

وإذا كان المستشرقون (Orientalists) هم جماعة من علماء الغرب، تخصصوا في لغات الشرق وعنوا بالبحث فيها، وتخصصوا في دارسة اللغة العربية، والحضارة العربية وبقضايا العالم العربي وبالدين الإسلامي.[2] فإن رؤيتنا للاستشراق مغايرة لمقولة " كراتشكوفسكي" (Kratchkovsky)" الشهيرة: «الشرق أم روما.[3] ومناقضة لمبدأ "روديارد كيبلنغ"[4] (Rudyard Kipling)» الشرق شرق والغرب غرب وهيهات أن يلتقيا» ولا تنسجم مع مفهوم الاستشراق الذي طرحه د. "إدوارد سعيد" في كتابه الشهير "الاستشراق" إذ اعتبر أن الاستشراق:» أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه. وبأن الاستشراق قد شكل الحضارة الشرقية في كوكبة من الأفكار "الشرقية" كالاضطهاد، والأبهة الشرقية، القسوة الشرقية، والحواسية الشرقية.[5]

لقد تباينت آراء الباحثين والمؤرخين حول تحديد بداية الاستشراق، فالبعض يرجعه إلى القرن العاشر أي إلى عصر الراهب الفرنسي "جربير دي أورياك" (de Aurillac)[6] المعروف بالبابا سلفستر الثاني، وهو البابا الوحيد الذي تعلم العربية وأتقن العلوم عند العرب وعلى أيدي العرب في إسبانيا.[7] وبعض الآخر أرجعه إلى القرن الثاني عشر. وقد ظهر مفهوم الاستشراق في أوربا في نهاية القرن الثامن عشر، بدء بإنجلترا سنة ١٧٧٩م، ثم فرنسا سنة ١٧٩٥م.[8] وفي سنة ١٨٣٨م أدرج الاستشراق في قاموس الأكاديمية الفرنسية.[9] ويُعدُّ القرنان التاسع عشر ـ الميلادي والعشرين عصرا الازدهار الحقيقي للحركة الاستشراقية.

وفي هذا السياق قام المستشرقون بإنشاء جمعيات للدراسات الاستشراقية في مختلف بلدان أوربا وأمريكا خلال القرن التاسع عشر ـ الميلادي، فتأسست الجمعية الآسيوية في باريس سنة ١٨٢٢م، ثم الجمعية الملكية الآسيوية في بريطانيا، وإيرلندا سنة ١٨٢٣م، والجمعية الشرقية الأمريكية سنة ١٨٤٢م، والجمعية الشرقية الألمانية سنة ١٨٤٥م.[10] وكان المستشرق النمساوي "فون هامر بيرغشتال" (Von Hammer Purgstall)[11] غزير الإنتاج فأصدر أول مجلة استشراقية باسم "كنوز الشرق" Fundgruben des Orients في فيينا خلال الفترة (١٨٠٨-١٨١٨م)، في ستة مجلدات وجعل شعارها الآية ١٤٢ من سورة البقرة:» قل لله المشرق والمغرب«[12] وفي سنة ١٨٩٥م ظهرت في باريس "مجلة الإسلام" الاستشراقية. وأصدرت البعثة العلمية الفرنسية في المغرب "مجلة العالم الإسلامي" في سنة ١٩٠٦م، ثم تحوّلت هذه المجلة إلى "مجلة الدراسات الإسلامية". وفي سنة ١٩١٠م ظهرت "مجلة الإسلام" الألمانية. وظهرت "مجلة العالم الإسلامي" الأمريكية برئاسة القس زويمر[13] (S. Zwemer) رئيس المبشرين في الشرق الأوسط في سنة ١٩١١م. وظهرت "مجلة عالم الإسلام " الروسية في سنة ١٩١٢م. وشهد القرن التاسع عشر ـ انعقاد عدة مؤتمرات دولية استشراقية. حيث عقد في باريس أول مؤتمر دولي استشراقي في سنة ١٨٧٣م، ثم توالى عقد عديد المؤتمرات الاستشراقية في أواخر القرن ١٩م.[14]

وبوصفه مؤسسة فكرية فقد تأسس الاستشراق بعد أن فشلت الحروب الصليبية، وتعززت قناعة رجال السياسة والكنيسة في الغرب، بأن العالم الإسلامي لا يمكن إخضاعه بالقوة. فلجأوا إلى أسلوب دراسة أحوال المسلمين، لتسهل السيطرة عليهم، واحتواء الإسلام بوصفه دينا وعقيدة. ومن ثم يمكن اختراق العالم الإسلامي وإحكام السيطرة عليه. فكان المشروع الاستشراقي نابعًا من العلاقة بين الكنيسة والسلطة في الغرب، فتأسست المعاهد، ومراكز الدراسات والبحوث لتشكل خلايا تخدم غرضًا واحدًا هو ضمان استمرار سيطرة الغرب على الشرق.[15]

والحقيقة أن دور المستشرقين جاء من هنا-وهم بوابة المنصرّين-، ومع هذا تظل دراسات المستشرقين يحكمها الدافع التنصيري، أو الاستشراقي، وهذه الدوافع كلها لا قيمة لها إذا ما قورنت بدافع العقيدة الذي يربط المسلم بتراثه، حتى ولو كان مفرطًا في حقه. وسجل المستشرق الإيطالي الأمير" ليون كايتاني"[16] (*Leone Caetani*) اعترافًا صريحًا حيث كان يبحث عن سر "المصيبة الإسلامية" التي انتزعت من الدين المسيحي الملايين من الأتباع في شتى أنحاء المعمورة.

وقد توجهت هجمات المستشرقين إلى المخطوط العربي، فقد ذكر محمود المقداد الهدف من جمعهم المخطوطات قائلاً: «وهكذا حاول الفرنسيون أن يتعرفوا على أخلاق العرب، والشرقيين، وعاداتهم، وتقاليدهم، وما لهم من معارف وثقافات. لهذا اتجه الغربيون عامة، والفرنسيون خاصة إلى جمع أعداد من المخطوطات. وقد جُنِّد لهذا الغرض رهبان، ومبشرون، وتجار، وجواسيس، ودبلوماسيون، وسفراء في العالم العربي والإسلامي، ورحَّالة، وسوّاح، ومستعربون، كُلِّفوا خصيصًا بهذا العمل».[17]

ويؤكد جون مول (John Mole) في سنة ١٨٤١م هدف المستشرقين قائلاً: "مهما كررنا وأعدنا فإننا لا نكرر بما فيه الكفاية أن طبع المخطوطات الشرقية الأهم هو الحاجة الأكبر، والأكثر ضغطًا وإلحاحًا بالنسبة لدراساتنا، وبعد أن يكون العمل النقدي للعلماء قد مرّ على الأدبيات الشرقية، وبعد أن تكون الطباعة قد سهلت عملية تداول الكتب، بعد ذلك فقط يمكن للعقل الأوروبي أن ينفذ فعلاً إلى أعماق الشرق." ومن جهته يؤكد المستشرق الروسي[18] "كراتشكوفسكي" (Kratchkovsky) أهداف المستشرقين من تلك البعثات قائلاً: "يتاح للمستعرب القيام باكتشافات كثيرة، ولعله يلقى منها على طريقة أكثر مما يلقى الباحثون في المجالات العلمية الأخرى التي هي أعمق تنقيبًا، وتستدعي عددًا أكبر من الباحثين ولا داعي للتفكير في أن هذه الاكتشافات لا ترتبط إلا بالمخطوطات".[19]

ثانيًا: المستشرقون الألمان

١/٢-الاستشراق الألماني

برز الاستشراق الألماني إلى الوجود في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي عندما اتجه عدد من الألمان إلى هولندا، فتعلموا اللغات

الشرقية، ولما عادوا إلى بلادهم، علموها في جامعاتهم، وأخرجوها من نطاق التوراة إلى ميدان الثقافة العامة. وكان العلماء الألمان قد شاركوا في الدراسات العربية اشتراكًا فعليًا بعد أن توغل الأتراك في قلب أوربا، وبدأت أوربا تهتم بدراسة لغات العالم الإسلامي لأسباب سياسية، واهتم أمراء العالم المسيحي بشراء المخطوطات الشرقية لبناء دعامة في دراسة تلك اللغات، وقد قام المستشرق "كريستمان جاكوب"[20] Christmann Jakob (١٥٥٤-١٦١٣م) بأول محاولة في ألمانيا لتدريس اللغة العربية ونشرها، ووضع فهرسًا مختصرًا لمجموعة من المخطوطات اقتناها أحد النبلاء الألمان. وألف أيضا كتيبا لتعليم الحروف العربية، وجمع بعض آيات الإنجيل المترجمة إلى العربية للتمرن على القراءة، بل إنه أعد بنفسه الحروف العربية في قوالب من الخشب للمطبعة.

وتشير المصادر على أن بداية علاقة الألمان بالعالم الشرقي كانت في بداية سنة 1633م حين أرسل" الدوق فريدريك الثالث" Frederick III دوق شليرفيج هولشتاين وجوتروب أثناء حرب الثلاثين مجموعة تتكون من أربعة وثلاثين رجلاً إلى فارس وروسيا كي تتحالف مع الإمبراطور بفارس ضد الأتراك ودامت الرحلة خمسة أعوام، ولكنها لم تحقق الغرض المرجو منها. وإن كانت أدت إلى إقامة جسر ثقافي عبرت عليه أوربا والألمان بخاصة إلى الحضارة الشرقية. وقد ساعدت النهضة الفكرية في أوربا خلال القرنين السابع عشر الميلادي والثامن عشر الميلادي في تحرير دراسة اللغة العربية من كل قيد، وفي مقدمتهم في هذا المجال "جاكوب ريسكه" J.Reiske (١٧١٦-١٧٧٤م) أول مستشرق ألماني وقف حياته على دراسة اللغة العربية في جامعة لايبزغ Leipzig، و"غرهارت تيخسن" O.G.Tychsen[21] (١٧٣٤-١٨١٥م) في جامعة روستوك Rostock. ولما اتصلت ألمانيا بالشرق سياسيا وتجاريا تشبهت بالنمسا وفرنسا، وأنشأت على غرارهما مدرسة للغات الشرقية في برلين سنة ١٨٨٧م وجمعت مخطوطاتها في مكتباتها. وفضلاً عن ذلك فقد قام المستشرقين الألمان بتأسيس الجمعيات والمكتبات، وإصدار المجلات، فمن الجمعيات والمجلات نذكر:

١-الجمعية الألمانية للدراسات الإسلامية، التي أسسها "مارتن هارتمان" [22] *Martin Hartmann* (١٨٥١-١٩١٨م)، وأصدر لها مجلة "عالم الإسلام" سنة ١٩١٣م.

2-الجمعية الشرقية الألمانية التي أسسها "فلايشر" *Heinrich leberecht Fleischer* (١٨٠١-١٨٨٨م) في مدينة هالة سنة ١٨٤٥م.

٣-المجلة الشرقية الألمانية وكان تأسيسها في مدينة فيسبادن *Fesbaden* سنة ١٨٤٧م.

٤-مجلة الإسلام، وقد أنشأها الوزير"كارل هينريك بيكر" [23] *Karl Heinrich Bekker* (١٨٧٦-١٩٣٣م) لصالح الجمعية الشرقية الألمانية سنة ١٩٢٠م.

٥-مجلة" إسلاميكا" (إسلاميات)، أنشأها"أ. فيشر"[24] *A.Fischer* بمدينة لايبزغ *Leipzig* في ١٩٢٠م.

إن أهم ما يميز الاستشراق الألماني عدم ارتباطه بالاستعمار- كما هو الحال في إنجلترا وفرنسا هولندا-أو يرتبط بأهداف دينية تنصيرية كسواه، لذلك امتاز بالموضوعية والعمق، **والمتتبع لحركة هذا الاستشراق يلاحظ أنه اختص بميزات واضحة وهي:**

١-أنه لم يخضع لغايات سياسية أو استعمارية أو دينية كالاستشراق في بلدان أوربية أخرى. فألمانيا لم يتح لها أن تستعمر البلاد العربية أو الإسلامية، ولم تهتم بنشر الدين المسيحي في الشرق. لذلك لم تؤثر هذه الأهداف في دراسات المستشرقين الألمان، وظلت محافظة في الأغلب على التجرد غالبًا والروح العلمية على وجه الخصوص. وإذا ظهر في بعض الدراسات الإستشراقية الألمانية بعض الانحراف في الرأي أو الخطأ فهذا أمر لا يمكن تعميمه في الدراسات كلها.

٢- لم تتصف دراسات المستشرقين الألمان عن العرب والإسلام والحضارة الإسلامية – العربية في الغالب بروح عدائية بالرغم من وجود بعض المستشرقين الألمان الذين أتوا بآراء لا توافق العرب والمسلمين أو بآراء خاطئة تماما كبعض آراء تيودور نولدكه *T.Noeldeke* شيخ المستشرقين الألمان عن الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، أو آراء جوهان فولرز [٢٥] *J.Vullers* عن القرآن الكريم وتهذيبه، لكن نلاحظ أن هذه الآراء كانت معدودة ، فالاستشراق الألماني لم يعرف مستشرقين ناصبوا الإسلام العداء وتعمدوا الدس والتشويه في دراساتهم، بل اتسمت تلك الدراسات بروح الإعجاب والإنصاف، ونجد هذه الروح عند "جاكوب ريسكه" *J.Reiske* الذي سمى نفسه "شهيد الأدب العربي". ونجدها أيضًا عند" جورج جاكوب" *George Jacob* (١٨٦٢-١٩٣٧م) في كتابه "أثر الشرق في العصر الوسيط".

٣- كانت للمستشرقين الألمان علاقات طيبة مع الدولة العثمانية وهذا ما نستشفه من خلال دراسة تاريخ ألمانيا وعلاقاتها بالعالم الإسلامي.

والباحث في الإستشراق الألماني يستنتج أن المستشرقين الألمان اتسمت أنشطتهم الإستشراقية بالعلمية والموضوعية، وهذا لا يعني أن الأمر ينطبق على كل المستشرقين وأن الإستشراق الألماني خال من الطعن والتلفيق والإفتراء على الإسلام. فقد ورد في كتاب " تاريخ الشعوب الإسلامية" لكارل بروكلمان *Carl Brockelmann* الكثير من المغالطات والإفتراءات على الإسلام وعلى نبوة النبي محمد (ص)، مقارنة بكتابه " تاريخ الأدب العربي" الذي نال شهرة كبيرة.

صفوة القول إن الاستشراق الألماني لم يخضع لأهداف سياسية ودينية استعمارية بسبب عدم تورط ألمانيا بالاستعمار، وقد عكف الألمان على الاهتمام بالآثار والآداب والفنون، واتسمت دراساتهم بالروح العلمية والموضوعية، ولعل مرد ذلك إلى خصال الألمان الذين جبلوا على الدقة والصبر والأمانة العلمية.

٢/٢-أبرز المستشرقين الألمان في مجال المخطوطات

لمعت أسماء عديدة من المستشرقين الألمان الذين اهتموا بالمخطوطات، حتى صاروا مراجع لكثير من الباحثين في الشرق والغرب، ونظرا لكثرتهم فقد اقتصرنا على ذكر البعض منهم:

١- "يوهان جاكوب ريسكه" [٢٦] *Johann Jakob Reiske* (١٧١٦-١٧٧٤م): مستشرق ألماني من الرعيل الأول وعالم باليونانيات، يعد مؤسس الدراسات العربية في ألمانيا حيث بدأ بتعلم العربية، درس في جامعة لايبزغ *Leipzig* وانتقل إلى جامعة ليدن *Leyde* لدراسة اللغة العربية، ثم عُني بدراسة المخطوطات العربية والحضارة الإسلامية، ومن أقواله المشهورة عن المخطوطات قوله: "**ليس عندي أولاد، ولكن أولادي يتامى بدون أب، وأعني بهم المخطوطات**". ويُعَدّ أول من نشر معلقة طرفة بن العبد مع ترجمتها إلى اللغة اللاتينية سنة ١٧٤٢م. كما نشر بالعربية بالاشتراك مع أدلر[٢٧] تاريخ أبي الفداء "المختصر في أخبار البشر" مع ترجمة إلى اللاتينية.[٢٨]

٢- "هنري فردينالد وستنفلد" [٢٩] *(H.F.Wustenfeld)* (١٨٠٨-١٨٩٩م): ولد وستنفلد في مندن *(Munden)* بمقاطعة هانوفر وتعلم بها ثم في برلين. عُين أستاذًا للعربية في غوطا *(Gotha)* يعتبر من أبرز المستشرقين الألمان الذين اهتموا بدراسة اللغات الشرقية، حتى أصبح أستاذا للغة العربية، ومؤلفاته باللغة العربية شكلت مكتبة واسعة تزيد عن مائتي مؤلف. وقد أدى للعلوم الشرقية خدمة ذات قيمة علمية كبيرة بما نشره من المصنفات القديمة، ومن أهمها: "آثار البلاد" للقزويني، و"أخبار قبط مصر" للمقريزي. و«معجم ما استعجم» للبكري، و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي، و«تواريخ مكة المشرفة» للأزرقي والفاكهي والفاسي وابن ظهيرة وغيرهم، و«السيرة» لابن هشام، و«تاريخ مدينة الرسول» للسمهودي، و«اللباب في تهذيب الأنساب»، و«طبقات الحفاظ» للذهبي، و«الاشتقاق» لابن دريد، و«مختلف القبائل ومؤتلفها» لابن حبيب، و«المعارف» لابن قتيبة، و«المشترك وضعًا» و«معجم البلدان» لياقوت الحموي، وكف بصره في أواخر أعوامه ومات في هانوفر.[٣٠]

٣-تيودور نولدكه [٣١] *Theodore Noldeke* (١٨٣٦-١٩٣٠م): شيخ المستشرقين الألمان، درس اللغة العربية في هامبورغ، كما درس في جامعة لايبزغ وفيينا وليدن وبرلين. انصرف إلى اللغات الساميّة والتاريخ الإسلامي فعُين أستاذًا لهما في جامعة جوتنجن *Gottingen* (سنة ١٨٦١م) فجامعة كيل (١٨٦٤م) ثم في جامعة ستراسبورغ (١٨٧٢م) ومات في كارلسروه *(Karlsruhe)*، ومن أهم مؤلفاته: «حياة النبي محمد» و"**تاريخ القرآن**" نشره سنة ١٨٦٠م وهو رسالة دكتوراه، تناول فيها ترتيب سور القرآن الكريم، وحاول أن يجعل لها ترتيبًا ابتدعه. له كتب بالألمانية عن العرب وتاريخهم، واهتم بالشعر الجاهلي وبقواعد اللغة العربية وأصدر كتابًا بعنوان "**مختارات من الشعر العربي**"، و«النحو العربي» و«خمس معلقات» ترجمها إلى الألمانية وشرحها. ونشر في مجلات الغرب وموسوعاته بحوثًا كثيرة، منها رسالة في «أمراء غسان» ترجمها إلى العربية بندلي جوزي وقسطنطين زريق. واشترك في الإشراف على طبع «تاريخ الطبري» وترجمته إلى الألمانية. قال الأب أنستاس الكرملي: لم نجد بين حملة العلم المعاصرين من بلغ تحقيقه. كان يحسن اللغات الشرقية كلها كالعربية والأرامية والعبرية والصابئية والحبشية وغيرها. وله تصحيحات وتحقيقات في هذه الألسنة فضلاً عن معرفته بلغات الغرب كاليونانية واللاتينية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية والإسبانية ولغته الألمانية.

٤- يوليوس ولهوسن [٣٢] *Jullius Wellhausen* (١٨٤٤-١٩١٨م): ولد في "هاملن" *Hamelin* (وستفاليا)، درس علم اللاهوت في جامعة غوتنغن، وبحلول عام ١٨٧٠م مارس تأثيرا عميقا على الدراسة الفقهية للعهد القديم (التوراة). مؤسس مدرسة النقد الجذري للكتاب المقدس. تخصص في دراسة التاريخ الإسلامي والفرق الإسلامية، فألف الكتاب الشهير "المملكة العربية وسقوطها"، الذي أثّر على الكتابة التاريخية العربية تأثيرًا كبيرًا في مسائل عدة، الأولى: اعتبار الصراع الأبرز في الدولة العربية الأولى صراعًا قوميًا بين العرب والعجم، وتحديده للحقبة المبكرة أو العصر العربي للدولة الإسلامية ما بين ٦٣٢م و٧٥٠م، تاريخ سقوط الدولة الأموية. والأمر الثاني: منهجي وهو استناده إلى تاريخ الطبري ونصوصه المنقولة عن مصادر أقدم، ويركز الكاتب على أهمية المسألة المنهجية. فتاريخ الطبري نشره "دي گويه" وزملاؤه وتلامذته في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وقد اطلع ولهوسن على بعض أجزاء النص مخطوط، لأنه استخدمه في دراسات سابقة. وكان المؤرخون من بين المستشرقين اعتادوا الرجوع إلى مصادر متأخرة مثل ابن الأثير وابن كثير لأنها عُرفت أولاً. لذلك كان مهمًا من جانب ولهوسن الاهتمام بقِدم المصدر ثم بتحليل تركيبه الكتابي.

٥-كارل بروكلمان [٣٣] *Carl Brockelmann* (١٨٦٨-١٩٥٦م): بدأ دراسة اللغة العربية وهو في المرحلة الثانوية، ودرس في الجامعة فضلا عن اللغات الشرقية اللغات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية)، ودرس على يدي المستشرق نولدكه *Noldeke*. نال شهادة الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت، عُني بدراسة التاريخ الإسلامي، من أشهر مؤلفاته: " تاريخ الشعوب الإسلامية"، لكنه مليء بالمغالطات والافتراءات على الإسلام، و"تاريخ الأدب العربي" الذي ترجم في ستة مجلدات، وفيه رصد لما كتب في اللغة العربية في العلوم المختلفة من مخطوطات، ووصفها وبيّن مكان وجودها. وحقق المجلد الثامن من طبقات ابن سعد، وصنف فهرس المخطوطات الشرقية في هامبورغ.

وإن نحن ألقينا نظرة متفحصة على فهارس المخطوطات العربية التي أحصاها المستشرق الألماني كارل بروكلمان *C. Brockelmann,* في مطلع الجزء الأول من كتابه الضخم الهام "تاريخ الأدب العربي" فإننا سنقف مدهوشين إزاء اتساع دائرة انتشار المخطوطات العربية في الغالبية العظمى من كبريات المكتبات المعروفة في العالم المتحضر بالإضافة إلى غزارتها

الملحوظة لدى المتتبعين. ويدل هذا العدد الكبير من الفهارس في ثبت بروكلمان-وقد أصبح اليوم قديما نوعا ما بالنسبة إلى ما استجد من فهارس المكتبات أو المخطوطات لم يدركها بروكلمان نفسه ولم يطلع عليها-على ضخامة التراث العربي المخطوط الذي يقف وراءها.[٣٤]

٦-هلموت ريتر[٣٥] *Hellmut Ritter* (١٨٩٢-١٩٧١م): ولد في27 فيفري ١٨٩٢م، درس على يد المستشرق الألماني هينريتش بيكر، عمل في الجيش الألماني وعاش في إسطنبول بتركيا في الفترة (١٩٢٧-١٩٤٩م) مما أتاح له الفرصة للاطلاع على ما في مكتبات تركيا من كنوز المخطوطات الإسلامية. وله تحقيقات مهمة من أبرزها: "مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري"، الوافي بالوفيات، فرق الشيعة للحسن بن موسى النوبختي، أسرار البلاغة للجرجاني، أسس المكتبة الإسلامية بألمانيا سنة ١٩١٨م للعناية بحفظ ونشر المخطوطات الإسلامية، كما أسس مجلة أوريانس "الشرق" (*Oriens*) سنة ١٩٤٨م.

٧- جوسيف شاخت[٣٦] *Josef Schacht* (١٩٠٢-١٩٦٩م): ولد شاخت في مدينة راتيبور الواقعة في ألمانيا (حالياً بولندا) في 15مارس ١٩٠٢م، حاز على شهادة الدكتوراه من جامعة بريسلاو وانتقل بعدها للعمل في جامعة لايبزغ ثم في جامعة فرايبورغ الشهيرة. درس اللغات الشرقية في جامعة بريسلاو، انتدب للعمل في جامعة القاهرة كأستاذ زائر في ١٩٣٩م لتدريس مادة فقه اللغة العربية واللغة السريانية. شارك في هيئة تحرير دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الثانية. يعتبر شاخت من أكثر الوجوه الإشكالية في مجال الدراسات الإسلامية. رغم إتقانه اللغة العربية وسفره إلى عدد كبير من العواصم والمدن العربية والإسلامية كالقاهرة والجزائر وفاس وتونس وإسطنبول، فإن البعض يعتبره مستشرقاً بامتياز بسبب مواقفه المشككة بركائز الفقه الإسلامي. أما البعض الآخر فيعتبر أن معرفته الواسعة بالتاريخ الإسلامي سنحت له بتقديم مقاربة جديدة ونقدية لنشأة الإسلام. بدأ شاخت حياته الأكاديمية بالعمل على عدد من المخطوطات العربية لا سيما تلك الموجودة في القاهرة. وفي هذا الإطار قام بتحقيق مخطوطة كتاب "الحيل والمخارج" للخصّاف في الفقه الإسلامي عام ١٩٢٣م. وفي منتصف العشرينات بدأ اهتمام شاخت بالفقه الإسلامي حيث استغل موقعه في جامعة فرايبورغ وعمل على تطوير معرفته بالقانون ومصطلحاته التقنية. وفي مطلع الثلاثينيات كتب شاخت مقالات أكاديمية عدة في الفقه وعالج مسائل معاصرة في مقالته "الشريعة والقانون في مصر المعاصرة" سنة ١٩٣٦م. غير أن اهتمام شاخت عاد ليتركز على نشوء الفقه حيث قام بدراسة مستفيضة حول محمد الشافعي تضمنها كتابه "أصول الفقه المحمدي." ويعتبر شاخت في هذا الكتاب أن معظم الأحاديث النبوية تم "تأليفها" أو وضعها مع نهاية القرن الثاني هجري وبداية القرن الثالث. ويشكك بصحة عدد كبير من الأحاديث النبوية ويقول إنها وضعت لدعم حجج وآراء الفقهاء في ذلك الوقت. ويرى شاخت أن الشافعي لعب دورًا محوريًا في ذلك لأنه كان في مواجهة أهل الرأي من جهة وأهل الأثر من جهة ثانية. ومن هنا يعتبر شاخت أن الحاجة لإعطاء سلطة مطلقة غير قابلة للنقض أدت إلى إرجاع جميع الأحاديث إلى النبي محمد (ص). وفي عام ١٩٥٤ وضع شاخت كتابه "مقدمة للفقه الإسلامي" الذي مثل خلاصة فكره.[٣٧]

ثالثًا: إسهامات المستشرقين الألمان في خدمة المخطوط العربي الإسلامي

تعرضت العديد من المخطوطات العربية الإسلامية للضياع، بسبب ما تعرضت له الدولة العربية الإسلامية من حروب وفتن وغزوات، أشهرها احتلال هولاكو بغداد سنة 656هـ -١٢٥٨م، إذ ألقيت مئات الآلاف من المخطوطات في نهر دجلة، كذلك حين سقوط غرناطة على يد الأسبان سنة 892 هـ - ١٤٩٢م، إذ أحرقت عشرات الآلاف من المخطوطات، أما الذي سلم من هذه الكوارث والنكبات فقد نقل معظمه إلى دور المخطوطات، والأديرة والمتاحف الأجنبية خلال الحروب الصليبية، ثم خلال الاستعمار الحديث للبلاد العربية ، ويقدرها معهد المخطوطات العربية بما يقرب من **ثلاثة ملايين مخطوط**، وخير ما عبر عن ضياع المخطوطات "أسامة بن منقذ" عندما استولى الصليبيون على أسرته قائلاً: « **فهون علي سلامة أولادي وأولاد أخي، وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت**» .

وإذا ما أردنا تقييم جهود المستشرقين يجب علينا طرح العديد من الأسئلة والتساؤلات: هل كانت تحقيقاتهم مبنية على أسس علمية؟ وما المخطوطات التي قاموا بتحقيقها؟ وهل عنوا بتحقيق ما يظهر تفوق المسلمين ونبوغهم، أم أنهم حققوا منها ما يخدم أهدافهم لا غير؟

لقد تمكن الأوربيون من السيطرة على مصادر التراث العربي الإسلامي، عن طريق الاستشراق والمستشرقين بواسطة تحقيق وطبع ونشر مجموعة من أكبر وأهم المصادر التراثية. وعلى الرغم من أن بعض الدراسات كانت تقترب من النزاهة والحياد، إلاّ أنها في النهاية وبكل المقاييس تبقى مظهرًا من مظاهر الاحتواء الثقافي، وقد نجحت أيضا في فرض نموذج من التحقيق والتقويم والنقد. ويمكن القول إن معظم الكتابات العربية المعالجة للتراث قد سارت على هذا النهج، ولم تتجاوزه إلا في القليل النادر، إلى درجة إيجاد ركائز ثقافية عربية معبرة ومتبنية لوجهة نظرها، ومدافعة عن المواقع الثقافية التي شغلتها وحتى في الجامعات والمؤسسات العلمية لايزال الخضوع والاحتكام للقوالب الفكرية التي اكتسبها المثقفون المسلمون من الجامعات الأوروبية. ونستطيع القول إن آثار الاستشراق وإنتاج المستشرقين لايزال

يشغل الكثير من مواقعنا الثقافية، وسوف لن تفيدنا في المواجهة مواقف الرفض والإدانة أو الهروب من المشكلة.

وقد وقع اختيارنا للمدرسة الألمانية الاستشراقية كنموذج للتعامل مع المخطوطات العربية الإسلامية، ويمكن تلخيص جهود المستشرقين الألمان نحو التراث العربي الإسلامي المخطوط فيما يأتي:

١/٣-جمع التراث المخطوط

عكف المستشرقون الألمان على جمع المخطوطات العربية من كل مكان في بلاد المشرق، وكان عملهم يقوم على وعي تام بقيمة هذه المخطوطات التي تحمل تراثًا غنيًا في شتى مجالات العلوم والمعرفة.

لقد تميز الألمان عن باقي المستشرقين الأوربيين أنهم جمعوا المخطوطات من خلال طريق واحد هو الإهداءات والشراء، بعكس المستشرقين الإنكليز والفرنسيين، الذين تعددت طرقهم للجمع منها الاعتداء والسرقة. وهذا ما لم يثبت عن الألمان، حيث كان عدد المخطوطات حتى مطلع القرن الثامن عشر قليلاً، وبعد ذلك دخلت كميات هائلة من المخطوطات الشرقية النفيسة، لا يحصى عددها، في حوزة المكتبات الألمانية حتى منتصف القرن العشرين من خلال الإهداء والشراء، ومن الأمثلة على ذلك أن المستشرق الفرنسي غيوم بوستل[٣٨] Guillaume postel (١٥١٠-١٥٨١م) قد دفعته الضائقة المالية لبيع المخطوطات التي جمعها أثناء أسفاره في الشرق إلى مكتبة هايدلبرغ. ثم صارت تلك المخطوطات نواة في دراسة المستشرقين بألمانيا، وشراء مكتبة برلين من هـ. بيترمان [٣٩] Petermann J. Heinrich (١٨٠١-١٨٧٦م) التي كانت تحوي حوالي ألف مخطوط، وجلب القنصل البروسي في دمشق لتلك المكتبة ألفين ومائة مخطوطة، وترك المستشرق لمكتبة برلين ألفا ومائة مجلد مكتبة. وفي أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، اقتنى يوهان كريستوف Johann Christoph مكتبة للمخطوطات العربية.

أسهم المستشرقون الألمان أكثر من سواهم بجمع المخطوطات العربية ونشرها وفهرستها، لا سيما كتب المراجع والأصول المهمة. وحفظت في مكتباتها حيث وجد في ألمانيا سبعة آلاف مكتبة ملحقة بالبلديات واحدى عشر ألفًا تابعة للكنائس، وتعد مكتبة برلين الوطنية ومكتبات جامعات توبنجن، وهايدلبرغ، وماينس من أغنى المكتبات بالمخطوطات الشرقية ولاسيما العربية، والتي بلغت حولي 14 ألف مخطوطة، يعود نصفها إلى ملكية مكتبة الدولة البروسية في برلين، وكانت 5066 مخطوطة محفوظة إبان الحرب العالمية الثانية [٤٠] وهي موزعة على المدن الألمانية.[٤١] (أنظر الجدول-ملحق ١)

والملاحظ أن مكتبة الدولة البافارية في ميونخ تأتي في المرتبة الأولى من حيث عدد مجلداتها التي بلغت سنة ١٩٧٤م مئة وخمسة وعشرين (١٢٥ ألف) مجلد، منها عدد يتراوح بين 70 و 80ألف كتاب تختص بالثقافة والأدب في العربية، وقد صنفت فهارس المخطوطات العربية من طرف المستشرق كريستيان فريدريخ سيبولد *Seybold*.[٤٢]

٢/٣-ترجمة المخطوطات العربية إلى اللغة الألمانية ونشرها

أولى المستشرقون الألمان عناية خاصة بترجمة المخطوطات العربية إلى اللغة الألمانية ونشرها، فقد ترجمت العديد من المخطوطات في مجالات عديدة منها: كتاب (الأدب الصغير) لابن المقفع، وترجم ريشر Rescher (أحسن ما سمعت) للثعالبي، والذي طبع في لايبرغ سنة ١٩١٦م. ترجمت (مختارات من يتيمة الدهر) للثعالبي، و(المزهر) للسيوطي، وترجم ريشسير أيضًا الكتب اللغوية منها: (المعجم في بقية الأشياء) لأبي هلال العسكري وطبعت الترجمة سنة ١٩١٥م. وترجم "غوستاف فايل" Gustav fwell (١٨٠٨-١٨٨٩م) عدد من المخطوطات منها: (السيرة النبوية) لابن هشام وطبع سنة ١٨٦٤م ، وكتاب (أطواق الذهب) للزمخشري، وألف ليلة وليلة، وترجم ادوارد سخاو E. Sachau (أحاديث منتخبة) من مغازي موسى بن عقبة، وترجم إ. فيدمان Eilhard wiedemann (١٨٥٢-١٩٢٨م) رسالة في الفيزياء (رسالة في استخراج الأبعاد بذات الشعبتين) ونشرت سنة ١٩١٠م. وترجم ماكس مايرهوف Max Meyerhof -1945 (١٨٧٤م) مقدمة كتاب (الصيدنة) للبيروني. ثم ترجمها مرة أخرى المستشرق كرينك إلى الإنجليزية، واهتم الألمان أيضًا بترجمة المخطوطات الجغرافية. فقد ترجم كرينكو Kerenko نصًا عن مخطوط (المسالك والممالك) بعنوان كتاب في تحديد نهايات الأماكن وتصحيح مسافات المساكن.[٤٣]

٣/٣-تحقيق المخطوطات

عمد المستشرقون الألمان علاوة على حفظ المخطوطات، إلى فهرستها وتحقيقها تحقيقًا علميًا، وتُعَدّ فهرسة المخطوطات العربية الموجودة في فيينا من أبرز المؤلفات التي يعتمد عليها المحققون العرب. وقد حقق المستشرقون الألمان عددًا كبيرا من أمهات كتب التراث العربي. يعتبر "ريسكه" (J.Reiske) أول من نشر معلقة طرفة بن العبد بشرح ابن النحاس مع ترجمتها إلى اللاتينية سنة ١٧٤٢م. وترجم ونشر العديد من كتب التراث العربي، منها المقامة السادسة والعشرين من الحريري. وترجم الجزء الأول من المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء سنة ١٧٥٤م، والرسالة الجدية لابن زيدون بشرح الصفدي لايبزغ ١٧٥٥م، ولامية "الطغرائي" لايبزغ 1756م، وسبعة أمثال للميداني لايبزغ 1758م، ومقالة أكثم بن صفي، ورسالة الوليدي ومنتخبات من أشعار المتنبي ١٧٦٥م، ثم ازدهرت نشر النصوص في القرن التاسع عشر ونشر المئات من النصوص في اللغة والشعر والأدب والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والفرق والجبر والحساب والفلك والطب، وأن مجموع ما نشره الألمان وحدهم يفوق ما نشره المستشرقون الفرنسيون والإنجليز معًا.[٤٤]

لقد نشر "ماكس فون Max Von" (الكامل) للمبرد، و(تأريخ الرسل والملوك) للطبري الذي استمر في تحقيقه مدة 19 عامًا من العمل المتواصل، ومؤلفات البيروني، وعكف " إيفالد

فاغنر" Ewald Wagner على ديوان أبي فراس نحو عشرين عامًا حتى أكمله تحقيقًا، ولا يمكن لأي دارس في الأدب والنقد العربيين أن يتجاهل أعمال مستشرقين ألمان كبار مثل كارل بروكلمان، وكتابه" تأريخ الأدب العربي" الذي له فضل السبق في التعريف بالتراث العربي الإسلامي المخطوط في مكتبات العالم جميعها. وعنوا بعلم البيبليوغرافيا وفهرسة المخطوطات وتصنيف المعاجم العربية. [٤٥] وحقق أوغست مولر" [٤٦] August Muller "عيون الأنباء" لابن أبي أصيبعة، وحقق "فلوجل" Flugel كتاب "الفهرست" لابن النديم في سنة ١٨٧٢م.[٤٧]

كان للمستشرقين دور بارز في تحقيق المخطوطات ونشر النصوص العربية القديمة في مختلف مجالات العلوم وميادين المعرفة. لقد قَدّمَ المستشرقون جهودا معتبرة في تحقيق المخطوطات، إلا أن أعمالهم هذه لا تعدّ كاملة حتى توزن بميزان المنهج العلمي الصحيح، فمن خلال ما قدمنا نجد أن أعمالهم متفاوتة. ولقد أكد هذا الكلام الأب أنستاس ماري الكرملي إذ قال: «**إن علم المستشرقين عرضة للنقد والتحقيق، كسائر الناس، ولابد أن ينتقدوا الانتقاد الصحيح ليظهر الغثاء وينبذ، ويبلغ إلى صميم الحق فيتبع، ولقد وجدنا هفوات لا تغتفر لهؤلاء المستشرقين من جميع الأمم وفي جميع التصانيف وما نشروه من الكتب ولا يمكننا أن نتعرض لجميع هفواتهم فهذا يدعونا إلى وضع سفر ضخم.** » ولهذا نجدهم عُرْضةً لسوء النقل، وسوء الاقتباس، وسوء الاستشهاد ضاربين صفحًا عن ضوابط علمية كالأمانة والدقة والتجرد والموضوعية، وهم بهذا يلجؤون إلى المعلومات الغربية غير الموثقة في أمهات الكتب العربية.[٤٨]

٤/٣-المناهج المتبعة في تحقيق المخطوطات

عني الألمان بتحقيق كتب التراث الإسلامي المخطوط وخاصة في فن" القراءات القرآنية" مثل "**أسرار التأويل وأنوار التنزيل** " للبيضاوي، تحقيق المستشرق الألماني" فرايتاغ"، و"**القراءات الشاذة في القرآن** " لابن خالويه، و"**المصاحف**" لابن أبي داود، و"إبراز الروايات الشاذة في كتاب الإتقان" للسيوطي تحقيق المستشرق الألماني "برغستراسر" *Bergstraesser* (١٨٨٦-١٩٣٣م) ولعلّ أهم ما تميز عملهم هو اهتمامهم بالدقة والضبط في التحقيق، واستعانوا بعلماء وأساتذة عرب ومسلمين كشيوخ الأزهر، في مقدمتهم الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ- ١٩٠٥م) ، ولمعرفة مناهجهم في تحقيق النصوص فقد اخترنا "برغستراسر" الذي ألف أول كتاب في أصول تحقيق النصوص، ويمكن متابعة منهجه من خلال تحقيقه كتاب" **مختصر في شواذ القرآن**" لابن خالويه:

١-اهتم بضبط ما يحتاج إلى ضبط من كلمات وقراءات.
٢-قسم المتن إلى فقرات، كل فقرة تتكون من خمسة أسطر.
٣-يذكر في الهامش رقم السطر بين معقوفتين، ثم يذكر الكلمة التي أثبتها، ثم نقطتين فوق بعضهما، ثم الكلمة الخاطئة ويتبعها رمز النسخة التي وردت فيها.
٤-بالنسبة للتصحيح فانه لا يصحح في النص ويصحح في المتن، ويصحح حتى في تشكيل الكلمة، ويستخدم عدة صيغ في التصحيح.
٥-تعليقات على النص مثل [5]:الفاء غير موجود في (ب) وهو مكتوب على الهامش في (أ) ولعله ليس من أصل الكتاب.
٦-بالنسبة للسقط يستخدم الصيغ التالية في المقابلة بين النسخ والنص مثل: [1]أبو :غير موجود في (أ)
[15] :... لابد من أن تكون قد سقطت عبارة مثل (حلقيا).
٧-لم يخرج الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية أو الأشعار.
٨-لم يترجم للأعلام حيث ورد العديد من الأسماء والأعلام غير المعروفة، ولم يوضح المعاني الغامضة.
٩ - لم نجد له مقدمة لعمله في التحقيق كما نجدها عند المحققين العرب من أهمية الكتاب المراد تحقيقه وأسباب اختياره للتحقيق ومنهجه في التحقيق ودراسة المخطوط ...لكن وجدنا تقديم لآرثر جفري في مقدمة كتابه يمهد لبرجشستر سبب عمله في اختيار هذا الكتاب، وقدم نبذة وجيزة عن ذلك.[٤٩]

من خلال ما تقدم نستنتج أن منهجه كان يركز على المقابلة الدقيقة بين النسخ، ويعلق على الاختلافات بين النص والنسخ حتى في اختلافهم في تشكيل الكلمة.

خَاتِمَةُ

بعد هذه الدراسة التي تناولت المستشرقون الألمان والتراث الإسلامي المخطوط (بين التحقيق والتلفيق) فقد توصلت إلى جملة من النتائج يمكن إيجازها فيما يأتي:

١-إن أهم ما يميز الاستشراق الألماني عدم ارتباطه بالاستعمار-كما هو الحال في إنجلترا وفرنسا وهولندا-أو يرتبط بأهداف دينية تنصيرية كسواه، لذلك امتاز بالموضوعية والعمق.

٢-استفاد المستشرقون الألمان عند تحقيقهم للمخطوطات العربية من مناهج نشر النصوص اللاتينية، ومناهج المسلمين الأوائل في التوثيق، ووضعوا القواعد في التحقيق وفي مقدمتهم المستشرق الألماني "برغستراسر" *Bergstraesser* (١٨٨٦-١٩٣٣م) الذي وضع أول مؤلف في هذا المجال وصار مرجعا للباحثين العرب، ولذا سبقوا العرب في هذا الميدان، فعرفوا قيمة تلك النصوص، وسعوا إلى نشرها وتحقيقها.

٣-عُني المستشرقون الألمان عناية جليّة بحفظ المخطوطات وصيانتها وترميمها وفهرستها وترجمتها وتحقيقها ثم نشرها، وفاقوا العرب في تلك المرحلة.

٤-تميز منهج المستشرقين الألمان في ضبط نصوص التحقيق بالدقة والموضوعية، وكانوا غالبًا ما يستعينون بالعرب المسلمين من شيوخ وعلماء وأساتذة في ضبط النص، بعكس المستشرقين الأوربيين الذين لم يستعينوا بالعرب المسلمين.

٥-يسجل للمستشرقين الألمان السعي الحثيث والجدّة في خدمة المخطوطات العربية الإسلامية، مما يدفعنا إلى ضرورة العناية بتلك المخطوطات وحمايتها وصيانتها وتحقيقها ونشرها إذ تشكل تراثنا الأصيل.

مقالات

الملاحق

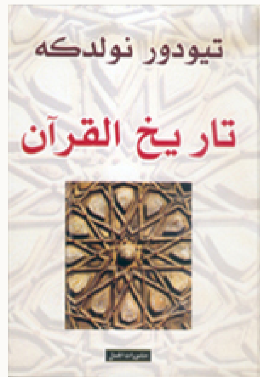
ملحق رقم (١) المخطوطات العربية موزعة على المدن الألمانية

المدينة	عدد المخطوطات
برلين Berlin	٨١٤ مخطوطة
بون Bonn	١٣٦ مخطوطة
بريمن Bremen	٢ مخطوطة
دارمشتات Darmstadt	٧١ مخطوطة
دساو Dessau	٦ مخطوطات
دوناوشنجنDonauschingen ودردسن Dresden	١١ مخطوطة
ديسلدورف Düsseldorf	مخطوطة واحدة
ارفورت Erfurt	مخطوطتان
فراكفورت Frankfurt	١٧٧ مخطوطة
فرايبورغ Freiburg	٢٤ مخطوطة
فولدا Fulda	٢٥ مخطوطة
غيسن Giessen	مخطوطتان
غوتنغن Gottingen	١٨٧ مخطوطة
غرايسفالد Greiswald	٣٧ مخطوطة
هالة/ سال Halle / Saale	٤٧٩ مخطوطة
هامبورغ Hamburg	٦٤٥ مخطوطة
هانوفرHannover	مخطوطة واحدة
هاربورغ Harburg	٣٢ مخطوطة
هايدلبرغ Heidelberg	٣١١ مخطوطة
يينا Jena	٦٦ مخطوطة
كارلسروي Karlsruhe	١٢ مخطوطة
كاسل Kassel- وكييل Kiel	٣١ مخطوطة
٥٧	٥٧ مخطوطة
لايبزغ Leipzig	٢٦٤ مخطوطة
ليبك Lübeck	٥ مخطوطات
ماينزMainz	٩ مخطوطات
مانهايم Mannheim	٢٨ مخطوطة
ماربورغ و لان Marburg -Lahn	٣ مخطوطات
ميونيخ München	٥٨٤ مخطوطة
بافاريا Bavaria	٤٠٢ مخطوطة
أولدنبورغ Oldenburg	٦ مخطوطات
بادربورن وروستوك Paderborn Rostock	١٥٠ مخطوطة
شفرين Schwerin	١ مخطوطة
سيغمارنغن Sigmaringen	٤ مخطوطات
شتوتغارت Stuttgart	١٨٨ مخطوطة
تريرTrier	١٤٦ مخطوطة
فايمارWeimar	٩٥ مخطوطة
فيسبادن Wiesbaden	١ مخطوطة
فولفن بيتل Wolfenbüttel وتسفيكاو Zwickau	٤٧ مخطوطة
توبنغن Tübingen	٧٦٤ مخطوطة

المصدر: سماء زكي المحاسني، المرجع السابق، ص ٦٦-٧٠.

ملحق رقم (٢) صورة تيودور نولدكه وكتابه تاريخ القرآن





المصدر:

Theodor Noldeke. (2016). In Encyclopædia Britannica. Retrieved from: http://www.britannica.com/biography/Theodor-Noldeke.





المصدر:

Atelier d'initiation à l'islamologie: Histoire du Coran, Ifpo, Damas, atelier 2 février 2011, p.16.

الهَوامِشُ:

(١) **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**، إشراف ومراجعة مانع بن حماد الجهني، ط ٣، دار الندوة العالمية للطباعة، الرياض، ١٤٢٠هـ، ص ٣٣.

(٢) عبد المجيد دياب، **تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره**، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص١٧٦.

(3) Strzygowski (J), Orient order Ronn., Lpz, 1900.

(٤) **روديارد كيبلنغ** (١٨٦٥ -١٩٣٦) "Rudyard Kipling" كاتب وشاعر وقاص بريطاني ولد في الهند البريطانية. من أهم أعماله " The Jungle Book" "كتاب الأدغال"١٨٩٤. كان كيبلنغ من أعظم الروائيين في الأدب الإنجليزي حصل على جائزة نوبل في الأدب سنة ١٩٠٧ وبذلك يكون أصغر حائز على جائزة نوبل، وأول كاتب باللغة الإنجليزية يحصل عليها. تغيرت سمعة كيبلنغ مع مرور الوقت مع تبدل الأحوال السياسية والاجتماعية ونتيجة لذلك تفاوتت الآراء من حوله في القرن العشرين. أطلق عليه جورج أورويل اسم "نبي الإمبراطورية البريطانية".
"Rudyard Kipling", Encyclopædia Britannica Online, 2016. Web, 26 févr. 2016, http://www.britannica.com/biography/Rudyard-Kipling

(٥) إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ط١، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٠، ص ٣٩.

(٦) Gerbert de Aurillac، (٩٣٠-١٠٠٣م) راهب فرنسي ولد في أورياك بمقاطعة أوفارني (Auvergne) في فرنسا من عائلة مجهولة النسب، انتقل من بلدته إلى أسبانيا ودخل في صف الرهبان البندكتيين Benedictins ، ثم ارتبط بالإمبراطور "أوتون الأول" Othon I الذي كلفه بتربية ابنه "أوتون الثاني". عينه الإمبراطور "أوتون الثالث" بابا سنة ٩٩٩م باسم " سلفستر الثاني" Sylvester II فكان أول بابا فرنسي. كانت له معارف في الهندسة والميكانيك وعلم الفلك، لذلك اتهم بالسحر. وكان له الفضل في إدخال الأرقام العربية والساعة إلى أوروبا.
Bouillet (M.), Dictionnaire Universel d'Histoire et de Géographie, Paris, librairie hachette, 1878, p. 1827.

(٧) عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م، ص١٧٨.

(٨) في سنة ١٧٩٥م افتتح معهد اللغات الشرقية في فرنسا واعترف بالاستشراق علمًا قائمًا بذاته.

(٩) **الموسوعة الميسرة في الأديان**، ص ٣٣.

(١٠) محمود حمدي زقزوق، **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٤٣.

(١١) Joseph Freiherr Von Hammer : de Purgstall، (١٧٧٤-١٨٥٦م) مستشرق نمساوي، بارون بيرغشتال، ولد في غراتز Graetz، برع في عدة لغات منها العربية والفارسية والتركية، صنف بالألمانية عددا من الكتب: تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ الآداب العربية، عين سكرتيرا في وزارة الخارجية ١٧٩٦م، ثم مترجما في إسطنبول ومصر (١٧٩٩-١٨٠٠م) حيث جمع أشياء ثمينة منها: مومياء ومخطوطات وأحجار مكتوبة بالهيروغليفية، وأهداها إلى المكتبة الإمبراطورية بفيينا. أصبح بارونا ورئيس أكاديمية فيينا سنة ١٨٣٥م.
Bouillet (M.N.), Op.cit., p. 831.

(١٢) عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ص ٦١٣.

(١٣) Zwemer, Samuel Marinus، (1867-١٩٥٢م)، أمريكي الجنسية، أطلق عليه اسم الرسول إلى الإسلام. تخرج من كلية الأمل Hope) (Collège سنة ١٨٨٧م في ميشيغان، وفي عام 1890 تخرج من المدرسة اللاهوتية في نيو برونزويك. سافر على نطاق واسع في آسيا الصغرى، وانتخب زميلا للجمعية الجغرافية الملكية من لندن. في عام ١٩٢٩م عين أستاذ البعثات وأستاذ تاريخ الأديان في جامعة برنستون اللاهوتية المدرسة التي درس بها حتى عام 1951، رئيس جمعيات التنصير في الشرق الأوسط، يعد من أكبر أعمدة التنصير في العصر الحديث، أسس معهدا باسمه في أمريكا لتنصير المسلمين. من أهم أعماله جزيرة العرب، مهد الإسلام ١٩٠٠م، ومحمد أو المسيح؟ ١٩١٦م.
http://answering-islam.org/Books/Zwemer/

(١٤) مصطفى السباعي، **الاستشراق والمستشرقون**، دار الوراق، د.ت، ص٣٧-٣٨.

(١٥) الكيلاني، رعد شمس الدين، **الإسلام والاستشراق**، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، بغداد، ٢٠٠٦م.

(١٦) Leone Caetani، (١٨٦٩- ١٩٣٥م)، أمير ومستشرق إيطالي، اشتهر بدراسة التاريخ الإسلامي، نشر "تجارب الأمم" لابن مسكويه، وألف "تاريخ الإسلام" (١٠ أجزاء)، و"دراسات في تاريخ الشرق" (٣ أجزاء)، وشارك في تحرير المواد الإسلامية في الموسوعة الإيطالية.
Bouillet (M.N.), Op.cit., p. 831.

(١٧) محمود المقداد، **تاريخ الدراسات العربية في فرنسا**، عالم المعرفة، عدد ١٦٧، ١٩٩٢، ص٤٥.

(١٨) كراتشكوفسكي"I. J. Kratchkovsky، (١٨٨٣-١٩٥١م)، هو إغناطيوس يوليانوفيتش، من كبار المستشرقين الروس، ولد في فيلنا Vilna عاصمة ليتوانيا القديمة، بعد الثورة البلشفية ١٩١٧م وما أصاب الاستشراق من تغيير جذري صار مدرسا بجامعة لينينغراد، ترجم كتاب "الاعتبار" للأمير أسامة بن منقذ. عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ص٤٦٥-٤٧١.

(١٩) طارق سرى، **المستشرقون ومنهج التزوير والتلفيق في التراث الإسلامي**، ط١، مكتبة النافذة، مصر، ٢٠٠٦م، ص٢٦.

(٢٠) **كريستمان جاكوب**، (١٥٥٤-١٦١٣م)، مستشرق وفلكي ألماني، ولد في هايدلبرغ، من أصل يهودي، اعتنق المسيحية سنة ١٥٧٨م، أهدى لزملائه في سنة ١٥٨٢م كتاب "قواعد اللغة العربية"، درس بجامعة هايدلبرغ وتخرج منها أستاذا في اللغة العبرية سنة ١٥٨٤م، نشر في عام ١٥٩٠م ترجمة لاتينية لكتاب "دراسات في علم الفلك" للفرغاني.
Jakob Christmann. Wikipédia, l'encyclopédie libre.
Consultée le 9 février, 2016
de http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Jakob_Christman.

(٢١) **أولوف غرهارت تيخسن**، (١٧٣٤-١٨١٥م)، مستشرق ألماني، عالم باللغة والدراسات العربية، يعتبر من المؤسسين الأوائل لعلم المسكوكات الإسلامية. درس اللغات الشرقية (العربية، العبرية، التامول، الهندوستاني) بجامعة هال Halle، عين أستاذا في جامعة روستوك Rostock في سنة ١٧٧٨م. توفي في ٣٠ ديسمبر ١٨١٥م بمدينة روستوك.
Oluf Gerhard Tychsen. (2016, février 09). Wikipédia, l'encyclopédie libre. Page consultée le 09 février 2016 à partir
de http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Oluf_Gerhard_Tychsen.

(٢٢) **مارتن هارتمان** Hartmann Martin (1851-١٩١٩م): مستشرق ألماني. ولد في برسلاو Breslau وتعلم في جامعتها ثم في جامعة لايبزغ Leipzig. تحصل على الدكتوراه في ١٨٧٤م، وعين في القنصلية الألمانية ببيروت، فتعلم العربية وطالت إقامته فكان يتكلم بها كبعض أبنائها. وعين مدرسًا لها في جامعة برلين سنة ١٨٨٧ وقام برحلات إلى الشرق فوضع عن كل رحلة كتابًا. له بالعربية «الصرف والنحو الألمانيان وكيفية تعلّمها من أيسر السبل» و«قانون التجارة الألماني العام» وكتب بالإنجليزية رسالة عن «الصحافة العربية بمصر من عهد ظهورها إلى سنة ١٨٩٩م» توفي ببرلين. عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١١٣-١١٦.

(٢٣) **كارل هينريك بيكر**، Karl Heinrich Bekker (١٨٧٦-١٩٣٣م)، مستشرق ألماني ورجل سياسي بروسي، تلقى دراساته في جامعات لوزان وهيدلبرغ وبرلين، زار إسبانيا والسودان واليونان وتركيا قبل أن يتحصل على الدكتوراه في ١٨٩٩م. شغل منصب وزير الثقافة في بروسيا (١٩٢١م) ثم (١٩٢٥-١٩٣٠م)، أحد مؤسسي الدراسات الإسلامية الحديثة في ألمانيا، شجع دراسة اللغات الأجنبية والتاريخ والثقافة واعتبرها وسيلة لتجنب الصراعات. عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١١٣-١١٦.

(٢٤) **أوغست فيشر**، August Fischer (١٨٦٥-١٩٤٩م)، مستشرق ألماني، من أهل لايبزغ كان أستاذا في جامعة هالة وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية. من أشهر آثاره: "معجم فيشر" قضى أربعين في جمعه وترتيبه وإعداده للطبع. الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج ١، ص ٢٦.

(٢٥) **جوهان فولرز**، Johann August Vullers (١٨٠٣-١٨٨٠م)، مستشرق ألماني، ولد وتوفي في مدينة بون، درس علم اللاهوت في جامعة بون، واصل دراسته بالسوربون (فرنسا) ١٨٣٠م، عاد إلى ألمانيا في ١٨٣١م واشتغل بجامعة بون كأستاذ خاص. في ١٨٣٣م ذاع صيته نتيجة أبحاثه ودراساته عن المشرق العربي. من أبرز آثاره: معلّقة الحارث بن حلزة بشرح الزوزني، (بون، ١٨٢٧م)، معلقة طرفة ابن العبد، مع إضافة مختارات من تعليقات ريسكه، (بون، ١٨٢٧م)، شذرات عن ديانة زرادشت مترجمة عن الفارسية (بون، ١٨٣١)، مبادئ النحو العربي، على هيئة جداول (بون، ١٨٣٢). عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ص٤١٩-٤٢٠.

(٢٦) **جاكوب ريسكه**، (١٧١٦-١٧٧٤م)، فقيه لغوي Philologue ومستشرق ألماني، ولد في ٢٥/ ١٢/ ١٧١٦م في "زوربيك" (ساكس)، تلقى دراساته في العربية في لايبزغ وليدن، ثم درس العلوم الطبية وتخرج طبيبا سنة ١٧٤٦م، ثم أستاذًا في الفلسفة سنة ١٧٤٧م، فأستاذًا في العربية سنة ١٧٤٨م، عرف بكتاباته عن تاريخ الآداب الشرقية.

Bouillet (M.N.), Op.cit., pp. 1594-1595.

(٢٧) **جاكوب جورج كريستيان أدلر** (١٧٥٦-١٨٣٤م) J.G.C. Adler: مستشرق دانماركي، عني بالكتابات الكوفية، وأعد تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر) للطبع مع ترجمة لاتينية، فنشره المستشرق ريسكه (Reiske) واشتهر أدلر بما كتبه بلغته عن النقود العربية وتاريخها. وله بحث في «تاريخ الدروز» وكانت إقامته على الأكثر في كوبنهاغن (عاصمة الدانمرك). عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ص٥٩.

(٢٨) المرجع نفسه، ص٢٩٨-٣٠٣.

(٢٩) **فرديناند وستنفلد**، (١٨٠٨-١٨٩٩م)، مستشرق ألماني، تخرج من جامعة جوتنجن Gottingen ثم درس في جامعات ألمانيا، توفي في مدينة موندون Munden (هانوفر)، من آثاره: نشر "سيرة ابن هشام". المرجع نفسه، ص٣٩٩-٤٠٢.

(٣٠) المرجع نفسه، ص٣٩٩-٤٠٢.

(٣١) **تيودور نولدكه**، Theodore Noldeke (١٨٣٦-١٩٣٠م)، ولد في هامبورغ في ٢ مارس ١٨٣٦م، مستشرق ألماني، من أكابر المستشرقين الألمان، له كتب بالألمانية عن العرب وتاريخهم، منها «تاريخ القرآن» و«حياة النبي محمد» ترجمها إلى الألمانية وشرحها. ونشر في مجلات الغرب وموسوعاته بحوثًا كثيرة، منها رسالة في «أمراء غسان» ترجمها إلى العربية بندلي جوزي وقسطنطين زريق. وله بالعربية «منتخبات الأشعار العربية» واشترك في الإشراف على طبع «تاريخ الطبري» وترجمته إلى الألمانية. كان يحسن اللغات الشرقية كلها كالعربية والأرامية والعبرية والصابئية والحبشية وغيرها، فضلاً عن معرفته بلغات الغرب كاليونانية واللاتينية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية والإسبانية ولغته الألمانية. المرجع نفسه، ص٥٩٠-٥٩٩.

(٣٢) **ولهوسن**، Jullius Wellhausen (١٨٤٤-١٩١٨م)، مستشرق ألماني وباحث توراتي، من أبرز مؤلفاته "تحقيق تاريخ الطبري"، و "الإمبراطورية العربية وسقوطها"، ومن اهتماماته بالفرق الإسلامية تأليف كتابيه "الأحزاب المعارضة في الإسلام" و "الخوارج والشيعة" وكتب عن الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابه "تنظيم محمد للجماعة في المدينة" وكتابه "محمد والسفارات التي وجهت إليه". نفسه، ص٤٠٨-٤٠٩.

(٣٣) **كارل بروكلمان**، (١٨٦٨-١٩٥٦م)، ولد في مدينة روستوك في ١٧ سبتمبر ١٨٦٨م، مستشرق وعالم لغوي ألماني، أستاذ بجامعة برلين، مختص في اللغات الشرقية واللغات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية)، كلفه المستشرق نولدكه Noldeke بدراسة العلاقة بين كتاب "الكامل في التاريخ" لابن الأثير وكتاب "أخبار الرسل والملوك" للطبري، تحصل على شهادة الدكتوراه سنة ١٨٩٠م. نفسه، ص٩٨-١٠٥.

(٣٤) محمود المقداد، المرجع السابق، ص٤٥-٤٦.

(٣٥) Hellmut Ritter (١٨٩٢-١٩٧١م)، مستشرق ألماني، ابن قس بروتستانتي، تلقى تعليمه في مدينة هال اشتهر بتحقيق المخطوطات الإسلامية، متخصص في اللغات العربية والفارسية والتركية. خدم كمترجم عسكري خلال الحرب العالمية الأولى في العراق وفلسطين وإيران. في ١٩١٩م عين أستاذا مساعدا بجامعة هامبورغ. من آثاره: الدليل الموسوعي حول الطقوس والمعتقدات الصوفية الإسلامية، (Das Meer der Seele, 1955) في ١٩٢٦ نفي إلى إسطنبول واطلع على الكنوز الأدبية في مكتبات المدينة القديمة وعكف على دراسة المخطوطات ونشر المقالات العلمية في سلسلة (Philologika).

Josef Van Ess, Im Halbschatten Der orientaliste Hellmut Ritter, (1892-1971), Harrassowitz Verlag, 2013.

(٣٦) جوسيف شاخت (١٩٠٢-١٩٦٩م)، مستشرق ألماني، باحث في الدراسات العربية والإسلامية له مؤلفات عدة أبرزها "أصول الفقه المحمدي" الذي يتناول فيه نشوء الحديث والسنة. أثار شاخت حفيظة العلماء المسلمين لأنه يشكك في صحة الأحاديث النبوية ويرى أنها وضعت أو "لفقت" خلال الفترة الممتدة بين نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث هجري.

Lewis, Bernard. Obituary, «Joseph Schacht», Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 33, No. 2 (1970), pp. 378–381.

(٣٧) خير الدين الزركلي، **الأعلام**، "الدكتور شاخت"، ٢٠٠٢م.

(٣٨) **غيوم بوستل** (١٥١٠-١٥٨١م)، مستشرق وفلكي ونحوي ودبلوماسي فرنسي، كانت أسرته في غاية الفقر ومع ذلك تعلم اللغات الكلاسيكية كاللاتينية واليونانية والعبرية في باريس، فضلاً عن معرفته بلغات الغرب الحديثة كالإيطالية والإسبانية والبرتغالية. زار بلدان الشرق لاقتناء المخطوطات مثل مصر وإسطنبول، وبها تعلم اللغة العربية والتركية. من أهم آثاره كتاب في النحو العربي صدر عام ١٥٣٩م و«جمهورية التُّرك»، وفيه يرسم صورة مثالية للمجتمع العثماني، وكتاب "الوفاق بين الناس على ظهر الكرة الأرضية" De orbis terrarum concordia الذي ظهر سنة ١٥٤٣م. عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ص١٣٥-١٣٨.
Desbillons, nouveaux éclaircissements sur la vie et les ouvrages de Guillaume Postel, liège, 1771, in 8.

(٣٩) هينريخ بيترمان (١٨٠١-١٨٧٦م)، Julius Heinrich Petermann مستشرق ألماني، زار بلاد الشرق الأدنى وإيران واقتنى الكثير من المخطوطات. كان قنصلا لألمانيا في القدس (فلسطين). من آثاره: «نحو اللغة الأرمنية» (برلين ١٨٣٧). «باب اللغات الشرقية» Porta Linguarum Orientalium وهو نحو موجز لأهم اللغات الشرقية (برلين ١٨٤٠). «رحلات في الشرق» Reisen in Orient (لايبزغ ١٨٦٠ -١٨٦١، في مجلدين). بدأ في نشر «التوراة السامرية» Pentateuchus Samaritanus (برلين ١٨٧٢ وما يتلوها) لكنه توفي قبل إنجازها فقام بإتمامها فولّرز Vullers. عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ص ١٤٩.
Hartmut Bobzin , (2001), "Petermann, Julius Heinrich", Neue Deutsche Biographie Vol.20, p.238.

(٤٠) خير الدين الزركلي، **الأعلام**، "الدكتور شاخت"، ٢٠٠٢م.

(٤١) سماء زكي المحاسني، **دراسات في المخطوطات العربية**، مكتبة الملك فهد، الرياض، ١٩٩٩، ص٦٦-٧٠.

(٤٢) **كرستيان فريدريخ سيبولد** Christian Friedrich Seybold (١٨٥٩-١٩٢١م) مستشرق ألماني، تعلم في جامعة توبنجن واختاره ملك البرازيل «بدرو الثاني» لتعليمه اللغات الشرقية. وكان يحسن منها العربية والعبرية والسريانية والفارسية. ونشر كتبًا عربية منها «النقط والدوائر» من كتب الدروز الدينية و«أسرار العربية» لابن الأنباري و«المنى في الكنى» لابن= =الأنباري و«الشماريخ في علم التاريخ» للسيوطي و«تاريخ بطاركة الإسكندرية» للأنبا ساويرس ابن المقفع. توفي بمدينة توبنجن. خير الدين الزركلي، **الأعلام**، "سيبولد"، ٢٠٠٢م.
wikipedia.org/wiki/Christian_Friedrich_Seybold

(٤٣) يوهان فوك، **تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين**، تر. عمر لطفي العالم، ط ٢، دار المدار الإسلامي، ليبيا، ٢٠٠٠م، ص٣٤٢.

(٤٤) نجيب العقيقي، **المستشرقون**، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م، ٤٠٤/٢.

(٤٥) إميل كرومر، **رعاية الدراسات العربية في مكتبة توبنغن**، الاستشراق الألماني، ص٢٨-٣٠.

(٤٦) **أوغست مولر** (١٨٤٨- ١٨٩٢م) August Muller مستشرق ألماني، كان يسمي نفسه امرأ القيس ابن الطحان، نشر "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة، و"معلقة امرئ القيس" مع شروح ألمانية، و"الفهرست" لابن النديم سنة ١٨٧٢م بمساعدة "فلوجل" Flugel وروديجر. خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ص٢٦، عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٣٩٠-٣٩١.

(٤٧) نجيب العقيقي، **المستشرقون**، 2/٤٤٧.

(٤٨) إياد خالد الطباع، **منهج تحقيق المخطوطات**، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٨، ص ١٥.

(٤٩) يوهان فوك، المرجع السابق، ص ٣٤٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

مقالات

سباق العربات في المغرب القديم ونماذج من منافساته



د. رضا بن علال
أستاذ التاريخ القديم
المدرسة العليا للأساتذة
بوزريعة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

تفيدنا الرسومات والنقوش الصخرية في الصحراء الكبرى بمعرفة المغاربة القدماء للعربات الخفيفة منذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، والظاهر أن استعمالهم لها في هذه الفترة المبكرة من تاريخهم إنما انحصر في الصيد والمباهاة وبعض السباقات التي كانوا يمارسونها في العراء. وباحتلال الرومان للمغرب القديم، اعتنق المغاربة القدماء ثقافة العروض الرومانية التي من ضمنها سباق العربات لمعرفتهم المسبقة بها. ولقد برع الرياضيون الأفارقة في سباق العربات حتى صارت هذه الرياضة من بين سمات الرقيّ الحضاري للمغرب القديم، وهو ما تشهد عليه مشاهد الفسيفساء ومجموعة كبيرة من النقوش والنصوص الأدبية الإغريقية واللاتينية التي عرّفتنا بأسماء الوجهاء وأعيان المغرب القديم ممن وهبوا ألعابًا ارتبطت بعبادة الإمبراطــور وبعالم الآلهة، في حين احتفلوا ببعضها الآخر على شكل هبات وهبوها لسكان المدن والبلدات التي سكنوها وزاولوا فيها مختلف أنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية. وبذلك تكون النقوش ولوحات الفسيفساء والنصوص القديمة قد أفادتنا بالتعرف على إسهامات الوجهاء والأثرياء الخواص من خــلال تنظيمهم لسباق العربات. وعادة ما كانت هذه العروض تبدو بسيطة مقارنة بالمنافسات التي كانت تنظّمها السلطة الرومانية الحاكمة في عواصم المقاطعات وفي المدن والبلدات التي كانت تتمتع بصفة المواطنة، قبل أن يعمم آل سفيروس هذا الحق على كافة سكان الإمبراطورية الرومانية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٤ نوفمبر ٢٠١٦
تاريخ قبـول النشـر: ١٨ فبراير ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
روما، سباق العربات، الخيول الإفريقية، المغرب القديم، المغاربة القدماء

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052961

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
رضا بن علال. **"سباق العربات في المغرب القديم ونماذج من منافساته".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص٣١ – ٣٩.**

مُقَدِّمَةُ

مارس المغاربة القدماء سباق العربات وبرعوا فيــه وهو ما تشهد عليه مشاهد الفسيفساء ومجموعة كبيرة من النقوش والنصــوص الأدبيــة الإغريقيــة واللاتينيــة، فهــذا ســوفوكليس (Sophocles) يشيــر في القرن الخامس قبل الميلاد إلى اشتراك الليبيين بكدنين في سباق للعربات أقيم بدلفي[١]. كما أوكل بعض أعيان ووجهاء مقاطعات المغرب القديم خلال الاحتلال الروماني للفنانين والحرفيين تجسيد مشاهد السباق على لوحات فنية تخلّد بطولات فرق السباق على أرضيات البيـوت والحمامات وقاعات المجالس البلدية وغيرها. واللافت للانتباه أن المغاربة القدماء قد شغفوا بمتابعة كل ما له علاقة بهذه الرياضة التي تعود جذورها في المغرب القديم إلى نهاية العصر الحجري الحديث وبداية فجر التاريخ، أي الفترة التي ظهرت فيها العربات والخيول في الفن الصخري للصحراء الكبرى[٢]. وليس في استطاعتنا أن نقول ما إذا كانت الخيول الإفريقية، التي كثر تمثيلها في مشاهد الفسيفساء في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني أكثر شهرة من أبطال سباق العربات أنفسهم، أم أن الأمر يتعلّق بشحّ المادة الأثرية المتمثلة في النقوش ولوحات الفسيفساء وقلة المصادر الأدبية، لكن ما هو مؤكد أن الجمهور ارتبط بمختلف أطيافه بفرق السباق المتنافسة ضمن عروض السيرك.

مقالات

١-أبطال سباق العربات في المغرب القديم

تألق قواد عربات السباق خلال الاحتفالات التي كانت تقام في مدن المغرب القديم خلال العهد الإمبراطوري، نذكر من بينهم كريسكانس (Crescens) الموريطاني الذي ذاع صيته على عهد الإمبراطور نيرفا (Nerva)، إذ شارك هذا الرياضي البطل في ٦٨٦ سباقا للعربات. أحرز خلال هذه التظاهرات سبعة وأربعين مرّة على الجائزة الأولى ومائة وثلاثين مرّة الجائزة الثانية، كما حاز على المرتبة الثالثة إحدى عشر مرّة. وقد حقق هذا الحوذي الذي لم يتجاوز عمره ٢٢ سنة ثروة قدّرت بمليون وست مائة ألف سسترس[٣].

ونعرف من بقايا النقوش التي تغطي شواهد القبور، سعادة قواد عربات السباق بممارسة هذه الرياضة التي أدرّت المال على الكثير منهم وأدخلتهم إلى عالم الشهرة. غير أن هذه الرياضة تسببت في أحيان كثيرة في حوادث لا يحمد عقباها، أفضت إلى مقتل الرياضيين وهم في مقتبل العمر، نذكر من بينهم أوريليوس موليكيوس (M.Aurelius Mollicius) الذي أحرز على ١٢٥ نصر، وتوفي عن عمر لم يتجاوز العشرين. أما كريسكانس فقد توفي عن عمر يناهز ٢٢ عامًا[٤].

ويمكننا أن نتتبع المشوار المهني لقواد عربات السباق، الذين كانوا يدخلون حلبات السباق، على ما يبدو، في سن الثالثة عشر- ويفيدنا الرجوع إلى تلك الألفاظ والألقاب المرافقة لأسماء هؤلاء الرياضيين في النقوش للتعرّف على هذا التطور، بحيث يعرف حوذي عربة السباق في مرحلة أولى باسم (aurigae) أو (bigarii)، كما تعرّفه كتابات أخرى على أنه الحوذي المبتدئ (rudis auriga)، ثم سرعان ما يتحول هذا اللقب إلى (agitator) بعد اكتساب الحوذي للخبرة المهنية. وكان هؤلاء الرياضيون المبتدئين يتدربون في بدايات مشوارهم الرياضي على قيادة العربات المقرونة إلى ثلاثة خيول (trigarium). ثم ينتقلون، بعد اكتساب الخبرة، إلى قيادة العربات المقرونة إلى أربعة خيول (quadrigium)[٥].

ولم يكن من الغريب أن يصلنا صدى أبطال سباق العربات من خلال النقوش، إذ يفهم من إحداها التي تم العثور عليها في مدينة تبسة (Theveste) بالشرق الجزائري، إلى ممارسة المدعو يوليوس كماروس (C. Julius Cammarus) تدريب خيول السباق، ويعود ذلك إلى الخبرة التي اكتسبها هذا الرياضي من خلال ممارسته للسباق وتحكمه في قيادة العربات المقرونة إلى ثلاثة خيول[٦]. ورغم وقع الألم على نفسية أقارب هذا الرياضي، إلاّ أنهم قاموا بحفر كلمات معبّرة على لوحة حجرية تدلّ على حبّ وسعادة هذا الأخير بممارسة رياضة سباق العربات التي كانت سببًا في وفاته[٧].

وكلما أشدنا ببطولات من سبق ذكرهم من قواد عربات السباق، إلاّ ونجد أنفسنا أمام مجموعة أخرى من أبطال هذه الرياضة، الذين اهتزّت ميادين سباق العربات لوقع هتافات أسمائهم، من بينهم بطل مدينة دوقة في تونس الذي أطلق عليه اسم إيروس (Eros) تيمنًا بإله الحب عند الرومان، وربما أطلقت عليه هذه التسمية لما كان يحدثه في نفسية أنصار فريقه ومحبيه وتعلّقهم بإنجازاته الرياضية[٨]. وتظهر لنا إحدى المشاهد الفنية هذا البطل الشاب بعد انتصاره في السباق (الشكل ١)، ترافقه عبارات: "يا حب، أنت تأتي بكل شيء" (Eros, omnia per te)[٩].

وتمثّل فسيفساء عودة الحظ (Fortuna redux) المحفوظة بمتحف مدينة تبسة، سفينة شحن تجارية تشق عباب البحر تتمثّل حمولتها في كمية كبيرة من الجرار. وربّما كانت هذه الصفقة التجارية الرابحة سببًا في إقامة عروض صيد الحيوانات وسباق العربات[١٠]. ويجسّد المشهد إعلان الحكم لنتيجة السباق، واستلام المدعو ماركلّوس (Marcellus) جائزة الانتصار المتمثلة في سعفة نخيل (الشكل ٢). وفي الحين الذي تعرّفنا فيه إحدى لوحات الفسيفساء من مدينة قيصرية في مقاطعة موريطانيا، ببطل محليّ يدعى كيزوريوس (Cesorius). تحيلنا مشاهد أخرى من قرطاجة، تعود إلى بداية القرن الرابع للميلاد، إلى أسماء أربعة حوذيين هم: أوفوميوس (Euphumios) من الفريق الأزرق ودومنينوس (Domninos) حامي الألوان البيضاء وأوثميس (Euthymis) التابع للفريق الأخضر وكيفالون (Kephalon) المدافع عن الألوان الحمراء[١١]. ونعرف كذلك من لوحة تعود إلى نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس، اكتشفها علماء الآثار في ضواحي قرطاجة، تخليد أحد الأثرياء المعجبين بهذه الرياضة لأسماء مشاهير سباق العربات في زمانه، منهم بنناتوس (Benenatus) وكرياكوس (Quiriacus) وكليريوس (Celerius) وكبريانوس (Ciprianus)[١٢].

وكان للحافز المادي دوره في الارتقاء بهذه الرياضة إلى مصاف المنافسات التي أقبلت جماهير المغرب القديم على متابعة فعالياتها. وغالبا ما كانت مكافآت هؤلاء الأبطال تمثّل في مشاهد الفسيفساء على أنها تيجان نصر وسعف نخل (الشكل ٣). بالإضافة إلى ذلك، فقد صرفت أموال طائلة على فرق السباق المتنافسة في ميادين سباق العربات، وهي التي مكّنت البطل سكوربيانوس (Scorpianus) صاحب سبعمائة انتصار من بناء بيت فاخر في ضواحي قرطاجة على عهد الإمبراطور هدريانوس (Hadrianus)، زيّنه بلوحات الفسيفساء المكلفة[١٣]. وفي الحقيقة، فلقد تمكن بعض هؤلاء الرياضيين من جمع ثروات في روما بلغت أرقاما يعجز الحرفيون والتجار على تكوينها، بحيث قدّرت ثروة ديوكليس على سبيل المثال، بنحو ٣٥ مليون سسترس[١٤].

وغالبًا ما كانت تحدث المناوشات بين أنصار الفرق المتنافسة في ميادين سباق العربات، فكان يقدم هؤلاء على الاشتباك والتشاجر بسبب إخفاق نجومهم في الظفر بالمراتب الأولى، أما في حالة ما إذا كان الحظ حليف هؤلاء الأخيرين فإنهم يرفعون من

طرف محبيهم إلى مصاف الخالدين[١٥]. ويبدو أن الذين صنعوا المجد في حلبات السباق كانوا أول من مسّهم الضر، بحيث تعرضوا لأعمال السحر والشعوذة[١٦]، ومات معظمهم في مقتبل العمر، في حين نكّل الحكّام بخصوم الفرق التي كانوا يشجعونها[١٧].

٢-علاقات فرق سباق العربات بالجهاز السياسي في روما

وما وصف كليغولا (Caligula) ونيرون (Néron) ولوكيوس فيروس (Lucius Verus) وكمودوس (Commode) بالديمقراطيين إلاّ لكونهم كانوا يميلون إلى الفريق الأخضر، إذ كان أنصار هذا الفريق من بين جماهير الشعب[١٨]. أما أعضاء مجلس الشيوخ الروماني والأرستقراطيون فقد كانوا من مناصري الفريق الأزرق. ولأن الإمبراطور كراكلا (Caracalla) كان من مناصري الفريق الأزرق فقد أصدر حكما بالإعدام ضد قواد عربات الفريق الأخضر. بل وصل الحدّ ببعض الأباطرة إلى البطش بأنصار ومشجعي فرق السباق على ما يبدو، فقد نكّل فتيليوس (Vitellius) بأنصار الفريق الأخضر لسبهم للفريق الذي كان يشجّعه هذا الإمبراطور، وهو الفريق الأزرق[١٩].

ومما يلفت النظر في النقوش اللاتينية للمغرب القديم التي تعود إلى القرن الثالث الميلادي، أنها توحي إلى لجوء مسيري فرق السباق الأربعة إلى التحالف، وذلك ربما بغرض الدفاع عن المصالح المشتركة لفرق الحلف[٢٠]. فمن هذه الناحية نجد أنفسنا أمام حلف فريقين قويين، الأول بزعامة الألوان الزرقاء، والثاني بزعامة الألوان الخضراء. فقد تحالف كل من الفريق الأزرق والفريق الأحمر، واتحد الفريقان الأخضر والأبيض[٢١].

ولعل هذا ما يدفعنا إلى طرح إشكالية إعادة بناء الهيكل الداخلي لكل فريق، حيث دفعت الأزمة المالية، التي فقدت بموجبها العملة الرومانية قيمتها خلال القرن الثالث الميلادي، بهذه الفرق إلى إعادة تنظيم تسييرها الداخلي في المغرب القديم، وإعادة النظر في علاقات كل حلف بالنظام البلدي، على اعتبار هذا الأخير الراعي الرسمي لسباق العربات. والتي لا نعرف عنها الكثير في المغرب القديم، سوى ارتقاء مسيّري فرق السباق من أهالي المغرب الروماني إلى موظفين في روما، أوكلت لهم مهمة تنظيم سباق العربات خلال القرن الثالث الميلادي[٢٢].

من خلال ما تقدم من الأدلة الأثرية، لم يكن في مقدورنا إثبات المدى الواسع لانتشار فرق السباق، ولا مدى ديمومة سباق العربات في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني إلى غاية القرن السادس الميلادي، إلاّ أنه يمكن القول إن الخيول التي كان يستوردها الرومان من المغرب القديم حققت النصر لعدد معتبر من قواد عربات السباق[٢٣].

٣-الخيول الإفريقية

إذا أردنا البحث عن تفسير عملي معقول لاهتمام الرومان باستيراد الخيول الإفريقية، فإننا سنتوقف عند وصف هذه الحيوانات من طرف الجغرافي سترابون (Strabon) الذي يشير إلى أنها كانت خيولا صغيرة، ومع كونها وديعة وشديدة اليقظة فإنها كانت تنقاد بسهولة وهي تتبع صاحبها دون حاجة هذا الأخير إلى حبل ليتحكم فيها[٢٤]. أما تيتوس ليفيوس (Tite Live) فهو يرى أن هذه الخيول كانت قبيحة المظهر وسريعة الركض[٢٥]. ونعرف من نصوص المصادر الأدبية اللاتينية أن ملوك نوميديا كانوا يعتمدون بشكل كبير على الفرسان الذين كانوا يمتطون صهوة خيولهم دون لجام[٢٦].

ويبدو أن أهم ما يمكن الإشارة إليه بخصوص العلاقات التجارية التي تتعلق باستيراد الرومان للخيول الإفريقية يلخصها لنا بوليبيوس (Polybius) الذي لم يتصور وجود بقعة من الأرض تحوي ما بالمغرب القديم من الخيول والأبقار والأغنام[٢٧]. ومن ناحية أخرى يتعرض ليفيوس إلى صفقات الملك ماسينيسا التجارية، التي نستشفّ من خلالها إقدام هذا الأخير على تزويد حلفائه الرومان بعدد معتبر من الخيول ما بين سنوات ٢٠٠ق.م-١٧٠ق.م، يقدّر بنحو ٣٩٠٠ فرس[٢٨].

ويعرف من النصوص الأدبية اللاتينية وبقايا النقوش التي خلّفها لنا أسلافنا أن الخيول الإفريقية كانت تروض في الثالثة من عمرها وتدخل حلبات السباق في سن الخامسة[٢٩]. وتحتفظ لنا هذه النقوش ومشاهد الفسيفساء بأسماء هذه الحيوانات التي اشتهرت هي بدورها، حتى أصبحت مطلوبة من طرف فرق السباق في روما وبقية مقاطعات الإمبراطورية. ولسنا ندري ما إذا كان تدريب هذه الخيول يتم على أيدي مربي هذه الحيوانات، أم أنه كان يتم بالتنسيق مع محترفي فرق السباق، إلاّ أن الأكيد هو ما أشرنا إليه من قبل[٣٠] من حيث ابتكار المغاربة القدماء لتقنية ذكية تدعى بقرن قضيب الجرّ الغرض منها ترويض الخيول. وتتمثل هذه التقنية في وضع الحيوان بين عريشين وربطه من زمامه إلى قضيب خشبي لجعله يمشي بطريقة منتظمة. ومن ناحية تقنية فإن الخيول التي كانت تربط من زمامها في خط مستقيم بواسطة قضيب خشبي كانت مجبرة على السير والتوقف على وتيرة واحدة، وكانت تمشي وتركض بالتوازي نظرا لوجود عريش يتوسطها[٣١].

وعمومًا لم يكن انتشار استعمال الخيول الإفريقية يقتصر على روما فقط، بل تعداه إلى باقي الإمبراطورية الرومانية التي كانت تمتد حدودها عبر قارات أوروبا وإفريقيا وآسيا. ويعود سبب هذه الشهرة إلى مجموعة الخصال التي سبق ذكرها، على أن أغلب الخيول الإفريقية المستوردة من طرف الرومان في القرن الثاني والقرن الثالث للميلاد كان مصدرها مقاطعتي البروقنصلية ونوميديا[٣٢]، والتي تبيّن من خلالها الأدلة المادية

وجود مزارع متخصصة في تربية خيول السباق، مع وجود مجموعة من الأفارقة يمتهنون حرفة تربية الخيول[٣٣].

وكانت تشحن أعداد كبيرة من الخيول الإفريقية عن طريق البحر إلى ميادين السباق في روما وإلى مقاطعات جنوب غرب أوروبا وبلاد اليونان، ونستطيع تأكيد ذلك من خلال فسيفساء مدينة مداينة (Althiburos) في تونس، التي تصور مشهد شحن مجموعة من الخيول يمثّلها فيروكس (Ferox) وإكاروس (Icarus) وكوبيدو (Cupido) على باخرة تحمل اسم (Hippago). وما تباهي الحوذي ديوكليس (Dioclès) بأنه الأفضل في قيادة الخيول الإفريقية، وتفضيل الحوذي جوتا كلبورنيانوس (Gutta Calpurnianus) لهذه الحيوانات دون سواها، وإسهام الحصان الإفريقي للحوذي آولوس تيريس (Aulus Teres) الملقب هيلاروس (Hilarus) في جعل صاحبه يظفر بألف انتصار، سوى أدلة على ما وصلت إليه هذه الحيوانات من مكانة مرموقة في مجتمع المغرب القديم خلال القرنين الأول والثاني للميلاد[٣٤].

ولا يمكن للباحث أن يشير إلى الخيول الإفريقية، دون الإشارة إلى مربيها. فقد اشتهر اسم أحد مموني الخيول في المغرب القديم يدعى سوروتوس (Sorothus)، هو من أثرياء مدينة حضرموت (Hadrumetum) في تونس، فكان هذا الرجل الثريّ يملك مزرعة متخصصة في تربية الخيول الموجّهة لسباق العربات (Saltus Sorothensis) تقع في ضواحي سوق أهراس (Thagaste) في شرق الجزائر (الشكل ٤). ولعله من الأهمية بمكان أن نلاحظ وجود مثل هذه المزارع في مدينة يول، عاصمة مقاطعة موريطانيا، إذ يفهم من إحدى لوحات الفسيفساء المكتشفة فيها قيام المدعو كلاوديوس سبينوس (Claudius Sabinus) ببيع أو استئجار إلى الفريق الأخضر[٣٥] حصانا يعرف باسم موكوزوس (Muccosus)[٣٦].

وليس في استطاعتنا أن نقول بأن الحصان دستروايقوس (Destroiugus) الذي كان ملكا للمدعو غلاوكوس (Glaucus) هو حيوان اشتهر وذاع صيته من بين مئات الخيول التي كان يسهر هذا الأخير على تربيتها، ولا أن تكون مجموعة الخيول المعروفة باسم داورياتي (Daouriati) تنتمي إلى مزارع خاصة بتربية الخيول (stabula equorum)[٣٧]. غير أن وجود الضيعة الملاحظة في واد العثمانية بضواحي مدينة كيرتا[٣٨]، ومزارع مماثلة في ضواحي قرطاجة[٣٩]، تبيّن لنا ممارسة هذا النشاط بشكل واسع من طرف مجموعات من مربي الخيول الإفريقية.

ولعله من الأهمية بمكان أن نلاحظ هنا ما وصلت إليه هذه الحيوانات النبيلة من خلال شهادات أصحابها ومحبيها الذين خلدوا ذكراها في النقوش ولوحات الفسيفساء، نذكر من بينها على سبيل المثال الحصان بوليدوكسوس (Polydoxus) من مدينة كويكول (Cuicul)، الذي كتب فيه صاحبه بومبيانوس (Pompeianus) مخاطبا: "غالب أو مغلوب أحبك يا بوليدوكسوس"[٤٠]. أما الحصان بولستيفانوس (Polystefanus)، فقد فاز عدّة مرات بإكليل النصر[٤١]. ونحتكم على نقش عثر عليه في روما ينسب إلى فترة حكم الإمبراطور دومتيانوس (Domitianus)، يشير إلى مشاركة عشرين حصانا إفريقيا وحصان موريطاني في سباق أقيم آنذاك[٤٢].

وخلال القرنين الثاني والثالث وحتى القرن الرابع أصبحت الخيول الإفريقية مطلوبة بكثرة، فسارعت فرق سباق العربات إلى اقتنائها، وأحبها مرتادي ميادين سباق العربات في المغرب القديم وخارجه. وبإمكاننا أن نتتبع شغف الجمهور بمتابعة المشوار الرياضي لهذه الحيوانات النبيلة من خلال مشاهد الفسيفساء التي حفظت لنا أسماء وصفات هذه الخيول، نذكر من ضمنها الحصان بولستيفانوس والحصان أرخيوس (Archeus) الذين يصورهما مشهد فسيفسائي يضعان تاجا على رأس الربة فينوس[٤٣]. ويبدو أن معظم هذه الخيول كانت تحمل أسماء أبطال الميثولوجيا مثل إكاروس (Icarus)[٤٤] وديوميدس (Diomedes)، أو أسماء بعض الآلهة مثل إله البحار نبتونيوس (Neptunius) وإله الحب كوبيدو (Cupido)، بالإضافة إلى بعض الأسماء الأسطورية مثل الحصان المجنح (Pegasus) والمضيء أو المشعّ (Faiton) والرسول (Viator)[٤٥].

وعلى أي حال فإن إغداق المال على أبطال سباق العربات كان يصاحبه حصول الخيول المقرونة إلى العربات على جوائز قيمة غالبا ما تمثلها لنا مشاهد الفسيفساء على شكل سعف النخيل أو أسطوانات مزخرفة (الشكل ٥). وهنا يجدر بنا أن نقف لنتساءل عن مصير هذه الخيول بعد انسحابها من حلبات السباق؟

نعرف من بقايا النقوش أن الخيول والأفراس الإفريقية كانت تنعم بحياة الأبطال بعد انسحابها من حلبات السباق، نذكر من ضمنها ما ورد عن الفرس سبايدوزه (Speudusa) التي عاشت حياة هادئة بعد انسحابها من ميادين السباق أين كانت "أسرع من الريح"[٤٦]. كما أننا نستفيد من الرجوع إلى قانون ثيودوزيوس (Theodosius) الذي يشير في أحد فصوله (X, 6, 1) إلى منح منحة تقاعد للخيول التي تنسحب من حلبات السباق بعد مشوار حافل بالانتصارات[٤٧].

والظاهر أن انسحاب الخيول من ميادين السباق، سواء كان ذلك في المغرب القديم أو في روما، واستفادة هذه الحيوانات من رعاية مالكيها لكونها أدرّت عليهم المال والشهرة، وعدم وجود أي دليل مادي أو أدبي يتعلّق بأكل الرومان للحم الخيل وأفراس السباق بعد تقاعدها، كلّها تدلّ دلالة واضحة على احترام وتبجيل الشعب الروماني لهذه الحيوانات النبيلة.

ولم يكن الشعب في روما وشعوب مقاطعات الإمبراطورية الرومانية في حقيقة الأمر مولعون بمتابعة فعاليات سباق العربات فحسب، وإنما تعدى ولعهم بهذه الرياضة حدّ الهستيريا. وما تعبير جوفينال (Juvenal) من أن الرومان إنما

انحصر همّهم في زمانه بمطالبة السلطة الإمبراطورية في روما بتوفير الخبز وألعاب السيرك، ونصرة الأباطرة للفرق المتنافسة من أجل تحقيق مآرب سياسية، سوى أدلّة لواقع معيشيّ أضحى جزء لا يتجزأ من الحياة اليومية للشعب الروماني(٤٨).

٤-ميادين سباق العربات

في حدود المجال الشامل الممتد ضمن ما يعرف بالليمس الروماني، يصادفنا النطاق الجغرافي للمغرب القديم الذي يمتد من حدود مصر الغربية إلى سواحل المحيط الأطلسي، أين تركّزت مرافق الألعاب الرومانية التي نذكر من ضمنها ميادين سباق العربات. وما يلفت النظر بخصوص سباق العربات في المغرب القديم هو تلك الوفرة في المعطيات الخاصة بهذه الرياضة، وهي وفرة نستشعرها من خلال الأدلة المادية التي جادت بها علينا الأبحاث الأثرية والمتمثلة في لوحات الفسيفساء، التي حفظت لنا صدى تلك المنافسات التي اهتزّت لها ميادين السباق على وقع هتافات المشجعين ومناصري مختلف فرق السباق.

ونحن نحتكم في هذا الصدد إلى مجموعة من لوحات الفسيفساء التي تنتشر عبر مقاطعات المغرب القديم، نذكر من ضمنها فسيفساء ميدان السباق في قرطاجة المحفوظة حاليا بمتحف الباردو في تونس والتي تعود إلى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي(٤٩)، فهي تمثّل مشهدا تنافسيا لأربعة فرق يمثّل كلّ فريق منها عربة مقرونة إلى أربعة خيول هي قريبة من خط الوصول (الشكل ٦)(٥٠).

وفي حدود ما نعرف عن هذه اللوحة أنها أنجزت من طرف الفنانين الذين أبدعوا ما يعرف بالمدرسة الإفريقية في فن الفسيفساء. ويبدو أن هؤلاء الأخيرين لم يقوموا بنقل أعمال فناني الفسيفساء في روما فحسب وإنما أضفوا على تلك الأعمال طابعا محليا وجعلوا من مشاهد لوحات الفسيفساء صورا صادقة للحياة اليومية في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني. ولعل أهم ما يمكن الإشارة إليه في هذا الصدد يكمن في خصوصية مشاهد فسيفساء ميدان سباق العربات في قرطاجة فهي الوحيدة التي يظهر فيها ميدان سباق روماني من زاويتين مختلفتين. إذ تصور لنا مشاهد اللوحة الحلبة ومنصات الجمهور من جهة، والبناء الخارجي لهذا الصرح من جهة أخرى، وهي مع هذا تصور لنا منافسة سباق العربات كاملة(٥١).

وفي واقع الأمر نجد أن النطاق الخارجي للصرح لا يظهر منه إلا إحدى واجهاته وهي تتشكل من قاعدة متينة تعلوها طوابق مزيّنة بأقواس عديدة. وعلى النقيض من ذلك، فقد مثّل الفنان صورة متكاملة لداخل ميدان السباق. وإذا ما يلاحظ تغطية شراع (velum) لثلاث واجهات من واجهات المبنى الداخلي، كان الغرض منه حماية الجمهور من تقلبات الطقس، فإن واجهته الرابعة المقابلة للواجهة الخارجية تبدو غير محمية ومنصاتها خالية من الجمهور(٥٢).

ويظهر المشهد تنافس أربع عربات، كل واحدة منها مقرونة إلى أربعة خيول، يقودها رياضيون تزيّنهم ألوان فرق سباق العربات. ويبدو أن المشهد يمثّل فترتين زمنيتين متباينتين، ففضلا عن تسابق ثلاث عربات هي في دوران حول حلبة السيرك، تتجه العربة الرابعة في الاتجاه المعاكس، ويلاحظ إمساك حوذي هذا القرن الأخير بسعفة نخل، هي دليل انتصاره في السباق. ونحن نعرف من المشهد أن القرن الأخير في دورة شرفية حول حلبة ميدان السباق، ويتقدم العربة المنتصرة فارس (hortator) يمتطي صهوة حصانه فاتحا الطريق للحوذي المنتصر(٥٣).

ومن بين ما يمكن ملاحظته في هذه اللوحة من تلك التفاصيل التي تضفي عليها طابعًا محليًا خاصًا، وجود تمثال المعبودة كيبال (Cybèle) ممتطية أسدًا، وقد وضع التمثال منفردا في وسط حاجز فصل ميدان السباق. ونحن نعرف من حفريات ميدان السباق الكبير في روما وجود تمثال هذه المعبودة بالقرب من مسلّة تتوسط حاجز الفصل(٥٤). ففي الوقت الذي اعتمد فيه الحرفيون والفنانون في روما وفي باقي مقاطعات الإمبراطورية الرومانية على نموذج ميدان السباق الكبير في إنجاز لوحات فسيفساء سباق العربات، خالف فيه المغاربة القدماء هذا النموذج، فمثلوا مشاهد سباق العربات معتمدين على النماذج المحلية التي من ضمنها ميدان سباق مدينة قرطاجة(٥٥). ومما يلفت النظر في لوحة ميدان سباق قرطاجة وجود شخص يبدو أنه من موظفي الملعب يعرف باسم (Sparsor). إذ يبدو هذا الموظف قريبا من خط الوصول ويحمل سوطا بيد بينما يمسك جرّة مملوءة بالماء باليد الأخرى، ومن الظاهر أن هذا الموظف كانت مهمته إلقاء الماء على الخيول وعرائش العربات لتبريدها(٥٦).

ولا يمكن أن يذكر الباحث فسيفساء ميدان سباق مدينة قرطاجة إلاّ ويجد نفسه مضطرا لذكر فسيفساء بيت سيلين في ليبيا، فنحن لا نعرف الكثير عن هذه اللوحة، سوى أنها اكتشفت بالقرب من مدينة لبدة، وهي تعود إلى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للميلاد، وهكذا فإن هذه اللوحة معاصرة للوحة ميدان سباق مدينة قرطاجة في تونس. وفي الحقيقة، فإن اللوحتين هما أقدم ما نعرفه عن مشاهد سباق العربات الممثّلة على لوحات الفسيفساء(٥٧).

وتمثّل مشاهد لوحة بيت سيلين تنافس مجموعة من العربات المقرونة بأربعة خيول، وتشترك مع لوحة ميدان سباق مدينة قرطاجة في كونها تمثّل الحوذي المنتصر يمسك بسعفة نخل هي رمز انتصاره في السباق. وفي حين كان يتقدم عربة الحوذي المنتصر فارس يرافقه في دورته الشرفية، يلاحظ توسط تمثال كيبال حاجز فصل ميدان السباق. كما نتعرف من خلال اللوحة على الشخص الذي هو قريب من خط الوصول وهو الموظف الممثّل بنفس الوضعية في فسيفساء ميدان سباق قرطاجة، إذ يحمل سوطًا بيد ويمسك جرّة مملوءة بالماء باليد الأخرى(٥٨).

والمرجّح أن سباق العربات كان خلال القرن الخامس والقرن السادس لا يزال قائمًا، وأن ممارسة هذه الرياضة كانت مزدهرة، إذ يفيدنا الرجوع إلى لوحة فسيفساء (الشكل ٧) اكتشفها فريق من علماء الآثار بالقرب من مدينة قفصة في تونس(٥٩)، تعود إلى بداية القرن السادس الميلادي، في التعرف على منافسات سباق العربات أثناء إجرائها(٦٠).

وما يمكن قوله بخصوص هذه اللوحة الفنية أنها أنجزت من طرف فنانين لم يراعوا الجانب الجمالي في تشكيلها، وهم الذين أبدع أسلافهم مدرسة فنية خلال القرن الثاني والقرن الثالث الميلاديين، أنجز فنانوها لوحات فنية أظهروا فيها أدق التفاصيل. فضلا عن ذلك، فاللوحة تنتمي بنمطها التجريدي إلى الإنتاج الفني المتأخر في المغرب القديم فهي تصور لنا شخصيات المشهد متصلبة ومتصنعة، توحي ملامحها الجسمانية إلى جهل الفنان التام بتمثيل مورفولوجية الإنسان. ومن المهمّ أن نلاحظ هنا تمثيل الجمهور المتابع لفعاليات السباق، فهو على النقيض من لوحات القرنين الثاني والثالث التي تظهر حركية الجمهور وتجاوب المناصرين مع تألق أبطال فرق السباق، إذ يبدو هذا الجمهور بملامح جاثة وخالية من أي مشاعر تمثلها وجوه متراصة في صفوف(٦١).

وعمومًا، فإن ميدان سباق مدينة قفصة يوضح لنا النموذج الذي اعتمده الفنان في إنجازه لهذه الفسيفساء وهو ميدان السباق الكبير في روما. فلم يحدث أن عثر علماء الآثار على بقايا مبنى ميدان سباق يعود إلى هذه الفترة في مدينة قفصة أو ما جاورها من الأراضي المحيطة. وربما أقيمت فعاليات سباق العربات الذي تجسّده اللوحة في فضاء قريب من المدينة، إذ كان بإمكان المغاربة القدماء تهيئة سهل يحلّ موضع ميدان السباق وبناء نوع من الساتر الترابي يمثل حاجز فصل الميدان(٦٢). وقد ترك الوجيه أو الثري للفنان حرية التصرّف في بقية التفاصيل المتعلّقة بالمنافسة، فقام الحرفي بتضخيم الهبة لإظهار سخاء الوجيه(٦٣). وتظهر مشاهد الفسيفساء تنافس أربع عربات قرنت كل منها إلى أربعة خيول، اثنتان منها في حالة متقدمة من التلف بفعل العوامل الطبيعية التي قضت على جزء كبير من اللوحة، بينما يقود قرن الاثنتين المتبقيتين حوذيان يرتدي كل منهما سترة زرقاء. وفي حين يظهر الفنان تقدم قائد العربة الأولى الممسك بأعنة قرنه، يحاول المتنافس الثاني التقدم على غريمه حاثًا خيوله على الإسراع بضربات سوطه المتتالية(٦٤).

خاتمة

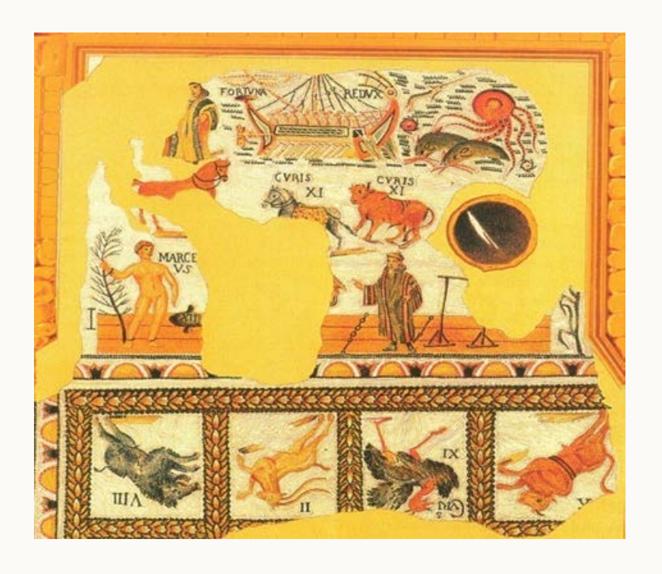
رغم عدم امتلاكنا للأدلة الأثرية والنصوص التي يمكن لنا بواسطتها تحديد الوضعية الاجتماعية التي تمتع بها قواد عربات السباق، إلاّ أن تألق هؤلاء الرياضيين خلال الاحتفالات التي كانت تقام في المغرب القديم خلال العهد الإمبراطوري، قد جلبت لهم حب الجمهور ومناصرته لهم. وهكذا فإننا لن نكون من المبالغين في حالة ما إذا أكدنا أن النصوص التي وصلت إلينا من الأدباء والمثقفين الوثنيين من أمثال بترونيوس (Petronius)(٦٥) ومارتيال (Martial)(٦٦) وبلينوس الشاب (Pline le jeune)(٦٧)، ومن منظري النصرانية من أمثال ترتوليانوس (Tertullien)(٦٨)، هي صور منقولة عن مشاهد سباق العربات التي تمثّلها لنا لوحات الفسيفساء. وبأن هذه الصور ليست مجرّد سرد أدبي لمجموعة من المثقفين الذين كانوا يمقتون هذه الاحتفالات، وإنما هي انعكاس للثقافة الرومانية التي جسّدتها عروض سباق العربات وعروض المصارعة، والتي تبناها مجتمع المغرب القديم بمختلف أطيافه.

الملاحق



شكل (١)

فسيفساء الحوذي المنتصر (Eros)، مدينة دوقة (تونس)
Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de Tunisie, p 313.



شكل (٢)

فسيفساء عودة الحظ (Fortuna redux)، تبسة (الجزائر)

Blas de Roblès (J.-M) et Sintes (C.), Sites et monuments antiques de l'Algérie, p 232.



شكل (٣)

حوذي منتصر يقود عربة مقرونة بأربعة خيول

Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de Tunisie, p 312.



شكل (٤)

فسيفساء منزل سوروتوس في سوسة

(تونس، القرن الثالث الميلادي)

Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de Tunisie., p 203.



شكل (٥)

فسيفساء خيول السباق المنتصرة، متحف الباردو (تونس)

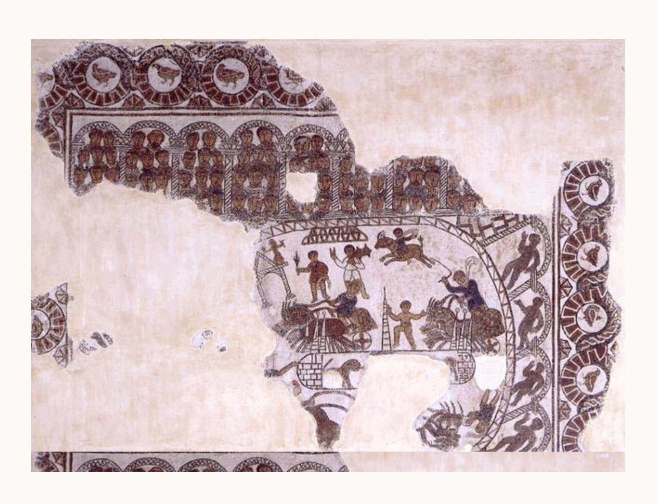
Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, p 193.



شكل (٦)

ميدان سباق العربات في قرطاجة

Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de Tunisie, p 302.



شكل (٧)

فسيفساء سباق العربات، قفصه (تونس)، الفترة البيزنطية

Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de Tunisie, P.306.



الهوامش:

(1) Sophocle, *Electre* : 698-756.

(٢) بن علال رضا، "**العربات القتالية في المغرب القديم**"، حوليات المتحف الوطني للآثار القديمة، ١٥، ٢٠٠٥، ص٨.

(3) CIL, VI, 10050.

(٤) بن علال رضا، "**عربات الألعاب في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني**"، حولية المؤرخ، ٣-٤، ٢٠٠٥، ص ٦٢.

(5) Thuillier (J.-P.), Le sport dans la Rome antique, Paris : Errance, 1996, pp 125-130.

(6) Hugoniot (Ch.), Les spectacles de l'Afrique Romaine. Une culture officielle municipale sous l'empire romain, Lille: Atelier National de reproduction des thèses, 1996, T.1, p 621 ; Lassere (J.M.), «Choix d'inscriptions relatives à l'histoire de l'Afrique. Traductions avec éléments de commentaire», dans L'Afrique Romaine de 69 à 439, Romanisation et christianisation, ouvrage collectif coordonné par Bernadette Cabouret, Paris : Editions du Temps, 2005, pp 67-68.

(7) CIL, VIII, 16566.

(8) Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), «Le gout du cirque en Afrique», dans Le cirque et les courses de chars : Rome-Byzance, Edité par Christian Landes, Lattes : Imago, 1990, p 160.

(9) Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Tunis: Ed. de la Méditerranée, 1994, p 199.

(10) Heron de Villefosse (M.), «Les mosaïques de Tébessa (Théveste)», RSAC, 24, 1886-1887, p 241.

(11) Ennaifer (M.), «Le thème des chevaux vainqueurs à travers la série des mosaïques Africaines», MEFRA, 95, 2, 1983, 821.

(12) Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), «Le gout du cirque en Afrique», Op.cit., pp 160-161.

(13) Picard (G.-Ch.), La civilisation de l'Afrique Romaine, Paris : Plon, 1959, p 261.

(14) Thuillier (J.-P.), Op.cit., p 130.

(15) Hamman (A.-G.), La vie quotidienne en Afrique du nord au temps de Saint Augustin, Paris : Hachette, 1979, p 159.

(16) Hugoniot (Ch.), Les spectacles de l'Afrique Romaine..., T.1, Op.cit., p 639.

(١٧) بن علال رضا، "**عربات الألعاب في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني**"، المرجع السابق، ص ٦٣.

(18) Mahdjoubi (A.), Les cités romaines de Tunisie, Tunis : S.T.D, S.D, pp 86-87.

(19) Sablayrolles (R.), « La passion du cirque sous le Haut Empire », dans Le cirque et les courses de chars : Rome-Byzance, Edité par Christian Landes, Lattes : Imago, 1990, p 127.

(20) Yakoub (M.), Splendeurs des Mosaïques de Tunisie, Tunis : Agence Nationale du Patrimoine, 1995, p 301.

(21) Mahdjoubi (A.), Op.cit., p 84.

(22) Hugoniot (Ch.), Op.cit., pp 625-626.

(23) Tran (N.), «Les grandes productions africaines dans les échanges méditerranéens de la fin du Ier s. au début du Ve s. ap. J.-C.», dans L'Afrique Romaine de 69 à 439, Op.cit., p 175.

(24) Strabon, Géographie, XVII, 3, 7.

(25) Tite Live, Histoire Romaine, XXX, 11, 7-11.

(26) Ibid., XXX, 6, 9.

(27) Polybe, Histoire, XII, 3, 3-4.

(28) Tite Live, Histoire Romaine, XXXI, 19, 14 ; XXXII, 27,8 ; XXXVI, 4,8 ; XLII, 62 ; XLIII, 6.

(29) Bourdy (F.), « Les chevaux de courses de chars à Rome », dans Le cirque et les courses de chars : Rome-Byzance, Op.cit., pp 147-148.

(٣٠) بن علال رضا، "**دراسة تحليلية حول أصول ودور العربات القتالية في المغرب القديم**"، الحكمة، ٣، ٢٠١٠، ص٨٢-٨٣.

(31) Spruytte (J.), Attelages antiques Libyens, Paris : Maison des sciences de l'homme, 1996, pp 27-31.

(32) Thuillier (J.-P.), Le sport dans la Rome antique, Op.cit., p 134.

(33) Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), «Le gout du cirque en Afrique», Op.cit., p 159.

(34) Thuillier (J.-P.), Op.cit., p 134.

(35) Hugoniot (Ch.), Les spectacles de l’Afrique Romaine..., T.1, Op.cit., p 633-634.

(36) Ennaifer (M.), «Le thème des chevaux vainqueurs à travers la série des mosaïques Africaines », Op.cit., p 830 ; fig. 16.

(37) Hugoniot (Ch.), Op.cit., p 634; 637.

(38) Duval (N.), «Les prix du cirque dans l’antiquité tardive», dans Le cirque et les courses de chars : Rome-Byzance, Op.cit., p 137.

(39) Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), « Le gout du cirque en Afrique », Op.cit., p 159.

(40) Bourdy (F.), «les chevaux des courses de chars à Rome», Op.cit., p 147.

(41) Beschaouch (A.), «Encore la mosaïque des chevaux de Carthage : A propos de Polystefanus le coursier aux multiples victoires », CRAI, 1996, pp 1315-1320.

(٤٢) بن علال رضا، "**الحصان الليبـــي من خـلال بعض نصوص المصادر الأدبية الإغريقيـة واللاتينية**"، الباحث، ١، ٢٠٠٩، ص ص١٩٥-١٩٦.

(43) Picard (G.-Ch.), La civilisation de l'Afrique Romaine, Op.cit., p 262

(44) Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Op.cit., p 195.

(45) Ennaifer (M.), « La Mosaïque aux chevaux d’El Mahrine (Près de Thuburbo Minus. L’actuel Tébourba) », MEFRA, 106, 1, 1994, pp14 303-318 ; Hugoniot (Ch.), Les spectacles de l’Afrique Romaine..., T.1, Op.cit., p 633.

(46) Thuillier (J.-P.), Le sport dans la Rome antique, Op.cit., p 135.

(47) Bourdy (F.), «les chevaux des courses de chars à Rome», Op.cit., p 148.

(48) Veyne (P.), Le pain et le cirque, Op.cit., p 84 et pp 701-714.

(49) Yakoub (M.), Op.cit., p 302.

(50) Ling (R.), Ancient Mosaics, London: British Museum Press, 1998, p 91

(51) Fantar (M.-H.), Op.cit., p 179.

(52) Golvin (J.-C.) et Fauquet (F.), «Les images du cirque de Carthage et son architecture. Essai de restitution », dans Mélanges offerts à Louis Maurin, Bordeaux, 2003, p 284.

(53) Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Op.cit., p 180.

(54) Golvin (J.-C.) et Fauquet (F.), Op.cit., p 289.

(55) Yakoub (M.), « Les aspects particuliers de la scène de courses dans la mosaïque de cirque de Gafsa », Les Cahiers de Tunisie, 29, 1981, pp 495-497.

(56) Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), « Le gout du cirque en Afrique », Op.cit., p 159.

(57) Yakoub (M.), Splendeurs des Mosaïques de Tunisie, Op.cit., p 302.

(58) Picard (G.), «La villa du taureau à Silin (Tripolitaine)», CRAI, 129(e) année, 1, 1985, fig. 2, p 231.

(59) Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Op.cit., p 181.

(60) Yakoub (M.), « Les aspects particuliers de la scène de courses dans la mosaïque de cirque de Gafsa », Op.cit., p 495.

(61) Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Op.cit., p 180-181.

(62) Hugoniot (Ch.), Les spectacles de l’Afrique Romaine..., T.1, Op.cit., pp 619-620.

(63) Fantar (M.-H.), Op.cit., p 181-182.

(64) Fantar (M.-H.), Op.cit., p 181.

(65) Pétrone, Satiricon, LXX, 13.

(66) Martial, Epigrammes, XI, 1.

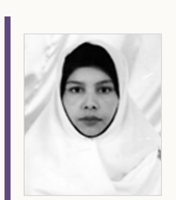
(67) Pline le jeune, *Lettres*, IX, 6.

(68) Tertullien, Contre les spectacles, 16.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

مقالات

صناعة الخشب في الجزائر
خلال العهد العثماني



د. سميحة ديفل
أستاذة محاضرة (ب) آثار إسلامية
قسم التاريخ والآثار – جامعة قسنطينة (٢)
عبد الحميد مهري – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

لقد نشطت الحرف الخشبية في الجزائر خلال العهد العثماني فمارسها النشارون الذين اشتغلوا بقطع أو نشر الخشب، وهي حرفة أولية لصناعات خشبية أخرى كالخرط حيث يتم تهيئة قطع الخشب ليحكم بريها وتشكيلها، وقد ساهمت أعمال الحرفين من خراط ونجار ونشار في تزويد البنايات بالشربيات والأبواب والأسقف أو تحفًا منقولة مثل المنابر والمحاريب والكراسي والصناديق، والرحال والتوابيت، وذلك راجع إلى ما تميزت به الجزائر من التنوع الكبير في الخشب المتوفر بالساحل والهضاب العليا ومرتفعات الأطلس الصحراوي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١١	فبراير	٢٠١٦
تاريخ قبـول النشـر:	٢٧	مايو	٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
تقنية الصناعة، مراكز الصناعة، أدوات الصناعة والزخرفة، المنابر، الكراسي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052963

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
سميحة ديفل "صناعة الخشب في الجزائر خلال العهد العثماني".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص٤٠ – ٤٨.

مُقَدِّمَة

تعتبر صناعة الخشب رافدًا من روافد الربط بين الحضارات المختلفة، ومادتها الخشب من المواد التي لا غنى للإنسان عنها بل عدت من دعائم بقائه،[١] والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة بكل واحد بين صورها على اختلاف رواتبها هي النجارة،[٢] وتعتبر من أهم فروع تحويل الخشب، وشهدت تقدما في العالم الإسلامي أكبر من الذي شهدته البلدان التي تنتج كميات كبيرة من الخشب، فبرع المهندسون الصناع المهرة في صناعتها حتى طارت شهرتهم وجابت أنحاء العالم، إذ لا بد لهم من السقف لبيوتهم، والإغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم والرماح والسهام لسلاحهم وكل هذه الأمور تحتاج إلى مادة الخشب، ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة، والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها،[٣] وعرف صاحب هذه الحرفة بالنجار كما عرف النجر بأنه نحت الخشب،[٤] كما يسمى إلى جانب النجار، النشار والخشاب.

وسميت المحلات أو المشاغل التي مورست فيها هذه الحرفة بالمناشير، والتي تموضعت وتواجدت بالمداخل الرئيسية للمدينة. وبما أن الصناعات عرفت قفزة نوعية في العهد العثماني أردنا من خلال هذه المقالة إبراز مكانة الصناعة الخشبية خلال العهد العثماني وأهميتها بالمساهمة في الاقتصاد الجزائري مركزين على أهم المنتجات التي كانت تصنع بالجزائر خلال العهد العثماني مع تبيان طريقة صناعتها وزخرفتها وهل كانت تتماشى وخصوصيات المنطقة.

١-تعريف الخشب

يعرف باللاتينية بوسكوس (BOSCOUS) وهو عبارة عن مادة صلبة متلاحمة ليفية تتكون عموما من الساق والجذر والفرع،[٥] والخشب ما غلظ من العيدان والجمع خشب،[٦] وإذا أخذنا قطعا في جذع الشجرة وجدناها تتكون من:

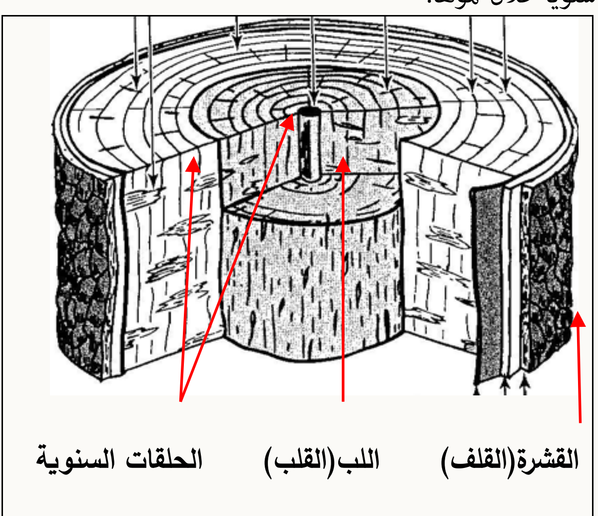
القلب: وهو المركز تتكون حوله الحلقات السنوية ويحتوي على جزء من العصارة المستعملة في نمو الشجرة ومع مرور السنين يجف هذا الجزء نتيجة تبخر العصارة التي تمتصها الفروع

والأوراق، وعدد الحلقات هو الذي يحدد لنا عمر الشجرة حسب نوعها.

الأشعة النخاعية: هي تلك المستويات العمودية الواقعة بين مركز الشجرة وخارجها، تعمل على تحويل جزء من العصارة لداخل الشجرة أثناء نزولها، وهي الفترة التي يحبذ فيها قطع الشجرة.(٧)

القلف (القشرة): هو الغطاء الخارجي للشجرة ويستعمل كمادة فلين.

الحلقات السنوية: تعمل الخارجية منها على تغذية الشجرة سنويا خلال نموها.(٨)



مقطع لجذع شجرة

عن: الإدارة العامة لتصميم وتطوير المناهج

٢-أنواع الأخشاب المستعملة في الجزائر

١/٢-البلوط

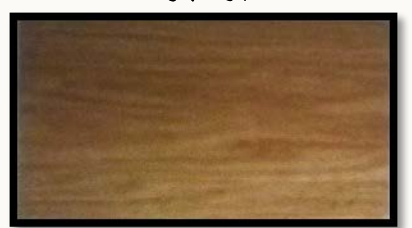
هناك أنواع مختلفة ومتعددة من خشب البلوط، وأفضل أنواعه الذي ينمو في الجبل، ومن الأفضل تركه على لونه أثناء الحفر حيث يكون ذهبيا وبه تأثيرات تجازيع حسنة المنظر، ولا يعني ذلك أنه غير قابل للتلوين أو الصباغة ولكن حتى لا نسد مسام الخشب لجعله كالحجارة أو المعدن.(٩)

يتواجد في أغلب غابات الساحل، وضواحي مدينة قسنطينة، وهو يعتبر من أجمل الأشجار، وأكثرها استغلالاً لشدة الإقبال على استخدام خشبها، يصل قطرها إلى ٦م، وهو صلب جدًا ويتميز بعروق منتظمة وثقيلة الوزن، ولكي يبقى متماسكًا من الأفضل تجفيف القطعة الخشبية بمعزل بعد غطسها في الماء، وهو جيد الاستعمال في النجارة الداخلية والخارجية لأنه يصقل بصورة جميلة.(١٠)

أما البلوط الأخضر فنجده إما مستقلاً أو مختلطًا بالصنوبر الحلبي في جبال الونشريس والأطلس البليدي وقمم بني سليمان ومن مميزاته أنه سريع النمو في فترته الأولى، وهو خشب صلب جدًا يستعمل كمادة تسخين، وفي صناعة أدوات النجارة، يأخذ مع الوقت لونا جميلاً جدًا يتراوح ما بين الأسمر والأسود، وقشرته مطلوبة جدا لدباغة الجلود.(١١)



شجرة البلوط



لب شجرة البلوط

٢/٢-الصنوبر

تنمو معظم أشجار الصنوبر بسرعة كبيرة وتكون جذوعا طويلة ومستقيمة، وهو خشب صمغي له أنواع تميل إلى الأحمر، يسمح للفنان بالإبداع في زخرفة التحف، يستعمل في البناء والنحت.(١٢) وتكثر أشجار الصنوبر في مدينة بونة،(١٣) على الشريط الساحلي الممتد من القالة إلى بجاية،(١٤) ومن مميزاته التعريق، ويقطع بصورة جيدة تسمح للفنان بالإبداع في زخرفته، ويستعمل في البناء والنجارة والنحت، وهو من أكثر الأنواع انتشارًا في الجزائر إلى جانب البلوط الأخضر.(١٥)



شجرة الصنوبر

٣/٢-خشب الأرز

استخدمه الحرفيون بشكل كبير في تسقيف مبانيهم، وكان خشب الأرز مفضلاً في ذلك لمقاومته للتسوس،(١٦) ويأتي في المرتبة الأولى من بين الأخشاب التي تزخر بها الجزائر، فهي أشجار قوية ذات لون أصفر، يتمركز في أعالي الجبال التي يزيد علوها عن ١٥٠٠م كجبال الونشريس، والبابور، والأوراس، والأطلس البليدي، وجرجرة. وثنية الحد، التي توجد بها أجمل غابة أرز تكون لنا

حظيرة جميلة.[١٧] وأستعمل في جل الأعمال الفنية الزخرفية لخصائصه المتمثلة في القوة والرسوخ والمتانة تجعله يتحمل التقلبات الجوية أكثر من غيره، كما أن شكله لا يحتوي على العقد والالتواءات، لا تتمكن منه الحشرات إلى جانب رائحته الزكية.[١٨] كما أستخدم خشب الأرز في التدفئة وبناء السفن وصناعة الأثاث.[١٩]



شجرة الأرز



مقطع في جذع شجر الأرز

٤/٢-خشب الجوز

يتميز بالصلابة وجمال أليافه، وهو أثمن الأخشاب وأصلحها في الحفر الدقيق لاندماج أليافه وتراكمها ومن الأفضل أن يترك خشب الجوز على طبيعته اللونية،[٢٠] وأهم المناطق التي انتشر فيها هي مدينة مليانة ومدينة تبسة التي تحدث عنها الكثير من الرحالة الذين وصفوا غاباتها التي تغطي كل المنطقة، والثروة الكبيرة التي تتمتع بها لا سيما أشجار الجوز العالية.[٢١]



شجرة الجوز



لب شجرة الجوز

٥/٢-خشب العرعر

ينتمي إلى فصيلة الأشجار الصنوبرية على الرغم من عدم إفرازه لمادة الراتنج، يتميز بالنمو البطيء والجذع ذي العقد الكثيرة، مما جعل استخدامه مقتصرًا على المصنوعات ذات الحجم الصغير، يوجد في الهضاب العليا وينتهي عند جبال الظهرة بالجنوب.[٢٢]



شجر العرعر



خشب العرعر

٦/٢-شجرة العفصية

يوجد في التل الوهراني والعاصمي، وهو يغطي مساحات معتبرة يوجد إما مستقلاً أو مختلطًا بأشجار الصنوبر الحلبي، وهو نادر الوجود بمقاطعة قسنطينة، سمعته في مجال الأعمال الفنية للنجارة كبيرة جدًا واستعماله موغل في القدم فأستغل في صناعة الأثاث الرفيع وكان يشترى بأثمان باهضة.[٢٣]

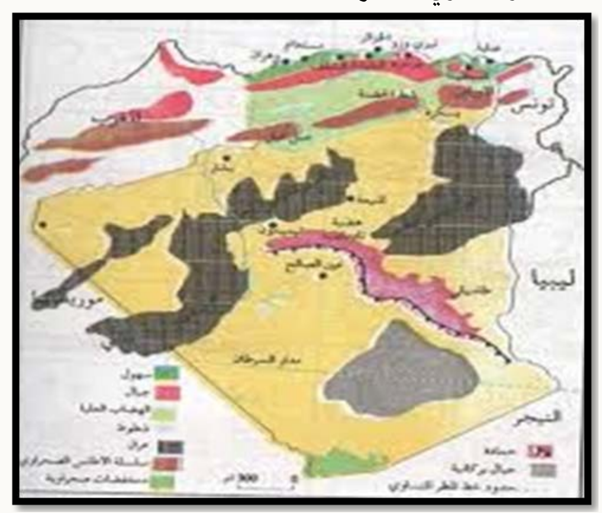


شجرة العفصية

٣-أماكن تواجد الخشب في الجزائر خلال العهد العثماني

يخضع توزيع الغابات في الجزائر وكثافتها لنفس الظروف المناخية التي تخضع لها الغابات في جميع أنحاء العالم، إذ تعتبر الغابة التعبير الحقيقي للمناخ، فالخريطة الغابية للجزائر تتطابق

تمامًا وخريطة معدلات تساقط الأمطار، لأن الماء يُعَدّ عاملاً مهـمًا في نمـو الغابـات في الجزائـر وتوزيعهـا عـبر منـاطق مختلفـة في الساحل والتل، وفي الصحراء.



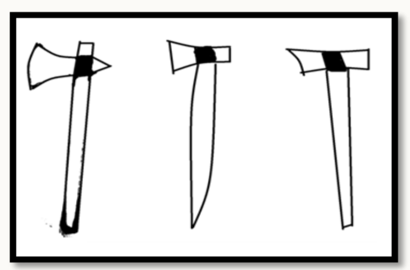
الخريطة الطبيعية للجزائر

وخـلال العهـد العـثماني اتسـمت الـثروة الغابيـة بالشسـاعة وتركـز تواجـدها بالمنـاطق التليـة والهضـاب العليـا ومرتفعـات الأطلـس الصـحراوي، في حـين تقلصـت مسـاحتها أواخـر العهـد العـثماني لاسـتغلال الأخشـاب في إقامـة المسـاكن، وصـنع الأثـاث والتدفئة، مما تطلب قطع واقتلاع عدد كبير من الأشجار، وإتلاف غابات نواحي بجاية وجيجل فشحنت أخشابها إلى ترسانة السفن بالجزائر، بأمر من شيوخ القبائل المتعـاونين مـع الحـكام الأتـراك مقابل نيل الامتيازات وقـد عـرف هـذا النـوع مـن التعـاون بـين العائلات الإقطاعية ورجال البايلك بنظام الكراسة.(٢٤)

٤-أدوات الصناعة والزخرفة

اعتمـد النشـارون في حـرفتهم عـلى الطاقـة العضـلية، وعـلى أدوات متعددة الأحجام والأشكال التي أستخدمت في قطع ونشر الخشب. ولا يخف أن لهذه الصناعة أدوات كثيرة لا يمكننا ذكرها جميعا ونذكر منها:

الفأس: ويقال لها الصاقور، وهي الفأس الكبيرة التي لها رأس واحد دقيق، والفأس الصغيرة تسمى القـدوم، ونصـابها خشـبتها، وغرابها حدها.(٢٥)



أنواع الفأس

المطارق: تستعمل في دق المسامير لتلحـيم فصـائل الخشـب، منها دائرية الرأس والمدببة.

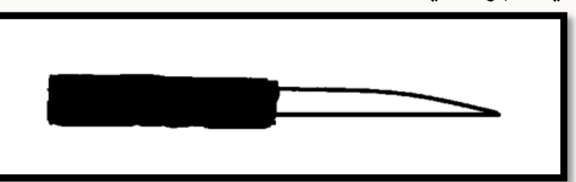




المسطرة: يستعملها النجار في قياس الأطوال والزوايـا وتكـون من الخشب أو المعدن



سكاكين الكشط والنحت: ينبغي أن تكون من أجـود الفـولاذ وأحده وأعتقه في الجودة، وتكون هذه السكاكين أحـد مـا تقـدر عليه وأجود سقيا.(٢٦)



سكين للكشط

أدوات الزخرفة:

تمثلت في أداة المحك والرقامة، والأزاميل باختلاف رؤوسها.



٥-طريقة التصنيع

القطع: إن الفترة المناسبة لقطع الخشب هي بداية فصل الخريف في الفترة التي تسبق هبوب الرياح،[٢٧] ويستعمل في قطع الأشجار البلطة والمنشار الذي يحمله شخص أو شخصان، وبعد القطع تلقم الشجرة إما في الموقع أو بعد نقلها.[٢٨]



عملية التجفيف:

توجد طريقتان لتجفيف الخشب هما:

التجفيف الطبيعي: يتلخص في شق جذوع الأشجار إلى ألواح أو كتل متساوية العرض والسمك، بعد إزالة اللحاء الخارجي للشجرة بواسطة سكاكين القشط، وتوضع هذه الأخشاب معرضة للجو، وتترك مدة تتراوح بين ستة أشهر وعامين حسب نوع الخشب، فكلما كان الخشب صلبا احتاج إلى مدة أطول في عملية التجفيف، وذلك حتى يتعرض إلى كافة أنواع الظروف الجوية خلال السنة، وللتجفيف الطبيعي مميزات أهمها ضمان الحصول على أخشاب جيدة الجفاف خالية من المواد الغذائية التي تعرضها للأمراض، كما أنه لا يؤثر على اللون الطبيعي للخشب. أما عيوبه فهي البطء الشديد في عملية التجفيف، ويحتاج إلى مساحات واسعة لوضع الخشب وتعريضه للجو.

التجفيف الصناعي: وهو أسرع من الأول يجري على الأخشاب بعد شقها إلى ألواح داخل أحواض من الماء الجاري بسرعة حتى تتخلص هذه الأخشاب من المواد التي تعرضها للأمراض، لكن عيوبها أن سطح الخشب يصاب بالاحتراق والتفحم.[٢٩]

٦-العمل في الورشة

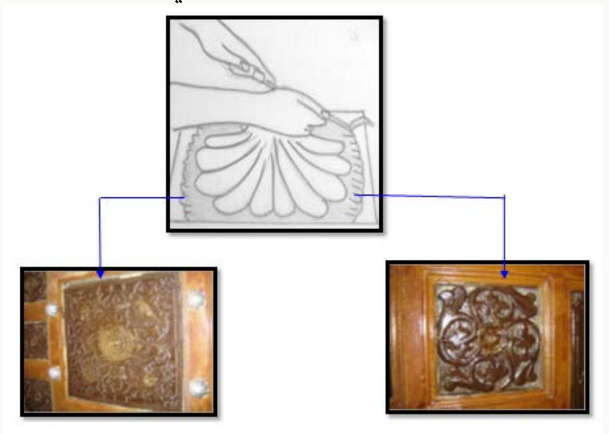
القياس: تعد عملية القياس والعلام مرحلة ضرورية في جميع أشغال النجارة، وقد يتسبب عدم القياس في إفساد العمل، مع مراعاة المراجعة الدقيقة قبل الشروع في الخطوات الأخرى، وحين يهم النجار في قياس الأطوال والزوايا يجب أن يقوم برسمها ثم يعلمها بطريقة واضحة على القطعة المراد تصنيعها بواسطة إحدى الأدوات المذكورة.[٣٠]

النشر والقطع: بسبب تباين شكل الخشب ومقاسات حجمه الطبيعي صعوبة لعملية القطع، مع الأخذ بعين الاعتبار نوعية المادة التي تتميز باحتوائها على ألياف مما يستوجب احترام اتجاه العروق، وأثناء النشر لا بد من وضع سلاح المنشار فوق العلام مباشرة، أو بالقرب منه تفاديا لاختفائه أثناء عملية النشر.[٣١]

طريقة التمليس: إن الطريقة المتبعة في هذه العملية تتمثل في وضع القطعة فوق الدعامة على ارتفاع مناسب، ويشرع في تهيئة الأسطح الخشنة باستعمال المسحاج الكشطي ذي السلاح المحدب، وللحصول على سطح مستو أملس يستخدم مسحاج التمليس أو المسحاج المزدوج الذي يقوم بنزع كشاطات رقيقة من جهة ويمنع تطاير شظايا الخشب من جهة أخرى، مع الانتباه دائما إلى اتجاه الألياف، وإذا تعلق الأمر بجذع شجرة مستديرة يجب إتباع المحور الطولي للجذع بعد تهذيب الأسطح الخارجية ويجب استعمال الزوايا القائمة أو العين المجردة لمراقبة سير العملية باتجاه صحيح.[٣٢]

طريقة الحفر والحز:

ويتم الحفر على الخشب بواسطة أزاميل مختلفة الأحجام والأشكال حيث يستخدم نحات الخشب أزميلا منحرفًا ذو حافة قاطعة مائلة لقطع مخطط الزخرفة المطلوبة لجعل السطح أملس، ويستخدم أزميلا مقعرًا ذو حافة قاطعة لقطع الخشب القريب من الحافة (ويقوم بتعميق الخطوط على الشكل الزخرفي، أما الجهة الخلفية فيمكن قطعها باستخدام ازميل مستقيم ،وتنفذ الزخارف المحفورة بطريقة تسمح بحفظها وتماسكها، وذلك بترك أجزاء كافية تفصل بين العناصر المحفورة، فتصبح الزخارف محفورة والأرضيات تبقى بارزة، وهذا ما يطلق عليه الحفر ذي الزخارف الغائرة ويمكن الحصول على الزخارف المائلة بحفر الزخارف حفرًا مائلاً تتقابل حوافها ببعضها البعض مشكلة زاوية منفرجة وحادة وهذا النوع يعتبر ابتكارًا إسلاميًا خالصًا،[٣٣] فأعطى ذلك لمحة جمالية في المصنوعات الخشبية وذلك بالحفر فيه،[٣٤] فأقبل الفنانون المشتغلون بالحفر على الخشب في إنتاج التحف الدقيقة لا سيما المنابر والأبواب والكراسي،[٣٥] وهو ما نجده على التحف التي تحتفظ بها المساجد والقصور بالجزائر خلال العهد العثماني.



زخارف نفذت بواسطة الحفر البارز بمنبر جامع الباي بعنابة (عن بن بلة خيرة)

طريقة الثقب: يشرع في إحداث خطين متقاطعين لتحديد مركز الثقب بواسطة المخرز اليدوي ويتم اختيار قطر الثقب وفقا لقطر المسمار الخاص به من جهة وصلابة الخشب من جهة أخرى، فالخشب الصلب يستلزم إحداث ثقوب بقطر مساو لقطر المسمار، أما اذا كان الخشب لينا فيقلل من قطر الثقب حتى يثبت جيدًا، علما أنه لكل نوع من الثقوب أداة مناسبة وذلك لتحاشي الضغط على الخشب الذي يتسبب في تفلقه.[٣٦]

التجميع: وفيه طريقتين:

النقر واللسان: وهو التجميع الأكثر استعمالاً في تثبيت هياكل الأطر والمصنوعات، ولرسم النقر واللسان يستخدم مخط التجميع وهي أداة تحتوي على مسمار ثابت وآخر متحرك يسمح بعملية الضبط لكل أنواع المناقير، كما يمكن تنفيذ النقر على المنضدة باستعمال منقار يكون في حالة جيدة من الشحذ. أما اللسان فيجب أن يقطع من الزاوية الأمامية أولا مع العودة من حين لآخر للزاوية الخلفية، مع اتجاه نحو الأسفل بطريقة عمودية حتى يتم الحصول على اتجاه غير منحرف منذ بداية النشر لأنه إذا كانت البداية خاطئة فمن الصعب تدارك الخطأ. وتمر هذه العملية عمومًا برسم التعاشيق على الخشب بالزاوية والشنكار، يليها النشر والنقر، ثم التجميع بعد التعرية.

التوصيل بالمسامير: غالبًا ما يتم تجميع القطع الخشبية باستعمال المسامير، ولنوع المسمار علاقة بالغرض المستعمل من أجله غير أنه يراعى عند العمل اختيار المسامير التي يكون طولها أقل من سمك الخشب، وللحصول على متانة التوصيل، يفضل ترتيب المسامير خلافا في صفين أو أكثر مع مراعاة غوص رؤوسها، وفي حالة الوصلات قليلة السمك فطرق المسمار يكون بميل مناسب ليزيد من متانة التوصيل.[٣٧]

طريقة الخرط:

وكان سبب ابتكارها أن الشجر قليل في أكثر البلاد الإسلامية، ونقل جذوعه الكبيرة على اليابسة بوسائل بدائية، ومحدودة على الماء كان أمرًا في غاية الصعوبة، لأن الغابات ليست دائما قريبة من مجاري الأنهار فكان على النجارين أن يتدبروا أمرهم بالكميات المقننة التي تأتيهم وبالقياسات التي بين أيديهم وعليهم أن يستغلوا قطع تلك المادة الثمينة مهما صغرت،[٣٨] وهي طريقة استخدموها خاصة في عمل المشربيات* أو الشبكيات والدرابزين،[٣٩] وهي تعتبر أهم الزخارف الخشبية، وقد صنعت بفضل الخراطين، وذكر ابن خلدون أن صناعة الخرط تتمثل في تهيئة قطع الخشب ليحكم بريها وتشكيلها، ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدساتر، فتبدوا لمرأى العين ملتحم،[٤٠] لكن عمل الخراطين يحتاج إلى إتمام صنعته من لدن النجارين الذين كانوا يلحمون المخروطات، ويضمونها إلى بعضها حتى تتحول إلى شبابيك، وساهمت أعمالها في تزويد البنائين بالمشربيات بعد دهنها، وإنهاء الأشغال عليها فيتم تركيبها من طرف البنائين.[٤١]



حشوات نفذت بأسلوب الخرط بمنبر جامع سيدي لخضر
(عن بن بلة خيرة)

طريقة التجميع أو التعشيق:

وهي عبارة عن صناعة الأداة الخشبية من قطع صغيرة أو حشوات من الخشب[٤٢] بواسطة ضلوع خشبية، وهي طريقة تستعمل للحصول على تركيب زخرفي يقوم على ضم مجموعة كبيرة من القطع ذات الأشكال الهندسية مع بعضها البعض،[٤٣] ابتكره المسلمون في العصور الوسطى نتيجة عامل المناخ، وقلة الأخشاب الثمينة وندرتها أحيانًا، ونظرًا للرغبة في سرعة الإنجاز إبان عصر ازدهار الحضارة في الجزائر، بحيث يصعب ترك الخشب للجفاف الوقت الكافي، فكانت طريقة الحشوات بما يترك معها من فراغات بين الجزيئات تساعد في التغلب على مشكلة المناخ، إضافة إلى استخدام الحشوات والفواصل كان يساعد على مزيد من الاقتصاد في أنواع الخشب الجيد والثمينة اللازمة للتحف والأثاث رفيع المستوى، كما أنه في نفس الوقت يعمل على الاستفادة من كل جزء من الخشب الثمين مهما صغر حجمه، ونرى ذلك في مواقع كثيرة وذلك بأقسام من الأسقف الخشبية وبداية الدرابزين والزوايا والأركان المعشقة.[٤٤]

طريقة التخريم: ترتكز هذه العملية على قطع الخشب وتفريغ المساحات التي تفصل بين العناصر الزخرفية بواسطة منشار خاص وأزميل بطريقة يتم بها الحصول على زخارف مخرمة غير أن الفنانين الأتراك لم يفضلوا هذا النوع وهذا الأسلوب في الزخرفة بسبب ما ينتج عنه من كسور تحدث في التحف، وفي كثير من الأحيان إذا كان اتجاه ألياف الخشب معاكسا لاتجاه القطع، لذا يفضل استعمال هذا الأسلوب على مواد شديدة الصلابة.[٤٥]

طريقة التلوين: وظهرت هذه الطريقة في بلاد الصين منذ ٣٠٠٠ سنة حين أستغل عصير شجرة السماق في استخراج مادة اللاكية، وكانت تدهن به الأثاث أو غيرها من التحف الخشبية، ميزتها أنها تجف بسرعة، لذلك يمكن دهن القطعة عدة مرات متتالية، فيصبح السطح ناعمًا،[٤٦] وهي عملية دهن الخشب بألوان متعددة المواضيع الزخرفية المختلفة وغالبًا ما نجدها في السطوح التي تزين الغرف،[٤٧] أما الأداة المستعملة في الدهن

فهي الفرشاة، يصنعها الفنان بنفسه والألوان المستعملة هي الأصفر، الأحمر، الأسمر، الأسود.



طريقة التلوين على منبر جامع الباشا بوهران

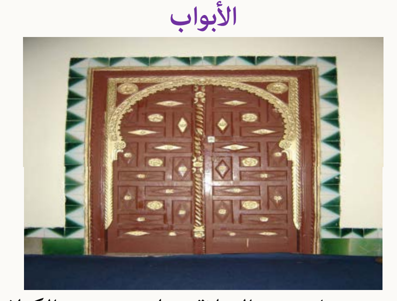
(عن بن بلة خيرة)

المواد اللاصقة: تمثلت في مادة الصمغ الطبيعية التي يستعين بها النجار في لصق منتجاته، وهي تتكون من مواد طبيعية متوفرة كالجبن الذي يمزج مع القليل من الماء، ويوضع في هاون ويقوم الصانع بعملية الدق حتى يخرج كل الحليب الرائب منه، بعدها يضيف قليلا من الكلس الرقيق ثم يدق هذا الخليط جيدًا، بعد إتمام هذه العملية يأخذ هذا الخليط فتدهن به اللوحات الخشبية المراد إلصاقها، ثم تتم العملية بخفة كبيرة وبسرعة فائقة كي لا يجف الخليط، ويمتاز هذا الصمغ الطبيعي بالصلابة الشديدة، وصموده للتأثيرات الخارجية حتى أن الماء لا يمكن من ابتلاله.[٤٨]

٧-نماذج من المصنوعات الخشبية

لقد تنوعت التحف الخشبية في الجزائر وعرفت تطورًا ملحوظًا بعد مجيء العثمانيين إلى الجزائر، فأدخلوا عليها تأثيرات متنوعة مستمدة من بيئتهم الأصلية بالإضافة إلى تمازجها مع الصناعة المحلية الجزائرية فأعطت نماذج في غاية الدقة والجمال تعبر عن تطور هذه الصناعة في ذلك العصر- وما أبدعته يد النجارين، فتنوعت المنتجات طاولات وموائد صغيرة وخزائن جدارية ورفوف، وصناديق كبيرة وصغيرة مطعمة بالعاج وكراسي وأواني للأكل، والأبواب والنوافذ المزدانة بالمشربيات والمنابر الخشبية.

الأبواب



مدخل بيت الصلاة بجامع سيدي الكتاني

(عن بن بلة خيرة)

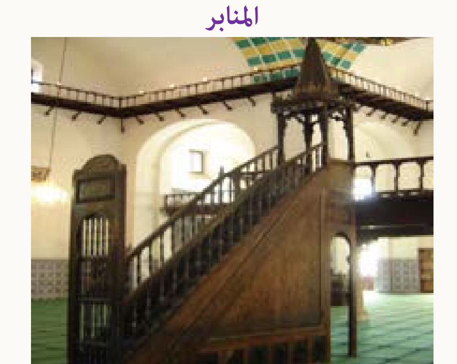


مدخل بيت الصلاة جامع الباشا (عن بن بلة خيرة)



مدخل رئيس الجامع الجديد (عن بن بلة خيرة)

المنابر



منبر الجامع الجديد



جامع سوق الغزل

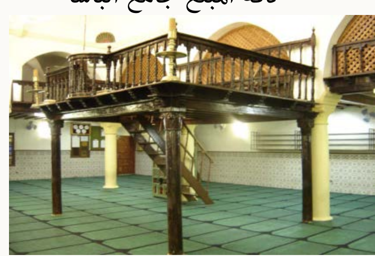

جامع الباي بعنابة

النوافذ


نافذة بالجامع الجديد

الدكات

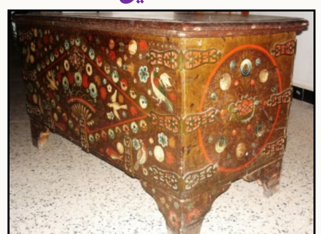

دكة المبلغ جامع الباشا


دكة المبلغ جامع صفر


دكة المبلغ جامع سيدي الكتاني

الدكات

الصناديق





الطاولات




الطوابع




الرفوف





خَاتِمَةُ

أعطى التواجد العثماني للجزائر ذوقًا رفيعًا في شكل المنتجات الخشبية والاهتمام بتطوير الكماليات، إلى جانب العناصر المعمارية، وذلك يرجع إلى توفر المواد الأولية واستغلالها من طرف الحكام في صنع الأثاث والأساطيل البحرية، فزادتها قوة عسكرية إلى جانب قوتها الاقتصادية. واستمدت طرائق صنعها ومواصفاتها من تقاليد الماضي، ومزجها بثقافات متنوعة، فزاوجت بين التأثير المحلي، والشرقي والأندلسي والأوروبي، من خرط ونقش وصبغ، والتلوين، الذين تحكموا في تقنيات استخلاصه من النباتات. فتخصصت كل مدينة بإنتاج نوع من الأثاث كقسنطينة التي اشتهرت بالزخرفة المسمارية، وبلاد القبائل التي اشتهرت بصنع طوابع الخبز الدائرية. وتنوعت المنتجات منها الكبيرة والصغيرة ذات الاستخدام المنزلي أو المعماري وتفنن الحرفيون في تنميقها وتزويقها.

الهَوامِشُ:

(١) نعمان أبو بكر، "**الخشب**"، الفن العربي الإسلامي، ج٣، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، تونس، ١٩٩٧، ص٣١٦.
(٢) ابن خلدون عبد الرحمان، **مقدمة العلامة ابن خلدون**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، د.ت، ص٤٤٤.
(٣) الألوسي البغدادي السيد محمود شكري، **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، شرحه وضبطه وصححه محمد بهجة الأثري، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص٣٩٥.
(٤) الخلايي عبد اللطيف، **الحرف والصنائع وأدوارها الاقتصادية والاجتماعية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والوطاسي**، أطروحة لنيل دكتوراه وطنية في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، ٢٠٠٧/٢٠٠٨، ص١٥٧.
(٥) ديفل سميحة، **الصناعات التطبيقية الحمادية من خلال مجموعة المتاحف الوطنية سيرتا –سطيف- القلعة**، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، إشراف الأستاذ الدكتور: بن قربة صالح يوسف، جامعة الجزائر، ٢٠٠٩، ص٣٦.
(٦) ابن منظور أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، مج٢، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص٨٣٢.
(٧) بن بلة علي، "**لمحات عن الخشب واستعمالاته عبر العصور**"، دراسات تراثية، مجلة علمية سنوية محكمة تعنى بنشر الدراسات والأبحاث في التاريخ والآثار والفنون، يصدرها مخبر البناء الحضري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر ٢، مطبعة دار هومة، بوزريعة، الجزائر، العدد ٤، ص ص٣٣٨-٣٣٩.
(٨) نفسه، ص٣٤٠.
(٩) الزبيدي مانع خلود، **موسوعة الديكور وفنون الخشب واستعمالاته**، دار دجلة، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ط١، ٢٠٠٧، ص٣٣.
(١٠) بن بلة خيرة، **المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني**، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في الآثار الإسلامية، إشراف الأستاذ الدكتور لعرج عبد العزيز، معهد الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠٠٧/٢٠٠٨م، ص٣٥٢.
(١١) نفسه، ص٣٥٢.
(١٢) ديفل سميحة، المرجع السابق، ص٣٦.
(١٣) البكري أبو عبيد الله، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو جزء من المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ص٨٣.
(١٤) راجعي زكية، **مساكن الفحص بمدينة الجزائر في العهد العثماني**، دراسة أثرية وفنية معمارية، رسالة لنيل درجة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، إشراف أ.د: لعرج عبد العزيز، معهد الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠٠٧، ص٢١٨.
(١٥) بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص٣٨٧.
(١٦) الخلايي عبد اللطيف، المرجع السابق، ص٢٣٣.
(١٧) بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص٣٥٣.
(١٨) البستاني أحمد فرام، "**شجرة الأرز**"، دائرة المعارف، مج٩، بيروت، ١٩٦٢، ص٣٧٢.
(١٩) راجعي زكية، المرجع السابق، ص٢١٨.
(٢٠) الزبيدي مانع خلود، والمرجع السابق، ص.٣١.
(٢١) طيان شريفة، **الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، ج١، إشراف: أ.د. بن قربة صالح يوسف، معهد الآثار، جامعة الجزائر ٢٠٠٧/ ٢٠٠٨، ص١٤٤.
(٢٢) بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص٣٥.
(٢٣) نفسه، ص٣٥٣.
(٢٤) نفسه، ص.٣٥١_٣٥٢.
(٢٥) الألوسي البغدادي السيد محمود شكري، المصدر السابق، ص٣٩٨_٣٩٩.
(٢٦) التميمي الصنهاجي المعز بن باديس، **عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب**، حققه وقدم له نجيب مايل الهروي، عصام مكية، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، إيران، ط١، ١٤٠٩هـ ص٣٠_٣١.
(٢٧) ديفل سميحة، المرجع السابق، ص٣٧.
(٢٨) وارنر هيرت، **أشغال النجارة العامة، الأسس التكنولوجية**، ترجمة المهندس عبد المنعم عاكف، دار الأهرام، دار النشر الشعبية للتأليف، ١٩٧٠، ص١١.
(٢٩) نعمان أبو بكر، المرجع السابق، ص٣٢١-٣٢٢.
(٣٠) بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص٣٥٤.
(٣١) نفسه، ص٣٥٤.
(٣٢) نفسه، ص٣٥٤_٣٥٥.
(٣٣) ديماند م.س، **الفنون الإسلامية، دائرة المعارف**، ١٩٥٨، ص١٥٧.
(34) Golvin (L), L'architecture Religieuse Muslumane,Tom4,1979,P234.
(٣٥) الحسيني حسن العباس، **دستور المهن في الإسلام**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠، ص٣٨٧.
(٣٦) بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص٣٥٥.
(٣٧) نفسه، ص٣٥٦.
(٣٨) بن بلة علي، المرجع السابق، ص ص٣٤٨-٣٤٩.
المشربيات: وهي الحواجز التي توضع على النوافذ، تسمح للنساء المشاهدة بما يجري في الخارج دون أن تتعرض لنظرات الفضوليين.
(٣٩) الباشا حسن، **مدخل إلى الآثار الإسلامية**، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٠، ص٢٧٧.
(٤٠) ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ٢٠٠٦، ص٤٤٤.
(٤١) الخلايي عبد اللطيف، المرجع السابق، ص١٦٩.
(٤٢) الباشا حسن، المرجع السابق، ص ص٢٧٦-٢٧٧.
(٤٣) نعمان أبو بكر، المرجع السابق، ص٣٣٠.
(٤٤) عثمان عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية في المغرب الأقصى**، عصر دولة المرابطين، ج٤، دار المعارف الجديدة، الرباط، ط١، ١٩٩٣، ص٣١٣.
(٤٥) بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص٣٥٩.
(٤٦) راجعي زكية، المرجع السابق، ص٢٢٢.
(٤٧) غالب عبد الرحيم، المرجع السابق، ص١٠١.
(٤٨) طيان شريفة، المرجع السابق، ص١٥٠. أ، ب، ج، د بن بلة خيرة، ملحق. هـ، و،ز،ح طيان شريفة ج٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

اقتصاد الوساطة في مغارب العصر الوسيط

مساهمة في تفكيك المنظومة الاقتصادية للغرب الإسلامي خلال العصرين المرابطي والموحدي أواخر القرن الرابع الهجري وبداية القرن السادس الهجري



د. عبد الرزاق السعيدي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
مدير مركز الدراسات والأبحاث - تافيلالت
المملكة المغربية

مُلَخّصْ

إن التجارة البعيدة المدى كانت لها يد طويلة في الصراعات السياسية وظهور أي كيان سياسي، وبالتالي فهو محكوم بمنطق اقتصادي تجاري، بل الأكثر من ذلك أن متانته — الكيان السياسي— وطول تعميره على امتداد المجال المغاربي يقترن بمدى حرصه وحفاظه على جريان مسالك التجارة في ظروف عادية وآمنة، كجزء من مشروع اقتصادي متكامل للمجال الإسلامي، في إطار منافسته وصراعه مع القوى الأخرى "الأوربية" الفاعلة في العلاقات الدولية، كما أن تحويل تلك الطرق التجارية المتدة في هذا المجال قد يكون من أهم العوامل المؤدية لإسقاطها والإجهاز عليها. ويظهر أن التجارة البعيدة المدى كان لها إسهامًا واضحًا في بنية المجال المغاربي اقتصاديًا، حتى أنه أصبح بإمكاننا الحديث عن نمط اقتصادي أخر مبني على اقتصاد وتجارة الوساطة، كان له دور أساسي وحاسم في كل الصراعات والنزاعات التي دارت رحاها على امتداد المجال المغاربي، والأكثر من ذلك فقد كان لهذا النمط الاقتصادي دور كبير في دخول هذا المجال برمته في التاريخ الحديث. ليس جديدًا الحديث عن هذا النوع من الاقتصاد (اقتصاد وتجارة الوساطة) الذي ساد المجال المغاربي تحديدًا خلال فترته الوسيطة، وحتى بداية تاريخه الحديث. ولا نريد الحديث عن إيجابيات هذا النمط التجاري الاقتصادي في بناء وقوة الدول التي تعاقبت على حكم هذا المجال، وذلك درءً للتكرار واجترار المعطيات التي دافع عنها العديد من الدارسين، بل الجديد قد يتمثل في محاولتنا توضيح مجموعة من الجوانب ضمن هذا الاقتصاد ومساهمته في إذكاء الصراع بالمجال المدروس وفشله في تحقيق التراكم المادي المنشود. يتضح أن قوة المجال المغاربي على المستوى الاقتصادي طيلة العصر الوسيط، جاءت من المكانة التي يحتلها في الشبكة التجارية العالمية وازدهاره وإشعاعه ناتج عن دوره التجاري في إطار ما أسميناه باقتصاد وتجارة الوساطة أكثر مما نتج عن ارتفاع مستوى الإنتاج الفلاحي أو حتى الحرفي. والأرباح التي تجنى من تجارة العبور تسمح "للأرستقراطية" بعدم الاهتمام بتلك القطاعات إلا بما يخدم النمط الاقتصادي السائد وبالتالي خدمة السلطة المركزية، ومن أجل ذلك فقد عملت الدولة الموحدية على إدخال تغييرات جذرية على العملة والنقد عمومًا.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ١٥ نوفمبر ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٢٠ فبراير ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
الغرب الإسلامي، العصر الوسيط، تجارة الوساطة، الدولة المرابطية، الدولة الموحدية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052948

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
عبد الرزاق السعيدي. "اقتصاد الوساطة في مغارب العصر الوسيط: مساهمة في تفكيك المنظومة الاقتصادية للغرب الإسلامي خلال العصرين المرابطي والموحدي أواخر القرن الرابع الهجري وبداية القرن السادس الهجري".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص٤٩ – ٥٧.

مُقَدِّمَةٌ

يتضح أن أهـم الإشـكالات التـي يطرحهـا الباحـث والـدارس لتاريخ الدول المغاربيـة خـلال التـاريخ الوسـيط، هـي الإشـكالية الاقتصادية وما يرتبط بها من التجارة البعيدة المدى التـي كانـت لها دور هـام في الصراعات السياسـية وظهـور أي كيـان سـياسي، وبالتالي فهو محكوم بمنطق اقتصادي تجاري، بل الأكثر من ذلك أن متانته - الكيان السياسي - وطول تعميره على امتداد الغرب الإسـلامي، يقـترن بمـدى حرصـه وحفاظـه عـلى جريـان مسـالك التجارة في ظـروف عاديـة وآمنـة، كجـزء مـن مشروع اقتصـادي

متكامل للمجال الإسلامي، في إطار منافسته وصراعه مع القوى الأخرى "الأوربية" الفاعلة في الغرب الإسلامي والمجال المتوسط عامة، كما أن تحويل تلك الطرق التجارية الممتدة في هذا المجال قد يكون من أهم العوامل المؤدية لإسقاطها والإجهاز عليها.[١]

ولعل التناقضات المرتبطة بالنمط الاقتصادي السائد بالمجال المغاربي طيلة التاريخ الوسيط، قد أثرت بشكل مباشر على الحياة الاجتماعية والسياسية، بل والتشويش عليها وجعلها غير معقولة، لأنها تستجيب لمتطلبات المركز الأساسي في العلاقات الدولية (الخلافة الإسلامية بالمشرق)[٢]، فضمن الكيان السياسي الواحد توجد كيانات سياسية مختلفة ومتناقضة معه بشكل جذري، ونحن في غنى عن الإسهاب في الدخول في تفاصيلها من المغرب الأقصى حتى حدود الدولة المرابطية، ثم المغرب الأوسط مع بنو عبد الواد، وصولا إلى المغرب الأدنى مع الفاطميون والنتيجة هي انعدام استقرار سياسي كبير، تمثل في قيام عشر- أسر في ظرف عشرة قرون في المغرب الأوسط، وتسع في المغرب الأقصى- وست في إفريقية.

ويظهر أن التجارة البعيدة المدى كان لها إسهامًا واضحًا في بنية الغرب الإسلامي اقتصاديًا، حتى أنه أصبح بإمكاننا الحديث عن نمط اقتصادي أخر مبني على اقتصاد وتجارة الوساطة، كان له دور أساسي وحاسم في كل الصراعات والنزاعات التي دارت رحاها على امتداد الغرب الإسلامي[٣]، والأكثر من ذلك فقد كان لهذا النمط الاقتصادي دور كبير في دخول هذا المجال برمته في التاريخ الحديث.

اقتصاد وتجارة الوساطة

ليس جديدًا الحديث عن هذا النوع من الاقتصاد الذي ساد الغرب الإسلامي تحديدًا خلال فترته الوسيطة، وحتى بداية تاريخه الحديث. ولا نريد الحديث عن إيجابيات هذا النمط الاقتصادي في بناء وقوة الدول التي تعاقبت على حكم هذا المجال، وذلك تجاوزا للتكرار واجترار المعطيات التي دافع عنها العديد من الدارسين[٢]، بل الجديد قد يتمثل في محاولتنا توضيح مجموعة من الجوانب ضمن هذا الاقتصاد ومساهمته في إذكاء الصراع بالمجال المدروس وفشله في تحقيق التراكم المادي المنشود، ونجملها فيما يلي:

- هل بإمكاننا في ضوء المعطيات المتوفرة، أن نطلق تسمية نمط اقتصادي (أي أن الاقتصاد المغاربي برمته خلال هذه الفترة قائم على التجارة البعيدة المدى)، وما يرافق ذلك بما يسمي "باقتصاد وتجارة الوساط "، وهو النمط الذي تم ترسيخه بهذا المجال في إطار تقسيم العمل كما تم التخطيط له في مركز الخلافة الإسلامية (الخلافة الأموية ٤١-١٣٢هـ/ ٦٦٢-٧٥٠م، أو الدولة العباسية ٧٥٠م/ إلى ١٥١٧م)، كفاعل أساسي في العلاقات الدولية؟
- إلى أي حد ساهم هذا الشكل الاقتصادي التجاري (اقتصاد الوساطة)[٤] في إدخال هذا المجال إلى الفترة الحديثة، في حالة من الضعف والوهن لصالح العالم الأوربي، كما هو غني عن البيان في كل الأعمال التي تناولت الموضوع(التأليف الأجنبي أو المحلي)؟

وضعية الأرض وأساليب الإنتاج الفلاحي والحرفي

يُظهِر التعامل مع الأرض في الغرب الإسلامي، أن الدول التي سادت الفترة الوسيطية بشكل خاص، وحتى بداية التاريخ الحديث، لم تخرج بحكم طبيعتها عن سياسة تنظيم وضعية الأرض وإعادة ترتيب المجال بالشكل الذي يساير قوتها ويعبر عن سلطة الدولة ومطامحها. ويتضح من خلال بعض المصادر التاريخية [٥] أنه منذ دخول الإسلام إلى هذا المجال، واجه عند بعض المزارعين المستقرين في السلاسل الجبلية المقاومة نفسها التي قد واجهها من سبقهم، ولذلك في اعتقادنا اكتفوا بالإحاطة بهذه المناطق وبتشييد المدن الجديدة في السهول، وخاصة عند المحاور الأساسية لتجارة العبور[٦]، على اعتبار عدم مقدرتها أن تزدهر وتستمر أذا لم تعتمد على التجارة البعيدة المدى، والتي كان من الصعب اقتطاعها من المزارعين، اللهم عن طريق الغزو والمصادرة[٧] في بعض الأحيان.

وبناءً عليه، فإن جهود الدول الوسيطية عمومًا والتي سادت الغرب الإسلامي في تنمية الزراعة كانت تتسم بالضعف، بسبب الصراعات والنزاعات الشبه دائمة، بل وعدم الاكتراث في كثير من الأحيان لأنهم وجهوا اهتمامهم بشكل كبير للضرائب وكيفية جبايتها، ولذلك لم يجر تطوير وسائل الإنتاج في مجال الزراعة، والأكثر من ذلك فكل التنظيمات السابقة لم يتأتى لها تحقيق مشروعها السياسي، إلا بالسيطرة على طرق التجارة البعيدة المدى، وليس صدفة أن تولد الدولة الفاطمية بالاستيلاء على مدينة تاهرت ومدينة سجلماسة التي كاد المهدي عبيد الله أن يؤسر فيها، ولعل هذا الحادث يؤكد بالفعل تركيز الدواة الفاطمية على المراكز الرئيسة لتجارة القوافل[٨].

ونجد الوضع مماثلاً عند الدولة المرابطية (ق٤- ٥هـ/ ١٠م) والدولة الموحدية (ق٥- ٦ هـ/ ١١-١٢م)، وحتى الدولة المرينية (ق٦هـ/ ١٢- ١٣م) فيما بعد، فقبل الانطلاق نحو الغرب الإسلامي والأندلس، كانوا يركزون قوتهم في إفريقيا جنوب الصحراء، وذلك بمحاولتهم الاستيلاء على "أوداغشت" بل والتوسع نحو غانا مراقبين بذلك قسمًا كبيرًا من تجارة الذهب ومحاورها الأساسية[٩]، ولقد ورد عند الإدريسي[١٠] هذا الدور الاقتصادي المبني على الوساطة التجارية أساسًا من خلال ما ذكره حول مجموعة من مدن الغرب الإسلامي، كمدينة سلا في المغرب الأقصى- والتي عرفت بتجارتها الهامة وأسواقها النافقة، كما تحدث عن ميزة مدينة سبته في إنتاج وتصنيع مادة المرجان البالغ الجودة لعرضه على التجار المتوجهون نحو أوربا فيقول: "يصاد بها شجر المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار، وبها سوق لتفصيله وحكمه وصنعه..".[١١]

والأكثر من ذلك يصف الإدريسي النشاط الاقتصادي في مراكز الغرب الإسلامي الأخرى ويحاول مقارنتها بالمناطق التي سبق ذكرها، فتلمسان مثلا التي ينعتها "بقفل بلاد المغرب" تأتي في المرتبة الثالثة بعد مدينة أغمات ومدينة فاس في الغنى وفي

الأسعار والتجارة المربحة، كما يؤكد أن مدن وهران والمسيلة وتاهرت بالمغرب الأوسط مشهورة في المواد الفلاحية، كالقمح والشعير والقطن والأغنام والأبقار، لكنه يقف بشيء من التفصيل عند أهمية مدينة بجاية مركز بلاد بني حماد، ليؤكد أنها نشطة في استقطاب القوافل والبضائع المختلفة برًا وبحرًا، وتميزت باحتضانها للعديد من الصناعات، والأكثر من ذلك يعتبرها قطب العلاقات التجارية إذ يلتقي فيها "تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة..".[١٢] أما مدن قفصة وقابس والمهدية فمراكز نشطة حسب الإدريسي في المواد الفلاحية التجارية بالدرجة الأولى كالجلود والزيتون والقطن..[١٣]، ويضيف أن المهدية قاعدة بلاد إفريقية كانت قبل عصره مركزًا تحج إليه السفن الحجازية من المشرق والمغرب وبلاد الروم، وبالنسبة لمدينة طرابلس يذكر الإدريسي أنها كانت تنتج التين والنخل وغيرها.

ويظهر إذن أن الإنتاج الحرفي في الغرب الإسلامي كان مزدهرًا في المراكز الحضارية التي تطرقنا لها من قبل، إلا أن هذا الإنتاج في معظمه كان موجها لخدمة الطبقة الميسورة والحاكمة، واستجابة لتجارة العبور، وبشكل عرضي في خدمة زعماء القبائل القوية المنضوية في خدمة الدولة المركزية، والتي هي بدورها في خدمة المركز الأساسي (دار الخلافة بالمشرق - الدولة الأموية والعباسية فيما بعد)، بشكل مباشر أو غير مباشر. وفي هذا الصدد، يميز ابن خلدون بين نوعين من الإنتاج الحرفي "سكافة تنتج المواد الضرورية التي نجدها في كل متمدن حضري (كالخياطة والحدادة والنجارة وأمثالها)، وسكافة تنتج مواد للترف، وهي لا يمكن أن تسود إلا في الحواضر الرئيسة[١٤]، ويرتبط نمو هذه السكافة بنمو الدولة ولا يتأتى ذلك إلا بسيطرتها على أكبر مجال من المحاور الطرقية، والعكس صحيح في حالة تراجع الدولة وانهيارها، ".. حيث يتراجع عمرانها شيئًا فشيئًا إلى أن ينذعر (يتفرق) ساكنها وتخرب، كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق، والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه".[١٥]

الإطار الاقتصادي للمشروع المغاربي الموحدي وعلاقته بالوساطة التجارية

إن المهتم بالمجال الاقتصادي والتجاري خلال العصر الوسيط وارتباطًا بموضوعنا يلاحظ غلبة التحول والتغير والرصد غير الكافي والمعلومات الهزيلة والأخبار الشحيحة والمبعثرة في بعض المصادر التاريخية، وبناءً على ذلك فهذا المحور سيتناول الحالة الاقتصادية للدولة الموحدية، وهو محاولة في إظهار العلاقة التي تربط بين الجغرافية والاقتصاد والمشروع السياسي والاجتماعي لهذا الكيان. وحسبنا في ذلك أن حركة المهدي بن تومرت قد نشأت في منظومة "قبيلة جبلية" وقد صدق أحد الدارسين[١٦] عندما ذهب إلى أن تركيبتها الاقتصادية تنتمي لنظام تعايشي بين الاستقرار والارتحال المحدود وفي تجمعات بشرية محدودة، تكاد تكون حرسًا لحركة الاتصال التجاري بين جنوب الأطلس الكبير ومنطقة الشمال بداية من مدينة مراكش عاصمة الدولة المرابطية، وبالتالي تمثل منطقتهم نقطة حيوية للدولة، فهي معبر القوافل الآتية من الصحراء والذاهبة صوب البحر والمحيط الأطلسي بمعنى أن كل "الفجاج" والممرات الجغرافية التي تعبرها القوافل تسيطر عليها قبائل مصمودة، وهذا يعني أن هذه القبائل كانت تنظر إلى المرابطين على أنهم المستفيدون وحدهم، وما دور المصامدة إلا دور الحرس الذي يحمي الخيرات ويقدمها لخصمه[١٧].

ولعل ربط المضمون الاجتماعي للتنظيم التومرتي لأنصار الدعوة بالظروف الدولية والاقتصادية يفسر انتفاضة القبائل المصمودية المناصرة لثورة ابن تومرت. وعلى الرغم من أن الموحدون قد أدخلوا إلى منطقة الغرب الإسلامي خلال منتصف السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، نظمًا نقدية جديدة مخالفة للنظم والتقاليد السابقة تعكس تواجدهم كطرف أساسي في الصراع الدولي القائم حول منطقة البحر الأبيض المتوسط، فإلى جانب ابتداعهم للشكل الهندسي المتميز، أي المربع الذي كان يتوسط محيط الدينار، وكتاباتهم النقدية المنقوشة بالخط النسخي بدل الخط الكوفي السائد، ابتدع الموحدون كذلك أوزانا نقدية مخالفة للأوزان التي شهدها المجال المغاربي برمته خلال العصر الوسيط كما أشار إلى ذلك أحد الدارسين.[١٨]

تشجيع النشاط الحرفي المغاربي في سياق الوساطة الاقتصادية

يظهر أن التطور الذي شهده القرن (٦هـ/ ١٢م) عمومًا في الميدان - الحرفي- جاء نتيجة لكثرة الطلب على المواد الاستهلاكية والحاجة إلى المعدات والأدوات الحربية لتمطيط المجال الجغرافي للدولة، واتساع مجال البناء المعماري، فبعد نجاح الثورة الموحدية حرص الخلفاء الأوائل على حماية الصناع ومن ذلك نجد حركة الخليفة أبي يعقوب إلى بلاد السوس لحماية المعادن، حيث استعد لتحصينه غاية الاستعداد، فبنى عليه الأسوار وأسكنه بالأجناد[١٩]. كما أن الخليفة عبد المؤمن قد نهى المصامدة عن قتل العامة في مراكش ساعة فتحها، لأنهم الصناع الذين ينتفع بهم، بالإضافة إلى أنه" أعمل السيف في مكناسة تأديبًا وعقابًا لما قتل أهلها الفحامين في جبلهم"[٢٠]. وقد أسقط جميع القبلات على الصناعات فسار خلفاؤه على نهجه، حيث اهتم السلطان يوسف بن عبد المؤمن (١١٦٣م/ ١١٨٤م) اهتمامًا كبيرًا بعمليات التعدين وأخذ الخمس على إنتاج المعادن.

هذا ومن الراجح أن الخلفاء عينوا قضاة في مراكز التعدين ليؤكدوا على تحصيل حقهم في المعادن[٢١]. وفي هذا الصدد بنى الخليفة يوسف حصنا على مقربة من مكان التعدين في زجندر من السوس لسكنى الصناع[٢٢]. هكذا إذن انتشرت الحرف في جل مدن الغرب الإسلامي، بل قد بلغت بعض المدن أوجها في هذا النشاط أيام الموحدين[٢٣]، كفاس التي أحصيت بها دور الحرف زمن يعقوب المنصور، فكانت بها اثنا عشر مصنعًا للمعادن وثلاثة آلاف وأربعة وتسعين نولاً للنسيج، وسبع وأربعين معمل

للصابون وست وثمانين مصنعًا للدباغة، وثمان مائة وستة عشر "مصنعًا" للصباغة، وإحدى عشر مصنعًا للزجاج، ومائة وخمسة وثلاثين مصنعا للجير وأربعمائة مصنع للكاغد[٢٤]، وخمسمائة وعشرون طاحونة[٢٥]، بالإضافة إلى المعاصر ودور الحرف اليدوية "التقليدية".

النشاط التجاري في إطار الوساطة الاقتصادية

لاحظ بعض الدارسين[٢٦] أن الأمن والاستقرار والاستقلال النسبي، كان لها بعيد الغور في التقدم الاقتصادي الموحدي نسبيًا، ورغبت حكامها الأوائل الجامحة في التخلي عن نهج الوساطة الاقتصادية والانصراف إلى اقتصاد منتج، ويتأكد لنا هذا الارتباط، حيث شدد عبد المؤمن في أمر قطاع الطرق، ودليلنا في ذلك ما رواه ابن شداد فيما نقله عنه النويري أن عبد المؤمن قتل حفاظ محلة قرب بجاية سرقت فيها أمتعة أحد تجار المهدية[٢٧]، ويقول ابن صاحب الصلاة عن أيام يوسف: "يسير الراكب حيث شاء من بلاد العدوة في طرقها من جبلها وسهلها أمنا في نفسه وماله لا يخاف إلا الله"[٢٨]، هذا ويذكر صاحب روض القرطاس عن عهد المنصور مثل هذا القول:" ونتيجة للأمن والاستقرار اتسعت الزراعة، وراجت التجارة ونهضت الصناعة وكثرت الجبايات وبلغت الدولة في ازدهارها الاقتصادي حالة لم ير أهل المغارب أياما قط مثلها"[٢٩].

هذا إضافة إلى الاستفادة من المجال الشاسع وتنوعه، في تنويع المصنوعات الزراعية (السكر، الزيت...) وتوسيع أراضي الدولة، وحث الناس على الأعمال الزراعية بكل أنواعها[٣٠]. بكلمة واحدة، لا يمكن تفسير كل هذه التحولات إلا لكون الدولة الموحدية ومعها الغرب الإسلامي لم يعد ينفذ مشاريع خارجية احتكرته في اقتصاد قائم على الوساطة التجارية، وأهملت قواه المنتجة فلاحيًا وحرفيًا، بل صار المجال مع هذه الدولة فاعلاً في المنظومة الدولية، ولذلك طور بنياته التحتية والتي شملت حتى المجال البحري، أي الانفتاح على العالم.

النشاط البحري في سياق الوساطة التجارية

لم تحظ البحرية خلال العصر الوسيط عومًا سوى بمعلومات هزيلة، وأخبارًا شحيحة مبعثرة في المصادر التاريخية، على الرغم من دورها المتميز في الخدمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وأطرح إشكالية* تتعلق بالتفوق البحري في المجال المغاربي وسيطرة القوة البحرية المغاربية على غرب البحر الأبيض المتوسط في عهد الدولة الموحدية إبان قوتها، أي في فترة الخلفاء الثلاثة الأوائل، يتضح لنا، أن هذا المجال لم يعرف تفوقاً لبحريته قط، لا قبل هذا التاريخ ولا بعده. ولعل أفضل معبر على ذلك، كون الدولة المرابطية لم تستطيع-وهي توحد جزءًا من المجال المغاربي تحت سلطتها-على حد علمنا أن تصبح قوة بحرية في المنطقة، بل إنها لم تستكمل توحيد هذا المجال وتهب لنجدة المسلمين في الأندلس إلا بمساعدة القوة البحرية الأندلسية[٣١]. ويعود هذا العجز ولا شك حسب أحد الدارسين[٣٢] إلى عوامل كثيرة، بعضها يتعلق بأصول المرابطين الجغرافية، أي الصحراء، وبعضها يتعلق بالظروف الدولية التي تكونت فيها السلطة المرابطية، وبسطت نفوذها على المنطقة الممتدة من شمال نهر السينغال جنوبًا إلى غرب الجزائر شرقًا وإلى الأندلس شمالاً.

لكن بمجيء الموحدين وحتى قبل استتباب أقدامهم في السلطة وإتمام سيطرتهم على الغرب الإسلامي، أخبرتنا المصادر التاريخية بنصوص وإحصائيات عن وجود قوة بحرية موحدية مبكرة[٣٣]، ففي عهد الخليفة عبد المؤمن ومباشرة بعد دخول مراكش نجده يتخذ قرارين مهمين في هذا الاتجاه حسب الأستاذ محمد حجاج الطويل:[٣٤] أولهما إحداث قوة بحرية موحدية بإصدار أوامر بإنشاء المراكب والسفن، وتكوين الأساطيل البحرية، ويهتم الثاني بتكوين البحارة والأطر العسكرية والإدارية اللازمة لهذه القوة تحت الإشراف المباشر للخليفة. لتكتمل هذه القوة الناشئة في عهد ابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور. ويبدو إذن أن تلك القوة البحرية الموحدية المفاجئة هي أصل الإشكالية وجوهرها.

لماذا لم تتكون للمغارب قوة بحرية قبل الموحدين وبعدهم؟ مع العلم أن الظروف الطبيعية والبشرية لم يتغير بشكل جذري، اللهم على مستوى المجال الجغرافي والمتمثل في الامتداد نحو الشرق. ولنأخذ بعين الاعتبار أن المرابطين أخضعوا لسلطتهم مناطق جغرافية متنوعة النشاط ومنها مناطق معروفة بنشاطها البحري مثل مراكز في ساحل البحر الرومي، مليلية، سبته، ومراكز في ساحل المحيط مثل "طنجة- أصيلة" وغيرهما[٣٥]، بل ومناطق غنية بالأخشاب الصالحة لإنشاء المراكب إلى غير ذلك من المراكز المناطق التي كانت لها تقاليد بحرية ولم يتم استغلالها بشكل أكثر فاعلية. ومن الغريب جدًا أن المرابطين لم يقوموا بأية محاولة في اتجاه تكوين قوة بحرية، بل الاعتماد كان بشكل كلي على البحرية الأندلسية كما تخبرنا النصوص التاريخية المتاحة حتى الآن.[٣٦]

وعلى كل حال فقد كانت حصيلة الدولة الموحدية كبيرة من مختلف مراسي المغارب وكذا الأندلس، وأبلغ دليل على ذلك ما ذكره الناصري[٣٧] نقلاً عن مصادر أخرى لم يذكرها، أن السلطان تاشفين ابن علي بن يوسف رحل إلى وهران عام (٥٣٩هـ/ ١١٤٥م)، في إطار صراعه ضد عبد المؤمن الموحدي، (فأقام عليها شهرا ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون إلى أن وصل إليه من المرية بعشرة أساطيل...). وهذا ما يدل على مهارة الصناع وتوفر مختلف المواد الضرورية لمثل تلك الصناعة. ولعمق دلالة وقوة البحرية الموحدية الضاربة والمتفردة في العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط، فإن ابن خلدون[٣٨] يخبرنا باستنجاد السلطان الأيوبي صلاح الدين (٥٦٧هـ- ٥٨٩ هـ/ ١١٧٤م- ١٩٣م)، مع يعقوب المنصور قصد التصدي ومواجهة الأساطيل البحرية الأوربية، ومنعها من التوجه نحو ساحل الشام. بل أنه قد أنصف كثيرا الدولة الموحدية، وجعلها أعظم قوة بحرية عرفها العالم الإسلامي في تلك المرحلة التاريخية.[٣٩]

والحاصل أن هذا التفوق الموحدي لم يأت من فراغ ولم يكن مجرد مصادفة، بل هو تفوق مؤسس له ولعوامله، فهو أولاً انعكاس أمين لشروط بيئية جغرافية مرتبطة بهذا المجال، وثانيًا:

ناتج عن تراكم معرفي وعلمي و" تقني" في الميدان الملاحي، وكذلك عن سياسة يظهر أنها مبرمجة، ومحكمة والدليل على ذلك أن أول خليفة موحدي-كما أشرنا إلى ذلك سابقًا-عمل على تكوين الأطر الإدارية، وجمع الحفاظ من كل جهات الإمبراطورية في العاصمة مراكش، ليتلقوا تكوينًا متنوعًا ومتعدد الاختصاصات[٤٠]. وبناءً على ذلك، أمكن للموحدين الحصول على أربعمائة قطعة بحرية، مائة منها في الأندلس ومائتان في المغرب الأقصى، ومائة في المغرب الأوسط والأدنى.[٤١]

الحصيلة أن البحر ظل حاضرًا، على الدوام، في مجمل التطور الحضاري الذي عرفته المجتمعات الإنسانية، وضمنها الغرب الإسلامي، ولم يقتصر دور البحر في المساهمة في النشاط الاقتصادي، بل كانت له أدوارًا أساسية أخرى نذكر منها مساهمته في نقل التيارات الحضارية والثقافية من فضاء إلى آخر ومن قارة إلى أخرى، وينبغي الاعتراف بأن البحر كان له حضوره الوازن في ترجيح كفة الدول خلال فترات الحروب والصراعات السياسية والعسكرية، ومن هنا كان الاهتمام بتطوير الأساطيل خلال الفترة موضوع الدرس، وقد أصاب الباحث الفرنسي "فيرنان بروديل" (f.Broudel)[٤٢]، حينما أشار إلى أن المتحكم في البحر يكون هو المتحكم دومًا في الثروة، وأن البحر لا يقبل إلا سيدًا واحدًا.

الشروط الاقتصادية

يسجل الأستاذ عبد الله العروي[٤٣]، في أبحاثه مفارقة في غاية الأهمية فقد بدا له حسب شهادة الكتاب والرحالة الذين اعتمد عليهم أن المجال المغاربي طيلة عهد الموحدين كان يعيش فترة انكماش اقتصادي، في الوقت الذي كان يتوحد فيه سياسيًا ويعرف تقدمًا عمرانيًا باهرًا. لكن اللافت للنظر في هذا السياق، هو أن أحد المتخصصين الاقتصاديين المعاصرين[٤٤] يظهر التفاعل الحتمي وعبر كل الأزمنة بين السياسة والاقتصاد والاستراتيجية، وبين ضرورة الثروة والقدرة العسكرية، حيث تدعم كل واحدة منهما الأخرى، بل ويستحيل في نظره الحديث عن تطور اقتصادي إلا في ظل رؤية سياسية ناجعة. وفي السياق نفسه، فقد وقف أحد الدارسين للتاريخ الإسلامي[٤٥]، على البنية الاجتماعية والسياسية والفكرية كذلك، والتي ساهمت كلها كإطار عام وبشكل غير مباشر ومتوسط في "تقدم الإنتاج البضائعي وتعاظم دور النقد، وتطور الرأسمال الصناعي والرأسمال التجاري خلال الأطوار الأولى للدولة المغاربية الموحدية". ولا غرو، فالدولة الموحدية التي نتناول في هذا المحور يلاحظ أن بعض العوامل الداخلية والخارجية التي أدت إلى تطورها-، قامت على أسس اقتصادية متنوعة: فلاحية وتجارية والتي لا تخدم طبعا إلا التجارة البعيدة المدى وبالتالي اقتصاد الوساطة، ولعله سر انهيار كل التراكمات التي يتم تحقيقها على المستوى الاقتصادي.

وهنا لا سبيل لإنكار أن الدولة المرابطية مثلاً ظهرت قوتها السياسية والاقتصادية، انطلاقًا من تملكهم للمحاور التجارية الكبرى، علما أن هذا الأساس لم يكن قارا، فالطرق التجارية تتأرجح بين الغرب والشرق (غرب شمال إفريقيا وشرقها)، ويتحكم في هذا التأرجح ميزان القوى السياسي والعسكري في المنطقة وحتى خارجها، ولعل إزالة الدولة المرابطية الكثير من الضرائب التي كانت مفروضة على السكان[٤٦]، هي مرتبطة باعتماد مواردها المالية على التجارة الخارجية في الغالب الأعم. وبالمثل، فقد تخلت عن مبادئها الثورية تلك، فعادت لتركيز سياستها المالية على الميدان الفلاحي والمبادلات الداخلية، لا لشيء حسب أحد الدارسين[٤٧]، إلا لتحول الطرق التجارية نحو الشرق وعجزها عن السيطرة السياسية على المغربين الأوسط والأدنى، وبالتالي عدم مقدرتها على احتواء مختلف المسالك التجارية وتشعباتها في المنطقة، بل إن الضائقة المالية قد أوصلت الدولة المرابطية إلى حد فرض سياسية ضرائبية حتى على الأشياء الثانوية أو العابرة، بل وإحداث ضرائب جديدة على المواد المستهلكة، وهنا تفيد إشارة الإدريسي[٤٨] أن ضريبة "القبالات " شملت حتى على الجراد الذي كان يباع في أسواق مراكش.

وعلى العكس من ذلك، يبدو أن الدولة الموحدية في بدايتها ظهرت مستفيدة من أخطاء الدولة المرابطية في تغليب إدارة وقوة الدولة على أساس التجارة البعيدة المدى، بل شجع الموحدون العمل الفلاحي إلى درجة أمكن فيها لبعض الباحثين الحديث عن "ثورة فلاحية"[٤٩]، وتجلى ذلك في توسيع المساحات الزراعية. بل وانتشار العديد من المزروعات التي كانت مقتصرة على المناطق الشمالية، وكذلك تعميم استعمال التقنيات الفلاحية المتداولة حينئذ. ولعل ما يؤكد ذلك هو اهتمام الخلفاء والسادة والأشياخ وكبار التجار بالنشاط الفلاحي التسويقي، ويبدو أنها ظاهرة جديدة لم تعرف من قبل لدى حكام هذا المجال برمته[٥٠].

لكن وحتى لا نبالغ كثيرًا في هذا الأمر، فمن بين السلبيات التي رافقت هذا التوجه الفلاحي تحديدًا، هي اعتبار أراضي القبائل غير الموحدية ملكًا لهم، بل وصل الأمر إلى أن فرضوا على الفلاحين تقديم القسط الكبير من محصلاتهم، مما أفضى إلى انصراف الناس عن الإنتاج الفلاحي، وفي بعض المناطق تخلى الفلاحون عن أراضيهم كما تؤكد بعض المصادر التاريخية[٥١]، وأدى كذلك إلى ثورات وانتفاضات في مختلف الجهات، مما فرض على الدولة الموحدية تعديل سياسته وإتباع نوع من المرونة تتجاوب واختلاف الإنتاج وكذا اختلاف المناطق والجهات. ونتيجة لهذه السياسة تحسنت أحوال الناس[٥٢]، مع الإقرار بالتفاوت الاجتماعي بين الفئات والجهات، خاصةً ما بين الجهات الرطبة والجافة وشبه الجافة بمنطق جغرافي، فإن التحسن المعيشي كان هو السمة العامة والذي مس حسب بعض الدارسين حتى القبائل الرحل من صنهاجة وزناتة المترددين على المدن الواقعة جنوب وشرق جبل درن، وشرق نهر ملوية[٥٣].

ولا شك أن الدولة الموحدية "المغاربية" قد استطاعت في طور قوتها، أن تضرب على أيدي المتلاعبين والمتواطئين معهم من كبار الموظفين ورجال الدولة، بسبب ما أحدثوه من تخريب للاقتصاد الموحدي، وخاصة عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف كما أكد ذلك ابن صاحب الصلاة[٥٤]،حتى أمكن الحديث على نوع

من العدالة الاجتماعية[٥٥]. لكن ومع تولية السلطان محمد الناصر على قمة الهرم السياسي الموحدي (١١٩٩م)، قد عادت تلك الفئة التي تحدثنا عنها (المتلاعبين...) لنشاطها وبشراسة أكثر، فأضحت تحتكر مواد استراتيجية كالحبوب وزيت الزيتون، وتحكم الحكام "وليس الدولة" في العملية الاقتصادية، بل وتم التعاطي "للربى" وترويج النقود المزيفة، ونهج سياسة المضاربة والاحتكار بغية التحكم في الأسواق [٥٦] وبلغ الجشع بهذه الفئة الاجتماعية أن تطاولت على أموال المخزن(*)، وقضت على احتياطه وخلخلت موازينه الداخلية والخارجية، ودليلنا في ذلك أن الخليفة الناصر ذهب إلى حرب العقاب يوم ١٦ يوليو ١٢١٢م/ ١٩ صفر ٦٠٩هـ، بجبهة داخلية متصدعة: انقسام على المستوى القمة، وتدهور وبؤس على مستوى القاعدة، وعندما اشتبك مع العدو في معركة العقاب، وقفت جيوش الموحدين وجيوش الأندلس موقف المتفرج، كما أكد ذلك الناصري[٥٧].

وبالتالي يبدو أن الوضعية السياسية للدول الوسيطية في الغرب الإسلامي، هي انعكاس لتطور المجتمع اقتصاديا واجتماعيا وفكريا كذلك، والعكس في حالة تراجعه وتخلفه الاقتصادي وللإشارة فإن أحد الدارسين أكد وخلافا لما سبق أن التجارة المتوسطية عمومًا وخلال الفترة موضوع البحث، تميزت بطابعها الكمالي، لأنها قامت لتلبية حاجة الأثرياء والأقوياء، كالأمراء، والمقامات الدينية والحكام "التجار"، وظلت خارج نطاقها الرئيسي للنشاط الاقتصادي، لأنها لم تكن ذات أثر يذكر على العامة، أو حتى على الاقتصاد الوسيطي عمومًا، ولم تكن تستدعي بذل الجهد أو إنفاق الموارد الأخرى على نطاق واسع، بما يكفي لفرض الضغط على العمليات الاقتصادية والاجتماعية، حيث لم يواكب المجتمع تلك التحولات بإرادة من الحكام، بغية الانتقال إلى المرحلة المتقدمة[٥٨]، وهو ما قد يفسر الاعتماد الشبه كلي على اقتصاد الوساطة، وهي الوظيفة الاقتصادية التي أوكلت للمنطقة منذ فترات سابقة- كما أشرنا – ووجد فيها الحكام في معظمهم تعبيرا عن طموحهم المحدود.

أما سياسة الحكم الموحدي فرغم تشددها "المذهبي" وبنيتها التنظيمية المتطورة نسبيا، فقد ظلت تعاني من تناقضات على المستوى الضرائبي والعسكري، وكذا على مستوى سياستها الخارجية، الشيء الذي فسره الباحث "بنمليح" بما يلي: "إن هشاشة الدولة الموحدية يكمن في ثلاثة عوامل، مضمون المشروع السياسي، وطبيعة القوة الاجتماعية الذي اعتمد عليها وأهمية العامل الخارجي[٥٩]. وأضيف المشروع الاقتصادي الذي لم يخرج عن دور الوسيط التجاري. ومن جهة أخرى يظهر أن الحكم الموحدي أحكم تنظيم دعوته ووظف كل الوسائل والأساليب الاقتصادية والسياسية والعسكرية وكذلك الثقافية والمذهبية وحتى النفسية، وتمكنوا في غضون العقود الثلاثة الأولى من القرن السادس الهجري من نشر دعوتهم أي مشروعهم السياسي في معظم الجناح الغربي من "دار الإسلام"، لكن المرحلة الموالية من حكم الموحدين ستكون فترة التراجعات والإحباط، ولا يفسر ذلك إلا بضعف الوساطة التجارية للدولة وبحكم الاعتماد عليه بشكل كبير، وكذا للتناقضات القبلية وغيرها.

ذلك أن المرحلة التاريخية التي تم النبش في بعض جوانبها، عرفت فترات زاهية ومتقدمة على امتداد هذا المجال وخاصة في المراحل الأولى، وعرفت حركة سياسية وثقافية مبنية على أسس اقتصادية، لكنه - الاقتصاد- كان "عهديا" بمعنى أنه كان يتغير حسب العهود قوة وضعفا، ولم تسلم فيه السلطات المركزية لفائدة قواعده الاجتماعية الأساسية، لتتمكن من إنجاز أدوارها التاريخية، وتفيد من هذا الاقتصاد التجاري لتطوير مجتمعاتها، خاصةً وأن العصر الوسيط في هذا المجال عرف بإجماع ثلة من الدارسين المتخصصين، قدامى ومحدثين، من أبرز القرون "الذهبية" في هذا المجال. غير أن هذه الصورة المشرقة سرعان ما توارت منذ مشارف القرن الرابع عشر الميلادي، وخاصةً في أواخره، تحت سطح كثيف من الظروف الإقليمية للمجال المغاربي، وكثير من التوظيفات السياسية والنزاعات العسكرية على امتداد هذا المجال والتي عادت إلى الظهور مع المرحلة المدروسة، مدشنة بالتالي مرحلة تميزت بغلبة التجزئة على حساب الوحدة، ولعله التراكم الذي دخل به المجال المغاربي على مشارف التاريخ الحديث. ولا غرو، فمع نهاية القرن الرابع عشر تقدم البرتغاليون والإسبان في عرض الشواطئ الإفريقية، بل وتمكنوا من اجتذاب قسم كبير من تجارة الذهب نحو خليج غينيا. وهكذا بدأ المجال المغاربي يفقد دوره كوسيط تجاري مما أدى إلى تغير البنيات الاجتماعية والاقتصادية تغيرًا عميقًا بل ودائمًا.

كيف نفهم سلبيات هذا التوجه الاقتصادي بالمجال المغاربي أواخر العصر الوسيط على المستوى الاقتصادي والاجتماعي

يتضح أن قوة المجال المغاربي على المستوى الاقتصادي طيلة العصر الوسيط، جاءت من المكانة التي يحتلها في الشبكة التجارية العالمية وازدهاره وإشعاعه ناتج عن دوره التجاري في إطار ما أسميناه باقتصاد الوساطة أكثر مما نتج عن ارتفاع مستوى الإنتاج الفلاحي أو حتى الحرفي[٦٠]. والأرباح التي تجنى من تجارة العبور تسمح "للأرستقراطية" بعدم الاهتمام بتلك القطاعات إلا بما يخدم النمط الاقتصادي السائد وبالتالي خدمة السلطة المركزية. واللافت للنظر داخل المجال المغاربي أن التجارة الكبرى لا تهدم التنظيم القبلي ولا تهدم أشكال الملكية والإنتاج به، فمستوى تطور القوى المنتجة المحلية ضعيف ولا يسمح باقتطاع فائض كاف لسيادة الطبقة التجارية التي بمقدورها الشروع في التوحيد المجالي للمغارب، كما كاد أن يحصل مع التجربة الموحدية بكثير من الصعوبات والمشاكل، ليبقى مصير هذه الطبقة التجارية "الدولة" متعلق بقدرتها، عن طريق وساطتها التجارية، على حيازة فائض ذي أصول خارجية، أي مشروط بظروف خارجة عن سيطرة المجتمع. فالفائض المحلي الضئيل لا يتطلب التوحيد الاقتصادي، لأن التنافس لا يقوم على الإنتاج بل على القيام بدور الوساطة الاقتصادية خدمة "لأجندات" أجنبية.

إضافة إلى البعد القبلي، فقد كانت النتيجة هي مجال مغاربي يتوفر على كل مكونات الوحدة، لكنه ظل عبارة عن تجمع مناطق ليست مندمجة بعضها البعض على الأقل في المستوى الاقتصادي، بل ويسودها الصراع والنزاع على احتكار هذا الدور، خاصة وأن الدول التي قامت على أمر هذا المجال عملت جاهدة على احتكار العملية التجارية برمتها - كما رأينا ذلك- لخدمة أطراف خارجية، وبالتالي عدم إمكانية توظيف الفائض في خدمة القطاعات الإنتاجية، كما وقع في أوربا خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر، حيث كانت التجارة البعيدة تضخم حجم الفائض بما تضيف إليه من تحويلات ذات مصدر خارجي، أما الريع الطبيعي بدأ يترك مكانه للريع النقدي، وهذا الريع أخذ يغذي الإنتاج التجاري البسيط الحرفي المزدهر الذي كان يعيش على هذه التجارة، بل تطور هذا الاقتصاد إلى درجة عالية من التمركز الاقتصادي، وهو الأمر الذي يدفع بالتحرك الدائم للمجتمع بقيادة الطبقة التجارية، إلى الاندماج المجالي الكبير وكذلك عن طريق الشكل السلعي الذي يأخذه رأس المال نفسه ويدفع بذلك أيضًا إلى اندماج السوق. وبالتالي، كان دور التاجر هو ربط الإقطاعيات المختلفة بعضها البعض والمدن بالأرياف، وصار التجار يشترون من الأسياد أو الفلاحين الفائض الزراعي ويبيعونهم المنتوجات والحرفية المحلية والفاخرة الآتية من الشرق.

بعد كل هذا يمكن أن نسجل الارتباط بين التجارة البعيدة المدى والبنية القبلية في النظام المغاربي استمر بالتطور، ولكن بشكل سلبي، فعجزت "الأرستقراطية التجارية – السلطة المركزية -" عن إخضاع البادية بصورة دائمة، وعن إعادة توزيع الثروات بين البادية والحاضرة والتي أصبحت تأخذ أشكالا متباينة، والذي شمل كل المجال المغاربي - كما أوضحنا ذلك خلال المرحلة الموحدية - وهو ما أدى بشكل مباشر إلى ضعف الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، لكن في المقابل ساعد على صلابة وتعزيز البنية القبلية، وزاد من التجزئة السياسية للمجال ليتم تهيئه للاستعمار الأوربي. فالتجار إذن مرتبطون عمومًا بالطبقة الحاكمة في الحالة التي لا يكونون هم أنفسهم في السلطة، ويستخلصون فوائدهم من دور الوسيط التجاري الذي يلعبونه على مستوى السوق العالمية.

خَاتِمَةٌ

الحصيلة أن دراسة تاريخ المجال المغاربي خلال العصر الوسيط، من زاوية الصراع البنيات الاقتصادية والاجتماعية، هي لإبراز أدوارها الفاعلة في تحديد وتشكيل بنية هذا المجال كمًا ونوعًا. فقد أبانت المحاولة التي انصبت على هذا الحقل، بعد مراجعة عدد لا بأس به من المصادر التاريخية والجغرافية والدراسات الاقتصادية والأبحاث المتوفرة أن وحدة الغرب الإسلامي والتي برزت بشكل واضح منذ الفترة القديمة، وتم تأكيدها خلال التاريخ الوسيط، لم تكن إلا تعبيرًا واضحًا عن عمق تفكير هؤلاء في إفادتهم البالغة وعلى جميع المستويات، والتي لا يمكن بأي حال تحقيقها إلا بفضل التكامل بين الفضاءات الجغرافية لهذا المجال. وقد لعب التاريخ والجغرافيا أدوارًا فعالة في توجيه المجال المغاربي، في اتجاه أشكال محددة من الاقتصاد القائم على الوساطة التجارية بين بلاد السودان وأوروبا والمشرق العربي، إَضافة إلى توزيع وتنويع الإنتاج الفلاحي والحرفي والمعدني على امتداد هذا المجال، وتوظيفه لخدمة اقتصاد الوساطة. ولا ننفي المحاولات الجادة من طرف بعض الحكام الأوائل في استثمار هذا التوجه أمثل استثمار، وكان بالتالي تعبيرًا وانعكاسًا لواقع متكامل في الأصل والامتداد.

هذا وقد تمخضت الدراسة إلى حد الآن عن عدة نتائج نوجزها فيما يلي:

أن دراسة الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط من منظار اقتصادي واجتماعي وجيو سياسي، في إطار التاريخ المقارن قادرة على استيعاب كل الإشكاليات التي لازالت في حاجة ماسة للدراسة والتمحيص. بل وبإمكانها تحديد الخطوات المنهجية والأكثر اتساق مع الواقع عرضًا ونقدًا. فضلاً عن استثمارها- الدراسات الاقتصادية والجيو سياسية-، في رصد كل الأزمنة والحقب التاريخية على اختلافها، بل وتفسيرها كذاك.

أن التطور الاقتصادي والسياسي للمجال الجغرافي المغاربي المشهود خلال الفترات الأولى للدولة المرابطية وبعدها الدولة الموحدية، نجم عن استثمار أمثل للقوى الطبيعية والاجتماعية المتوفرة، وقد تبين لنا التطور الملحوظ الذي عرفه الميدان التجاري والصناعي، بفعل مركزية النظام السياسي الهادف إلى تأمين الطرق وتشديد الرقابة، والحد من الصراعات وتوفير المواد الخام لإنجاح الصناعات.

أن الإشكالات التي رافقت قيام الدولة المرينية في المغرب الأقصى، وبني عبد الواد بالمغرب الأوسط وبني حفص في المغرب الأدنى، كانت مرتبطة بالنمط الاقتصادي الموجه – اقتصاد وتجارة الوساطة-وبتغيرات عميقة طرأت على الفضاء المتوسطي برمته، وما كانت لتفضي إلا لتلك النتائج القائمة على التفكك والتجزئة على امتداد المجال الجغرافي المغاربي، وتعطيل وعرقلة إقلاعه السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وهذا ما سيتضح بجلاء أكثر من خلال دراسة وضعية هذا المجال في نهاية تاريخه الوسيط، وبداية التاريخ الحديث، ومن زوايا عديدة.

هذا ويظل التساؤل مطروحًا حول مدى استيعاب وفهم إمكانات وقدرات المجال الجغرافي المغاربي في حالة تكامله وانسجامه وابتعاده عن التبعية التي تخلق أنماطا اقتصادية لا تكون إلا في خدمة الأخر، وإذكاء الصراعات السياسية، أم أن الأمر يستظل في طي الكتمان. وفي الأخير يمكننا أن نطرح سؤالا واضحًا، وهو: إذا كان هذا النمط الاقتصادي الذي ساد الغرب الإسلامي قادر على بناء اقتصاد قوي، وبالتالي بناء دولة سياسية مركزية على امتداد هذا المجال؟ فكيف دخل هذا المجال على عتبة التاريخ الحديث؟ وبالضبط كيف صارت أحواله على جميع المستويات بعد افتقاده لدور الوسيط الاقتصادي، على إثر تحويل الطرق التجارية إلى المحيط الأطلسي؟ وإلى أي حد ساهمت المعطيات الاقتصادية والجيو سياسية للمغرب الوسيط في تحديد ورسم ملامح التاريخ الحديث والمعاصر؟ ذلك موضوع آخر للبحث والتنقيب، سنوجه عملنا في الأعمال الموالية إلى محاولة ملامسته وتوضيحه.

الهَوامِشُ:

(١) ماجدة كريمي: **"تجارة القوافل:** آثار وبصمات على تاريخ دول المغرب الوسيط" دار الجسور وجدة المغرب، الطبعة الأولى ١٩٩٦ ص: ٢٣.

(2) Alaoui Abdelaziz Le **Maghreb ET la Commerce Transaharier du x1e au XIV siècle** – this de doctorat de 3ème cycle, Bordeaux, 1983.

(3) Braudel Fernand : **Ecrits sur l'histoire**. Flammarion, Paris 1969.

(٤) فقد أشار **سمير أمين** وفق مرجعيته الماركسية إلى هذه التشكيلة الاقتصادية، لكنها لا ترقى في نظره لأن تكون نمط إنتاج وفق النظرية الماركسية القائمة على اللوحة الخماسية: يمكننا التمييز بين ثلاث وحدات سياسية واقتصادية متمايزة عن بعضها: -المشرق العربي، والذي يضم شبه الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب (سوريا، لبنان، الأردن والعراق). - بلدان النيل، (مصر والسودان).- المجال المغاربي، والذي يمتد من ليبيا شرقا وحتى المحيط الأطلسي غربا وتضم (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى). أما الفائض الذي يمكن اقتطاعه من المزارعين بقي ضئيل الأهمية في أغلب فترات التاريخ الوسيط، كما ظلت التقنية الإنتاجية في الزراعة ضعيفة التطور، وظلت إنتاجية العمل الزراعي خفيفة. والأكثر من ذلك فمستوى حياة المزارعين قريبا من مستوى الكفاف، ذلك أن أغلب الإنتاج الفلاحي وحتى الحرفي لم يكن موجها لسوق داخلية أو خارجية مضبوطة، بقدر ما كان موجها لخدمة تجارة العبور-اقتصاد الوساطة – وبالتالي فإن أشكال التنظيم ظلت مطبوعة بالجماعية القبلية، كما سنوضح ذلك. فلا يوجد هنا على ما يبدو قاعدة كافية لاقتطاع فائض يسمح بتشكيل بنية إقطاعية. والغريب في الأمر، أن المجال المغاربي بالتحديد كان مسرح حضارات غنية، بل ومدينية بشكل ملحوظ، انظر دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطة، ترجمة برهان غيلون، بيروت دار الطليعة، ط٤، ١٩٨٥.

(٥) على سبيل المثال: انظر البلاذري: **"فتوح البلدان"** بدون تاريخ. وابن عذاري المراكشي **"البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"** تحقيق ج س كولان، وبرفنسال، بيروت ١٩٩٥م العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، ضبط المتن والحواشي والفهارس، بيروت، ١٩٨١.

(٦) ماجدة كريمي: **"حواضر مغرب العصر الوسيط: إشعاع داخلي ودولي"** ص: ٨٨.

(٧) وهو ما سماه أستاذي إبراهيم القادري بوتشيش: "باقتصاد المغازي" بكثير من التفصيل، انظر: **"تاريخ الغرب الإسلامي"** قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩٤.

(٨) عبد القادر دقلول، **مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط،** ترجمة فضيلة حكيم، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨٢، ص٧٦.

(٩) على سبيل المثال: انظر البلاذري: **"فتوح البلدان"** بدون تاريخ. وابن عذاري المراكشي **"البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"** تحقيق ج س كولان، وبرفنسال، بيروت ١٩٩٥م. وابن خلدون.

(١٠) الإدريسي، أبو عبد الله، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،** مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة مجلدان، بدون تاريخ، ص٥١٥.

(١١) نفسه: ج٢/ ص٥٢٩.

(١٢) الإدريسي، **نزهة المشتاق:** مصدر سابق، ص٢٦٠.

(١٣) للمزيد من التفصيل حول هذه المراكز، يمكن الرجوع إلى الدراسات التي اعتمدت على مصادر الفترة، ومنها:

Duby (g); **L'Economie rurale et la vie des campagnes dans L'occident médiéval**; paris; Ed Aubier 1962. (2:T).

(١٤) ابن خلدون: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،** مراجعة سهيل زكار، ضبط المتن والحواشي والفهارس، بيروت، ١٩٨١، ص٥٨٣.

(١٥) ابن خلدون: **"العبر..."** نفسه، ص٦١٨.

(١٦) هاشم العلوي القاسمي: **"حركة المهدوية في الغرب الإسلامي"**: مرجع سابق، ص: ١٨٢.

(17) Charles Andre julien: **L'Afrique Du Nord En marche/** Volume 1 – 2, julliard. 1972, Editions, 2001 Tunis.

(١٨) عبد الرحيم شعبان: **"الإصلاح النقدي الموحدي"** مجلة كلية الآداب الرباط العدد الثالث والعشرون، السنة ١٩٩٩، ص: ١٣٩ وما بعدها، ونشير إلى أن هذه الدراسة ولأهميتها البالغة فقد قدمها باسم بنك المغرب.

(١٩) ابن عذاري المراكشي: **"البيان المغرب ..."**، م.س، ص: ٢٦٤.

(٢٠) عز الدين أحمد موسى: **"الموحدون في الغرب الإسلامي"**، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان. ط١ ١٩٩١، ص٢١٠.

(٢١) عز الدين أحمد موسى: **"الموحدون.. " مرجع سابق**، ص: ٢٨٢.

(٢٢) نفسه، ص: ٢١٠.

(٢٣) الحسين بولقطيب: **"حفريات في تاريخ المغرب الوسيط"** – دراسة تاريخية -، منشورات الزمن، الطبعة الأولى ٢٠٠٤، ص١٤ وما بعدها.

(٢٤) عبد الله علي علام: **"الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن بن علي"** مطابع دار المعارف ١٩٧١ ص: ٢٥٢. وكذلك. محمد ناصح، **«بعض عوامل التطور التجاري في المغرب خلال ق ٦ هـ / ١٢م"** مجلة أمل العدد السادس، السنة الثانية ١٩٩٥ ص٥ وما بعدها.

(٢٥) الحسن الوزان: **وصف إفريقيا:** "ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط ١٩٦٧و ١٩٨٠ ج١. ص: ٢٣٣.

(٢٦) عز الدين أحمد موسى: المرجع السابق، ص ٢١٨.

(٢٧) **نهاية الأرب...**" مصدر سابق، ص٢١٥.

(٢٨) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك، **المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين،** تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧. ص: ٢٨٦، وكذلك ابن عذاري المراكشي، **"البيان المغرب.."**، ج٣، ص: ٦٥.

(٢٩) ابن أبي زرع الفاسي **"الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس:** "دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط ١٩٧٢، ص: ١٠٣.

(٣٠) نفسه، ص: ٢٢٥.

(*) نشير إلى أن هناك دراسة مهمة استفدنا منها لمحمد حجاج الطويل: **البحرية المغربية في عهد الدولة الموحدية "-جذور القوة وأسباب الضعف -ندوة البحر في تاريخ المغرب،** جامعة الحسن الثاني المحمدية، سلسلة الندوات رقم ٧، السنة ١٩٩٩.

(٣١) ابن بسام السنتريني: **" الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"** بيروت ١٩٨٠ ج٢. ص: ٢٦٢: الناصري: **"الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، الدار البيضاء، ١٩٥٤،** ج ٢ ص: ٣٠-٣١.

(٣٢) محمد حجاج الطويل: **"البحرية المغربية..."**م س ص: ٦٣.

(٣٣) البكري: **"المغرب..."** مصدر سابق، ص: ٩٠ إلى ١٠٦. وكذلك، الشريف الإدريسي "نزهة المشتاق..." م.س. ج ٣ ص: ٢٣٩.

(٣٤) نفسه، ص: ٥٢٧.

(٣٥) الحسين بولقطيب: "**حفريات** .." مرجع سابق، ص ١٥ وما بعدها.

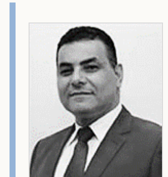
(٣٦) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: "**الاستقصا ...** مصدر سابق، ج٢ ص: ٣٠-٣١.

(٣٧) **الناصري**: نفسه، ص: ٧١.
(٣٨) **"العبر..."** ج١، ص/ ٢٥٣.
(٣٩) ابن خلدون: "العبر..: م، س: ص٢٥٣.
(٤٠) عن علامات الاهتمام بالمجال البحري خلال الفترة الوسيطية هو إنشاء ما يُسمى" بالديوانية" وهي دليل على ارتفاع حجم العائدات **المالية** من طرف المعاملات التجارية بين المسلمين والتجار المسيحيين، ففي عهد الدولة الموحدية إرتقى المشرق على الديوانة إلى درجة والي، ولا يختار الموحدين لهذه المهمة إلى المعروفين بولائهم التام للدولة. بن الآبار أبو عبد الله، **"الحلة السيرا"**، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة. ١٩٦٣ ج٢ ص: ٢٩٣.
(٤١) ابن صاحب الصلاة: **"المن بالإمامة..."** م.س. ص: ٢١٨. ولعله أول من أورد هذه الأرقام.
(٤٢) «**البحر المتوسط:"** نقله إلى اللغة العربية عمر بن سالم. تونس. ١٩٩٠ ص: ١٢٣. وقد أدى هذا إلى تنوع في الإنتاج وتوافره، وبالتالي لم يشعر الإنسان المغاربي باحتياجه إلى البحر، خصوصًا وأن النمط الاقتصادي والاجتماعي الذي كان سائدا خلال العصر الوسيط، كما جاء عند عبد المجيد قدوري، كان مبنيًا على تجارة القوافل وما صاحب ذلك من إنتاج فلاحي وصناعي... أما الطرق البحرية فكانت مكملة للطرق البرية في الشرق وفي الغرب الإسلاميين، حيث شكلت هذه المناطق صلة الوصل بين مناطق التبر والعاج والعبيد بالسودان، ومناطق الحرير والتوابل بالشرق الأقصى وأوربا. «المغرب **وأوربا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)**" الطبعة (١) السنة ٢٠٠٠. البيضاء. إنتاج المركز الثقافي العربي، ص: ٢٣٦-٢٣٧.
(٤٣) **"مجمل تاريخ المغرب"**، منشورات المركز الثقافي العربي، الطبعة الخامسة ١٩٩٦، البيضاء المغرب، ص١٦٤. ويضف أن الحركة التجارية خلال هذه المرحل انحصرت في الجزء الشمالي وخاصةً في سبتة وكتامة وطنجة فقط، أما المنطقة الوسطى فكانت تعيش في عزلة طويلة وقليلة التمدن، أما المنطقة الشرقية كانت تمر بفترة ركود وخاصة مدينة تازة.
(٤٤) موسى الزغبي: **"البداية والنهاية. نشوء القوى العظمى وانحطاطها:** "دار النشر الشادي سورية الطبعة ١- ١٩٩١، ص: ٨-٩.
(٤٥) طيب تيزيني: **"مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط** " دار دمشق للطبع، ط ٢، بدون تاريخ، ص: ٣٥٨.
(٤٦) ابن أبي زرع: **"روض القرطاس ..."** مصدر سابق ض: ١٣٧-١٦٧. ويؤكد أنه بالفعل تم إلغاء مجموعة من الضرائب التي كانت مفروضة على الناس قبل قيام الدولة المرابطية.
(٤٧) محمد حجاج الطويل: **"التجارة الداخلية وأثرها على ضعف الدولة الموحدية"** أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب. الجزء (٢). جامعة الحسن الثاني عين الشق كلية الآداب. البيضاء ١٩٩٢ ص: ١٤٦.
(٤٨) الشريف الإدريسي: **"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"**، نابولي، الجزء الثالث، ص: ٢٣٥.
(٤٩) محمد حجاج الطويل، **"التجارة الداخلية..."**، المرجع السابق، ص:١٤٦.
(٥٠) مجهول: **"الاستبصار في عجائب الأمصار.."**، ق٦ هجري، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، ص: ٢٠٩.
(٥١) ابن غازي: **"الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون"**. ابن غازي، محمد بن أحمد بن محمد العثماني المكناسي، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، الرباط، بدون تاريخ. ص:١٩٤ وما بعدها. وابن عذاري المراكشي: **"البيان المغرب.."** مصدر سابق، وابن خلدون: **"المقدمة"**، مصدر سابق، ج٣، ص٩١١.
(٥٢) الحسين بولقطيب " **حفريات...**" المرجع السابق، ص: ٣٢ وما بعدها.
(٥٣) محمد حجاج الطويل: المرجع السابق، ص: ١٤٨.
(٥٤) **المن بالإمامة:** "مصدر سابق، ص: ٤٣٧ و٤٤٤.
(٥٥) ابن عذاري: **"البيان المغرب"**، مصدر سابق، ص١٣١-١٤٤-٢٣٧.
(٥٦) محمد حجاج الطويل: **"التجارة الداخلية"**، مرجع سابق، ص: ١٤٩-١٥٠.
(*) للإشارة فالمخزن هو نسق وأداة للدولة من نمط إرثي يقوم على علاقات نسبوية وعلى نظام من المراتب الإدارية المنظمة والهادفة إلى تمركز الحكم، وتكوين عساكر ناجعة، وضبط الرعية، وجبي الضرائب. راجع للمزيد من التفصيل: الهادي: "**القبيلة الإقطاع والمخزن**": مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث ١٨٤٤-١٩٣٩، إفريقيا الشرق ٢٠٠٥، ص٢٤٣ وما بعدها.
(٥٧) **"الاستقصا..."**، مصدر سابق، ج٢، ص: ٢٢٣.
(٥٨) موسى الزعبي: **"البداية والنهاية...."**، مرجع سابق، ص: ١٨-١٩.
(59) Ben Mlih A : "structures politique du maroc colonial" .Op. Cit .P: 42.
(٦٠) هناك دراسة تاريخية مهمة في هذا السياق للأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش: **"تاريخ الغرب الإسلامي.."** مرجع سابق.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

علاقة الأشعرية بالسلطة في الدولة السلجوقية

(١٠٥٥ – ١٠٩٢م/ ٤٤٧ – ٤٨٤هـ)



أ.م. د. غسان محمود وشاح
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي
رئيس قسم التاريخ والآثار
الجامعة الإسلامية (غزة) – فلسطين

مُلَخّصْ

تُعَدّ علاقة الأشعرية بالسلطة في الدولة السلجوقية من الظواهر الجديرة بالدراسة، لما فيها من عبر وعظات، فالروايات التاريخية تفيد بأن علاقة الدولة الأشعرية بالدولة السلجوقية في عهد طغرلبك كانت علاقة عداء وصدام، ولكن العلاقة تحولت بين الطرفين في عهد ألب أرسلان وملكشاه من بعده من حالة العداء إلى حالة التحالف، وهذا يسجل للدولة السلجوقية في عهد ألب أرسلان عندما واجهت نشاط الفكر المتطرف للفرق المنتشرة في العالم الإسلامي والتي هددت الوحدة الإسلامية مثل المعتزلة والباطنية والقرامطة والإسماعيلية بالأشعرية، فكانت الأشعرية السلاح الأنسب لمواجهة التطرف. وقد استخدم الباحث المنهج التاريخي في هذه الدراسة وتم تقسيمها إلى مقدمة وثلاثة مباحث ثم خاتمة، وثبت لأهم المصادر وللمراجع. أما المقدمة فقد احتوت على نبذة مختصرة عن الموضوع وأهميته ومنهج الدراسة وتقسيماتها. والمبحث الأول فقد كان بعنوان "تعريف بالسلاجقة والأشعرية، وأما المبحث الثاني تناول "العلاقة بين الدولة السلجوقية والأشاعرة في عهد طغرلبك"، أما المبحث الثالث فقد ناقش "علاقة الأشاعرة مع السلاجقة في عهد ألب أرسلان وابنه ملكشاه". وختمت الدراسة بخاتمة اشتملت على أهم لنتائج الدراسة، ثم قائمة المصادر والمراجع.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٤ أبريل ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ٢١ أبريل ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

الأشعرية، السلاجقة، ألب أرسلان، ملكشاه، الفرق الدينية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052965

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

غسان محمود وشاح. "علاقة الأشعرية بالسلطة في الدولة السلجوقية (١٠٥٥-١٠٩٢م / ٤٤٧-٤٨٤هـ)".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص٥٨ – ٦٦.

مُقَدِّمَةُ

تُعَدّ العلاقة بين الأشعرية والدولة السلجوقية من الظواهر التاريخية الجديرة بالدراسة والتحليل، لما فيها من عبر ودروس وعظات؛ فمع بداية قيام دولة السلاجقة كانت العلاقة بين الطرفين علاقة عداء، وصدام، ولكن في عهد السلطان ألب أرسلان حدث انقلاب إيجابي على هذه العلاقة، فبدأت الدولة السلجوقية تقرب علماء الأشعرية، وتغدق عليهم، وتجري عليهم الأرزاق والمنح وتفتح لهم أبواب المدارس النظامية للعمل فيها، ويرجع سبب هذا التحول إلى استخدام الدولة السلجوقية؛ متمثلة بالوزير نظام الملك الطوسي للأشعرية سلاحًا؛ لمواجهة الفرق المنحرفة التي انتشرت في العالم الإسلامي، وشكلت تهديدًا عسكريًا، وأمنيًا، للعالم الإسلامي، والذي يسجل للسلاجقة نجاحهم في هذه المواجهة.

ترجع أهمية الدراسة إلى ندرة الدراسات الأكاديمية الجادة التي تناولت الموضوع على الرغم من أهميته، ورصد أسباب العداء بين السلاجقة والأشعرية في عهد طغرلبك، والتركيز على تجربة السلاجقة الناجحة في مواجهة الفرق الضالة التي شكلت تهديدًا وجوديًا للإسلام، بالإضافة إلى إظهار دور الأشعرية في المعركة الفكرية التي شهدها العالم الإسلامي في العصر السلجوقي مع الفرق الضالة.

المبحث الأول: تعريف بالسلاجقة والأشعرية

أولاً: أصل السلاجقة وتأسيس دولتهم

تعود أصول السلاجقة إلى أسرة تركية كبيرة، كانت تقيم في بلاد ما وراء النهر، وتنسب إلى زعيمها سلجوق بن تُقاق، الذي اشتهر بكفاءته الحربية، وكثرة أتباعه[١]، وهاجر السلاجقة بزعامة طغرلبك في الربع الأول من القرن الخامس الهجري إلى خراسان الخاضعة لنفوذ الغزنويين، وبعد سلسلة من الصراع بين الغزنويين والسلاجقة، استطاع السلاجقة السيطرة على خراسان بعد هزيمة الغزنويين بقيادة سنة (٤٣١هـ/ ١٠٤٠م)[٢]. واستطاع السلاجقة توطيد سلطانهم عبر انتماؤهم إلى المذهب السني، وإعلانهم الولاء والتبعية للخليفة العباسي القائم بأمر الله، الذي عين طغرلبك نائبًا عنه في خراسان وبلاد ما وراء النهر وفي كل ما يتم فتحه من البلاد، وقد استطاع السلاجقة توسيع حدود مملكتهم بسرعة هائلة. وبدأ طغرلبك يتطلع للسيطرة على بغداد، وقد هيأت له الأوضاع السائدة في العراق تحقيق هذا الهدف سنة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)، وأسقط دولة البويهيين، وأصبح أولَ سلاطين السلاجقة في بغداد، وقد استقبله الخليفة القائم بأمر الله بكل مظاهر الحفاوة والترحاب، رأى السلاجقة في الخلافة السُّنية رمزًا دينيًا يعبر عن وحدة الأمة الإسلامية وعزتها، ونظروا إلى الخليفة على أنه تجسيد حي لهذا الرمز، فأحاطوه بهالة من التقدير والإكبار[٣].

كان طغرلبك حريصًا على إبداء كل مظاهر الإجلال والتوقير للخليفة، وقد اقتدى به خلفاؤه؛ فعاملوا الخلفاء العباسيين بكل ما يليق بمكانتهم من احترام وتعظيم، وقد أراد طغرلبك أن يمنح نفسه وأسرته شرفًا فريدًا متميزًا، وأن يضفي على سلطانه السياسي صبغة روحية، فخطب ابنة الخليفة القائم بأمر الله وتزوجها سنة (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م)[٤]. عين طغرلبك عميد الملك الكندري وزيرًا له، فكان ساعده الأيمن ويعتبر عميد الملك أحد العوامل المهمة في ازدهار الدولة السلجوقية في عهد طغرلبك بفضل ما كان يتمتع به من حنكة وكفاءة، كما كان سببًا مكَّن السلاجقة من السيطرة على العراق ودار الخلافة، وإدخال الخليفة ووزرائه وحاشيته في طاعة السلاجقة دون إراقة دماء[٥].

١/١- وفاة طغرلبك وتولي ألب أرسلان:

في سنة (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) طغرلبك بمدينة الري وعمره نحو سبعين عامًا، وتولَّى ألب أرسلان سلطنة السلاجقة[٦]، وعين نظام الملك وزيرًا له، وكان وزيره أثناء إمارته على خراسان قبل توليه السلطنة، ويُعدُّ نظام الملك أشهر وزراء السلاجقة وقد ظل نظام الملك وزيرًا للسلطان ألب أرسلان ثم لخليفته ملكشاه ما يقرب من ثلاثين عامًا.[٧] واستطاع خلال حكم ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣-١٠٧٣م) أن يوسع حدود مملكة السلاجقة التي ورثها عن عمه طغرل، وأن يسجل انتصارات رائعة ضد أعدائه في الداخل والخارج، فنجح في القضاء على حركات العصيان في خراسان أذربيجان، واستولى على حلب وقضى على النفوذ الفاطمي بها.[٨]

لكن أشهر ما حدث خلال فترة حكمه هو معركة ملاذكرد حيث عزم الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع على طرد السلاجقة من أرمينيا وضمها إلى النفوذ البيزنطي، فأعد جيشًا كبيرًا سنة (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) يتكون من مائتي ألف مقاتل، وتولَّى قيادته بنفسه، وزحف به إلى أرمينيا، وعندما علم السلطان ألب أرسلان بذلك وهو بأذربيجان لم يستطع أن يجمع من المقاتلين إلا خمسة عشر ألف فارس، فتقدم بهم إلى لقاء الإمبراطور البيزنطي وجحافله، والتقى جيش السلطان وجيش الإمبراطور في مدينة ملاذكرد بأرمينيا، وحمل المسلمون على الروم حملة رجل واحد، وأنزل الله نصره عليهم فانهزم الروم وامتلأت الأرض بجثثهم، وتمكن المسلمون من أسر إمبراطور الروم رومانوس، فأحسن السلطان ألب أرسلان معاملته، وأعفاه من القتل مقابل فدية مقدارها مليون ونصف مليون دينار، وعقد معه صلحًا مدته خمسون عامًا، وأطلق سراحه وقد أنهت معركة ملاذكرد النفوذ البيزنطي في أرمينيا بصورة مطلقة، وفتحت المجال لامتداد النفوذ الإسلامي السلجوقي إلى آسيا الصغرى، وتهديده العاصمة البيزنطية وما وراءها في أوروبا.[٩]

٢/١-مقتل ألب أرسلان وانتقال السلطة إلى ابنه ملكشاه:

في أوائل عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م) توجه ألب أرسلان إلى بلاد ما وراء النهر لتأديب أمير بخارى الثائر وبينما هو في طريقه، قتل على يد يوسف الخوارزمي أمير إحدى القلاع الثائرة بعد أن طعنه بخنجر كان معه، فمات السلطان ألب أرسلا نبعد أيام متأثرًا بجراحه وعمره أربعون أو خمس وأربعون سنة[١٠]، وعقب وفاة ألب أرسلان تولى السلطنة ابنه ملكشاه بعهد من أبيه، وتولى نظام الملك أخذ البيعة له، وأقره الخليفة القائم بأمر الله على السلطنة[١١].

وبلغت الدولة السلجوقية ذروة مجدها وعظمتها على يد ملكشاه الذي استمر في السلطنة عشرين عامًا تقريبًا؛ حيث استطاع أن يستثمر ما حققه طغرلبك وألب أرسلان على أحسن وجه، فحقق إنجازات عظيمة بمعاونة وزيره نظام الملك، وقد اتسعت حدود الدولة في عهد ملكشاه اتساعًا غير مسبوق، من حدود الصين إلى آخر الشام، ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن، وحمل إليه ملوك الروم الجزية[١٢].

وترجع عظمة الدولة السلجوقية في عهد ملكشاه إلى اتساع حدودها وازدهار الحركة الثقافية فيها بصورة جديرة بالإعجاب، وكان لنظام الملك أثر متميز وجهد خلاق في ذلك، على المستوى الإداري والعسكري، والثقافي، فاهتم بإنشاء العديد من المدارس التي نسبت إليه في أنحاء الدولة، فسميت بالمدارس النظامية، وقد أسهمت هذه المدارس النظامية في تثبيت قواعد المذهب السني والدفاع عنه ضد مختلف البدع والأهواء والمذاهب المنحرفة التي انتشرت في ذلك الوقت[١٣].

٣/١-مقتل نظام الملك ووفاة ملكشاه:

قتل نظام الملك في سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)، حين تقدم إليه أحد غلمان الباطنية وهو في ركب السلطان في صورة سائل أو مستغيث، فلما اقترب منه أخرج سكينًا كان يخفيها في طيات ملابسه فطعنه بها طعنات قاتلة، وقد تُوفي ملكشاه بعد بخمسة

وثلاثين يومًا، فانطوت صفحة من أكثر صفحات التاريخ السلجوقي تألقًا وعظمة[١٤]. بدأت مظاهر الضعف تنتشر في جسم الدولة السلجوقية عقب وفاة ملكشاه، فظهر الانقسام والتمزق والفتن، وانقسمت الدولة السلجوقية إلى عدة أقسام[١٥] وهي:

سلاجقة العراق: ويطلق هذا المصطلح على أمراء السلاجقة الذين سيطروا على العراق والري وكردستان، واستمر نفوذهم من سنة (٥١١-٥٩٠هـ/ ١١١٧-١١٩٤م)، حين تمكن الخوارزميون من القضاء على "طغرل الثالث" آخر سلاطينهم.

سلاجقة كرمان: وقد بدأ نفوذهم في الجنوب الشرقي لفارس وفي بعض مناطق الوسط سنة (٤٣٣هـ/١٠٤٢م)، قبل دخول طغرلبك بغداد واستمر حتى سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، حين قضى التركمان الغز على سلطتهم هناك.

سلاجقة الشام: وكان نفوذهم في المناطق التي استولى عليها السلاجقة من الفاطميين أو الروم في الشام، وقد بدأ نفوذهم في هذه المناطق سنة (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، وانتهى سنة (٥١١هـ/ ١١١٧م) على يد أتابكة الشام.

سلاجقة الروم: وكان نفوذهم في الأراضي التي استطاع السلاجقة الاستيلاء عليها من الروم في آسيا الصغرى، وكانت إمارتهم أطول إمارات السلاجقة عمرًا؛ حيث بدأت سنة (٤٧٠هـ/ ١٠٧٨م)، واستمرت حتى سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) حين استطاع الأتراك العثمانيون القضاء عليها.

ثانيًا: نبذة تعريفة عن الأشاعرة

١/٢-الأشاعرة:

هي فرقة كلامية إسلامية، تنسب لأبي الحسن الأشعري الذي خرج على المعتزلة، وقد اتخذت الأشاعرة البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة في محاجة خصومها من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم، لإثبات حقائق الدين، وقد ظهرت في القرن الثالث الهجري، فأصبح الانتساب إلى الأشعري هو ما عليه أكثر الناس في البلدان الإسلامية، وما يجدر أن مؤسسها أبو حسن الأشعري لم يدم فيها إذ رجع إلى مذهب السلف، فصار أتباعه على أقسام، فبعضهم على معرفه بمذهبه الصحيح وآرائه التي استمر عليها أخيرًا، وبعضهم على جهل تام بذلك وبعضهم يتجاهل ويصر على مخالفته، مع انتساب إليه.[١٦]

٢/٢-مجمل أصول الاعتقاد عند الأشاعرة:

الأشاعرة يثبتون لله سبع صفات يسمونها: صفات المعاني وهي: العلم، والقدرة والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، يؤولون بقية الصفات، أما في القرآن فقالوا: المعاني مسموعة حقيقة، والألفاظ مخلوقة، وفي القدر: أردوا التوفيق بين الجبرية والقدرية، فجاءوا بنظرية الكسب، وهي في مآلها جبرية خالصة، لأنها تنفي أي قدرة للعبد أو تأثير، وفي أخبار الآحاد قالوا: لا تفيد العلم، فلا يحتاج بها في العقائد، والأشاعرة يجعلون اهتمامهم كله في إثبات انفراد الله بالخلق والاختراع (إثبات الربوبية)، ولا يهتمون بتوحيد الألوهية الذي هو أصل بعثة الرسل، وقلما يذكرونه في كتبهم؛ لذا انخرط كثير منهم في بدع الصوفية والطرق الشركية.[١٧] وقد تفرعت من هذه الأصول الكبار مسائل متعددة متفرقة، كانوا في كل واحدة منها سالكين ومتابعين لأقوال طائفة أو فرقة من الفرق المنحرف عن منهج أهل السنة.

٣/٢-منهج الأشاعرة في العقيدة:

يمثل الأشاعرة منهجًا مستقلاً في كيانه الفكري، فالأشاعرة فرقة كلامية انشقت عن أصلها (المعتزلة)، ووافقت السلف في بعض القضايا، وتأثرت بمنهج الوحي ولذلك يعد الأشاعرة العقل مصدر التلقي، فهم يجعلون العقل هو الأساس والنقل تبعًا له وقد استعانوا بقضايا فلسفية ومسائل عقلية خاض فيها الفلاسفة، وسلكها المناطقة، قال الفخر الرازي: " ولو جوزنا القدح في الدلائل النقلية عن كونها مفيدة، فثبت أن القدح لتصحيح النقل يفضي إلى القدح في العقل والنقل معا، إنه باطل، فالدلائل النقلية بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة إما أن تكون غير صحيحة، إلا أن المراد منها غير ظواهرها، وهذا أمر نقطع به"[١٨]. فهذه الانحرافات، وهذا الابتداع في الشرع ما ليس منه لدى أصحاب الأهواء والبدع نتج بسبب فساد دينهم بالاعتقاد الباطل، ومن شرح الله صدره إلى الإسلام، وحبب إليه طريق الإيمان، ووفقه لسلك طريق الهدى، وتردك الردى لا يسلك في طلب معرفة الله طريق أهل المراء والجدال؛ حتى يقول: لا أنظر في المعجزة أو الأدلة السمعية حتى اعلم صدق صاحبها ولا أعلم صدقه حتى أنظر فيها، وتحول ذلك من مدفعة الحق، ودعاة من ليس بموفق، واصطلاح من ليس فيه صلاح، ولا لاح عليه فلاح؛ بل يبادر إلى النظر فيها، لاحتمال صدقها المترتب على التصديق به السعادة الكبرى، وعلى التكذيب به الشقاوة العظمى، فإذا علم صدقها سارع إلى التصديق بها، والعلم النافع والعمل ولم يشتغل بعلم المغالطات، والتشدق بالجدل، كاشتغال الخالين عن الخوف والوجل، الناسين لذكر الله[١٩].

٤/٢-أبي الحسن الأشعري مؤسس فرقة الأشاعرة:

هو الشيخ أبو الحسن علي بنُ إسماعيل بن أبي بِشر، إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أمير البصرة بلال بن أبي بُردة ابن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي موسى عبد الله بن قيس بن حضار، الأشعري اليماني البصري[٢٠]، والأشعري: بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح العين المهملة وبعدها راء، هذه النسبة إلى أشعر، وإنما قيل له أشعر، لأن أمه ولدته والشعر على بدنه،[٢١] والإمام الأشعري بصري سكن بغداد إلى أن توفي بها[٢٢]، ولد -رحمه الله-سنة ستين ومائتين هجرية بالبصرة، وقيل سنة سبعين ومائتين[٢٣].

مارس الأشعري علم الكلام على مذهب الاعتزال مدّة مديدة وبرع فيه إلى أوائل العقد الخامس من عمره، وعند ذاك السن تكون عقيدة الاعتزال صورة راسخة وملكة متأصِّلة في نفسه، فمن المشكل جدًّا أنْ ينخلع الرجل دفعة واحدة عن كلّ ما تعلَّم وعلَّم، وناظر وغَلب أو غُلب، وينخرط في مسلك يُضادّ ذلك ويُغايره بالكليّة. نعم، نتيجة بروز الشكّ والتردُّد هو عدوله عن بعض المسائل وبقاؤه على مسائل أُخر، وأمّا العدول دفعة واحدة عن جميع ما مارسه وبرع فيه، والبراءة من كلّ ما يمتُّ إلى منهج

الاعتزال بصلة، فلا يُمكن أنْ يكون أمرًا حقيقيًّا جديًّا من جميع الجهات، فالنتيجة أنّ تركه لمذهب الاعتزال ما هو إلّا نتاجٌ للرياح السياسيّة الضاغطة في ذلك الوقت ويكفي في بيان فضل أبي الحسن الأشعري ثناء الحافظ البيهقي عليه وهو محدث زمانه وشيخ أهل السنة في وقته، قال البيهقي: إلى أن بلغت النوبة إلى شيخنا أبي الحسن الأشعري فلم يحدث في دين الله حدثا ولم يأت فيه ببدعة، بل أخذ أقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في أصول الدين فنصرها بزيادة شرح وتبيين.[٢٤]

كان الشيخ الأشعري سيدا في التصوف واعتبار القلوب، كما هو سيد في علم الكلام وأصناف العلوم، كما نقل ابن السبكي في طبقاته وقال: وذكر من صحبه أنه مكث عشرين سنة يصلي الصبح بوضوء العتمة[٢٥]، وتوفي - رحمه الله - سنة (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) في بغداد.[٢٦]

٥/٢-أبرز أئمة الأشاعرة وعلمائهم:

(٥/٢) ١-القاضي أبو بكر الباقلاني: (ت. ٤٠٢هـ/ ١٠١٢م)

هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، من كبار علماء الكلام، هذَّب بحوث الأشعري، وتكلَّم في مقدمات البراهين العقلية للتوحيد وغالى فيها كثيرًا إذ لم ترد هذه المقدمات في كتاب ولا سنة، ثم انتهى إلى مذهب السلف وأثبت جميع الصفات كالوجه واليدين على الحقيقة وأبطل أصناف التأويلات التي يستعملها المؤولة وذلك في كتابه: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، ولد في البصرة وسكن بغداد وتوفي فيها، وجهه عضد الدولة سفيرًا عنه إلى ملك الروم، من كتبه: إعجاز القرآن، الإنصاف، مناقب الأئمة، دقائق الكلام، الملل والنحل، الاستبصار، تمهيد الأوائل، كشف أسرار الباطنية.[٢٧]

(٥/٢) ٢-أبو إسحاق الشيرازي: (ت. ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م)

وهو إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز أبادي الشيرازي، العلامة المناظر، ولد في فيروز أباد بفارس وانتقل إلى شيراز، ثم البصرة ومنها إلى بغداد سنة (٤١٥هـ/ ١٠٢٤م)، وظهر نبوغه في الفقه الشافعي وعلم الكلام، فكان مرجعًا للطلاب ومفتيًا للأمة في عصره، وقد اشتهر بقوة الحجة في الجدل والمناظرة، بنى له الوزير نظام الملك: المدرسة النظامية على شاطئ دجلة، فكان يدرس فيها ويديرها.[٢٨]

(٥/٢) ٣-أبو حامد الغزالي: (ت. ٥٠٥هـ/ ١١١٢م):

وهو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ولد في قصبة طوس خراسان وتُوفِّي بها، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد، فالحجاز، فبلاد الشام، فمصر ثم عاد إلى بلدته، لم يسلك الغزالي مسلك الباقلاني، بل خالف الأشعري في بعض الآراء وخاصة فيما يتعلق بالمقدمات العقلية في الاستدلال، وذم علم الكلام وبيَّن أن أدلته لا تفيد اليقين كما في كتبه المنقذ من الضلال، وكتاب التفرقة بين الإيمان والزندقة، وحرم الخوض فيه فقال: "لو تركنا المداهنة لصرحنا بأن الخوض في هذا العلم حرام". اتجه نحو التصوف، واعتقد أنه الطريق الوحيد للمعرفة، وعاد في آخر حياته إلى السنة من خلال دراسة صحيح البخاري.[٢٩]

(٥/٢) ٤-أبو إسحاق الإسفراييني: (ت. ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م)

وهو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، أبو إسحاق عالم بالفقه والأصول وكان يلقب بركن الدين وهو أول من لقب به من الفقهاء، نشأ في إسفرايين ثم خرج إلى نيسابور وبنيت له مدرسة عظيمة فدرس فيها، ورحل إلى خراسان وبعض أنحاء العراق، فاشتهر في العالم الإسلامي، ألَّف في علم الكلام كتابه الكبير، الذي سماه الجامع في أصول الدين والرد على الملحدين، قال ابن خلكان: رأيته في خمسة مجلدات، توفي أبو إسحاق الإسفراييني في يوم عاشوراء سنة (٤١٠هـ/ ١٠١٩م) بنيسابور ثم نقل إلى إسفرايين ودفن بها.[٣٠]

(٥/٢) ٥-إمام الحرمين أبو المعالي الجويني: (ت. ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)

وهو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، الفقيه الشافعي ولد في بلد جوين (من نواحي نيسابور) ثم رحل إلى بغداد، ثم مكة فمكث فيها أربع سنوات، وذهب إلى المدينة المنورة فعمل بالفتوى ودرّس فيها، ثم عاد إلى نيسابور فبنى له فيها الوزير نظام الملك المدرسة النظامية، وكان يحضر دروسه أكابر العلماء، وبقي على ذلك حوالي ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع، ودافع فيها عن الأشعرية فشاع ذكره في الآفاق، إلا أنه في نهاية حياته رجع إلى مذهب السلف، توفي رحمه الله بنيسابور وكان عدد تلامذته نحو أربعمائة وكان له من مؤلفاته: العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، البرهان في أصول الفقه، ونهاية المطلب في دراية المذهب في فقه الشافعية، والشامل في أصول الدين.[٣١]

(٥/٢) ٦-الفخر الرازي: (ت. ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م)

هو أبو عبد الله محمد بن عمر الحسن بن الحسين التيمي الطبرستاني الرازي المولد، الملقب فخر الدين المعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعي قال عنه صاحب وفيات الأعيان "إنه فريد عصره ونسيج وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام، والمعقولات" وهو المعبر عن المذهب الأشعري في مرحلته الأخيرة حيث خلط الكلام بالفلسفة، بالإضافة إلى أنه صاحب القاعدة الكلية التي انتصر فيها للعقل وقدمه على الأدلة الشرعية.[٣٢]

المبحث الثاني: العلاقة بين الدولة السلجوقية والأشاعرة في عهد طغرلبك (اضطهاد الأشاعرة)

كانت علاقة سلطان السلاجقة الأول طغرلبك مع علماء الأشعرية وأنصارها علاقة عداوة، حيث شهدت فترة حكمه حالات اضطهاد وملاحقة لمشايخ وعلماء الأشعرية، ابتدأت عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) عندما أمر طغرلبك بلعن كل الطوائف المخالفة "للسنة" على المنابر، ومنها المعتزلة والأشعرية، بعدما نقل إليه أن الشيخ أبا الحسن الأشعري يقول بشيء من الأمور التي لا تليق بالدين والسنة فأمر بلعنه وصرح أهل نيسابور بتكفير من يقول ذلك.[٣٣]

فضج من ذلك الشيخ الأشعري أبو القاسم القشيري، وصنف رسالة شكاية السنة لما نالهم من المحنة، وكان قد رفع إلى السلطان طغرلبك شيء من مقالات الأشعري فقال أصحاب الأشعري: هذا محال وليس هذا مذهبة فقال السلطان: إنما نأمر بلعن الأشعري الذي قال هذه المقالة فإن لم تدينوا بها ولم يقل الأشعري شيئًا منها فلا عليكم مما نقول، قال القشيري: فأخذنا في الاستعطاف، فلم تسمع لنا حجة، ولم تقض لنا حاجة، وأحلنا على بعض العلماء، فحضرنا وظننا أنه يصلح الحال، فقال: الأشعري عندي مبتدع يزيد على المعتزلة.[٣٤]

ويرجع سبب عداوة السلطان طغرلبك للأشعرية في ذلك الوقت إلى وزيره عميد المالك منصور بن محمد الكندري، الذي يترأس حملة الكيد والاضطهاد ضد الأشاعرة فتتحدث عنه المصادر التاريخية أنه معتزليًا رافضيًا[٣٥] خبيث العقيدة كان يقول بخلق الأفعال وغيره من قبائح القدرية وسب الشيخان وسائر الصحابة، وغير ذلك من قبائح شر الروافض وتشبيهه الله بخلقه وكان له مع ذلك تعصب عظيم، فحسَّن للسلطان لعن المبتدعة على المنابر فعند ذلك أمر السلطان أن تلعن المبتدعة على المنابر فاتخذ الكندري ذلك ذريعة إلى ذكر الأشاعرة وصار يقصدهم بالإهانة والأذى، وعزلهم عن خطابة الجامع واستعان بطائفة من المعتزلة الذين زعموا أنهم يقلدون مذهب أبي حنيفة، واتخذوا التمذهب بالمذهب الحنفي سياجًا عليهم، فحببوا إلى السلطان (والذي رجلاً صالحًا صاحب عقيدة، حنفي المذهب)[٣٦] الإزراء بمذهب الشافعي عمومًا والأشعرية خصوصًا.[٣٧]

وهناك سبب آخر دفع الكندري للحقد على الأشاعرة والدس عليهم عند السلطان طغرلبك هو منافسة رئيس نيسابور أبَا سهل بْن الموفق، ذا الأموال الكثيرة، والصدقات الدارة، وكان مرموقًا بالوزارة، وداره مجتمع العلماء، ملتقى الأئمة من الفريقين: الحنفية والشافعية، في داره يتناظرون، وكان عارفا بأصول الدين على مذهب الأشعري، قائمًا في ذلك مناضلاً في الذب عنه، فعظم ذلك على الكندري؛ بما في نفسه من المذهب، ومن بغض ابن الموفق بخصوصه، وخشيته منه أن يثب على الوزارة.[٣٨] نتج عن ذلك فتنة وأحداث ذكرها السبكي بالتفاصيل في طبقات الشافعية فقال:" هي الفتنة التي طار شررها فملأ الآفاق وطال ضررها فشمل خراسان والشام والحجاز والعراق وعظم خطبها وبلاؤها وقام في سب أهل السنة خطيبها وشفهاؤها إذ أدى هذا الأمر إلى التصريح بلعن أهل السنة في الجمع وتوظيف سبهم على المنابر".[٣٩]

وتبع ذلك أمر من قبل السلطان طغرلبك بالقبض على مجموعة من علماء الأشعرية منهم الرئيس الفراتي، والأستاذ أَبِي القاسم القشيري، والجويني إمام الحرمين، وأبي سهل بْن الموفق، ونفيهم ومنعهم عن المحافل، وكان أَبُو سهل غائبًا، ولما قرأ الكتاب بنفيهم أغرى بهم الغاغة والأوباش، فأخذوا بالأستاذ أَبِي القاسم القشيري والفراتي يجرونهما ويستخفون بهما، وحبساهما، وأما إمام الحرمين، فإنه كان أحس بالأمر واختفى، وخرج على طريق كرمان إلى الحجاز، وبقي القشيري والفراتي مسجونين أكثر من شهر، إلى أن تحرك أَبُو سهل بْن الموفق من ناحية باخرز وجمع من أعوانه رجالا عارفين بالحرب، وأتى باب البلد، وطلب إخراج الفراتي والقشيري، فما أجيب بل هدد بالقبض عليه، بمقتضى ما تقدم من مرسوم السلطان، فلم يلتفت وعزم على دخول البلد ليلا، وإخراجهما مجاهرة، وتم له ذلك فعلاً وتم إخراج المسجونين عنوة، ولكن لما انتصر أَبُو سهل، وتم له ما ابتغى تشاور هو وأصحابه فيما بينهم، وعلموا أن مخالفة السلطان لها تبعة، وأن الخصوم لا ينامون، فاتفقوا على الهجرة إلى ناحية استواء، ثم يذهبون إلى الملك، وبقي بعض الأصحاب مفرقين بالنواحي، وذهب أَبُو سهل إلى المعسكر، وكان على مدينة الري، وخرج خصمه من الجانب الآخر، فتوفيا بالري، وانتهى إلى السلطان ما جرى، وسعى بأصحاب الشافعي، وبالإمام أَبِي سهل خصوصًا، فقبض على أَبِي سهل، وحبس في بعض القلاع، وأخذت أمواله، وبيعت ضياعه، ثم أُفرج عنه وخرج، وذهب للحج كما فعل كثير من العلماء هربًا من هذه الفتنة.[٤٠]

يتضح من ذلك أن عدة أمور أثرت في سير العلاقة بين السلاجقة والأشاعرة في عهد السلطان طغرلبك كان أهمها حالة الصراع بين الفرق والمذاهب الدينية السائدة في ذلك الوقت، فكان عادة ما يستغل أعداء الأشاعرة ذلك في الربط بين الأشعرية والمعتزلة ويلفقوا لهم الأقوال وينقلوها إلى السلطان، كما كان انتماء السلطان ووزيره للمذهب الحنفي دور بارز في تغذية اتجاه اضطهاد الأشاعرة، وطبعًا دور بطانة السلطان وخاصة وزير الكندري الذي تصدر الإساءة وإعلان الحرب على علماء مشايخ الأشعرية كان محوريًا في تشكيل موقف السلطان من الأشاعرة.

المبحث الثالث: علاقة الأشاعرة مع السلاجقة في عهدي ألب أرسلان وملكشاه.

في عام (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) توفي السلطان طغرلبك وقد أوصى لولد أخيه سليمان بن داود، وكان ظغرلبك قد نص عليه وأوصى إليه، لأنه كان قد تزوج بأمه، واتفقت الكلمة عليه، ولم يبق عليه خوف إلا من جهة عضد الدولة ألب أرسلان، محمد بن داود، فكان الجيش يميل إليه، وقد خطب له أهل الجبل ومعه نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق وزيره، واستطاع ألب أرسلان القبض على وزير طغرلبك الكندري الذي بايع لسليمان، فسجنه ثم أمر بقتله[٤١]، وبذلك انتهى أمر عدو الأشاعرة الأول وأصبحت السلطنة لألب أرسلان.

بوفاة السلطان طغرلبك ووزيره الكندري انتهت مرحلة من مراحل علاقة الدولة السلجوقية بالأشاعرة، وبدأت مرحلة جديدة مغايرة تمامًا، ويمكن القول إنه حدث انقلاب في تلك العلاقة، فبدأ ألب أرسلان سياسة جديدة مع الأشعرية فأسقط سياسة نظام السلطان السابق جميعه وأعاد العلماء المهجرين، كأبو القاسم القشيري والإمام أبو المعالي الجويني إلى أوطانهم وأكرمهم، وأمر بوقف سب الأشعرية على المنابر ووقف كل

حملات التحريض والاضطهاد بحقهم، وأظهر حب واحترام كبيرين لعلماء الشافعية والأشعرية(٤٢).

ويمكن القول إن السبب في هذا التغير السريع في موقف دولة السلاجقة يعود للحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقب "بنظام الملك" فقد عينه السلطان وزيرًا له، فكان رجلاً قديرًا وقويًا والرجل الأول في دولة السلاجقة، استمر في وزارته حتى عهد ملكشاه(٤٣)، وكان سنيًا متحمسًا فحفظه أبوه القرآن وشغله في التفقه على مذهب الشافعي(٤٤) وكان ونصيرًا للأشعرية(٤٥)، فكان له دور إرجاع علماء الأشعرية من الحجاز ومنع سبهم على المنابر.

أولاً: السلاجقة وانتشار الأشعرية

لم يكتفي نظام الملك برفع الظلم عن الأشعرية بل بدأ بسياسة جديدة أفضت إلى انتشار المذهب الأشعري في مناطق الدولة السلجوقية، وكذلك أصبحت العقيدة الأشعرية عقيدة شبه رسمية تتمتع بحماية الدولة وكانت أولى خطوات هذه السياسة بناء المدارس النظامية، وبدأ نظام الملك في بناء المدارس النظامية في عام (٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م) أي بعد عام واحد من توليته منصب الوزارة(٤٦)، فبنى مدرسة ببغداد ومدرسة ببلخ ومدرسة بنيسابور ومدرسة بهراة ومدرسة بأصبهان ومدرسة بالبصرة ومدرسة بمرو ومدرسة بآمل طبرستان ومدرسة بالموصل(٤٧).

وكانت أشهر وأول تلك المدارس مدرسة النظامية في بغداد، التي انتهى من بناءها سنة (٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م)، وكان أول من درس بها الأشعري أبي إسحاق الشيرازي، وقيل عنها أنها أول مدرسة نظامية رسمية بنيت للفقهاء على الطريقة الشافعية(٤٨)، وكانت معقل للشافعية، ولهذا كان في مقدور المدرسين والوعاظ الشافعيين أن يتخذوها منبرًا لبث آرائهم(٤٩).

وتجدر الإشارة هنا؛ أن هناك انسجام وتقارب بين الشافعية والأشعرية وكان جمع لا بأس به من علماء الشافعية يميلون إلى الأشعرية، ولو نظرنا إلى مجمل علماء الأشعرية لوجدناهم من الشافعية، وقد بين ابن الجوزي استغرابه من أن يكون الحنفي اشعري أورد ذلك في ترجمته لمحمد بن احمد السمناني فقال: "وكان أشعريًا وهذا مما يستظرف أن يكون الحنفي أشعريًا"(٥٠) وقد عاب أحد فقهاء الحنابلة على الشافعية كثرة تعلقهم بمقولات الأشعرية بقوله" الشافعي لم يكن أشعريًا وأنتم أشعرية(٥١)" مما يوضح حالة التقارب بين المذهبين.

وتوضح الشروط التي وضعت للتدريس أو الدراسة في المدرسة النظامية كيف أنها وجدت لخدمة مشايخ وعلماء الشافعية والأشعرية، فيقول ابن الجوزي: "أنها وقف على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعًا، وكذلك الأملاك الموقوفة عليها شرط فيها أن يكون على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعًا، وكذلك شرط في المدرس الذي يكون بها الواعظ الذي يعظ بها ومتولى الكتب وشرط أن يكون فيها مقرئ يقرأ القرآن ونحوي يدرس العربية وفرض لكل قسطا من الوقف(٥٢)"، وأيضًا كان لابد لكل من يريد أن يُدرس بالنظامية الحصول على منشور أو موافقة مكتوبة من الوزير نظام الملك الذي كان يتدخل أيضًا في تحديد أيام التدريس للعلماء(٥٣)، اذا نظرت إلى أبرز العلماء العاملين في المدارس النظامية لوجدتهم من قامات الأشعرية مثال أبو إسحاق الشيرزي، وإمام الحرمين الجويني، وأبو حامد الغزالي(٥٤)، وأبي إسحاق الإسفرايني وغيرهم.(٥٥)

واهتم نظام الملك بهذه المدارس اشد الاهتمام وخصص للطلاب السكن وبدل المعيش وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الجهود التي بذلها نظام الملك في تشييد هذه المدارس وتيسير سبل العلم فيها، وتوفير الحياة الكريمة بداخلها أن تروج سوق العلم بها٥٦، فكان في نظامية نيسابور لوحدها فكان يقعد بين يدي إمام الحرمين: كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل من الأئمة ومن الطلبة(٥٧).

وأيضًا دفع هذا الأمر إلى تطلع الأساتذة إلى التدريس بالنظامية حتى وصل الأمر بعضهم إلى أن يضحي في سبيل هذه الغاية بالتخلي عن مذهبه في عصر كان التعصب المذهبي سمة من سماته البارزة، ومن هؤلاء: أبو الفتح أحمد بن علي بن تركان المعروف بابن الحمامي وكان حنبليًا، فانتقل إلى مذهب الشافعي، وتفقه إلى المذهب الشافعي وتفقه على أبي بكر الشاشي والغزالي، فجعله أصحاب الشافعي مدرسًا، بالنظامية(٥٨)، ويبدو أن انتقال الحنابلة إلى مذهب الشافعي في هذه الفترة كان أمرًا كثير الحدوث بدرجة أزعجت أحد أئمتهم حيث ينقل عنه قوله: إن أكثر أعمال الناس لا يقع إلا للناس إلا من عصم الله وإنما يحاولون التقرب بها إلى ذوي النفوذ والجاه طمعًا في متاع الدنيا، ويحدث بما حدث عندما جاءت دولة نظام الملك، وعظم شأن الأشعرية والشافعية، فوجد كثيرًا من أصحاب المذاهب انتقلوا عن مذاهبهم، وتوثقوا بمذهب الأشعري والشافعي طمعًا في العز والجرايات(٥٩).

يمكن القول إن موقف دولة السلاجقة من الأشاعرة في عهدي ألب أرسلان وملكشاه كان واضحًا وثابتًا والفضل ويرجع بذلك إلى وزير سلطانهم نظام الملك، فلم يتغير موقفهم بعيد رحيل ألب أرسلان وتولية ملكشاه، وبقي الوزير نظام الملك على رأس عمله، ويظهر جليًا دور علماء الأشعرية في خدمة الحركة العلمية ونشر المذهب السني على حساب المذاهب الأخرى.

ثانيًا: مهابة السلاطين من علماء الأشاعرة وتقديرهم واحترامهم

كان نظام الملك إذا دخل عليه الإمام أبو القاسم القشيري والإمام أبو المعالي الجويني يقوم لهما ويجلس في مسنده ويجلس هو بين يديه فقيل له في ذلك فقال: "إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا علي يقولون لي أنت كذا وكذا يثنون علي بما ليس بي فيزيدني كلامهم عجبًا وتيه، وهذا الشيخ يذكر لي عيوب نفسي وأما أنا فيه من الظلم فتنكسر نفسي لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه"(٦٠)، ويقول السبكي عنه:" لم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء عليه وترددهم إلى بابه وثنائهم على عدله وتأليفهم الكتب باسمه يحضر سماطه مثل أبي القاسم القشيري وأبي إسحاق الشيرازي وإمام الحرمين وغيرهم"(٦١)، وكان يتواضع

في حضرة العلماء ويتضاءل بين العلماء ويتنازل وإن كان منزله أعلى من نجم السماء[٦٢].

ثالثًا: موقف علماء الأشعرية من السلاجقة

كتب الإمام الجويني رسالة متحدثا عن فضل السلاجقة وأعمالهم العظيمة في محاربة أعداء الأمة الداخليين والخارجيين، ومبينًا دورهم في حماية دولة الإسلام ورفعتها فكتب يقول" فأقول ما تشبث به الطاعنون من هنات وعثرات صدرها عن معرة الأجناد المنحرفين عن سنن الاقتصاد في أطراف الممالك والبلاد لو سلم لهم كما يدعون توبعوا فيما يأتون ويذرون ويدعون وغض عنهم طرف الانتقاد فيما يبتدعون ويخترعون فأين يقع ما يقولون مما يدفع الله بهم من معضلات الأمور ويدرأ بسببهم من فنون الدواهي على كرور الدهور أليس بهم انحصار الكفار في أقاصي الديار وبهم يخفق بنود الدين على الخافقين وبهم أُقيمت دعوة الحق في الحرمين وأثبتت كتائب الملة في المشرقين والمغربين وارتدت مناظم الكفار منكوسة ومعالمهم معكوسة وبذل عظيم الروم الجزية والدنية وصارت المسالمة والمتاركة له قصارى الأمنية وانبسطت هيبة الإسلام على الأصقاع القصبة، واطلبت على قمم الماردين رايته العلية وأضحت ثغر صدورهم لأسنة عساكر الإسلام دريئة"[٦٣].

مما لا شك فيه؛ أنه هذه الرسالة تبين مدى دفاع علماء الأشاعرة عن السلاجقة ودولتهم ودورهم في إبراز أعمالهم وتذكير الناس بفضلهم على المسلمين، هذا يوضح مدى عمق العلاقة بين الطرفين.

رابعًا: نصح الأشاعرة لسلاطين الدولة السلجوقية

أبدى علماء الأشعرية النصيحة إلى سلاطين الدولة السلجوقية وأمروهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، وذكروهم بلقاء الله، فهذا العالم أبو إسحاق الشيرازي قام بالإنكار على المفسدين، والذين يبيعون الخمور، وفي إبطال المواجرات وهن البغايا، وكتبوا إلى السلطان في ذلك فجاءت كتبه في الانكار[٦٤]، وأيضًا أبو حامد الغزالي صنف كتاب "التبر المسبوك في نصيحة الملوك" وهو عبارة عن نصائح وتوجيهات للسلطان محمد بن ملكشاه، والذي قال له فيه "اعلم يا سلطان العالم أن الدنيا منزلة وليست بدار قرار، والإنسان مسافر فأول منازله بطن أمه وآخر منازله لحد قبره، وإنما وطنه وقراره ومكثه واستقراره بعدها، فكل سنة تنقضي من الإنسان كالمرحلة، وكل شهر ينقضي منه كاستراحة المسافر في طريقه، وكل أسبوع كقرية تلقاه، وكل يوم كفر سوف يقطعه، وكل نفس كخطوة يخطوها، وبقدر كل نفس يتنفسه يقرب من الآخرة، وهذه الدنيا قنطرة فمن عمر القنطرة واستعجل بعمارتها فني فيها زمانه، ونسى المنزلة التي هي مصيره ومكانه، وكان جاهلاً غير عاقل، وإنما العاقل الذي لا يشتغل في دنياه إلا لاستعداده لمعاده، ويكتفي منها بقدر الحاجة ومهما جمعه فوق كفايته كان سمًا ناقعًا[٦٥]".

وكان الغزالي فساد الملوك والأمراء إلى ضعف العلماء وإهمالهم لواجبهم في قول كلمة الحق عند السلاطين فكان يقول: "إنما فسدت الرعية بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفًا من إنكارهم"[٦٦].

وفي خلاصة الأمر يبقى التساؤل هنا ما الذي دفع دولة السلاجقة إلى التمسك بعلماء الأشاعرة وتقريبهم من الدولة؟ وبل تمكينهم في الدولة وبناء المدارس لنشر أقوالهم ومذاهبهم؟ وللإجابة على ذلك يجب التنويه إلى أن دولة السلاجقة عاصرت أفكار وفرق متباينة مختلفة كانت منتشرة في العالم الإسلامي كالمعتزلة، والباطنية، وبقايا القرامطة وغيرهم من أصحاب الملل والنحل، كذلك المد الشيعي والإسماعيلي الرافضي- الذين كانوا يشكلون خطرًا عسكريًا وفكريًا على الدولة الإسلامية ووجودها، فكان لابد من الاستعانة بمجموعة من العلماء الأقوياء للوقوف في وجهه هذه الأخطار.

وفعلاً لو نظرنا إلى جهود علماء الأشاعرة فسنجد أن لهم الدور البارز في الحد من هذه الأخطار ومحاربتها، فكان للأشعري السبق في مجابهة المعتزلة ومجابهتهم، فقد حارب الأشعري المعتزلة بأسلحتهم فاستعان بالمنطق والفلسفة في محاجتهم والرد على أقوالهم، وأكمل من بعده الغزالي الذي ألف كتاب تهافت الفلاسفة. كذلك صنف علماء النظاميات مؤلفات علمية ناقشت أفكار الباطنية، ووضحت موقف أهل السنة منها: ومن هذه المؤلفات كتاب "فضائح الباطنية" لأبي حامد الغزالي، الذي فند وأظهر الباطنية وضلالاتهم وفنون مكرهم.

وبدأ التفكير الفعلي في إنشاء هذه المدارس النظامية للوقوف أمام المد الشيعي الإمامي والإسماعيلي الرافضي- فأن الاقتصار على مقاومة الشيعة الإمامية والإسماعيلية الباطنية سياسيًا لن يكتب له النجاح على المدى البعيد؛ إلا إذا وازى هذه المقاومة السياسية مقاومة فكرية، ذلك أن الشيعة، إمامية كانوا أو إسماعيلية نشطوا في هذه الفترة وما قبلها إلى الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلا نشاط سني مماثل يتصدى له بالحجة والبرهان.

خَاتِمَةٌ

مرت علاقة الأشاعرة بسلاطين السلاجقة العظام بمرحلتين أولها في عهد طغرلبك عانى خلاها الأشاعرة من الملاحقة والاضطهاد، ولكن بمجيء ألب أرسلان ووزيرة نظام الملك بدأت مرحلة جديدة ساد فيها الأشاعرة وانتشر مذهبهم.

كان للوزراء وتوجهاتهم الفكرية والمذهبية دور بارز في تحديد وتوجيه العلاقة بين السلاطين السلاجقة وعلماء الأشعرية.

وجود المذاهب والفرق الدينية المنحرفة ساهم في تقارب العلاقة بين الأشاعرة والدولة السلجوقية، فكان لكل طرف في حاجة للأخر لمواجهة تلك الفرق.

انتمى للمذهب الأشعري اقوى أشهر علماء ذاك الزمن كالجويني، والغزالي، والشيرزي وغيرهم ولازت علومهم تدرس وتناقش إلى يومنا هذا، وكان هذا سبب في تقرب السلاجقة إليهم.

يمكن اعتبار أن الوزير نظام الملك الشخصية الأبرز التي ساهمت في توجيهم العلاقة بين الأشاعرة والدولة السلجوقية.

بنهاية مرحلة السلاجقة العظام نجد أن الدولة السلجوقية حققت نتائج عظيمة من وراء علاقتها بالأشاعرة فقد مكنوا حكمهم وساعدوهم في نشر المذهب السني، ومحاربة المذاهب والفرق الأخرى.

استفاد أيضًا الأشاعرة من الدولة السلجوقية، فقد أصبحت مقدرات الدولة تصرف عليهم وبنت المدارس النظامية لنشر مذهبهم في ربوع الدولة السلجوقية، وفعلاً انتشر مذهبهم بعدما كانوا أقلية مذمومة.

الهَوامِشُ:

(١) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري. (٦٣٠هـ). **الكامل في التاريخ**. (١٠ج). (تحقيق عمر عبد السلام تدمري). (ط١). بيروت – لبنان: دار الكتاب العربي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م. ج٥، ص٨؛ الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٤٢، ص٢٩.

(٢) الذهبي: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**. (١٥ج). (ط١). (تحقيق بشار عواد معروف). (د. م). دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م. ج٣٠، ص٣٨٠.

(٣) انظر: ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص١٦٢؛ الأصفهاني، عماد الدين الكاتب محمد بن محمد صفي الدين بن نفيس الدين حامد بن أله، أبو عبد الله. (٥٩٧هـ). **تاريخ دولة آل سلجوق**. (١ج). (تحقيق يحيى مراد). (ط١). بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٤،١٥.

(٤) الأصفهاني: **تاريخ دولة آل سلجوق**، ص١٨.

(٥) المصدر السابق، ص٢١

(٦) الحسيني، صدر الدين. أخبار الدولة السلجوقية. (١ج). (ط١). دار الآفاق الجديدة. ١٩٨٤م، ص٢١؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٨، ص ١٨٥.

(٧) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز. (٧٤٨هـ). سير أعلام النبلاء. (١٨ج). (د. ط). القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١٩، ص٩٦.

(٨) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص١٩٤-٢٠٠.

(٩) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٢٢٦؛ الأصفهاني، **أخبار دولة آل سلجوق**، ص37 .

(١٠) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج١٤، ص٤٩٦؛ ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٢٣١.

(١١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٢٣٣.

(١٢) المصدر السابق، ص٢٩٦؛ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي. (٦٨١هـ). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. (٧ج). (تحقيق إحسان عباس). (د. ط). بيروت: دار صادر، ١٩٠٠م-١٩٩٤م، ج٥، ص٢٨٤.

(١٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٢٥٥.

(١٤) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج١٤، ص١٢٦؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري الدمشقي. (٧٧٤هـ). **البداية والنهاية**. (١٥ج). (ط١). (تحقيق علي شيري). (د. م). دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج١٢، ص١٧٦.

(١٥) ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي. (٨٧٤هـ). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. (١٦ج). (د. ط). مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي-دار الكتب، (د. ت)، ج٥، ص١٣٨؛ ابن الأثير، ج٨، ص٤٨٣؛ أبو النصر، محمد عبد العظيم يوسف. **السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري**. (ط١). ٢٠٠١م، ص١١١.

(١٦) **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**. (٢ج). (ط٤). دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ، ج١، ص٨٣.

(١٧) حمودة، عبد الفتاح: **التحولات المذهبية العقائدية**، ص٢٤.

(١٨) الرازي: **أساس التقديس في علم الكلام**، ص١٣٠.

(١٩) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (٧٢٨هـ). **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**. (٢ج). (تحقيق ناصر عبد الكريم العقل). (ط٧). بيروت-لبنان: دار عالم الكتب. (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ج١، ص١١٨، ١١٩.

(٢٠) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج١٥، ص٨٥-٩٠.

(٢١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج٣، ص٢٨٥.

(٢٢) البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب. **تاريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد) وذيله والمستفاد**. (٢١مج). (تحقيق بشار عواد معروف). (ط١). دار الغرب الإسلامي، ١٤٥٥هـ/ ٢٠٠١م، ج١٣، ص٢٦٠.

(٢٣) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج٣، ص٢٨٤.

(٢٤) **طبقات الشافعية**، ج٣، ص٣٤٧.

(٢٥) المصدر السابق، ص٣٥١.

(٢٦) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج٣، ص٢٨٤.

(٢٧) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٢٨، ص٨٨؛ **ابن العماد**، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي. (١٠٨٩هـ). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. (١١ج). (ط١). (تحقيق محمود الأرناؤوط). دمشق، بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج٣، ص٧٥.

(٢٨) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج١٢، ص١٥٣.

(٢٩) ابن كثير: المصدر السابق، ص١١٤؛ الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٣٥، ص١١٥.

(٣٠) ابن كثير: المصدر السابق، ص٣٠؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله. (٧٦٤هـ). **الوافي بالوفيات**. (٢٩ج). (تحقيق أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى). (د. ط). بيروت: دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج٦، ص٦٩.

(٣١) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج١٢، ص١٥٧؛ ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٩، ص٢٤.

(٣٢) ابن خلكان: ج٤، ص٢٤٩.

(٣٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٤٨١؛ السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين. (٧٧١ه). **طبقات الشافعية الكبرى**. (١٠ج). (ط٢). (تحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو). (د. م). هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣ه، ج٣، ص٣٩٠.

(٣٤) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٣٠، ص١٣؛ ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج١٢، ص٨١.

(٣٥) السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، ج٣، ص٣٩٠؛ الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج١٨، ص١١٤" ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج١٢، ص٨٦.

(٣٦) السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، ج٣، ص٣٨٩.

(٣٧) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج١٨، ص١١٤؛ ابن الوردي، أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس المعري الكندي. (٧٤٩ه). **تاريخ ابن الوردي "تتمة المختصر"**. (٢ج). (ط١). بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٧ه/ ١٩٩٦م، ج١، ص٣٥٨.

(٣٨) السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، ج٣، ص٣٩٠.

(٣٩) ج٣، ص٢٩١.

(٤٠) السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، ج٣، ص٣٩١-٣٩٢.

(٤١) ابن الوردي: **تاريخ ابن الوردي**، ج١، ٣٥٨؛ ابن الأثير: **البداية والنهاية**، ج١٢، ص١١٠.

(٤٢) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٤٨١؛ الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٣٠، ص٢٨٤.

(٤٣) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج١٢، ص١٧٦.

(٤٤) السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، ج٤، ص٣١٣.

(٤٥) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٣٠، ص٢٨٤.

(٤٦) ابن تغردي: **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص٨٤؛ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد. (٥٩٧ه). **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**. (١٩ج). (ط١). (تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا). بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢ه/ ١٩٩٢م، ج٨، ص٢٤٦.

(٤٧) السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، ج٤، ص٣١٣.

(٤٨) ابن الجوزي: **المنتظم**، ج٨، ص٢٤٦؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (٩١١ه). **تاريخ الخلفاء**. (١ج). (ط١). (تحقيق حمدي الدمرداش). (د. م). مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤٢٥ه/ ٢٠٠٤م، ج١، ص١١٣.

(٤٩) الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي. (٤٧٦ه). **طبقات الفقهاء**. (ط١). (تحقيق إحسان عباس). لبنان-بيروت: دار الرائد العربي. ١٩٧٠م، ج١، ص٥.

(٥٠) المنتظم، ج٨، ص٢٨٧.

(٥١) المصدر السابق، ج٩، ص٥٨.

(٥٢) المصدر السابق، ص٦٦.

(٥٣) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج ٣٣، ص١٣.

(٥٤) ابن الوردي، ج٢، ص٢٠.

(٥٥) السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، ج٤، ص٣١٤.

(٥٦) المصدر السابق، ص٣١٤.

(٥٧) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٣٢، ص٢٣١؛ السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، ج٥، ص١٧١.

(٥٨) ابن الجوزي: **المنتظم**، ج٩، ص٩٣.

(٥٩) المصدر السابق، ص٢٥١.

(٦٠) ابن كثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٤٨١.

(٦١) **طبقات الشافعية الكبرى**، ج٤، ص٣١٣.

(٦٢) السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، ج٤، ص٣١٠.

(٦٣) الجويني، إمام الحرمين أبو المعالي. **غياث الأمم في التياث الظلم**. (١مج). (د. ط). دار الدعوة للطبع والنشر، ج١، ص٢٥٠.

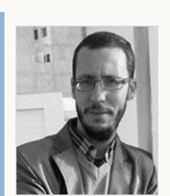
(٦٤) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج١٢، ص ١٢٨.

(٦٥) الغزالي، محمد بن محمد بن محمد. **التبر المسبوك في نصيحة الملوك**. (١ج). (ط١). (تحقيق أحمد شمس الدين). دار الكتب العلمية، ١٤٠٩ه/ ١٩٨٨م، ج١ ص١٤.

(٦٦) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص١٥٠.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

التصوف في المغرب والأندلس
من الفتح إلى عصر الدولة المرابطية



هشام البقالي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
ماجستير في تاريخ الأندلس
طنجة - المملكة المغربية

مُلَخّصٌ

مما لا مشاحة فيه؛ أن موضوع التصوف ما يزال في حاجة إلى نفض الغبار عليه، وتعميق البحث فيه بعد أن غشيه حجب النسيان والإهمال ردحًا من الزمن في الجامعات المغربية والمؤسسات الأكاديمية. لكن مع هذا، يجب الإقرار بأن هذا الأمر بدأ بالتغير تدريجيًا، إذ أضحى موضوع التصوف اليوم من بين الموضوعات التي تثير كثيرًا من النقاشات الفكرية، سواء داخل أروقة الجامعات أو المؤسسات الأكاديمية، بل وتقام له الندوات الدولية. وقد ظهرت في السنوات الأخيرة مجموعة من الدراسات التي اهتمت بموضوع التصوف سواء على شكل أطاريح جامعية أو دراسات قطاعية، وذلك في مختلف عصور التاريخ المغربي والأندلسي. لكن الذي يثير انتباه الباحث أن الدراسات المتعلقة بالمراحل المبكرة للتصوف في هذين القطرين تبقى قليلة جدًا. وفي هذه الدراسة سنحاول التعرف على المراحل المبكرة للتصوف في المغرب والأندلس منذ الفتح إلى عصر الدولة المرابطية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٤ ديسمبر ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ١٣ مارس ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:

التصوف، المغرب، الأندلس، صقلية، الدولة المرابطية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052950

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

هشام البقالي. "التصوف في المغرب والأندلس من الفتح إلى عصر الدولة المرابطية".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص٦٧ – ٨٧.

مُقَدِّمَةُ

من نافلة القول إن التصوف بالمغرب والأندلس لا يزال في حاجة إلى نفض الغبار عليه، وتعميق البحث فيه بعد أن غشيه حجب النسيان والإهمال ردحًا من الزمن في الجامعات المغربية والمؤسسات الأكاديمية. لكن مع هذا، يجب الإقرار بأن هذا الأمر بدأ بالتغير تدريجيًا، إذ أضحى موضوع التصوف اليوم من بين المواضيع التي تثير كثير من النقاشات الفكرية، سواء داخل أروقة الجامعات أو المؤسسات الأكاديمية، بل وتقام له الندوات الدولية. وقد ظهرت في السنوات الأخيرة مجموعة من الدراسات التي اهتمت بموضوع التصوف سواء على شكل أطاريح جامعية أو دراسات قطاعية، وذلك في مختلف عصور التاريخ المغربي. لكن المتعلقة منها بدولة المرابطين تبقى قليلة جدًا.

يحاول هذا المقال الكشف عن جذور التصوف الأندلسي-والمغربي، حيث عملت على التعريف بأهم القنوات التي أثرت في التصوف سواء بالأندلس أو المغرب منذ العهود المبكرة لهذه الظاهرة، وعليه قسمت هذا المقال إلى مبحثين اثنين رصدت في الأول "جذور التصوف الأندلسي" وأهم القنوات التي نهل منها، فتبين أن نشأته كانت نشأة إسلامية خالصة، عكس ما تدعيه العديد من الدراسات الأجنبية، خاصة منها تلك التي ألفت في فترة الاستعمار. وخلال عرضي لأهم هذه القنوات قمت بتفنيد الرأي القائل بأن التصوف الأندلسي قد يكون أسبق نسبيًا على التصوف بالمشرق. بينما في المبحث الثاني والمعنون بـ "جذور التصوف المغربي" فحاولت على غرار سابقه التذكير بأهم القنوات التي أثرت في التصوف المغربي سواء منها المشرقية أو الأندلسية... مناقشًا ومفندًا الرأي القائل بأن التصوف المغربي ارتبط بالمرحلة الأخيرة من العصر المرابطي، بل وارتباطه أشد الارتباط بالأزمات. إذ تبين أن التصوف لم يكن أبدا مرتبطًا بالأزمات.

جذور التصوف الأندلسي والمغربي

في البداية لابد من ذِكر ملاحظة أساسية، وهي فكرة متواترة في الدراسات التاريخية سواء المغربية منها أو العربية أو

الأجنبية؛ مفادهـا أن الباحـث في التصـوف المغـربي، ليسـترعي انتباهه أن كثيرا إن لم نجزم القول بأن كل الدراسـات سـواء منها المتخصصة أو المهتمة بالتصوف-من قريب أو من بعيد-تميـل إلى ربط انتشار ظاهرة الأولياء والمتصوفة بالمرحلة الأخيرة من العصر المرابطي. وفي الوقت نفسه تربط ذلك بتجذر الأزمة في مختلـف شرايين الحياة العامة[١]. هذا؛ ويرى الـدكتور الحسـين بولقطيـب أن "الأزمة دعت قطاعات عريضة من المجتمع المغربي والأندلسي إلى الالتفاف حول الأولياء والمتصوفة باعتبارهم الأقدر على تغيير الواقع المتأزم"[٢].

وإذا جارينا هـذا الطـرح والباحـث هنـا يتحـدث عـن أزمـة اقتصادية، فكيف سنفسر أن العديد من رجالات الدولة المرابطية قد تخلوا عن مناصبهم وانضموا تحت لواء التصوف. حجتنا فـيما نذهب إليه أن المصادر التي بين أيدينا تـذكر أن مـن بـين الـذين اعتنقوا التصوف شريحة مهمة من أمراء الدولة المرابطية. ونـذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الأمير مزدلي والأمير ميمون بـن ياسين[٣]. ومما تورده المصادر أن تاشفين بن علي كان ممن يحب مجالس المريدين وكتبهم. هذا، وقـد دخـل الأمـير المرابطـي أبـو إسحاق باران بن يحيى المسوفي في سـلك الصـوفية (ت. ٥٧٠هــ/ ١١٧٦م)، حتى أن الشيخ طلب منه أن يزيل اللثام ويـذهب إلى السوق ويأتي وعلى رأسه طبق من الطرف، حتى يتأكد من صدقه للانخراط في الجماعة فامتثل وعمـل بمـا قالـه شـيخ الصـوفية[٤]. وقال له: قد لحقت بأهل الطريـق وزال عنـك الكـبر، فـنهض إلى سجلماسة. وهذا المتصوف ابن حرزهم نجده قد تمكن من التأثير على أحد الأمراء حين جاء لتدريسه، فجعله يسـلك طريقـه حتـى "بلغ ببركته النهاية في مقام الورع"[٥].

ومن الأمراء أيضًا نذكر أبو زكرياء بن يوغـان الصـنهاجي (ت ٥٣٧هـ/ ١١٤٤م) تلميـذ أبي محمـد عبـد السـلام التونسي الـذي أقبل على العبادة إلى أن لحق بالله عز وجـل. وكـان أبـو محمـد عبد السلام التونسي يقـول إذا أتـاه مـن يسـتوهب منـه الـدعاء، يقول له: اذهب إلى ابن يوغان واستوهب منه الدعاء، فإنه مَلِكٌ زهد في الدنيا، وأما أنا فكنت فقيرًا وبقيت فقـيرًا ومـا زدت شـيئًا وكان ينشد[٦]:

وكان فُؤادي خاليًا من هواكم *** وكان بذكر الحق يلهو ويمزح.

ويذكر ابن الزيات أن مروان بن عبد الملك المرابطي استدعي إلى مراكش لتولي خطة الحسبة، فلـما وصـل رأى أحـد المتصـوفة تحفه جموع كبيرة مـن النـاس يزدحمـون عليـه ويقبلـون رأسـه ويده، فما كان منه إلا أن تعجب كيف أن هذا الولي يقابل بهـذا التعظيم والإجلال رغم أنـه أمـي! في حـين أنـه لم ينفعـه أي شيء مما تعلمه، فأقسم أن ينقطع إلى الله ويـدخل عـالم التصـوف[٧]. ولا غرو في ذلك، فأمراء الدولة المرابطية على العموم كانوا أقـرب إلى الزهاد والـمتصوفة، فلا غرابــة إذا وجـدنا مـنهم مـن اعتنـق طريق التصوف، فطبيعة وسـلوك أمـراء المـرابطين كـان يميـل إلى السلوك الصوفي[٨].

ومن بين الولاة نذكر أبو محمد بن عبد الله بن عبد الملك[٩]. وممن اشتغل بوظائف أخرى نـذكر ابـن العريـف الـذي اشـتغل بوظيفـة الحسـبة[١٠]، وهـذا المتصـوف ابـن قسي الـذي اشـتغل "بالأعمال المخزنية"[١١]. وهناك أمثلة أخرى كثيرة لرجـال الدولـة المرابطيـة ممَـنْ كـانوا يشـغلون مناصـب مهمـة فتخلـوا عنهـا وانضموا لركب التصوف. فهل كان هؤلاء وهم من الطبقة العليا من أمراء وعمال وولاة... يعانون من أزمة اقتصادية حتى ينضموا لركب التصوف؟ وعليه فإن هذا الطرح لا ينسجم في نظرنـا مـع العديـد مـن رجـال الدولـة المرابطيـة. ونعتقـد أن الأمثلـة التـي أوردناها تنهض حجة على ما ادعاه الـدكتور الحسـين بولقطيـب. والغريب في الأمر أن هناك من الباحثين من يؤكـد بصـفة نهائيـة على أنه "من الثابت عموما أن التصوف يترسخ ويشتد عوده إبان الأزمات"[١٢].

من جهتنا نعتقد أن الأمر على غـير مـا ذهـب إليـه الحسـين بولقطيب وغيره. لأن التصوف كان قـد ضرب لـه جـذورًا عميقـة في أرض المغرب والأندلس أيام الدولة المرابطية. وإذا كانت الأزمة هــي السـبب الــرئيس في انتشــار التصــوف؛ أو بفضـلها انتشرـ التصوف في أواخر الدولة المرابطية حسب هؤلاء، فمـن حقنـا أن نتسـاءل: لمـاذا لم ينتشرـ التصـوف في عصرـ ملـوك الطوائـف في الأندلس مثلاً؟ وهي الفترة التي عرفت انتشارا للأزمـة عـلى أكثر من صعيد، سواء على الصعيد السياسي والاقتصـادي والاجتماعـي والأخلاقــي. بــل ولمــاذا لم ينتشرــ التصــوف قبيــل قيــام الدولــة المرابطيـة في المغـرب حـينما كانـت هـذه البقعـة مـن الغـرب الإسـلامي تتخـبط في مشـاكل لا حصرـ لهـا، إن عـلى المسـتوى الاقتصـادي أو السـياسي أو العقـدي، بـل وحتـى عـلى المسـتوى الأخلاقي[١٣]؟ فإذا كان التصوف ينتشر في ظل الأزمة، ألم يكن من الأجدر ومـن المنطقـي أن ينتشرـ هـذا التصـوف في عصرـ ملـوك الطوائف وقبيل قيام الدولة المرابطيـة عـلى الأقـل، لا أن ينتظـر المرحلة الأخيرة من عصر الدولة المرابطية؟ وهـذا مـا فطـن إليـه أحد الباحثين عندما رأى بأن التصوف ليس نتيجة معاكسة لحياة مادية باذخة، وإنما نتيجة آلية لغيابها. بمعنى أنه يزدهر في التربة التي لا تعرف إغراءات مادية ولا أحابيل شهوانية[١٤].

وإذا ما نحن سلمنا بصحة وجهة النظـر هـذه والقائلـة بـأن التصوف نتاج أزمة، فبالتالي ألا يُمكـن القـول بـأن تـاريخ المغـرب كله سيصبح عبارة عن أزمات. حجتنا عـلى هـذا أننـا نجـد هـذه الظاهرة متأصلة عبر تاريخ المغرب. صـحيح أن التصـوف يسـتند إلى المحددات المادية، وهذه الأخيرة تجعله يتكيف مـع الظـروف الجغرافية والتاريخية لكل مرحلـة مـع هـذا؛ يجـب الإقـرار بـأن الاقتصار على الربط بين التصوف وبين الأزمة من شأنه أن يحولـه إلى معطى ظرفي لا يظهر إلا مع حلولها ويختفـي بزوالهـا. وهـذا معطى تنفيه الصيرورة التاريخيـة للتصـوف في الغـرب الإسـلامي برمته والمغرب والأندلس بصفة خاصة. في حين نزعم أن التصوف هو أحد ثوابت الفكر والتاريخ المغربيين وبنيـاتهما، أمـا الأزمـات فهي في نظرنا تعمل على تنشـيط حيويـة التصـوف ولا تأسسـها، وإلا كيف يمكن أن نفسر حضور الأولياء في غير أوقـات الأزمـات؟ سـوى إذا اعتبرنـا أن تـاريخ المغـرب برمتـه تـاريخ أزمـة! وهـذا افتراض بعيد كل البعـد عـن جـادة الصـواب، لأن تـاريخ المغـرب ينهض حجة ضد هذا الزعم. وبالتالي فإننا نؤكـد مـا ذهـب إليـه

أحد الباحثين حينما اعتبر بأن "التصوف ثابت والأزمة ظرفية، ومن ثم لا بد من إخضاع الثانية للأول"[١٥].

في حين نجد الدكتور جمعة شيخة يكتب: "قد يتم الزهد في الحياة نتيجة لعدم انسجام الشخص مع المحيط الذي يعيش فيه، أو نتيجة لأزمات وجودية أو ما ورائية تنتاب المرء من حين لآخر، ولكن الزهاد يكونون عند ذلك أفرادا يُعَدُّونَ على الأصابع. أما إذا أصبح الزهد ظاهرة اجتماعية ينضوي تحت لوائها الجم الغفير وفي أماكن مختلفة، فإن هذا دليل على أن هناك ضربا من الاختلال في المجتمع الذي ينتمون إليه. وهذا ينطبق على المجتمع الأندلسي فقد انتشرت الفرق الصوفية المعروفة بالمريدين في شرقي البلد ووسطها وغربها"[١٦]. مع العلم أن النماذج التي يستشهد بها الباحث في مقاله كلها لكبار المتصوفة في العصر المرابطي، وليست لزهاد عاديين. فالباحث هنا لا يفرق بين "الزاهد" و "المتصوف"! فهل ابن العريف وابن بَرَّجَان وابن قِسي وأبو بكر الميورقي... وغيرهم من كبار متصوفة عصر المرابطين في الأندلس مجرد زُهَّاد عاديين كما يستشف ذلك من كلام الدكتور جمعة شيخة؟. بينما يذهب أحد الدارسين إلى القول بأن الغرب الإسلامي لم يعرف هذه الظاهرة حتى انقضى القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر للميلاد[١٧]. نفس الرأي نجده يرد على لسان الدكتورة منال عبد المنعم السيد جاد الله حيث تقول: "وعلى الرغم من ظهور التصوف في القرن الثاني الهجري وانتشاره في الشرق العربي إلا أن المجتمع المغربي كان بمعزل عنه ولم يعرفه أهله كما عرفه إخوانهم المشارقة حتى أوائل القرن الخامس الهجري أو قبله بقليل، وذلك في عهد المرابطين"[١٨]. بينما نجد الدكتور الحسين بولقطيب يكتب: "إن التصوف بدأ يشق طريقه إلى المغرب في القرن السادس الهجري"[١٩]. أما الأستاذ محمد زوزيو، فيرى بأن المغرب لم يعرف هذه الظاهرة إلا في عهد الدولة الموحدية[٢٠]، بينما يرى بعض الباحثين سواء كانوا مغاربة مشارقة أو أجانب أن التصوف بالمغرب قد بدأ في القرنين الخامس والسادس الهجريين[٢١]. ومن أغرب الفرضيات ما ذكرها الباحث علي الجاوي الذي أرجع سبب انتشار التصوف في المغرب عصر الدولة المرابطية ومن بعدها الدولة الموحدية إلى أن المذاهب الرسمية سواء منها المذهب المالكي أو المذهب التومرتي كانت معقدة على عامة المسلمين "الذين وجدوا في التصوف ما يشفي غليلهم ويلبي حاجتهم إلى حياة دينية بسيطة وحية ملتصقة بظروف عيشهم وبعيدة عن التجريد المفرط. ولذلك اعتنقوا ما وصلهم من مدارس التصوف المشرقية مثل أفكار الغزالي على يد المتصوفة المغاربة والأندلسيين"[٢٢].

ومن جهتي أتفق مع الدكتور محمد بركات البيلي الذي يرى "أن بداية التصوف في بلاد المغرب الإسلامي لم تتأخر كثيرا عن مثيلاتها في المشرق الإسلامي. إذ اتسعت ماهية الزهد في المغرب تدريجيا نتيجة التصاعد الذي ألم بالظروف والعوامل التي نشأ عنها الزهد في تلك النواحي، ومن ثم تصاعد الزهد بدوره مؤديا إلى التصوف في بلاد المغرب على نحو كبير الشبه بما حدث في المشرق الإسلامي. ويلوح هذا التصاعد التدريجي في الأفق المغربي منذ نهاية القرن الثاني الهجري مواكبا مثيله في المشرق الإسلامي"[٢٣]، وفي موضع آخر يرى "أن بداية التصوف في بلاد المغرب الإسلامي كانت في النصف الأول من القرن الثالث الهجري"[٢٤]. بينما ترى إحدى الباحثات أن التصوف وُجد" في دولة المرابطين بوصفه ظاهرة اجتماعية، وجدت قبولا لدى الناس في المغرب العربي والأندلس منذ القرن الرابع الهجري"[٢٥]. فهل يمكننا أن نجاري أصحاب هذه الدراسات ونقر بأن التصوف في المغرب فعلا قد وُجد في القرن الثالث كأبعد تقدير أو في القرن الرابع على أقل تقدير؟ مع العلم أن هذه الدراسات لا تفرق بين التصوف كفكر، والتصوف كممارسة وسلوك يعتنقه الشخص[٢٦]. وهذا الخلط بين الاتجاهين المذكورين هو الذي يجعل هذه الدراسات لا تصل إلى رأي محدد لتحديد بداية التصوف في المغرب، أضف إلى هذا وذاك أن بعض الدراسات لا تفرق بين بداية التصوف في المغرب وبداية التصوف في الأندلس، بل تجعل انطلاقتهما وبدايتهما في وقت واحد!.

من جهتنا نزعم بأن عدم الحسم في تحديد بداية معينة للتصوف في المغرب ترجع إلى عدة عوامل، منها اختلاط المتصوفة بالزهاد اختلاطا كبيرا في بلاد المغرب في الوقت الذي ظهر فيه التصوف، ناهيك عن استمرار الزهاد بعد ظهور التصوف، وهذا الأمر نجده حتى في القرن السادس الهجري، حيث يزعم كثير من الباحثين أنه البداية الحقيقية للتصوف المغربي. هذا، بالإضافة إلى تشابه كثير من أنشطة الزهاد والمتصوفة الأمر الذي يجعل من العسير التمييز بين الزاهد والمتصوف، خاصة إذا علمنا أن المغاربة- كانوا ولا يزالون- يستخدمون مسميات واحدة للدلالة على كل من الزهاد والمتصوفة.

ومما يزيد في صعوبة تحديد بداية محددة لظهور التصوف في المغرب في القرون الهجرية الأولى والتفريق بين الزاهد والمتصوف، أن المصادر المغربية التي بين أيدينا- كتب الطبقات، المناقب، التراجم...- قلما تشير في تناولها لتلك الفترة إلى مصطلح صوفي.

ويبقى أهم عائق في نظرنا في وجه المحاولات الجدية في الكشف عن البداية الحقيقية لظهور التصوف في المغرب، أن البحث التاريخي لم يسمح بعد بوضع اليد على مزيد من الوثائق والمضان التي تسعف في إعطاء فرص للإجابة على السؤال المطروح: متى بدأ التصوف في بلاد المغرب؟ ومتى انتقل من طور الزهد إلى طور التصوف؟ خاصة وأن الكثير من أمهات كتب التصوف التي ألفت في عصر المرابطين أو قبله قد عفى عنها الزمن، أو تعرضت للاندثار بسبب الخصوم السياسيين أو المعارضين للتصوف في هذه المرحلة، بل إن الناجي منها-على قلته- ما يزال مخطوطًا. بل إننا نزعم أن النصوص التي وصلتنا ضنينة علينا بما من شأنه أن يبث في الأمر ويحسم الموقف.

صحيح أن القرنين الخامس والسادس الهجريين قد عرفا ازدهارًا كبيرًا للتصوف، واكتسح هذا الأخير النسيج الاجتماعي الأندلسي والمغربي، لكن ذلك لا يعني على أية حال، بأن الغرب الإسلامي لم يعرف ظاهرة التصوف حتى انتهى القرن الخامس الهجري كما ادعى البعض. وإذا صدقنا وجهة النظر هذه، ألسنا بذلك نتغاضى عن الرصيد التاريخي الذي سبق هذه الفترة منذ

دخول الإسلام إلى منطقة الغرب الإسلامي ومهد لها، والمتمثل في تيار الزهد الذي كان يدعو إلى الانعزال عن الملذات الدنيوية والاعتكاف على العبادة. وإذا ما نحن قمنا بإلقاء نظرة على كتب التصوف والمناقب والتراجم الأندلسية والمغربية، فإننا نجدها تحفل بأسماء رجالات من القرون الهجرية الأولى من هذا النوع.

إذا كان الأمر والحالة هذه، فما هي إذن جذور التصوف بمنطقة الغرب الإسلامي؛ خاصة على ضفتي الزقاق؟ ومن أين تسرب التصوف الذي سيكتسح النسيج المغربي والأندلسي بِمُرَكَّبَيْهِ الحضري والقروي، والذي سيصبح قوة اجتماعية وسياسية فاعلة، خصوصاً في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد[٢٧]؟ وهل فعلاً لم تعرف منطقة الغرب الإسلامي ظاهرة التصوف حتى انقضى القرن الخامس الهجري كما ادعى البعض؟ تلك إشكالات ضمن أخرى سنحاول الإجابة عنها في هذا الفصل.

أولاً: جذور التصوف الأندلسي

ترجع البدايات الأولى للتصوف في الأندلس إلى أواخر القرن الثالث الهجري، حيث تحدثنا كتب التراجم الأندلسية عن ممارسات بسيطة لعدد من النساك والمتعبدين في إطار نوع من الزهد[٢٨]، وذلك على نحو ما حدث في المشرق. وإن كانت هذه البدايات متأخرة عن مثيلاتها هناك[٢٩]. وقد جانب الباحث المعاصر عمر فروخ الصواب عندما زعم بأن الغرب الإسلامي لم يعرف ظاهرة التصوف حتى انقضى القرن الخامس الهجري، مدعياً من جهة أخرى بأن التصوف نتاج مشرقي لم ينبت في التربة المغربية إلا متأخراً[٣٠]. وإذا افترضنا صحة هذا الرأي فأين سنضع "**المدرسة المسرية**" كبرهان على الممارسة الصوفية بالأندلس[٣١]. بل وقبل ذلك بكثير حينما تحدثنا المصادر عن بعض الزهاد الذين قدموا مع الفتح الإسلامي لهذه المنطقة وعلى رأسهم التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني[٣٢]، الذي كان من زهده أنه إذا فرغ من عشائه وحوائجه، قرَّبَ إناء ماء فكان إذا وجد النعاس استنشق الماء حتى يظل يتلو من آي القرآن بقية ليله[٣٣]. ونعمان بن عبد الله الحضرمي الذي كان أزهد الناس، وكان يتصدق بعطائه كله حتى لا يبقي شيء له ولا لأهله، ولم يكن يلبس إلا لباسًا خفيفًا، وقد استشهد في دفاعه عن ثغور الأندلس. وبالنظر إلى المعلومات المتوفرة فيما يخص الفترة المبكرة، يمكننا القول بأن التصوف قد دخل إلى العدوة الأندلسية عبر ثلاث محطات: المشرق، إفريقية وصقلية، فكيف ذلك؟

١/١-المشرق:

من الطبيعي أن تكون القناة المشرقية هي مصدر التأثير المباشر، وذلك باعتبار أن المشرق الإسلامي مجال التصوف ومنطلقه[٣٤]، خاصة إذا علمنا أن الفتح الإسلامي للأندلس قد تزامن مع تبلور المنحى الصوفي في الإسلام بالمشرق[٣٥].

وقد كانت العساكر الإسلامية التي قدمت إلى إقليم الأندلس تتكون من بعض الكتائب التي قدمت من المشرق، والبعض منهم كان يميل للزهد. ولعل أبرزهم حنش بن عبد الله الصنعاني المتوفى في أول القرن الثاني للهجرة. ويُذكر عنه أنه كان يُديم الصلاة طوال الليل، وهو الذي بنى مسجد سرقسطة في الثغر الأعلى. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أهل الثغر كانوا يتبركون بقبره بعد ذلك زمنًا طويلاً[٣٦]. مما ينهض قرينة أنه منذ هذه الفترة قد بدأ الناس فيها يعتقدون في بركة الأولياء، هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية يمكن القول بأن هذه الإشارة تنهض حجة على بداية التغلغل الصوفي في الأندلس. وعلي بن رباح (ت ١١٤هـ) الذي عُرِف بورعه وابتعاده عن الترف، وهو من التابعين الذين وفدوا مع عبد الله الصنعاني. كما كان اجتهاد بعض التابعين ممن دخل الأندلس في العبادات يزرع بذور اتجاه أهل الزهد والانقطاع بها.

وفي أواسط القرن الثاني، نجد أن هناك زهَّادا استقطبوا أنظار الناس بل وما لبثوا أن أشاعوا طريقهم، فصار لهم مريدون وأتباع[٣٧]. وفي مقدمتهم نجد الزاهد داوود بن ميمون بن سعد الذي كان يوصف بالصلاح، وقد كان موضع تقدير حتى من قِبَلِ القوطي أمير النصارى[٣٨]. وقد أعقب ميمون هذا ابنًا يدعى داوود يصفه ابن الأبار بأنه كان "أوحد عصره نسكا وزهدا"[٣٩]، ناهيك عن أبي الفتح الصدفوري[٤٠]، بالإضافة إلى فرقد السرقسطي الذي يوصف بأنه (عالم الحدثان)[٤١]. وكانا هذين الأخيرين صديقين متلازمين اشتغلا بالجهاد، فكانا يرابطان بالثغر الأعلى شطرا من العام ثم يسيران فيقضيان الشطر الآخر من العام في قلنزية (البرتغال)[٤٢]. ومن الطبيعي لهذا الزهد الذي انتشر في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الأندلس أن يتجه أصحابه إلى الجهاد في سبيل الله ضد النصارى وفتح البلاد. لأن هذه المرحلة كانت تتطلب ذلك.

بالإضافة إلى الأسماء التي مرت معنا فالباحث لا يعدم أسماء أخرى لزهاد وعُبَّاد في الأندلس خلال هذه الفترة، وهكذا نجد زياد بن عبد الرحمان الملقب بشبطون والذي كان من الزهاد، وهو تلميذ الإمام مالك[٤٣]. وهناك زاهد آخر تذكره المصادر، ويتعلق الأمر بالزاهد أبو الأجنَّس (ت ١٨٠هـ) الذي كان يتناول ثلاث وجبات فقط كل سبعة أيام في شهر رمضان[٤٤]. يتضح مما سبق؛ أن الزهد في هذه الفترة كان فرديا، يقتنع فيه السالك بالعبادة. بل إننا لن بالغ إذا ما نحن قلنا بأن هذه الفترة تُعد بمثابة فترة انتقال من الزهد إلى التصوف. فالتصوف في هذه المرحلة لم يكن يعدو كونه سلوكا فرديا لم يبلغ بعد أن يكون تيارا عاما، إذ كان الزهد لا يزال الأكثر قبولا وانتشارا على الساحة الأندلسية. وبالتالي يمكن القول بأن التصوف لم يكن بَعْدُ قد كَوَّن رصيدا كبيرا بين أهل الأندلس، وبالتالي ظل مجرد نزعة فردية ينزع إليها نفر قليل من الأندلسيين.

أما إذا انتقلنا إلى بداية القرن الثالث الهجري فإننا نرى أن معالم الزهد الأندلسي بدأت تتضح وتتحدد مقتربة مما اتسمت به الحياة الروحية في المشرق[٤٥]. فالأندلسيون اتجهوا بكثير من التعظيم لهؤلاء الرجال الصالحين، ومن بينهم الزاهد: أيوب البلوطي الذي كان مجاب الدعوة، ويحيى بن قاسم بن هلال (ت ٢٧٢هـ أو ٢٩٧هـ) الذي لم يكن يغادر المسجد سوى للنوم في بيته[٤٦]، وإبراهيم بن محمد بن باز (ت ٢٧٤هـ)[٤٧]. والملاحظ

أن الناس مـن فـرط تعلقهـم بهـؤلاء وغـيرهم نجـدهم ينسـبون العديد من الكرامات لهؤلاء الزهاد[٤٨].

ولعل من مظاهر نضـج الحيـاة الروحيـة في الأنـدلس خـلال هذا القرن، إقامة تلك الأربطة التي يقـيم فيهـا النسـاك والعُبَّـاد سـواء كـانوا أفـرادًا أو جماعـات[٤٩]، خاصـة في الثغـور بـين أرض الإسلام والممالك المسـيحية وقـد كـان للثغـر الأعـلى في سرقسـطة ووشقة وتطيلة... من مدن الثغر نصيب كبير مـن تلـك الأربطـة. هذا مع العلم بأن حياة العُبَّاد في هـذه الأربطـة وكانـت مزيجـا من التعبد والجهاد[٥٠]. وقد بدأت هذه الرباطات تنتشر تدريجيا في داخـل الـبلاد منـذ منتصـف القـرن الثالـث الهجـري/ التاسـع الميلادي.

إذن يمكننا القول-استنادًا إلى المعطيات السالفة الذكر-بأنه في هذه المرحلة بالذات بدأ التصوف الأندلسي يتميز شيئا فشيئا عن نظيره في العصور السـابقة، وذلـك بكونـه لم يعـد مسـألة فرديـة يزاولها أشـخاص مشـتتون لا يجمعهـم هـدف، بـل يتضـح أنهـم صاروا يُكَوِّنُونَ جماعات لهـا أهـداف مشـتركة، بـل ويقومـون في متعبـد خـاص بهـم[٥١]. وهـذا إن دل عـلى شيء فإنمـا يـدل أن التصـوف أضحى يهـتم بالجماعـة لا الفـرد بعينـه. حجتنـا فـيما نذهب إليه أن ابن الفرضي عنـدما تـرجم للمتصـوف أصـبغ بـن مالك القبري (ت. ٢٩٩هـ)، ذكر أنه كان يتحلق حوله جماعة من المتصـوفة فيناقشـون الأمـور العامـة في منزلـه الكـائن ببيشتر Bobastro[٥٢].

ولعـل مـا زاد الحيـاة الروحيـة نضـجًا هـو اهـتمام بعـض الأندلسيين الراحلين إلى المشرق بلقاء بعض المتصوفة هناك[٥٣]، أو جمع سيَر العُبَّـاد والزهـاد والمشـارقة. فمـما لا مشـاحة فيـه أن رحـلات الأندلسـيين إلى المشرـق كانـت مـن أهـم العوامـل التـي ساعدت على انتشار الأنماط السلوكية-الخاصة بأهل التصـوف-في الأندلس في هذه الفترة. ومن بين أولئك نجـد أحمـد بـن محمـد الرومي القرطبـي تلميـذ ابـن وضـاح، الـذي لقـي عقـب رحلتـه للمشرـق إبـراهيم بـن الجنيـد الصـوفي البغـدادي وسـمع منـه تصنيفه في الزهـد وأدخلـه إلى الأنـدلس لمـا عـاد مـن رحلتـه[٥٤]، بالإضـافة إلى محمـد بـن وضـاح القرطبـي (ت. ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م)، مؤلف كتاب "**العباد والعوابد**"[٥٥]. وهذا أبو عثمان بن سعيد بن عمران بن مشرف من أهل قرطبـة، خـرج حاجـا ودخـل العـراق فسمع من بندار محمد بن بشر وغيره[٥٦]. هذا مـن جهـة، ومـن جهة أخرى فإننا لا نعدم أسماء عدة مـن صـوفية المشرـق يمموا وجوههم تلقاء الأندلس، ومنهم عـلى سـبيل المثـال أبـو العبـاس طاهر بن محمد بن عبد الله بـن مـوسى بـن إبـراهيم المعـروف بابن المهند[٥٧] وأبو بكر أحمد بـن محمـد بـن صـالح بـن النضرـ الأنطاكي[٥٨]، وأبو عبد الله محمد بن شجاع الصوفي[٥٩]. من خلال ما سبق نلاحـظ أن التصـوف الأندلسيـ قـد نهـل في بدايتـه مـن التصوف المشرقي سواء كان ذلك من الشام أو العراق التي كانت حواضره مثل البصرة والكوفة... موطنا للزهاد والمتصـوفة أو مـن غيرها من المناطق المشرقية.

٢/١-إفريقية:

إذا كانـت الأنـدلس قـد اسـتقلت سياسـيا في القـرن (الثـاني للهجرة/ الثامن للميلاد)، وقامـت بهـا دولـة أموية ذات سـيادة، فإنهـا مـن الناحيـة الثقافيـة والفكريـة بقيـت مرتبطـة بالشرـق الإسلامي، تتابع خطـاه وتـردد أصـداء مـا يجـري فيـه. وبالنسـبة للفترة– موضوع البحث– كان هذا التفاعل يـتم زمانـا في مواسـم الحج بالخصـوص، ويـتم بمكـة المكرمـة والمدينـة المنـورة. ولكـن مراحل الطريق سواء البرية منها أو البحريـة كانـت أيضـا تلعـب دورًا هامًا في نقل التأثير إلى الأندلس[٦٠].

ولعل أهم اتصال ثقافي تم بين الأنـدلس والعـدوة الإفريقيـة كان يتم بالقيروان، إذ أن هذه الحاضرة كانت يومئذ مركـزا مهـما لأهل العلم. وقد ساعدت هذه المدينة أهـل الأنـدلس بعلمائهـا، كما أثرت بصلحائها في عُبَّادها ونُسَّاكها. وكانت القـيروان مسـتقر بعض الصحابة وكثـير مـن التـابعين، إذ إنـه منـذ البـدايات الأولى للقرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي، كانت آثـار العُبَّـاد واضـحة بها. وكان إسماعيل بن عبيد الأنصاري من خيرة الفضلاء التـابعين بهـا[٦١]. وبعـد هـذا الجيـل اشـتهر بـالقيروان كثـير مـن الزهـاد الصلحاء الفضلاء ومن أمثلة ذلك: الفقيه سحنون بن سعيد الذي كان يبدو جامعا لأوصاف الفقهاء وفضـائل الزهـاد، بالإضـافة إلى بهلول بن راشد الذي التف حوله العُبَّاد وطلبة العلم، ناهيك عن أبي خالد عبد الحق القتاب وأبي عبد لله محمد أحمـد السـوسي وغيرهم كثير.

وقد كان المتصوفة يجتمعون بشكل دوري في بعض المسـاجد بالقيروان، وفي رباط المُنَسْتِير خاصـة[٦٢]. وقـد كـان محتـوى هـذا الاجتماع الخاص للمتصوفة في بعض المساجد كمسجد السبت[٦٣] ورباط المنستير يشمل على أنشطة معتمدة في حلقات الصـوفية: أذكـار وسـماع وأحـوال. فقـد كـان الزهـاد والعُبَّـاد يلتقـون فيـه ويعقـدون حلقـا للـذكر وقـراءة القـرآن وإنشـاد أشـعار الزهـد والرقائق، مثل أشعار ابن معدان:

مُرَّ بِدَارِ المترفين وقل لهم
أين أرباب المصانع والقرى
مُرَّ بِدَارِ المترفين وقل لهم
ألا قطع الموت التنصب والعنا

وقوله:

إذا كنت في دار الهوان فإنما
ينجيك من دار الهوان اجتنابها

وأهم ملاحظة يمكن للباحث ملاحظتها حول مسجد السـبت هذا، هو أنه لقـي معارضـة شـديدة مـن طـرف فقهـاء المالكيـة، خاصة على يدي الفقيه يحيى بـن عمـر، وقـد قـام هـذا الفقيـه بحملة تشهيرية ضد هذا المسجد، بل ونجده يقوم بتأليف كتاب "**في النهي عن حضور مسجد السبت**"[٦٤].

٣/١-صقلية:

مـن الروافـد التـي سـاعدت عـلى ذيـوع الـنفس الصـوفي في الأندلس، تلك الواردات التي كانت ترد مـن إقلـيم صـقلية. فقـد

نجح التصوف نجاحا كبيرا في هذا الإقليم رغم كونه قد فُتح للإسلام متأخرًا عن باقي الأقطار[٦٥]. فقد فُتح هذا الإقليم بصفة نهائية على عهد المأمون العباسي وبقيادة أسد بن الفرات[٦٦]. رغم هذا التأخر الحاصل في فتح صقلية، فإن صفحة صوفية مشرقة ظهرت بصقلية وذلك في القرن الهجري الثالث/ التاسع الميلادي. ومن بين العوامل التي ساعدت على نصاعتها سهولة الاتصالات بين الجزيرة وحواضر الشرق الإسلامي، خاصة مع العاصمة بغداد موطن الصوفية والزهاد. فقد سافر إلى هناك عدد لا بأس به من الصقليين سواء كانوا من أهل البلد أو من العرب المستقرين بها[٦٧]. فهذا سعيد بن سلام قد رحل إلى الحجاز حيث حظي هناك باحترام كبير، وذلك لتقدمه في العبادة والانقطاع إلى الله عز وجل. وتوجه من هنالك إلى بلاد فارس وتوفي في نيسابور سنة ٩٨٣م. ومن المعروف أن نيسابور في هذا الوقت كانت من معاقل أهل الحديث وأهل التصوف. كما أن الصوفي عتيق بن محمد حظي بنفس الاحترام في بغداد، وهي يومئذ عاصمة الخلافة الإسلامية وموطن لعدد من المدارس الصوفية. ومن بين أبناء صقلية الصوفية الذين جابوا أقطار العالم الإسلامي نذكر، عتيق بن علي السمنطري. والجدير بالذكر أن هناك من الصقليين من جمع بين علمي الحديث والتصوف[٦٨].

وفي القرن الرابع نجد أبا بكر محمد بن إبراهيم التميمي الصوفي، الذي سافر إلى العراق طلبا للعلم وحضر الجلسات الصوفية التي كان يتولاها الصوفي الكبير أبو القاسم الجنيد، ومنها عاد أبو بكر إلى موطنه صقلية حاملاً معه زادا في مجال التربية الروحية[٦٩]. واستطاع بعض الصوفية الصقليين أن يكوِّنُوا طُرقا للتربية خاصة بهم، ومن بينهم أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد البكري. كما ساهم كذلك في تأليف الكتب سواء في "التصوف" أو "في صفة أولياء الله وكراماتهم"، وقد توفي أبو القاسم البكري هذا قبل سنة ٣٨٦هـ[٧٠]. إن الباحث في التصوف لا يعدم أسماء عدة صلحاء من صقلية ارتفعوا عن الرذائل واجتهدوا في التحلي بالفضائل وقطعوا ليالي طوالا في التهجد والاستغفار، ثم استحقوا أن يكونوا موضع تقدير السكان وإكبارهم. كل هذه المعطيات المتواجدة في أرض صقلية كانت تتفاعل مع ما يجري بأرض الأندلس، فتبادل الجزيرتان التأثر والتأثير، إذ إن صقلية بحكم موقعها الاستراتيجي كانت مرحلة فيما بين المشرق والأندلس، تمر منها الأفكار والأخبار القادمة من الأندلس، والمتوجهة إليها[٧١].

مما سبق ذكره يتضح بأن؛ العناصر المحلية والتأثيرات الإقليمية والروافد الشرقية، عملت على تخمير الممارسة الصوفية الأندلسية منذ دخول هذه الظاهرة إلى الأندلس مع الفتح الإسلامي لها. بل حتى أن الضفة الأندلسية ستكون فيما بعد من المحطات الأساس في تكون الممارسة الصوفية في المغرب. وبعد أن مهدنا لجذور التصوف في الأندلس، وعرفنا أهم القنوات التي أثرت فيه وكانت منطلقه. ترى ما هي جذور التصوف المغربي؟ وما هي أهم القنوات التي نهل منها التصوف المغربي منذ بداياته الأولى وحتى القرنين الخامس والسادس الهجريين، حيث أصبح قوة اجتماعية فاعلة[٧٢]؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في المبحث الثاني من الفصل الأول.

ثانيًا: جذور التصوف المغربي[٧٣]

بادئ ذي بدء، نود الإشارة إلى ملاحظة أساسية تتعلق بالتصوف المغربي. فمما لا مشاحة فيه أن من بين القضايا التي ما يزال يكتنفها الغموض بخصوص موضوع التصوف المغربي، ولم يُحسم فيها من قِبل الباحثين تبرز مسألة تحقيب تطور التصوف المغربي- وذلك بإجماع أغلبية المؤرخين المتخصصين بالتصوف المغربي- أضف إلى ذلك نوعية وطبيعة التيارات الخارجية التي أثرت فيه سواء بالنسبة للمشرق أو إفريقية أو الأندلس[٧٤]. إذ من الصعب على الباحث في هذا الموضوع أن يُجزم بتعيين بداية محددة للممارسة الصوفية بالمغرب[٧٥].

ولا يعزى هذا الأمر في الواقع إلى تأخر الظاهرة نفسها[٧٦]. مع العلم بأن أغلب الدراسات ترى أن التصوف ظهر في القرن السادس الهجري. لكن الأمر في نظرنا يحتاج إلى إعادة النظر في هذا الطرح، وإلى الكثير من البحث والدراسة. دليلنا فيما نذهب إليه أن هذه الدراسات لا تفرق بين ظهور التصوف كـ"فكر" وبين التصوف كـ"ممارسة". فمن جهتنا نزعم- استنادًا إلى الوثائق التاريخية- بأن التصوف المغربي ظهر قبل ذلك بكثير. فإذا كان التصوف بالمشرق ظهر في أواخر القرن الثاني للهجرة كاتجاه فكري، فإن نظيره المغربي قد تأخر كثيرا حتى القرن السادس الهجري. حجتنا في ذلك تزامن هذا القرن بظهور أقدم المصنفات المناقبية في المغرب ونعني بها كتابي المستفاد للتميمي والتشوف لابن الزيات. أما إذا نظرنا إلى بدايات التصوف المغربي كسلوك يتبعه الشخص فإننا نزعم- استنادًا إلى المصادر التاريخية- بأن التصوف المغربي قد ظهر مع دخول هذا القطر تحت دار الإسلام، حجتنا فيما نذهب إليه أن المتصفح لكتب التراجم المغربية-الأندلسية يجد أن مؤلفي هذه الكتب قد أطلقوا على بعض المُتَرْجَمِينَ لهم صفة التصوف، أو وصفوهم بألقاب مرادفة للفظ "تصوف" من قبيل: خمول، مجاب الدعوة... ومن خلال هذه الألفاظ يمكننا القول بأنها تدل على انتشار التصوف "كممارسة" وليس "كفكر" منذ فترة مبكرة.

وإذا عدنا لمناقشة من يزعم أن التصوف المغربي قد ظهر في المغرب في القرن السادس الهجري، فإننا نرى أن الحجج التي يقدمونها تتهاوى أمام النقد التاريخي. ذلك أن أغلب مؤرخي التصوف المغربي يربطون بين ظهور التصوف وعملية إحراق إحياء علوم الدين للغزالي. وعند تتبع هذه القضية في المصادر نرى أن من أفتى بحرق الكتاب كانوا فقهاء من الأندلس وليس من المغرب، هذا من جهة؛ أما من جهة ثانية فإن العديد من الباحثين الذين يرون أن التصوف ظهر في القرن السادس يربطونه بثورة المريدين في الأندلس ناهيك عن إشخاص زعماء التصوف لمراكش، ونعني بهم كل من ابن العريف وابن برجان والميورقي. ولنا أن نتساءل: هل كون إشخاص متصوفة أندلسيين إلى مراكش دليل كاف على أن التصوف قد انتشر في القرن السادس الهجري في المغرب؟ خاصة وأن هؤلاء الثلاثة هم

متصوفة أندلسيون وليس متصوفة مغاربة. مع العلم باننا لم نعثر في أي ترجمة – في المصادر التي عدت إليها- على ما يدل بأن متصوفة المغرب قد تعرضوا لمضايقات كما حدث لنظرائهم الأندلسيين[٧٧].

وإذا عدنا لقضية إحراق الإحياء فإننا نرى أنها لم تتعلق بموقف الغزالي من التصوف بل كان سبب حرقه يعود إلى موقف صاحبه من أعطيات السلاطين، وأيضا موقفه من الفقهاء الذين يأخذون هذه الأعطيات[٧٨]. وعليه فإننا نخالف الرأي القائل بأن التصوف قد ظهر في القرن السادس الهجري وذلك على ضوء ما قدمناه وأوردناه أعلاه. هذا، مع العلم بأن البحث في قضية التصوف في المغرب، قد كانت مجال اهتمام كثير من الباحثين، وقد قُدمت بناءً على ذلك عدة افتراضات، اعتمدت في بعض الأحيان على الربط بين نشأة التصوف وبداية "الطوائف الدينية"[٧٩]، وأحيانا أخرى اعتمدت على بعض المؤشرات ذات الطابع الشخصي والفيلولوجي لافتراض تلك البداية، أو الانطلاق من المحلي وتحويله إلى العام، خاصة مع الكتابات الكولونيالية في فترة الحماية وقبلها بقليل، حيث كانت تولي أهمية كبيرة لدراسة الحساسيات الدينية للمغرب[٨٠]، ناهيك على تشديدها على الماضي الوثني للبربر، وذلك قصد تفسير المكانة المتميزة للأولياء داخل المجتمع[٨١]. وبالنظر إلى المعلومات المتوفرة، فيما يخص الفترة المبكرة يبدو بأن التصوف قد دخل المغرب عبر ثلاث قنوات رئيسية: المشرقية، الإفريقية، والأندلسية، فكيف تم ذلك؟.

١/٢-المشرق:

من الطبيعي أن تكون القناة المشرقية هي مصدر التأثير المباشر باعتبار المشرق الإسلامي مجال التصوف ومنطلقه[٨٢]. فطبقًا لوحدة الظاهرة الصوفية في العالم الإسلامي، لا سبيل لإنكار التلاقح الروحي بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه[٨٣]. ولا غرو في ذلك؛ فالتصوف بالغرب الإسلامي قطعة حية من التصوف الإسلامي بالمشرق[٨٤]. إذ نعلم يقينا أن التصوف انتشر انتشارا واسعا في الشرق إبان هذه الحقبة، بل وقبلها بكثير. ولم يكن تصوف الغزالي سوى عطاء صادق لهذا المد الصوفي[٨٥]. لذلك يمكن القول بأنه من البديهي أن يصل هذا التيار إلى المغرب الأقصى على ضوء هذا المعطى. وقد يتم ذلك عبر عدة طرق: إما عن طريق الحج[٨٦]، أو عن طريق الرحلات العلمية[٨٧]. فإليه كان يذهب المغاربة لأداء مناسك الحج، وعند العودة منه يكونون قد تشبعوا بأفكار وتعاليم وسلوكات ومؤلفات صوفية يعملون على نشرها في الوسط المغربي[٨٨]، ومن أمثلة ذلك: أبو عبد لله بن سعدون القيرواني[٨٩] أول شخص مترجم في التشوف، والذي حمل تواليف أبي بكر المطوعي واستقر بأغمات حتى وافته المنية. ويُعيد ذلك لقي أبو جبل يعلى[٩٠]، أبا الفضل عبد لله بن حسن الجوهري الشيخ المتصوف (ت ٤٨٠ هـ) وحمل منه طريقته وعاد إلى فاس حيث توفي بها سنة ٥٠٣هـ /١١٠٩م[٩١]. وهذا عبد العزيز التونسي الذي كان يحث تلامذته من المصامدة على قراءة كتاب "**رعاية حقوق الله**" للمحاسبي[٩٢]. وبالتالي فإن عددا لا يستهان به من متصوفة المغرب قد تتلمذوا وأخذوا التصوف من نظرائهم في المشرق[٩٣].

والملاحظ أن الأمر لم يقتصر على سفر متصوفة المغرب إلى المشرق، بل إننا لا نعدم من الإشارات التي تثبت أن متصوفة مشارقة يمموا وجوههم تلقاء المغرب. فطبقا لوحدة الظاهرة الصوفية في العالم الإسلامي، لا سبيل لإنكار التلاقح الروحي بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه[٩٤]. فقد أدت العلاقات الوثيقة التي ربطت بين المتصوفة المغاربة ونظرائهم المشارقة إلى قيام هؤلاء بزيارة أرض المغرب. فقد حجت طائفة من متصوفة المشرق لزيارة أبي عبد الله بن أمغار[٩٥] وأبي شعيب وأبي عيسى في أزمور حسبما يذكر ابن الزيات[٩٦]. وقبل ذلك قام أحد المتصوفة بزيارة الأندلس ويتعلق الأمر بالزاهد طاهر بن محمد المعروف بالمهند (ت. ٣٩٠هـ) وهو من أهل بغداد وكانت له رسائل عجيبة ومقالات في معاني الزهد على مذهب المتصوفة[٩٧].

وظل الاهتمام منصبا على مصنفات الجنيد والمحاسبي وأبي طالب المكي[٩٨] والغزالي[٩٩]. ولا يخفى الدور الهام لهذا الأخير في التصوف المغربي، لكن هذا الأمر لا يصل- في نظرنا- إلى حد القول بأن هذا الأخير كان له دور مهم "في ميلاد التصوف بالمغرب" كما زعم أحد الباحثين[١٠٠]. لأن التصوف كان قد اشتد عوده وترسخ في التربة المغربية قبل أن تنتشر كتب الغزالي في المغرب وخاصة كتابه "**إحياء علوم الدين**".

صحيح أن تعاليمه ونظرياته الصوفية قد وَجدت التربة الخصبة في المغرب والأندلس[١٠١] وذلك بفضل العلماء الذين حجوا إليه واتصلوا به[١٠٢]. ولعل أشهرهم الولي محمد صالح بن حرزهم[١٠٣] الذي أخذ عنه ثم عاد إلى مدينته فاس التي "نشر بها طريقته وهدى الله به خلقًا كثيرًا"[١٠٤]، والذي يُعتقد أنه أول من أدخل مذهب الإمام الغزالي إلى المغرب وخاصة إلى فاس حسب العديد من الدارسين[١٠٥]، والذي تتلمذ مباشرة على الغزالي[١٠٦]. لكن ذلك لا يعني أن هذا الأخير كان له دور مهم في ميلاد التصوف بالمغرب. دليلنا في ذلك أن هناك عدد كبير لمصنفات صوفية كانت تُدَرَّسُ في العصر المرابطي وقبله بقليل من قبيل: مؤلفات ابن أبي زمنين والحارث المحاسبي. وقبل بداية العصر المرابطي شرع ابن سعدون في تدريس كتاب "الأنوار" لابن الحسن بن جهضم (ت. ٤١٤هـ) وعدد من كتب أبي بكر المطوعي مثل: " من صبر ظفر" و "المقالات في المقامات" و "أخبار الشبلي" وعن ابن سعدون رُوِيَ كتاب "طبقات الصوفية" للسلمي[١٠٧]. وهذه الكتب المذكورة كلها كتب مشهورة بنزعتها التصوفية، وبالتالي فإن انتشار هذه الكتب يدل على أن التصوف كان منتشرا قبل دخول مؤلفات الغزالي لبلاد المغرب؛ مما ينهض حجة على عدم صحة ما ادعاه الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش.

ومن خلال بعض التراجم نجد أن الولي أبا مدين شعيب قد لقي في الحج الشيخ عبد القادر الجيلاني، فألبسه خرقة التصوف[١٠٨]. وهي بدون شك من بين القرائن التي تثبت تأثير التصوف المشرقي في التصوف المغربي. هذا؛ وكان عبد الجليل بن ويحلان[١٠٩] قد التقى كذلك بشيخه أبي الفضل الجوهري المصري

عندما رحل إليه من المغرب "واتخذ الطريقة على حقيقتها من المشرق"[١١٠]. ولعل من بين القرائن التي تثبت تأثير المشرق في ظهور التصوف بالمغرب، أن الشيخ الجيلاني كان كلما سُئل عن قرين يضاهيه في البلاد الإسلامية كان يشير إلى عبد حبشي بالمغرب اسمه آل وكنيته أبو يعزى[١١١]. هذا، والملاحظ لكتاب "**التشوف**" ليرى أنه يزخر بعدد من المغاربة الذين يمموا وجوههم شطر المشرق، وانبهروا بشيوخ التصوف هناك وأخذوا عنهم[١١٢].

وفي الوقت نفسه، نرى أن بعض متصوفة المشرق قد شدوا الرحال تلقاء المغرب والأندلس، فساهموا بذلك في نشر التصوف[١١٣]. لذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن يتسرب الفكر الصوفي إلى المغرب ويؤثر في مجموعة من المتصوفة[١١٤]. وعلى كل، فإن التصوف الذي ولد وترعرع في المشرق شأنه شأن جميع الفرق والمذاهب الدينية، قد نفذ إلى المغرب الأقصى وأثر في دفع حركة التصوف بهذه المنطقة. فمن غير المعقول أن نجد صدى للحركات الدينية المشرقية على أرض المغرب من قبيل: مذهب الخوارج والدعوة العلوية والمذهب الشيعي. ناهيك عن ظهور النزعة العقلية للمعتزلة والأشاعرة، وألا نجد التصوف يشق طريقه إلى أرض المغرب، وبالتالي فإنه كان سيبدو الأمر غريبًا إن لم ينجح التصوف المشرقي في التغلغل والنفاذ إلى أرض المغرب[١١٥].

٢/٢-إفريقية:

ثاني القنوات التي تأثر بها التصوف المغربي نجد القناة الإفريقية. فقد تأثر التصوف المغربي من القناة الإفريقية وذلك عبر حاضرة القيروان التي كانت تتردد فيها أصداء المدارس الصوفية المشرقية. فقد أقام بها ذي النون المصري باحثا عن الصلحاء، واستوطنها كثير من الزهاد والصلحاء. ومن هذه الحاضرة قدم بعض الأهالي واستوطنوا مدن وبوادي المغرب خاصة أغمات[١١٦]. ومن نفس القناة تسرب المجهود الدعائي لبعض شيوخ إفريقية الزيرية ومن بين هؤلاء نجد تلامذة أبي عمران الفاسي[١١٧] الذي يعتبره بعض الباحثين أول من أدخل تعاليم أبي القاسم الجنيد إلى إفريقية[١١٨].

وقد عرفت القيروان عُبَّادا ونُسَّاكا من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ومن الفضلاء التابعين بها نجد الزاهد إسماعيل بن عبيد الأنصاري، الذي تصفه المصادر بأنه كان من "أهل الفضل والعبادة والنسك والإرادة"[١١٩]، بالاضافة إلى التابعي أبي يزيد اللخمي المتوفى سنة ١٧٢هـ[١٢٠] الذي كان من الزهاد القانتين المنقطعين إلى الله تعالى بالعبادة، وكان يوصي بكتاب الله وينصح بالالتزام به. ففي رسالته إلى البهلول بن راشد يقول له: "واستعن بكتاب الله عز وجل وكثرة ذكره وتلاوته فإنه الشفاء والرحمة للمؤمنين"[١٢١]. وتحفل كتب التراجم بأسماء عديدة لزهاد آخرين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الزاهد أبو خالد عبد الخالق المعروف بالقتاب[١٢٢]، الذي كان من المجتهدين في العبادة، راغبا في الآخرة، كثير الخوف دائم الحزن، كثير المعروف قليل الهيبة من الملوك، وكان يوصي بالقرآن الكريم والالتزام به والاكثار من تلاوته، ويوصي بالصلاة بالليل وبحفظ اللسان وذكر الموت. بالإضافة إلى عدد كبير من الزهاد الآخرين نذكر منهم: الزاهد عبد الملك بن أبي كريمة (ت ٢٠٤هـ)[١٢٣]، وأبو عبد الله حمدون بن عبد الله العسال (ت ٢٤٤هـ)[١٢٤] الذي كان من أهل الفضل والدين والاجتهاد في العبادة وغيرهم كثير[١٢٥].

وقد كان المتصوفة يجتمعون بشكل دوري في بعض المساجد بالقيروان، وخاصة مسجد السبت الذي يحدثنا المؤرخ المالكي في كتابه "رياض **النفوس**" والذي -مسجد السبت- كان يجمع كل أمارات الحلقة الصوفية المعهودة، ومن تسمية هذا المسجد يتضح بأنه كان يعقد بشكل أسبوعي في كل يوم سبت، وبالمثل كان المتصوفة يجتمعون في رباط المنستير.

والملاحظ هو أن مسجد السبت هذا، لم يحقق الإجماع حوله من قبل كل القيروانيين. فقد كان من بين هؤلاء من يتحفظ بشأنه، حيث وجدت معارضة من طرف الفقهاء وخاصة الفقهاء المالكيين، بعدما تقوى التصوف بإفريقية وخاصة خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. إذ تميزت هذه الفترة بازدياد الاحترام الشعبي للأولياء والمتصوفة، وبظهور ممارسات صوفية وطقوس أثارت حفيظة هؤلاء الفقهاء المالكيين[١٢٦]، الذين عارضوا وبشدة مجلس الذكر والسماع الذي كان يُعقد بمسجد السبت هذا. وقد تزعم الفقيه الأندلسي يحيى بن عمر هذه المعارضة، بل أدى به الأمر إلى القيام بحملة تشهيرية ضد هذا المجلس وذلك عن طريق تأليف كتاب في "**النهي عن حضور مسجد السبت**" وود لو أنه "هدم حتى لا يجتمع فيه أحد"[١٢٧].

وخلال القرن الهجري الرابع/ العاشر للميلاد، اندلع بالقيروان جدال قوي حول كرامات الأولياء، كان من المدافعين عنها كل من: عبد الرحمان بن محمد البكري الصقلي، والقاضي المالكي المالكي ابن أبي زيد القيرواني (ت. ٣٩٦هـ/ ٩٩٦م)[١٢٨]. أما خلال القرن الهجري الخامس/ العاشر للميلاد، فنرى بأن رجال التصوف كانوا يشتركون في امتلاك رصيد علمي وفقهي، ناهيك عن منحاهم الزهدي والتعبدي[١٢٩]، لذلك ليس جزافا أن تكون أول تراجم كتاب" **التشوف**"، هي تلك المتعلقة بابن سعدون القيرواني الذي حمل تآليف المطوعي في التصوف واستقر بأغمات وريكة[١٣٠]. بل نجد من بينهم من كان ميالا إلى الاستعاضة عن تدريس الفقه بالعمل على نشر المؤلفات الصوفية، ومن بين هؤلاء نجد الزاهد عبد العزيز التونسي المتوفى سنة ٤٨٦ هـ الذي سكن مالقة وغيرها من البلاد الأندلسية واستقر أخيرا بأغمات ودرس الناس عليه الفقه ثم تركه لما رآهم نالوا بذلك الخطط والعَمالات، وقد قال بهذا الصدد: "صرنا بتعليمنا لهم كبائع السلاح من اللصوص"[١٣١].

والملاحظ أن البعض من هؤلاء الشيوخ قد هاجروا من إفريقية واستقروا بالمغرب الأقصى مساهمين بذلك في نشر التصوف في هذه المنطقة[١٣٢] ومن بينهم نذكر: ابن سعدون القيرواني صاحب عدة تآليف في الفقه وناشر تعاليم أبي بكر المطوعي في التصوف، هذا بالإضافة إلى الزاهد عبد العزيز التونسي[١٣٣] الذي كان يحث تلامذته من المصامدة على قراءة

كتاب "**رعاية حقوق الله**" للمحاسبي[١٣٤] ونحو ذلك من علوم التصوف، ناهيك عن المتصوف أبي الفضل ابن النحوي المتوفى سنة (٥١٣هـ /١١١٩م) الذي أقام فترة في سجلماسة وفاس، وهو من بين الذين ساهموا مساهمة فعالة في نشر كتاب "**إحياء علوم الدين**" للإمام الغزالي[١٣٥]، بل وكان من أهم المتصوفة الذين قاموا بالدفاع عن الغزالي وكتابه "**إحياء علوم الدين**"[١٣٦].

ومما تجب الإشارة إليه، أن أغلب هؤلاء الصوفية اختاروا أغمات وريكة مكانًا لإقامتهم قبل بناء مراكش عاصمة المرابطين سنة ٤٥٤هـ /١٠٦٢م[١٣٧]. فهل لهذا للاستقرار بهذه الحاضرة مغزى ودلالة أم أن ذلك مجرد صدفة؟

٣/٢-الأندلس:

إن الباحث في جذور التصوف المغربي لا يخفى عليه الدور الهام الذي لعبته هذه القناة في التصوف المغربي، فقد كان لأطرها المثقفة ذات المنحى الزهدي دورًا هامًا بالنسبة لتمثل صوفية المغرب للتصوف الإسلامي والمتمثل كذلك في نقل التأثيرات الزهدية إلى الضفة الجنوبية من الزقاق. وهذا ما توضحه كتب التراجم المغربية والأندلسية، وكذا بعض الدراسات الحديثة حول انتشار الميولات الزهدية بالأندلس منذ العهود الأولى للإسلام بأرض الأندلس وحتى بداية القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد[١٣٨]. لقد شكلت هذه الميولات الأرضية الخصبة التي أُنتج فيها مذهب صوفي بالديار الأندلسية وذلك قبل القرن الهجري الخامس[١٣٩].

وخلال هذا القرن انتشرت بعض التآليف المشرقية المتعلقة بالتصوف[١٤٠]. وقد تأثر متصوفة المغرب بنظرائهم الأندلسيين، من قبيل ابن مجاهد الإلبيري، وابن أبي زمنين، وعمر الطلمنكي... وقد تأثر بفضل الرحلات التي قام بها متصوفة المغرب نحو عدوة الأندلس. ومن بين أولئك نذكر: جساس السجلماسي، ودراس بن إسماعيل، وخلف بن علي البلوي. وعلى كل حال، فإن التصوف المغربي في بدايته الأولى قد تشبع ونهل من عدة قنوات على رأسها القناة المشرقية باعتبار المشرق الإسلامي منطلق التصوف، وذلك عن طريق الرحلة في الاتجاهين (للحج، أو طلب العلم)، وتحفل كتب التراجم كالنفح، والتشوف وغيرهما بأسماء كثير من العلماء الصوفية الذين يمموا وجوههم شطر المشرق. وعن طريق الرحلة كذلك دخلت المصنفات المشرقية بواسطة أسلوب الإجازة العامة، حيث تصدر بعض العلماء لتدريسها بعدما أخذوها عن مؤلفيها، وبذلك دخل التصوف إلى بلاد المغرب.

كما لا يخفى تأثير كل من إفريقية والأندلس، فقد كان لهما تأثير كبير في التصوف المغربي فقد حل بعض المتصوفة بأغمات قادمين من القيروان، وصفاقس، وتونس عبر بجاية فسجلماسة، وامتد نفوذهم وتأثير مذاهبهم فيما بعد، ولا يعزب عن بالنا المجهود الكبير الذي قامت به القناة الإفريقية وذلك عن طريق تسرب المجهود الدعائي لبعض شيوخ إفريقية الزيرية. وطبيعي أن يتأثر المغرب بما يجري في الأندلس، خاصة بعد تحقيق الوحدة بين المغرب والأندلس من طرف المرابطين، بل وقبل ذلك بكثير. فقد كانت الكتب والآراء تنتقل بينهما بكامل الحرية والسهولة. ويحفل كتاب "**التشوف**" بأسماء عدة للمتصوفة الذين عبروا من الأندلس وإليها.

اِسْتِنْتَاجٌ

يتضح مما سبق ذكره أن؛ التصوف بالمغرب والأندلس، قد ظهر منذ القرون الهجرية الأولى، عكس ما يذهب إليه البعض[١٤١]. إن التصوف المغربي والأندلسي قد نهل في بداياته الأولى من مجموعة من القنوات، على رأسها القناة المشرقية، فالتصوف المشرقي شكل رافدا من الروافد المهمة في تشكل التصوف المغربي والأندلسي على حد سواء. ولا غرو في ذلك، لأن المشرق الإسلامي هو موطن التصوف ومنطلقه. وخاصةً عن طريق الحج والتتلمذ على أعلام التصوف المشرقي كالإمام الغزالي. لذلك حق لأحد المستشرقين القول بأن التصوف المغربي وفد من المشرق[١٤٢]. هذا بالإضافة إلى صقلية التي كان لها دور فعال في التأثير في التصوف الأندلسي والمغربي، خاصة بحكم موقعها الاستراتيجي بين المشرق الإسلامي وبلاد المغرب الأقصى. ولا ننسى عمليات التأثير والتأثر التي كانت تتفاعل بين الأندلس وصقلية.

إن الأنشطة التي عرفتها منطقة الغرب الإسلامي، كانت متناثرة في جميع ربوع الدولة المرابطية، وذلك حيثما حل الزهاد والمتصوفة. وقد انتشرت عدة مراكز للأنشطة الصوفية، كألميرية[١٤٣] في الأندلس. وفاس وأغمات وريكة، ومراكش، وقصر كتامة، وسبتة، وسلا، وسجلماسة... في المغرب، وكانت المدارس مجال تدريس علوم التصوف[١٤٤].

إن الباحث في التصوف بالغرب الإسلامي، لا يخفى عليه الدور الهام الذي قام به الإمام الغزالي؛ فقد كان هذا الأخير حلقة وصل بين الطريقتين: الجنيدية والشاذلية بواسطة علماء مغاربة أشهرهم صالح بن حرزهم الذي تتلمذ وأخذ عليه بالمشرق، ونشر مذهبه بفاس، ثم بالمغرب عموما على يد ابن أخيه علي ابن حرزهم[١٤٥]، ودرس على هذا الأخير المتصوف أبو الحسن الشاذلي، ومن الذين نشروا مذهب الغزالي كذلك أبو بكر بن العربي الذي أخذه من الغزالي بالمشرق[١٤٦] أثناء رحلته العلمية[١٤٧]، ناهيك عن المتصوف أبو الفضل بن النحوي. ويرى الدكتور محمد الشريف أنه" أحد الذين ساهموا مساهمة كبيرة في نشر إحياء علوم الدين للغزالي"[١٤٨].

عرفت بلاد المغرب مجموعة من الرباطات[١٤٩] ونشاطًا صوفيًا مكثفًا منذ وقت مبكر تمثل في: **رباط نفيس**: كان قائمًا خلال القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر للميلاد، وكان هذا الرباط مجمعا للصوفية. **رباط شاكر**[١٥٠]: من أقدم الرباطات في المغرب، كان يحضره العلماء والمريدون من جميع مناطق المغرب، كما كان يقام به موسم سنوي[١٥١].

إن بدايات التصوف الأندلسي والمغربي كانت متواضعة متمثلة في الممارسات الزهدية التي كان يحياها بعض النساك، كما تخبرنا بذلك مختلف كتب التراجم الأندلسية المغربية[١٥٢]،

لكن رغم ذلك فإن التصوف سرعان ما سيكتسح النسيج المجتمعي الأندلسي- المغربي بمركبيه الحضري والقروي، وسيصبح قوة اجتماعية فاعلة، خصوصًا في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد(١٥٣).

إن الاهتمام بذكر أخبار رجالات المغرب نادرة جدًا في القرون الأولى للهجرة، بينما نجد أخبارًا كثيرة عن رجالات بلاد الأندلس، والتي اهتم بذكرها أهلها، وبذكر ورواية أخبار رجالها، وتدوينها في فترة مبكرة نسبيا. بينما نجد في القرون اللاحقة تزايد الاهتمام بذكر أخبار أهل الزهد والتصوف، خاصةً مع مطلع القرن الهجري السادس(١٥٤). إن أصول التصوف بالغرب الإسلامي عامةً والعالم الإسلامي خاصةً لم يكن له أصول أجنبية، مسيحية كانت أو غيره كما زعم العديد من المستشرقين، وهذا لا يمنع من القول بأن التصوف تأثر بهذه المؤثرات.

ويبقى أهم استنتاج يمكن الخروج به مما سبق ذكره؛ أن التصوف في بلاد المغرب والأندلس لم يكن وليد الأزمة كما ذهب إلى ذلك العديد من الباحثين في التصوف، أو أنه ظهر مع أواخر الدولة المرابطية، مرددين بذلك الفكرة المتواترة في الدراسات العربية التي مفادها أن التصوف إيديولوجية أزمة أنتجها مجتمع متأزم. وقد حاولنا تفنيد هذا الطرح.

الهَوامِشُ:

(١) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع، الذهنيات، الأولياء. منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية (٧)، ط. ٢، تطوان**، ٢٠٠٤، ص ١٢٥- ١٧٢، والغريب في الأمر أن الباحث يرى في موضع آخر أن التصوف المغربي بدأت ملامحه "الكبرى تبرز منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، لتستمر إلى الآن" انظر: "**ثقافة الوسطية في التصوف السني بالمغرب**" ضمن كتاب: **التصوف السني في تاريخ المغرب، نسق نموذجي للوسطية والاعتدال**، تقديم وإشراف: د. إبراهيم القادري بوتشيش، منشورات الزمن، سلسلة شرفات ٢٧، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص ١٩، وفي مكان آخر يقول أن "التصوف ظهر في القرن الثالث الهجري"، الحركة **المسرية بين الواقع ومحاولات التزييف**" ضمن كتاب: **الإسلام السري في المغرب العربي**، دار سينا للنشر، ١٩٩٥، ص ٥٩، رابطا انتشاره بكونه جاء كرد فعل ضد الفكر الإقطاعي، ص ٥٩. بينما يرى بأن الأزمة "ساهمت في تأسيس الجذور الأولى للتصوف في المغرب والأندلس" في أواخر الدولة المرابطية، **المغرب والأندلس**...م. س، ص ١٣٠، وفي موضع آخر يقول أن كتاب الغزالي إحياء علوم الدين ساهم في تأسيس الجذور الأولى للتصوف في عصر المرابطين، إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، د. د. في التاريخ، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب مكناس، ١٩٩٠- ١٩٩١، ج ١، ص ٣٠٥، مع العلم أن التصوف الأندلسي كان سباقا على التصوف المغربي، وسيكون أحد المحطات الأساس في تكون التصوف المغربي. ومن جهتنا نرى أن سبب هذا التخبط في الأفكار الذي وقع فيه الدكتور بوتشيش يعود بالأساس إلى عدم فصله بين التصوف المغربي ونظيره الأندلسي، خاصة في كتابه: **المغرب والأندلس**. محمد البركة: "**التصوف السني بالمغرب مقدمات في الفهم والتأصيل**" ضمن **ثقافة الوسطية**... م. س، ص٧٠- ٧١، محمد القبلي: **رمز الإحياء وقضية الحكم في المغرب الوسيط**، ضمن كتاب: **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، الدار البيضاء ١٩٩٧، ص ٢٦. نفسه "**ما لم يرد في كتابات ابن خلدون**" ضمن نفس الكتاب، ص ٦٢. عصمت دندش: **الأندلس في نهاية المرابطين و مستهل الموحدين (٥١٠-٥٤٦هـ / ١١١٦- ١١٥١م) تاريخ سياسي وحضارة**، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨، ص٥٠- ٢٨٨- ٣٥٦- ٣٥٧، وفي موضع آخر ترى أنه "لم يوجد من مظاهر التصوف في هذه البلاد حتى منتصف القرن الخامس سوى الزهد الساذج" ص ٣٥٧، نفسها: " **ارتسامات حول التصوف في العصر المرابطي**" ضمن كتاب: **أضواء جديدة على المرابطين**، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩١، ص ٤٠، وانظر الصفحة ٤٧، حيث ترى أن انتشار التصوف مرتبط بالانحلال والتناقضات التي عصفت بالأندلس، عبد اللطيف الشاذلي: **التصوف والمجتمع: نماذج من القرن العاشر الهجري**، سلا، ١٩٨٨، ص ٧٠- ٧١- ٣١٥- ٣١٦، غرميني عبد السلام: **المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري**، الدار البيضاء ٢٠٠٠، ص ٢٤٩، عبد الجليل لحمنات: **التصوف المغربي في القرن السادس الهجري، مقدمة لدراسة تاريخ التصوف بالمغرب**، د. د. ع. كلية الآداب الرباط، ١٩٨٩– ١٩٩٠ (نسخة مرقونة)، ص ١٥٣- ١٥٤ وفي، ص ١٧٦ يفترض أن البداية كانت في القرن السادس الهجري، حيث يرى بأن بداية التصوف تتزامن مع القرن السادس الهجري، ص ٢، حيت يرى بأن هذا القرن هو قرن ابن حرزهم وأبي مدين شعيب السارية وأبي يعزى يلنور وأبي مدين الغوث... هو قرن انطلاق التصوف المغربي، وكذلك انظر الصفحات: ٣- ٤٨- ١٥١، وفي

الصفحة ١٥٤ "يرى أنه يجب التمييز بين ثبوت وجود السلوك الزهدي قبل القرن السادس الهجري وما رافقه من مظاهر عكستها المواقف الخاصة للزهاد، أو الظواهر المتمثلة في الرباطات، وبين التصوف كمذهب وكنسق فكري وسلوكي يعبر عن آراء ومواقف فئة اجتماعية، تشترك في الخصائص والمقومات"، ص ١٥٤- ١٧٦- ٢٠٢- ٢٢٣. حسين سيد عبد الله مراد: **المتصوفة في المغرب الأقصى في عصري المرابطين والموحدين ٤٥٤- ٦٦٨هـ/ ١٠٦٢- ١٢٦٩م**، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٩٤، ص ٤٣- ٤٤، محمد زوزيو: **سوسيولوجيا التصوف المغربي ضريح المولى عبد السلام بن مشيش نموذجا**، د. د، كلية الآداب، تطوان ٢٠٠٨ (نسخة مرقونة)، ج ١، ص ٣٧، جمال علال البختي، **الحضور الصوفي في الأندلس والمغرب إلى حدود القرن السابع الهجري**، تطوان، ٢٠٠٣، ص ٤٩، ابن قسي أحمد: **كتاب خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين**، دراسة وتحقيق، الدكتور محمد الأمراني، اسفي، ١٩٩٧، ص ٣٥، عبد السلام شقور: **القاضي عياض الأديب**، دار الفكر المغربي، ط ١، طنجة، ١٩٨٣، ص ٥٠. حيث يعتبر أن العصر المرابطي هو العصر الذي نشأ فيه التصوف المغربي، محمد الأمين بلغيث: **دولة المرابطين بالأندلس من مدينة السياسة إلى مدينة العلم**، دار الوعي الجزائر، ٢٠٠٩، ص ٢٢٢، حيث يرى بأن "التصوف وجد البيئة المغربية والأندلسية صالحة فتجذر في عهد المرابطين وظهر أقطاب التصوف الذين عاشوا حتى عهد الموحدين"، ص ٢٢٢، بولقطيب الحسين: "**كرامات أولياء دكالة خلال عصري المرابطين والموحدين نموذجا**"، مجلة دراسات عربية، السنة ٣٢، ع ٣/ ٤، ١٩٩٦، ص ٧١ و ٧٥، بل أكثر من ذلك نجده يؤكد على أن التصوف بدأ يشق طريقه إلى المغرب في القرن السادس الهجري، ن. م، ص ٧١، و "أن عصر المرابطين شهد بداية تشكُّل فئة الأولياء والمتصوفة"، ص ٧٢، الشريف محمد: **التصوف والسلطة بالمغرب الموحدي مساهمة في دراسة ثنائية الحكم والدين في النسق المغربي الوسيط**، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية (٨)، الرباط ٢٠٠٤، ص ١٧، التميمي، أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفاسي، (ت. ٦٠٣ أو ٦٠٤ هـ): **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس و ما يليها من البلاد**، دراسة وتحقيق محمد الشريف، الرباط، ٢٠٠٢، جزآن، ج ١، ص ٢٢- ٣٠- ٣١، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: **تاريخ المغرب والأندلس**، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٢٦٢. بل إن هذه الفكرة نجدها متواترة حتى في الدراسات التي اهتمت بالعصور الموالية للعصر المرابطي انظر مثلا: نللي سلامة العامري: **الولاية والمجتمع: مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي**، جامعة منوبة، تونس، ٢٠٠١، ص ٥٣. والجدير بالذكر أن بعض الدراسات تذهب إلى أن الزهد أو شعر الزهد على الخصوص سطع "نجمه في عهد المرابطين كرد فعل على حياة اللهو والمجون" انظر: بولعراس خميسي: **الحياة الاجتماعية والثقافية لأندلس في عصر ملوك الطوائف ٤٠٠- ٤٧٩هـ/ ١٠٠٩- ١٠٨٦م**، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب والعلوم الانسانية، قسم التاريخ وعلم الآثار، ٢٠٠٦- ٢٠٠٧ (نسخة مرقونة)، ص ١٦٩. أما عن مظاهر الأزمة وتفاصيلها على المستوى الاقتصادي والسياسي والثقافي والإيديولوجي والأخلاقي، انظر: بوتشيش، **المغرب والأندلس**... م. س، ص ١٢٦- ١٢٨، مع الغلم أننا لا نتفق في كثير من تلك التفاصيل التي يوردها الباحث. جمال علال البختي: **الحضور الصوفي**... م. س، ص٥٠- ٥٣. أما الدكتور محمد زوزيو، فيؤكد على أن التصوف لم يكن ليظهر لولا تجذر الأزمة الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والثقافية، انظر المرجع السابق، ص٣٧، أما الدكتور محمد الأمين بلغيث فيقول في هذا الصدد: "وجاء التصوف كرد فعل للتناقضات الموجودة في المجتمع الأندلسي، وكان التيار الصوفي، له مكانة كبيرة منذ أيام **ابن مسرة**، وانتشار رسائل **"إخوان الصفاء وخلان الوفاء"**، وقد انتشر التفسخ في المجتمع الأندلسي، كما كانت الهزائم العسكرية، والرعب الذي دخل النفوس والوهن الساكن بالقلوب، قد ألجأ البعض منهم إلى حياة العزلة والانزواء عن هذا المجتمع، واتخذ من الصوفية ملاذًا لعله يجد فيه مخرجًا لما يعانيه" محمد الأمين بلغيث: **دولة المرابطين**...، م. س، ص ٢٢٢.

(٢) الحسين بولقطيب: **كرامات**...م. س، ص ٧٢، إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**...م. س، ج ٣، ص ٦٥٨.

(٣) ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد الأنصاري الأوسي (ت.٧٠٣هـ): **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر الثامن، تحقيق محمد بن شريفة، الرباط، ١٩٨٤، ص ٤٠٥، وانظر أيضا محمد بن شريفة: **الأمير المرابطي ميمون بن ياسين حياته وحجه (٤٧٠هـ/ ٥٣٠هـ)**، كتاب دعوة الحق، ع، ١٠، ٢٠٠٢، ص ١٨٧.

(٤) ابن الزيات أبو يوسف يعقوب التادلي: **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب الرباط، نصوص ووثائق (١) الدار البيضاء ١٩٨٤، ص ٢٥٤، ترجمة **١٠٥**. انظر أيضًا عصمت عبد اللطيف دندش: **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل**...م. س، ص ٢٩٠. هامش: ٩٢.

(٥) ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ص ١٦٩، محمد بن عيشون الشراط: **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، دراسة وتحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ٣٥، الدار البيضاء ١٩٩٧، ص ٦٥، ابن قنفد: **أنس الفقير وعز الحقير**، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ١٩٦٨، ص ٢٠.

(٦) ابن **الزيات** التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**...م. س، ص ١٢٣، ترجمة ١٩.

(٧) نفسه، ص ٢٣٨، ابن القاضي: **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٣، ج ١، ص٣٣٤- ٣٣٥.

(٨) عصمت عبد اللطيف دندش: **الأندلس في نهاية المرابطين**...م. س، ص ٤٣، إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**...م. س، ج ١، ص٣١٠- ٣١١. ويضيف الدكتور حسن علوي حافظي: "خصوصا وأن علي بن يوسف، وكما هي الحال بالنسبة لكل الأمراء المرابطين، قد عرف بالتقوى والورع والخوف من الله تعالى كما اشتهر بالتسامح والحلم"، حسن علوي حافظي: **المرابطون الدولة، الاقتصاد، المجتمع**، الرباط، ٢٠٠٧، ص١٦- ١٧- ٢٢، وهذه الأوصاف تنطبق على جل أمراء الدولة المرابطية. فقد عُرف يوسف بن تاشفين بإقباله على الصلاة وكثرة الدعاء والاستخارة، ابن عذاري: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج ٤، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، ط. ٢، دار الثقافة بيروت، ١٩٨٠، ص ٤٥، "وكان زاهدا في الدنيا لباسه الصوف لم يلبس قط غيره وأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها"، ابن أبي زرع: ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط ١٩٧٣، ص ١٣٦- ١٣٨، مجهول: **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق الدكتور سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص ٨١- ٩٢، وكان تاشفين بن علي بدوره زاهدا لم يشرب قط مسكرا ولا استمع إلى قينة ولا اشتغل بلذة مما يلهو به الملوك، ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج ١،

تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٣، ص ٤٤٨، ابن عذاري: **البيان المغرب**... م. س، ج ٤، ص ٧٩، العباس ابن إبراهيم: **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ١٩٧٤، ج ٣، ص ٨١، هذا، وكان اللمتونيين عموما أهل ديانة ونية صادقة خالصة وصحة مذهب، انظر ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب**...، م. س، ص ١٦٦.

(٩) ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ص ٢٣٦.

(١٠) ابن الأبار أبو عبد الله محمد **بن** عبد الله بن أبي بكر القضاعي: **المقتضب من تحفة القادم**، تحقيق إبراهيم الأبياري، طبعة دار الكتاب اللبناني-دار الكتب الإسلامية-الدار الإفريقية العربية، ١٩٨٢، ص ٧٠، ابن العريف: **كتاب النفائس ومحاسن المجالس**، أخرجه وقدم له نهاد خياطة، م. س، ص ٦٨٠.

(١١) ابن الأبار: **الحلة السيراء**، تحقيق حسين مؤنس، جزآن، الشركة العربية للطباعة والنشر دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٣، ج ٢، ص ١٩٧.

(١٢) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس ...م. س**، ص ١٢٥، وفي الصفحة ١٢٦ يقول إن: "أثر الأزمة في ظهور التصوف مسألة لا يرقى إليها الشك"، ويضيف في صفحة أخرى أنه: "من الصعب إدراك ظهور المتصوفة والأولياء على الساحة الاجتماعية دون الوقوف على التناقضات التي طبعت المجتمع، إذ لم يكن منطقيا أن يعرف التصوف نموا وانتشارا دون أن يكون له طرح اجتماعي يلامس عواطف الفئات المتضررة" نفسه، ص ١٢٧. ونجده يؤكد أن الفكر الكرامي أيضًا "ينشط إبان مرحلة الأزمات"، انظر: "**واقع الأزمة والخطاب الإصلاحي في كتب المناقب والكرامات (أواخر ق ٦ وبداية ق ٧هـ/ ١٢-١٣م)**"، ضمن كتاب: **الإستوغرافيا والأزمة دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة**، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، تنسيق عبد الأحد السبتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة: ندوات ومناظرات رقم ٣٤، ١٩٩٤، ص ٢٧، نفسه: **المغرب والأندلس**...م. س، ص ١٤١. بينما نجد أحد الباحثين يخلط بين "**التصوف**" و "**الزهد**" وذلك في المغرب والأندلس فيجعل انطلاقهما في أواخر الدولة المرابطية وذلك بعد أن يقرن انتشارهما بالأزمة والفساد، فنجده يقول: "انتشر التصوف والزهد في الأندلس، بعد أن كثر الفساد في المجتمع، وتعرضت البلاد لهجمات النصارى، وتسلط الفقهاء على الناس وفرضوا عليهم مذهبهم وأرائهم، وضعف الحكام المرابطين وانتشر الفساد بين عمال الدولة وقضاتها، لذلك لجأت جماعات كبيرة إلى العزلة عن هذه الحياة والزهد فيها"، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: **تاريخ المغرب والأندلس**، م. س، ص ٢٦٢.

(١٣) يقول أحد الباحثين: "فقد كان تأسيس دولة المرابطين يهدف بالأساس إلى القضاء على الشتات السياسي، والاجتماعي الذي كانت تعرفه وقتها بلدان الغرب الإسلامي في كل من الأندلس والمغرب. وفي نفس الوقت توحيد المذاهب الفقهية والعقدية توحيدا تاما وكاملا وذلك بالقضاء على ما بقي من فقه الشافعي، والفقه الظاهري، والفقه الشيعي. وفي المقابل على عقائد الشيعة التي كانت ماتزال تهيمن في تونس. فنشأ هاجس التوحيد السياسي والمذهبي في بعض المشاريع الإصلاحية التي كان يحلم بها ويحملها مجموعة من المصلحين في هذه الفترة، أعني فترة الشتات السياسي، وما قبل دولة المرابطين" احنانة يوسف: **تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية، الرباط ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، ص ٦٢، عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين**، شهادة التعمق في البحث (تاريخ وسيط) جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ١٩٨٧م، ج ٤، ص ٥٢٠- ٥٢١- ٥٢٢- ٥٢٣- ٥٢٤- ٥٢٥- ٥٢٦- ٥٢٧- ٥٢٨- ٥٢٩- ٥٣٣، ولعل عملية طرد أبي عمران الفاسي من مدينة فاس تنهض قرينة على الأوضاع المزرية في هذه الفترة الزمنية قبيل قيام الدولة المرابطية. فقد كان هذا الفقيه يعمل على إصلاح أوضاع كان يرى أنها فاسدة كمقاومة البدع والقضاء على المغارم وأخذ الأموال بغير حق، ومقاومة الظم والجور، عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين**...م. س، ج ١، ص ٦٥. وعن الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والوضع الديني والمذهبي للمغرب والأندلس قبل قيام الدولة المرابطية انظر إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**...م. س، ج ١، ص٦٧- ٧٨، وعن الأندلس عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين**...م. س، ج ١، ص ١٠٤- ١٠٥.

(١٤) غرميني عبد السلام: **المدارس الصوفية**... م. س، ص ٢٤، ونتفق مع الدكتور محمد زنيبر الذي يرى أنه عندما تشتد الأزمات والاضطرابات تتجه "الحياة الروحية إلى نوع من التهميش والانزواء"، زنيبر محمد: "**تادلة في العصر الوسيط**" ضمن كتاب: **المغرب في العصر الوسيط**، منشورات كلية الآداب الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٤، تنسيق: محمد المغراوي، ١٩٩٩، ص ٣٤٨.

(١٥) بنحمادة سعيد: **الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين ٧و ٨هـ/ ١٣و ١٤م، إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٢٤٤، نفسه: "**المجال الحيوي للأولياء بالمغرب الأدوار الدينية والعسكرية والاجتماعية**" ضمن كتاب: **التصوف السني في تاريخ المغرب، نسق نموذجي للوسطية والاعتدال**، تقديم وإشراف: د. إبراهيم القادري بوتشيش، منشورات الزمن، سلسلة شرفات، ٢٧، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص ١٤٥.

(١٦) جمعة شيخة: "**التصوف الأندلسي بين الدين والسياسة خلال النصف الأول من القرن ٦هـ /١٢م**، مجلة دراسات أندلسية، ع ٢١، ١٩٩٩، ص ٦٨.

(١٧) عمر فروخ: **التصوف في الإسلام**، بيروت ١٩٨١، ص ٧٦.

(١٨) منال عبد المنعم السيد جاد الله: **أثر الطريقة الصوفية في الحياة الإجتماعية لأعضائها: دراسة أنثروبولوجية في مصر والمغرب**، دكتوراة في الآداب، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب قسم الأنثروبولوجيا، ١٩٩٠، ص ١٢٤، (نسخة مرقونة).

(١٩) الحسين بولقطيب: **كرامات**...م. س، ص ٧١، وفي موضع آخر يرى بأن العصر المرابطي شهد بداية تشكُّل فئة الأولياء والمتصوفة، ن. م، ص ٧٢، إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**...م. س، ج ١، ص٤٠، حيث يرى أن "الأولياء والمتصوفة ظهروا لول مرة في عصر المرابطين"، لكن الوقائع التاريخية تدحض هذا الطرح، إذ أن المصادر تذكر هؤلاء الأولياء والمتصوفة في فترة مبكرة قبل قيام الدولة المرابطية.

(٢٠) محمد زوزيو: "**التصوف**"، مجلة كلية الآداب تطوان، ع ٧، ١٩٩٤، ص ١٩- ٢٠، نفس الرأي نجده يرد على لسان الدكتور محمد عادل عبد العزيز، الذي يرى بأن المغرب عرف "التصوف على عهد الموحدين ولكن في نطاق ضيق بدأ انتشاره من مدينة سبتة" انظر: **التربية الإسلامية في المغرب أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧، ص ١٢٢ وكأن كل تلك النماذج التي عرضناها سابقا وكل تلك الأسماء التي وردت في كتب التراجم والمناقب قبل العصر المرابطي لم تكفي هذا الباحث ليتأكد من كون المتصوفة كانوا بالفعل قبل القرن السادس بكثير؟.

(٢١) أحمد التوفيق: "**التصوف بالمغرب**"، **معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، ج ٧، سلا، ١٩٩٤، ص ٢٣٩٢، جورج مارسيه: **بلاد المغرب الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة محمود

عبد الله هيكل، مراجعة مصطفى ضيف، الإسكندرية ١٩٩١، ص ٣٠٣.

(٢٢) أحمد التادلي الصومعي: **كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب أكادير، سلسلة الأطروحات والرسائل رقم ٦، ١٩٩٦، ص٣٢.

(٢٣) محمد بركات البيلي: **الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب**...م. س، ص ٩١، وهي نفس الفترة التي شهدت بداية ظهور الارهاصات الأولى للتصوف في الأندلس مع ابن مسرة.

(٢٤) محمد بركات البيلي: **الزهاد والمتصوفة**...م. س، ص ٩٢.

(٢٥) سلسبيل محمد محمود نوفل: **شعر الأطباء في الأندلس في القرن السادس الهجري، دراسة تحليلية** نقدية، رسالة ماجستير في اللغة العربية، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٩، ص ٤٠، (نسخة مرقونة).

(٢٦) باستثناء الأستاذ عبد الجليل لحمنات والدكتور محمد البركة الذين يفرقان بينها. مع العلم أن الدكتور محمد البركة يرى أن التصوف في المغرب بدأ في أواخر القرن الخامس الهجري، لكنه لا يقدم أي تفسير لكلامه ولا يستدل على ذلك بأي دليل؟ محمد البركة: "**التصوف السني بالمغرب مقدمات في الفهم والتأصيل**" ضمن **ثقافة الوسطية...** م. س، ص ٦٣.

(٢٧) التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ١١. وبخصوص هاتين النقطتين انظر ما قام به متصوفة الفترة المدروسة في الفصل الثاني من هذا البحث فيما يخص الجانب الاجتماعي، أما عن الجانب السياسي فمعلوم أن للمتصوفة ثورات عدة. ويمكن الاستدلال مثلا بثورات المتصوفة في غرب الأندلس بزعامة ابن قسي انظر عبد القادر زمامة: "**حركة خطيرة على عهد المرابطين: حركة ابن قسي**"، مجلة البينة، ع ٦، سنة ١٩٦٢، إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس...م. س**، ص ١٦٣- ١٧١، حسين مؤنس: "**نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين**" مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الثالث، العدد الأول، ١٩٥٥، ص ١١٣- ١٢٣، بنسباع مصطفى: **السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين**، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان، ١٩٩٩، ص ١١٧ وما بعدها. وقد جانب الدكتور حميدي خميسي الصواب عندما جعل ثورة ابن قسي في القرن الخامس الهجري انظر: خميسي حميدي: **نشأة التصوف في المغرب الإسلامي الوسيط اتجاهاته، مدارسه، أعلامه**، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ٢٠١١، ص ١٢. والملاحظ أن التصوف في العصر المرابطي فعلا أصبح قوة اجتماعية وسياسية، وهو أحد المقومات الروحية والدينية والثقافية، ولا غرابة في ذلك فالملاحظ لتاريخ المغرب برمته فعلا يرى أن "التيار الصوفي شكل في معظم مراحل تاريخ المغرب قوة اجتماعية"، إبراهيم القادري بوتشيش: "**حول محن المتصوفة في العصر المرابطي**"، مجلة المناهل، ع ٨٠- ٨١، فبراير ٢٠٠٧، خاص **بالزوايا في المغرب**، ج ١، ص ٣٩.

(٢٨) أبو بكر بن العربي: **قانون التأويل**، دراسة وتحقيق محمد السليماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، المملكة العربية السعودية- مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، ص ٤٣- ٤٤.

(٢٩) محمود علي مكي: "**التراث المشترك الأندلسي المغربي في ميدان التصوف**"، دورات أكاديمية المملكة المغربية، غرناطة ١٩٩١، ص ١٥٧، وعن الممارسات الزهدية للزهاد الأندلسيين في هذه الفترة انظر منويلا مارين: **الزهاد والصوفية والسلطة في الأندلس**، تعريب مصطفى بنسباع، منشورات كلية الآداب تطوان، ٢٠١٠، خاصة الفصل الموسوم **بزهاد الاندلس (٣٠٠هـ/ ٩١٢م- ٤٢٠/ ١٠٢٩).**

(٣٠) عمر فروخ: **التصوف في الإسلام**، م. س، ص ٧٦.

(٣١) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية** ...م. س، ص ٢١.

(٣٢) راجع ترجمته في: عبد الله المالكي: **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبار فضلائهم وأوصافهم**، تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي، ٣ أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣، ج ١، ص ١٢١، ابن الفرضي: **تاريخ علماء الأندلس**، القاهرة، ١٩٦٦، ج ٢ ، ص ١٤٨، المقري: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج ٤، ص ٦، الحميدي: **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، نشره زاهد الكوثري، القاهرة، ١٩٥١، ترجمة ٤٠٣، الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت.٥٩٩هـ): **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، تحقيق، د. روحية عبد الرحمان السويفي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ص ٢٣٨- ٢٤٠، ترجمة ٦٨٧. وعن الزهاد الذين قدموا إلى الأندلس انظر: محمد بركات البيلي: **الزهاد والمتصوفة**...م. س، ص ١١٨- ١١٩. ويرى الدكتور حميدي خميسي "أن حركة الزهد والنسك انتقلت من القيروان إلى الأندلس مع المشايخ أو المهاجرين" خميسي حميدي: **نشأة التصوف في المغرب**...م. س، ص ٢٣.

(٣٣) ابن الفرضي: **تاريخ علماء الأندلس**، القاهرة، ١٩٦٦، ج ١، ص ١٢٥، الحميدي: **جذوة المقتبس**، م. س، ص ١٨٩.

(٣٤) التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ٢٥.

(٣٥) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية** ...م. س، ص ٢٤.

(٣٦) محمود علي مكي: "**بداية التصوف الأندلسي ما قبل ابن مسرة**" مجلة كلية الآداب، القاهرة، ع ٥٣، مارس ١٩٩٢، ص ١٠، نفسه "**التصوف الأندلسي مبادؤه وأصوله**"، مجلة دعوة الحق، ع٨- ٩ السنة الخامسة، ذو الحجة محرم ١٣٨٢هـ/ ماي- يونيو ١٩٦٢، ص ٦.

(٣٧) أمثال: عيسى بن دينار الفقيه المالكي الطليطلي (ت ٢١٢هـ/ ٨٢٦م)، وميمون بن سعد من أشهر زهاد الأندلس (ت ٢٦٧هـ/ ٨٨٠م)، وخلف بن سعد القرطبي (ت ٣٠٥هـ/ ٩١٧م)، ومحمد بن وضاح (ت ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م)، وأيوب البلوطي (القرن الثالث الهجري)، ومعاذ بن عثمان الذي يقول عنه ابن حيان أنه "كان عابدا ناسكا، وكان من الأبدال مجاب الدعوة"، ابن حيان: **المقتبس**: تحقيق، محمود علي مكي، طبعة دار الكتاب العربي بيروت، 1973، ص ٧٠. ويحيى بن عمر الكناني (ت ٢٨٩هـ/ ٩٠١م) الذي استقر بإحدى أربطة إفريقية وكان له أتباع وتلاميذ في مناطق الثغور بالأندلس مثل سرقسطة وتطيلة حيث أسسوا بها رباطات نهجوا فيها مثل شيوخهم في إفريقية والمشرق نهج التعبد والجهاد، وعبد الله بن نصر القرطبي (ت ٣١٥هـ/ ٩٢٧م) الذي يقال إنه أول من لقب بالصوفي، وأصبغ بن مالك القبري (ت ٢٩٩هـ/ ٩١١م) الذي كان يعيش في قلعة يشتر بالجبال المحيطة بغرناطة ويجتمع حوله الزهاد ليمارسوا الحياة الروحية، ويمن بن رزق التطيلي (القرن الثالث الهجري وأوائل الرابع) الذي يظهر أنه كان من أهل السياحة. إذ يذكر ابن الفرضي أنه توفي بالمشرق بعسقلان وأن قبره كان موضع تبجيل، ويبدو أن يمنا قد نحى بالزهد الأندلسي منحى صوفيا إشراقيا فألف كتاب "**الزهد**"، هذا الكتاب الذي لا نعرف عنه سوى أنه أثار غضب الفقهاء سواء في القيروان أو في قرطبة، ففي القيروان أفتى محمد بن مسرور المعروف بابن الحجام بالنهي عن قراءته، وفي قرطبة أفتى بمثل ذلك أحمد بن خالد المعروف بابن الحباب (ت. ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م)، وكان يصف يمنا بأنه "صاحب وساوس". ومع ذلك فقد عكف نفر من صوفية الأندلس وزهادها على قراءة كتاب "**الزهد**"، مثل الزاهد

السجلماسي الأصل المدعو بجساس، الذي كان يعتكف في متعبده بثغر مجريط خلال القرن الرابع الهجري وينشر كتاب "**الزهد**" وعنه رواه عبد الرحمن بن خلف الإقليشي (ت ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م). بالإضافة إلى كتاب **العباد والعوابد** هناك متصوف آخر كان الفقهاء يمنعون الناس من قراءة كتابه، فقد كان لعطية بن سعيد الأندلسي كتاب "**في تجويز السماع**" فكان كثير من المغاربة يتحامونه من أجل ذلك. انظر الحميدي: **جذوة المقتبس**، م. س، ص ٣١٩، أبو القاسم خلف بن عبد المالك ابن بشكوال: **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم**، نشره وصححه عزت العطار الحسيني، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة، ط ٢، ١٩٩٤، ج ٢، ص ٤٤٧. إن موقف الفقهاء من كتاب "**الزهد**" ليمن بن رزق ليدل على أن الكتاب "كان أكثر بكثير من مما يدل عليه عنوانه، إذ لو كان مجموعة من المواعظ الزهدية لما أثار ثائرة الفقهاء، بل يبدو لنا كتابا صوفيا بمعنى الكلمة" محمود علي مكي: **التصوف الأندلسي**...م. س، ص ١٠، نفسه: **التراث المشترك الأندلسي**...م. س، ص ١٥٧- ١٥٨. وبالتالي إذا كان هذا الكتاب قد أثار حفيظة الفقهاء، فإن القول السائد بأن التصوف الأندلسي قد ظهر مع مذهب ابن مسرة قد يحتاج إلى إعادة النظر فيه، خاصة وأن يمن بن رزق قد عاش قبل ابن مسرة وأن سنة تأليفه لكتابه كانت قبل ٢٩٩هـ سنة وفاة يحيى بن يحيى الذي يتحدث عن هذا الكتاب. والجدير بالذكر والملاحظة أن حركة الزهد هذه لم تكن مقتصرة على الرجال فحسب، بل شملت النساء كذلك ونذكر على سبيل المثال لا الحصر: أم الحسن بنت أبي لواء سليمان بن أصبغ المكناسية، وهي من بيت بني وانوس البربري، ويذكر ابن الأبار أنها أسست مسجدا لصق بيتها في فحص البلوط شمال غرب قرطبة، وكان يقصدها صوالح نساء أهل ناحيتها يتعبن ويتذاكرن أخبار العابدات الصالحات.

(٣٨) محمود علي مكي: **التصوف الأندلسي**...م. س، ص ١٠- ١١.

(٣٩) ابن الأبار: **التكملة لكتاب الصلة**، نشرها عزت العطار الحسيني، القاهرة ١٩٥٦، ج ١، ص ٣١٥.

(٤٠) وقد كان هذا الزاهد من أوائل الزهاد الذين تم الاستغاثة به لطلب الغيث ونزول المطر إلى جانب الزاهد أيوب البلوطي، ابن بشكوال: **كتاب المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات**، دراسة وتحقيق مانويلا مارين، مدريد ١٩٩١، ص ١٥٧- ١٥٨، ترجمة ١٤٩، ص ١٥٨، ترجمة ١٥٠.

(٤١) محمود علي مكي: **التصوف الأندلسي**...م. س، ص ١١.

(٤٢) محمود علي مكي: **التصوف الأندلسي**...م. س، ص ١١.

(٤٣) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية**...م. س، ص ٢٧.

(٤٤) ابن الفرضي: **تاريخ علماء الأندلس**، م. س، ترجمة ٩٠٩.

(٤٥) محمد العدلوني: **التصوف الأندلسي: أسسه النظرية وأهم مدارسه**، دار الثقافة الدار البيضاء ٢٠٠٥، ص ٤٧، أنخيل بالنثيا: **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس، ط ١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٥، ص ٣٢٦ حيث يرى بالنثيا بأنه بدأت "حياة الزهد وحلقات النساك والزهاد تظهر في الأندلس كما كان الحال في المشرق" نفس المرجع والصفحة.

(٤٦) القاضي عياض: **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق سعيد أعراب وآخرون، المحمدية ١٩٨٣، ج ٤، ص ٤٢٨.

(٤٧) القاضي عياض: **ترتيب المدارك**...م. س، ج ٤، ص ٤٤٦.

(٤٨) ولا نستغرب لهذا الأمر فقد ذكر ابن بشكوال أن أبا المطرف عبد الرحمن محمد المتوفى سنة ٤٠٢هـ قد ألف كتابا بعنوان "**كرامات الصالحين ومعجزاتهم**" في ثلاثين جزءا، ابن بشكوال: **الصلة**...م. س، ج ١، ص ٣١٢.

(٤٩) أبو بكر بن العربي: **قانون التأويل**، م. س، ص ٦٤.

(٥٠) محمود علي مكي: **التصوف الأندلسي**...م. س، ص ١٢- ١٣.

(٥١) منويلا مرين: "**زهاد الأندلس (٣٠٠هـ / ٩١٢م_ ٤٢٠/ ١٠٢٩)**" ضمن كتاب: **الزهاد والصوفية والسلطة في الأندلس**، م. س، ص ٦٨- ٦٩- ٧٥.

(٥٢) ابن الفرضي: **تاريخ العلماء**...م. س، ق ١، ص ١٦١، وفي النسخة التي حققها السيد عزت العطار الحسيني نجد ابن الفرضي يقول عنه أنه سمع من محمد بن وضاح القرطبي، وأنه "كان عابدا زاهدا يجتمع إليه أهل الزهد والفضل ويسمعون منه" **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، عنى بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٨، ج ١، ص ٩٥، ترجمة ٢٥٠، وانظر نماذج أخرى أوردتها منويلا مرين: **زهاد الأندلس**...م. س، ص ٦٨- ٦٩.

(٥٣) من الواضح أن العلاقات التجارية والأسفار إلى المشرق قصد أداء مناسك الحج ، قد يسرت وصول المستجدات المشرقية إلى الأندلس، ميغيل كروز هيرنانديس: "**الفكر الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية (دراسة شاملة)**"، ضمن كتاب: **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، الجزء الثاني، تحرير: د. سلمى الخضراء الجيوشي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٨، ص ١٠٨٩، مانويلا مارين: "**ممارسات المسلمين الدينية في الأندلس بين القرنين الثاني والرابع الهجريين/ الثامن والعاشر الميلاديين**"، ضمن المرجع السابق، ص ١٢٢٩، كلود عداس: "**التصوف الأندلسي وبروز ابن عربي**" ضمن المرجع السابق، ص ١٢٦٢. وهذا الأمر ينطبق كذلك على العدوة المغربية، أبو بكر بن العربي: **قانون التأويل**، م. س، ص ٤٥.

(٥٤) ابن الفرضي: **تاريخ علماء الأندلس**، م. س، ج ١، ص ٢٩.

(٥٥) القاضي عياض: **ترتيب المدارك**... م. س، ج ٤، ص ٤٤٠، محمد بن محمد مخلوف: **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، جزءان في مجلد واحد، بيروت، دار الكاتب العربي، طبعة بالأوفست عن طبعة **١٣٤٩هـ** ص ٨٦، وقد ورد فيه: العوائد بالهمز بدل العوابد بالباء وهو تصحيف. ونبادر بالقول بأن هذا العصر اقتصر فيه أهل الزهد والتصوف على حفظ أخبار النساك مثلا، أو رواية كتب السمرقندي، أو التفرغ للعبادة ونظم الأشعار حول الزهد والآخرة، انظر: ابن عبد الملك المراكشي: **الذيل والتكملة**...م. س، السفر الخامس، ص ٢١٦، ترجمة ٤٣٩، ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ص ٢١١. محمود علي مكي: **التصوف الأندلسي مبادئه و أصوله**... م. س، ص ١٥، ميغيل كروز هيرنانديس: **الفكر الإسلامي...م. س**، ص ١٠٨٩، ويرى هذا الباحث بأن من بين العوامل التي ساعدت على دخول الفكر الإسلامي للأندلس نجد "التصوف والزهد اللذان حظيا بتوفر الوثائق في فترة مبكرة"، ن. م، ص ١٠٨٩- ١٠٩٠، لكننا نتسائل عن هذه الوثائق المتوفرة منذ فترة مبكرة عن التصوف في الأندلس؟ فهل الباحث يقصد كتاب: "**العباد والعوابد**" لابن وضاح القرطبي، أم أنه يقصد وثائق تتعلق بالتصوف الأندلسي في حد ذاته؟ وبتتبع المقال السابق يتضح أن الباحث لا يكشف عن هذه الوثائق. والملاحظ أن الدكتور محمد السليماني يرى بأن كتاب "العباد والعوابد" هو أول كتاب أُلِّف في هذا الموضوع، ابن العربي: **قانون التأويل**، م. س، ص ٤٥، ولا نعلم على أي شيئ اعتمد في قوله هذا، مع العلم أنه لا يعطي تفسيرا لإدعائه. وترى الدكتورة منويلا مارين أن الكتاب "عبارة عن مجموعة من الروايات المتعلقة بالزهاد المسلمين المشارقة" منويلا مارين: مانويلا مارين: "**الظهور المبكر للزهد في الأندلس**"، ترجمة مصطفى بنسباع، ضمن كتاب: **المغرب والأندلس ٢- نصوص دفينة ودراسات**، تقديم وتنسيق: الدكتور محمد

الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان ٢٠٠٨، ص ٣٩. في حين يرى الدكتور جمال علال البختي أنه أُلف قصد التعريف برجال التصوف الأندلسيين، جمال علال البختي، **الحضور الصوفي في الأندلس والمغرب**... م. س، ص ١١. وعن الزهاد الأندلسيين الذين يمموا وجوههم تلقاء المشرق انظر: محمد بركات البيلي: **الزهاد والمتصوفة**...م. س، ص ١٢٠- ١٢٧.

(٥٦) ابن الفرضي: **تاريخ علماء الأندلس**، م. س، ج ١، ص ١٦١.

(٥٧) ابن الفرضي: **تاريخ علماء الأندلس**، م. س، ج ١، ص ٦٢.

(٥٨) نفسه، ص ٢٦٢.

(٥٩) نفسه، ص ٢٠.

(٦٠) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية**...م. س، ص ٣٦.

(٦١) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية**...م. س، ص ٣٧.

(٦٢) التميمي: **المستفاد**...م. س، ص ٢٦، وقد أُسس هذا الرباط سنة ثمانين ومائة للهجرة، انظر حسن جلاب: **"الرباطات المغربية ودورها في نشر الإسلام والدفاع عنه"**، مجلة دعوة الحق، ع، ٣٧٢، ٢٠٠٣، ص ١٤٣.

(٦٣) مسجد السبت: يقع ناحية الدمنة خارج مدينة السوسة من مدن تونس قريبا من تربة الصحابي أبي زمعة البلوي. وقد كان مزارا لعدد كبير من رجال التصوف انظر المالكي: **رياض النفوس**...م. س، ج ١، ص٤٧١- ٤٩٣- ٤٩٥- ٤٩٦، ج ٢، ص ٢١٥- ٢٨٦- ٢٨٧- ٤١٧، حسن حسني عبد الوهاب: **ورقات في تاريخ الحضارة العربية والإسلامية**، تونس ١٩٦٥، ج ٢، ص ١٨٠. ويقول محقق كتاب رياض النفوس الدكتور بشير البكوش "عن سبب تسميته بهذا الاسم يقول ابن ناجي: "سمي بمسجد السبت لعمل الرقائق فيه كل سبت خاصة، وهو الذي يسمى عندنا اليوم بمسجد العربي، سمي به لأنه كان يقوم به، واسمه محمد" انظر المالكي: **رياض النفوس**... م. س، ج ١، ص ٤٩٣، الهامش ٢٨.

(٦٤) المالكي: **رياض النفوس**... م. س، ص ٤٩٣.

(٦٥) عن العلاقات الثقافية بين إقليم صقلية والأندلس انظر: علي بن محمد بن سعيد الزهراني: **الحياة العلمية في صقلية الإسلامية**، إصدارات مركز بحوث العلوم الاجتماعية، جامعة أم القرى بمكة، سلسلة الرسائل الموصى بطبعها، ٤، مكة، ١٣١٩هـ ص ٣٣١_ ٣٤٢.

(٦٦) عن ظروف فتح إقليم صقلية والحياة العلمية في عصرها الإسلامي راجع علي بن محمد بن سعيد الزهراني: **الحياة العلمية في صقلية الإسلامية**... م.س، ص ٣١_ ٤٤.

(٦٧) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية** ...م. س، ص ٤١.

(٦٨) نفس المرجع والصفحة.

(٦٩) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية** ...م. س، ص ٤٢.

(٧٠) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية** ...م. س، ص ٤٢

(٧١) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية** ...م. س، ص ٤٣.

(٧٢) التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ١١.

(٧٣) تُرجع العديد من الدراسات الأجنبية نشأة التصوف المغربي إلى استمرار المؤثرات القديمة لدى البربر، وقد تصدت بعض الدراسات الوطنية لهذا الزعم وردت عليها: لحمنات عبد الجليل: **التصوف المغربي**... م. س، ص ٣٢- ٤٧. بينما يرى إبراهيم القادري بوتشيش "أن المعرفة الاستشراقية حول التجربة الصوفية بالمغرب، شابتها بعض المزالق [...] وأنها سعت إلى عزلها عن جذورها الإسلامية السنية، وإقحامها ضمن عادات بربرية قديمة"، **ثقافة الوسطية في التصوف السني بالمغرب**...م. س، ص ٢٤. ومن الجدير بالذكر أن الرجوع إلى تلك الدراسات، من شأنه المساعدة على فهم الافتراضات التي اعتمدت لمعالجة قضية نشأة وتطور التصوف بالمغرب، فهي انطلقت من ظاهرة الصلاح وانتشار الأولياء، وربطتها بالتأثيرات الدينية المحلية، جاعلة التأثير الإسلامي الشرقي إن لم نقل منعدما، فهو ثانوي لا يتعدى الحواضر، أما البوادي حيث أغلبية السكان فلا علاقة لهم بذلك. وقد فطنت إلى هذه النقطة المدرسة التاريخية المغربية منذ وقت مبكر، محمد المازوني: **"الكتابة التاريخية الكولونيالية بين أطروحة الرفض والاستغلال المنهجي"** مجلة المناهل، ع ٨٧، يناير ٢٠١٠، ص ٤٧- ٥٤. وإذا نظرنا إلى التصوف الإسلامي بصفة عامة فإننا نرى أن المستشرقين قد ردوه إلى عدة تيارات خارجية مثل: خارجي زرادشتي إيراني مثل مايديه: Degobineau وRenan و Corbin أو هندي كما يظن W. Jones و A. Kremer و M. Horten، أو هيليني- هيلنستي (أفلاطوني وأفلاطوني محدث، وهرمسي...) كما يرى Merx ونيكلسون- في البداية- و Brown، أو يهودي كما يزعم Weinsinck و KaufmannوGoldziher، أو مسيحي كما يظن بيكر وبلاثيوس ونيكلسون إلى حد ما– في البداية- هي محاولات تسقط من حسابها المجال التداولي الإسلامي (القرآن، السنة، الواقع المجتمعي، ذاتية الصوفي، الأنساق المعرفية الإسلامية الأخرى: الكلام، الفقه، اللغة، التصوف...). ومن الإنصاف القول بأن التصوف وثيق الصلة بالمجتمعات الإسلامية، وأن تجلياته مصدرها القرآن سواء من حيث الأصل والتطور، "إلا أن ذلك لا يعني عدم تأثره بعوامل خارجية بحكم تباين الخصائص الاجتماعية للبلاد الإسلامية"، خميسي حميدي: **نشأة التصوف في المغرب**...م. س، ص ١١. وفيما يخص آراء المستشرقين الذين يرجعون التصوف الإسلامي إلى أصل أجنبي بعينه أو تيار مذهبي وافد محدد، يمكن الرجوع إلى: جولد تسهير: **العقيدة والشريعة في الإسلام**، القسم الرابع، ترجمة محمد يوسف موسى ومن معه، ط ٢، مصر (د. ت)، ص ١٣٩- ١٨٩، نيكلسون: **في التصوف الإسلامي وتاريخه**، ترجمة أبو العلا عفيفي، مصر ١٩٦٩، علي سامي النجار: **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، ج ٣، القسم الأول، دار المعارف مصر١٩٦٩، ص ٣- ٥٩، عبد الرحمن بدوي: **تاريخ التصوف الإسلامي**، الكويت ١٩٧٥، ص ٣١- ٦٢، آسين بلاثيوس: **ابن عربي**، تعريب عبد الرحمن بدوي، الكويت ١٩٧٩، ص ١١٠- ١١٥- ١١٧- ١٢٢- ١٣١- ١٩٣- ٢٢٨- ٢٥٩...

(٧٤) أحمد التوفيق: **"التصوف بالمغرب"، معلمة المغرب، م. س**، ص ٢٣٩٢، التميمي: **المستفاد**... م. س، ج ١، ص ٢٢، الشريف محمد: **التصوف والسلطة بالمغرب الموحدي مساهمة في دراسة ثنائية الحكم والدين في النسق المغربي الوسيط**، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية (٨)، الرباط ٢٠٠٤، ص ٩.

(٧٥) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية ...** م. س، ص ٢٤٧، جورج كتورة: **"التصوف والسلطة: نماذج من القرن السادس الهجري في المغرب الإسلامي والأندلس"** مجلة الاجتهاد، ع ١٢، ١٩٩١، ص ١٨٧. وذلك يعود بالأساس في نظرنا إلى ضياع المصادر التي من شأنها إبراز متى انطلقت البوادر الأولى للتصوف، بالإضافة إلى عدم تمييز ما وصل إلينا من مصادر بين صفتي "الزهد" و"التصوف". أضف إلى هذا وذاك أن المؤرخين لم يهتموا بتدوين أخبار الزهاد والمتصوفة في القرون الهجرية الأولى، وذلك على العكس تماما مع أهل إفريقية مثلا، فقد اهتم أهلها "من زمن مبكر بتدوين أخبار بلدهم وتسجيل أخبار رجالاته وتتبع آثار الدول المتعاقبة عليه" المالكي: **رياض النفوس**...م. س، ج ١، ص ١٣ من مقدمة المحقق وانظر اللائحة التي أفردها بشير البكوش لمصنفات علماء إفريقية في علمائها، ص ١٣- ١٩. وذلك على العكس تماما مع مؤرخي نفس الفترة في المغرب.

(٧٦) التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ٢٤، الشريف محمد: **التصوف والسلطة بالمغرب**...م. س، ١٠، غرميني عبد السلام: **المدارس**

الصوفية... م. س، ص ٢٤٧، أحمد التوفيق: **التصوف بالمغرب**... م. س، ص ٢٣٩١. والملاحظ أن هذا الأمر لا يقتصر على المغرب فحسب، بل ينطبق كذلك على الأندلس، كلود عداس: **التصوف الأندلسي وبروز ابن عربي** ... م. س، ص ١٢٥٩. مانويلا مارين: **الظهور المبكر للزهد**... م. س، ص ٣٩- ٤٠.

(٧٧) لكن الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش يرى أن تيار الغزالي نمى بالمغرب بسرعة "وتعرض أنصاره لبطش السلطة المرابطية التي زجت ببعضهم في السجون، ولكنهم لم يتقاعسوا عن الدعاية لتيارهم عن طريق تأليف مصنفات صوفية داخل السجون نفسها، وبهذا الخصوص ذكر ابن عبد الملك أنه وقع على مجموع في التصوف كتبه محمد بن خلف بسجن مراكش عندما غُرِّبَ إليها وذلك في عهد علي بن يوسف" إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**، ج ١، ص ٣١٩، وقد أحال خطئا الدكتور بوتشيش إلى كتاب الذيل والتكملة الجزء ٥، القسم ٢، ص ١١٥١، ترجمة ٥٨٢، بينما ترجمة محمد بن خلف بن أحمد بن علي بن علي بن حسين اللخمي توجد في ابن عبد الملك: **الذيل والتكملة**... م. س، ج ٦، ص ١٨٢، ترجمة ٤٩٨. وبالرجوع لترجمة محمد بن خلف بن أحمد بن علي بن حسين اللخمي لا نجد إشارة واحدة تدل على أنه كتب مصنفه من أجل الدفاع عن الغزالي، بل ولا نستشف كذلك من خلال الترجمة أن محمد بن خلف كان من أنصار الغزالي كما ذهب إلى ذلك الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش، ولا نعلم أيضا سبب دخوله السجن، هل لكونه متصوفا أم لسبب آخر، بل إننا نجهل تماما محتوى المصنف الذي صنفه محمد بن خلف في السجن كي نؤكد أو ننفي علاقته بالغزالي فما بالك الجزم بأن تأليفه كان من أجل الدفاع عن الغزالي؟!

(٧٨) إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**، ج ١، ص ٣٠٨- ٣١١، وهو ينفي البتة أن يكون سبب إحراق الإحياء له علاقة بالتصوف، مصطفى بنسباع: **السلطة بين التسنن والتشيع**...م. س، ص ٨٠- ٨٨، وقارنه بما يقدمه عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين**...م. س، ج ٤، ص ٥٨١- ٥٨٢، وراجع أيضا الصفحات ٥٧٢- ٥٧٣- ٥٧٤- ٥٧٥، حيث يعرض الباحث مجموعة من المناطق في العالم الاسلامي التي عارضت كتاب الإحياء، وبالمقابل فإن الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش يرى أن كتاب الإحياء لم يلق معارضة في مشرق العالم الإسلامي، إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**، ج ١، ص ٣١١، ومن جانبنا نؤكد ما ذهب إليه عمر بن حمادي، فبالفعل وجدت معارضة في شتى بقاع العالم الإسلامي لكتاب الإحياء عكس ما ذهب إليه إبراهيم القادري بوتشيش.

(٧٩) يقصد بها الطرق الصوفية.

(٨٠) التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ٩.

(٨١) يجمع المختصون في التصوف المغربي أن النظريات الاستشراقية حول التصوف المغربي قد أعلنت أن الماضي المغربي المتقدم عن مجيء الإسلام مارس تأثيره على العقلية المغربية ودفع البربر دفعا نحو اعتناق الآراء والمواقف التي كانت سائدة في هذه البلاد قبل الفتح الإسلامي. وادعت أن هذا التصوف إن هو إلا تعبير عن القومية البربرية وعقليتها أو إحياء لمعتقدات الوثنية. راجع مثلا محمد مفتاح: **الخطاب الصوفي مقاربة وظيفية**، مكتبة الرشاد، ط ١، ١٩٩٧، ص ٢٥.

(٨٢) عبد الجليل لحمنات: **التصوف المغربي**... م. س، ص ١٦٥، التميمي: **المستفاد**... م. س، ص ٢٥.

(٨٣) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس** ...م. س، ص ١٢٩.

(٨٤) ابن قسي: **خلع النعلين**...م. س، ص ١٤- ١٦.

(٨٥) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس** ...م. س، ص ١٢٩.

(٨٦) الصومعي: **المعزى**...م. س، ص ٢٣، علال الفاسي: **التصوف الإسلامي**...م. س، ص ٣٩. ويقول أحد الباحثين "ولا شك أن اتصال المغرب بالمشرق عبر الرحلات التي كان يقوم بها الصوفية، كان له أكبر الأثر في انتقال الأنماط السلوكية الخاصة بأهل التصوف إلى المغرب فعبر هذه الرحلات انتقلت كتب المشارقة"، إبراهيم علي التهامي: **أهل السنة والجماعة في المغرب وجهودهم في مقاومة الانحرافات العقدية: من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس**، رسالة لنيل درجة الدكتوراة، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، ١٤١٢هـ (نسخة مرقونة)، الجزء الثاني، ص ٥٦٨، كلود عداس: **التصوف الأندلسي**...م. س، ص ١٢٦٢، إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس** ...م. س، ص ١٢٩، أبو بكر بن العربي: **قانون التأويل**، م. س، ص ٤٥. وعن الرحلات التي قام بها المغاربة والأندلسيون تجاه المشرق انظر إبراهيم القادري بوتشيش: **"الرحلات العلمية الأندلسية لمكة المكرمة خلال عصري المرابطين والموحدين(ق ٥- ٦هـ/ ١١- ١٢م)** ضمن كتاب: **مقالات في تاريخ الغرب الإسلامي خلال عصري المرابطين والموحدين**، مكناس ٢٠٠٧، ص ١١٩- ١٧١، نفسه: **"رحلة علماء الأندلس لمكة ونتائجها العلمية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين"** ضمن أعمال الأبحاث المقدمة إلى الندوة الكبرى المقامة بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ المنعقدة في رحاب جامعة أم القرى بمكة المكرمة خلال الفترة من ١٣- ١٥- ٨- ١٤٢٦هـ الموافق ١٧- ١٩- ٩- ٢٠٠٥م، المحور التاسع- الجزء الثاني **الرحلات وأثرها في العالم الإسلامي**، جامعة أم القرى ١٤٢٦هـ ص ٣- ٥٨، عبد اللطيف مومن: **"رحلات الأندلسيين نحو المشرق مقياس الاستيعاب المعرفي والأصالة الثقافية بالأندلس"** ضمن كتاب: **أدب الرحلة في التواصل الحضاري**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، سلسلة الندوات ٥، ١٩٩٣، ص ٢٧٣- ٢٨٦.

(٨٧) حسين سيد عبد الله مراد: **المتصوفة في المغرب الأقصى**...م. س، ص ١٨.

(٨٨) التميمي: **المستفاد**...م. س، ص ٢٥، حسن جلاب: **الحركة الصوفية بمراكش ظاهرة سبعة رجال**، مراكش ١٩٩٤، ص ٧٤، إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس** ...م. س، ص ١٢٩، منويلا مرين: **زهاد الأندلس**...م. س، ص ٨٣.

(٨٩) ترجمته في ابن بشكوال: **الصلة**...م. س، ج ٢، ص ٢٠٦، برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري ابن فرحون: **الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب**، تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة ١٩٧٢، ج ٢، ص ٢٩٩، ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ترجمة ١، ص ٨٣- ٨٥.

(٩٠) انظر ترجمته في: ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ص ١٠١- ١٠٥، التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ٢، ص ١٨٩-١٩١، أبو عبد الله محمد الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق، إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ١٩٧٥، ص ٢٩٣- ٢٩٤. ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب**...م. س، ص ١٧٠، ابن القاضي: **جذوة الاقتباس**...م. س، ج ٢، ص ٥٦٠، أبو الحسن علي الجزنائي: **جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط ٢، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٩١، ص ٢٧٠.

(٩١) الصومعي: **المعزى**...م. س، ص ٣١، عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية**...م. س، ص ٢٥٠.

(٩٢) التميمي: **المستفاد**...م. س، ص ٢٨، ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ص ٩٢- ٩٣، العباس بن إبراهيم: **الإعلام**...م. س، ج ٩، ص ١٢٣، عبد

السلام غرميني: **المدارس الصوفية**...م. س، ص ٢٤٩. أما عن ترجمة المحاسبي فهي موجودة بعدة مضان انظرها مثلا في ابن عبد الرحمن السلمي: **طبقات الصوفية**، تحقيق نور الدين الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣ ١٩٩٧، ص ١٥ - ٢٦.

(٩٣) أحمد التوفيق: **التصوف بالمغرب**...م. س، ص ٢٣٩٢، حسين سيد عبد الله مراد: **المتصوفة في المغرب الأقصى**...م. س، ص ٢٨.

(٩٤) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس ...**م. س، ص ١٢٩.

(٩٥) من أقران الشيخ أبي شعيب أيوب السارية، انظر ترجمته في **التشوف**...م. س، ٢٠٩- ٢١١، بن إبراهيم: **الإعلام**...م. س، ج ٨، ص ٢١٢.

(٩٦) ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ص ١٨٥.

(٩٧) ابن الفرضي: **تاريخ علماء الأندلس**، م. س، ج ١، ص ٢٠٨.

(٩٨) مما يدل على دوره في التصوف المغربي أن مؤلفي كتب المناقب اهتموا به وترجموا له انظر مثلاً: مجهول: **تراجم الأولياء**، دراسة وتخريج محمد أحنات وفاطمة أولاس، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، كلية الآداب تطوان، ٢٠٠٠- ٢٠٠١، ص ٧٤- ٧٧، ابن صعد: **النجم الثاقب في ذكر ما لأولياء الله من مفاخر المناقب**، ج ٤، دراسة وتحليل محمد داردار ومحمد المومن، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، كلية الآداب تطوان، ١٩٩٦- ١٩٩٧، ص ٦٢- ٦٥.

(٩٩) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس ...**م. س، ص ١٢٩.

(١٠٠) نفسه، ص ١٢٩، وانظر الصفحة ١٢٨ حيث يرى أن تسرب الفكر الغزالي للمغرب والأندلس "ساهم في تكوين قاعدة صلبة لنشوء التصوف"؟!. وهنا أيضا نجد الدكتور بوتشيش يخلط بين التصوف المغربي والتصوف الأندلسي، وقد أشرنا لهذا الخلط الذي وقع فيه الدكتور بوتشيش في الهامش ١ ص٢٣- ٢٤، وفي موضع آخر يرى أن كتاب الإحياء "ساهم في تكوين تيار صوفي في المغرب والأندلس" إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**...م. س، ج ١، ص ٢٢، وأيضا فقد "تمخض عن تسرب الفكر الغزالي للمغرب والأندلس انتشار تيار الزهد والتصوف"، نفس المرجع، ص ١٣٧، وأن انتشار فكر الغزالي أثر في شريحة هامة من المجتمع، نفسه، ص ٢٨٤- ٣١٩. بل وساهم هذا الكتاب في تأسيس الجذور الأولى للتصوف في عصر المرابطين؟! إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**...م. س، ج ١، ص ٣٠٥، وأنه أعطى الانطلاقة الأولى الحقيقية للتصوف المغربي- الأندلسي، نفسه، ص ٣١٨.

(١٠١) علال الفاسي، **التصوف المغربي**...م. س، ص ٤٠.

(١٠٢) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس ...**م. س، ص ١٢٩.

(١٠٣) انظر ترجمته في محمد بن عيشون الشراط: **الروض العطر**...م. س، ص ٥٦- ٥٧، ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ص ٩٤، ابن القاضي: **جذوة الاقتباس**... م. س، ص ٣٧٧، **المستفاد**... م. س، ج ٢، ص ١٨٣- ١٨٤.

(١٠٤) الشراط: **الروض العطر الأنفاس** ...م. س، ص ٥٦، ابن القاضي: **جذوة الاقتباس** ...م. س، ج ١، ص ٣٥٨.

(١٠٥) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس**...م. س، ص ١٢٩، التميمي: **المستفاد...م. س**، ج ١، ص ٢٥، ويعتقد الباحث عمر بن حمادي ابن حرزهم وابن العربي لم يعرفوا كتاب إحياء علوم الدين كاملا، عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين**...م. س، ج ٣، ص ٤٢٨.

(١٠٦) ابن الزيات: **التشوف ...**م. س، ص ٩٤ – ٩٥، عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين**... م. س، ج ٣، ص ٣٩٧- ٤٢٨. وعن تأثير أبي حامد الغزالي ومؤلفاته في التصوف بالمغرب الأقصى، انظر عبد الجليل لحمنات: **التصوف المغربي** ...م. س، ص ١٨٦- ٢٠٢.

(١٠٧) عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين**...م. س، ج ٣، ص ٤٢٥. ويعتقد الباحث أن ابن سعدون "هو الذي جلب هذه الكتب كلها إلى مناطق المغرب وحدث بها" نفس المرجع والصفحة.

(١٠٨) أحمد التادلي الصومعي: **المعزى**...م. س، ص ٣١- ١٤٣- ١٦٠.

(١٠٩) توفي بأغمات سنة ٥٤١هـ انظر ترجمته في ابن الزيات: **التشوف ...**م. س، ص١٤٦- ١٥٠، العباس بن إبراهيم: **الأعلام**...م. س، ج ٨، ص ٢٨.

(١١٠) الصومعي: **المعزى**...م. س، ص ٣١- ٧٣، علال الفاسي: **التصوف الإسلامي**...م. س، ص ٣٩.

(١١١) الصومعي: **المعزى**...م. س، ص ١٨٤، إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس ...**م. س، ص ١٢٩. وقد أكد أحمد التادلي الصومعي فكرة كون التصوف المغربي قد تأثر بالتصوف المشرقي حينما تطرق للأصول الشرقية للتصوف المغربي وذلك حينما قام بسرد سلسلة الشيخ أبي يعزى وعندما عرض اتصال سلسلته بالشيخ أبي يعزى وبأقطاب التصوف الآخرين إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أحمد التادلي الصومعي: **المعزى**...م. س، ص ٣٠، وأيضا الباب الثاني من الكتاب ص ٧١- ١١١ والباب السابع من الصفحة ٢٨٥- ٤١٣، إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس**...م. س، ص ١٣٠.

(١١٢) ابن الزيات: **التشوف** ...م. س، ص ٨٣- ٩٤- ١٠٩- ١٤٦.

(١١٣) ابن الزيات: **التشوف** ...م. س، ص ١٨٥، حسين سيد عبد الله مراد: **المتصوفة في المغرب الأقصى**...م. س، ص ١٨، إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس ...**م. س، ص ١٢٩.

(١١٤) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس**...م. س، ص ١٣٠، والغريب في الأمر أن الباحث يرى أنه ليس من الغريب "أن يتسرب الفكر الصوفي الباطني إلى المغرب ويؤثر في مجموعة من المتصوفة" ص ١٣٠، وفي موضع آخر ينفي البتة أن يكون التصوف المغربي قد تشبع بالأفكار الباطنية كما حدث في الأندلس، انظر إبراهيم القادري بوتشيش: **ثقافة الوسطية**...م. س، صفحات متعددة. مع العلم أنه يستدل على كلامه بنموذج المتصوف ابن قسي. ولنا أن نتسائل: هل ابن قسي كان من متصوفة المغرب؟ وهل تتلمذ متصوفة المغرب على ابن قسي حتى يتأثروا به وبالتالي بالفكر الباطني لكي ينتشر في المغرب التصوف الباطني؟

(١١٥) بهذا الصدد نتفق مع الباحث عمر بن حمادي عندما يرى بأنه لا يجب "الاقتصار عند تفسير الأحداث المغربية على الإطار الضيق للجهة فتؤخذ تلك الأحداث بمعزل عن بقية الجهات الإسلامية. بل إن الظروف تدعو إلى الربط بما كان يحدث بالمشرق. فما كان يعرفه هذا الأخير من أحداث وتيارات وتحولات كان يؤثر كثيرا وبسرعة أكبر ربما مما قد نتصور على المنطقة المغربية" عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين**... م. س، ج ٤، ص ٦٢٧- ٦٢٨، وهذا بطبيعة الحال ينطبق كذلك على التصوف.

(١١٦) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية ...** م. س، ص ٢٤٨.

(١١٧) التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ٢٦. وانظر ترجمته في ابن بشكوال: **الصلة**...م. س، ج ٢، ص ٦١١، ابن الزيات: **التشوف**... م. س، ص ٨٧ – ٨٨، ابن فرحون: **الديباج المذهب**...م. س، ص ٣٤٤، ابن القاضي: **جذوة الاقتباس**...م. س، ج ١، ص ٣٤٤، ابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، سلسلة ذخائر التراث العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (د، ت)، ج ٣، ص ٢٤٧، ابن عذاري: **البيان المغرب**، طبعة بيروت، مراجعة، إحسان عباس، ج ١، ص ٢٧٥، ابن الجزري: **غاية النهاية في طبقات القراء**،عني بنشره : ج. برجستراس، ط ٢، ١٩٨٠، بيروت، ج ١، ص

٢٧٥، محمد بن محمد الأندلسي السراج: **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس ١٩٧٠، ج ١، ص ٢٧٢. محمد مخلوف: **شجرة النور الزكية**...م. س، ص ١٠٦، عبد الحي الكتاني: **فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المشايخ والمسلسلات**، المطبعة الجديدة فاس ١٣٤٦، خير الدين الزركلي: **الأعلام**، ج ٨، ص ٢٧٨، عبد الوهاب بن منصور: **أعلام المغرب العربي**، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٧٩، ج ٢، ص ٩٦، عبد الله كنون في مجلة الثقافة المغربية، ص ٤٩، عدد ١، عبد لله المرابط الترغي، **فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، منهجيتها، تطورها، قيمتها العلمية**، منشورات كلية الآداب تطوان، سلسلة الأطروحات رقم ٢، ط ١، الدار البيضاء، ١٩٩٩، ص ٥٩٨.

(١١٨) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية**...م. س، ص ٢٤٨، عبد الجليل لحمنات: **التصوف المغربي**...م. س، ص ١٥٣، نقلاً عن: George drague :**esquisse d'histoire Religieux du maroc Cahiers de l'afrique et l'asie**.paris .1952 ; p28et 30. حيث اعتبر أن أبا عمران الفاسي هو أول من أدخل تعاليم الجنيد إلى إفريقية، ولم يتردد في نعت ابن ياسين بأنه صوفي مالكي.

(١١٩) عبد الله المالكي: **رياض النفوس**...م. س ، ج ١، ص ١٠٧، ومن بين التابعين الذين قدموا مع الفتح الإسلامي للقيروان نذكر: موهب بن حي المعافري، نفسه، ص ١١٠- ١١١، وحبان بن أبي جبلة (ت ١٢٢ أو ١٢٥هـ)، نفسه، ص ١١١- ١١٢، وإسماعيل بن عبيد الله بن الأعور القرشي (ت ١٣١ أو ١٣٢هـ)، نفسه، ص ١١٥- ١١٧، وإسماعيل بن عبيد الله مولى الأنصار (ت ١٠٧هـ)، نفسه، ص ١٠٦- ١٠٩، وطلق بن حابان، نفسه، ص ١١٧- ١١٨، وبكر بن سوادة الجذامي (ت ١٢٨هـ)، نفسه، ص ١١٢- ١١٣، وعبد الرحمن بن رافع التنوخي (ت ١١٣هـ)، نفسه، ص ١١٠، وعبد الله بن يزيد (ت ١٠٠هـ)، نفسه، ص ٩٩، وسعيد بن مسعود التجيبي، نفسه، ص ١٠٢- ١٠٦، وأبو عبد الله بن نصير اللخمي (ت ١١٤هـ)، نفسه، ص ١١٩- ١٢٠، وعبد الله بن أبي بردة القرشي، نسه، ص ١٢٦- ١٢٧.

(١٢٠) انظر ترجمته في: عبد الله المالكي: **رياض النفوس**... م. س، ٣٠٠- ٣١٢.

(١٢١) المالكي: **رياض النفوس** ...م. س، ص ٣٠٦.

(١٢٢) ترجمته في المالكي: **رياض النفوس**... م. س، ص ٣٢٤- ٣٣١.

(١٢٣) المالكي: **رياض النفوس**.... م. س، ص ٣٢٣.

(١٢٤) ترجمته في المصدر السابق، ص ٤١٠- ٤١١.

(١٢٥) راجع بهذا الصدد إبراهيم علي التهامي: **أهل السنة والجماعة في المغرب وجهودهم في مقاومة الانحرافات العقدية: من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس**، رسالة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، ١٤١٢هـ، (نسخة مرقونة)، الجزء الثاني، ص ٥٣٣- ٥٤٠.

(١٢٦) التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ٢٧.

(١٢٧) المالكي: **رياض النفوس**... م. س، ص ٤٩٣ – ٤٩٥.

(١٢٨) ابن حمادي: "**كرامات الأولياء، النقاش الحاد الذي أثاره بالقيروان وقرطبة في أواخر القرن الرابع الهجري**"، مجلة دراسات أندلسية، ع ٤، ١٩٩٠، ص ٣٥- ٦٠. وللمزيد من التفاصيل حول هذا النقاش انظر: إبراهيم علي التهامي: **أهل السنة والجماعة في المغرب**... م. س، ص٦٠٤- ٦٠٧. وأصل الخلاف أن أبا القاسم كان يَنسب لنفسه كرامات لم يكن يَقبلُ بعضَها أبو زيد القيرواني، إلا باشتراط حدوثها في المنام، مما أدّى إلى خلافٍ واسعٍ بين الرجلين أصابَ مبدأ الاعتراف بالكرامات عامةً. وكان لهذا الخلاف صدى واسع انقسم علماء القيروان على إثره فئتين، فئة تقول برأي أبي القاسم، وتضم معظم الصوفية وكثيرًا من أهل الحديث وأهل الفقه، أمثال أبي سعيد خلف بن عمر المعروف بابن أخي هشام (ت ٣٧١هـ)، وفئة أخرى تؤيد أبا محمد القيرواني، وتضم بينها أبا الحسن علي القابسي (ت ٤٠٣هـ) وأبا جعفر أحمد الداودي (٤٠٢هـ). ثم ما لبث الخلاف أن توسّع عندما أدلى أحد كبار علماء بغداد بدلوه، بعد أن استُفتي في الأمر، وهو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ). وتلا ذلك توسُّعٌ آخر وصل بالمسألة إلى مكة المكرمة، إذ أيّد شيخ صوفية الحرم حينئذٍ أبو الحسن علي بن عبد الله بن جهضم الهمداني (ت ٤١٤هـ) موقف أبي القاسم في الانتصار للكرامات، وردّ على أبي محمد القيرواني إنكاره لها. ولكن التوسع الأكبر للمسألة شهدته ديار الأندلس التي ظهر فيها تياران؛ يؤيّد أحدُهما أبا محمد القيرواني، ومنهم أبو بكر محمد بن موهب القبري (ت ٤٠٦هـ) وأبو محمد الأصيلي كبير علماء قرطبة (ت ٣٩٢هـ) وأبو العباس بن ذكوان كبير قضاة قرطبة (ت ٤١٣هـ). ويدافع التيار الآخر عن صحة الكرامات، فيرى رأي أبي القاسم الصقلّي. ومن رجالات هذا التيار الشيخ أبو جعفر أحمد بن عون الله (ت ٣٧٨هـ) وتلميذه أبو عمر أحمد بن محمد الطلمنكي (ت ٤٢٩هـ). ولم يقتصر الخوض في غمار مسألة الكرامات على القرن الرابع وحده، بل تعدّاه إلى القرن الخامس، إذ شارك فيها أبو عمر الطلمنكي الذي توفي عام ٤٢٩هـ وكذلك الأمر بالنسبة إلى القرن السادس، حيث أفتى ابن رشد الجد بضرورة تصديق الكرامات بناء على التواتر في نقلها، وإجماع أهل السنة على صحتها. والأمر نفسه ينطبق على القرن الثامن؛ فثمة رسالةٌ تُنسب إلى أحمد بن البنّاء الأزدي (ت ٧٢١هـ) بعنوان (الفرق بين الخوارق الثلاثة: المعجزة والكرامة والسحر) **جذوة الاقتباس**...م. س، ص، ج ١، ص ١٥٢. ولقد خاض في تجويز الكرامات كثير من العلماء والفقهاء والمتصوّفة، بل إننا نجد صدى الخلاف حول مبدأ الكرامات مستمرًا حتى يومنا هذا.

(١٢٩) التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ٢٧.

(١٣٠) من بين هذه التراجم كما أوردها ابن الزيات التادلي: _ أبو عبد لله محمد بن سعدون بن علي القيرواني المتوفى سنة ٤٨٥ هـ ترجمة ١، ص ٨٣. _ أبو محمد عبد العزيز التونسي المتوفى سنة ٤٨٦ هـ ترجمة ٦، ص ٩٢. _ أبو الفضل يوسف بن نحوي المتوفى سنة ٥١٣ هـ ترجمة ٩، ص، ٩٥ وما بعدها. _ الإخوة: أبو الطيب ومحمد ومحرز، ترجمة ٤٥، ص ١٦١.

(١٣١) ابن بشكوال: **الصلة**... م. س، ج ٢، ص ٤١٣، ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ص ٩٢، ابن الزبير: **صلة الصلة**: القسم الأخير، اعتنى بتصحيحه وتعليق الحواشي، الأستاذ ليفي بروفنصال، الرباط ١٩٣٧، ص ١- ٢ ترجمة ٣.

(١٣٢) التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ٢٧- ٢٨.

(١٣٣) انظر ترجمته في ابن بشكوال: **الصلة**...م. س، ص ٨٠٧، ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ترجمة ٦، ص ٩٢. المراكشي: **الأعلام**... م. س، ج ٨، ترجمة ١٢٤٢، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الثقفي العاصمي: (ت. ٧٠٨ هـ): **صلة الصلة**، القسم الثالث، تحقيق، د. عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٣، ص ٢٥٤، ترجمة ٤٤٥، نفسه القسم الأخير، اعتنى بتصحيحه وتعليق الحواشي، الأستاذ ليفي بروفنصال، الرباط ١٩٣٧، ص ١- ٢، ترجمة ٣.

(١٣٤) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية**...م. س، ص ٢٤٩، التميمي: **المستفاد**...م. س، ص ٢٨، أما عن ترجمة المحاسبي فهي موجودة

بعدة مضان انظر مثلاً في: ابن عبد الرحمن السلمي: **طبقات الصوفية**، تحقيق نور الدين الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٧، ص١٥- ٢٦.

(١٣٥) التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ٢٧.

(١٣٦) التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ٢٧، محمد المغراوي: "**فتوى أبي الفضل ابن النحوي حول كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي**" ضمن كتاب: **متنوعات محمد حجي**، نشرت بمناسبة صدور موسوعة أعلام المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٨، ص ١١٨- ١١٩. وتوجد نسخة من هذا المخطوط في خزانة الإسكوريال رقم ١١٣٠، نقلا عن إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس**... م. س، ج ٣، ص ١٠٠٢، وقد انتصر ابن النحوي للإمام الغزالي وهو من المتصوفة، ولم يقتصر على الدفاع عنه بالكلام فقط؛ بل نجده يكتب لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بذلك "يُعرِّفه بالشيخ الغزالي، وبعلو مقامه، وأنه يحسن به الظن لئلا يهلك، وصرَّح في الفقهاء الذين أفتوا بحرق الكتاب، وحمل عليهم" الصومعي: **المعزى**... م. س، ص ٣٢٩، عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين** ...م. س، ج ٤، ص ٥٧٩. وأفتى بأن الأيمان التي فرضت في عملية التفتيش أيمان لا تلزم وقال: "وددت أنني لم انظر في عمري سوى كتاب الإحياء" وكان قد انتسخ الإحياء في ثلاثين جزءا، فإذا دخل رمضان قرأ كل يوم جزءا، ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ص ٩٦، الناصري أبو العباس أحمد: **كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج.٢، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ص ٧٤، وانظر إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**، ج ١، ص ٣١٥- ٣١٦- ٣١٧. وعن نص الفتوى التي أصدرها ابن النحوي فالملاحظ أنها لم ترد في أي مصدر من مصادر ترجمة ابن النحوي، ولم يتم العثور أيضا على الرسالة التي بعثها لأمير المسلمين علي بن يوسف. وقد أورد الدكتور محمد المغراوي فتوى أبي الفضل بن النحوي التي أصدرها في تلمسان: **فتوى أبي الفضل ابن النحوي**... م. س، ص ١٢٦- ١٢٨. والغريب في الأمر أن أحد الباحثين يرى أن سبب الإحراق يعود إلى الصراع الإيديولوجي بين مذهب المرابطين وبين المذهب الأشعري الذي بدأ يغزو المغرب والأندلس زمن المرابطين، ويرى أن فتوى أبي الفضل بن النحوي كانت تتعلق بكتب الأشاعرة، احنانة يوسف: **تطور المذهب الأشعري**...م. س، ص ٨٢. ومما تجب الإشارة إليه أن الإمام الغزالي لم يعدم أنصارا يدافعون عنه ويأنسون له، فمثلا في الأندلس في عصر الدراسة وُجِد من الفقهاء من قام بتبرئة الغزالي مما رمي به، وفي هذا الصدد يحدثنا قاضي الجماعة ابن حمدين بقوله: "إن بعض من كان ينتحل رسم الفقه ثم تبرأ منه شغفا بالشِّرعة الغزالية والنحلة الصوفية، أنشأ كراسة تشمل على معنى التعصب لكتاب أبي حامد إمام بدعتهم، فأين هو من شنع مناكيره، ومضاليل أساطيره المباينة للدِّين؟ وزعم أن هذا من علم المعاملة، المفضي إلى علم المكاشفة الواقع بهم على سر الربوبية الذي لا يفسر عن قناعة، ولا يفوز بغطلائه إلا من تمطى إليه ثبج ضلالته التي رفع لهم أعلامها وشرع أحكامها" الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، حقق بعضه وأشرف على تحقيق بعضه الآخر شعيب الأرناؤوط، ط. الثامنة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٢، ج ١٩، ص ٣٣٢. وانظر أيضا عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين** ...م. س، ج ٤، ص ٥٧٨- ٥٧٩- ٥٨٠- ٥٨١. وقد وهم آسين بلاثيوس بأن الصرخة الوحيدة على إحراق إحياء علوم الدين كانت في ألمرية فقط وأن صوفية المدن الأخرى في المغرب وغيرها اكتفوا بالاحتجاج" همسا في مجالسهم الخاصة" الطاهر أحمد مكي: **دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة**، حرر بعضها وترجم البعض الآخر الدكتور الطاهر أحمد مكي، ط ٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧، ص ٣٤٦، ابن العريف: **كتاب النفائس ومحاسن المجالس**، أخرجه وقدم له نهاد خياطة، م. س، ص ٦٨٢. ولعل فتوى ورسالة ابن النحوي تنهض حجة على ما يدعيه الباحث. وقد انتصرت ثلاث مناطق للغزالي وهي: ألمرية وفاس وأغمات.

(١٣٧) التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ٢٧.

(١٣٨) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية**...م. س، ص ٢٤ – ٢٦، عبد الجليل لحمنات: **التصوف المغربي**...م. س، ص ١٦٨– ١٦٩، التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ٢٩.

(١٣٩) كلود عداس: **التصوف الأندلسي**...م. س، ص ١٢٦٢. وهذا المذهب هو مذهب الصوفي، محمد بن مسرة (ت ٣١٩هـ/ ٩٣١ م). ومدرسة ابن مسرة كما هو معلوم تجمع ما بين مبادئ المتصوفة وبين بعض أصول الاعتزال ومبادئ الباطنية. عصمت عبد اللطيف دندش: **أضواء جديدة على المرابطين**، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩١، ص ٤١، محمود علي مكي: "**بدايات التصوف الأندلسي ما قبل ابن مسرة**" مجلة كلية الآداب، القاهرة، ع ٣٥، مارس ١٩٩١، ص ٩، ميغيل كروز هيرنانديس: **الفكر الإسلامي**... م. س، ص ١٠٩٠. لكن الدكتور خميسي حميدي ينفي بأن يكون ابن مسرة معتزليا أبدا، **نشأة التصوف في المغرب**...م. س، ص ٣٤ وما بعدها. وعن محمد بن مسرة ومدرسته الصوفية انظر: الضبي: **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، نشرة فرانسيسكو كوديرا وخوليان ريبيرا مدريد، ١٨٨٤، ترجمة ١٦٣، الحميدي: **جذوة المقتبس**...م. س، ترجمة ٨٣٠، ابن حيان: **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، نشره زاهد الكوثري، القاهرة، ١٩٥١، ترجمة ٨٣، أنخيل بالنثيا: **تاريخ الفكر الأندلسي** م. س، ص ٣٢٦ – ٣٣٢، عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية** ...م. س، ص ٥٥ – ٨٣، جمال علال البختي: **الحضور الصوفي**...م. س، ص ١٥– ٣١، محمد الوزاد: "**الملامح العامة لشخصية ابن مسرة وأرائه**" مجلة كلية الآداب بفاس ،ع ٦، السنة ١٩٨٢-١٩٨٣، جعفر محمد كمال: **من التراث الفلسفي لابن مسرة**، القاهرة ١٩٨٢، عبد الواحد العسري: "**حول فلسفة محمد بن مسرة القرطبي**" مجلة كلية الآداب تطوان، ع ٨، ١٩٩٧، ص ٢٢١ – ٢٤٤، إبراهيم علي التهامي: **أهل السنة والجماعة في المغرب**...م. س، ٥٧٠- ٥٧٣، ميغيل كروز هيرنانديس: **الفكر الإسلامي**... م. س، ١٠٩٠- ١٠٩٣، محمد العدلوني: **التصوف الأندلسي**...م. س، ص ٦٢- ٧٢، محمد بركات البيلي: **الزهاد والمتصوفة**...م. س، ص ١٨١- ١٨٥، أبو بكر بن العربي: **قانون التأويل**، م. س، ص ٤٧- ٤٩، هنري كوربان: **تاريخ الفلسفة الإسلامية من الينابيع حتى وفاة ابن رشد**، ترجمة: نصير مروة وحسن قبسي، بيروت ط ٣، ١٩٨٣، ص ٣٢٩- ٣٣٥. ويرجع الفضل إلى المستشرق الإسباني: M. Asin palacios في دراسة مذهب ابن مسرة والتعريف بأكثر أرائه وذلك في دراسته التالية: **Ibn Massarra y su escula, origines de la filosofía hispano musulmana, Madrid 1914.** وقد اعتمدت على الترجمة العربية لهذه الدراسة التي أنجزها الباحث أشهر محمد: **ابن مسرة ومدرسته، أصول الفلسفة الإسلامية بالأندلس**، د. د. ع، كلية الآداب، فاس ١٩٨٣ (نسخة مرقونة)، ومع هذا المذهب تزامنت بدايات التصوف الأندلسي، جورج كتورة: **التصوف والسلطة**...م. س، ص ١٩٨. وإذا كان الحال هذا مع الأندلس فإننا لا نجاري الباحثة في ادعائها بأن التصوف المغربي قد تزامن مع مذهب ابن مسرة.

(١٤٠) التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ٢٩. ومن بين تلك الكتب نذكر "**رعاية حقوق الله**" للمحاسبي و "**قوت القلوب**" لأبي طالب المكي، وكتاب "**الهداية إلى سبيل العناية في الزهد والرقائق**" لابن العسال ... وعن المصنفات الصوفية التي كانت متداولة بالمغرب خلال القرن الهجري السادس انظر الملحق رقم: ٢.

(١٤١) عمر فروخ: **التصوف في الإسلام**. م. س، ص ٧٦.

(١٤٢) جورج مارسيه: **بلاد المغرب الإسلامي**...م. س، ص ٣٣٢- ٣٣٣، منويلا مرين: **زهاد الأندلس**...م. س، ص ٨١- ٨٢- ٨٣، ورغم ذلك ففي موضع آخر نجدها تقول بخصوص تأثر التصوف الأندلسي بنظيره المشرقي: "لا يعني هذا أن التأثير المشرقي كان هو الحاسم وحده"، **زهاد الأندلس**..م. س، ص ٨٨.

(١٤٣) محمد الصمدي: "**مدينة ألمرية مركز الدراسات الصوفية بالأندلس أواخر العصر المرابطي**"، ضمن أعمال ندوة من **ابن برجان إلى أبي إسحاق البلفيقي: جوانب من التواصل الفكري بين المغرب والأندلس**، مجلة كلية الآداب مراكش، ع ١٢، ١٩٩٥، ص ١٧١ – ١٨١، أنخيل بالنثيا: **تاريخ الفكر الأندلسي**... م. س، ٣٣٢، جمعة شيخة: **التصوف الأندلسي بين الدين والسياسة**... م. س، ص ٦٨، ابن قسي: **خلع النعلين**... م. س، ص ١٩، الهامش ١، الطاهر أحمد مكي: **دراسات أندلسية**...م. س، ص ٣٤٦، أبو العلاء عفيفي: "**أبو القاسم بن قسي وكتابه خلع النعلين**" مجلة كلية الآداب الإسكندرية، مجلد ١١، ١٩٥٧، ص ٥٣، حيث اعتبرها عفيفي "أعظم مركز روحي في المغرب العربي على الإطلاق"، عبد القادر زمامة: **حركة خطيرة**...م. س، ص ٧٣، ابن العريف: **كتاب النفائس ومحاسن المجالس**، أخرجه وقدم له نهاد خياطة، م. س، ص ٦٨٢، حيث اعتبرها "العاصمة الروحية لجميع صوفية الأندلس" وذلك في عصر المرابطين، عصمت دندش: **ارتسامات حول التصوف**... م. س، ص ١٥، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: **تاريخ المغرب والأندلس**، م. س، ص ٢٦٢، التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ٢٩.

(١٤٤) للمزيد من التفاصيل حول هاته المراكز انظر: محمد الصمدي: **مدينة ألمرية**...م. س، ص ١٨- ١٧١، عبد الجليل لحمنات: **التصوف المغربي**...م. س، ص ٢٠٧- ٢١٢.

(١٤٥) انظر ترجمته في: أبو عبد الله محمد ابن الأبار: **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق د عبد السلام الهراس، الدار البيضاء، مكتبة الرشاد الحديثة، ١٩٩٣، ج ٣، ص ٢٤٣، ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ترجمة ٥١، ابن أبي زرع: **روض القرطاس**... م. س، ص ٢٦٥، ابن القاضي: **جذوة الاقتباس**...م. س، ص ٥٠٨، التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ٢، ص ١٥- ٢٨. ابن قنفذ: **أنس الفقير**...م. س، ص ١٢- ١٤، بابا أحمد التنبكتي: **نيل الإبتهاج بتطريز الديباج**، إشراف عبد الله الهرامة، طرابلس ١٩٨٩، ص ٣٠٩، بابا أحمد التنبكتي: **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج** دراسة وتحقيق محمد مطيع، الرباط ٢٠٠٠، ج ١، ص ٣٣٠ – ٣٣١، أحمد بن خالد السلاوي: **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدار البيضاء ١٩٥٤، ج ٢، ص ٢٠٠، ابن فرحون: **الديباج المذهب**... م. س، ص ١٩٨، ابن مخلوف: **شجرة النور**... م. س، ص ١٦٢، المراكشي: **الإعلام**... ٢، م. س، ج ٩، ص ٤٩.

(١٤٦) عمار طالبي: **آراء أبي بكر بن العربي الكلامية**، ج ١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٩، ص ٥٢- ٥٥.

(١٤٧) يقول الأستاذ محمد المنوني: "ولا يبعد أن يكون ابن العربي من أول الجالبين لكتاب الإحياء عند عودته من الرحلة المشرقية عام ٤٩٥/ ١١٠١- ١١٠٢"، "**إحياء علوم الدين في منظور الغرب الإسلامي أيام المرابطين والموحدين**" ضمن كتاب: **أبو حامد الغزالي دراسات في فكره وعصره وتأثيره**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: ندوات ومناظرات رقم: ٩، ١٩٨٨، ص ١٢٦، إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**...م. س، ج ١، ص ٣١١- ٣١٨، ويضيف أيضا ميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتوني، نفسه، ص ٣١٨. التميمي: **المستفاد**... م. س، ج ١، ص ٣٠، احنانة يوسف: **تطور المذهب الأشعري**...م. س، ص ١٠١، وقد أخذ عنه مجموعة من كتبه عندما تتلمذ عليه بالمشرق، عمار طالبي: **آراء أبي بكر بن العربي الكلامية**، م. س، ج ١، ص٥٢- ٥٥- ٦٣، ويقول ابن العربي أن الغزالي كتبه له- أي كتاب الاحياء- بخط يده، عمار طالبي: **آراء أبي بكر بن العربي الكلامية**، م. س، ج ١، ص ٥٢، سعيد أعراب: **مع القاضي أبي بكر بن العربي**، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط ١، ١٩٨٧، ص ١٥١. وبالرجوع إلى الملحق الذي أثبته الدكتور عمار طالبي في الجزء الثاني من كتابه **آراء أبي بكر بن العربي الكلامية**، والمتمثل في تحقيق كتاب العواصم من القواصم، نرى أن أبا بكر بن العربي لم يدرج كتاب الغزالي الإحياء ضمن الكتب التي جلبها معه من المشرق، رغم أنه يذكر أنه جلب معه بعض كتب الغزالي التي سماها بأسمائها، لكنه لم يذكر كتاب الإحياء، انظر عمار طالبي: **آراء أبي بكر بن العربي الكلامية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٩، ج ٢، ص ٥٠٧، ويقول محمد السليماني أن أبا بكر بن العربي سمع كتاب الإحياء من الغزالي شفاهة في بغداد سنة ٤٩٠هـ أبو بكر بن العربي: **قانون التأويل**، م. س، ص ٦٠- ٨٦.

(١٤٨) التميمي: **المستفاد**... م. س، ج ١، ص ٢٨.

(١٤٩) لأخذ فكرة أولية عن الرباطات في المغرب في العصر الوسيط انظر: **الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب**، منشورات كلية الآداب، الرباط، تنسيق نفيسة الذهبي، الدار البيضاء ١٩٩٧، حسن جلاب: **الحركة الصوفية بمراكش ظاهرة سبعة رجال**، مراكش ١٩٩٤، ص ٢٤ – ٤٥، نفسه: **بحوث في التصوف المغربي**، مراكش، ١٩٩٥، ص ٣٨- ٢٦، لحمنات: **التصوف المغربي**...م. س، ص ١٤١- ١٣١، إبراهيم حركات: **المغرب عبر التاريخ**، طبعة الدار البيضاء ٢٠٠٠، ج ١، ص ١٧٤- ١٧٦، حسين سيد عبد الله مراد: **المتصوفة في المغرب**...م. س، ص ٣٥- ٤١، محمد بركات البيلي: **الزهاد والمتصوفة**...م. س، ص ٦١_ ٧٢، محمد حجي: **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، المطبعة الوطنية بالرباط، ١٩٦٤، ص ٢٣- ٢٥. ويرى عمر بن حمادي أن الرباطات تنقسم إلى قسمين: ربط ساحلية ذات مهمة عسكرية للدفاع عن السواحل من خطر خارجي محتمل، وربط داخلية كان أصحابها يُوَجِّهون عملهم خاصة إلى نشر الإسلام بين قبائل لم تُسلم بعد، أو تعميقه عند قبائل لا يزال إسلامها سطحيا، عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين**...م. س، ج ١، ص ٧١. وقد وهمت الباحثة عصمت دندش أن الزوايا قد انتشرت في المغرب والأندلس في العصر المرابطي، ابن العريف: **مفتاح السعادة**... م. س، ص ١٦، نفسها: **الأندلس في نهاية المرابطين**...م. س، ص ٢٨٨، نفسها: **ارتسامات حول التصوف**... م. س، ص ٤٧، لكننا نعلم أن الزوايا لم تكن قد تهيكلت وتأسست في العصر المرابطي، انظر محمد الشريف: "**ما قبل هيكلة الزوايا في المغرب**" مجلة المناهل، ع ٨٠- ٨١، خاص **بالزوايا في المغرب**، ج ١، ص ٢٣- ٣٧، وقد وهم الباحث علي الجاوي أيضا حينما اعتبر بأن القرن السادس الهجري قد شهد ظهور الطرق الصوفية بالمغرب التي حلت مكان الجماعات والمذاهب التي تكونت حول مشايخ التصوف في القرنين الرابع والخامس، الصومعي: **المعزى**...م. س، ص ٣١.

(١٥٠) وشاكر هذا هو شاكر بن عبد الله الأزدي، دخل المغرب مع عقبة بن نافع، له رباط اندثر رسمه في حدود المائة الثالثة، **الأعلام** للمراكشي، ج ٥، ص ١٣٢، وذكر صاحب **السلوة** أن سيدي شيكر ولد سيدي يعلى بن واصل وقيل مصلين أحد رجال رجراجة وتلميذ الإمام ابن أبي زيد القيرواني. وقد أشار التلمساني في **حاشية الشفا** والأفندي في **شرح الشفا** إلى لقائهم للرسول عليه السلام وكذلك **شرح الرسالة** لأبي الحجاج يوسف الرجراجي الذي نص على حملهم لكتاب نبوي ويدعو المغاربة إلى الإسلام فجمع وسيم المصامدة على هذا الكتاب في موضع شاكر، وقد صحح محمد بن سعيد المرغيثي أنهم صحابة في كتابه **سلسلة الذهب المنفوذ** وأنكر ذلك سيدي عبد القادر الفاسي الفهري الذي أجاب بذلك عن سؤال للسلطان المولى إسماعيل، انظر **محاضرات** اليوسي، ص ٤٨. وبين رباط شاكر ومراكش ٨٥ كلم. وقد نقل المراكشي في **الاعلام** نقلا عن الكتاني أنه توجد بقعة على مسافة نحو ميل من مراكش على ضفة وادي تانسيفت هي مدينة نفيس غزاها عقبة بن نافع وبنى بها مسجدا عام ٦٢هـ وهو موضع رباط شاكر حيث أقام المولى إدريس الأكبر قبل غزو نفيس، المراكشي: **الاعلام**...م. س، ج ٧، ص ١٩٣. ويسمى رباط شاكر أيضا رباط عقبة، ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ص ٤١٣، انظر عبد العزيز بنعبد الله: "**الزاوية المغربية كمنتدى للفكر والإشعاع**"، دعوة الحق، ع، ٢٤٥، ١٩٨٥، ص ٢٣- ٢٤، وشاكر هذا هو المعروف اليوم بزاوية سيدي شيكر. الصومعي: **المعزى**...م. س، ص ٧١، الهامش ١١، حسن جلاب: "**الرباطات المغربية ودورها في نشر الإسلام والدفاع عنه**"، دعوة الحق، ع، ٣٧٢، ٢٠٠٣، ص ١٤٠- ١٤٥، محمد حجي: **الزاوية الدلائية**... م. س، ١٩٦٤، ص ٢٣.

(١٥١) للمزيد من التفاصيل حول رباط شاكر انظر أحمد التوفيق: "**من رباط شاكر إلى رباط أسفي**" ضمن كتاب: **أبو محمد صالح: المناقب والتاريخ**، الرباط ١٩٩٠، ص ٤٧- ٥٣.

(١٥٢) مانويلا مارين: "**الظهور المبكر للزهد في الأندلس**"، ترجمة مصطفى بنسباع، ضمن كتاب: **المغرب والأندلس ٢-نصوص دفينة ودراسات**، تقديم وتنسيق: الدكتور محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان ٢٠٠٨، ص ٣٧- ٥٤.

(١٥٣) التميمي: **المستفاد**...م. س، ج ١، ص ١١.

(١٥٤) للمزيد من التفاصيل حول الكتابة الصوفية في العصر الوسيط وخاصة في القرن السادس، انظر: عبد الجليل لحمنات: **التصوف المغربي**...م. س، ص ٢١٢ - ٢٢٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

مقالات

أسرة آل رشيد ودورها في تنشيط الحياة الفكرية في مدينة حائل

(١٢٥٠-١٣٤٠هـ/ ١٨٣٥ – ١٩٢١م)



أ.م.د. خالد حسين محمود
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
كلية الآداب والفنون
جامعة حائل – المملكة العربية السعودية

مُلَخّصْ

يسعى هذا البحث نحو تسليط الضوء على الجهود التي بذلتها أسرة آل رشيد من أجل تنشيط الحركة الفكرية في مدينة حائل خلال فترة حكم هذه الأسرة والتي دامت قرابة تسعة عقود، حيث تنوعت مظاهر دعم هذه الأسرة للحركة الفكرية، فقد تميزت فترة حكمهم بالأمن والرخاء والتسامح مما هيأ مناخًا ملائمًا لاجتذاب رجال العلم والفكر والثقافة، ولم تخل مجالسهم من حضور علماء وأدباء وحلقات للمذاكرة والمناظرة، كما يُحسب لهم تقديرهم لرجال الفكر ورفع مكانتهم، وخصصوا مرتبات وأعطيات دورية لأهل العلم والأدب، وأسسوا عددًا من مراكز العلم، وجلبوا إليها المعلمين من سوريا ومصر، واستقطبوا إلى حاضرتهم القضاة من المراكز الأكثر علمًا، لنشر التعليم بين الناس، ووقفوا الكتب العلمية لجعلها متاحة أمام العلماء وطلاب العلم، وهو ما تشهد به وقفياتهم التي تند عن الحصر في مكتبات حائل العتيقة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٢ مارس ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ١٥ مارس ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

أسرة آل رشيد، الجزيرة العربية، مراكز العلم، مكتبات حائل، الحياة العلمية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052956

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

خالد حسين محمود. "أسرة آل رشيد ودورها في تنشيط الحياة الفكرية في مدينة حائل (١٢٥٠-١٣٤٠هـ/ ١٨٣٥ – ١٩٢١م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص٨٨ – ٩٦.

مُقَدِّمَةٌ

أثارت مدينة حائل اهتمام المؤرخين عربًا وأجانب؛ حيث خُصص لها مؤخرًا أطروحات شاملة، ودراسات قطاعية، قدمت للمهتمين الإطار العام لهذه المدينة، وأوضحت كثيرًا من خصائصها المشتركة. بيد أن تلك المجهودات انصبت بصورة قوية على دراسة التاريخ السياسي والعسكري(١)، أما الدراسات المتخصصة في التاريخ الفكري والثقافي فإنها شديدة الندرة(٢)، وهو أمر يُعزى دون شك إلى طبيعة الأسطغرافية الحائلية، التي تظل قاصرةً عن إشباع نهم الباحث في هذا المجال، سواء ما يتعلق بالحوليات التاريخية(٣)، أو كتب التراجم والطبقات(٤)؛ مما يعزز قيمة المظان الأخرى ويعطي لها الصدارة المرجعية، وعلى رأسها كتابات الرحالة، والتي تعد بحق سجلًا وافيًا، ومصدرًا أساسيًا لدارسي التاريخ الفكري والثقافي لمدينة حائل خلال عصر آل رشيد، لما تحتويه من مادة ضافية قادرة على ملء الثغرات، وترميم النقص. والحقيقة أن الرجوع إليها برمتها يعد من الصعوبة بمكان، لولا ما أسهم به الباحثون من أبحاث ومقالات وكتب، كانت خير عون في استكشاف بعد القضايا؛ التي قد يكلف التنقيب عنا الشيء الكثير.

الحياة الفكرية في حائل عصر أسرة آل رشيد

لفت الانتعاش الملحوظ للحياة العلمية في حائل عصر آل رشيد أنظار الأديب والصحفي والسياسي سليمان بن صالح الدخيل (١٣٦٤هـ/١٩٤٥م)(٥)، فراح يسجل انطباعاته عنها قائلًا: "وأما العلوم والآداب في الحائل.... قد وصلت إلى درجة تذكر في العلوم والمعارف منذ سابق العهد إمارة آل رشيد انتقلت أكثر الكتب إلى حائل... أهل حائل.... سبقوا غيرهم في العلوم العصرية، وذلك لاختلاف كبرائهم إلى الأستانة ومصر والحجاز أيام

السلطان عبد الحميد المخلوع، فأصبح البعض منهم يعرف اللسان التركي والفارسي، وترى في بلادهم اليوم الكتب العربية القديمة النادرة الثمينة التي لا ترى لها وجودًا في سائر البلاد العربية وأغلبها غير مطبوع... وتؤانس جماعة منهم تطالع الصحف السيارة والمجلات الموقوتة، وأهل هذه الديار أنور من غيرهم من تلك الأقطار في العلوم العصرية وأوسع اطلاعًا في الأمور السياسية... أما ميلهم إلى العلوم الأدبية كالشعر والنحو وعلوم الآلة والسياسة والاجتماع ففما تظهر منافعه عن قريب إذا ما تحسنت الأحوال وتوفرت وسائط النقل والانتقال".[٦]

لا شك أن ثمة عوامل متضافرة كانت وراء هذه النهضة الفكرية، كان من أهمها دعم آل رشيد للحركة العلمية، حيث يقول أحد الباحثين[٧] في هذا الخصوص "كانت حائل في تلك الفترة من أهم المدن العلمية استقطابًا للعلماء ومرتادًا لطلبة العلم، وكان أمراؤها يرعون العلماء ويهيئون لهم الأسباب والوسائل التي تعينهم على نشر العلم، وخاصةً ما يتعلق بنشر دعوة التوحيد التي جاء بها الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب"، وحسب شهادة باحث آخر[٨] كانت "حائل هي عاصمة نجد زمن إمارة الأمير محمد بن عبدالله بن رشيد، وكانت آهلة بالعلماء ممَنْ فيها وممن يفد إليها".

لا يكاد الباحث يقرأ مصدرًا من مصادر المرحلة محط البحث، إلا وتطالعه إشارات عما اشتهر به بعض أفراد أسرة آل رشيد بالتزامهم الديني، ومتانة تكوينهم الثقافي، وسعة معرفتهم، فقد جرت بهم العادة أن يختاروا أحد العلماء المبرزين والمشهورين بغزارة العلم لتعليم أبنائهم[٩]، وهكذا وصف عبيد آل رشيد[١٠] (١٢٥٠-١٢٨٦هـ/١٨٣٤- ١٨٦٩م) بأنه حافظ للقرآن مداوم على تلاوته وقراءة تفسيره لأوقات طويلة[١١]، ناظم للشعر[١٢]، وهو ما ينسحب على أفراد أسرته؛ حيث وصف بيته بأنه "بيت علم وثقافة".[١٣]

ووصف بلجريف (Palgrave)[١٤] الأميرَ طلال الرشيد[١٥] (١٢٦٣-١٢٨٣هـ/ ١٨٤٧ - ١٨٦٦م) بأن "لديه كل احتياجات الأفكار العربية التي تضمن له حكمًا وشعبية دائمة... معتدلًا وغير متراخ في أمور الدين" ،"يتذوق الشعر والحكايات"[١٦]. وأبدت الرحالة الليدي آن بلنت (Lady Anne Blunt)[١٧] إعجابها بأخلاق حمود بن عبيد الرشيد" وذكائه وثقافته الجيدة"، وقد تجلت تلك الثقافة في مناظرة دينية دارت بينه وبين الرحالة تشارلز داوتي (Charles Doughty) حول ورود ذكر للنبي محمد عليه الصلاة والسلام في الإنجيل.[١٨]

أما الأمير محمد بن عبد الله الرشيد، فقد كان "ذو فهم لاذع"[١٩]، تميز "فكره المتنور"[٢٠]، و"كانت عقلانيته تفوق ليس فقط أتباعه، ولكن أيضًا أقاربه إلى حد بعيد، وعلى الرغم من إيمانه إلا أنه يبدي تسامحًا نحو من يخالفونه في العقيدة. وهو يتحدث العربية والفارسية والتركية في درجة واحدة من الإتقان"[٢١]، حيث انغمس بشكل كبير في "الترف الثقافي"[٢٢] وكان "مشتركًا في عدد من الصحف العربية والتركية في مصر وسوريا والقسطنطينية، وكان يقوم بكتابة العديد من الرسائل المطولة"[٢٣]، وعلى علم " دقيق بقدامى الشعراء العرب، بالإضافة إلى معرفته بجميع أشعار الفكاهة البدوية قديمها وحديثها"[٢٤]، وحسب شهادة البارون إدوارد نولده (Baron Eduatd Nolde)[٢٥] كان الأمير مطلعًا وملمًا بالتاريخ الأوربي الحديث، بدليل أنه أخبره أنه يعرف " كل شيء عن منطقة الالزاس.. إنه ذلك البلد الذي انتزع من فرنسا بواسطة الألمان قبل عشرين عامًا، وكنتيجة لذلك تم قصف المدينة المشهورة باريس، وأن الفرنسيين غاضبون جدًا على ألمانيا لدرجة أنهم تحالفوا مع حكومة موسكو، وأن عدم الوضوح هذا شكل نقطة المركز لكل السياسات الأوربية، وإنها سياسات تتعلق بها مصير الدولة العثمانية، وهو مصير ذو أهمية كبيرة واهتمام بالنسبة لنا في الجزيرة العربية، ولنكون مستعدين مسبقًا"، وهو ما أثار إعجاب المستشرق الروسي، والذي أردف الرواية بقوله: "ابن رشيد ذكي. مستنير ومطلع بصورة جيدة، إن فهمه الواضح للشئون الأوربية كان حقًا مثارًا للدهشة"[٢٦]، وفي موضع آخر أبدى المستشرق الروسي ذهوله لثقافة محمد بن عبد الله الرشيد وإلمامه التام بالأفكار والمعتقدات الإسلامية المستمدة من مبادئ الدعوة السلفية، والذي مكنه من توجيه نقد لاذع لرجال الدين الشيعة والسنة التقليديين، الذين تحولت معتقداتهم إلى خرافات وأساطير غير عقلية، وتحريفهم لمبادئ الدين الحنيف تمشيًا مع مصالحهم الخاصة، مما نتج عنه حالة من المقت والرياء والنفاق والفساد والفسوق، وهو موقف- حسب الرحالة- أشبه بمواقف رجال الدين الاصطلاحين في أوربا[٢٧]، كما كان الأمير ملمًا بعلم الفلك وحركة النجوم[٢٨]، ولذا فقد احتوت هدايا الرحالة آن بلنت (Anne Blunt) له "منظارًا جيدًا".[٢٩] وحسب الالوسي[٣٠] فإن الأمير عبد العزيز بن متعب (١٣١٤-١٣٤٢هـ/ ١٨٩٧-١٩٠٦م) كان ذو "معرفة في الدين".

تميز حكام حائل من آل رشيد بالتسامح مع مخالفيهم في الرأي والاعتقاد طالما لا يتعارض مع الشرع الحنيف[٣١]، وهو ما كان كفيلًا بانتعاش الحركة الفكرية، فقد أكد عدد من الرحالة[٣٢] أن الامير طلال الرشيد سمح للتجار والعلماء الشيعة من أهل البصرة والنجف للإقامة في حائل، واعدًا إياهم بالحماية. وهكذا صادف الرحالة بلجريف (Palgrave) عددًا من الشيعة القادمين من مشهد علي، ومعهم كتبًا في المذهب الشيعي، وأخرى تمجيدية تحمل مزايا خيالية لعلي بن أبي طالب ونسله[٣٣]. ولعل مما يؤكد تلك الروايات وجود حي بحائل يعرف بحي المشاهدة من أبناء النجف الذين توافدوا على حائل في عهد طلال الرشيد، وأقاموا بهذا الحي واشتغلوا بالتجارة، وبلغوا حوالي (٣٥) عائلة، ولكنهم اضطروا لبيع أملاكهم والرجوع لبلادهم عندما خضعت حائل للدولة السعودية الثالثة. وكان من آثار المشاهدة في حائل قبورهم التي تتميز عن سائر القبور في المدينة بعظم شواهدها،

وخلوها من الكتابة[٣٤]. كما أسهم هـؤلاء الشـيعة في فـن البنـاء، حيث بنوا لهم في حائل قصورًا على طـرق هندسـية حديثـة عـلى المنطقـة، كـما تجـلى تـأثيرهم في فـن الزخرفـة عـلى الجـدران والكتابات والأشكال الهندسية.[٣٥]

أدرك أمراء آل رشيد أهميـة دعـوة الشـيخ محمـد بـن عبـد الوهاب في ازدهار الحركة العلمية في بلاد نجد[٣٦]، لذلك اتخـذوا منها منهجًا أساسـيًا في الحكـم، ودعامـة قويـة اعتمـدت عليهـا الحيـاة العلميـة في منطقـة حائـل، حيـث اتخـذوا دعـوة الشـيخ محمد بن عبد الوهاب منهج أساس في الحكم، وكان لهم أثـر في توطين الناس على الدعوة الإصلاحية، والاحتكام إليها فـيما يجـد من مسائل أو يتولد من خلافات ، وتـتوفر بهـذا الخصـوص عـلى رسالة أرسل بها الأمير عبيد بن رشيد إلى الشـيخ عبـد الـرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ١٢٨٥هـ يستفتيه في مسالة فقهية وهى أن بعض العلماء في حائل يوجبون صيام يوم الثلاثين من شعبان إذا حال دون منظر الهلال غيم أو قتر.[٣٧]

وتحدث الرحالة عـما شـاهدوه عنـد أمـراء المنطقـة مـن آل رشيد مـن التـزام تـام بـدعوة الشـيخ ابـن عبـد الوهـاب، يقـول المستشرق فـالين[٣٨]"والأمـراء الوهـابيون شـديدو العنايـة بجمـع الناس لصلاة الجمعة، وحدث مرارًا في حائل أن عبـد اللـه بـن آل رشيد عاقب كثيرين تخلفوا عن هذه الصلاة عقابا أليـما". وذكـر في موضع آخر انـه شـاهد مـرارًا القـاضي يعاقـب رعايـاه بضرـب العصا لمخالفتهم بعض تعاليم الدعوة الإصلاحية، وبـين انـه ذكـر ذلـك ليظهـر الفـارق الكبـير بـين سـلطة شـيخ شـمر عـلى قومـه وإلزامهم بتعاليم دعـوة الشـيخ محمـد بـن عبـد الوهـاب وبـين سلطة غيره من شيوخ القبائل الأخرى على رعاياهم."[٣٩]

وعـن تـأثر أمـراء آل رشـيد بـدعوة الشـيخ محمـد بـن عبـد الوهاب، وتنفيذًا منهم لتوجيهات حكـام الدولـة السـعودية مـن وجوب الالتزام بدعوة الشيخ وإلزام السكان بها، وصـف الرحالـة الانجليزي بلغريف الذي زار حائل عام (١٢٧٩هـ/١٨٦٢م) الأمـير عبيدًا آل رشيد بالرجل المتعصب للدعوة وقال عنـه "كـان عبيـد ملتزمًـا وورعًـا بعيـدًا عـن أي علاقـة بغيضـة، بارتـداء حريـر أو استخدام تبغ، ومداومًا على تلاوة القران لأوقات طويلة".[٤٠]

أسهم أمراء آل رشيد في تنشيط الحياة العلمية من خلال إقرارهم للأمن ونشرهم للنظام، وهما من أهم عوامل ازدهار الحياة العلمية، فقد أولى أمراء آل رشيد الأمن أهمية كبيرة، واعتبروا المحافظة على تحقيقه عاملاً أساسيًا للمحافظة على استقرار إمارتهم بالدرجة الأولى، كما كان الأمن ضروريا ليمارس الناس حياتهم وتنقلاتهم بشكل طبيعي ودون خوف، وقد عقد الرحالة فالين[٤١] مقارنة بين حالة الفوضى التي عانت منها المنطقة قبل حكم آل رشيد، وظاهرة الأمن التي رسخها أمراء آل رشيد مع بداية حكمهم، حيث قال: "من المؤكد انه قبل عهد عبدالله لم يستتب أمر للأفراد ولا للأملاك، ولا يزال بعض المعمرين يذكرون أياما لم يكن أحد يجرؤ على السفر من حائل إلى قفار إن لم يكن يرافقه عشرة أو عشرون مسلحًا... والسائد بين السكان الآن أن أي فرد يستطيع السفر في هذه الأرض من طرف إلى آخر حاملاً ذهبه فوق رأسه دون أن يعترضه معترض، وقيل لي إن القرويين كانوا منشقين في السابق جماعات متنازعة يسلب بعضها بعضا وينهبون في أية مناسبة". ومن جانبه أكد بلجريف[٤٢] أن الأمير طلال الرشيد بذل جهدًا مشهودًا في" تأمين الطرق السريعة، ووقف عمليات السلب والنهب"، بحيث كان في استطاعة" المسافر السير دون سلاح ودون حراسة ودون عوائق... وأهل المدينة يتنقلون على ظهور الحمير أو على أقدامهم دون مسدس أو رمح حاملين معهم كل ما يملكون"، وهكذا أصبح في عهده" هدوء الأحوال واستقرارها... سمتين من سمات جبل شمر"، وهو ما ينسحب على الأمير محمد بن عبد الله الرشيد، الذي أكدت آن بلنت[٤٣] أنه استأصل شأفة قطاع الطرق، و"صار بمقدور المسافرين التنقل بكل أمان في أي جهة بالبادية ولو حملوا ذهبًا دون أن يتعرضوا لخطر السلب، وكذلك فلا وجود للسراق في المدن".

كـان مـما سـاعد عـلى تنشـيط الحيـاة العلميـة في المنطقـة تخصيص الحكام رواتـب شـهرية لأهـل العلـم، مثـال ذلـك تلـك الوثيقة المحفوظة بالأرشيف العثماني والتي تتحدث عـن تجديـد رواتب شهرية ومخصصات مصروفة لأهل العلـم في جبـل شـمر، منهم الشيخ يوسف بن يعقوب ١٣٥٩هـ حيث خصص لـه ثـلاث ليرات شهريا، والشيخ عبد الله بن خلف والمؤذن عبـد اللـه بـن فالح خصص لكل منهما ليرتين شهريًا من أموال المدينة المنورة.

نتيجـة لـذلك وغيرهـا مـن عوامـل انتعـاش الفكـر والثقافـة بحائل، شهدت حائـل عصرـ الدراسـة مظـاهر للنشـاط العلمـي؛ حيث انتشرت بها العديد من وسائط نقل العلم وتلقـي الثقافـة، كالكتاتيـب: مثـل كُتّـاب الشـيخ عبـد العزيـز النزهـة (ت. ١٣٣٧هـ/١٩١٩م)[٤٤]، وكُتّاب الشيخ عبد الله بـن عبـد الـرحمن الملقت (١٣٤٣هـ/١٩٢٥م)[٤٥]، وكُتّاب الشيخ يوسف بن يعقوب (ت.١٣٥٩هـ/١٩٤١م)[٤٦]، وكُتّاب الشيخ عمـر بـن يعقـوب (ت. ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م)[٤٧]، وكُتّـاب الشـيخ عـلى الشـامى (ت.١٣٦٩هـ/١٩٥٠م)[٤٨]، وكُتّـاب الشـيخ صـالح الزريقـى (ت.١٣٧١هـ/١٩٥٢م).[٤٩] كـما تعـددت كتاتيـب البنـات مثـل: كُتّاب هيلة، وكُتّاب نورة بنت هيلة، وكُتّاب هيا الصـالح الشـاعر، وكُتّاب فاطمة الغازي، وكُتّاب فاطمـة الدرسـوني، وكُتّـاب فاطمـة بنت سلامة الشهيب.[٥٠]

ونتيجة انتشار الكتاتيـب في حائـل خـلال فـترة البحـث أكـد الرحالة[٥١] أن الكثير من أهلها كـانوا يعرفـون القـراءة والكتابـة. ويبدو أن المعلمين القائمين على أمر تلك الكتاتيب كـان لهـم دور في عملية نسخ المخطوطات، فيشـير الرحالـة (Charles Huber) تشـارلز هـوبير[٥٢] إلى مطـوع بأحـد تلـك الكتاتيـب كـان يـدعى "عواد" كان قد قام بأمر من الأمير محمـد بـن عبـد اللـه الرشـيد

بنسخ نقش حميري من على جبل سرا على غلاف كتاب وزود بـه الرحالة.

شهدت حائل حلقات العلم في المساجد الكبرى مثل جامع لبدة[٥٣]، وجامع برزان[٥٤] ومسجد الجبارة[٥٥]، ومسجد سرحة[٥٦]، ومسجد عيسى-[٥٧]ومسجد الهندي[٥٨]، وغيرها. وفضلًا عن أن بعض هذه المساجد كانت مقرًا للقضاة الذين كان يتم إرسالهم من قبل الأئمة السعوديين، فإنها كانت عامرة بحلقات العلم لعدد كبير من مشايخ حائل ؛ الذين تخرج على أيديهم عدد لا حصر له من طلاب العلم، نخص بالذكر منهم: الشيخ عوض بن محمد الحجي (ت. ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م)[٥٩]، والشيخ محمد بن راشد الغنيمي (ت. ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م)[٦٠]، والشيخ سليمان بن عبد الرحمن المفيز (ت. ١٣١٠هـ/١٨٩٣م)[٦١]، والشيخ مبارك بن عبدالله العواد (ت.١٣٢٠هـ/١٩٠٣م)[٦٢]، والشيخ يعقوب بن محمد بن سعد (ت. ١٣٢٢هـ/١٩٠٥م)[٦٣]، والشيخ عبد العزيز بن صالح المرشدى (ت.١٣٢٤هـ/١٩٠٧م)[٦٤]، والشيخ عبدالله بن مرعي ت١٣٣٧هـ/١٩١٩م[٦٥]، والشيخ شكر بن حسين الشكر (ت.١٣٣٧هـ/١٩١٩م)[٦٦]. عبدالله بن مسلم التميمي (ت.١٣٤١هـ/١٩٢٣م)[٦٧]. كما اتخذ بعض علماء حائل من بيوتهم مراكز للتدريس والمناظرة وتعليم الطلاب، مثل الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ[٦٨] والشيخ حميد الصريرى ت ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م.[٦٩]

يبدو أن تطورًا ملحوظًا شهدته المؤسسة التعليمية في عهد محمد بن عبدالله الرشيد، كان ممثلًا في ظهور المدارس النظامية[٧٠]، والتي لم تكن معروفة في حائل قبل عهده حسب شهادة فالين (Wallin)[٧١]، فقد ذكر نولده (Nolde)[٧٢] الذي زار حائل عام ١٨٩٣م/١٣١٠هـ أن الأمير أبدى اهتمامًا مشهودًا بالتعليم، فأسس "أربع مدارس في حائل، وتوصف هذه المدارس وفق معايير العرب بأنها جيدة للغاية... وجلب عددًا من المعلمين من سوريا ومصر وكان يحاول بمساعدتهم توسيع نشر-التعليم"، ويذكر داوتي (Doughty) أن مدير إحدى هذه المدارس كان معينًا من قبل الدولة العثمانية[٧٣]. وكان وجود مدارس بهذا الشكل المتميز في حائل وحضور علماء أفذاذ للتدريس بها من أشد ما لفت أنظار الرحالة الألوسي[٧٤]. وكان طبيعيًا مع وجود هذه الوسائط أن يبرز عدد من علماء المنطقة الذين تركوا العديد من المؤلفات العلمية في شتى أنواع المعارف، مثل علوم القران،[٧٥] والحديث،[٧٦] والتوحيد،[٧٧] والفقه،[٧٨] وعلوم اللغة العربية،[٧٩] والتاريخ،[٨٠] والجغرافيا والرياضيات،[٨١] والفلك والطب.[٨٢]

فضلًا عما سبق، تجلى أثر أمراء آل رشيد على الحركة العلمية من خلال صور أخرى كان من أهمها جلب العلماء والقضاة من المراكز الأكثر علمًا، والمبالغة في إظهار احترامهم وتقديرهم، وعقد حلقات علمية في مجالسهم، ووقف الكتب العلمية على طلبة العلم، وصرف مرتبات دورية لأهل العلم.

فحين استولى محمد بن عبد الله الرشيد على نجد كلها عام ١٣٠٨هـ واستقرت له الأمور حرص على جعل حائل مقصدًا لمشاهير المعلمين والعلماء، يقول المستشرق نولده،[٨٣] لقد انغمس ابن رشيد بشكل كبير في هذا الترف الثقافي، فجلب عددًا من المعلمين من سورية ومصر، وكان يحاول بمساعدتهم توسيع نشر التعليم بين أتباعه". وهو ما ينسحب أيضًا على العلماء، من ذلك انه رغب إلى الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ - علامة نجد ومرجعها الإسلامي في زمنه-في الشخوص إلى حائل مقر حكمه للانتفاع به في نشر العلم، واستجاب الشيخ لطلب الأمير، فسافر إلى حائل ١٣٠٨هـ واستقر فيها وأقام بها حولًا كاملًا يدرس بها العلم، فاخذ عنه علم العقائد والتوحيد والحديث والتفسير غالب علماء حائل، ولازموه ملازمة تامة، وتزاحم على بابه الناس فغمرهم بعلمه وفضله وكرمه.[٨٤]

وقد صحب الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف في هذه الرحلة الشيخ سليمان بن سحمان١٣٤٩هـ ولما رجع الشيخ عبد الله إلى الرياض تخلف الشيخ سليمان بن سحمان في حائل واكب على العلم ونسخ الكتب ليلا ونهارا فتحصل على كتب خطية كثيرة وأخذ عنه طلبة العلم.[٨٥] كما وفد الشيخ محمد بن إبراهيم آل محمود١٣٣٠هـ قاضي ضرما ثم الرياض على الأمير محمد بن رشيد وجلس في حائل وأخذ عنه ثلة ممن ينتسبون إلى العلم، منهم الشيخ يعقوب والشيخ صالح السالم والشيخ المرشدي وخلق كثير.[٨٦]

كذلك دخل حائل بدعوة من آل رشيد الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر١٣٣٨هـ الذي اشتهر بإلمامه التام بعلوم التفسير والحديث واللغة، حتى صار فيها بحرًا لا يجارى وعالم لا يمارى، وذاع فيها صيته حتى عد من كبار علماء نجد، حيث تلقاه أميرها وأهلها بالإكرام وظل فيها مدة من الزمن يدرس العلم وأفاد منه فريق من طلبة العلم فيها[٨٧].

أسهم آل رشيد في تنشيط الحركة الفكرية من خلال تقديرهم للعلماء واحترامهم لهم ورفعهم لمنزلة رفيعة وسط المجتمع، فعلى سبيل المثال تشير المصادر إلى عزوف الأمير محمد بن عبدالله الرشيد عن شيخ قبيلة العجمان "راكان بن حثلين" ومن معه من زعماء العجمان والذين كانوا ضيوفًا عنده، لما سمع بمقدم الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف، حيث شُغل عن ضيوفه بتدبير مراسم استقبال الشيخ خارج مدينة حائل، فقد خرج في كوكبة من الخيل عليها أمراء آل رشيد، ليكونوا معه عند استقبال الشيخ، ولما فرغ الأمير من استقبال الشيخ، وانتهى من ضيافته، عاد إلى ضيوفه معتذرًا لهم عن انشغاله عنهم بقوله لراكان: "اعذرنا أن حصل شيء من قلة أدب المجالسة والمؤانسة، فقد صادف قدومك قدوم الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف علينا".[٨٨]

ولما علم الأمير طلال بن عبد الله بن رشيد بوفاة القاضي محمد بن إبراهيم السيف ١٢٦٥هـ حزن حزنًا شديدًا، وأصدر أمرًا بنعي الشيخ على منابر المساجد في صلاة الجمعة، ولما قدم ابنه سعد من الرياض إلى حائل لزيارة والده ووجده قد توفى، وعلم الأمير بمقدمه خرج لاستقباله وأكرمه لحظوة ومقام أبيه عنده، وولاه الأمير مطوعية بقعاء، فثبت هناك داعيًا ومرشدًا[٨٩].

وكان أمراء آل رشيد يقدمون العلماء في مجالسهم ويأمرون الخدم بتقديمهم عليهم في شرب القهوة، حيث تذكر المصادر[٩٠] أن الأمير طلال آل رشيد كان لا يأخذ فنجان القهوة قبل الشيخ يعقوب بن محمد بن سعد١٣٢٢هـ وان سمًا وضع في فنجان قهوة للأمير والذي رفض أن يشرب فنجان القهوة قبل الشيخ، وألح أن يبدأ الشيخ بالشرب، فشربها الشيخ وتوفى على إثر هذا السم من يومه. وأحيانًا كان الأمراء يتغافلون عن زلة بعض العلماء احتراما للعلم الذي عندهم وصار ذلك من الأمور المشهورة،[٩١] دليل ذلك تلك الرواية التي تذكر أن الأمير عبد العزيز بن متعب آل رشيد وهو المعروف بحدة الطبع، غضب ذات مرة على أحد الأئمة لكلام بدر منه، إلا أن مكانة ذلك الشيخ دفعت الأمير إلى أن يقول له "والله لولا العلم الذي تحمله في صدرك لفعلت فيك كذا وكذا"[٩٢].

تبدو أهمية مكانة العلماء عند أمراء المنطقة من خلال اصطحاب هؤلاء الحكام العلماء معهم في أسفارهم وترحالهم، من ذلك أن الأمير محمد بن رشيد خرج ذات مرة بجيشه إلى منطقة ياطب شرقي حائل في طريق القصيم فاصطحب معه الشيخ عبد الله بن مرعي[٩٣]، وكان الشيخ سليمان الحماد دائمًا ما يرافق الأمير محمد بن عبد الله آل رشيد ثم الأمير عبد العزيز المتعب في الغزوات[٩٤]، وكان الشيخ صالح بن سالم آل بنيان ذا مكانة مرموقة عند الأمير محمد بن عبد الله آل رشيد، وصحبه مرارًا إمامًا ومرشدًا في مغازيه وحججه[٩٥].

أسهم الأمراء أيضًا في تنشيط الحركة العلمية من خلال مجالس العلم التي كانت تعقد في مجالسهم، والتي كان يحضرها العلماء والأدباء والمؤرخون، ويقرأ فيها من مختلف الكتب الدينية والتاريخية والأدبية، فعلى سبيل المثال كان الأمير حمود بن عبيد بن رشيد، محبا لأهل العلم، وله رغبة في قراءة الكتب والاطلاع عليها، وكان له مجلس علم يحضره العلماء والأدباء، حيث كان يجلس الأمير وحوله المشايخ وطلبتهم بعد صلاة الفجر فيقرا عنده العديد من العلوم الشرعية وكتب التاريخ والأنساب والسير والتراجم وغيرها، وكان يقرا عليه الشيخ جار الله الحمادي من كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي، حتى أن المنية وافته وهو يقرا عام ١٣٢٠هـ فحزن عليه الأمير ورثاه بقوله:

يا معجم البلدان هبيت والويت من بعد أبو حماد ما بك شفاة
من عقب ما انته عنبر حتليت لو نجلبلك ما حللوك الشراة[٩٦].

ووصف بلجريف مجالس العلم والذكر التي كانت تعقد في مجلس الأمير طلال بن عبد الله ١٢٨٣هـ وذكر انه كان يُقرا عليه شيء من السيرة أو صحيح البخاري[٩٧].

كان من أبرز مظاهر اهتمام آل رشيد بالعلم والعلماء وتشجيعهم للحياة العلمية هو قيامهم بوقف الكتب - لا سيما الدينية- على العلماء وطلبة العلم، فقد وقف الأمير عبيد بن رشيد عددًا من الكتب على طلبة العلم، ففي عام ١٢٥٩هـ وقف مخطوط "الممتع في شرح المقنع "للمنجى بن عثمان[٩٨]، وفي سنة ١٢٦٥هـ وقف كتاب "عمدة الأحكام" للمقدسي[٩٩]و"الجامع الصغير"[١٠٠] للسيوطي، وكتاب "الشرح الكبير" لابن قدامة[١٠١]، وفي عام ١٢٦٦هـ وقف على طلبة العلم مخطوطة "معونة أولي النهى بشرح المنتهى"[١٠٢]، وفي عام ١٣٠٦هـ وقف كتاب "حادي الأرواح" لابن القيم على طلبة العلم بحائل، وفي عام ١٣٠٩هـ وقف نسخة أخرى من الكتاب ذاته[١٠٣]، وفي عام ١٣١٠هـ وقف كتاب "مدارك التنزيل"[١٠٤] للنسفي.

وكان لابنه الأمير حمود بن عبيد آل رشيد النصيب الأكبر في وقف الكتب على طلبة العلم، فقد وقف في عام ١٢٦٥هـ كتاب "السياسة الشرعية "لابن تيمية[١٠٥]، وكتاب "عمدة الأحكام" للمقدسي[١٠٦]، ووقف عام١٣٠١هـ كتاب "التخويف من النار" لابن رجب الحنبلي[١٠٧]، وكتاب "أحكام الكلام" لابن دقيق العيد[١٠٨]، وكتاب "النهاية في غريب الحديث" للمبرد[١٠٩]، وفي عام ١٣٠٥هـ وقف كتاب "جامع العلوم"[١١٠]، لابن رجب، وفي عام ١٣٠٧هـ وقف كتاب "دريء تعارض العقل والنقل" لابن تيمية[١١١]، وعدة أجزاء من تفسير الطبري[١١٢]، وكتاب "اقتضاء الصراط المستقيم" لابن تيمية[١١٣]، وكتاب "تذكرة السامع والمتكلم" للكناني[١١٤]، وكتاب "قلائد الجمان" للسيوطي[١١٥]، وفي عام١٣١٠هـ وقف كتاب "تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد" لسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب آل الشيخ[١١٦]، وكتاب "الشرح الكبير" لابن قدامة[١١٧]، ووقف الجزء الأول من تفسير الطبري عام ١٣١١هـ[١١٨]، وكتاب "دقائق أولي النهى" للبهوتي[١١٩]، كما اشترى ووقف على طلبة العلم مخطوطتين من كتاب "كشاف القناع" للبهوتي، الأولى: بخط المؤلف، والثانية: بخط تلميذه مُحمَّد بن عبد القادر الشامي الذي نسخها من نسخة المؤلف نفسه كما في آخر الجزء الثاني من المخطوط من دون تاريخ.[١٢٠]

وأسهم الأمير محمد بن عبد الله بن رشيد في عملية وقف الكتب، ففي عام ١٢٩٣هـ وقف كتاب "هداية الحيارى" لابن القيم[١٢١]، وفي عام١٢٩٥هـ وقف كتاب "نيل المآرب" للتغلبي[١٢٢]، وفي عام ١٣٠٢هـ وقف كتاب "الكافية الشافية" لابن قدامة،[١٢٣] وكتاب "تفسير ابن كثير"[١٢٤]، وفي عام ١٣٠٥ وقف كتاب "إغاثة اللهفان" لابن القيم[١٢٥] وكتاب "جامع

الترمذي"[١٢٦]، كما وقف النصف الثاني من صحيح البخاري في ٢٩ شوال عام ١٣٠٥هـ[١٢٧]، وكتاب "سراج الملوك" للطرطوشي.[١٢٨]

كما تم وقف عدد آخر من الكتب على يد أفراد أسرة آل رشيد مثل فيصل بن محيسن الجبر آل رشيد الذي وقف عام ١٣٠٧هـ كتاب "التنقيح المشبع" للمرداوى[١٢٩]، ووقف عام ١٣٠٩هـ كتاب "جامع العلوم والحكم" لابن رجب[١٣٠]، وفي عام ١٣١٠ هـ وقف كتاب "أقسام القران" لابن القيم[١٣١]، وكتاب حاشية أبي النجا[١٣٢]، وكتاب "حاشية محمد بن عبد اللطيف على الأجرومية."[١٣٣] أما الأمير سالم بن حمود العبيد آل رشيد فقد وقف عام ١٣٠٧هـ كتاب "فتح المجيد" بشرح الشوكاني،[١٣٤] وكتاب "تبيان الهدى"[١٣٥] لابن تيمية. والأمير طلال بن نايف آل رشيد الذي وقف عام ١٣٢٣هـ كتاب "الرد على الاخنائي"[١٣٦]، وكتاب "الاستغاثة"[١٣٧]، وكتاب "الرسالة الدينية"[١٣٨] لابن تيمية.

ولم تقتصر عملية وقف الكتب على الأحرار بل شارك الموالي والغلمان في تلك الحركة، ففي عام ١٣١٢هـ وقف سعيد غلام الأمير محمد بن عبدالله بن رشيد عدة كتب منها: "الأزرق في علم الطب"،[١٣٩] و"التحفة المنتخبة في الأدوية المجربة"،[١٤٠] و"السياسة الشرعية"، [١٤١] و"حاشية المنتهى"[١٤٢]، و"جامع العلوم والحكم"[١٤٣]، و"الحسبة"[١٤٤] لابن تيمية، وفي عام ١٢٢٥هـ وقف عنبر غلام سالم الحمود آل رشيد كتاب "شرح المعلقات" للزوزني على الشيخ يوسف اليعقوب وأخيه عمر[١٤٥]، وفي عام ١٣١٦هـ وقف خالد غلام حمود العبيد الجزء الأول من كتاب "الجامع لمفردات الأدوية" لابن البيطار[١٤٦]، وفي عام ١٣٢٢هـ وقف جوهر غلام حمود العبيد آل رشيد كتاب "وسيلة النجاة" للطرابلسي[١٤٧] وكتاب "الصلاة" لابن القيم.[١٤٨]

أبدت بعض نساء أسرة آل رشيد حرصهن ورعايتهن للحركة العلمية؛ من خلال توفير المخطوطات لطلبة العلم، فقد شهد عام (١٣١٤هـ/١٨٩٦م) وقف عدد من المخطوطات بواسطة بعض أميرات آل رشيد، منهن رقية آل متعب الرشيد[١٤٩]، والتي وقفت الجزء الثاني عشر من "جامع البيان في تفسير القرآن" للطبري[١٥٠]، كما وقفت كتاب "مدارج السالكين" لابن القيم.[١٥١] وطريفة بنت عبيد الرشيد[١٥٢] (ت.١٢٦٣هـ/١٨٣٥م) التي وقفت كتاب "إيقاظ الوسنان على بيان الخلل الذي في صلح الإخوان" لمحمد بن ناصر التهامي[١٥٣]، وكتاب "الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم بالسنة والكتاب" لحمد بن معمر الحنبلي،[١٥٤] وكتاب "كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داوود بن جرجيس" لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ[١٥٥]. وفي عام ١٣٠٠ هـ وقفت دليل بنت طلال الرشيد نسخة من تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية[١٥٦]، كما وقفت خنساء آل رشيد في عام ١٣٠٧هـ نسخة مطبوعة في المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٠٤هـ من كتاب "إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري" للقسطلاني[١٥٧].

ولم يقتصر الأمر على نساء آل رشيد، وإنما امتد ليشمل النساء الموالي، نموذج ذلك نورة مولاة محمد بن عبد الله الرشيد[١٥٨]، التي وقفت عام (١٣١١هـ /١٨٩٤م) كتاب "الطرق الحكمية في السياسة الشرعية" لابن القيم.[١٥٩]

خَاتِمَةٌ

أسهم أفراد أسرة آل رشيد خلال فترة حكمهم لحائل في دعم الحركة الفكرية بشتى الوسائل، فقد شجعوا على قدوم عناصر فكرية مختلفة إلى حائل، ولم تكن تخلو مجالسهم من وجود علماء وأدباء وحلقات للمذاكرة والمناظرة، كما يُحسب لهم تقديرهم لرجال الفكر ورفع مكانتهم، فقد خصصوا مرتبات وأعطيات دورية لأهل العلم والأدب، وأسسوا عددًا من مراكز العلم، وجلبوا إليها المعلمين من سوريا ومصر، واستقطبوا إلى حاضرتهم القضاة من المراكز الأكثر علمًا، لنشر التعليم بين الناس، ووقفوا الكتب العلمية لجعلها متاحة أمام العلماء وطلاب العلم، وهو ما تشهد به وقفياتهم التي تند عن الحصر في مكتبات حائل العتيقة.

الهَوامِشُ:

(١) انظر على سبيل المثال: السويداء، عبد الرحمن: **منطقة حائل عبر التاريخ**، دار السويداء للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٣٠هـ العثيمين، عبد الله: **نشأة إمارة آل رشيد**، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، الرياض، ١٤٠١هـ، عبيد، جبار: **التاريخ السياسي لإمارة حائل ١٨٣٥-١٩٢١م**، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٣م، زعارير، محمد عبد الله: **إمارة آل رشيد في حائل**، بيسان، ١٩٩٧م، آل علي، محمد بن مهنا: **إمارة آل على في منطقة حائل**، دار المؤيد، جدة، ١٤٢٤هـ السعدون، خالد حمود: "**موقف إمارة حائل من الحرب العالمية الأولى كما صورته الوثائق البريطانية**، الدارة، س٩، ع٢ المحرم ١٤٠٤، أكتوبر ١٩٨٣، ص ٢٨ – ٤٠.

Paran,Michel,The Rashidi Amirate of Hayl: The rise, development and decline of a pre modern Arabian principality, doctoral dissertation, University of Michigan,1992.

(٢) إذ لا يمكن ذكر سوى كتاب "الثقافة والتعليم في منطقة حائل قبل المدارس النظامية" للأستاذ عبد الرحمن السويداء، الذي لا يتعد في التحليل الأخير عن كونه تراجم ذاتية أكثر منه رصدًا لمظاهر الحياة العلمية، ورسالة الباحث خاتم الشمري "**الحياة العلمية في منطقة حائل في عهد الملك عبد العزيز**"، والتي تُعَدّ دراسة جادة، نوع فيها الباحث من مصادره.

(٣) مثل كتاب "القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد" لسليمان الدخيل، وكتاب "نبذة تاريخية عن نجد" لضاري الرشيد، وكتاب "تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد" لابن عيسى، وكتاب "شذا الند في تاريخ نجد" لصالح بن مطلق النجدي، وكتاب "تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد" لابن عيسى، وكتاب "صدى الحرب" للحجي.

(٤) على سبيل المثال كتاب "زهر الخمائل في تراجم علماء حائل" للهندي، وكتاب "روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين" لابن عثمان القاضي.

(٥) رحالة وصحفي من منطقة القصيم ولد في مدينة بريدة وتوفي ببغداد عام ١٩٤٤م، قام بعدة رحلات داخل الجزيرة العربية، والهند والعراق، عاش في كرخ بغداد وأنشأ دار للطباعة والنشر والتأليف ومجلة عربية، وبسبب معارضته للأتراك حُكم عليه بالسجن؛ ليهرب بعد ذلك إلى المدينة المنورة ثم يعود بعد فترة لبغداد ويستقر فيها بعد قيام الحكم الوطني في العراق، ليتدرج بالمناصب حتى أصبح قائمقام. بخصوص حياته ونشأته وعلاقته بأسرة آل رشيد في حائل انظر: حسن غياض: **الصحفي، السياسي، المؤرخ النجدي سليمان بن صالح الدخيل**، ط١، البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٨٢، محمد بن عبد الرزاق القشعمي: "**سليمان الدخيل: رائد الصحافة النجدية**"، مجلة أبعاد، نادي القصيم الأدبي، السعودية، ع١، ٢٠٠٧م، ص٤٠ – ٤٩.

(٦) سليمان الدخيل: "**نجد**"، مجلة لغة العرب، بغداد، مج ١، ١٩١١، ص٢١-٢٤.

(٧) العفنان، سعد: **أعلام علماء حائل-الشيخ صالح السالم**، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٨هـ ص٢٢-٢٣.

(٨) عبد الله البسام: **علماء نجد خلال ستة قرون**، ط٢، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٩هـ ج٤، ص ٤٨٦.

(٩) دواتي: مصدر سابق، ص٤٢، ٦٦؛ محمد عثمان القاضي: **روضة الناظرين** عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، ج١، ط١، القاهرة، مطبعة الحلبي، ١٤٠٣هـ ص١٧٢.

(١٠) هو عبيد بن علي الرشيد أخو مؤسس الإمارة عبد الله بن علي، شارك مع أخيه في بناء الإمارة وتسيير شؤونها السياسية والعسكرية منذ نشأتها في (١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) وحتى وفاته عام (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م). انظر: أمين الريحاني: **تاريخ نجد الحديث وملحقاته**، ط١، بيروت، المطبعة العلمية ليوسف صادر، ١٩٢٨ م، ص٢٨٦.

(١١) بلجريف، وليام جيفورد: **وسط الجزيرة العربية وشرقها ١٨٦٢-١٨٦٣**، ترجمة صبري حسن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١م، ج١، ص١٦٣.

(١٢) داوتي: **ترحال في صحراء الجزيرة العربية**، ترجمة صبري محمد حسن، ط٢، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩، ص٤٤.

(١٣) أحمد العريفي: **مقامات حائلية لمحات تاريخية اجتماعية ونصوص شعرية**، ط١، ج١، الرياض، د.ن، ١٤٢٨هـ ج١، ص ٦٨.

(١٤) بلجريف: مصدر سابق، ١٥٩.

(١٥) ثاني حكام إمارة جبل شمر في حائل. وهو ابن عبد الله العلي الرشيد مؤسس الأمارة انتقل إليه الحكم بعد وفاة أبيه، شهدت الإمارة في عهده حالة من الرخاء والاستقرار والتوسع، أنهى حياته بالانتحار بعد أن أخبره الأطباء بأنه أصيب بمرض مزمن سيؤدي لفقدان عقله، ففضل الموت على الجنون. انظر: خليف الصغير الشمري: **طلال بن عبد الله آل رشيد قراءة سسيو تاريخية**، ط١، د.م، جداول للطباعة والنشر، ٢٠١٦.

(١٦) بلجريف: مصدر سابق، ص١٦٦.

(١٧) بلنت: مصدر سابق، ص٢٥٧.

(١٨) داوتي: مصدر سابق، ص١٩-٢٠.

(١٩) داوتي: مصدر سابق، ص٢٠١.

(٢٠) شارلز هوبر (Charles Huber): **رحلة في الجزيرة العربية الوسطى ١٨٧٨-١٨٨٢**، ترجمة اليسار سعادة، بيروت، دار كتب، ٢٠٠٣، ص٥٣.

(٢١) يوليوس اوتينج (juIius Euting) **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ترجمة وعلق عليه سعيد بن فايز السعيد، ط١، الرياض، إصدارات دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٩هـ ص٩٧-٩٨؛ داوتي: مصدر سابق، ص٢٢٣.

(٢٢) **الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر الميلادي**، تقديم وتعريب عوض البادى، الرياض، دار بلاد العرب للنشر والتوزيع، ١٤٢٢ه/٢٠٠٠م، ص٢٥٧.

(٢٣) نولده: مصدر سابق، ص٩٣.

(٢٤) اوتينج: مصدر سابق، ٩٨.

(٢٥) نولده: مصدر سابق، ص٥١.

(٢٦) نفسه.

(٢٧) نولده: مصدر سابق، ص٩٢.

(٢٨) نولده: مصدر سابق، ٤٥.

(٢٩) الليدي آن بلنت: **رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية**، ترجمة وتعليق أحمد ايبش، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠٥م، ص٢٥٠.

(٣٠) محمود شكري الالوسي: **تاريخ نجد**، عنى بتحقيقه محمد بهجة الاثري، القاهرة، مكتبة مدبولي، القاهرة، د. ت، ص٢٠.

(٣١) بلنت: مصدر سابق، ص٢٨٢.

(٣٢) بلجريف: مصدر سابق، ص١٦١؛ اوتينج: مصدر سابق، ص١١٤؛ داوتي: مصدر سابق، ج٢، م١، ص١١.

(٣٣) بلجريف: مصدر سابق، ص١٩٧.

(٣٤) بلجريف: مصدر سابق، ج١، ص١٦٤؛ أحمد العريفي: مقامات حائلية، ج٢، ص٢١١.
(٣٥) اوتينج: مصدر سابق، ص١١٤.
(٣٦) عن أثر هذه الدعوة في انتعاش الحياة الفكرية بنجد على نحو عام انظر: عبد الرحمن بن أحمد البهكلى: **نفح العود في سيرة الشيخ حمود**، تحقيق محمد بن أحمد العقيلى، ط٢، جازان، مطابع جازان، ١٤٠٦هـ ص٣١٤، أحمد بن عبد العزيز البسام: **الحياة العلمية في وسط الجزيرة العربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجرين وأثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيها**، ط١، سلسلة الرسائل الجامعية رقم ١٣، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٦هـ
(٣٧) مجموعة مؤلفين: **مجموع الرسائل والمسائل النجدية**، ط٣، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٢هـ ج١، ص ٣٢٧.
(٣٨) مصدر سابق، ص ١٤٧-١٤٨.
(٣٩) فالين: مصدر سابق، ص ١٤٣.
(٤٠) البادى، عوض: **الرحالة الأوربيون في شمال وسط الجزيرة العربية:** منطقة حائل، ط١، دار برزان للنشر، ٢٠٠٤م، ص ١٧٥-١٥٩.
(٤١) مصدر سابق، ص ١٤٥.
(٤٢) بلجريف: مصدر سابق، ص١٦٠، ٢٨٥.
(٤٣) بلنت: مصدر سابق، ص٢٣٤؛ لوريمر: مصدر سابق، ج٦، ص٢٢٤٤.
(٤٤) انظر ترجمته عند: الهندي: مصدر سابق، ص٦٧.
(٤٥) انظر ترجمته عند: أحمد العريفي: علماء لبدة، ص٨٥.
(٤٦) انظر ترجمته عند: القاضي: مصدر سابق، ج٢، ص٣٩٠.
(٤٧) انظر ترجمته عند: القاضي: مصدر سابق، ج٢، ص١٣٤-١٣٦.
(٤٨) انظر ترجمته عند: الرديعان: منبع الكرم، ص٣٥٨-٣٥٩.
(٤٩) انظر ترجمته عند: الرديعان: منبع الكرم، ص٣٧٢-٣٧٤.
(٥٠) فهد العريفي: **قضاة مدينة حائل**، ط١، الرياض، مطابع دار الجسر، ١٤١٥هـ ص١٠٢؛ السويداء: مرجع سابق، ص ٣٤-٣٥.
(٥١) فالين: مصدر سابق، ص١٠٧؛ لوريمر: مصدر سابق، ج٦، ص٢٢٤٣.
(٥٢) هوبر: مصدر سابق، ص٥٩.
(٥٣) طارق المزينى: **النبذة عن مسجد مشايخ لبدة**، الرياض، ط١، الرياض، مطابع الحميضي، ١٤١٩هـ ص ٢١.
(٥٤) الرديعان: منبع الكرم، ص٤٩-٥١.
(٥٥) وينسب بناؤه لأسرة الجبارة خلال القرن الثالث عشر، ويقع قريبًا من مسجد لبدة. المزيني: مرجع سابق، ص٢٣.
(٥٦) ويقع إلى الغرب من مسجد لبدة. المزيني: المرجع نفسه ص٢٣.
(٥٧) ويقع في وسط مدينة حائل بالشارع الطويل، وينسب بناؤه للشيخ عيسى الحمود المهوست ١٣٥٠هـ الذي تولى الإمامة والتدريس به مدة من الزمن. الهندي: مصدر سابق، ص١٠٣، المزيني: مرجع سابق، ص٢٤.
(٥٨) ويقع داخل مدينة حائل، وينسب المسجد إلى الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الهندي، الذي ولد بالهند وتعلم بها العربية ثم هاجر إلى الرياض حيث أكرمه الإمام عبد الله بن فيصل آل سعود، واصطحبه معه إلى حائل وقدمه للأمير محمد العبد الله الرشيد، فأكرمه وأبقاه عنده وبنى له ذلك المسجد الذي عرف باسمه. الهندي: مصدر سابق، ص١٢١.
(٥٩) أحمد العريفي: مرجع سابق، ص٦٣.
(٦٠) عبد الله البسام: مرجع سابق، ج٥، ص٥٣٠.
(٦١) عبد الرحمن السويداء: **منطقة رمان**، ط١، الرياض، دار السويداء للنشر التوزيع، ١٤١٤هـ ص٨٥.
(٦٢) فهد العريفي: مرجع سابق، ص١٨.
(٦٣) الهندي: مصدر سابق، ص١٠.
(٦٤) حسان الرديعان: منبع الكرم، ص١٩٨.
(٦٥) عثمان القاضي: مصدر سابق، ج١، ص٣٥١.
(٦٦) فهد العريفي: مرجع سابق، ص١٩.
(٦٧) عبد الله بن زيد بن مسلم آل مسلم: **العقد المنظم في سيرة الشيخ عبد الله بن مسلم**، ط١، الرياض، مطابع الحميضى، ١٤٢٣هـ ص٤١؛ القاضي: مصدر سابق، ج١، ص ٣٧٨.
(٦٨) عبد الله البسام: مصدر سابق، ج١، ص٢٢٠.
(٦٩) حمد بن عبد الله المرمش: **الأزهار الندية في تراجم طلبة العلم في الغوطة البهية ما قبل المدارس النظامية**، ط١، حائل دار الأندلس للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ ص٣٩.
(٧٠) ويقصد بها البناية المخصصة للدراسة، والتي يقصدها طلاب العلم، ويتولى التدريس فيها معلمون وأساتذة وعلماء. إسماعيل سامعي: معالم الحضارة العربية الإسلامية، ط١، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٧، ص٣١٢.
(٧١) فالين: مصدر سابق، ص١٠٧.
(٧٢) نولده: مصدر سابق، ص٤٥.
(٧٣) داوتي: مصدر سابق، ص٦٧؛ سلطان الحماد: مرجع سابق، ص١٢٤.
(٧٤) الألوسي: مصدر سابق، ص٢٠.
(٧٥) إدوارد نولده: مصدر سابق، ص٣٥-٣٦، عبد الله البسام: مرجع سابق، ج٢، ص١٧، أحمد العريفي: مرجع سابق، ص٦٥، السويداء: الثقافة والتعليم في حائل، ص١٢٥.
(٧٦) صالح بن عثيمين: **تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة**، تحقيق بكر أبو زيد، بيروت، ط١، مؤسسة الرسالة، د.ت، ج٣، ص١٧٨٠، الزركلي: **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، ج٤، ص٢٠٨.
(٧٧) سليمان بن سحمان: **عقود الجواهر المنضدة الحسان**، أشرف على تصحيحه وضبطه وعلق عليه عبد الرحمن بن سليمان الرويشد، منشورات مؤسسة الدعوة الإسلامية، د.ت، ص١٩٢، والهندى: مصدر سابق، ص٣١، وعثمان القاضي: مصدر سابق، ج٢، ص١٥٠، وعبد الله بن محمد الطريقي: **معجم مصنفات الحنابلة**، الرياض، ط١ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٦، ص٣١١.
(٧٨) عثمان القاضي: مصدر سابق، ج١، ص٣٥٦، سليمان بن حمدان: **تراجم لمتأخري الحنابلة**، تحقيق بكر أبو زيد، ط١ ١٤٢٠هـ دار ابن الجوزي، ص١١٩-١٢٠، الهندي: مصدر سابق، ص٢٦، إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط١ ١٣٤٤هـ برقم ١٩٣٥م، ج٢، ص١٣٦، عبد الله بن زيد بن مسلم: **العقد المنظم في سيرة الشيخ عبد الله بن مسلم**، الرياض، ط١ مطابع الحميضي،١٤٢٣هـ ص٣٤-٣٧، عبد الله البسام: مرجع سابق، ج٢، ص٤٦٢، حسان الرديعان: مرجع سابق، ص١٧٠.
(٧٩) الهندى: مصدر سابق، ص٤٨، عبد الله البسام: مرجع سابق، ج٢، ص٢١١، السويداء: **حائل عبر التاريخ**، ص٦٣٠-٦٣٣.
(٨٠) ابن بشر: مصدر سابق، ج٢، ص١٠٤-١٠٦، الهندي: مصدر سابق، ص٧٤، فهد المارك: **من شيم العرب**، بيروت، ط٤ المكتبة الأهلية، ١٤٢٠هـ ج٣، ص٩٥٨، عبد الله البسام: مرجع سابق، ج٥، ص٤٥٢.
(٨١) نولده: مصدر سابق، ص٥١.
(٨٢) سليمان الدخيل: مصدر سابق، ص١٤٩-١٥٠.
(٨٣) مصدر سابق، ص٥٠-٥١.

(٨٤) آل الشيخ، عبد الرحمن بن عبد اللطيف: **مشاهير علماء نجد وغيرهم**، ط٢ دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٣٩٤هـ ج١، ص١٣٠-١٣١، البسام، عبد الله: مرجع سابق، ج٢، ص٤٦٢.
(٨٥) آل الشيخ: مصدر سابق، ص٢٩١-٢٩٢.
(٨٦) الرديعان، منبع الكرم، ص ٢١٥، خاتم الشمري: مرجع سابق، ص٥١.
(٨٧) البسام، عبد الله: مرجع سابق، ج١، ص٢٩٠.
(٨٨) البسام، عبد الله: المرجع نفسه، ج١، ص٢١٩.
(٨٩) الرديعان: منبع الكرم، ص١٣٩.
(٩٠) القاضي: مصدر سابق، ج٢، ص ٣٨٩، البسام، عبد الله: مرجع سابق، ج٦، ص٤٩٦.
(٩١) وصف الشيخ عبد الله بن عمرو -لأمير محمد بن رشيد في رسالته التي وجهها إليه -بالحلم والأناة والصفح عن العلماء. البسام، عبد الله: مرجع سابق، ج٤، ص٣٢٩.
(٩٢) السويداء: **منطقة حائل**، ص٥٢٩، خاتم الشمري: مرجع سابق، ص٥٤.
(٩٣) الرديعان: منبع الكرم، ص١٨٧.
(٩٤) العريفي، أحمد: علماء لبدة، ص٤٢.
(٩٥) القاضي، محمد عثمان: **روضة** الناظرين **عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين**، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٤٠٣هـ ج١، ص ١٧٢.
(٩٦) البسام، عبد الله: مرجع سابق، ج٢، ص١٧.
(٩٧) البادي، عوض: مرجع سابق، ص ١٩١-١٩٢.
(٩٨) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٩٣.
(٩٩) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان بدون رقم.
(١٠٠) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٥٨.
(١٠١) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٢-٤.
(١٠٢) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان بدون رقم.
(١٠٣) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم١١.
(١٠٤) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٦٧.
(١٠٥) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٨٥.
(١٠٦) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان برقم٦١.
(١٠٧) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٧٠.
(١٠٨) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم١١٦.
(١٠٩) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم ٢٢.
(١١٠) نسخة محفوظة في المكتبة الخيرية بحائل بدون رقم.
(١١١) نسخة محفوظة في مكتبة الشغدلي بدون رقم.
(١١٢) نسخ محفوظة في مكتبة البنيان برقم١٢،١٤، ١٧، ٢٠، ومكتبة الشغدلي بدون أرقام.
(١١٣) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٥٦.
(١١٤) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم١٦.
(١١٥) نسخة محفوظة في مكتبة الشغدلي بدون رقم.
(١١٦) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٧٥.
(١١٧) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم١-٤.
(١١٨) نسخة محفوظة في مكتبة الشغدلي بدون رقم.
(١١٩) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٨٨.
(١٢٠) حسان الرديعان: "نوادر المخطوطات"، ص ٤٨٠.
(١٢١) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٦.
(١٢٢) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٤١.
(١٢٣) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم١٢.
(١٢٤) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان بدون رقم.
(١٢٥) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٦٠.
(١٢٦) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان بدون رقم.
(١٢٧) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان برقم٥٥أ.
(١٢٨) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان برقم٣٩.
(١٢٩) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٥٧.
(١٣٠) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٢.
(١٣١) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان بدون رقم.
(١٣٢) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم١-١٠.
(١٣٣) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٢-١٠.
(١٣٤) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٢١.
(١٣٥) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٥٢.
(١٣٦) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٢-٤٢.
(١٣٧) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٤٢.
(١٣٨) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٣-٤٢.
(١٣٩) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٤٨.
(١٤٠) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٤٨.
(١٤١) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٣-٥٢.
(١٤٢) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٣-٥٨.
(١٤٣) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٢-١.
(١٤٤) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٤-٥٢.
(١٤٥) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٣٦.
(١٤٦) نسخة محفوظة في مكتبة الشغدلي بدون رقم.
(١٤٧) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم١-٢٦.
(١٤٨) نسخة محفوظة في مكتبة اليعقوب برقم٦-٢٦.
(١٤٩) التقت بها الرحالة آن بلنت في رحلتها إلى حائل ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م وذكرت أنها كانت زوجة لماجد بن حمود الرشيد. انظر كتابها: **رحلة إلى نجد**، ترجمة وتحقيق أحمد ايبش، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠٥م، ص٢٦٦.
(١٥٠) نسخة محفوظة بمكتبة الشغدلي/ دون رقم.
(١٥١) نسخة محفوظة بمكتبة الشغدلي/ دون رقم.
(١٥٢) انظر: ترجمتها عند دلال الحربي: **نساء شهيرات من نجد**، دارة الملك عبد العزيز، الرياض،١٩٩٨م، ص١٠٠-١٠٥.
(١٥٣) نسخة محفوظة بمكتبة البنيان، تحت رقم ٧٥م.
(١٥٤) نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/تحت رقم٧٥م.
(١٥٥) نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/تحت رقم٧٥م.
(١٥٦) نسخة محفوظة في مكتبة الملك فهد الوطنية من مجموعة مكتبة الرياض السعودية.
(١٥٧) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان بدون رقم.
(١٥٨) لم نعثر على تاريخ وفاتها.
(١٥٩) نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/ تحت رقم٧٥م.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

جوانب من الإصلاحات الإدارية في المغرب خلال عهد مولاي الحسن (١٨٧٣ – ١٨٩٤م)

د. محمد أيت صالح
أستاذ التعليم الثانوي
دكتوراه في التاريخ المعاصر من كلية الآداب
الرباط – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يتمحور هذا المقال حول الإصلاحات الإدارية في عهد السلطان مولاي الحسن (١٨٧٣–١٨٩٤)، والتي ساهمت في وضع اللبنات الأولى لتجاوز التأخر وتحديث المجتمع في مرحلة فاصلة من تاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر، مما ترتب عنه نتائج مهمة انعكست على كافة المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية. يبتدئ المقال بتعريف الإصلاح، باعتباره برنامجًا يشتمل على مختلف الإجراءات التنظيمية التي اضطر السلطان مولاي الحسن إلى إحداثها لتقوية بلده، ولمواجهة ضغوط الدول الأوروبية الاستعمارية. ثم يتناول السياق العام لظهور حركات الإصلاح في المغرب، ويرصد أبرز مظاهر الإصلاح الإداري، وخاصة إحداث أمانة الأمناء (وزارة المالية) ووزارة الأمور الخارجية، وإصلاح البريد وكيفية تكوين الأطر الإدارية. ويخلص إلى أن تجربة مولاي الحسن هي المنطلق لبروز فكرة الإصلاح في مغرب ما قبل الاستعمار، لأن هذا السلطان كان على وعي بضرورة التطور والخروج من وتيرة الركود. فشكل الإصلاح لديه قضية جوهرية لمواجهة مشاكل العصر التي تكاثرت وتعقدت في عهده.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٠	نوفمبر	٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر:	٢٦	فبراير	٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
الإصلاحات الإدارية، مولاي الحسن، تاريخ المغرب الحديث، الجهاز المخزني

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052959

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
محمد أيت صالح. "جوانب من الإصلاحات الإدارية في المغرب خلال عهد مولاي الحسن (١٨٧٣ – ١٨٩٤م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة -العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص٩٧ – ١٠٥.

مُقَدِّمَةُ

ساهمت الإصلاحات الإدارية في عهد مولاي الحسن (١٨٧٣-١٨٩٤) في وضع اللبنات الأولى لتجاوز التأخر وتحديث المجتمع في مرحلة فاصلة من تاريخ المغرب، مما ترتب عنها نتائج مهمة انعكست على كافة المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية، كما كان لها بالغ الأثر في التطورات اللاحقة التي شهدها المغرب على المستويين الداخلي والخارجي. فما المقصود بالإصلاح الذي يعنينا في هذا الموضوع؟ وما هي سياقاته المختلفة؟ وفي ماذا تتمثل أهم مظاهره؟

يمثل الإصلاح ظاهرة من مظاهر الوعي المرتبط بتدهور الأوضاع الداخلية والأخطار الخارجية المحدقة بالمغرب. وأعني به، مختلف الإجراءات التنظيمية والتجهيزات التي اضطر السلطان مولاي الحسن إلى إحداثها لتقوية بلده، ومواجهة ضغوط وتحديات الدول الأوروبية الاستعمارية. وهو ما كان يقتضي تغيير نظم الدولة وتوجيه نشاطها طبقا للتحولات السريعة والمستمرة، وبتقليد العالم الغربي واقتباس تقنياته وتنظيماته. وعليه، فالإصلاح هنا يستند إلى مدى الانفتاح على التجارب الأوروبية والنهل منها.

برزت حركات الإصلاح في المغرب من خلال الرد على الضغط العسكري الأوروبي الذي هدف إلى بسط سيطرته ونفوذه عليه بعد هزيمة إسلي سنة ١٨٤٤م أمام فرنسا وهزيمة تطوان سنة ١٨٦٠م ضد إسبانيا، مما انعكس سلبا على أجهزة الدولة سياسيا وعسكريًا واقتصاديًا، ومهد الطريق للاستعمار، وشكل نقطة تحول خطيرة في تاريخ البلاد؛ إذ انهارت سمعتها العسكرية لأول مرة في التاريخ الحديث، وثارت النفوس وقلت هيبة السلطان، وتسببت كذلك في صدمة عنيفة للمغاربة، ف"كانت مصيبة

عظيمة وفجيعة كبيرة لم تفجع الدولة الشريفة بمثلها"[١]، وكان الأثر النفسي لها قويًا، حيث أحدثت اضطرابًا في كل أنحاء البلاد، وشجعت التسرب الأجنبي، واستفحلت ظاهرة الحماية القنصلية، وتسببت في أزمة مالية خانقة، أدت إلى إفراغ الخزينة، نتيجة الغرامة الحربية التي فرضتها إسبانيا على المغرب مقابل الجلاء عن تطوان.

إضافة إلى الضغط العسكري، أرغم مسلسل الضغط الاقتصادي الأوروبي المخزن على توقيع اتفاقيات غير متكافئة، تهدف إلى إرساء دعائم التسرب الأوروبي، بما نصت عليه من امتيازات للتجار الأجانب، فقد أقرت اتفاقية ١٨٥٦م مع بريطانيا، مبدأ حرية التجارة وألغت معظم الاحتكارات السلطانية، وحددت الرسوم الجمركية في ١٠%. كما منحت حرية التنقل للتجار البريطانيين وحق الملكية داخل المغرب، وفي ميدان القضاء تم الاتفاق على خضوع الأجانب لقوانين بلادهم، حيث أصبح للقنصل البريطاني الحق في الفصل في القضايا التي يكون الأجنبي طرفًا فيها، وأعطت أعوان القناصل وسماسرة التجار وشركاءهم امتيازات قضائية وجبائية. وشكل توقيعها مسا خطيرًا بالبلاد، ذلك أن مراقبة التدخل الأوروبي أفلتت من يد المخزن، ففي صراعه ضد الإمبريالية الأوروبية، فقد المغرب واحدًا من أهم أسلحته، ويتعلق الأمر هو بالتشريع الجمركي، كما تخلى عن حقوقه القضائية تجاه الأوربيين والمحميين من المغاربة، وأخلت معاهدة ١٨٥٦م بالتوازن لصالح بريطانيا، ومن ثم ساهمت في إذكاء النزاعات بين القوى الأوروبية المهتمة بالمغرب، فحاولت هذه الدول الحصول على امتيازات جديدة لصالحها، وهو ما تأتى لإسبانيا في اتفاقية ١٨٦١م التي منحت حق الملكية العقارية للرعايا الإسبان، وفتحت أمامهم موانئ المغرب ومصايده الساحلية وحددت حقوق التصدير، وأكدت حق الحماية الإسبانية للرعايا المغاربة. كما وقع المغرب نفس الاتفاقية مع فرنسا سنة ١٨٦٣. وهكذا وضعت هذه الاتفاقيات الأسس القانونية لعلاقات المغرب مع أوروبا بعد أن أخذ نفوذها يتصاعد دون أن يستطيع المخزن إيقافه، وازدادت تبعية المغرب لها.

ولم يستطع الجهاز الإداري المخزني مواجهة هذه الضغوط الأوروبية في بداية القرن التاسع عشر؛ لأنه كان جهازا بسيطا ومتواضعا في تنظيماته، وكان عدد أفراده قليلاً وغير مستقر، كما طبعته المرونة التامة في تحديد مهام كل فرد؛ لأن ذلك كان يتوقف على مقدرتهم أو طريقة تعاملهم، وعلى مدى اهتمامات السلطان أكثر مما يتوقف على أعراف وتقنيات إدارية. واستمرت هذه البنية حتى منتصف القرن التاسع عشر، حيث بدأ المخزن يطور هياكله بحكم الواقع الجديد، بعد أن اضطر السلطان محمد بن عبد الرحمان (١٨٥٩-١٨٧٣م) إلى إعادة النظر في كثير من مؤسسات الدولة سواء في الميدان الإداري والعسكري، أو في المجال المالي أو الجبائي والنقدي، أو في ميدان التجارة الخارجية. وقد توسعت دائرة هذه الإصلاحات في عهد خلفه مولاي الحسن (١٨٧٣-١٨٩٤م)، الذي ورث مغربًا مطوقًا بالكثير من المشاكل، وكان عليه أن يبذل جهودا جبارة لإخراج البلاد من الورطة التي توجد فيها، وهو يواجه التهديدات الأجنبية والإمكانيات المادية المتواضعة، والأوضاع الداخلية المتردية بفعل غياب الأمن الناتج عن انهيار السلطة، وانتشار التمرد في كل أنحاء البلاد، وعيش السكان تحت رحمة ظاهرة اللصوصية وقطاع الطرق[٢]، وقد دفع هذا الوضع مولاي الحسن إلى التوجه نحو الخارج قصد الاستفادة من الخبرات الأجنبية من أجل النهوض بأوضاع مجتمعه في كافة الميادين، وأدرك حتمية نهج سياسة إصلاحية، تهم عدة مجالات من بينها الميدان الإداري، الذي كان فيه للمقترحات الأوروبية، وضغوطها، وخاصة من بريطانيا، دورًا كبيرًا للشروع فيها. فما هي أهم **الإصلاحات الإدارية التي شهدها المغرب على عهد مولاي الحسن؟**

تابع مولاي الحسن سياسة الإصلاحات الإدارية التي بدأها سلفه[٣]، بعد تفطنه إلى أن البناء التقليدي للدولة المغربية المرتكز على الأنظمة العتيقة لم يعد صالحا لمواجهة مشاكل العصر ـ التي تكاثرت وتعقدت، ولم يعد مجديًا إزاء التقدم الأوروبي الحديث، لذا فالإصلاح بالنسبة إليه أصبح قضية حيوية وضرورية للخروج من وتيرة الركود والإحجام، وتكوّن في نفسه شعور بالحاجة للتجديد وانتحال وسائل التقدم والنهوض. كما أدرك أن الزمن تبدل وأن إكراهات الواقع لا حد لها، وأن استشارة الفقهاء أصبحت لا تجدي نفعًا كثيرًا، فقرب منه النخبة التجارية الحضرية العارفة بأحوال المال والأعمال في العالم المعاصر، فأصبح العمل من أجل إصلاح الدولة وتقوية أسسها قناعة لا مندوحة عنها بالنسبة إليه، إن لم نقل اختبارا له لقياس حدود تقبل مكونات المجتمع المغربي لمبدأ التحول والتغيير من عدمه، لأن" التجديد منه ما يكون ظاهريًا، ومنه ما يكون باطنيا، ومنه ما يظهر نتائجه للعموم وتناله الفهوم، ومنه ما سره مكتوم لا يظهر إلا للخصوص... وهذا الإمام الذي ألقت إليه خلافة الله في أرضه الزمام، فإلقاؤها الرسن إليه، وقع في حيز إبان التجديد من غير خلف ولا ترديد، وطاوعته بحسن الانقياد وكمال التمهيد، حتى فيما كان يجرم أنه لا يدرك من كل إقليم وقطر صعب أو بعيد"[٤].

والواقع أن إصلاحات مولاي الحسن قد تمحورت حول قطاعات على درجات بالغة التأثير والأهمية، فمنها ما له صلة بالأمن والحدود والوحدة الترابية بالعمل على إصلاح الجيش، والنظام الجبائي الذي أصبح موضوع استفهام واستياء بعد حرب تطوان، وما نجم عنها من مشاكل مالية. وأخرى لها علاقة بوضعية المغرب الجيو-استراتيجية ومكانته داخل التيارات التجارية الدولية، وأخرى ذات صلة أساسًا رهانات القوى الأوروبية الرامية إلى إدماجه بالمنظومة الدولية الرأسمالية وربطه بمحاورها وأسواقها الاقتصادية. كما عمل السلطان على القيام الإصلاحات في مجالات مختلفة، من بينها الإدارة التي تعرضت لنقد أوربي من طرف السفراء والقناصل والتجار والرحالة، ولنقد محلي من العلماء والفقهاء[٥].

كان هدف السلطان مولاي الحسن من الإصلاح الإداري هو تكوين موظفين مدربين مختارين، يتقاضون رواتب معلومة، ويطبقون قوانين عامة ويخضعون لتنظيم محكم، قصد بناء مؤسسات قادرة على الاضطلاع بالدور المنتظر منها، والضرب بيد من حديد على موظفي الدولة المتهاونين، والقضاء على عوامل الاستبداد والظلم، وسد الفراغ الذي تشكو منه البلاد في بعض الميادين. فقام بتدعيم الوزارات السابقة(٦) وتوسيعها مع مراعاة عناصر الكيف والتخصص، كما أنشأ وزارات جديدة.

١-أمانة الأمناء

كان ارتشاء الموظفين وخاصة العاملين في المالية من أسباب عدم فعالية الإدارة، ومن دواعي تذمر السكان. وقد وصف دراموند هاي (Dramand Hay) حالة التلاعب في المراسي بقوله:"...فلا أننا نستغرب في هذا النهب، حيث أن كثيرا من الأمناء لا يتوصلون للخدمة إلا بإبدال الرشاوي لكبير الأمناء وغير الخدام بالحضرة الشريفة، وحيث هذه الرشاوي هي قدر ما يقبضه المهدي والمرتشي في ستة أشهر أو نصف ذلك...فلا بد من التأمل كيف يكون دواء هذا...إذ غض الطرف عن الأمناء يزعم الغير في زيادة الفساد للذين هم عليه"(٧). كما هدف المخزن الحسني في ضبط شؤون المراسي، الرفع من مداخيلها والتمكن من تسديد ما تبقى من الغرامة الحربية الإسبانية، وأقساط القرض الإنجليزي. علاوة إلى توفير نفقات للإصلاحات التي باشرها في الميادين الأخرى، وحماية بيت المال من النهب(٨). وكان للمالية ضمن الإصلاحات في فترة مولاي الحسن نظاما خاصا، فأصبحت ذات أهمية واضحة، بإعادة تنظيم جهازه المالي الذي يتولاه "أمين الأمناء".

يباشر أمين الأمناء الأمور المتعلقة بأملاك وأموال المخزن، ويؤدي النفقات ورواتب المستخدمين والجند والصلات للأشراف والأعيان وذوي الفاقة ومؤونة دار المخزن. ويقبض بواسطة الأمناء الضرائب المختلفة وأعشار الديوانة والمستفاد وأكرية الأملاك المخزنية، وما ينزع من أموال العمال والقواد من أهل الظلم والغصب(٩)، ويراقب السلع ليعلم هل خضعت للضريبة الجمركية أم لا. وبالجملة، فإنه يشرف على بيت المال ويباشر جميع المداخيل والمصاريف للمخزن. ويدخل في اختصاصاته أيضا النظر في تعيين أمناء المراسي والأملاك المخزنية والمستفادات، وفرض مراقبة صارمة عليهم، وهذا ما جعله يتنقل باستمرار لتفقد أحوالهم ويراجع أعمالهم. وكان تعيين مختلف الأمناء في سائر الجهات رهن إشارته بعد موافقة السلطان(١٠).

ونظرًا لأهمية منصب المالية باعتباره وظيفة عالية، فإن المخزن كان يوليه يأخذ من المخزن أهمية عظمى، ولا يسند مهمة الإشراف عليه إلا للمقتدر الكفء من ذوي المروءة والدين والمعرفة. وقد تولى محمد التازي هذا المنصب في سنة ١٢٩٦/١٨٧٩، حيث "أسند إليه أمر خراج المغرب ومراسيه ومستفاداتها وما يتبع ذلك من صوائرها، وفوض إليه في ذلك تفويضا تاما لعلمه وأمانته وضبطه؛ لأنه "من أمثل أهل المغرب وأصدقهم وأنصحهم للسلطان، وأشدهم غيرة على الدين والوطن، حتى لو كان في الدولة عشرة رجال على شاكلته ومذهبه، لكان يظن أن يكون لها بذلك النجاح التام"(١١). وكان التازي يمارس التجارة، وجاب كثيرا أقطار أوروبا، وفي سنة ١٨٨٧ أسس فرعًا تجاريًا بجبل طارق(١٢)، مما أكسبه دراية بالمال وشؤونه. وبعد تعيينه، أصبح للتازي وحده حق التصرف في عزل وتنصيب من يريد من الجالسين بأماكن القبض من جهة، ومحاسبتهم وحيازة ما يتحصل بأيديهم ودفعه لأمناء دار العديل من جهة ثانية. بحيث من استحسن إقراره على الجلوس بمحل من تلك المحال يقره، ومن أراد عزله وإبداله يعزل ويبدل بغيره(١٣). وبهذا صار التازي يدبر شؤون قطاعه بكثير من الاستقلالية. وكان لأمين الأمناء بنيقته، كمقر خاص به للعمل بدار المخزن على غرار باقي الوزراء.

شرع التازي في ترتيب مستفادات فاس وفق ما أمر به، وقام بعزل بعض المسؤولين وتنصيب آخرين بدلهم، وذلك ما يتضح من الرسالة التالية: "وبعد فليكن في علم سيادتكم أننا لما شرعنا في الخدمة، وصرنا نتفقد جلاس كل محل، فظهر لنا إبدال جلاس سوق البهائم، فجعلنا فيه الحاج محمد الموفق والحاج أحمد بنونة، وقد ظهرت نجابتهما في المدخول حسبما يصلكم بعد هذا، وكذلك وجدنا فندق الجلد لا نحصل فيه على طائل، فظهر لنا إبدال من وجدنا فيه، وجعلنا مكانهم الأمين الحاج محمد القباج والحاج محمد أزويتن، وها نحن نرتب الأماكن عن جد إن شاء الله"(١٤).

وقد ظل منصب أمين الأمناء من اختصاص عائلة التازي. فبعد وفاة محمد التازي عام ١٨٩٠، عين السلطان أخاه عبد السلام خلفا له، وكان بدوره من كبار التجار مع أوروبا، وشغل أمانة بعض المراسي. وقام كسلفه بتوجيه رسائل للأمناء يحثهم فيها على احترام مهامهم، ومن ذلك توبيخه أمناء مرسى العدوتين على تعيينهم ليهودي كقابض لواجبات الأبواب باعتباره مخالف لعوائد وحقوق المخزن الذي لا يسلم هذه الوظيفة إلا للمسلمين(١٥). ومن الإجراءات المتخذة لترتيب الجهاز المالي، أنه تم تعيين أمناء من بعض قبائل الجنوب لأول مرة بواسطة ظهائر. وأمر السلطان بدفع جميع تعويضات السفر للأمناء الجدد للالتحاق بمقر عملهم. ووجه أوامره لعمال المدن بشد أزر الأمين حتى لا يتعرض لمشاكل أثناء مزاولته لعمله. وخضع الأمناء الجدد للتدريب تحت إشراف نظرائهم المقالين، وكان جلهم في المدن من عائلات غنية ومشهورة مثل الحاج عبد السلام لحلو(١٦).

ويبدو أن اختيار الأمناء من بين الأغنياء، يرجع إلى أن ثروتهم تشكل ضمانة مادية، تمد الدولة إليها يدها عند الاقتضاء، ولأن يسرهم المادي من شأنه أن يكف أطماعهم في مال الرعية والدولة(١٧). كما تم اختيار أمناء المراسي والمستفادات من أهل التجارة؛ لأنهم أعرف الناس بالسوق والمبادلات وأكثرهم اتصالا بالأجانب، مما يكسبهم خبرة مالية ودراية في المعاملات لا تتوفر لغيرهم. هذا وقد عين المخزن الحسني في كل مرسى ثلاثة أمناء،

الأولين أجنبيين عن المرسى، والثالث هو الذي يكون من أهل المرسى، ويعملون بمقر يعرف بـ "دار الأعشار" لمراقبة تجارة المغرب الخارجية، وتحصيل الرسوم الجمركية على السلع الصادرة والواردة، والإنفاق مما تجمّع لديهم في مختلف الأوجه، كتسديد ديون الدول الأجنبية على المغرب، وأداء أثمان المشتريات ونفقات الإصلاحات ورواتب الموظفين، وتجهيزات المرسى الضرورية ونفقات المدينة والمناطق المجاورة للمرسى، وتعهد أملاك المخزن والمنشآت العمومية[١٨]. غير أنه لا يسمح لهم بتصدير بعض البضائع مثل الزيوت، كما تم تحديد فترة إباحة تصدير الحبوب.

ويتولى أمناء المستفاد الإشراف على جباية الضرائب على التجارة الداخلية وموارد الأملاك المخزنية وتركات من لا وارث له، وفوائد البريد والجزية، وبعض الأعشار العينية وهدايا الأعياد التي يتكلف بها العامل بجمعها وتقديمها للسلطان. كما يتولون أمر تكاليف النهوض بالحركات بشراء عدد من التبن والشعير لعلف الدواب، وصنع الخزائن والبرادع والعدد اللازم من قروش المجال، قدر بألف وخمسمائة قرش[١٩]. ومن المهام المضافة للأمناء في عهد مولاي الحسن الإشراف على تكاليف ونفقات الطلبة الموجهين إلى البلاد الأجنبية، ومن ذلك ما نستشفه في قوله: "وبعد، فقد وجهنا صحبته خمسة عشر من نجباء الطلبة بقصد التوجيه لبر النصارى لتعلم طبجيت والهندسة... كما أمرنا الأمناء أن ينفذوا لهم مدة إقامتهم بطنجة"[٢٠].

وحرص السلطان على اختيار الأمناء من أهل الجد والصدق، ليكونوا مكلفين بقبض المداخل في المراسي، وأمر بعدم تدخل العمال في شؤونهم، وألا تكون وساطة بينهم وبينه. ومنعهم من ممارسة أي نشاط تجاري بالمراسي التي يشتغلون بها، وإقرار مرتب شهري لهم، ومن ثبتت خيانته يعاقب كالسارق[٢١]. وأحدث مولاي الحسن مصلحة تقوم بتخليص القوائم الواردة من المراسي وغيرها، وتسجيلها بالدفاتر المعدة لها، قصد الاهتمام المتزايد بالسجلات والمستندات والتدقيق في الحسابات ومراقبة صحتها بوسائل مختلفة، لتنظيم الأجهزة المخزنية وتطوير أساليب الضبط الإداري[٢٢]. كما قام السلطان بتعيين أمناء جدد على الصعيد المحلي إلى جانب القواد من أجل استخلاص الجبايات، وكانوا يختارون من رجال القبيلة من فئة الأعيان. وكانت مراسلات الأمناء المحليين لا تصل إلى الأمناء المركزيين، وإنما تصل إليه ليفتحها بنفسه إذا ارتأى فائدة ذلك. وكانت أوامر الأمناء المركزيين وملاحظاتهم لا تأخذ طريقها إلى المحليين إلا إذا تمت موافقته عليها، فالكل مسؤول عن تصرفاته أمامه[٢٣].

ومن جانب آخر، كان الأمناء يخبرون السلطان بتجاوزات العمال بما يجري في مناطقهم من أحداث وممارسات كيفما كانت أهميتها، ويبدو أن العاهل قد خول لهم هذه الصلاحيات، كما جاء في ظهير تعيين مولاي الحسن بعض الأمناء بقوله: "يعلم من كتابنا هذا...أننا...ألباسنا خدامنا الطالب عبد المالك الزيراوي اليسفي والطالب صالح بن الهاشمي...فالأولون أمناء وعلى كل شاذة وفادة شهداء"[٢٤]. ويشهد على ذلك أيضا ما جاء في رسالة أمناء أيت عياش إلى السلطان في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٠٣/١٨٨٦ قائلين:"...فليكن في كريم علمك أن فرقة من أيت عياش إيالة العامل عبد الوهاب اسمهم أيت علي بوبكر، وجب لهم ثلاثة حراك وتعرض لهم العامل المذكور، وأخذ من كل واحد منهم خمسة وثلاثون ريالا وامتنعهم من الحركة الشريفة، وعليه سيدنا كتبنا لك بهذا، لتكون على بال منه، لئلا يشتكي عليك بفسادهم، وقد أخبرناك لتكون على بال منه، لئلا يقلب لك الحقيقة"[٢٥].

وكان السلطان مولاي الحسن ينوي تعيين أجور للوزراء، إلا أنه كان مقتنعا أنه حتى ولو فعل ذلك، فلن يقطع دابر الرشوة؛ لأن المسؤولين اعتادوها[٢٦]. وقد اعترف السلطان بنفسه، أن الرواتب التي يتقاضاها رجال المخزن لا تكفيهم، وذلك ما نستشفه من كلامه لمحمد بركاش: "وكون سفرك يلزمك في صائره على نفسك فيما لابد منه الألف ريال في تعداد الكساوى لك، وما يناسب لأصحابك والفراش...وراتبك لا يكفيك لصائرك بطنجة فضلا عن صائرك بالرباط"[٢٧]. وبرر السلطان ضعف الرواتب بقوله: "وما ذكرته من كون راتبك لا يكفيك لصائرك...فإنا نعرف ذلك ونعتقده ونحن أولى بمواساتك وإعانتك، وكل ما يعطى لك في محله، لولا أن المخزن اليوم واجب أن يعان ولا يخفاك ما نخرجه كل شهر في مشاهرات النجليز والصبليون والآلات الجهادية والبناء لها"[٢٨]. وبهذا تعددت مهام وأدوار الأمناء، بهدف السهر على مصالح المخزن المركزي المالية وتأمين موارده، وتسهيل مأموريته، وإعلامه بدقائق الأمور الجارية في مناطقهم.

٢-وزارة الأمور البرانية "الخارجية"

يبدو أن وزارة الأمور البرانية تكونت بعد الاتصالات المكثفة والمتصلة مع الدول الأوربية التي أخذت تتنافس من أجل السيطرة على المغرب. ولتطور مسألة المحميين التي أسفرت عن صعوبات في العلاقات السياسية بينه وبين هذه البلدان، حيث تطاول المحميون على الحكام المخزنيين، وتفاحش أمرهم إلى أن وصلت الحالة إلى درجة كاد أن يتعذر معها تنفيذ أوامر المخزن في الرعية، وبدأ ترامي الأجانب والمحتمين على أراضي الدولة، ويشهد على ذلك ما جاء في رسالة السلطان: "فقد بلغنا أن أرض المخزن التي بناحية طنجة وقع الترامي عليها وتناولتها الأيدي من غير موجب، وأن كل من يملك بإزائها خمسين خطوة استولى على مائة وخمسين مما والاها من أرض المخزن، حتى أدى ذلك إلى الاستيلاء على غالبها"[٢٩]. وأمام هذا الواقع الجديد ازدادت الحاجة إلى جهاز إداري يعالج هذه القضايا الدبلوماسية، فعجل بتأسيس وزارة الشؤون البرانية سنة ١٨٨٥.

كان من مهام وزير الخارجية مراسلة ممثلي وسفراء الدول الأوروبية والقيام بالوساطة بينهم وبين السلطان[٣٠]، والاهتمام بالجوانب الدبلوماسية والعلاقات مع القوى الأجنبية[٣١]، بوضع الاتفاقيات والمعاهدات معها، وتحرير الرسائل الموجهة إليها، والقيام بدراسة شؤون كل بعثة أجنبية في المغرب[٣٢]. كما كان يتلقى الشكاوى والالتماسات من ممثلي الأجانب، ويبلغ إليهم

أجوبة المخزن. ويراسل الممثلين المخزنيين المحليين فيما يتعلق بقضايا المحميين، وبكيفية معاملات الأجانب في مناطقهم[٣٣]، بعد أن صارت الحمايات كارثة بعد حرب تطوان. وكانت هذه الوزارة تنظر فيما اغتصب من حقوق المغاربة بالإكراه من طرف الدول الأجنبية كالسرقة[٣٤] من غير اعتماد لا على نصوص المعاهدات ولا على تشريع مغربي داخلي. وقد عبر مولاي الحسن عن خطر هذا المشهد قائلا: "إن إدارتنا تكاد لا تجد في البلاد من هو باق تحت سلطانها من جراء ما منحته الدول الأجنبية من حمايات غير مشروعة"[٣٥].

وتعالج هذه الوزارة مشاكل اليهود داخل المغرب[٣٦]، ويتضح ذلك من خلال معاتبة وزير الأمور البرانية للقائد محمد ويدة السوسي على معاملته السيئة لليهود، ووعدهم بأن يكونوا في أمن وآمان باعتبارهم أهل ذمة السلطان، وشدد الوزير على أن السلطان أمره بحسن معاملتهم بمثل ما يعامل به نظرائهم المسلمين[٣٧]. ويتكلف وزير الأمور البرانية، بشؤون القرصنة ومشاكلها أو بقضايا الأسرى وافتكاكهم، وكان هدف هذه الوزارة الدفاع باللسان والقلم وسلوك سياسة التوازن، التي تدور على استغلال التنافس الدولي حول المغرب، ومماطلة نواب أوربا في مطالبهم. كما تعمل هذه الوزارة على المحافظة على حدود المغرب التاريخية ومقاومة التدخل الأجنبي وتطوير علاقات المغرب مع بعض الدول الأوربية. ويترأس وزير الأمور البرانية حفل استقبال سفراء الدول الأجنبية بمعية قائد المشور وعامل البلدة[٣٨]. ويعتبر آخر من يستقبله السلطان من الوزراء.

تولى منصب وزير الأمور البرانية في عهد مولاي الحسن، السيد محمد المفضل غريط، وقد وجاء في ظهير تعيينه ما يلي: "...وقد كلفنا كاتبنا الطالب محمد غريط بمباشرة ما يرفع منها (الرسائل) لحضرتنا الشريفة، وبأجوبة النواب عنها، وخصصناه بذلك اعتناء بشأنها...على أن كتابتهم لحضرتنا الشريفة إنما هي على المحبة والسر، وإلا فالأمور الرسمية المخزنية من وظيفة نائب المخزن بطنجة...والكثير منهم يراعي هذا، ويكتب لحضرتنا الشريفة بتكليف نائب المخزن بطنجة بمباشرة فصل دعاويه"[٣٩].

٣-تنظيم الكتابة

نظم مولاي الحسن مصلحة الكتابة، وقسمها إلى عدة دواوين، بلغ عددها ستة وجعل على كل واحد منها رئيس له عدة كتبة، منها ما كتابه يبلغون الستين، ومنها ما يبلغون العشرين ففوق، ومنها ما دون ذلك، والجميع في شغل شاغل مما يصدره لهم عن السلطان مولاي الحسن عن نظره ورأيه وأمره[٤٠].

٤-تنظيم البريد

اتخذ المخزن الحسني البريد وسيلة لمهماته السياسية والإدارية وجعل له ثمانية خطوط. إذ حاول السلطان أن يرتب البريد المغربي ترتيبا محكما. وشرع في ذلك سنة ١٨٩٢م، انطلاقا من مدينة الجديدة إلى مدينة مراكش بقصد التجربة. ثم وضع تخطيطا لتعميمه بين مدن سائر البلاد. ومن التدابير التي قام بها في هذا المجال أن السلطان حدد لحملة البريد الأجرة في حالة القيام بالمهمة بالفعل، وهذا ما يفهم من كلامه: "يكتب (الرقاص) لأمين الرباط بالعذر المانع من رجوع المنهض من قبله ليصير له أجرة الذهاب فقط التي هي نصف أجرته المعتادة للذهاب والإياب، وهو يصير أجرة ذهاب المنهض من قبله بدلا"[٤١].

كما جعل السلطان لكل مدينة طابعان، أحدهما يطبع به على المكاتيب والآخر يطبع به على الشكارة، ويتخذ الأمناء المأمورين بإنهاض الرقاصين ما يكفيهم من الحقائب الجلدية، ويصير ثمنها في حساب المكاتيب. ويسجل كل أمين عدد الرسائل الموجه لكل أرض مع الرقاص. وعند تسليمها من طرف أمين آخر، يضع عليها طابعه كدليل على توصله بالمكاتيب[٤٢]. ويدون الأمين الصائر على الرسائل في الحقائب وأجرة حملة البريد. وقد حددت أثمنة المكاتيب حسب وزنها، فمثلا إذا كان وزنها نصف أوقية فالثمن هو أقل من ثمان موزونات[٤٣]. ويلزم الأمناء بعد كل ستة أشهر أن يوجهوا تقارير حسابية تتضمن تفاصيل المداخيل والمصاريف المتعلقة بالبريد إلى السلطان[٤٤].

٥-إصلاح الإدارة المحلية

لاشك أن التطورات الاقتصادية والسياسية التي جدت في المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر نتيجة الضغوط المالية والاقتصادية الأوروبية المتصاعدة - وما ترتب عنها من انعكاسات سلبية على معاش السكان وبيت المال- ، قد أرغمت المخزن على إعادة النظر في هياكل الإدارة المحلية بكيفية تمكنه من الحصول على المزيد من الإيرادات المالية. حيث أخذت الأمور بمجيء السلطان مولاي الحسن تتغير وتتخذ مسارا آخر، بعد أن أدخل على إدارة القبائل عدة إصلاحات، وأعاد تنظيمها على أسس تنطوي على شيء من الجدة. وكانت سياسته في هذا الباب، ترمي إلى تفتيت العصبيات القوية وتفريق كلمتها حتى يتسنى للدولة إحكام قبضتها على الرعية، وإخضاعها لسلطتها ونفوذها. ومن جهة أخرى تهدف إصلاحاته المحلية إلى إضعاف نفوذ كبار القواد، والحد من سلطتهم ونفوذهم، ووقف الصراعات بينهم حول مناطق النفوذ[٤٥]، وتعويضهم بعدد من القواد الصغار. كي يسهل على السلطان مراقبتهم، والضرب على أيديهم كلما استوجب الأمر ذلك، "ونهى القواد عن أخذ أموال الرعية والدعيرة بالمال، وأعلمهم بأن لا يدفع أحد لعامله شيئا إلا عن إذنه"[٤٦].

ومن أجل وضع حد لتصرفات القواد، قسم مولاي الحسن القيادات القديمة إلى قيادات ثانوية وأحدث قيادات جديدة، فصار التقسيم الإداري للإيالة المغربية موزع على ثلاثمائة قيادة[٤٧]، وعين عددا من القواد وكلفهم بالوقوف في عين المكان على عملية عد رؤوس الماشية واستخلاص مستحقات المخزن من واجب الزكاة

والأعشار والغرامات، فمثلا قسم سوس تقسيما إداريا انبنى على تعيين عدد من القواد، حيث عين على كل فخدة أو فرقة صغيرة من قبيلة قائدا أو خليفة، فعين مثلا على "هوارة" وحدها ١٠ قواد[٤٨]. وتضمن إصلاح الإدارة المحلية ممثلين اختلفوا من حيث انتماؤهم القبلي ومصدر اختيارهم. وأسند لوفود القبائل اختيار القواد والشيوخ، بينما تولى السلطان إصدار ظهائر التولية لتحديد سلطة ممثلي المخزن المركزي بالقبيلة.

وينقل السلطان نفس القائد من منطقة إلى أخرى لمصلحة معينة. ومن ذلك أنه عزل قائد الدار البيضاء محمد بن إدريس الجراري، وولى مكانه عبد الله بن قاسم حصار السلاوي، ثم كتب إليه السلطان وعينه على الجديدة قائلا: "خديمنا الأرضى الطالب محمد بن إدريس الجرار...فقد أعفيناك من ولاية الدار البيضاء ووليناك على الجديدة، ولم نعزلك عنها سخطا لسيرتك ولا هضما لجانب خدمتك، وإنما اقتضت المصلحة ذلك تقديما للأهم فالأهم، وأنت منا وإلينا ودارك دار الخدمة والصلاح فلا نسلمكم ولا نفتكم ولا نهضم لكم جانبا"[٤٩]. وكان السلطان يختار القواد من ذوي الرأي السديد، ويتضح من رسالته بقوله: "وقد نصبنا قائدا من قواد جيشنا السعيد، مختارا من ذوي الرأي السديد، وأقمناه بقصبة تيزنيت محل المخزن في القديم، بقصد أن يكون إعانة لسائر عمال القطر السوسي"[٥٠].

كما تخلى مولاي الحسن عن السياسة المتبعة زمن أبيه، والتي كانت تقتضي إبدال العمال كلما ثارت عليهم قبائلهم، لما تنطوي عليه من تشجيع للقبائل على التمرد، والنسج على منوال جده عبد الرحمان الذي كان يرفض الرضوخ لطلب القبائل الملحة على تبديل عمالها للمحافظة على هيبة المخزن[٥١]. وقد حاول السلطان وضع حد لتمرد الرعية على القواد ليجعلهم في مأمن من أي اعتداء أو قهر. فيقوم بذلك بواسطة "الحركة". ومن ذلك إلقاء القبض في ذي الحجة سنة ١٢٩١/١٨٧٤ على مائتين وثمانين شخصا من أولاد أبي السباع الذين خرجوا عن القائد العربي الرحماني، وأرغمهم السلطان على أداء ستين ألف ريال ذعيرة لهم على التمرد وإيقاد نيران الفتن، ولم يسعهم إلا بيع ماشيتهم بأبخس الأثمان وأدائهم هذه الغرامة[٥٢].

وكان السلطان يصادر ممتلكات القواد وثرواتهم سواء عند نكبتهم أو هلاكهم، وفي هذه الحالة يجرد القائد من الأراضي التي كانت تسندها إليه القبيلة عند ولايته، وينزع منه جميع ما جمعه من أموال طيلة حكمه. إذ كان السلطان يعتبر أن ما يوجد في ملك القواد من أموال وثروات هو في النهاية ملك لبيت المال. وإن كان جل القواد يلجؤون إلى إخفاء ثروتهم بوسائل شتى، كشراء الذهب والمسكوكات وإخفائها في باطن الأرض أو توزيع قطعان الماشية على أقاربهم وشركائهم، كلما أحس القائد بقرب تنحيته. ومما يشهد على ذلك ما يلي: "وبعد، وصل كتابك جوابا عما أمرت به عن الأمر الشريف من البحث من متروك الحسن البومدادي، بأنك بالغت في البحث عنه حتى حضر لديك من بهائمه ما قيدته طرة كتابك، وما تحصل لديك توجيهه، وصار بالبال، فقد وصل الكل، وجد في تحصيل الباقي."[٥٣] وكان الأمناء والشيوخ يلقون المصير نفسه.

وكان السلطان يتدخل لحماية حدود اختصاصات موظفيه، مثل حل النزاع بين المحتسب البوكيلي وعامل مراكش ابن داود، حيث أمر العامل على عدم الترامي، وكفه عن الدخول في غير ما هو منوط به، وأمره عند الوقوف عند حده والخروج من خطة الحسبة[٥٤]. وبهذه الإجراءات، حاول السلطان أن يضع في أنحاء البلاد قوادا مرتبطين بالسلطة المركزية، وذلك للقضاء على التحركات الفردية، وتوقيف تمرد السكان على المخزن، وتدجين البنيات القبلية حسب استراتيجية مركزية. ويمكننا القول في هذا الصدد أن منصب القائد، هو منصب فيه الالتقاء بين المؤسسات القبيلة الجماعية والمؤسسة المخزنية المركزية، فالقائد يحتل نقطة المواجهة بين قوة القبيلة وقوة المخزن.

٦-تكوين الأطر الإدارية

وجد السلطان مولاي الحسن نفسه مجبرا على القيام بإصلاح التعليم من أجل الحصول على موارد بشرية قادرة على تنفيذ إصلاحاته، بتزويد الإدارة المركزية والمحلية بأطر تساهم في تحقيق تسيير جيد لها ومواجهة ضغوط أجنبية. ومن أجل ذلك أسس المدرسة الحسنية بطنجة سنة ١٨٧٥م ليتلقى فيها الطلبة مواد الحساب والهندسة والتنجيم والجغرافية واللغة العربية ولغة أجنبية والمبادئ الدينية الأولية. بعد أن أصبحت الحاجة ماسة إليها لنجاح البعثات التعليمية إلى الخارج، وخاصة أوروبا، قد أنشأت هذه المدرسة بقصد استيعاب المتدربين لخبرة يحددها المخزن. وكان طلبتها يختارون من نجباء التلاميذ، وتتراوح أعمارهم بين ١٥ و١٨ سنة. وقد اعتنى مولاي الحسن بالهندسة وبالعلوم الحربية، سواء في الدروس المنتظمة في جوامع الحواضر أو في المراكز بالثغور أو في مدرسة الهندسة بفاس التي عدد طلبتها يتراوح ما بين ٤٤ و٥٨ طالبًا تجري عليهم مرتبات يومية[٥٥]. ودعا السلطان إلى "نشر التعليم في الأرياف حتى لا تبقى أي قرية دون أن يكون فيها معلم يعلم أولادهم ويفقههم دينهم"[٥٦].

ويختار السلطان المدرسين الأكفاء، ويشهد على ذلك كلامه: "وبعد فإن الطالب السيد عبد السلام... من أنجب الطلبة وأجودهم فهما وأوثقهم ذهنا...وقد تذاكرت معه مرارًا في عدة فنون، واختبرته في مسائل عويصات فيحسن في الجواب...وقد شرع في التدريس وتعليم العلم بمسجد القرويين...فهو ممن ينبغي أن يسهم له من المرتب الشهري والصلة المولوية، كأمثاله من المدرسين"[٥٧]. وبالمقابل لا يقبل السلطان ترقية المدرس من مرتبة إلى أخرى إلا باستحقاق، ويشهد على ذلك قوله: " فإن الطالب ابن سودة ذكر أن أحد ولديه استحق الكون في المرتبة الثالثة من مراتب الفقهاء، وأن بيده شهادة بذلك...فإن استحق الولد المذكور المرتبة المذكورة فانقله إليها، وإن استحق الأخر زيادة في مرتبة فزده له ما يقبضه أمثاله"[٥٨]. ووضع السلطان

رهن إشارة جامع القرويين مجموعة من الكتب، وأمر بفتح متجر في مراكش للإشراف على توزيع الكتب، كما أمر سنة ١٨٨٢م بطبع نسخ عديدة من كتاب "إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين للغزالي"، لمؤلفه مرتضى الزبدي(٥٩).

وعمل السلطان على توجيه بعثات طلابية إلى أوروبا لدراسة بعض الفنون العصرية وتعلم اللغات الأجنبية، فـ"لما نظر إلى الأمم الراقية وما أفادها العلم الرياضي والطبيعي من القوة والسلطان والتفوق على الأقران في معترك الحياة، فعضد إرسالية الشبان المتخرجين من مدرسة والده، وتوجهوا لعواصم أوروبا لتتميم دروسهم، فعين لكل فريق رجلا من أهل الدين والعلم لمرافقتهم وصيانتهم وأجرى عليهم النفقات الكافية. ولما زاولوا دروسهم وملؤوا بكل نافع حقائبهم يمموا بلادهم ليبثوا فيها ما ينفع مستقبلهم، فلم يعدموا معاكسا وقف في سبيلهم وحرم البلاد والعباد ما كان يرجى من فوائد معارفهم بفتح المدارس وسلوك هذا السبيل، كما سلكه اليابان لذلك العهد الذين رافقهم في دروسهم، فكانت النتيجة أن تقدم اليابانيون وتأخرنا، والله في خلقه شؤون"(٦٠).

وقد توجه الطلبة على نفقة المخزن لأوروبا لإكمال دروسهم متفرقين في مدارس إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا. لكل واحدة منهن بعثة تشتمل على ثلاثة طلبة، مثلا، في إنجلترا محمد الجباص، الزبير السكيرج، الحاج إدريس بن عبد الواحد الشاوي. "وكل بعثة منهم رجعت للحضرة الشريفة بعد أخذها من لغة الأمة التي ذهبت للتعلم بمدارسها، وتلقي الدروس الرياضية عندها، وكان مكوثهم هنالك نحو خمسة أعوام"(٦١). كما وجه الطلبة إلى مصر إذ وفرت حملات الإصلاح بكل من تركيا ومصر، شروط بروز فكرة الإصلاح في المغرب، وقررت أجهزة المخزن ممارستها، وقد نبغ الطلاب المغاربة بمصر مثل الطالب عبد السلام العلمي الذي حصل على إجازة في الطب من المدرسة المصرية بقصر العيني بالقاهرة، بشهادة عميد المدرسة سنة ١٢٩١/ ١٨٧٤ قائلا: "إني منذ كلفت بتعليم علم الطب بدمشق المحمية قبل مجيئي إلى المدرسة الخديوية المصرية...لم أجد أحدا اشتغل بغيرة شديدة وطريقة مستمرة حميدة مثل هذا الطبيب النحرير الذي هو من المدح جدير...وإني لأشكر صائب الرأي السلطان مولاي الحسن...أن عمت منفعة هذه المعارف العلمية والعملية...ومن حظي الأوفر أني اجتمعت مع هذا الطبيب الماهر، فوجدته في العلم والعمل وجيدا وفي المعارف بالنسبة لأقرانه فريدا"(٦٢). ويتضح أن إصلاح التعليم في المغرب كان من الضروريات للتماشي مع الإصلاحات في المجالات الأخرى خاصة الجيش والإدارة، وضرورة تجاوز الركود الذي عرفه هذا الميدان ومسايرة العصر. فكان الهدف تكوين طلبة يشتغلون في مرافق الدولة حسب خبرتهم.

وبالجملة، سعى مولاي الحسن إلى كسب كل شيء دفعة واحدة، فكثف من خيوط الضبط وأزرار الضغط، ولعب على كل الأوتار الحساسة، فحرك وتحرك، رغب في التجديد، وحاول في الوقت نفسه إبقاء الوضع على ما هو عليه. فكانت وفاته إيذانا بضياع مختلف أوراق لعبه، التي لم يكن ممكنا أن يجيد لعبها أحد سواه، وقد بني فأحسن البناء ولكن لسان الحال ينشد:

أرى ألف بان لا يقوم بهادم فكيف ببان خلفه ألف هادم(٦٣)

توفي مولاي الحسن سنة ١٨٩٤م تاركا في دهن المغاربة سمعة سلطان استطاع أن يبقي سلطة المخزن، وأن يصون وحدة المغرب واستقلاله، مساعدا على دعم أسس الإدارة المركزية وعلى ظهور إرهاصات بيروقراطية جديدة، وإطلاق برنامج التحديث وبداية مغرب جديد. وشكلت وفاته، الحدث الذي كان وقعه شديدا على السكان. كما أكد السباعي بقوله: "فنزلت بالناس مصيبة وأي مصيبة، وما أدراك ما المصيبة، في عظمها مصيبة حلت بالناس عند هجوم ذلك البأس"(٦٤). أما الأوروبيون، فقالوا عن نهاية حكمه، إنها منظر غروب شمس جميل ومؤثر(٦٥). وبوفاة مولاي الحسن اتسع الخرق على الراقع(٦٦). وهذا الخرق توسع عهد الوزير الصدر أحمد بن موسى.

خَاتِمَةٌ

يمثل عهد السلطان مولاي الحسن أهمية كبيرة في النظام الإداري المركزي لأنه شهد انخراط المغرب في برنامج عهد إصلاحي جديد في الميدان الإداري والإقبال على حضارة الغرب. فقد شرع السلطان في تشكيل "إدارة حكومية" لها صفات تختلف اختلافًا واضحًا عن تلك التي كانت قائمة فيما قبل توليته. فتطور الجهاز المركزي من جهاز بسيط مكون من السلطان ووزير واحد، كان بمثابة معين له في أشغاله، إلى جهاز أكثر تعقيدا، يتركب من عدد من الوزراء بإنشائه وزارات جديدة. فشهد الجهاز المخزني بداية التخصص مع انفتاح البلاد أكثر على العالم الخارجي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فكان مولاي الحسن بذلك العمل واضع أساس الحكومة الحديثة في المغرب، ومنظم إدارة البلاد، فوصف بالمجدد الحقيقي للتنظيم المخزني.

وقد تطلب هذا التغيير توسيع وتنويع مصادر تطعيم النخبة المسيرة لشؤون الدولة. فعرفت القاعدة البشرية تغيرا في هذا العهد، وذلك من خلال الانفتاح على الحضريين الذين تزايد عددهم، وتدعم نفوذهم داخل المخزن، ممثلين في العلماء والفقهاء والعدول، والتجار المتعودين على التعامل مع الأوروبيين والمستأنسين بالقضايا الاقتصادية والمالية. وظهر على المسرح وزراء وكتاب وقواد ينحدرون أساسًا من طنجة والرباط وسلا ومراكش، علما أن الأصول الاجتماعية والجغرافية للنخبة، كانت قبل ذلك من مكناس أو من تطوان أو من فاس.

ولم تكن لهذا الجهاز المخزني رواتب قارة. غير أنه يستغل انتماءه من قريب أو بعيد للبلاط، ليعيش كما يحلو له في البلاد مستغلاً حظوته وجاهه بشتى السبل ومختلف الوسائل. ورغم وجود الوزراء فإن دورهم لم يكن يتعدى مهمة تهيئ القرارات أو

تحضير مشاريع الظهائر للسلطان، وتسيير شؤون وزارتهم في إطار محدود والاكتفاء بتقديم النصح والمشورة متى خوطبوا في شأنها في ميدان تسيير شؤون المخزن. إذ أن ما يصدره الوزراء يبقى بغير قيمة تذكر ما لم يصادق عليه السلطان بختمه، ليظلوا جماعة مختارة من طرفه، وتظل في محطة التحليل مشكلة من مجموعة من الخدم. كما تدل على ذلك ديابيج مختلف الرسائل السلطانية الموجهة إلى أعضاء الجهاز المخزني بمختلف مراتبهم ووظائفهم، والذين عليهم الامتثال لسلطاته المتداخلة والمركبة، ويتبعونه أينما حل وانتقل، وينفذون أوامره وإخباره بذلك. وكان رجال المخزن يحملون ألقابا مختلفة ومتعددة، لكنهم يجتمعون في لقب واحد يشملهم جميعًا، وهو لقب "الخديم" الذي يتواتر ذكره في جميع المراسلات الرسمية التي تبدأ بخديمنا أو بخدامنا.

أما المحاولات الإصلاحية، فلم تحقق الأهداف المتوخاة منها وكانت معظم نتائجها سلبية نظرًا لغياب تغيير شمولي لبنيات المجتمع المغربي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فالإصلاح كان بعيدًا كل البعد عن المجتمع، فظل في دائرة المخزن بالدرجة الأولى للدفاع عن حكمه ونظامه السياسي واستقلال بلاده. ولم تكن هذه المبادرات الإصلاحية كافية لبلوغ مستوى الإصلاح العميق والشامل، ولم تهم كل الفئات الاجتماعية التي لم يحصل لديها وعي بالإصلاح وأهميته. كما أن إمكانيات الإصلاح في هذا الظرف كانت ضعيفة في حقبة تاريخية كان ميزان القوة العسكرية والاقتصادية بين العالم الإسلامي والعالم الأوروبي، قد مال لصالح هذا الأخير. الشيء الذي أدى إلى عرقلة السياسة الإصلاحية في المغرب. وعلى العموم، يمكن اعتبار تجربة مولاي الحسن منطلقًا لبروز فكرة الإصلاح في مغرب ما قبل الاستعمار. وبالتالي، ألا يمكن اعتبار عدم استفادة المغرب من محاولات الإصلاح التي قام بها هذا السلطان من باب الفرص الضائعة في تاريخ المغرب؟

الهَوامِشُ:

(١) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٦، ج ٩ ص٥٣.

(٢) محمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين ١٨و١٩**، منشورات كلية الآداب بالرباط ١٩٩٢، ص ١٢١.

(٣) السلطانين: مولاي عبد الرحمان ومحمد بن عبد الرحمان.

(٤) السباعي، محمد بن إبراهيم، **البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن**، تحقيق، أمنصور محمد، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، إشراف محمد الأمين البزاز، كلية الآداب، الرباط، ٢٠٠٢. ص ٤٩٥.

(٥) انتقد العلماء النظام الإداري وحددوا عيوبه ومكامن الفساد والضعف فيه والمتمثل في الاعتماد على أطر لا تتمتع بالكفاءة الضرورية لتسيير البلاد، من ذلك ما قاله العراقي في فتواه: "فهذا عين الصدق التي ذكرناه وفيه فوائد لا تخفى من جملتها أن الأمير ومن يلوذ به ينبغي أن يعتنوا بإصلاح الناس ظاهرًا وباطنًا لأن الغلبة إنما هي بذلك...وليست بجمع الأموال ولا بالمخالفة لما جاء به سيد المرسلين..."، أوردتها لطيفة بناني سميرس، مرجع سابق ص ١٩١. انظر كذلك موقف الحراق من الولاة، داود، **تاريخ** تطوان، ج ٦، ص٣٢٩.

(٦) قام السلطان عبد الرحمان بن هشام بإحداث دار النيابة بطنجة، وقام محمد بن عبد الرحمان بإنشاء وزارة الحرب، ووزارة الشكايات.

(٧) خالد ابن الصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ١٩٩٧. ص ٤٢١.

(8) AUBIN (Eugène), Le Maroc d'aujourd'hui, Armand colin, Paris, 1908, P.203 .

(٩) عبد الحميد بنشهو، **النظام الإداري بالمغرب**، مطبعة الأمنية، الرباط، ١٩٨٩، ص ٢٧.

(١٠) عبد الرحمان ابن زيدان، **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٦١، ص ٢٧٣.

(١١) الناصري، **الاستقصا**...، مصدر سابق، ج٩، ص ١٦٦.

Miége, Jean Louis, Hassan 1(er)(1836–1894) et la crise marocaine au XI X(ème) siècle, p 278.

(١٣) عبد العزيز الخمليشي، **جوانب من الحياة التجارية بالمغرب في القرن التاسع عشر(١٨٥٦-١٨٩٦) المخزن والضرائب المفروضة على التجارة الداخلية، مكوس الحواضر**، دبلوم الدراسات المعمقة، إشراف جرمان عياش كلية الآداب الرباط، ١٩٨٩. ص ٢٦٤.

(١٤) رسالة من الأمين محمد التازي إلى موسى بن أحمد سنة ١٨٧٤، أوردها الخمليشي، **جوانب**...، مرجع سابق، ٢٦٤

(١٥) رسالة بتاريخ ١٦ رجب ١٣١٦/ ٣٠ نونبر ١٨٩٨، وثائق ونصوص، رسائل شريفة، محمد نهليل، إعداد وتقديم الجيلالي العدناني وعبد الرحيم بنحادة، كلية الآداب الرباط، مطبعة أبي رقراق، الرباط، الطبعة الأولى ٢٠١٣. ص ١٨٠

(١٦) نفسه، ص ٥٣-٥٩.

(17) AUBIN (Eugéne) , Le Maroc d'aujourd'hui, 5(ème) édition, Armand colin, Paris, 1908. P. 203.

(١٨) التوزاني، **الأمناء**...، مرجع سابق، ص ٨٨-٩٣

(١٩) ابن زيدان عبد الرحمان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، المطبعة الوطنية، الطبعة الأولى، الرباط ١٩٣٠، ج ٢، ص ١٦٢.

(٢٠) رسالة من مولاي الحسن إلى محمد بركاش بتاريخ ٢٥ رجب ١٨٧٥/١٢٩٢، أوردها المنوني، **مظاهر...** مرجع سابق، ج ١ ص ١٠٧.

(٢١) ابن الصغير، **المغرب...**، مرجع سابق، ص ٣٩٨.

(٢٢) أحساين عبد الحميد، **الإدارة المركزية الفرنسية بالمغرب ١٩١٢-١٩٣٩**، **أطروحة** لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، إشراف إبراهيم بوطالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ٢٠٠٥، ص ٣٩.

(٢٣) نفسه، ص ٢٩٢.

(٢٤) رسالة بتاريخ ١٨٨٥/١٣٠٢، التوزاني، **الأمناء...**، مرجع سابق، ص٤٩.

(٢٥) العربي أكنينح، **آثار التدخل الأجنبي في المغرب العربي على علاقات المخزن بالقبائل في القرن التاسع عشر**، مطبعة أنفو برانت، فاس ٢٠٠٤. ص ٢٨٥.

(26) Miége, (Jean Louis), **le Maroc et l'Europe (١٨٣٠ - 1894)**, TOME 4, P.U.F, Paris, 1962 P.247 .

(٢٧) رسالة من مولاي الحسن إلى بركاش بتاريخ ١٤ ربيع الأول ١٨٨٠/١٢٩٧ ابن زيدان، **إتحاف...** ج ٢ ص ٤٨١

(٢٨) نفسه، ص ٤٨١

(٢٩) رسالة السلطان إلى محمد بركاش، بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى، بوشعراء، **الاستيطان...** مرجع سابق، ص ٤١٨.

(30) LAHBABI (Mohamed), **Le Government Marocaine à l'aube du XXé siècle**, collection des centres des études judidiques du maroc, édition technique nord Africaines, Rabat, 1957. .p 37.

(٣١) أحساين، **الإدارة المركزية...** مرجع سابق، ص ٣٤.

(٣٢) ابن زيدان، **العز...**، مصدر سابق، ج ١، ص ١٢٩.

(٣٣) مصطفى الشابي، **النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥.ص ٣٣.

(٣٤) مديرية الوثائق الملكية، محفظة ٢، رسالة، بتاريخ ١٨٦٤/١٢٨٠، من عبد القادر أشعاش إلى النائب السلطاني محمد بركاش حول نازلة سرقة أحد النصارى بتطوان.

(٣٥) المنوني، **مظاهر...**، مرجع سابق، ص ٥٧.

(٣٦) مديرية الوثائق الملكية، محفظة ٢، بتاريخ ذي القعدة الحرام عام ١٢٨٠/ ١٨٦٤، حول قضية الحاج الطيب بوهلال الذي اشترى دار اليهودي، وتبين الرسالة أن هناك شبهة في الموضوع.

(٣٧) وثيقة مؤرخة في ٧جمادى ١٨٩٣/١٣١٠، أوردها ابن زيدان، **إتحاف...** ج ٢، ص ٣١٠.

(٣٨) ابن زيدان، **إتحاف...**، مصدر سابق، ص ٢٩٨.

(٣٩) المنوني، **مظاهر...**، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٥.

(٤٠) السباعي، مصدر سابق، ص ٣٦٥.

(٤١) ظهير مؤرخ ب سنة ١٣١٠ الموافق ١٨٩٢، رسائل شريفة، ص ١٦٨

(٤٢) المنوني، **مظاهر**... مرجع سابق، ج ١ ص ٩١.

(٤٣) نفسه، ص ٩١.

(٤٤) نفسه، ص ٩٢.

(٤٥) الصراع بين عامل تازة ابن البشير والقائد عبد الرحمن الزراري، إذ كانت بينهما المنافسة والعداوة والبغضاء بالغة منتهاها، يطمع كل واحد منهما في ضم حكومة الآخر لحكومته، ويرى كل أن الأحق والأولى بالتفرد بالرياسة. انظر ابن زيدان، **إتحاف...**، ج ٢، ص١٨٧.

(٤٦) محمد بن مصطفى المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**، دراسة وتحقيق بوهليلة إدريس، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، تحت إشراف إبراهيم حركات، الرباط، ١٩٩٣.ج ٢ ص ١٠٧.

(٤٧) الهادي الهروي، **القبيلة الإقطاع والمخزن، مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث(١٨٤٤-١٩٣٤)**، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٤. ص ٧٨.

(٤٨) أحمد العلمي "حركتا السلطان المولى الحسن إلى سوس"، **ندوة الإصلاح والمجتمع في القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٦، ص ٥٦.

(٤٩) رسالة سلطانية في ٢٣ ربيع الأول ١٢٩٣، أوردها الناصري، **الاستقصا...**، مصدر سابق، ج ٩ ص ١٥٠.

(٥٠) رسالة من السلطان متم شعبان ١٨٨٢/١٢٩٩، المشرفي، **الحلل...**، مصدر سابق، ص ٢٩٤.

(51) LAROU (Abedellah), **Les origines sociales et culturelle de nationalisme marocaine**, Ed ،centre culturel Arabe,1993. P.158.

(٥٢) ابن زيدان، **إتحاف...**، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٨٨.

(٥٣) رسالة من أحمد بن موسى، بتاريخ ١٢ ربيع الثاني ١٣١٢، أوردها أكنينح، **أثر...**، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

(٥٤) الشابي، **النخبة...**، مرجع سابق، ص ٤٧.

(٥٥) محمد حجي، **جولات في تاريخ المغرب**، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٥، ص ٢٢٨_ ٢٢٩.

(٥٦) ابن زيدان، **العز...**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٧.

(٥٧) نفسه، ص ١٨٧.

(٥٨) رسالة في ٢٧ ربيع الأول عام ١٨٧٣/١٢٩٠، أوردها ابن زيدان، **العز والصولة**، مصدر سابق، ج ٢ ص ١٨٧.

(٥٩) عبد الرزاق، فوزي، **تاريخ الطباعة بالمغرب(١٨٦٥-١٩١٢)**، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٦، ص ١٦٠.

(٦٠) ابن زيدان، **إتحاف...**، مصدر سابق، ص٤٣.

(٦١) نفسه، ص ٤٦٦.

(٦٢) عبد الهادي، التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، الرباط، ١٩٧٠، ص ٢١٨.

(٦٣) كنون، **النبوغ...**، مرجع سابق، ص ٢٧٣

(٦٤) السباعي، **البستان...**، ج ٣، م، س، ص ٥٦٠

(65) J, caillé, op.cit. p 7.

(٦٦) الطيب، بياض، **المخزن الضريبة والاستعمار، ضريبة الترتيب ١٨٨٠-١٩١٥**، إفريقيا الشرق ٢٠١١، ص ١٠١.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

مقالات

تهريب الكيف في المغرب خلال فترة الحماية

١٩١٢ – ١٩٥٦



محمد عبد المومن
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
ماجستير في تاريخ وحضارة الأندلس
تطوان – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

كان تعاطي الكيف شائعًا في المغرب خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لكن فرض الحماية سنة ١٩١٢، وتقسيم البلاد إلى منطقتي نفوذ واحدة فرنسية وأخرى إسبانية، ورغبة السلطات الاستعمارية في تقنين في زراعة الكيف وتعاطيه، أفرز واقعًا جديدًا حيث تكشف الوثائق الصادرة عن أجهزة المراقبة الاستعمارية، على أن السلطات الفرنسية نجحت في القضاء على زراعة القنب الهندي، وعلى أن السلطات الإسبانية حاولت الاستفادة من هذه الزراعة المنوعة قانونيًا، مما أدى إلى ظهور عصابات متخصصة في تهريب الكيف من مناطق زراعته في منطقة الحماية الإسبانية، إلى مناطق حيث يدر بيعه مداخيل هامة، وخصوصًا في مدن فاس والدار البيضاء. وقد كان المهربون خلال سنوات الثلاثينيات والأربعينيات ينقلون كميات صغيرة على ظهورهم أو على ظهور الدواب، لكن عقد الخمسينيات شهد تطورات كبيرة على مستوى الكميات المهربة، والوسائل المعتمدة، كما أصبح المهربون يحملون أسلحة نارية، منها مسدسات آلية ورشاشات. وكان من الطبيعي أن يخلف تهريب الكيف نتائج مهمة، على المستويين الاقتصادي والاجتماعي، لكن النتائج الأخطر، كانت على المستوى السياسي والأمني، حيث أن اقتران تهريب الكيف بتهريب السلاح، أدى إلى زعزعة الأمن في بعض المناطق التي تشكلت فيها عصابات إجرامية مسلحة، وإلى تزويد المقاومين المؤمنين بالعمل المسلح بما يحتاجون إليه من أسلحة، وبذلك ازدادت عمليات المقاومة وأصبحت أكثر خطورة وتهديدًا لمصالح الاستعمار الفرنسي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٣ ديسمبر ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ٢١ مارس ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

القنب الهندي، الحماية الفرنسية، زراعة الكيف، عصابات التهريب

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052958

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد عبد المومن. "تهريب الكيف في المغرب خلال فترة الحماية (١٩١٢ – ١٩٥٦)".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص١٠٦ – ١١٣.

مُقَدِّمَةُ

نشرت في السنوات الأخيرة العديد من الأبحاث والمقالات التي تناولت جوانب مختلفة من تاريخ الحماية الفرنسية والإسبانية في المغرب، مع تركيز واضح على ما هو الجانب السياسي وبدرجة أقل على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، إلا أن جوانب أخرى لا تزال في حاجة جهود إضافية. فإذا كانت بعض الدراسات قد ركزت على الجانب الاقتصادي، فقد اقتصرت على الاستغلال الفلاحي والمعدني، إلا أن هناك قطاعات اقتصادية يلفها الغموض، ولا توجد بخصوصها معلومات ولا إحصائيات دقيقة، ومنها التهريب الذي نعده ظاهرة متجذرة في تاريخ المغرب.

وإذا كان الدراسات الاجتماعية قد تناولت مكونات المجتمع المغربي، من فلاحين وصناع، ونخب حضرية وقروية، والتحولات التي طرأت عليها خلال سنوات الحماية، فإنها قد أغفلت عناصر اجتماعية أخرى كاللصوص والعيارين والمهربين. وفي هذا الإطار، ارتأيت أن أركز في هذه المساهمة على زارعة وتهريب الكيف في الفترة الممتدة ١٩١٢ إلى سنة ١٩٥٦، في محاولة لفهم التحولات التي طرأت على زراعة الكيف، وللوقوف على بدايات تهريب

الكيف من المنطقة الإسبانية نحو المنطقة الفرنسية، مع التركيز البنيات التي تحكمت في هذا النشاط المحظور، خصوصًا خلال سنوات الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وبالإجمال فالغاية من هذه المساهمة هو الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما هي المناطق التي انتشرت فيها زراعة الكيف خلال فترة الحماية؟
- لماذا انتعش تهريب الكيف خلال سنوات الخمسينيات؟
- كيف ساهمت السياسات الإسبانية في ازدهار تهريب الكيف؟
- مَنْ هم مهربو الكيف؟
- ما هي النتائج المترتبة عن تهريب الكيف؟

أولاً: لمحة عن زارعة القنب الهندي خلال عهد الحماية

١/١-مصادر البحث:

بالنظر إلى صعوبة الوصول إن لم نقل انعدام أية مصادر أو مراجع مغربية، سواء مكتوبة أو شفوية، فقد اعتمدت بشكل أساسي على عدة أنواع من المصادر منها:

- وثائق المندوبية السامية لإسبانيا بالمغرب، المحفوظة في الأرشيف العام للإدارة (Archivo General de la Administracion) ومقره مدينة ألكالا دي هيناريس وخصوصًا المحافظ التالية: ٨١/١٩١٠، ٨١/١٩١٢، ٨١/٢٢٠٢، ٨١/١٥٢٠.
- وثائق متعلقة بتهريب الكيف، مصدرها الأرشيف الدبلوماسي الفرنسي (Centre des archives diplomatiques de Nantes) ومقره مدينة نانت، وخصوصًا المحفظة: 1Ma/200/502
- مقالات صحفية من جريدتين هما (La Vigie Marocaine)، (Le Petit Marocain).
- بعض القوانين المنظمة لزراعة وتجارة التبغ والكيف.
- مذكرات بعض رجال الحركة الوطنية.

٢/١-تقنين زراعة الكيف وترويجه:

كان من الطبيعي، أن تقوم سلطات الحماية الفرنسية والإسبانية بإصدار قوانين تؤطر زراعة القنب الهندي والمتاجرة به، سواء في حالته الطبيعية، أو بعد المعالجة. ففي المنطقة الإسبانية نص ظهير ٦ فبراير ١٩١٧، على أن شراء وصناعة وبيع التبغ والكيف، مقتصر على الشركة الاحتكارية، التي فوت لها تدبير القطاع، وهذه الشركة هي "الشركة الاحتكارية للتبغ بشمال إفريقيا"[١] وقد كانت في ملكية رجل الأعمال والصناعي الإسباني المعروف خوان مارش أورديناس الذي بدأ من حياته مهربا للسجائر والمخدرات قبل أن يتسلق السلم الاجتماعي ويصبح أحد أركان نظام فرانسيسكو فرانكو.[٢]

لكن وثائق نيابة الشؤون الأهلية تكشف على السلطات الإسبانية، كانت تتعامل مع زراعة القنب الهندي وتهريب الكيف بمنظور نفعي مصلحي، ففي تقرير أعده القسم السياسي في النيابة السالفة الذكر، بتاريخ ١٩٣٩/٩/٢٠ فإن المندوب السامي أمر بتشديد المراقبة على السلع المهربة من المنطقة الفرنسية، لأنها تتسبب في خروج العملة الإسبانية لكنه في المقابل أمر بغض الطرف عن المنتجات المحلية، التي تهرب نحو المنطقة الفرنسية وخصوصًا المنتجات التي تزيد عن حاجة السكان وتلك التي تسبب المشاكل."[٣] وفي الصفحة الثالثة من نفس التقرير، نجد ما يلي: "الشركة المحتكرة للتبغ لا تريد شراء كميات أخرى من الكيف، وبالتالي يسمح للكتاميين والسداتيين بزراعته وتسويقه ولكن بشروط محددة، ورغم أنه ممنوع في المنطقة الفرنسية، ولكن يجب السماح لمواطني منطقتنا بتصديره إلى خارجها وخصوصًا إلى الأسواق الموجودة قرب الحدود."[٤]

أما في المنطقة الفرنسية فقد صدر أول نص قانوني يؤطر زراعة وتجارة الكيف في سنة ١٧ نونبر ١٩١٩، وقد جاء فيه: "لا يمكن لأحد أن يباشر زرع الكيف في المنطقة الفرنسية من إيالتنا الشريفة قبل نيله الرخصة بذلك من إدارة صاكة الدخان"[٥] وفي ١٢ نونبر ١٩٣٢ صدر ظهير جديد تم تغييره بتاريخ ١٨ فبراير ١٩٣٧ وقد نص هذا الظهير في بنده الأول: "شراء وصناعة وتسويق التبغ والكيف، تحتكره بشكل حصري الشركة الممنوح لها حق الاحتكار إلى غاية نهاية عقدها، وهي الآن الشركة العالمية للتبغ."[٦] أما بخصوص زراعة القنب الهندي فقد جاء في البند ٤٣ من نفس الظهير: "إن زراعة القنب الهندي المخصص لإنتاج الكيف ممنوع بصفة كلية، في منطقة الحماية الفرنسية من الإمبراطورية الشريفة، لكن يمكن لشركة التبغ أن تزرع القنب الهندي لحسابها الخاص، ووفق احتياجاتها عن طريق منح تراخيص خاصة لبعض المزارعين الذين تختارهم الشركة."[٧] [٨]

وقد استمر العمل بهذه القوانين إلى آخر سنوات الحماية، كما أن السلطات الفرنسية كانت تصدر بين الحين والآخر نشرات ودوريات، تؤكد على تسويق الكيف وتعاطيه كما أنها تعاملت مع مهربي الكيف بصرامة وقسوة.[٩]

٣/١-مناطق زراعة القنب الهندي في المنطقة الإسبانية:

يتبين من خلال الوثائق التي أتوفر عليها تتبين أن زراعة القنب الهندي، كانت خلال فترة الحماية الإسبانية على شمال المغرب منتشرة في منطقتين -مع ترجيح وجود منطقة أو مناطق أخرى -وهاتان المنطقتان هما:

١-قبيلتي الحوز المتدة شمال مدينة تطوان، وقبيلة بني حزمر المتدة إلى جنوبها، حيث ورد ذكرهما في مجموعة من الوثائق من بينها تقرير أعدته المفتشية العامة للمراقبة العسكرية والفرق الخليفية، حدد بدقة مناطق انتشار المزارع السرية لنبتة القنب الهندي حيث ورد فيها: "وهذه المزارع

تتواجد في الوقت الحالي في الملايين والرنكون وواد النكرو وبني معدن والشركة المحتكرة تدعو الإدارات التابعة لجهاز المراقبة لإصدار الأوامر من أجل التدخل بفاعلية للقضاء على هذه المزارع عبر اقتلاع المزروعات".(١٠)

ويبدو أن هذه الجهود المبذولة للقضاء على زراعة القنب الهندي بنواحي تطوان قد أتت أكلها، حيث تقلصت المساحة المزروعة، وأصبحت سنة ١٩٢٨ تقتصر على مداشر بني معدن، وهذا ما يتبين من رسالة بعثها باشا تطوان لمراقب الشؤون الأهلية يخبره بما يلي: "فإنه حيث وصل الكتاب المذكور، صادف الحال، بأنه قبل يومين جاء إلينا بعض موظفي الصاكة، وطلبوا إعطاء مخزني فساعدناهم طبق العادة المألوفة، والأمور المقررة بين المخزن وكمبانية الصاكة، ولم يبينوا لنا محل الكنطربانـدو ولا سألناهم عنه، وحيث رجع المخزني أفادنا بأنه ألفى بمدشر بني معدن قدرًا من الكيف بعضه مقسس، وبعضه غير مقسس وأن الجميع حازه موظفو الصاكة".(١١)

٢- قبيلتي كتامة وبني سدات: اللتين كانت السلطات الإسبانية تتساهل من سكانهما الذين يمارسون زراعة القنب الهندي، بشرط تسويقه خارج منطقة الحماية الإسبانية، وذلك عبر تهريبه إلى مدن المنطقة الفرنسية، وخصوصًا فاس والدار البيضاء أو عبر بيعه في الأسواق الأسبوعية المتاخمة لحدود المنطقة الفرنسية.(١٢)

أما بخصوص، حجم الإنتاج فيبدو أن إنتاج قبيلتي الحوز وبني حزمر تراجع بشكل حاد خلال العشرينات، إلى أن توقف نهائيًا على عكس ما وقع في قبيلتي كتامة وبني سدات، حيث تزايد حجم الإنتاج بشكل كبير خلال الأربعينات وخصوصًا خلال الخمسينات القرن العشرين، وتوسع إلى قبائل أخرى مجاورة لتصبح منطقة صنهاجة السراير مصدرًا أساسيًا لمخدر الكيف، ودليلنا على ذلك الكميات الضخمة التي كانت تصدرها السلطات المختصة بشكل شبه يومي خلال السنوات القليلة التي سبقت استقلال المغرب.(١٣)

ثانيًا: تهريب الكيف خلال فترة الحماية

١/٢-أسباب انتعاش تهريب الكيف خلال الخمسينيات:

كانت عمليات تهريب الكيف خلال سنوات الأربعينات، من القلة بحيث يمكن أن نجزم أن هذا النشاط المحظور كاد أن يختفي، وحتى الكميات المصادرة من العمليات المذكورة في الوثائق لا تتجاوز بضعة كيلوغرامات، وذلك بسبب المجاعة وظروف الحرب التي جعلت الناس ينصرفون إلى البحث عما يسد الرمق في تلك الظروف الصعبة. لكن مع بداية عقد الخمسينات انتعش تهريب الكيف، وأصبحت أخبار المهربين تتصدر الصحافة اليومية، أما الكميات التي كانت تصادرها أجهزة الدرك والشرطة والجمارك فأصبحت تفوق عدة مئات من الكيلوغرامات وأسباب ذلك كثيرة منها:

- يرى الباحث عبد الرحيم برادة، أن السياسات الاقتصادية الفاشلة التي طبقتها إسبانيا في منطقة حمايتها، هي السبب في انتشار مجموعة من الظواهر السلبية كالتهريب وزراعة الكيف.(١٤)
- شجعت السلطات الاسبانية زراعة القنب الهندي في بعض مناطق الريف الأوسط، وقامت السلطات المحلية في تلك المناطق بعض الطرف، عن هذه الزراعة كما شجعت تهريب الكيف لمنطقة الحماية الإسبانية بهدف الحصول العملة الفرنسية إلى شمال المغرب، في مقابل محاولتها منع نزيف العملة الاسبانية.(١٥)
- خلال الخمسينات عرف المجتمع المغربي مجموعة من التغيرات السلوكية، فتفشت عادة تدخين السجائر، وبدأ تعاطي المخدرات القوية من قبيل الحبوب المخدرة، وتفشى تعاطي مخدر الكيف، فهل يكون سبب ذلك تأثر المغاربة بالأجانب الذين تواجدوا في البلاد في تلك الفترة؟ وخصوصا القادمين من إسبانيا وفرنسا البلدين الحاميين، والولايات المتحدة الأمريكية التي كانت لها قواعد عسكرية؟ (١٦)
- من العوامل المهمة لانتعاش التهريب عامة، وتهريب الكيف بشكل خاص تدهور العلاقات الفرنسية الاسبانية، قيام السلطات الفرنسية بنفي محمد الخامس دون استشارة، ودون تنسيق مع السلطات الإسبانية، خصوصًا أن العلاقات بين الطرفين لم تكن يومًا على ما يرام، بسبب مشكل الحدود بين المنطقتين وبسبب موقف فرنسا من نظام الديكتاتور فرانسيسكو فرانكو.(١٧)
- ضعف فرق مراقبة الحدود، بسبب قلة الرجال وعدم توفر العتاد الضروري، خصوصًا أن الحدود التي كانت تفصل بين المنطقتين طويلة جدًا ذات تضاريس وعرة، ورغم الاستفادة من فرق متعددة عسكرية وشبه عسكرية إلى أن السلطات الفرنسية لم تستطع أبدًا إحكام سيطرتها على الحدود.(١٨)

٢/٢-عصابات التهريب:

كانت عصابات تهريب الكيف خلال سنوات الأربعينيات تتشكل من مجموعة من الشباب، الذين تتراوح أعمارهم ما بين (٢٠) و (٤٠) سنة في الغالب، وكان أغلبهم ينتمي إلى المناطق الحدودية، ولم يكن تهريب الكيف نشاطهم الوحيد إذ كان أغلبهم يشتغل في الزراعة، كما أنهم لم يقتصروا على تهريب الكيف دون غيره بل كانوا ينقلون في رحلاتهم ذهابا وإيابا كل ما يمكن أن يدر عليهم الأموال وكان عددهم العصابة (مجموعة من المهربين) يتراوح بين (٤) و(٢٠)(١٩) شخص. ولا يسعفني الوثائق المتوفرة حاليا لتبيان هل كانوا يشتغلون لمصلحتهم الخاصة، أم أنهم كانوا مجرد حمالين، ولكني أرجح أنه كان هناك مهربون

مستقلون، وآخرون اشتغلوا لصالح آخرين يمتلكون المال والسلطة.

وقد كان من بين أعضاء عصابات التهريب أصحاب أماكن التخزين، وهم أشخاص يتوفرون على منازل أو ضيعات قريبة من الحدود، كان يقصدها المهربون بمجرد عبورهم الحدود للاختباء، وللاستراحة وطبعا لتخزين السلع المهربة.(٢٠) أما خلال الخمسينات فقد تناقص أفراد عصابات التهريب وأصبح العدد يتراوح بين (٢) و(٤)، كما صاروا يعتمدون على السيارات والشاحنات، ويستقوون على رجال الشرطة والجمارك والدرك بالأسلحة النارية التي لم يكونوا يترددون في استخدامها.(٢١)

وإذا كان نشاط التهريب قد ارتبط بالليل، فإن المهربين لم يعودوا في حاجة إلى تسليم البضاعة أو تخزينها بمجرد عبور الحدود، حيث صارت تنقل إلى المدن الكبرى كالدار البيضاء وفاس وغيرها... وإذا كان بعض المهربين قد ظلوا يشتغلون لحسابهم، فإن آخرين كانوا في خدمة مهربين كبار امتلكوا ثروات مهمة، وكان بعضهم من الأجانب، وبعضهم الآخر من رجال السلطة، وفي هذه الفترة بدأ امتهان عدد من النسوة للتهريب، حيث كانت بعضهن تهرب مقادير صغيرة نسبيا من الكيف باستعمال القطار.(٢٢)

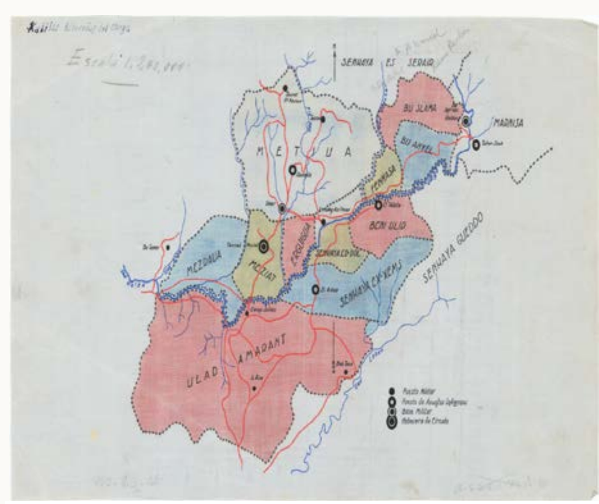
٣/٢-مسالك التهريب:

كانت توجد العديد من المسالك التي استعملها مهربو الكيف، والتي تتفاوت من حيث الأهمية ومنها:

- الطريق الرئيسة الرابطة بين مدينتي شفشاون ووزان، مرورا بالمركز الحدودي سوق الحد، وقد برزت هذه الطرق خلال الخمسينات، وقد كانت قليلة الأهمية بالنظر الطرق الأخرى، كما لا نجدها إلى في عدد محدود من الوثائق.(٢٣)

- الطريق الرئيسة المعبدة الرابطة بين مدن تطوان، طنجة، القصر الكبير... ومدن القنيطرة، الرباط، الدار البيضاء مرورا بالمركز الحدودي الخضاضرة، وهذه الطرق كانت تعرفا رواجًا كبيرًا سواء على مستوى البضائع المنقولة بشكل قانوني، أو بالنسبة للبضائع المهربة، ومنها طبعا الكيف ولكن نظرًا لوجود رجال الجمارك والدرك فلم تكن الطرق المفضلة لمهربي الكيف.(٢٤)

- أما الطريق الثالث والأخير، فقد كان عبارة عن مجموعة من المسالك الوعرة المارة الرابطة بني قبائل صنهاجة السرائر، وقبائل ورغة العليا (مرنيسة، متيوة الجبل، صنهاجة غدو، بني زروال...) والتي تنتهي إلى مدينة فاس، وقد كان هذا الطريق هو المفضل لمهربي الكيف، بالنظر إلى قربه من مناطق الإنتاج، وبسبب ضعف المراقبة، كما أنه كان معبرا مفضلا للفارين من المنطقة الفرنسية سواء كانوا مقاومين هاربين، من الاعتقال أو جنودا فروا من الخدمة العسكرية.(٢٥)



Archivo Cartográfico de Estudios Geográficos del Centro Geográfico del Ejército — Colección: PCGE — Ubicación: DE — Signatura: MAR-C.8-084 — Código de barras: 9786987 — Notas: B

٤/٢-وسائل التهريب:

كان تهريب الكيف خلال السنوات الثلاثينيات والأربعينيات، يتم بوسائل تقليدية حيث كان المهربون يحملون الأكياس على ظهورهم ويسيرون ليلاً في جماعات قد يبلغ عدد أفرادها عشرون فردًا، طلبًا للأمن والحماية، وفي بعض الحالات كانت السلع المهربة تحمل على ظهور الدواب وخصوصًا البغال والحمير، وقد كان هذا الأسلوب شائعا خصوصا في الحدود الإسبانية البرتغالية، والإسبانية الفرنسية، وكان يصطلح على تسميتهم بـ (Mochileros).(٢٦) ولم يكن المهربون يقتصرون على تهريب مخدر الكيف، بل نقلوا معه سائر المواد الاستهلاكية التي تحقق لهم أرباحًا، فعودتهم من المنطقة الفرنسية كانوا يعودون محملين ببعض السلع التي كانت تفتقر إليها المنطقة الإسبانية، خاصة وأن شمال المغرب عانى من المجاعات ومن نقص حاد في المواد الغذائية، خلال سنوات الحرب الأهلية الإسبانية وسنوات الحرب العالمية الثانية.

أما خلال السنوات اللاحقة، أي خمسينات القرن العشرين فقد ظهر جيل جديد من المهربين، وظهرت وسائل جديدة فتراجع الاعتماد على الدواب، وقل عدد من يحملون السلع ومنها الكيف على ظهورهم، وأصبح المهربون يعتمدون على السيارات ذات المحركات القوية خصوصا من ماركة فورد، لنقل حمولة كبيرة من مئات الكيلوغرامات في مسالك جبلية وعرة، أما في من كانوا ينقلون المخدر المحظور عبر الطرق المعبدة فقد اعتمدوا بالأساس على سيارات قوية وسريعة من ماركة أولدز موبيل وشيفرولي وكاديلاك،(٢٧) وبسبب ذلك لم تعدّ هناك حاجة لتشكيل مجموعات كبيرة، أو قل عصابات من المهربين، وإن ظل الليل هو وقت عملهم المفضل، حيث استعاضوا عن الكثرة

بالسلاح، الذي أصبح وسيلة من وسائل العمل، وسلعة يتم الحصول منها على مدخول إضافي، ويتم التخلص منها حالة الوصول على الوجهة المقصودة.(٢٨)

٥/٢- نتائج تهريب الكيف:

نظرا لكثرة نتج عن تهريب الكيف من نتائج اجتماعية وسياسية واقتصادية فلا يمكننا في هذه المساهمة، إلا الوقوف عند بعضها ومنها:

- خلف تهريب الكيف من المنطقة الإسبانية نحو المنطقة الفرنسية الكثير من الضحايا خلال سنوات الأربعينيات، حيث أن القوات المكلفة بمراقبة الحدود وخصوصًا قوات الكوم، كانت لا تتردد في إطلاق النار على من سولت له عبور الحدود سرًا من المهربين، الذين كانوا ينشطون خلال الليل مما خلف الكثير من القتلى والجرحى، وقد ساهمت هذه الأحداث في توتير العلاقات بين المغاربة (قياد القبائل الحدودية، الحركة الوطنية، سكان الحدود) والسلطات الفرنسية (جهاز المراقبة، السلطات العسكرية...).(٢٩) أما خلال سنوات الخمسينات فقد انقلبت الآية حيث صار رجال الأمن هم أكبر ضحايا تهريب الكيف، لأن المهربين صاروا مسلحين بمسدسات لا يتورعون عن استعمالها ضد قوات الشرطة والدرك، وقد حفلت صحافة تلك الفترة بحوادث إطلاق النار وبأسماء من قضوا أو أصيبوا في المواجهات.(٣٠)
- رغم أن الأسلحة النارية كانت موجودة في المغرب خلال سنوات الخمسينات، إلا أن الوصول إليها وامتلاكها لم يكن بالأمر الهين،(٣١) حتى بالنسبة لمجموعات المقاومة المسلحة والفدائيين، الذين اختاروا العمل المسلح ضد الاستعمار الفرنسي، وضد مصالحه بالمغرب. وذلك لأن السلاح كان محتكرا من طرف فئات معينة، وثانيا لأنه كان متوفرا في المنطقة الإسبانية، ونادرًا في المنطقة الفرنسية ويبدو من خلال وثائق الأرشيف الدبلوماسي الفرنسي، وما خطه بعض رجال المقاومة من مذكرات صدرت في الفترة الأخيرة، أن مهربي الكيف ساهموا بشكل كبير في تهريب المقاومين الملاحقين من طرف الشرطة من المنطقة الفرنسية (اللاجئين)، نحو المنطقة الإسبانية، كما ساهموا في تزويد المقاومين بالسلاح الناري، حيث كانوا يتخلصون من مسدساتهم عن طريق بيعها بأثمنة معتبرة بمجرد وصولهم إلى الوجهة المقصودة.(٣٢)
- أدى ازدهار تهريب الكيف وارتباطه بتهريب السلاح، وقيام المهربين بمهاجمة قوات الدرك والشرطة، في حدوث اِنفلاتات أمنية خطيرة خصوصًا في المناطق الحدودية وبضواحي المدن الكبرى كالدار البيضاء (أكبر سوق للكيف خلال الخمسينيات)، وفاس وغيرها كما ظهرت بسبب ذلك عصابات مسلحة، قامت بالعديد من الأنشطة الإجرامية،

وقد لاحظت أن الوثائق الفرنسية تميز بين جماعات المقاومة المسلحة التي كانت تقوم بعمليات تخريبية تستهدف المصالح الفرنسية، حيث تصفها تلك الوثائق بـ (Groupes Terroristes) مجموعات الإرهابيين وبين المجموعات المسلحة حيث تصفها بـ (Groupes de Bandits) عصابات المجرمين.(٣٣)

- كان تهريب الكيف بالنسبة لمجموعة من تجاره ومهربيه، وسيلة للاغتناء وتسلق درجات السلم الاجتماعي، وقد تحقق ذلك بشكل فعلي لعدد منهم، وتحفل الوثائق الفرنسية بأسماء المهربين، الذين تمكنوا تحقيق ثروات هامة، بل وتمكن بعضهم من تغيير مهنته وأصبح مقاولاً أو تاجرًا معروفًا، بل وحتى أصبح له دور سياسي هام في المغرب، خصوصًا أن البلد كان يتجه نحو الاستقلال، ولم يقتصر الأمر على المغاربة بل حتى المهربون الأجانب وعدد من رجال الشرطة والدرك الفرنسيون والإسبان، تمكنوا من تحقيق ثروات هامة عن طرق الارتشاء.(٣٤)

خَاتِمَةٌ

إذا كانت الظهائر التي أصدرتها سلطات الحماية في المنطقتين الفرنسية والاسبانية، تروم تقنين زراعة القنب الهندي، والتحكم في المساحات المزروعة، وحجم الإنتاج، فمما لا شك فيه أن السلطات الإسبانية قد حاربت زراعته في المناطق السهلية ذات المؤهلات الزراعية، لكنها في المقابل تساهلت مع زراعته في المناطق الجبلية، كالريف الأوسط وخصوصًا في قبائل صنهاجة السرائر. وإذا كانت الظهائر والقوانين الصادرة خلال عهد الحماية، تنص على منع تسويق الكيف منعًا باتًا، إلا أن الواقع يكشف على أن سلطات الحماية الإسبانية حاولت التحكم والاستفادة من هذه نشاط، عبر تشجيع المهربين على تسويقه في المنطقة الفرنسية. كما أن السلطات الفرنسية حاولت توظيف التهريب لخدمة مصالحها، فتغاضت عنه أحيانًا، وحاربته أحيانا أخرى، إذ عملت على إغراق المنطقة الإسبانية بالمنتجات الفرنسية، بما في ذلك السجائر وأنواع أخرى من المخدرات.

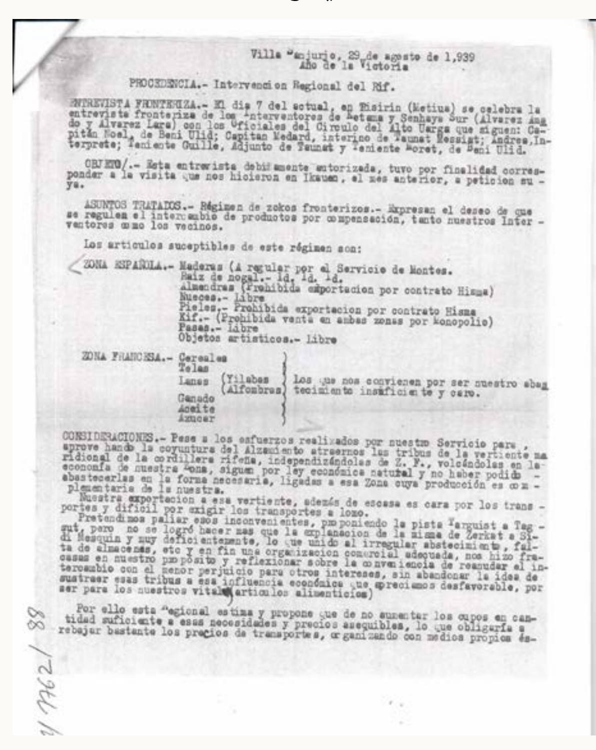
الملاحق

(١)

رسالة من باشا تطوان لمراقب الشؤون الأهلية بخصوص قيام موظفي الصاكة بمصادرة كمية بأحد مداشر بني معدن

(٢)

رسالة من مراقب الشؤون الأهلية بناحية الريف لمندوبية الشؤون الأهلية بخصوص الإجراءات المتخذة للتحكم في نشاط التهريب الحدودي مع المنطقة الفرنسية



Villa Sanjurjo, 29 de agosto de 1,939
Año de la Victoria

PROCEDENCIA.- Intervencion Regional del Rif.

ENTREVISTA FRONTERIZA.- El día 7 del actual, en Tisirin (Metiua) se celebra la entrevista fronteriza de los Interventores de Ketama y Senhaya Sur (Alvarez Amado y Alvarez Lara) con los Oficiales del Circulo del Alto Uarga que siguen: Capitán Noel, de Beni Ulid; Capitan Medard, interino de Taunat Messiat; Andres, Interprete; Teniente Guille, Adjunto de Taunat y Teniente Moret, de Beni Ulid.

OBJETO/.- Esta entrevista debidamente autorizada, tuvo por finalidad corresponder a la visita que nos hicieron en Ikauen, el mes anterior, a peticion suya.

ASUNTOS TRATADOS.- Régimen de zokos fronterizos.- Expresan el deseo de que se regulen el intercambio de productos por compensación, tanto nuestros Interventores como los vecinos.

Los articulos suceptibles de este régimen son:

ZONA ESPAÑOLA.- Maderas (A regular por el Servicio de Montes.
Raiz de nogal.- Id. Id. Id.
Almendras (Prohibida exportacion por contrato Hisma)
Nueces.- Libre
Pieles.- Prohibida exportacion por contrato Hisma
Kif.- (Prohibida venta en ambas zonas por Monopolio)
Pasas.- Libre
Objetos artisticos.- Libre

ZONA FRANCESA.- Cereales
Telas
Lanas (Yilabes / Alfombras)
Ganado
Aceite
Azucar
} Los que nos convienen por ser nuestro abastecimiento insuficiente y caro.

CONSIDERACIONES.- Pese a los esfuerzos realizados por nuestro Servicio para, aprovechando la coyuntura del Alzamiento atraernos las tribus de la vertiente maridional de la cordillera rifeña, independizándolas de Z. F., volcándolas en la economía de nuestra Zona, siguen por ley económica natural y no haber podido abastecerlas en la forma necesaria, ligadas a esa Zona cuya producción es complementaria de la nuestra.

Nuestra exportacion a esa vertiente, además de escasa es cara por los transportes y dificil por exigir los transportes a lomo.

Pretendimos paliar esos inconvenientes, proponiendo la pista Targuist a Tagsut, pero no se logró hacer mas que la explanacion de la misma de Zerkat a Sidi Mesquin y muy deficientemente, lo que unido al irregular abstecimiento, falta de almacenes, etc y en fin una organizacion comercial adecuada, nos hizo fracasar en nuestro propósito y reflexionar sobre la conveniencia de reanudar el intercambio con el menor perjuicio para otros intereses, sin abandonar la idea de sustraer esas tribus a esa influencia económica que apreciamos desfavorable, por ser para los nuestros vitales (articulos alimenticios)

Por ello esta Regional estima y propone que de no aumentar los cupos en cantidad suficiente a esas necesidades y precios asequibles, lo que obligaría a rebajar bastante los precios de transportes, organizando con medios propios és-

AGA/81/1762/88

---

te y almacenes y terminar esa pista, reparando la de Ikauen, es preciso ir al intercambio regulado para no perjudicar a esas tribus, que no salga nuestro dinero y que continúe el buen efecto producido entre nuestros administrados el régimen actual de puerta entreabierta.

El regimen de zocos fronterizos en esta Región, podría realizarse sobre las siguientes bases:

1º.- MADERAS.
Que por el Servicio de Montes se hiciese una concesión de tres metros cúbicos semanales a indigenas cooperatizados para la exportación, previo abono del canon correspondiente, y distribuido así: Un metro cúbico a extraer del Yebel Iguermalek y exportar por el zoko Tenin de Beni Ammart; un metro cúbico del Yebel Ars, para exportar por el zoko de Tagsut y otro metro cúbico para los madereros o montes de Ketama, a exportar por el Had de Ikauen.

2º.- ALMENDRAS.
Hoy día toda la producción está acaparada por la Compañía alemana Hisma por el régimen de compensación con Alemania. Ese acaparamiento dá lugar a incidentes con los productores moros, por cuestión de pesos, precios fijados y combinaciones de ~~los de~~ esa Sociedad en perjuicio del indigena, como retraso en su adquisición para lograr pérdida de peso.

Podía sustraerse a ese contrato, con el fin de exportarla por los zokos fronterizos alguna cantidad, (que de todas formas sale de contrabando) y fijada distribuirla en análoga forma entre los zokos citados y el del Arbaa de Taurirt. Debe ser resuelto y fijado precio por el Comité Económico Central. Se destinarian a esa exportacion las cantidades que comunicadas a los empleados de la Hisma, no sean recogidas por éstos dentro del plazo de quince días siguientes.

3º.- PIELES.
Sujeta al mismo régimen que la almendra, es de aplicación cuanto para ésta se dice.

4º.- K I F.
En escrito de la Delegación de Asuntos Indigenas, num. 86, Negociado 1º, expediente 9470, fecha 30 de marzo del año actual, el Monopolio de Tabacos solicitó y acordó no compraría más kif, tolerandose a los ketamis y seddatis la siembra y comercio restringido y condicional. Aunque en Zona francesa también está prohibido, debe autorizarse la venta en beneficio de nuestros administrados en esos zokos fronterizos con destino a la exportación.

5º.- OTROS ARTICULOS.
Debe autorizarse tambien fijando precios a la exportación, ~~las~~ nueces y objetos artisticos (cuero y madera) producidos en Tagsut.

IMPORTACIONES
En los citados zokos debe autorizarse la entrada y adquisición de aquellos articulos que por su economía, (cereales) y abastecimiento nuestro deficiente o por su escasez, como las lanas (yilabas y alfombras) son imprescindibles a esas tribus.

Cabe fijar los cupos a importar, bien reduciendolos a las necesidades de esa vertiente, bien limitandolos a las compensaciones que puedan establecerse con los articulos destinados a la exportacion, ya que segun ellos no les interesa nuestra moneda.

Destinatario.- DELEGACION DE ASUNTOS INDIGENAS

AGA/81/1762/89

(٣)

خبر في جريدة Le Petit Marocain يوم ١٩/ ١٩٥٤/٠٦
حجز ٢٠٠ كيلوغرام من الكيف بالدار البيضاء واعتقال ٤ مهربين



200 KILOS DE KIF SAISIS A CASA

4 TRAFIQUANTS ARRETES

Dans la nuit de jeudi à vendredi les services de police ont procédé à l'arrestation de 4 trafiquants de kif. 200 kilos de ce stupéfiant, représentant un million de francs ont été saisis. (Notre photo).

(٤)

مقال من عدد يوم ١٩٥٤/٥/٢٠ لجريدة La Vigie Marocaine
عنوانه "سيارات محملة بالكيف تحاول اختراق نقاط المراقبة بسرعة ١٠٠ في الساعة، ولكنها نادرًا أن تنجح في التملص من المطاردين "



QUAND DOUANIERS ET FRAUDEURS SONT AUX PRISES...

Des autos chargées de kif foncent à 100 à l'heure pour forcer les barrages...

...mais il est rare qu'elles échappent aux poursuivants

LES brigades douanières des postes frontière entre les zones française et espagnole du Maroc ne disposent pas d'effectifs suffisants pour s'opposer aux formations parfois redoutables de contrebandiers. Et elles seraient souvent prises de court dans cette lutte, si elles n'étaient aidées dans leur tâche par les gendarmes, les moghaznis des postes militaires et même par la police dans les grands centres urbains où les contrebandiers écoulent leurs produits. Enfin, la Régie des Tabacs, directement intéressée par certains articles de contrebande relevant de son industrie, dispose également de contrôleurs qui participent à la lutte contre les « gangsters » du kif (1).

Deux coups pour rien...

Trois embuscades couronnées de succès

Cinquante kilomètres avec les pneus crevés...

Raymond LAURIAC.

(٥)

مقال من عدد يوم ١٩٥٤/٥/٢٢ لجريدة La Vigie Marocaine
عنوانه "معارك حقيقية بالبنادق والرشاشات تندلع في بعض الأحيان حول شحنة من الكيف"

Del periódico "La Vigie Marocaine" día 22 mayo 1954

9/29d Kif

QUAND DOUANIERS ET FRAUDEURS SONT AUX PRISES...

De véritables combats au fusil et à la mitraillette s'engagent parfois autour d'un chargement de kif

LA lutte entre contrebandiers, d'une part, et douaniers, gendarmes, moghaznis et goumiers d'autre part, revêt parfois un caractère tragique. Il faut pourtant bien dire que ce n'est pas là la règle. Il est beaucoup plus fréquent de voir le fraudeur abandonner son chargement et, au besoin, se laisser capturer, plutôt que d'attenter à la vie des douaniers et des autres défenseurs de l'ordre. Réciproquement, le douanier cherchera toujours à s'emparer du contrebandier, mais il préférera, le cas échéant, le laisser courir plutôt que de l'abattre d'un coup de fusil. D'ailleurs, les douaniers ne sont autorisés à faire usage de leurs armes qu'en cas de légitime défense, ou pour s'opposer à un « passage en force d'un groupe de fraudeurs ». Et encore ont-ils des ordres, en ce cas, pour ne tirer que sur les membres inférieurs des coupables (1).

Mais il faut bien dire que ces conventions ne valent qu'autant qu'elles sont respectées mutuellement, ce qui est loin d'être toujours le cas. Du côté des contrebandiers, on semble l'oublier trop souvent...

Rencontres tragiques

C'est ainsi que, le 2 juin 1953, une échauffourée assez vive mettait aux prises les agents des douanes du poste de Taounate qui, avec l'aide de moghaznis tentaient d'arrêter un groupe de trafiquants de kif réunissant une vingtaine d'individus bien décidés à ne pas se laisser prendre sans riposter.

Douaniers et moghaznis parvinrent à appréhender quatre contrebandiers et à capturer quatre cent soixante sept kilos de kif, mais plusieurs agents furent blessés à coups de matraques.

Un mois et demi plus tard, c'est un cavalier de la brigade de Lalla Rhano, près de Souk-el-Arba-du-Rharb, qui a une jambe fracturée en tentant de s'opposer au passage d'une voiture de trafiquant de kif.

Vers la fin de 1944, des bandes importantes de contrebandiers s'étaient spécialisées dans le passage en fraude de diverses marchandises, et notamment de pneus d'automobile, entre l'Algérie et la frontière espagnole, en empruntant la partie de la zone française qui sépare ces deux régions. Ces bandes n'hésitèrent pas, à plusieurs reprises, à faire le coup de feu contre les douaniers.

Trois morts et deux blessés dans une rencontre

Certain jour, au cours d'une rencontre, deux cavaliers européens de la brigade de Nédromah, sont tués à proximité de la frontière algéro-marocaine. L'un est abattu de deux balles de revolver, l'autre d'un coup de matraque.

Deux détachements de la brigade de Berkane, attaqués par les contrebandiers, ripostent et font usage de leurs armes. Résultat : un des fraudeurs est tué, l'autre blessé. Un moghazni qui accompagnait le détachement fut blessé à coups de couteau et de bâton, et un autre essuie deux coups de revolver sans être atteint.

Dans la région de Taibert, plusieurs trafiquants tirent des coups de feu sur un détachement qui riposte et abat un contrebandier. Le 6 mars 1945, le préposé-chef Thomasini, de la brigade de Figuig, est blessé d'un coup de poignard au côté gauche. Sous l'effet de la douleur, il lâche son adversaire et sa mitraillette lui échappe des mains. Il trouve cependant la force de tirer à trois reprises sur son agresseur sans réussir à l'atteindre. Le cavalier qui accompagne la victime tire à son tour à cinq reprises et n'est pas plus heureux.

Fort heureusement, un autre détachement de douaniers survient, intervient immédiatement et réussit à appréhender trois des contrebandiers, ce qui permit par la suite l'arrestation de l'agresseur du préposé-chef Thomasini. Quant à celui-ci, malgré la gravité de sa blessure, il parcourut sans se plaindre cinq cents mètres à pied, puis huit cents mètres à mulet avant d'être évacué sur l'hôpital où, après une intervention chirurgicale rapide, il ne fut sauvé que de justesse, grâce à la pénicilline expédiée en un temps record, d'Oujda à Colomb-Béchar, avec une voiture de la douane.

Peu de temps après, un cavalier de la brigade de Nédromah est grièvement blessé (perte du bras droit) par des contrebandiers armés de mitraillettes. Les malfaiteurs réussissent à tenir en échec un détachement de moghaznis et obligent ceux-ci à abandonner leur prise.

L'ampleur de ce mouvement de fraudes nécessita la mise au point d'un système comprenant des agents des douanes chérifiennes et algériennes, avec l'aide des autorités locales et l'appui des goumiers de la région. Les unités de douane furent motorisées et dotées d'armes appropriées, grâce à quoi l'activité des bandes ne tarda pas à être en sérieuse régression.

Un singulier auxiliaire des douaniers

Mais l'histoire douanière la plus étonnante survint avant guerre à la ferme du Fouarat, non loin de Souk-el-Arba-du-Rharb.

Une bande de contrebandiers des douars Ouled Ben Sebaa et Bechachma, venant de la zone espagnole, passait de nuit devant la ferme, lorsque soudain un coup de feu claqua et l'un des contrebandiers s'affaissa immédiatement, atteint d'une balle dans le ventre. Pendant que ses camarades s'empressaient autour de lui, l'auteur du coup de feu, un nommé Rezouani ben Djelloul, gardien de la ferme, vint se rendre compte de ce qui se passait. On releva la victime qui, transportée à l'hôpital, ne tarda pas à décéder.

Quoique le défunt et ses compagnons ne soient pas considérés « comme des gens bien recommandables », une enquête fut ouverte pour établir les mobiles qui poussèrent Rezouani à tirer sur le groupe de contrebandiers. On voulait aussi savoir comment, en pleine nuit et à cent vingt mètres de distance, il avait pu savoir qu'il avait affaire à des contrebandiers.

Les explications de Rezouani étaient très simples : alors qu'il dormait dans la ferme, il fut réveillé par des bruits insolites et, le groupe ayant cherché à voler du bétail, il avait « tiré dans le tas ».

Cette version était d'autant plus étonnante que les contrebandiers étaient lourdement chargés et n'étaient, de ce fait, pas en mesure d'entreprendre un vol de bestiaux. De plus, le coup de feu fut tiré de cent vingt mètres et le blessé avait été atteint sur la route et non dans la ferme.

La suite de l'enquête révéla que Rezouani était une franche fripouille, qui n'hésitait pas, le cas échéant, à jouer du revolver et de la matraque. On apprit qu'avec l'aide d'indicateurs, il se tenait au courant de passages de contrebandiers. Il se mettait alors à l'affût sur le chemin qu'ils devaient emprunter et les attaquait à coups de revolver. Neuf fois sur dix les contrebandiers croyaient avoir à faire à un détachement de douaniers. Ils s'enfuyaient en abandonnant leur cargaison. Il ne restait à Rezouani qu'à se l'approprier et à aller la vendre sur les souks. Il vivait ainsi de la contrebande, sans courir les risques du passage de la frontière...

Ce trop astucieux personnage fut condamné à dix ans de prison et au paiement d'une « dia » de six mille francs à la veuve du contrebandier qu'il avait abattu.

(A SUIVRE)

Raymond LAURIAC

الهَوامِشُ:

(1) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/1520

تقرير من إنجاز جهاز المراقبة العسكرية بتاريخ ١٩٢٤/٧/٣٠.

(٢) **خوان مارش أورديناس**، رجل أعمال إسباني معروف بدأ حياته مهربا للسجائر من المغرب والجزائر نحو إسبانيا مول نقلاب ١٩٣٦ ولعب أدوارًا مهمة في حقبة فرانكو وتمكن خلال تلك الفترة من تكوين ثروة مالية ضخمة بسبب احتكاره للتبغ والبترول والنقل البحري توفي سنة ١٩٦٢ جراء حاجثة سير.

(3) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/1762.

رسالة من جهاز المراقبة بناحية الريف لمندوبية الشؤون الأهلية بتاريخ ١٩٣٩/٨/٢٩

(4) Ibid.

(٥) **الجريدة الرسمية**، عدد (٣٤٢)، بتاريخ ١٩١٩/١١/١٧، ص٧٣٦.

(6) Dahir de 12 Novembre 1932, modifie par Dahir de 18 Fevrier 1937, relatif au regime des tabacs et du kif au Maroc. Page 3.

(7) Ibid, page 16.

(٨) ملاحظة: اطلعت على نص الظهير باللغة الفرنسية.

(٧) تضم المحفظة رقم ٨١/١٩١٢ والمحفظة رقم ١٩١٠/ ٨١ المحفوظتان بالأرشيف العام للإدارة الإسبانية أسماء العديد من المهربين الذين قتلوا على يد قوات القوم.

(10) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/978.

رسالة من باشا تطوان إلى القنصل المراقب بتاريخ ١٩٢٨/٣/٢

(11) Ibid.

(12) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/1762.

رسالة من جهاز المراقبة بناحية الريف لمندوبية الشؤون الأهلية بتاريخ ١٩٣٩/٨/٢٩

(13) 600 000 Francs de kif en nouvelle medina de Casa, le Petit Marocain, 27/06/1954. Et voire aussi cinq cents kilos de kiff saisie prés de Fes, la Vigie Mrocaine 5/10/1954.

(١٤) "**الحماية الإسبانية على شمال المغرب ومسؤوليتها في بروز المشاكل الاقتصادية المنطقة**"، مجلة أمل، العدد ١٢ – عبد الرحيم برادة، ٢٠١٤، ٨٩.

(15) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/1762.

رسالة من جهاز المراقبة بناحية الريف لمندوبية الشؤون الأهلية بتاريخ ١٩٣٩/٨/٢٩

(16) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/2202.

مذكرة استعلامية بخصوص استفحال تهريب الأقراص المخدرة.

(17) Ybarra Enriquez de la Orden (Maria concepcion); España y la seccolonizacion del Magreb, Universidad Nacional a de Educacion a distancia, Madrid, 1989, pagina 252.

(18) Quand les douaniers et les fraudeurs sont aux prises, La Vigie Marocaine, 20/5/1954.

(19) Article nommé 'sur les Routes du Riff a la poursuites en auto des contrebandier de kif', LA vigie Marocaine 09/06/1953.

(20) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/633.

ملف عن عصابة محمد بن الهاشمي البويبو

(21) "Article nommé 'De véritables combats au fusil et a la mitraillette s'engagent parfois autour d'un chargment de kif', La vigie Marocaine, 22/5/1954.

(22) Article nommé '20 kilo de kif saisie a Rabat', Le Petit Marocain 10/2/1955.

(23) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/1910 y tambien la caja N° 81/1912.

(24) Ibid.

- لمزيد من التفاصيل بخصوص هذه المسالك يمكن العودة إلى كتاب **جولات في ذاكرة مقاوم**، (الأنصاري) محمد بن المختار، دار أبي رقراق، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩١٢، صفحة ٦٠ وما بعدها.

(26) Eusebio Medina García, CONTRABANDO EN LA FRONTERA DE PORTUGAL: ORÍGENES, ESTRUCTURAS, CONFLICTO Y CAMBIO SOCIAL, UNIVERSIDAD COMPLUTENSE DE MADRID. FACULTAD DE CIENCIAS POLÍTICAS Y SOCIOLOGÍA, Madrid, 2001, P 274.

(27) Article nommé, 'Sur les contreforts du Rif, ou s'affront douaniers, moghaznis et gannsters du ki', La Vigie Marocaine, 19/5/1954.

(٢٨) الفرخ (جواد)، **مذكرات المقاوم بوشتى صبور**، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص٩٩.

(٢٩) نظرًا لكثرة ضحايا إطلاق النار من المهربين وردود أفعال المغاربة على ذلك أحيل القارئ مباشرة إلى المحفظة رقم ٨١/١٩١٠ المحفوظة بالأرشيف العام للإدارة الإسبانية.

(30) Article nommé 'De contrebandier qui font capoter la jeep de la police, deux blessées', La Vigie Marocaine, 22/7/1954.

(٣١) (السباعي) محمد خليل، **صفحات من تاريخ المقاومة السرية بالدار البيضاء**، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ص ٢٣.

(٣٢) **مذكرات المقاوم بوشتى صبور**، مذكور سابقًا.

(33) Centre des archives Diplomatique de Nantes, 1Ma/200/502.

رسالة من رئيس ناحية وجدة إلى المديرية العامة للداخلية بالرباط بتاريخ ١٩٥٥/١٢/٢.

(34) Centre des archives Diplomatique de Nantes, 1Ma/200/502.

مذكرة استعلاماتية عن شعبة الشؤون السياسية التابعة للمديرية العامة للداخلية.

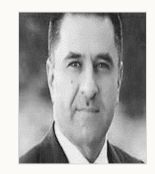
ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

دراسات

العلاقات الإيرانية – السوفيتية
من استلام غورباتشوف للسلطة حتى نهاية الحرب العراقية – الإيرانية
(١٩٨٥–١٩٨٨م)



د. فرهاد محمد أحمد
أستاذ مساعد – قسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية – جامعة دهوك
إقليم كوردستان – جمهورية العراق



د. ناظم يونس عثمان
أستاذ مساعد – قسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية – جامعة دهوك
إقليم كوردستان – جمهورية العراق

مُلَخّص

تدور محاور هذا الدراسة حول تطورات التحسن النسبي التدريجي للعلاقات الإيرانية–السوفيتية من استلام ميخائيل غورباتشوف للسلطة وحتى نهاية الحرب العراقية –الإيرانية، فبعد تولي غورباتشوف السلطة في الاتحاد السوفيتي في مارس ١٩٨٥، وفي ظل برامجه الإصلاحية تراجعت الاعتبارات الأيديولوجية نسبيًا أمام الاعتبارات الاقتصادية بوصفه محددًا عامًا للسياسة الخارجية السوفيتية، ويقال الأمر نفسه بخصوص السياسة الخارجية الإيرانية التي تخلت نوعًا ما عن مبدأ تصدير الثورة الإسلامية إلى الخارج، وهذا ما دفع بالبلدين إلى تحسين علاقاتهما، كذلك ظروف الحرب العراقية–الإيرانية وتطوراتها الإقليمية والدولية، حيث اتسمت علاقات البلدين خلال الفترة (١٩٨٥–١٩٨٧) بالتحسن التدريجي نسبيًا، ثم سادها نوع من التوتر النسبي في علاقاتهما من جديد خلال الفترة (١٩٨٧–١٩٨٨) بفعل تطورات الحرب العراقية–الإيرانية باتجاه حرب الناقلات البترولية، وحرب المدن، وما رافق ذلك على مستوى الأزمة الأفغانية والموقف السوفيتي من الحصار الغربي على إيران، إلا إنها لم تصل إلى المستوى الذي شهده علاقات البلدين عند بداية الحرب العراقية–الإيرانية، وهذا ما جعل علاقات البلدين أن تدخل مرحلة جديدة بعد انتهاء الحرب، فشهدت علاقاتهما خلال الفترة (١٩٨٩–١٩٩١) تطورات نوعية مهمة على المستوى السياسي والاقتصادي، أنهت بذلك الطابع العدائي الذي ساد علاقات البلدين بعد الثورة الإسلامية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١١	فبراير	٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر:	١٦	أبريل	٢٠١٨

كلمات مفتاحية:
الحرب العراقية الإيرانية، الناقلات البترولية، مجلس الأمن، الاتحاد السوفيتي، تاريخ إيران

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052952

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
فرهاد محمد أحمد، ناظم يونس عثمان. "العلاقات الإيرانية-السوفيتية من استلام غورباتشوف للسلطة حتى نهاية الحرب العراقية-الإيرانية (١٩٨٥-١٩٨٨)".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص١١٤ – ١٢٨.

أولاً: العلاقات بين البلدين من استلام غورباتشوف للسلطة حتى إعلان المبادرة السلمية السوفيتية ١٩٨٥-١٩٨٧

يُعَدّ تسلم (Mikhail Gorbachev) ميخائيل غورباتشوف[١] لمقاليد السلطة في الاتحاد السوفيتي في آذار ١٩٨٥ نقطة تحول مهمة، ليس في تاريخ الاتحاد السوفيتي فحسب، وإنما في تاريخ العلاقات الدولية أيضًا، فالسياسة التي تبناها غورباتشوف كانت تختلف جوهريًا عن سياسة سابقيه من القادة السوفيت، حيث فرض رؤية واقعية جديدة لطبيعة العلاقات الدولية، التي أدت تدريجيا إلى تخفيف حدة التوتر في العالم بأسره[٢].

أملت إيران، كباقي دول العالم، خيرًا بسياسة الزعيم السوفيتي الجديد، فالتأكيدات السوفيتية بشأن موقفها الحيادي في الحرب بدأت تظهر بكثافة في الصحافة السوفيتية، فمثلاً لم تلق زيارة طارق عزيز إلى موسكو في أواخر آذار عام ١٩٨٥ أي اهتمام من قبل الإعلام السوفيتي، فصحيفة البرافدا التي نشرت خبر تلك الزيارة في عددها المؤرخ ٣١ آذار ١٩٨٥، نشرته بشكل

مختصر، وفي الصفحة الرابعة ودون أن تعلق على الزيارة، بعكس ما كانت تفعله في السابق[٣]. ولكي تطمئن القيادة الإيرانية للسياسة السوفيتية الجديدة، أدلى السفير السوفيتي حينها في طهران بتصريحات مشجعة للجانب الإيراني، وقال: "أن العراق لا يمتلك صواريخ بعيدة المدى تصل إلى المدن الإيرانية"، وعن مسألة حزب توده، أكد: "أنها مسألة داخلية، وأن الاتحاد السوفيتي ليس له أدنى تدخل فيها"، واختتم تصريحاته بالتأكيد على أن: "الاتحاد السوفيتي يقف على الحياد في الحرب، ويرغب في إنهائها بأسرع وقت من خلال المباحثات المباشرة بين الدولتين"[٤].

ومع ذلك فإن معالم السياسة السوفيتية الجديدة بالنسبة للحكومة الإيرانية لم تكن واضحة بشكل كامل بعد، فالمقالة التي كتبها الدكتور اوليانوفيسكي Ulianovschi، نائب الإدارة الدولية باللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، في مجلة كوميونيست Comunist في أواخر حزيران ١٩٨٥ كانت مليئة بالانتقادات للثورة الإيرانية وطبيعة نظامها؛ فقد أشار في مقالته المعنونة (مصير الثورة الإيرانية) إلى أن الثورة الإيرانية أنتجت نظامًا استبداديًا، مؤكدًا:" يذكرنا الموقف الداخلي الحالي في إيران بأوقات العصور الوسطى المظلمة، حيث يبدو الناس جميعًا تحت الرقابة والريبة، والاعتقال، والتعرض للإعدام، كل هذا قد أصبح الطابع المعتاد للحياة السياسية والاجتماعية في آن واحد في إيران الحالية"[٥].

من جانب آخر كانت القيادة الإيرانية ترى أن هناك العديد من العوائق تحول دون تطبيع العلاقات مع الجارة الشمالية، فقد لخص علي أكبر ولايتي[٦]، وزير الخارجية الإيراني، المشاكل التي تعيق العلاقة بين البلدين، منها على سبيل المثال: عدم الخروج من أفغانستان، ودعمها غير المباشر للجانب العراقي على الجانب الإيراني في الحرب، وخروج الخبراء السوفيت من إيران[٧]؛ لهذا كانت القيادة الإيرانية ترى عدم جدوى التحركات السوفيتية لإنهاء الحرب العراقية-الإيرانية؛ فقد طالب علي خامنئي، رئيس الجمهورية، خلال خطابه في مدينة قزوين في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٨٥، الاتحاد السوفيتي بعدم التدخل في إنهاء الحرب؛ لأنها لن تجدي نفعًا، وأشار خامنئي إلى أن العراق يحث القيادة السوفيتية للقيام بذلك الدور، إلا أن الشعب الإيراني هو صاحب القرار الوحيد في إيقاف هذه الحرب، وليس غيره[٨].

شكلت زيارة الرئيس العراقي صدام حسين(١٩٧٩-٢٠٠٣) إلى موسكو، في ١٦ كانون الأول ١٩٨٥، نقطة تحول كبيرة، سواء أكان ذلك في تاريخ العلاقات العراقية-السوفيتية، أم في حجم المتغيرات الجديدة على موقف دول الخليج، ومستقبل الحرب العراقية-الإيرانية؛ لأن الزيارة كانت تنطوي على جانبين، فمن الجانب العسكري جاءت الزيارة في ظل التوتر العسكري المتصاعد بين العراق وإيران، ولا سيما بعد أن حشدت الأخيرة أكثر من نصف مليون جندي على جبهات القتال مع العراق لشن هجوم عسكري واسع بهدف تغيير ميزان القوى لصالحها، فقد جاءت زيارة صدام حسين لموسكو للحصول على المزيد من السلاح الروسي المتطور لتعزيز قدرات الجيش العراقي في مواجهة الهجوم الإيراني الوشيك، أما الجانب السياسي للزيارة، فكان لتأييد المساعي السوفيتية في المحافل الدولية لإنهاء الحرب[٩]، وقد أكد أندريه غروميكو (Andrei Gromyko)، وزير الخارجية السوفيتي، في أثناء لقائه بالرئيس العراقي:" أن أولئك الذين يصرون على استمرار الحرب حتى النصر النهائي يضحون بمصالح شعوبهم وشعوب المنطقة"[١٠].

ومما لاشك فيه أن هذه الزيارة تركت انطباعات سلبية عند طهران، وأوضحت الصحف الإيرانية أن الزيارة لم تكن موفقة، فقد أشارت صحيفة اطلاعات حينها، وهي تعلق على العلاقات الجيدة بين طهران وموسكو، إلى الموقف الإيجابي الذي اتخذته موسكو في الجمعية العامة للأمم المتحدة حينما رفضت قرارًا أصدرته الجمعية تدين إيران بانتهاك حقوق الإنسان في بلدها[١١]. وللتخفيف من وطأة تأثير تلك الزيارة على العلاقات الإيرانية-السوفيتية أذاع راديو موسكو بيانًا من الحكومة السوفيتية تؤكد فيه رغبتها في تطوير العلاقات بين البلدين، وأضاف البيان أنه لا يجب أن يكون اختلاف الأيديولوجية سببًا في عدم وجود العلاقات بين البلدين، واعترفت أن الحرب العراقية-الإيرانية قد تركت تأثيرات سلبية على العلاقات بين البلدين، منها اضطرارها على سحب خبرائها من إيران خوفًا على حياتهم، كذلك تركت تأثيرًا سلبيًا على حجم التبادل التجاري بين البلدين، ومن ذلك المنطلق طالب الاتحاد السوفيتي بإنهاء الحرب؛ كونها لا تخدم البلدين وإنما تخدم غيرهما[١٢]. فضلاً عن ذلك أرسل غورباتشوف رسالة إلى القيادة الإيرانية عن طريق بولديريف، السفير السوفيتي الجديد في طهران، الذي التقى بدوره بنائب وزير الخارجية الإيراني علي محمد بشارتي، حيث تباحثا معًا شؤون تطوير العلاقات بين البلدين[١٣].

وتأكيدًا لبيان حسن النوايا السوفيتية تجاه إيران توجه وفد سوفيتي برئاسة جورج كورنينكو Georg Kornienko، نائب وزير الخارجية السوفيتي، إلى طهران في ٢٣ كانون الثاني ١٩٨٦، وقد استقبله نظيره الإيراني علي محمد بشارتي، الذي أكد عند استقباله للوفد الزائر أن هناك عدة ملفات سيبحثها الجانبان، منها مشكلة أفغانستان، وإمدادات السلاح إلى العراق، كذلك استئناف العمل في مشاريع التنمية المشتركة بين الجانبين[١٤]. ومن ضمن الاتفاقات التي توصل إليها كورنينكو خلال زيارته لطهران هو مباحثاته مع علي أكبر ولايتي، وزير الخارجية الإيراني، والاتفاق بشأن عودة الرحلات الجوية بين طهران وموسكو، والموافقة على الدعوة التي وجهت إلى وزير الخارجية الإيراني بزيارة موسكو[١٥]. يبدو أن زيارة كورنينكو كانت تهدف إلى تحقيق عدة غايات منها: إن انخفاض الإنتاج الإيراني من النفط قد يجعل الاتحاد السوفيتي سوقًا بديلاً للنفط الإيراني عن السوق الغربية، التي لا يصل إليها سوى القليل من النفط الإيراني، بسبب الهجمات العراقية على المنشآت النفطية الإيرانية، وعلى ناقلات النفط التي تحمل النفط الإيراني من الخليج، كما كانت موسكو تطمح في أن تتوقف طهران في دعمها ومساندتها لثوار أفغانستان، وأن تكف الحكومة الإيرانية عن مضايقة أعضاء حزب توده[١٦].

لم تمض فترة طويلة على زيارة كورنينكو لطهران، حتى جاء الاحتلال الإيراني لمثلث الفاو في جنوب العراق في التاسع من شباط ١٩٨٦، التي كانت بمثابة نقطة تحول كبيرة في مجريات الحرب العراقية-الإيرانية، وشكلت بداية لاحتلال مدن عراقية أخرى، بل تهديدًا مباشرًا للنظام العراقي بأسره، وتغييرًا في ميزان القوة لصالح إيران، وتهديدًا للنظام الإقليمي والدولي، وهذا ما لم ترغب به القيادة السوفيتية؛ لأنها لا تريد انتصار أي طرف على الآخر، والانتصار الإيراني سيؤثر سلبًا على مسلمي الاتحاد السوفيتي، وسيدعم الموقف الأفغاني ضد القوات السوفيتية فيها، وبالتالي سيعني انتصار الإيديولوجية الإسلامية ضد الإيديولوجية الشيوعية[١٧].

وتجنبًا لتحقيق انتصار إيراني حاسم على القوات العراقية وهزيمتها بدأت الحكومة السوفيتية بالتحرك على المستويين الدولي والإقليمي، فعلى المستوى الدولي بدأت بخطوات حثيثة مع الإدارة الأمريكية، للتفاهم حول الأزمة الأفغانية، والحرب بين العراق وإيران، وبجهود الطرفين، الأمريكي والسوفيتي أصدر مجلس الأمن الدولي قرارًا جديدًا طالب فيه البلدين بضرورة إنهاء الحرب بينهما، والعودة إلى الحدود الدولية[١٨] ، وقد صرح مندوب الاتحاد السوفيتي في الأمم المتحدة، سافرونجوك، بأن بلاده:" تطالب طرفي النزاع بأن يضعا خلافاتهما جانبًا، واللجوء إلى المباحثات المباشرة لحلها؛ لأن الحرب لا تخدم سوى مصلحة الأطراف التي تريد التدخل في شؤون البلدين الداخلية من أجل إضعافهم"[١٩].

ومن جهة أخرى بدأ الاتحاد السوفيتي يقدم للعراق أسلحة بشكل مباشر؛ فقد سلم للعراق بعد احتلال الفاو حوالي (٢٠٠٠) دبابة كان من بينها (٨٠٠) دبابة متطورة من نوع (T-72)، و(٣٣) طائرة حربية شملت طائرات نوع (Mig- 23)، و(Mig- 25) و(Mig-27)، كذلك (٣٠٠) صاروخ أرض أرض(Scud- B)، و (SS-12)، فضلاً عن إرسالها للعديد من خبرائها وفنيها إلى العراق[٢٠].

بدأت القيادة الإيرانية تدرك جيدًا أن أيًا من القوتين العظيمين لا تريدان أن تنتصر إيران في الحرب، وعليه حاولت طهران تغيير سياستها الخارجية نحو التهدئة؛ فقد طالب الخميني الدبلوماسيين الإيرانيين في الخارج بانتهاج سياسة جديدة، مؤكدًا ضرورة إقامة علاقات طيبة مع جميع الدول فيما عدا الدول المعادية للنظام الإيراني، وبدأ الزعماء الإيرانيون بالتراجع عن شعار تصدير الثورة إلى العالم، وكلفت الحكومة الإيرانية مجموعة من الدبلوماسيين للقيام بمهام رسمية بشأن توضيح وبيان موقف إيران بعد احتلال الفاو مؤكدة أنها لا تشكل خطرًا، أو تهديدًا للدول المجاورة، وليس لها مطامع في احتلال العراق أو أي دولة أخرى. يبدو أن السبب في ذلك الموقف الجديد كان يكمن في الصعوبات التي واجهتها في الحصول على السلاح، والتخفيف من الصورة القبيحة التي رسمها العالم لإيران كدولة دينية متطرفة، ووجود استياء شعبي داخلي بسبب الحرمان والكبت، واستئناف العلاقات العراقية-السوفيتية، والخوف من تقارب الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة مع عدوهما ضدها[٢١].

وكان من الطبيعي أن يكون الاتحاد السوفيتي على رأس تلك الدول التي كانت الحكومة الإيرانية تفكر في إعادة العلاقات معها، ليس لاستيراد السلاح منه، بل كونه النافذة الوحيدة التي يمكن من خلالها الاتصال بالعالم الخارجي في حال تهديد نافذتها الجنوبية على الخليج؛ ولهذا حاولت إيران تذليل العقبات في طريق العلاقات بين البلدين، ففي زيارة رسمية قام بها محمد جواد لاريجاني، نائب وزير الخارجية الإيراني، إلى موسكو في أوائل آب عام ١٩٨٦، والتي استغرقت أربعة أيام، أدلى لاريجاني عقب عودته إلى طهران بتصريحات للصحافة أشار إلى أنه أجرى مباحثات مهمة جدًا مع المسؤولين السوفيت، مؤكدًا:" أن الاتحاد السوفيتي أيضًا مهتم بشكل جدي بتطوير علاقاته مع الجانب الإيراني، وأنه في الأيام القادمة سيقوم علي أكبر ولايتي، وزير الخارجية الإيراني، بزيارة إلى موسكو لبحث أمن المنطقة وقضايا أخرى"[٢٢].

وفي السياق نفسه شهدت العلاقات بينهما تحسنًا واضحًا، عندما صرح غلام رضا آغا زاده، وزير النفط الإيراني للصحف الإيرانية بعد المحادثات التي أجراها في موسكو مع المسؤولين السوفيت في أواخر آب ١٩٨٦، بأن إيران والاتحاد السوفيتي اتفقا على استئناف صادرات الغاز الإيراني إلى الاتحاد السوفيتي، وقال إن إيران ستبدأ بتصدير كميات صغيرة نسبيًا لتصل بحلول ١٩٩٠ إلى المستوى السابق(٣٥٠) مليار قدم مكعب في السنة[٢٣]. ومع أن هذه النسبة لا تمثل سوى نسبة ضئيلة من إنتاج الغاز في الاتحاد السوفيتي الذي يعدّ أكبر مصدري الغاز في العالم بمعدل سنوي قدره (٢٣٠٠٠) مليار قدم مكعب، إلا أن للغاز الإيراني فائدة مهمة بالنسبة للاتحاد السوفيتي، فمن المعروف أن مصادر الغاز السوفيتي الكبرى تقع في غرب سيبيريا، التي هي بعيدة عن القوقاز القريبة جغرافيًا إلى مصادر الغاز الإيراني، فعندما توقف الغاز الإيراني عن الإنتاج والتصدير في ١٩٨٠، اضطر الاتحاد السوفيتي إلى بناء خطوط أنابيب لمسافات طويلة لإمداد الغاز إلى منطقة القوقاز[٢٤]. وفي أثناء زيارته لموسكو تباحث أيضًا الوزير الإيراني مع الجانب السوفيتي طالبًا منه تخفيض صادراته النفطية، بهدف تقليل العرض لزيادة الأسعار، وتجاوبت الحكومة السوفيتية للطلب الإيراني، فضلاً عن اتفاق الجانبين على التعاون المشترك في استخراج النفط في الحوض الجنوبي لبحر قزوين[٢٥].

ونتيجة للتحسن التدريجي في العلاقات بين البلدين فإن الحكومة السوفيتية تغاضت عن اعتراض البحرية الإيرانية، في أواخر آب ١٩٨٦ لسفينتين سوفيتيين، إحداهما تدعى بيوتر يمتسوف Pyotr Yemtsov التي أوقفتها قبالة سواحل دولة الإمارات العربية المتحدة وأصطحبتها إلى ميناء بندر عباس الإيراني، واضطرت السفينة لتفريغ حمولتها للتأكد على أنها لا تستخدم لأغراض عسكرية. والثانية كانت تدعى توتوف Tutov، التي أوقفتها لمدة قصيرة ثم سمح لها بالاستمرار[٢٦]. ويبدو أن عدم الحاق الأذى بالسفينتين وتركهما هي التي حالت دون

إقدام الحكومة السوفيتية بالاحتجاج عند الحكومة الإيرانية، ولا سيما أن الحادث قد وقع في فترة كان كل من موسكو وطهران يسعيان إلى تحسين علاقاتهما المتوترة منذ فترة طويلة[٢٧].

إن تحسن العلاقات بين البلدين دفعت بالحكومة الإيرانية إلى رفع مستوى تمثيلها الدبلوماسي في موسكو، فعينت في أوائل تشرين الأول ١٩٨٦ سفيرًا جديدًا مشهودًا له بالكفاءة والنشاط، ويسعى إلى تطوير العلاقات بين البلدين، وهو ناصر حيران نوبري[٢٨] بدلاً من القائم بأعمالها[٢٩]. وأكد غروميكو، رئيس الاتحاد السوفيتي، عند استقباله للسفير الإيراني الجديد في العاشر من تشرين الأول ١٩٨٦، أن الاتحاد السوفيتي يأمل في تطوير علاقات حسن الجوار بين البلدين مشيرًا:" نحن في الاتحاد السوفيتي ننظر إلى الشعب الإيراني بإجلال فهو الذي أسقط الإمبريالية في بلاده"[٣٠].

القت تحسن العلاقات السياسية بين البلدين بظلالها على المجالات الاقتصادية الأخرى، فقد عقدت سلسلة من اللقاءات المشتركة في أوائل عام ١٩٨٦ بين مسؤولي البلدين، في كل من طهران وموسكو، ترأس الجانب السوفيتي قسطنطين كاتوشف Konstantin F.Katushev رئيس الوفد السوفيتي إلى طهران مع محمد جواد ايرواني، الذي صرح بعد انتهاء المحادثات بأن:" تحسين العلاقات مع موسكو هي واحدة من أهم أولويات السياسة الخارجية الإيرانية"[٣١]، وأكد هاشمي رفسنجاني أيضًا على أهمية العلاقة مع الاتحاد السوفيتي، لكنه في الوقت نفسه لم يخفِ انتقاداته للسياسة السوفيتية تجاه حرب الخليج، والحرب في أفغانستان، بالقول:" كيف تحارب موسكو الثورة التي تناهض الإمبريالية، وتقف إلى جانب حكومة بغداد التي تنتهك صراحة الاتفاقيات الدولية"[٣٢]. أما كاتوشف فقد صرح بدوره بأن هناك جهودًا تبذل من أجل تحسين العلاقات بين البلدين، وأشار إلى جملة من المشاريع التي ناقشها مع الجانب الإيراني، منها: تأسيس شركة شحن مشتركة في بحر قزوين، وتصدير الغاز الإيراني إلى أوربا عبر الأراضي السوفيتية، والاتفاق على إنشاء سدين، أحدهما على نهر اراس، والآخر على نهر اترك على حدود البلدين، كذلك ناقشا عودة الفنيين السوفيت الذين غادروا إيران عام ١٩٨٥، بسبب الغارات الجوية العراقية على المشاريع الصناعية الكبرى في إيران[٣٣]. وعلق رئيس الجمهورية الإيرانية "علي خامنئي" على أهمية هذه المحادثات الاقتصادية قائلاً:" إنها تشكل تقدمًا كبيرًا في توطيد علاقات البلدين الاقتصادية، ويمكن أن يكون لها تأثير سياسي بعيد المدى"[٣٤]. يذكر أن اجتماعات اللجنة الاقتصادية الإيرانية-السوفيتية المشتركة كانت من المفروض أن تعقد جلساتها في عام ١٩٨٠، ولكن بسبب توتر علاقات البلدين السياسية تأجلت جلساتها مرارًا وتكرارًا لمدة ست سنوات[٣٥].

تواصلت اللقاءات المشتركة بين الطرفين؛ فقد نقلت الصحافة السوفيتية أن هناك مباحثات اقتصادية مشتركة تجرى الأن في موسكو بين مؤسسة التجارة الخارجية السوفيتية مع شركة توانير الإيرانية الخاصة بإنتاج الكهرباء، حيث تناولت المباحثات كيفية زيادة إنتاج الطاقة الكهربائية في المحطة الحرارية في أصفهان إلى (٧٠٠) ألف كيلوات، وعلق راديو موسكو على هذه المباحثات بأنها: "تأتي في إطار توسيع العلاقات الاقتصادية بين البلدين"[٣٦].

عادت العلاقات بين البلدين تشهد توترًا نسبيًا، على خلفية اكتشاف فضيحة العلاقات السرية بين إيران والولايات المتحدة، والتي تعرف بفضيحة إيران غيت[٣٧] Iran Gate وذلك في تشرين الثاني ١٩٨٦، حيث أصبحت تلك الفضيحة محل نقد شديد في الصحافة السوفيتية، إلا أن النقد تركز بالدرجة الأساس على الولايات المتحدة أكثر من إيران، ففي مقال لصحيفة البرافدا ذكرت:" ان فضيحة الأسلحة الأمريكية الإيرانية ليست صدفة بل تجسيد للغطرسة والهيمنة والاستهتار بالقوانين الدولية والتدخل في الشؤون الداخلية للدول والشعوب"[٣٨]. في حين أن وكالة تاس ذكرت: "أن الولايات المتحدة وإسرائيل بعملها هذا يسكبان الزيت على نار الحرب العراقية-الإيرانية"، ووصفت فضيحة الأسلحة بأنها:" خروج على مبدأ الحياد تجاه الحرب بين العراق وإيران، الذي أعلنته الإدارة الأمريكية"، وأشارت أن الولايات المتحدة تسعى من خلال أرسال أسلحة سرية إلى طهران إلى جعل: "إيران العوبة في يدها مثلما كانت في ظل حكم الشاه"[٣٩].

وللتقليل من أهمية التداعيات السلبية، التي تركها اكتشاف العلاقات السرية بين إيران والولايات المتحدة نشرت بعض الصحف الغربية، ومنها الصندي تايمز The Sunday Times البريطانية، بعض التقارير التي تؤكد أن موسكو أيضًا تبيع الأسلحة إلى إيران سرًا؛ فقد أكدت الصحيفة المذكورة: "أن الاتحاد السوفيتي يقوم بشحن أسلحة سوفيتية سرًا إلى إيران، وتستلم الأخيرة هذه الشحنات السرية بشكل مباشر من الاتحاد السوفيتي، وفي بعض الأحيان بطرق غير مباشرة من عدة دول بينها كوريا الشمالية، وتشيكوسلوفاكيا"[٤٠].

وتطرقت صحيفة لفيغارو Le Figaro الفرنسية أيضًا في مقال مطول لها إلى فضيحة إيران غيت تحت عنوان (العلاقة الشائكة بين موسكو وطهران)، أوضحت فيه:" أن الاتحاد السوفيتي بدأ يوظف هذه القضية لصالحه بنجاح، فالقضية بالنسبة للكرملين تمثل منبعًا للاجتهادات الشيوعية الجديدة في حربها على النظم الرأسمالية، وهي في الوقت نفسه تشكل مصدرًا محرجًا للبيت الأبيض، وعلى ذلك الأساس دأبت الصحف السوفيتية على الشجب العنيف لشحنات الأسلحة الأمريكية إلى إيران، وأكدت أنها بمثابة دليل قاطع على رغبة واشنطن في التدخل بالشؤون الداخلية للجمهورية الإسلامية، والسعي إلى استمرار النزاع الإيراني-العراقي لزعزعة الوضع في هذه المنطقة"[٤١]. ومن جانبها انتقدت صحيفة ازفيستا السياسة الإيرانية وأشارت: "أن إيران أيضًا تؤدي دورًا سلبيًا في المنطقة، وأنها بتعاونها مع الولايات المتحدة، واشتراكها الفعلي في النشاطات التخريبية ضد جمهورية أفغانستان الديمقراطية، تكون إيران قد انحازت إلى الولايات المتحدة وحلفائها"[٤٢].

وأشار المحلل السياسي فلاديمير بيربساد Vladimir Berbassad في مقال نشر في صحيفة البرافدا في ٢٢ كانون الأول ١٩٨٦ إلى: "أن الحرب العراقية-الإيرانية، التي دخلت عامها

السابع، صراع لا معنى له، إن الأخ يقتل فيها أخاه، ولا يستفيد منه أحد سوى الولايات المتحدة وإسرائيل... إن توتر الموقف يتيح لواشنطن فرصة إبقاء قوات بحرية كبيرة بالقرب من الخليج، ويجعل من السهل اتباع سياسة فرق تسد في هذه المنطقة المهمة استراتيجيًا والغنية بالنفط"، وأضاف المحلل: "لهذا السبب فقد تحولت إطالة أمد هذا الصراع إلى هدف استراتيجي لإسرائيل، كما أن كشف النقاب عن إرسال أسلحة أمريكية لإيران توضح أن حكومة الرئيس رونالد ريغان Ronald Reagan (١٩٨١-١٩٨٩) تميل إلى إذكاء الحرب العراقية-الإيرانية"، وبعد أن أوضح كاتب المقال الموقف الأمريكي من الحرب أشار إلى الموقف السوفيتي أيضًا، وقال: "بأن الاتحاد السوفيتي الذي أكد على حياديته في الحرب يواصل إمداد العراق بالأسلحة طبقًا للمعاهدة التي تربطهما، في الوقت الذي يسعى إلى تحسين علاقاته بإيران"[٤٣].

ونفت وكالة نوفوستي Novosti السوفيتية للأنباء ما ذكرته صحيفة نيويورك تايمز عن أن الاتحاد السوفيتي باع في كانون الأول عام ١٩٨٦ أسلحة لإيران بما قيمته (١٨) مليون دولار لحاجته إلى العملات الأجنبية، وقالت الوكالة إن مثل هذه الأنباء ليست إلا محاولات للتشهير بسياسة الاتحاد السوفيتي، وخاصة في الوقت الحالي، بسبب تفاقم خطورة الوضع في منطقة الخليج[٤٤].

ومن جانب آخر انتقدت الصحافة الإيرانية بدورها الموقف السوفيتي من الحرب، الذي عدته موقفًا غير حياديًا من طرفي النزاع، ولا سيما بعد إعلان ممثل الاتحاد السوفيتي في الأمم المتحدة أن بلاده تقف على الحياد في النزاع الدائر بين العراق وإيران، فقد شنت صحيفة (رسالت) الإيرانية هجومًا لاذعًا ضد الاتحاد السوفيتي بقولها:" إن ممثلكم في الأمم المتحدة يعلن عن حياد بلادكم في الحرب، بينما الأسلحة السوفيتية المتنوعة لا زالت مستمرة بالتدفق إلى العراق، التي بها يقتل يوميًا أبناء الشعب الإيراني، الذي يعلم حقيقة الموقف السوفيتي الداعم لنظام صدام الذي يحارب الثورة التي قضت على النفوذ الأمريكي في إيران...، ومن الآن لا يمكن قبول شعاراتكم ضد الإمبريالية والرجعية في إيران"[٤٥].

وعلى الرغم من الانتقادات المستمرة للصحافة الإيرانية ضد المواقف السوفيتية في أثناء الحرب العراقية الإيرانية، إلا أن الموقف الإيراني الرسمي كان أقل تشددًا من موقف الصحافة؛ لأنها لم تكن تبغي وصول العلاقة بين البلدين إلى درجة القطيعة، ويمكن أن نعزو ذلك إلى عدة أمور منها:

١- زيادة الهجمات الجوية العراقية على المنصات والناقلات التي تحمل البترول الإيراني في الخليج، والتي أصبحت منطقة غير آمنة بالنسبة لها؛ ولكي تستطيع الاستمرار في الحرب كان لا بد من الاعتماد على الاتحاد السوفيتي، الذي أصبح نافذتها الوحيدة إلى أوربا، ليس فقط للحصول على الأسلحة، وإنما لتصدير بترولها إلى الخارج والحصول على العملة الصعبة.
٢- محاولة الحكومة الإيرانية عدم إثارة الجانب السوفيتي، في تلك الأونة، بهدف تقليل الدعم العسكري والسياسي السوفيتي للنظام العراقي، فقد نشرت صحيفة ازفيستا مقال أكدت فيه أن: "الاتحاد السوفيتي يطالب إنهاء الحرب عن طريق المباحثات بين البلدين... وأنه ضد المطالب الإيرانية بخصوص إزاحة صدام من السلطة"[٤٦].
٣- وبسبب فضيحة الأسلحة الأمريكية الإيرانية (إيران غيت)، شهدت العلاقات الإيرانية-السورية توترًا ملحوظًا، بعد أن كانت سوريا المزود الرئيسي للأسلحة السوفيتية إلى إيران، فضلاً عن إطلاق سراح الرهائن الأمريكان في لبنان دون مشورة القيادة السورية أو حتى علمها بذلك[٤٧].
٤- ازدياد المخاوف الإيرانية من تطور العلاقات السوفيتية الخليجية، وأن يحل الاتحاد السوفيتي محل إيران في النفوذ والسيطرة على منطقة الخليج[٤٨].

وبناءً على ما سبق من أسباب ودوافع أرسل الرئيس الإيراني، علي خامنئي رسالة إلى الرئيس السوفيتي غروميكو، وحسب ما ذكرته وكالة تاس أن السفير الإيراني ناصر حيران نوبري سلم تلك الرسالة إلى الرئيس السوفيتي[٤٩]، ثم جاءت زيارة علي أكبر ولايتي، وزير خارجية إيران، إلى موسكو في أواخر شباط ١٩٨٧، وحظيت الزيارة باهتمام كبير من المراقبين السياسيين في موسكو؛ فقد وصفت بانها اهم زيارة يقوم بها مسؤول إيراني كبير، حيث تخللت المباحثات التي أجراها ولايتي مع كل من رئيس الجمهورية اندريه غروميكو من جهة، ونيكولاس ريشكوف، رئيس الوزراء السوفيتي، من جهة أخرى، الكثير من عبارات الدبلوماسية المعهودة، مثل: رغبة الطرفين في توسيع العلاقات الثنائية القائمة على أساس مبادئ المساواة والاحترام المتبادل.

ومن جانب آخر صاحبت المباحثات العديد من الاختلافات في وجهات النظر بين الجانبين، ولا سيما موضوع الحرب الدائرة بين العراق وإيران، والأزمة الأفغانية، وقد أشار الرئيس السوفيتي غروميكو في خضم حديثه مع ولايتي إلى اختلاف وجهات نظر البلدين بخصوص الحرب العراقية-الإيرانية، وأكد: "أن تقييمه لهذه الحرب لا يتطابق مع الجانب الإيراني، وأن التفكير السليم يملي على الحكومة الإيرانية وجوب الاهتمام بالمستقبل لا بالماضي، قاصدًا البحث عن سبل وقف الحرب مع العراق والنظر إلى مستقبل الشعب الإيراني وشعوب المنطقة"[٥٠].

أما بخصوص الأزمة الأفغانية فلم يكن الغوص فيها أخف وطأة من قضية الحرب العراقية الإيرانية، حيث كان الجانب السوفيتي أكثر صراحةً عندما وجه اتهامًا مباشرًا إلى الحكومة الإيرانية بأنها ترسل من أراضيها مجموعات مسلحة لتحارب الحكومة الأفغانية؛ لهذا يمكن القول إن مهمة ولايتي لم تكن بالمهمة السهلة في الجانب السياسي والدبلوماسي، غير أنها حققت نجاحات في المجال الاقتصادي، فقد اتفق الطرفان على إعادة تصدير الغاز الإيراني من جديد إلى الاتحاد السوفيتي، وإنشاء شركة سوفيتية إيرانية مشتركة[٥١]. وصرح علي أكبر ولايتي، للصحف الإيرانية بعد عودته إلى طهران بأن زيارته للاتحاد السوفيتي كانت ناجحة، على عكس ما أشيع عنها في الصحافة الغربية، وأن وزير الخارجية السوفيتي ادوارد

شيفرنادزه Eduard Shevardnadze[٥٢]، وافق على تلبية دعوته بزيارة طهران[٥٣].

وفي السياق نفسه، ومن أجل تهدئة الأجواء المتوترة، مع الاتحاد السوفيتي آنذاك، انتقد هاشمي رفسنجاني، رئيس مجلس الشورى الإيراني، التصريحات الأمريكية التي أشارت فيها إلى غزو مرتقب للقوات السوفيتية للأراضي الإيرانية، حيث أشار رفسنجاني خلال خطبة الجمعة التي ألقاها في طهران في ١٢ آذار ١٩٨٧، إلى أن:" الإدارة الأمريكية تحاول، من خلال نشر تقارير وهمية، إثارة القلق والمخاوف بين حكومتي طهران وموسكو، بهدف سحب قواتنا من الجبهات العسكرية مع العراق إلى الحدود الشمالية مع الاتحاد السوفيتي"[٥٤]. هكذا كانت القيادات الإيرانية تحاول إنهاء خلافاتها مع الجارة الشمالية بكل الوسائل، وعدم تصديق الإشاعات التي كانت تبث من خلال الصحافة والتقارير الغربية بشأن تدهور العلاقات الإيرانية-السوفيتية، ومحاولة الأخيرة الهجوم على الأراضي الإيرانية.

ثانيًا: العلاقات بين البلدين من المبادرة السلمية السوفيتية حتى نهاية الحرب العراقية-الإيرانية ١٩٨٧-١٩٨٨

لم تؤدِ المحاولات الإيرانية للتقرب من الجانب السوفيتي إلى تحسين في العلاقات بين البلدين، بل عاد التوتر يخيم بظلاله من جديد على العلاقات بينهما، نتيجة للمواقف السوفيتية الجديدة إزاء الحرب العراقية-الإيرانية، وكذلك التطورات المستجدة على مسرح العمليات العسكرية بين إيران والعراق، وتوسيع نطاق العمليات على الصعيد الإقليمي، وتأثيراتها السلبية على الصعيد العالمي، ويمكن توضيح ذلك من خلال الأمور الآتية:

١/٢-الموقف الإيراني من مبادرة السلام السوفيتية

تركت الانتصارات الإيرانية في الحرب تخوفًا عظيمًا عند كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، حيث تعاونا فيما بينهما من أجل ألا يكون هناك منتصر واحد، كما شهدت الحرب عام ١٩٨٧ تصعيدًا كبيرًا سواء على جبهة القتال، أو حرب المدن، أو حرب المنشآت الاقتصادية، أو حرب الناقلات النفطية، أو الاعتداء الإيراني على الكويت، وتصاعد احتمالات المواجهة بين الولايات المتحدة وإيران. هذا الأمر دفع بالاتحاد السوفيتي إلى تكثيف نشاطاته الدبلوماسية مع دول الخليج، ففي منتصف نيسان ١٩٨٧ قام فلاديمير بتروفسكي، نائب وزير خارجية الاتحاد السوفيتي، بجولة مكوكية إلى دول الخليج، حيث زار أول الأمر الكويت، ثم توجه إلى عمان والإمارات لتنتهي جولته في العراق، وفي نهاية لقاءاته، أشار إلى أن هناك توافقًا عامًا في مواقف الدول الخليجية بشأن أوضاع المنطقة، وضرورة إنهاء الحرب العراقية-الإيرانية المستمرة منذ سبع سنوات، كذلك تأمين مرور السفن في مضيق هرمز ومياه الخليج والمحيط الهندي[٥٥]. كما أكد في مؤتمر صحفي بعد لقاءاته مع المسؤولين العراقيين أن الاتحاد السوفيتي يحاول بقوة الاتصال بكل الدول المعنية من أجل تهيئة الأرضية المناسبة لإنهاء الحرب، وأشار إلى أن بلاده تتفق مع أمريكا بهذا الشأن، وأنه يقف ضد كل من يهدد أمن المنطقة[٥٦].

ويبدو مما سبق أن مسألة حماية الملاحة في الخليج، من وجهة النظر السوفيتية، ترتبط بقضية أشمل هي الأمن في الخليج، والتي لا يمكن تحقيقها إلا بإزالة التوتر الناجم عن استمرار الحرب العراقية-الإيرانية، وعلى هذا الأساس عرض المسؤول السوفيتي في جولته الخليجية تصورًا جديدًا لإنهاء الحرب العراقية الإيرانية تتكون من خمس نقاط هي[٥٧]:

١- عقد اجتماع في مجلس الأمن الدولي على مستوى وزراء خارجية الدول الأعضاء، وبحضور الطرفين المعنيين أي: العراق، وإيران، يخصص لمناقشة النزاع العراقي الإيراني من مختلف جوانبه ولدراسة كيفية تسويته سلميًا.

٢- يصدر هذا الاجتماع قرارًا إلزاميًا بوقف إطلاق النار على الجبهة كخطوة أولى لا بد منها لتسوية النزاع سلميًا.

٣- يدرس مجلس الأمن جديًا إرسال قوات دولية إلى الجبهة للفصل بين قوات البلدين، وتأمين احترام وقف إطلاق النار.

٤- يصدر المجلس أيضًا حظرًا دوليًا على شحنات الأسلحة المرسلة إلى العراق وإيران، إلى أن يتوصلا إلى تسوية النزاع سلميًا بين الدولتين.

٥- يقوم مجلس الأمن بدور رئيسي في مساعدة العراق وإيران على تسوية النزاع بينهما بشكل يضمن حقوق الشعبين.

ومما لا شك فيه أن جولة بتروفسكي أظهرت أن موسكو تجد مزيدًا من الصعوبة في المحافظة على نوع من التوازن الظاهري في علاقاتها مع إيران والعراق، وبنظر الحكومة الإيرانية جاءت هذه الزيارة؛ لكي تؤكد دعم المواقف المساندة للعراق، حيث أن التصريحات التي أطلقها بتروفسكي أكدت ذلك، منها تأكيده أن الاتحاد السوفيتي:" يعارض كل من يعرضون حرية الملاحة في الخليج للخطر سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة"[٥٨]. ومن جانب آخر جاءت التصريحات الإيرانية على لسان قادتها، لتؤكد أن العلاقات الإيرانية-السوفيتية بدأت تسير في مرحلة صعبة، حيث أكد الرئيس الإيراني، علي خامنئي، في خطبة الجمعة في طهران، في أيار ١٩٨٧، أن: "الحكومة السوفيتية كانت تعلن مرارًا بأنها تقف على الحياد في حرب الخليج، إلا أنها بدأت منذ فترة تتخذ مواقف موالية لصالح العراق، وهي أقرب لمواقف الإدارة الأمريكية تجاه العراق"[٥٩]. وأشار هاشمي رفسنجاني، رئيس مجلس الشورى الإيراني، إلى هذه الحقيقة، عندما صرح:" أن الاتحاد السوفيتي زود النظام العراقي بالأسلحة والمعدات المتطورة في الآونة الأخيرة"[٦٠].

وحول المبادرة السلمية التي أعلنتها الحكومة السوفيتية، أصدرت وزارة الخارجية الإيرانية بيانًا رسميًا رفضت فيه المقترحات السوفيتية مؤكدة أن:" مهمة الحفاظ على الأمن في الخليج تقع على عاتق دول المنطقة فقط، وأن إيران يجب أن تضطلع بالمسؤولية الكبرى؛ لأن لديها أطول ساحل في الخليج"، ذكر البيان أيضًا أن القوتين العظيمين هما السبب الرئيسي للتوتر في المنطقة، وعن المؤتمر الدولي للملاحة أشار البيان إلى: "أنه

سيكون عديم الجدوى، وأنه من الأفضل تقديم النصح إلى مؤيدي العراق بأن يمنعوا مساعداتهم لحكومة بغداد"[٦١]. كما صرح رئيس الوزراء الإيراني:" بأن بلاده سترد بقبضة من حديد على أية دسائس تدبرها القوى العظمى في الخليج ... وأن الخليج إما أن يصبح أمنًا أمام الجميع أو غير آمن لأي جهة على الإطلاق"، وأكد أن الهجمات على السفن المتجهة للكويت لن تتوقف قبل أن تتوقف الغارات الجوية العراقية على الناقلات النفط الإيرانية[٦٢].

٢/٢-أثر حرب الناقلات البترولية على العلاقات الإيرانية-السوفيتية

دخلت الحرب العراقية-الإيرانية منذ ١٩٨٤ مرحلة عرفت باسم (حرب الناقلات البترولية) اعتمد العراق على هذه العمليات كوسيلة لقطع تدفق النفط الإيراني إلى الخارج، في حين اعتمدت إيران في ردها على هذا الإجراء على الزوارق السريعة وصواريخ السلك وورم الصينية، التي نصبت في شبه جزيرة الفاو، وبعض القواعد الأخرى عند مضيق هرمز، بالإضافة إلى زرع الألغام البحرية في مياه الخليج، وتعاملت إيران مع السفن الأجنبية المارة في مياه الخليج بثلاث طرائق: الاعتراض، أو الاحتجاز، أو القصف[٦٣].

وشهدت بداية سنة ١٩٨٧، اعتداءات إيرانية مستمرة على سيادة دولة الكويت، بهدف الضغط على العراق لوقف هجماته الجوية المتكررة على الناقلات والمنشآت النفطية الإيرانية في مياه الخليج، فضلاً عن ذلك حاولت الحكومة الإيرانية أن تبعث برسالة إلى دول الخليج الأخرى، تشير فيها إلى أن التهديد سيطال الجميع في حال استمرار الدعم الخليجي للعراق[٦٤]. ونتيجة لتكرار الاعتداءات الإيرانية على الكويت طلبت الأخيرة الدعم العسكري من الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي، وفرنسا، وبريطانيا، والصين لحماية ناقلاتها التجارية في مياه الخليج، من خلال رفع الناقلات الكويتية لأعلام تلك الدول، ووافق كل من الاتحاد السوفيتي وفرنسا على الطلب الكويتي، إلا أن الدول الثلاث الأخرى رفضت ذلك[٦٥]. وبناءً على الموافقة السوفيتية للطلب الكويتي توصل البلدان إلى اتفاق في ١٤ نيسان ١٩٨٧، تضمن موافقة الاتحاد السوفيتي على استئجار ثلاث ناقلات بترول سوفيتية للكويت، أو السماح لها برفع العلم السوفيتي على ناقلاتها في أثناء أبحارها عبر مياه الخليج[٦٦]. وأوضح الناطق باسم وزارة الخارجية السوفيتية ذلك مؤكدًا:" أن الاتحاد السوفيتي سيلبي الطلب الكويتي باستئجار ثلاث ناقلات بترول سوفيتية لمدة ثلاث سنوات قابلة للتمديد، وإذا اقتضت الضرورة فإن سلاح البحرية السوفيتية سيقوم بحماية تلك السفن"[٦٧].

ويبدو أن موافقة الاتحاد السوفيتي على الطلب الكويتي جاء لتحذير النظام الإيراني بعدم المساس بحرية الملاحة في الخليج[٦٨]، في حين رأت الحكومة الإيرانية أن الموافقة السريعة للحكومة السوفيتية على الطلب الكويتي جاءت لأسباب أخرى، فقد نشرت صحيفة (رسالت) الإيرانية الأسباب الكامنة وراء الموقف السوفيتي المؤيد للطلب الكويتي، فأرجعته إلى المخاوف السوفيتية من الانتصارات المتكررة للقوات الإيرانية في جبهات القتال ضد القوات العراقية، حيث وجدت أن القضاء على أهم حليف لها في العراق ستكون بمثابة ضربة موجعة ضد أمنها الوطني والاستراتيجي في المنطقة، وكذلك المخاوف السوفيتية من الدور الإيراني المتزايد في دعم القوات الأفغانية المعارضة للتواجد السوفيتي في أفغانستان، والتي حققت بدورها انتصارات متكررة ضد القوات السوفيتية فيها؛ لذا كانت الحكومة السوفيتية قلقة من مصير أفغانستان بأن تقع ضمن النفوذ الإيراني مستقبلاً، فضلاً عن المخاوف السوفيتية، في حال انتصار إيران على العراق، من ظهور جبهة قوية في قلب الشرق الأوسط، تتكون من إيران والعراق وأفغانستان، تحمل أيدولوجية إسلامية موحدة في مواجهة الإيديولوجية الشيوعية، التي ستترك ظلالها أثارًا سلبية ونتائج خطيرة على سياسة الاتحاد السوفيتي في المنطقة، وكذلك قد تؤثر على الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي[٦٩].

تركت الاتفاقية السوفيتية-الكويتية ردود فعل سلبية عند الجانب الإيراني، فقد انتقد علي خامنئي، الرئيس الإيراني، الاتفاقية السوفيتية-الكويتية بشدة، وأظهر تعجبه من السلوك السوفيتي هذا، ومحذرًا أن ذلك ليس من مصلحة الاتحاد السوفيتي[٧٠]. وأصدرت الخارجية الإيرانية بيانًا انتقدت فيها تلك الاتفاقية، وأكدت أن الأمن لا يعود إلى الخليج بعقد تلك الاتفاقية[٧١].

ومما زاد من توتر العلاقات بين البلدين الهجوم الذي شنته البحرية الإيرانية في الخامس من أيار ١٩٨٧ على السفينة السوفيتية ايفان كرويفIvan Cruyff، التي استأجرتها للكويت، وبعد أقل من أسبوعين تعرضت سفينة سوفيتية أخرى وهي مارشال جيوكوفMarshal Chuykov إلى لغم بحري[٧٢]. مما أدى إلى ردود فعل سلبية لدى الاتحاد السوفيتي، حيث ذكرت وكالة تاس أن الهجوم الذي تعرضت له السفينة السوفيتية، والتي كانت تحمل مواد انشائية وأنابيب تصريف المياه، عمل قرصني، ونقلت وكالة تاس، عن أوساط سوفيتية مخولة أن السفينة تعرضت إلى قصف بالصواريخ ورمي الرشاشات من قوارب إيرانية صغيرة، عندما كانت متجهة إلى ميناء الدمام السعودي، موضحًا أن هيئات سوفيتية مخولة تتولى إجراء التحقيق الدقيق في ظروف وملابسات هذه الغارة القرصنية على السفينة السوفيتية المدنية[٧٣].

وحذرت وزارة الخارجية السوفيتية الحكومة الإيرانية في بيان لها من مغبة استمرار الأخيرة في حملاتها الدعائية المعادية للاتحاد السوفيتي، وتشويه موقفها المحايد والواضح من الحرب العراقية-الإيرانية، حيث دعا البيان الحكومة الإيرانية إلى: "الاستجابة لصوت العقل"[٧٤]. وأضاف نائب وزير الخارجية السوفيتي، فلاديمير بتروفسكي أن لحكومة بلاده الحق الكامل، بموجب القوانين الدولية، الرد بالوقت والمكان المناسب على الهجمات الإيرانية في حال تكرار الاعتداءات العسكرية على سفنها[٧٥].

وبعد الحملة الإعلامية المعادية بين إيران والاتحاد السوفيتي، بسبب موقف الأخير من دعم الطلب الكويتي لحماية سفنها، دأبت الصحافة الغربية على العمل لتعميق الهوة

والتوتر بين البلدين، فقد أشارت صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية إلى وجود محادثات سرية بين طهران وموسكو؛ للحيلولة دون تكرار الهجمات الإيرانية على السفن السوفيتية في الخليج، وأكدت الصحيفة أن الحكومة السوفيتية تحاول، عبر ممثلها في الأمم المتحدة، عدم تمرير قرار مجلس الأمن الدولي بدعم من الحكومة الأمريكية، بشأن حظر تصدير الأسلحة إلى إيران، في حال توقف الهجمات الإيرانية على السفن السوفيتية في الخليج[٧٦].

وأشارت أيضًا مجلة Arabia الفرنسية في حزيران ١٩٨٧، بأن هناك خطة سوفيتية لاحتلال إيران، واستعرضت عدة سيناريوهات للموقف الذي يمكن أن يتخذه الاتحاد السوفيتي في حالة تحقيق انتصارات إيرانية حاسمة على القوات العراقية، مثل احتلال مدينة البصرة، أو الاقتراب من بغداد، أو تهديد حقول النفط في كركوك، وقالت أن إحدى هذه السيناريوهات هو زج وحدات سوفيتية محمولة جوًا وبرًا لعبور الحدود الإيرانية باتجاه طهران، وهذه العملية لن تكون صعبة لضخامة القوات السوفيتية المرابطة في مناطق القوقاز وكراكوم في الشمال، فضلاً عن مراكز عسكرية داخل المناطق الشرقية لأفغانستان، وأوضحت أنه في حال تنفيذ سيناريو كهذا سيكون مسبوقًا باتفاق أمريكي سوفيتي، وأولها أن تتعهد موسكو رسميًا بسحب قواتها ما إن تنتهي مهمة هذه القوات[٧٧].

ونشرت صحيفة وول ستريت جورنال The Wall Street Journal الأمريكية مقالاً بعنوان(إيران تعرض على الاتحاد السوفيتي مد خط أنابيب مع الخليج) قالت فيه:" إن إيران قد اتفقت مع الاتحاد السوفيتي على فتح خط سكة حديد وخط الأنابيب لربط البلدين، وأن هذين الخطين الاستراتيجين سيعطيان الاتحاد السوفيتي ميزة طالما حرمته منها إيران في الماضي، وهي الوصول إلى ميناء على المياه الدافئة في الخليج، وأوضحت أن خط الأنابيب سيسمح لطهران بنقل البترول من وإلى الاتحاد السوفيتي، في حالة ما إذا توقفت خطوط البترول الإيرانية، كما أن خط السكك الحديد سيسمح بنقل البضائع من الاتحاد السوفيتي إلى دول الخليج، ومقابل هذا الامتياز ستطالب الحكومة الإيرانية الاتحاد السوفيتي بالابتعاد عن الجهود الأمريكية الرامية لحماية الملاحة الدولية في الخليج، ودعوة الاتحاد السوفيتي إلى أن تقلل من تزويد العراق بالأسلحة والمعدات، أو تزويد إيران بنفس الكميات التي تزود العراق بها[٧٨].

خف التوتر في العلاقات الإيرانية-السوفيتية بعد موافقة الولايات المتحدة على رفع العلم الأمريكي على الناقلات الكويتية[٧٩]؛ لأن ذلك سيعني زيادة التواجد الأمريكي في منطقة الخليج، الذي لم ترغب به الحكومة السوفيتية مما دفع بها إلى إصدار بيان شديد اللهجة أكدت فيه أن:" التوتر في منطقة الخليج بلغ مرحلة خطيرة قد تسبب في خلق أزمة دولية، وإن لم نقم بإيقافها والسيطرة عليها فإنها ستهدد الأمن والسلم الدوليين بالصميم"، وطالب البيان بالخروج الفوري لجميع السفن الأجنبية من الخليج، وأن يتعامل كل من العراق وإيران مع الملاحة الدولية على وفق الأسس والقوانين الدولية[٨٠]. واستقبلت إيران البيان السوفيتي بالترحيب، فقد أكد نائب وزير خارجية إيران في لقائه مع السفير السوفيتي في طهران على أن بلاده تؤيد ما جاء في البيان السوفيتي من خروج فوري لجميع القوات من الخليج[٨١]، على الرغم من أنها كانت تشك في المبادرة السوفيتية، حيث نشرت إذاعة طهران: "أن الاتحاد السوفيتي استثنى وجود قواته في الخليج في البيان الذي أصدره"[٨٢].

٣/٢-قرار مجلس الأمن ٥٩٨ والعلاقات الإيرانية-السوفيتية

شهدت العلاقات الإيرانية-السوفيتية تحسنًا واضحًا، بعد إعلان الإدارة الأمريكية موافقتها على رفع أعلامها على السفن الكويتية في الخليج، كما تزامن مع ذلك تحسن في العلاقات العراقية- الأمريكية، مما دفع بالحكومة الإيرانية إلى التقرب أكثر من الاتحاد السوفيتي طالبةً منه الدعم السياسي في المحافل الدولية، ولا سيما بعد صدور قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ٥٩٨ في ٢٠ تموز١٩٨٧، الذي يدعو إلى وقف الحرب العراقية-الإيرانية، وفرض عقوبات صارمة ضد الطرف الرافض لتنفيذ القرار[٨٣].

ويبدو أن جزءًا من مسؤولية إذابة الجليد في العلاقات الإيرانية-السوفيتية يقع على عاتق الولايات المتحدة؛ لكونها لم تولي للعامل السوفيتي أية أهمية في سياستها تجاه دول الخليج وإيران، فهي كانت تعتقد أنه من الصعب جدًا أن تشهد العلاقات الإيرانية-السوفيتية أي تطور سياسي مهم؛ لأن ما يفرق بينهما اكثر مما يجمعهما، فالاختلاف الإيديولوجي، وانعدام ثقة طهران بموسكو تاريخيًا، والخلاف الحاد بشأن مسألة أفغانستان، والموقف من حرب الخليج، والتخوف السوفيتي من انتشار الأصولية الإسلامية بين جمهورياتها المسلمة، كل ذلك كفيل بأن لا تشهد العلاقات الإيرانية-السوفيتية أي تطور سياسي وعسكري واستراتيجي، عليه مارست الإدارة الأمريكية ضغطًا شديدًا على إيران، وحاولت محاصرتها سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، فلم يبق لها خيار إلا الاتصال والتفاهم مع الاتحاد السوفيتي[٨٤].

ومن مظاهر تحسن العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وإيران هو الاستقبال الحار الذي لقي به يولي فورنتسوف Yuli Vorontso، نائب وزير الخارجية السوفيتي في طهران من قبل علي خامنئي، رئيس الجمهورية في اب ١٩٨٧؛ فقد ادلى فورنتسوف بتصريحات أدان فيها الدور الأمريكي في الخليج، مؤكدًا أن بلاده طالبت بخروج جميع السفن العسكرية الأجنبية من الخليج؛ لأن ليس هناك أي مسوغ لوجود القوى الأجنبية، وردًا على الموقف السوفيتي الرافض لوجود القوات الأجنبية في منطقة الخليج، عبر الرئيس الإيراني، خلال لقائه بفورنتسوف، مؤكدًا على تطوير العلاقات بين البلدين في مختلف المجالات، مشيرًا إلى رفض بلاده لقرار مجلس الأمن الدولي ٥٩٨، الذي صدر بجهود ومساعي الإدارة الأمريكية، معدًا أياه قرارًا لا يصب في مصلحة إيران، ولا يحتوي على شيء جديد[٨٥]. وحرصًا من إيران على تطوير علاقاتها مع الاتحاد السوفيتي فقد استقبل الضيف السوفيتي مير حسين موسوي، رئيس الوزراء، وكذلك علي أكبر ولايتي، وزير الخارجية[٨٦]، حيث أكدا خلال لقائهما على حرص

الحكومة الإيرانية على تطوير علاقاتها مع الاتحاد السوفيتي في كافة المجالات، ولا سيما مد خطوط أنابيب النفط، وتوسيع التعاون في مجال الطاقة، وتكرير النفط، وصناعة الحديد والصلب، والنقل البحري المشترك في بحر قزوين، والتخطيط لإنشاء سكك الحديد من الحدود السوفيتية إلى مياه الخليج[٨٧].

ومما لا شك فيه أن زيارة يولي فورنتسوف تركت آثارًا إيجابية مهمة في مسيرة العلاقات الإيرانية-السوفيتية؛ لأن الحكومة السوفيتية كانت منزعجة من زيادة الاعتماد الكويتي على الولايات المتحدة، كذلك قلقها من التطور الذي شهدته العلاقات الأمريكية-العراقية، كما كان هناك مخاوف سوفيتية من قيام الولايات المتحدة بشن حملة عسكرية ضد إيران، فصحافتها أشارت مرارًا وتكرارًا إلى ذلك، فصحيفة البرافدا كانت تؤكد في مقالاتها الافتتاحية أن وجود القوى الأجنبية في منطقة الخليج تعقد من عملية السلام فيها، كما قللت الصحافة السوفيتية في مقالاتها الافتتاحية من انتقاداتها لإيران على أنها السبب في إطالة أمد الحرب، وفعلت إيران الشيء نفسه، فقللت صحافتها من انتقاداتها للاتحاد السوفيتي، فعلى سبيل المثال: انتقد الخميني في رسالته، التي ألقاها في ٢٨ تموز ١٩٨٧، الإدارة الأمريكية مرارًا وتكرارًا، دون أن ينتقد الاتحاد السوفيتي بشكل واضح[٨٨] . كما قللت موسكو من شحنات الأسلحة إلى العراق؛ لهذا أكد فورنتسوف في لقاءاته مع المسؤولين الإيرانيين أن بلاده تدعم المقترح الإيراني حول إيقاف جميع العمليات العسكرية في مياه الخليج، كما أكد أن بلاده لن تزيد من عدد سفنها في الخليج، فضلاً عن ذلك ناقش فورنتسوف إمكانية فتح خط أنابيب الغاز إلى جمهوريات الاتحاد السوفيتي الجنوبية[٨٩] .

وفي خطوة أخرى طرحت موسكو في الرابع من أيلول ١٩٨٧، مبادرة سلام جديدة في الخليج دعت من خلالها إلى إيقاف فوري للهجمات على السفن، وانسحاب جميع الأساطيل الأجنبية من مياه الخليج، وأرادت موسكو من وراء ذلك تحقيق عدة أهداف، منها: إبعاد النفوذ الأمريكي من الخليج، حيث كانت الولايات المتحدة تستغل التهديد الإيراني لإنشاء قواعد جديدة في دول الخليج، كما أرادت تحقيق تقارب أفضل مع كل من العراق وإيران، وبدورها وافقت إيران على المبادرة السوفيتية؛ لتحقيق عدة مكاسب منها: الرغبة في إنهاء الوجود الأمريكي في الخليج، والاعتماد على الاتحاد السوفيتي في صادراتها التجارية والنفطية في حال غلق مضيق هرمز، كذلك للحيلولة دون قيام الاتحاد السوفيتي بتأييد قرار الأمم المتحدة الذي يحمل عقوبات قوية ضد إيران[٩٠].

وعلى الرغم من فشل المبادرة السوفيتية بشأن إيقاف الهجمات العسكرية ضد السفن الأجنبية في الخليج إلا أن العلاقات الإيرانية-السوفيتية استمرت بالتحسن، ولا سيما بعد إعلان غورباتشوف أن إصدار أي قرار أممي حول فرض عقوبات على إيران، وحظر تصدير السلاح إليها سيكون غير مجدٍ اذا رفضته الأخيرة[٩١]. واستند الموقف السوفيتي إلى عدة مسوغات دبلوماسية منها: إنه من الصعوبة بمكان تنفيذ قرار دولي بحظر الأسلحة، وخاصة أن جزءًا كبيرًا من الأسلحة التي تحصل عليها إيران تأتيها من شركات وحكومات غربية بالأساس، كما أن الاتحاد السوفيتي لا تبيع الأسلحة لإيران منذ عدة سنوات[٩٢].

وفعلاً أعلن أدوارد شيفرنادزه، وزير خارجية الاتحاد السوفيتي، أن بلاده لا تؤيد دعوة الولايات المتحدة لفرض حظر دولي على صادرات السلاح لإيران، وقال في كلمته أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة:" إن على مجلس الأمن أن يبحث مسألة تحديد من المسؤول عن بدء نزاع الخليج، وبأن تتكفل قوة دولية تحت إشراف الأمم المتحدة بحماية الملاحة في الخليج"[٩٣]. يعكس خطاب شيفرنادزه تغيرًا واضحًا في السياسة السوفيتية وموقفه من الحرب العراقية-الإيرانية باتجاه دعم الموقف الإيراني دوليًا.

دفع الموقف السوفيتي الجديد الحكومة الإيرانية إلى تدارك أهمية العلاقة بين البلدين، ففي لقاء تلفزيوني لهاشمي رفسنجاني مع شبكة (A.T.N) البريطانية أكد أن: "إيران والاتحاد السوفيتي لا يستطيعان إلا أن يكونا أصدقاء" وعندما أشار مراسل الشبكة إلى أن موسكو ما زالت من أكبر المصدرين للسلاح إلى العراق، أجابه رفسنجاني:" نعتقد بأن العلاقات بين البلدين إذا ما وصلت إلى مستويات متقدمة، سيتم حل مشكلة تصدير الأسلحة إلى العراق أيضًا؛ لأن مصالحنا مشتركة، ولنا حدود طويلة مشتركة"[٩٤]؛ لهذا ليس من المستغرب أن يقول وزير خارجية العراق:" إن الاتحاد السوفيتي الذي كان يسعى من أجل تنفيذ اتفاقية وقف القتال بدأ يقف إلى جانب إيران، ويدعم مواقفها"[٩٥].

وقدمت صحيفة الاوبزرفرThe Observer البريطانية في مقالها الذي نشرته في أواخر تشرين الأول ١٩٨٧، بعنوان (إيران تبيع تأييدها لقضية أفغانستان لو ضمنت شراء تأييد السوفيت في الخليج) تفسيرًا جيدًا لواقع التقارب السوفيتي الإيراني الجديد، حيث أكدت أن موسكو وطهران تتحركان نحو المزيد من التقارب بينهما، في الوقت الذي تتباعد موسكو عن بغداد التي تزداد علاقاتها مع الولايات المتحدة، وأوضحت الصحيفة أن هذا التقارب بين موسكو وطهران يرتبط برغبة الاتحاد السوفيتي في الخروج من أفغانستان، فإيران تأوي نحو مليوني لاجئ أفغاني، وتقدم دعمًا نشطًا للثوار المعادين للاتحاد السوفيتي، ويعد قطع هذا الدعم هدفًا رئيسيًا له. أما هدف إيران من التقارب مع موسكو فيكمن في أنه كلما اشتد عليها الضغط في حرب الخليج تصبح أكثر استعدادًا لتقديم تنازلات في القضية الأفغانية، بهدف الحصول على تأييد دبلوماسي سوفيتي في الخليج، وهكذا كلما تخلت إيران عن هدفها لإقامة حكومة إسلامية في كابول زاد التأييد الذي تتوقع الحصول عليه من موسكو في حربها ضد العراق[٩٦].

وعلى ذلك الأساس ظل الاتحاد السوفيتي يرفض بإصرار فرض أية عقوبات اقتصادية وعسكرية على إيران بموجب قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨، كما ظل يطالب بانسحاب جميع السفن الحربية الأمريكية والأوربية من منطقة الخليج، والتي كان يبلغ عددها(٧٩) سفينة حربية، واقترحت موسكو مرة أخرى تكوين

قوة بحرية عسكرية من الدول الكبرى تابعة لإشراف الأمم المتحدة لضمان حرية الملاحة في الخليج(٩٧).

بدأت العلاقات الإيرانية-السوفيتية تشهد تحسنًا واضحًا في كافة الصعد، فقد صرح هاشمي رفسنجاني، في لقائه مع صحيفة اساهي شيمبون Asahi Shimbun اليابانية في أواخر تشرين الثاني ١٩٨٧، بأن بلاده بدأت حاليًا تتفاوض مع الجانب السوفيتي بخصوص عقد معاهدة دفاع مشتركة جديدة، التي ستحل محل معاهدة ١٩٢١، والتي لم تعد تأخذ بها الحكومة الإيرانية منذ عام ١٩٧٩، وأضاف رفسجاني بأنه سيزور موسكو قريبًا بناءً على دعوة من الحكومة السوفيتية(٩٨). وتواصلاً لهذا التقارب بين البلدين أذاع راديو طهران في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٨٧، نبًا عن توقيع اتفاقية تمهيدية بينهما في طهران، يسمح للأخيرة باستخدام سفنها الممرات المائية داخل الاتحاد السوفيتي، وأعلن أحمد مدني، نائب وزير الطرق والنقل الإيراني، أن الاتفاق يتيح للسفن الإيرانية دخول بحري قزوين والأسود ومغادرتهما عن طريق المرات المائية السوفيتية، وأضافت إذاعة طهران أن الجانبين الإيراني والسوفيتي اتفقا على إنشاء خطوط ملاحية مشتركة بين مدينة باكو السوفيتية ومدينتي بوشهر وانزلي الإيرانية، ويدرسان أيضًا شق طريق بين البلدين وبلغاريا تستفيد منه إيران في تجارتها مع الدول الأوربية(٩٩).

وإزاء هذا التحسن في العلاقات الإيرانية-السوفيتية ظلت الإدارة الأمريكية مستمرة في توجيه التهم للحكومة السوفيتية؛ لكونها الجهة المعرقلة لإجراء المباحثات حول صيغة توافقية لتطبيق قرار الأمم المتحدة ٥٩٨، فقد أعلن مساعد وزير الخارجية الأمريكي، ريتشارد موروفي Richard Murphy، أن الموقف السوفيتي إزاء الحرب العراقية-الإيرانية له وجهان متناقضان، وأشار فيليس اوكلي Phyllis Oakley، المتحدث باسم الخارجية السوفيتية، في رده على تصريح موروفي إلى أن بلاده ترفض جميع القيود المفروضة على بيع الأسلحة لإيران(١٠٠). وأشار غورباتشوف، في لقائه مع العاهل الأردني حسين بن طلال في موسكو، إلى أن بلاده ليست ضد مسألة حظر الأسلحة لإيران، بل تعد قرار مجلس الأمن ٥٩٨ هو الخيار الأمثل لوضع نهاية الحرب بين العراق وإيران(١٠١).

وفضلاً عما سبق فقد شهدت العلاقات بينهما تحسنًا ملموسًا في مجال النقل الجوي، والتعاون في مجال الطاقة والتنقيب عن النفط، ومد خطوط الأنابيب من إيران إلى موانئ البحر الأسود عبر الأراضي السوفيتية، مما أدى بالنتيجة إلى الإفراج عن نورالدين كيانوري، سكرتير حزب توده الإيراني، وتخفيف حدة اللهجة الإعلامية المعادية للطرفين أحدهما ضد الآخر(١٠٢).

٤/٢-توتر العلاقات الإيرانية السوفيتية عام ١٩٨٨

مع مطلع عام ١٩٨٨، شهدت العلاقات بين البلدين توترًا من جديد، تعود لجملة أسباب ومتغيرات إقليمية ودولية، من أبرزها محاولة غورباتشوف في أن يقوم بدور الوساطة في إنهاء الحرب العراقية-الإيرانية، إلا أن الرفض الإيراني المستمر لقرار ٥٩٨، دفعت بالحكومة السوفيتية على الموافقة بتطبيق بنود القرار المذكور، التي نصت على فرض عقوبات عسكرية واقتصادية على إيران في حال عدم قبولها بالقرار، الأمر الذي أزعج حكومة طهران وتسبب في حدوث فتور العلاقات بينهما فيما بعد(١٠٣).

كما كان للهجمات الصاروخية العراقية على معظم المدن الإيرانية الرئيسية اثره البالغ في توتر علاقات البلدين، حيث إن الحكومة الإيرانية اتهمت الحكومة السوفيتية بانها هي التي زودت الحكومة العراقية بتلك الصواريخ. ويذكر الحكومة السوفيتية زودت العراق خلال العام (١٩٨٧-١٩٨٨) ما مجموعه (٣٠) صاروخ فراك -7 و(٢٠) صاروخ سكود Bسكود(١٠٤). فضلاً عن الإدانة الإيرانية للتنسيق والتشاور الأمريكي السوفيتي في نيسان ١٩٨٨ بخصوص إنهاء الأزمة الأفغانية(١٠٥)، مما كان له تأثيره على العلاقات الاقتصادية بين البلدين، حيث كان معظم صادرات ايران مع الدول الغربية، فكان أكثر من(٥٠%) من صادراتها مع كندا واليابان وأوربا الغربية، وبشكل خاص مع ألمانيا الغربية؛ إذ وصل قيمة التبادل التجاري بينهما إلى أكثر من (٢,٥) مليار دولار(١٠٦).

وبعد أن استمرت الحكومة الإيرانية في عدم قبولها لقرار مجلس الأمن ٥٩٨، أعلن ممثل الاتحاد السوفيتي لدى الأمم المتحدة، الكسندر بلونو Alexander Bellunoبلونو، في مؤتمر صحفي له أن بلاده وافقت على المقترح الأمريكي-البريطاني الذي يدعو إلى عدم بيع الأسلحة لإيران، كوسيلة ضغط عليها لإجبارها على إنهاء الحرب مع العراق(١٠٧). ولتوضيح موقف الحكومة السوفيتية للحكومة الإيرانية توجه فلاديمير بتروفسكي إلى طهران، والتقى برئيس الوزراء مير حسين موسوي ووزير الخارجية علي أكبر ولايتي، وتناولت المباحثات بين الطرفين الأزمة الأفغانية؛ فقد أكد بتروفسكي عزم بلاده على سحب قواته من أفغانستان، وبالمقابل أكدت الحكومة الإيرانية أن هذه الخطوة سوف تكون مهمة في تطوير علاقات البلدين(١٠٨). لكن الصحافة الإيرانية لم تطرق بأي إشارة لمباحثاتهما حول الحرب مع العراق وأن عدم التطرق للموقف الجديد الذي اتخذته الحكومة السوفيتية من الحرب يعني بوضوح الرفض الإيراني له(١٠٩).

خلقت حرب المدن توترًا شديدًا في العلاقات الإيرانية-السوفيتية، ولا سيما بعد أن زاد العراق من هجماته الصاروخية على طهران مما تسبب في قتل العديد من المدنيين، الأمر الذي أثار حفيظة الجماهير الإيرانية التي تظاهرت في عدة مدن إيرانية، اتهمت الحكومة السوفيتية بأنها وراء تزويد العراق بالصواريخ التي تضرب المدنيين في طهران، إلا أن السفير السوفيتي في طهران فلاديمير غودوف(١١٠) قدم توضيحًا إلى الخارجية الإيرانية بين فيه أن الصواريخ السوفيتية التي زودت بها العراق، مداها لا تصل إلى مدينة طهران، وعليه لا نتحمل مسؤولية الهجمات الصاروخية للعراق، بل هذه الصواريخ طورها الخبراء العراقيون بمساعدة الخبراء الغربيين وتحديدًا الخبراء الألمان(١١١).

وعلى الرغم من التوضيح السوفيتي بشأن الصواريخ العراقية إلا أن المظاهرات الجماهيرية استمرت في عدد من المدن الإيرانية، والتي كانت ترفع شعارات معادية ومندده بالموقف السوفيتي من الحرب، حيث هاجم المتظاهرون القنصلية

السوفيتية في أصفهان، وألحقت بها خسائر مادية فادحة، مما دفعت بالخارجية الإيرانية إلى تقديم اعتذار رسمي للحكومة السوفيتية، وأنكرت فيه عدم علمها بالحادث، متهمة المهاجرين الأفغان بهذا العمل، وأنها ستقوم بتعويض الخسائر التي لحقت بالقنصلية[١١٣].

تكررت الاعتداءات الإيرانية على المثليات الدبلوماسية السوفيتية في إيران؛ ففي السادس من آذار ١٩٨٨ هاجم الآلاف من الإيرانيين السفارة السوفيتية في طهران، وحاولوا اقتحامها، وذكرت وكالة تاس السوفيتية أن حشدًا من العناصر المثيرة للشغب حاولت اقتحام السفارة السوفيتية في طهران، ورشقوها بالحجارة، وألقوا عليها مواد مشتعلة، الأمر الذي هدد حياة العاملين بالسفارة، وأكدت وكالة تاس إن هذه الحادثة تأتي بسبب اعتقاد إيران أن العراق يستخدم صواريخ سوفيتية الصنع في قصف المدن الإيرانية، وأشارت إلى بيان لوزارة الخارجية السوفيتية والتي قالت فيه:" إن القوى التي تعارض التحسن الحالي في العلاقات السوفيتية-الإيرانية يريدون إعادة كل شيء إلى لا شيء من ذلك التقدم الذي حصل مؤخرًا في علاقات البلدين"[١١٣]. فضلاً عن ذلك قدمت الحكومة السوفيتية مذكرة احتجاجية رسمية إلى الحكومة الإيرانية، كما استدعت وزارة الخارجية السوفيتية ماجد قرماني القائم بالأعمال الإيراني في موسكو وحذرته أن: "القيادة السوفيتية تشعر بالقلق مما حدث، وتأخذ على محمل الجد الهجمات على المواقع الدبلوماسية السوفيتية"[١١٤].

ويبدو أن الجهات الرسمية في إيران كانت تتعاطف مع المتظاهرين، وتؤيد صحة شعاراتها حول تزويد موسكو لصواريخ بعيدة المدى للحكومة العراقية، فقد قامت الجهات الأمنية الإيرانية المتخصصة بتفكيك وتفجير الصواريخ، بإجراء عملية تفجير صاروخ عراقي من صنع السوفييت، من تلك الصواريخ التي أطلقت على طهران، ولم تنفجر في حينها، أمام الفسحة الخالية قبالة السفارة السوفيتية، مما تسبب في تهشيم زجاج مبنى السفارة ومقر السفير وبيوت موظفي السفارة[١١٥].

وعلى الرغم من تصاعد التوتر بين البلدين إلا أن موسكو لم تكن ترغب في زيادة التوتر بينهما بسبب تلك الأحداث، بل اكتفت بالإجراءات الدبلوماسية، كتقديم المذكرات الاحتجاجية، والتحذيرات، وسحب السفراء[١١٦]. ومن جهة أخرى كانت موسكو حينها بصدد سحب قواتها من أفغانستان، والتي كانت تنتظر أن يؤدي ذلك القرار إلى تحسين العلاقات مع إيران[١١٧].

وجدت الحكومة السوفيتية الفرصة المناسبة للتقرب من إيران والتودد لها عندما أسقطت القوات البحرية الأمريكية في الخليج طائرة إيرانية مدنية تقل (٢٩٠) راكبًا، وقتلت جميع من فيها، في الثالث من تموز ١٩٨٨[١١٨]، فقد شجبت الحكومة السوفيتية هذه الحاثة، ونشرت وكالة تاس موقف حكومتها الرسمي بالقول:" إن مسؤولية هذه الحادثة المؤلمة تقع على عاتق الولايات المتحدة؛ لأن الحادثة لم تكن مصادفة مطلقًا، بل إنها جاءت نتيجة لقيام الإدارة الأمريكية بزيادة عدد قواتها بشكل مستمر في منطقة الخليج، ونطالبها بالخروج الفوري لأساطيلها من المنطقة"[١١٩].

وبعد مرور أسبوعين على هذه الحادثة وافقت الحكومة الإيرانية على قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ٥٩٨، وذلك في ١٨ تموز ١٩٨٨، وقال الخميني في خطابه إلى الأمة الإيرانية إن موافقته على القرار كانت "أصعب من تجرع السم"[١٢٠]. وأصدرت الحكومة السوفيتية بيانًا بهذه المناسبة، قالت فيه:" إن توقف النزاع الطويل المميت والخطير... سيترك تأثيرًا كبيرًا على ميزان التسلح في المنطقة في المستقبل...، وستؤمن حرية وسلامة الملاحة في الخليج العربي...، وان الاتحاد السوفيتي مستعد لأن يسحب وبدون تأخير أساطيله في حال إذ أقدمت الدول الأخرى على عمل مماثل...، والاتحاد السوفيتي مستعد لأي نوع من المساعدة والتعاون بين العراق وإيران..."[١٢١].

شكلت نهاية الحرب بين العراق وإيران نقطة تحول مهمة في مسار العلاقات الإيرانية-السوفيتية مستقبلاً، وفي كافة الصعد، وحاولت الشركات السوفيتية أن تجد لها مكانًا في إيران للمشاركة فيها بعقود التنمية والاستثمار، فعندما عقد معرض طهران الدولي للتجارة في أيلول ١٩٨٨، كان الحضور السوفيتي ودول أوربا الشرقية هو الأكبر والأثقل فيه، فقد شارك في مراسيم افتتاح المعرض، فينيمين كورليفKorleaf Veneman، نائب وزير العلاقات الاقتصادية الخارجية السوفيتي، الذي صرح بعد لقائه بنظيره الإيراني علي مجيدي، قائلاً:" نحن حريصون على تطوير العلاقات والمبادلات الاقتصادية والفنية مع إيران...وأن اللجنة الاقتصادية المشتركة بين البلدين ستعقد اجتماعها قريبًا في موسكو لبحث ومناقشة سبل تطوير العلاقات بين البلدين"[١٢٢]. وأعلن نائب وزير العلاقات الاقتصادية الخارجية السوفيتي أن حجم المبادلات التجارية بين إيران والاتحاد السوفيتي في سنة ١٩٨٦ وصل إلى (١٠٠) مليون دولار، وازداد هذا الرقم في سنة ١٩٨٧ إلى (٢٥٠) مليون دولار، ومن المقترح أن يصل في عام ١٩٨٨ إلى (٣٥٠) مليون دولار، وأضاف إنه خلال مدة ٢٥ سنة من التعاون الاقتصادي بين البلدين تم تأسيس (١٢٠) مشروعًا صناعيًا في إيران، ويمكن الإشارة إلى هذه المشاريع مثل: معامل الحديد الصلب، وصناعة السيارات، وتوزيع شبكة الغاز[١٢٣].

هكذا انتهت مرحلة مليئة بالمد والجزر بين البلدين، تخللتها أحداث ومتغيرات إقليمية ودولية القت بظلالها سلبًا وإيجابًا على العلاقات بينهما، انتهت بوقف الحرب العراقية-الإيرانية، ثم وفاة أية الله الخميني في الثالث من حزيران ١٩٨٩، وبدأت مرحلة جديدة من العلاقات كانت أقرب إلى التطبيع بدوافع سياسية، واقتصادية، وأمنية، واستراتيجية.

خَاتِمَةُ

لقد تركت الحرب العراقية-الإيرانية، وتطور الأحداث والعمليات العسكرية بينهما آثارًا سلبية على الموقف السوفيتي من الحرب، وكذلك على علاقاتها مع إيران؛ ولهذا تميز الموقف السوفيتي بالتغيير طبقًا للمتغيرات الدولية والإقليمية ومستجدات العمليات العسكرية بين العراق وإيران. وتميز موقفها من بداية الحرب وحتى وصول غورباتشوف إلى السلطة بدعم العراق على حساب إيران، في حين تميزت الفترة (١٩٨٥-١٩٨٨) بالتحسن التدريجي في علاقات البلدين اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا.

بشكل عام تركزت الاستراتيجية السوفيتية تجاه الطرفين خلال الفترة (١٩٨٥-١٩٨٨) على إبعاد طرفي الحرب من إقامة علاقات وصلاة وثيقة مع الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا ما تحقق بالفعل؛ فقد خرج الاتحاد السوفيتي، بعد انتهاء الحرب العراقية-الإيرانية، بعلاقات أقوى مع كل من العراق وإيران، في الوقت الذي أصبح لهما علاقات عدائية مع الولايات المتحدة.

كما إن مرحلة (١٩٨٥-١٩٨٨) تعد من أهم مراحل العلاقات الإيرانية-السوفيتية؛ فقد زال فيها عوامل التوتر الأساسية في علاقات البلدين، ولم تعد الأيدولوجية هي الحاكمة في السياسة الخارجية لكلتا الدولتين، كما أثبتت هذه المرحلة وبعكس المراحل السابقة أن الحكومة الإيرانية هي من تحاول التقارب مع الحكومة السوفيتية، فمع نهاية الحرب العراقية-الإيرانية، دخلت علاقات البلدين مرحلة التطبيع، وشملت كافة المجالات السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والأمنية، حتى وصلت إلى صيغة أقرب لمستوى التحالف الاستراتيجي.

الهَوامِشُ:

(١) ميخائيل غورباتشوف: من مواليد الثاني من آذار ١٩٣١، خريج كلية القانون جامعة موسكو عام ١٩٥٥، انضم إلى الحزب الشيوعي عام ١٩٥٠، تولى عام ١٩٨٢ رئاسة لجنة الشؤون الخارجية للحزب، ثم منصب الأمين العام للحزب خلال(١٩٨٥-١٩٩١) ومنصب رئيس الدولة خلال(١٩٨٨-١٩٩١) أدت برامجه الإصلاحية المعروفة بـ (الغلاسنوت والبريسترويكا) إلى تغير جذري في السياسة الداخلية والخارجية للاتحاد السوفيتي نحو التعايش السلمي. للتفاصيل، يُنظر: ستروب تالوب، **ميخائيل غورباتشوف-سيرة ذاتية مفصلة**، إعداد: مجلة التايم الأمريكية، ترجمة: دار طلاس للدراسات والترجمة، (دمشق، ١٩٩٠)، ص ٢٣ وما بعدها.

(٢) للتفاصيل، يُنظر: نازلي معوض أحمد، "**النظرة السوفيتية الجديدة للصراع والتوازن في العالم المعاصر**"، مجلة السياسة الدولية، العدد (٩٤)، القاهرة، تشرين الأول ١٩٨٨، ص١١٥-١٣٠.

(٣) كارول ر. سيوتز، **اتحاد شوروى وخليج فارس در دهه ١٩٨٠**، ترجمه: بيذن اسدى، (تهران، ١٣٩٠)، ص١٢٠-١٢١.

(٤) اطلاعات، ١٣٦٤/١/٢٨؛ كيهان، شماره (١٢٤٢٦)، ١/٢٨/ ١٣٦٤.

(٥) الأهرام، العدد (٣٥٩٩٦)، ٢٩ /حزيران/ ١٩٨٥.

(٦) علي أكبر ولايتي: من مواليد طهران عام ١٩٤٥، أنهى فيها دراسته الابتدائية والمتوسطة والإعدادية. درس الطب وتخصص في طب الأطفال بشهادة دكتوراه من جامعة طهران، ثم شهادة أخرى في أمراض الالتهابات من جامعة "جون هوبكينز" الأمريكية. انتمى للجبهة الوطنية عام ١٩٦٢، وبعد انتصار الثورة الإسلامية، شغل منصب مساعد وزارة الصحة، ثم اختير نائبًا عن أهالي طهران في الدورة الأولى لمجلس الشورى الإسلامي، ليتسلم بعدها حقيبة الخارجية، وظل وزيرًا لخارجية الجمهورية الإسلامية مدة ١٦ سنة، وهو يشغل منذ عام ١٩٩٧ منصب مستشار الشؤون الدولية لقائد الثورة الإسلامية آية الله السيد علي خامنئي. يُنظر: علي أكبر ولايتي في سطور، منشور على الرابط:

HTTP://ARABIC.IRIB.IR/NEWS/ITEM/415/131096/40/%D8%B9

(٧) اطلاعات ١٣٦٤/٤/٢٩.

(٨) كيهان ١٣٦٤/٩/٢.

(٩) للتفاصيل، يُنظر: سمير محمد عبد الوهاب، "**زيارة الرئيس العراقي إلى موسكو**"، مجلة السياسة الدولية، العدد(٨٤)، القاهرة، أبريل ١٩٨٦، ص١٥٥-١٥٨؛

Саид Худейда Ало, . Советско-иракские отношения и позиции СССР по курдской проблеме в 1958-1991 гг. Ростов-на-Дону – 2010,С 124.

سعيد خديدا علو، **العلاقات السوفيتية العراقية ومواقف الاتحاد السوفيتي من القضية الكوردية ١٩٥٨-١٩٩١**، رستوف على نهر الدون، ٢٠١٠". باللغة الروسية.

(١٠) نقليًا عن: سمير محمد عبد الوهاب، المصدر السابق، ص ١٥٧.

(١١) اطلاعات، ١٣٦٤/٩/٢٦.

(١٢) كيهان، شماره (١٢٦٣١)، ١٠/٨/ ١٣٦٤.

(١٣) كارول ر. سيوتز، مصدر ثيشين، ص١٢٨-١٢٩.

(١٤) اطلاعات، ١١/٣/ ١٣٦٤؛ الأهرام، العدد (٣٦٢١٦)، ٣ /شباط/ ١٩٨٦.

(١٥) رابرت فريدمان، طورباضوف، **ايران، جنط ايران وعراق**، مترجم: إبراهيم متقى، الهه كولائى، بحث منشور ضمن كتاب: نيكى كدى، نه شرقى، نه غربى روابط خارجي إيران با امريكا واتحاد شوروى، مترجمين: إبراهيم متقى، الهه كولايى، (تهران، ١٣٧٩)، ص٨٠.

(١٦) الأهرام، العدد (٣٦٢٣٣)، ٢٠ شباط ١٩٨٦.

(١٧) رسول موحديان عطار، **ثرستويكا وروابط إيران واتحاد شوروى**، ثايانامة كارشناسى ارشد، دانشكده حقوق وعلوم سياسى، دانشطاة تهران، (تهران، ١٣٧٠)، ص ٢٠٧.

(١٨) حسين اردستانى، جنط عراق وايران رويارويى استراتذى ها، (تهران، ١٣٧٨)، ص ١٤٠.

(19) Саид Кхудейда Ало, Указ соч,с 126.

(٢٠) حسين اردستانى، مصدر ثيشين، ص ١٤٠.

(٢١) جاري سيك، الثورة الايرانية والقوى العظمى، ترجمة: سوسن حسين، مجلة السياسة الدولية، العدد (٩١)، القاهرة، كانون الثاني ١٩٨٨، ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٢٢) الاهرام، العدد (٣٦٤٠٣)، ٩ /اب/ ١٩٨٦.

(23) The New york Times,26 Aug 1986.

(24) Ibid.

(٢٥) رسالت، ٣/٦/ ١٣٦٥.

(26) The New york Times,7 Sep 1986.

(27) The Gazetta Montreal, [Montreal], 4 Sep 1986 .

(٢٨) **ناصر نوبري**: وهو حيران خريج كلية الهندسة في جامعة شريف صنعتي، برز نشاطه منذ أن كان طالبًا في الكلية وكثيرًا ما كان يدخل في نقاشات فكرية مع الطلاب الشيوعيين. أصبح سفيرًا لإيران في الاتحاد السوفيتي خلال الفترة ١٩٨٦-١٩٩٠. يُنظر:
http://fa.wikipedia.org/wiki
http://www.nasernobari.com/?page_id=2

(٢٩) أبو الحسن خلج منفرد، روابط جمهورى إسلامي إيران واتحاد جماهير سوسيالستى شوروى در دهه أول انقلاب إسلامي ١٣٥٧-١٣٦٧، ثايانامة كارشناسى ارشد، دانشكده علوم سياسى ومعارف إسلامي، دانشطاة إمام صادق، (تهران، ١٣٦٩)، ص٢٠٠.

(٣٠) اطلاعات، ١٣٦٥/٧/١٩.

(31) The New york Times,10 Dec 1986.

(32) Ibid.

(33) The New york Times,10 Dec 1986.

(34) The Gazetta Montreal, 10 Dec 1986 .

(35) Ibid.

(٣٦) جهانطير كرمى، **شوروى وجنط ايران وعراق**، (تهران، ١٣٩١)، ص ٢١٦.

(٣٧) **فضيحة إيران غيت**: ملخص هذه الفضيحة أن إيران والولايات المتحدة اتفقتا بمعاونة المخابرات الإسرائيلية، بشكل سري، تقوم الولايات المتحدة بموجبها ببيع أسلحة وقطع غيار لإيران، مقابل أن تقوم بالمساهمة في إطلاق الرعايا الأمريكيين في لبنان، الذين أختطفهم حزب الله اللبناني الموالي لإيران، إلا أن خيوط هذه العملية كشفت لصحيفة الشراع اللبنانية التي نشرت الخبر. وبذلك كشف للعالم أن أمريكا التي تعادي إيران، وتطلب من الدول عدم بيع الأسلحة إليها تقوم هي نفسها بذلك، ويقال الأمر نفسه بالنسبة لإيران التي تعادي أمريكا علنيًا تقوم هي سريًا بصداقتها. واعترفت أمريكا بأنها باعت أسلحة لإيران، واستخدمت ريعها لثوار الكونترا في نيكاراغوا، لكن إيران رفضت الاعتراف بانها تعاملت مع الولايات المتحدة. للتفاصيل، يُنظر: تريتا بارزي، **حلف المصالح المشتركة – التعاملات السرية بين إسرائيل وإيران والولايات المتحدة**، ترجمة: أمين الأيوبي، مراجعة وتحرير: مركز التعريب والبرمجة، (بيروت، ٢٠٠٨)، ص١٧٦- ١٨٠.

(٣٨) مقتبس من: عناد فواز الكبيسي، "**تطورات السياسة السوفياتية تجاه الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٧**"، مجلة دراسات إيرانية، مج ١، العددان ٤و٥، البصرة، ١٩٨٩، ص٦٥.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٤٠) الأخبار، ١ /كانون الأول/ ١٩٨٦. من المعروف أن الاتحاد السوفيتي خلال عامي ١٩٨٥و١٩٨٦ زاد من توريداته لشحنات الأسلحة إلى حلفائه من الدول العربية وهي: سوريا، والعراق، وليبيا، وتأتي سوريا في المرتبة الأولى من حيث استلامها لشحنات الأسلحة السوفيتية، والعراق بالمرتبة الثانية، إلا أن السلاح المزود للعراق كان يشمل على بعض الأنواع من الأسلحة التي لم تقدم إلى سوريا، مما يعكس رغبة الاتحاد السوفيتي في التفوق النسبي للعراق دون تحويله إلى تفوق مطلق، يمكن أن يقطع عليه الطريق للاحتفاظ بعلاقة ما مع إيران. يُنظر: الاتحاد السوفيتي والشرق سياسيًا وعسكريًا، التقرير الاستراتيجي العربي ١٩٨٦، (القاهرة، ١٩٨٧)، ص٦٣-٦٤. وهناك تقارير تؤكد أن الاتحاد السوفيتي بعد طرد الحكومة الإيرانية لدبلوماسييه عام ١٩٨٣، لم يقدم أسلحة بشكل مباشر إلى إيران، في الوقت الذي زادت شحنات الأسلحة من دول أوربا الشرقية إلى إيران. يُنظر: ناظم يونس الزاوي، العلاقات الإيرانية السوفياتية ١٩٦٢-١٩٨٨، رسالة ماجستير غير منشورة، قدمت إلى مجلس كلية العلوم السياسية – جامعة بغداد، (بغداد، ١٩٨٩)، ص١٨٠-١٨١.

(٤١) الأنباء، الكويت، ١٢ /كانون الأول/ ١٩٨٦.

(٤٢) المصدر نفسه.

(٤٣) الأنوار، القاهرة، ٢٣ /كانون الأول/ ١٩٨٦.

(٤٤) الأهرام، العدد(٣٦٦٩٦)٢٩ /أيار/ ١٩٨٧.

(٤٥) رسالت، تهران، ١٠/٢١/ ١٣٦٥.

(٤٦) كارول ر. سيوتز، مصدر ثيشين، ص١٣٧.

(٤٧) للتفاصيل، يُنظر: هوزان سليمان ميرخان، **العلاقات الإيرانية – السورية ١٩٧٩-١٩٨٩**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة دهوك، (دهوك، ٢٠١٢)، ص١٩٧-٢٠٤.

(٤٨) اريك هوكلند، **سياست دولت ريطان نسبت به ايران**، مترجم: إبراهيم متقى، بحث منشور ضمن كتاب: نيكى كدى، مصدر ثيشين، ص١٦٢-١٦٣.

(٤٩) جهانطير كرمى، مصدر ثيشين، ص ٢٢٢.

(٥٠) الاتحاد، أبو ظبي، ٢٣ /شباط/ ١٩٨٧.

(٥١) المصدر نفسه.

(٥٢) **إدوارد شيفرنادزه**: هو من مواليد جورجيا عام ١٩٢٨، انضم إلى الحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي عام ١٩٤٨، وظل يرتفع من خلال الرتب إلى أن أصبح عضو مجلس السوفيت الأعلى في جورجيا عام ١٩٥٩. وأصبح بعد ذلك الوزير الجورجي للشؤون الداخلية من عام ١٩٦٨ وإلى عام ١٩٧٢، انضم إلى اللجنة المركزيةِ للحزب الشيوعي السوفيتي عام ١٩٧٦، وفي عام ١٩٧٨ رقي إلى رتبة المرشح (غير مصوت) عضو للمكتب السياسي في الحزب الشيوعي السوفيتي. عينه ميخائيل غورباتشوف وزيريًا لخارجية الاتحاد السوفيتي من عام ١٩٨٥ وإلى عام١٩٩٠. أصبح رئيسًا لجمهورية جورجيا من عام ١٩٩٥ وحتى استقالته في عام ٢٠٠٣. توفي في السابع من تموز ٢٠٠٤. للتفاصيل، يُنظر: إدوارد شيفرنادزه، منشور على الرابط:
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A5%D8%AF....

(٥٣) كارول ر. سيوتز، مصدر ثيشين، ص ١٣٩.

(54) Toronto Star, 13 Mar 1987.

(٥٥) رسالت، ٣/٢/ ١٣٦٦.

(٥٦) رسالت، ٩/٢/ ١٣٦٦.

(٥٧) عبد العاطي محمد أحمد، "**الموقف السوفيتي من حرية الملاحة في الخليج**"، مجلة السياسة الدولية، العدد (٨٩)، القاهرة، يوليو ١٩٨٧، ص١٩٠.

(٥٨) **الدستور**، القاهرة، ٥ /أيار/ ١٩٨٧.

(٥٩) **الدستور**، ٥ /أيار/ ١٩٨٧.

(٦٠) المصدر نفسه.

(٦١) عبد العاطي محمد أحمد، المصدر السابق، ص١٩١.

(٦٢) المصدر نفسه، ص١٩١.

(٦٣) **الشرق الأوسط في العلاقات الأمريكية السوفيتية**، التقرير الاستراتيجي العربي عام ١٩٨٧، (القاهرة، ١٩٨٨)، ص١٤٢.

(64) Bryan Gibson, Covert Relationship: American Foreign Policy, Intelligence, and the Iran-Iraq War, 1980-1988, Thesis submitted in partial fulfillment of the requirements for PH.D degree, University of Ottawa,Canada,2007 ,p150.

(٦٥) رسالت، ٢/١٩/ ١٣٦٦.

(٦٦) **الشرق الأوسط في العلاقات الأمريكية السوفيتية**، المصدر السابق، ص ٦٢؛ رابرت فريدمان، مصدر ثيشين، ص ٨٥.

(67) Симферополь М.М, Ирано-Иракская война 1980-1988 гг. борьба на море. Симферополь. 2001,с 129.

سلينكين، م.م، **الحرب العراقية-الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨**، الصراع على البحر، سينغرابول، ٢٠٠١ "باللغة الروسية"

(٦٨) **القبس**، ٢٦ أيار ١٩٨٧.

(٦٩) رسالت، ٢/١٩/ ١٣٦٦.

(٧٠) محمد درودیان، **سیری در جنط ایران وعراق شلمضة تا حلبضة**، برسی وقایع سیاسی – نظامی جنط در سال ١٩٦٦، جلد جهارم، (تهران، ١٣٩٠)، ص ٧٥.

(٧١) الأهرام، العدد (٣٦٧٧٠)، ٣ /أيار/ ١٩٨٧.

(٧٢) كارول ر. سيوتز، مصدر ثيشين، ص ١٨٤؛ رابرت فريدمان، مصدر ثيشين، ص ٨٥.

(٧٣) الدستور، ٥ /أيار/ ١٩٨٧.

(٧٤) الوطن، القاهرة، ٩ /أيار/ ١٩٨٧.

(٧٥) كارول ر. سيوتز، مصدر ثيشين، ص ١٨٤.

(٧٦) **الأهرام الدولي**، القاهرة، ٢ /حزيران/ ١٩٨٧.

(٧٧) للتفاصيل، يُنظر: **الوطن**، القاهرة، ١١ /تموز/ ١٩٨٧.

(٧٨) الأهرام، العدد (٣٦٧٧١)، ١٢ /تموز/ ١٩٨٧.

(٧٩) ترجع مطالبة الكويت برفع العلم الأمريكي على ناقلاتها إلى تشرين الثاني ١٩٨٦، إلا أن هذا الطلب لم يقابل باهتمام كبير من جانب الولايات المتحدة، ولكنها عادت ووافقت بعد أن وافق الاتحاد السوفيتي على استئجار ناقلاتها للكويت، وبالتالي فكان لا بد من تعزيز الوجود الأمريكي في مواجهة تزايد النفوذ السوفيتي في المنطقة، ولاستعادة النفوذ الأمريكي لدى الدول العربية بعد فضيحة إيران غيت، وافقت في أيار ١٩٨٧ على الطلب الكويتي برفع العلم الأمريكي على (١١) ناقلة كويتية، وفي ٢٢ حزيران بدأت أولى ناقلتي بترول كويتية ترفعان العلم الأمريكي وسط حراسة جوية وبحرية أمريكية مكثفة. للتفاصيل، يُنظر: التقرير الاستراتيجي العربي لعام ١٩٨٧، **الشرق الأوسط في العلاقات الأمريكية السوفيتية**، المصدر السابق، ص ١٤٥-١٤٦.

(٨٠) نقليًا عن: محمد درودیان، مصدر ثيشين، ص ٩٣-٩٤.

(٨١) همان مصدر، ص٩٤.

(٨٢) مقتبس من: كارول ر. سيوتز، مصدر ثيشين، ص ١٨٧.

(٨٣) للتفاصيل، يُنظر: محمد درودیان، مصدر ثيشين، ص ١٠٤-١١٩.

(84) Hunter,Shireen, Moscow and Tehran may yet decide to join hands,The Christian Science Monitor, 8 Sep 1987 .

(٨٥) اطلاعات، ١٣ /١٣٦٦/٥.

(٨٦) همان مصدر.

(87) The Ottawa Citizen, [Ottawa], 5 Aug 1987 .

(88) The Christian Science Monitor, 3 Oct 1987 .

(89) Ibid.

(90) Freedman, Robert, But who is monipulaating, The Christian Science Monitor, 8 Sep 1987.

(٩١) الأهرام، العدد (٣٦٧٧٠)، ١١/ أب/ ١٩٨٧.

(٩٢) حسن أبو طالب، "**التطورات الأخيرة في حرب الخليج، مجلة السياسة الدولية**"، العدد(٩٢)، القاهرة، أبريل ١٩٨٧، ص ١٧٥؛ أيمن السيد عبد الوهاب، "**حرب الخليج وإمكانات حظر تصدير السلاح لإيران**"، مجلة السياسة الدولية، العدد (٩٣)، القاهرة، يوليو ١٩٨٧، ص١٣٤.

(٩٣) **الأهرام**، العدد(٣٦٨١٤)، ٢٤/ أيلول/ ١٩٨٧.

(٩٤) **كيهان**، ١٣٦٦/٧/٦.

(٩٥) **رسالت**، ٧/٢٥/ ١٣٦٦.

(٩٦) **الأهرام**، العدد (٣٦٨٥٢)، ١ /تشرين الثاني/ ١٩٨٧.

(٩٧) **الوفد**، القاهرة، ٧ /تشرين الثاني/ ١٩٨٧.

(٩٨) **أخبار اليوم**، القاهرة، ٢١/ تشرين الثاني/ ١٩٨٧.

(٩٩) المصدر نفسه؛ **الأهرام**، العدد (٣٦٨٧٢)، ٢١ /تشرين الثاني/ ١٩٨٧.

(١٠٠) **رسالت**، ٩/٢١/ ١٣٦٦.

(١٠١) **الأهرام**، العدد (٣٦٩٠٤)، ١٢/ كانون الأول/ ١٩٨٧.

(١٠٢) المصور، القاهرة، ٥ /كانون الثاني/ ١٩٨٨.

(١٠٣) كارول ر. سيوتز، مصدر ثيشين، ص ١٩٩.

(١٠٤) بيذن اسدى، **علائق واستراتذى ابر قدرتها در خليج فارس ١٣٥٧-١٣٦٨**، (تهران، ١٣٧١)، ص١٨٠.

(١٠٥) جهانطير كرمى، مصدر ثيشين، ص٣٠١.

(١٠٦) مرتضى دامن ثك جامى، **ديثلماسى اقتصادي جمهوري إسلامي إيران در آسياى مركزى**، (تهران، ١٣٨٨)، ص٢٥٨.

(١٠٧) **رسالت**، ١٠/٢٦/ ١٣٦٦.

(١٠٨) **اطلاعات**، ٢٦ /١٣٦٦/١١.

(١٠٩) رابرت فردمان، مصدر ثيشين، ص ١٠٠.

(١١٠) **فلاديمير غودوف**: ولد في عام ١٩٤٠، وهو خريج معهد الاقتصاد والعلاقات الدولية. وفي الفترة ما بين (١٩٨٧-١٩٩٣) عمل سفيرًا للاتحاد السوفيتي في إيران، وفي الفترة ما بين (١٩٩٥-٢٠٠٠) كان سفيرًا مفوضيًا فوق العادة لروسيا الاتحادية في جمهورية مصر العربية، وفي الفترة من عام ٢٠٠٠ والى عام ٢٠٠٢ عمل سفيرًا لبلاده في جمهورية جورجيا، عمل فلاديمير گودوف في مختلف الأقسام والدوائر التابعة لوزارة الخارجية السوفيتية والروسية، وهو يجيد اللغات العربية، والإنجليزية، والفرنسية، يعمل حاليًا مديريًا للدائرة الرابعة التابعة لوزارة الخارجية الروسية الخاصة ببلدان رابطة الدول المستقلة. يُنظر: الدبلوماسية السوفيتية في أعوام الحرب العراقية الإيرانية -لقاء مع فلاديمير غودوف، قناة روسيا اليوم، برنامج رحلة مع الذاكرة، تقديم: خالد الراشد، منشور على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=KQcX87PulR0

(١١١) المصدر نفسه.

(١١٢) المصدر نفسه.

(113) The New york Times,7 March 1988.

(114) Ibid.

(١١٥) **الدبلوماسية السوفيتية في أعوام الحرب العراقية الإيرانية**، المصدر السابق.

(١١٦) المصدر نفسه.

(117) The Christian Science Monitor, 11 May 1988.

(١١٨) جاري سيك، "**الولايات المتحدة في الخليج الفارسي: من الركيزتين التوأم إلى الاحتواء المزدوج**"، بحث منشور في كتاب: ديفيد دابليو ليش (إعداد)، الشرق الأوسط والولايات المتحدة (إعادة تقيم تاريخي وسياسي)، ترجمة: أحمد محمود، (القاهرة، ٢٠٠٥)، ص٤٦٤.

(١١٩) كامرون، رهيوم، **سازمان ملل متحد: إيران وعراق**، ترجمة: هوشنط راسخى، (تهران، ١٣٧٦)، ص٢٣٤-٢٣٥.

(١٢٠) للتفاصيل عن أسباب موافقة إيران على قرار ٥٩٨، يُنظر: طلعت مسلم، "**الأبعاد الاستراتيجية لقبول إيران لقرار مجلس الأمن**"، مجلة السياسة الدولية، العدد (٩٤)، أكتوبر ١٩٨٨، ص٢٤٨-٢٦٦.

(١٢١) رسول موحديان عطار، مصدر ثيشين، ص٢١١.

(122) John Haldane, After the war, business opportunistes in Tehran, The Christian Science Monitor, 19 Dec 1988.

(١٢٣) كيهان، شماره (١٣٤٢٣)، ٦/٢٨/ ١٣٦٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

صفحات من تاريخ الصراع الجزائري الإسباني خلال القرن الثامن عشر

حملة الكونت أورللي (Orelly) على مدينة الجزائر سنة ١٧٧٥م

د. تومي الطاهر
أستاذ التاريخ الحديث -كلية العلوم الإنسانية
جامعة آكلي محند أولحاج
البويرة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

شكلت حملة الكونت أورللي على مدينة الجزائر سنة ١٧٧٥م إحدى حلقات الصراع الجزائري الإسباني الذي بدأ منذ تأسيس الإيالة الجزائرية سنة ١٥٢٠م على يد خير الدين بربروس بعد استشهاد أخويه إسحاق وعروج على يد الإسبان، وقد عرفت هذه المعركة إحدى أهم الانهزامات العسكرية الإسبانية الحديثة، حيث ذهب الكثير من المؤرخين بتشبيهها بحملة شارلكان على مدينة الجزائر سنة ١٥٤١م، نظرًا للاستعدادات الضخمة والإمكانيات الهائلة التي سخرتها إسبانيا لإنجاح هذه الحملة، التي علقت عليها آمالاً كبيرة لاستعادة مدينة الجزائر مرة أخرى، وضمها إلى أملاك الإمبراطورية الإسبانية، إلا أن قوة الإيالة الجزائرية وعبقرية قادتها وقفت سدًا منيعًا في وجه طموحات الإسبان، الذين تكبدوا خسائر فادحة مرة أخرى على أسوار مدينة الجزائر، وتسلط الدراسة الضوء على أهم معركة جرت وقائعها في مدينة الجزائر خلال القرن الثامن عشر الميلادي بين الدولة الجزائرية والإمبراطورية الإسبانية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٧	ديسمبر	٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر:	٠٤	مارس	٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
الإيالة الجزائرية، الإمبراطورية الإسبانية، الكونت أورللي، الحملات العسكرية، تاريخ الجزائر الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052962

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
تومي الطاهر. "صفحات من تاريخ الصراع الجزائري الإسباني خلال القرن الثامن عشر: حملة الكونت أورللي (Orelly) على مدينة الجزائر سنة ١٧٧٥م".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة -العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص١٢٩ – ١٣٨.

مُقَدِّمَةُ

توقفت الهجمات الإسبانية على مدينة الجزائر منذ بداية القرن السابع عشر وإلى غاية حملة ١٧٧٥م التي تعد الأولى خلال القرن الثامن عشر، بعد الحملة على وهران والمرسى الكبير سنة ١٧٣٢م والتي أسفرت عن إعادة احتلال المدينتين(١)، كما أنها تأتي بعد فشل الحملة الدانماركية عامي ١٧٧٠ و ١٧٧٢م، وكأن الدول الأوروبية اتفقت فيما بينها على إنهاك الإيالة الجزائرية كل مدة بحروب متقطعة هدفها السيطرة عليها وإخضاعها، وفي كل مرة كانت دولة من هذه الدول الأوربية تلعب الدور ذاته، فتارة إسبانيا ومرة فرنسا وإنجلترا وتارة أخرى الدانمارك وغيرهم. وتعتبر هذه الحملة من أهم الحملات التي وجهتها إسبانيا ضد الجزائر، بل يذهب الكثير من المؤرخين لتشبيهها بحملة شارلكان سنة ١٥٤١م التي قادها بنفسه على مدينة الجزائر محاولة منه لإخضاعها واحتلالها، إلا أنه مني بهزيمة نكراء، وتكبد جيشه خسائر مادية وبشرية فادحة، وعليه يمكننا طرح التساؤلات التالية: إلى أي مدى استطاعت الإيالة الجزائرية التصدي لهذه الحملة؟ وما هي مآلات هذه الحملة؟ وما هي أهم نتائجها على الطرفين؟ وقبل التطرق لأسباب الحملة ووقائعها أردنا التطرق لأوضاع البلدين قبيل هذه الحملة.

أولاً: الوضع العام للبلدين قبيل الحملة

١/١-إسبانيا

تولى حكم إسبانيا في هذه الفترة شخصية قوية تمثلت في كارلوس الثالث(١٧٥٨-١٧٨٨م) الذي كان له مشروع طموح لتطوير بلاده وجعلها من أهم دول أوروبا في ذلك الوقت، فحاول إدخال إصلاحات جديدة، مست جميع القطاعات السياسية، العسكرية، الصناعية، الفلاحية والمالية، ولذلك نال بعد

١٠ سنوات من مباشرة هذه الإصلاحات لقب "الطاغية المستنير".[٢] أما على المستوى الخارجي فقد حاول أن يجعل من إسبانيا دولة قوية مثلما كان عليه الحال بداية القرن السادس عشر ميلادي، حتى تستطيع مواجهة الدول الأوروبية خاصة فرنسا وإنجلترا اللتان كانتا تهددان إسبانيا دائمًا، وما إن تمكن كارلوس الثالث من تأمين الجبهة الداخلية بعد نجاح الإصلاحات السياسية والاقتصادية التي قام بها، وإنهاء الحرب داخل أوروبا، حتى بدأ يوجه أنظاره نحو الجزائر التي كانت تمثل بالنسبة له العدو الأول الذي يجب القضاء عليه، ولذلك ما إن حلت سنة ١٧٧٤م حتى كان مستعدا للهجوم على مدينة الجزائر، معتمدًا على خطة تقضي بهاجمتها بحرًا وبرًا للقضاء على تهديدات دار الجهاد أو "مهد القرصنة"[٣] كما كان يسميها الأوربيين في ذلك الوقت.

٢/١-الجزائر

تولى حكم الإيالة الجزائرية في هذه الفترة محمد بن عثمان باشا[٤] خلفا للداي علي "الملقب ببوصبع" وكان يحمل مشروعًا حضاريًا أساسه إعادة هيبة الدولة الجزائرية داخليا وخارجيا، لعلمه أنها كانت تعيش حالة من الفوضى والتدهور، زاد الأوضاع خطورة الاحتلال الإسباني، الذي قرر محمد بن عثمان تصفيته نهائيا حتى يستطيع توحيد كامل الإيالة وإنجاح مشروعه الحضاري.[٥] فعلى الصعيد الداخلي انتهج سياسة تعتمد على الكفاءة والقدرة في اختيار الرجال، سواء المتعاونين معه في إدارة شؤون البلاد بمدينة الجزائر، أو على مستوى البايلكات الثلاث، فكان يولي من يستحق الولاية ويعزل من يستحق العزل.[٦]

ولعلمه بما كان يحيكه الإنكشارية من مؤامرات داخل الإيالة، بدأ في التقليل من عددهم وعمل على تأديبهم وتنظيمهم، فمنعهم من حمل السلاح أثناء التجول بالمدينة وشدد على تنفيذ أوامره[٧] لذلك كثرت تمرداتهم ومحاولات قتله، لكنه استطاع القضاء على هذه المؤامرات وقرر لأول مرة في تاريخ الحكم العثماني للجزائر منع دخول الأشخاص المسلحين قصر الداي وتفتيش كل من يريد الدخول إلا ضباط الحكومة وضباط حراس القصر[٨] بالإضافة إلى قمع القبائل المتمردة مثل: قبائل فليسة بجرجرة وقبائل بجاية التي رفضت دفع اللزمة المقدرة بـ ٣٠ بوجو سنويا، فوجه لها الداي محمد بن عثمان حملة لقمعها وإخضاعها لسلطته.[٩]

أما خارجيًا فقد انتهج سياسة مختلفة عن سابقيه، فرفع قيمة الإتاوات على السفن التابعة للبندقية وهولندا والسويد، أما الدانمارك فقد نقض معها معاهدة السلم لسنة ١٧٦٧م لرفضها تقديم الهدايا والإخلال بشروط المعاهدة، وردا على قرار الداي قامت القوات الدانماركية بمهاجمة ميناء الجزائر، إلا أن البحرية الجزائرية تصدت لها، ولم يتمكن الأسطول الدانماركي الاقتراب من المدينة، واستمر على ذلك مدة ١١ يوما، ليضطر في النهاية لعقد صلح مع الجزائر[١٠] بتدخل من الدولة العلية التي حثت حكام الجزائر على إرجاع القنصل الدانماركي بعد تدخل القنصل الدانماركي في استانبول، وطلبه من الدولة العلية التدخل لإبرام صلح بين الطرفين[١١]، وبموجب ذلك تدخلت الدولة العلية وطلبت إبرام هذا الصلح تماشيا والعلاقات الحسنة بينها وبين الدانمارك، وفي عام ١٧٧٢م جاء الأميرال هوسلاند «Hosland» إلى الجزائر وخضع للشروط[١٢] التي فرضها محمد بن عثمان باشا وتم إبرام الصلح بين الطرفين[١٣]، أما من جانب إنجلترا وفرنسا فلم يمس الداي بجوهر هذه العلاقات وترك الأمور كما كانت عليه في عهد سابقيه.

وما يمكننا قوله أن محمد بن عثمان باشا استطاع أن يحكم قبضته داخليا، بإسناد المناصب إلى رجال أكفاء لهم القدرة على تسيير البلاد بمقدرة عالية وبإخلاص تام نذكر منهم: الباي محمد بن عثمان الكبير (باي الغرب)، الباي الوزناجي (باي التيطري)، الباي صالح الإزميرلي (باي الشرق)، وآغا العرب علي، وقام بتنظيم الجيش والحد من سطوة الإنكشارية وتدخلهم في شؤون الحكم، مع مراعاة العدل بين الناس والرفق بهم حتى قال فيه الزهار: «... وكان رحمه الله مؤثرا للعدل والإنصاف عارفا بقوانين الملك ملتزما بأحكام الشريعة المطهرة، وكان يحب الجهاد...».[١٤] أما على المستوى الخارجي فقد استطاع فرض هيبة الدولة الجزائرية، وقام بإعادة مراجعة العلاقات الخارجية وفق أسس جديدة تراعي أكبر الحقوق والامتيازات للجزائر، فيما أبقى على هدوء العلاقات مع إنجلترا وفرنسا ربما لقوتهما، وأيضا تحييدهما في أي نزاع مرتقب ضد إسبانيا، خاصة وأنه وضع من أولوياته تحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير.

ثانيًا: أسباب الحملة

١/٢-محاولة فك الحصار على وهران والمرسى الكبير

بعد انسحاب القوات الجزائرية من مدينتي وهران والمرسى الكبير -على إثر إعادة احتلالها من طرف الإسبان سنة ١٧٣٢م- استطاعت فرض حصار محكم على المدينتين، وبدأت في إنهاك القوات الإسبانية بالهجمات الخاطفة والمفاجئة، كبدتهم من خلالها خسائر مادية وبشرية فادحة، ونتيجة لهذه الخسائر تشكلت لدى الإسبان قناعة أنهم لا يستطيعون العيش بسلام وهناء ما لم يضعوا حدا لهذا الحصار وهذه الهجمات المتتالية.[١٥]

ظل التواجد الإسباني بوهران والمرسى الكبير يشغل بال الساسة والعسكريين الذين خصصوا مصاريف باهظة للاحتفاظ بالمدينتين وإبقائهما تحت سيطرتهم، فكانتا تشكلان عبئًا ثقيلاً عليهم، نظرًا للأوضاع الصعبة التي كانت تعيشها قواتهم بالمدينتين المحاصرتين، ولذلك انقسمت الطبقة السياسية والعسكرية حيال مستقبل التواجد الإسباني بالمدينتين إلى قسمين: قسم كان يدعوا إلى الانسحاب وعدم المجازفة بالبقاء، الذي كلف وسيكلف المزيد من الخسائر المادية والبشرية، وقسم آخر كان يفضل البقاء مهما كانت الخسائر.

ومن أجل حسم هذا الخلاف قرر الملك فليب الثالث تكليف الحاكم العسكري لوهران الدوق جوزيف دي أرميورو بإعداد

تقرير مفصل عن وهران والمرسى الكبير ومستوى العلاقات الذي يربط الإسبان بالقبائل المجاورة، وقد أنجز هذا التقرير سنة ١٧٤١م[١٦]، وبصدور هذا التقرير أصبحت السلطات الإسبانية مرغمة على اختيار أحد الحلول، إما الانسحاب وتجنب المزيد من الخسائر أو مواصلة المغامرة وتحمل النتائج المترتبة عن ذلك، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بإعادة احتلال كامل السواحل الجزائرية، وبداية إخضاع مدينة الجزائر التي شكلت دائما الصخرة التي تتحطم عليها آمالهم، وفي النهاية كانت الغلبة لأصحاب الاختيار الثاني.

٢/٢-الحد من الهجمات الجزائرية على السواحل الإسبانية

على الرغم من الهدف الأساسي لفرض الحصار هو تحرير وهران والمرسى الكبير، ونظرًا لصعوبة هذه المهمة غيرت القوات الجزائرية استراتيجيتها في مواجهة الإسبان، وقامت بنقل المعارك إلى السواحل الإسبانية فكانت السفن الجزائرية تهاجم هذه السواحل وتعود محملة بالغنائم والأسرى من نساء ورجال وأطفال والذين كان عددهم بمدينة الجزائر وحدها يزيد عن ١٨ ألف، منهم ١٠ آلاف إسباني[١٧]، وهذا ما يدل على ضخامة الهجمات الجزائرية على كامل الدول الأوروبية وخاصة إسبانيا، ونتيجة لكثرة الشكاوى من طرف سكان السواحل الإسبانية للملك، وتضررهم ماديا ومعنويا، كان لا بد له من اتخاذ قرار لوقف هذه الحملات المتزايدة.

٣/٢-إسقاط الداي محمد بن عثمان باشا من الحكم

أدركت السلطات الإسبانية حقيقة مفادها أن الإيالة الجزائرية تمر بمرحلة قوة وازدهار، بقيادة الداي محمد بن عثمان باشا، الذي كان يعيش العديد من المشاكل الداخلية نتيجة لإعلان بعض القبائل تمردها عن سلطته وخلافه مع الجيش الإنكشاري الذي كان الداي يريد الحد من نفوذه وتدخله في شؤون الحكم، فأرادت إسبانيا استغلال هذه الفرصة والقيام بإسقاط محمد بن عثمان باشا من سدة الحكم[١٨]، وتعطيل مشاريعه داخل البلاد وخارجها وتوقيف هذا الازدهار المتنامي.

٤/٢-السيطرة على مدينة الجزائر

لم ينس الإسبان لسكان مدينة الجزائر استنجادهم بعروج وخير الدين، هذا الأخير الذي استطاع طردهم من قلعة البنيون في ماي ١٥٢٩م، وأيضا لم ينسوا هزيمة شارلكان على يد حسان آغا على أسوار المدينة سنة ١٥٤١م، بالإضافة أن مدينة الجزائر هي عاصمة ومركز قوة الإيالة، لذلك تم اتخاذ القرار باحتلالها وإلحاقها بالممتلكات الإسبانية كما كان الشأن في مطلع القرن السادس عشر ميلادي وجعلها منطقة نفوذ، فالغاية إذن هي السيطرة على مركز الإيالة وقوتها، وهي رغبة قديمة متجذرة في نفوس الإسبان الآسفين على ضياعها، والذين فشل أسلافهم في تحقيق هذه الرغبة على الرغم من كثرة محاولاتهم التي كانت على مدار القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين لذلك أخذت إسبانيا تعد العدة للسيطرة على مدينة الجزائر واحتلالها نهائيا.[١٩]

٥/٢-فشل مساعي الصلح بين الطرفين

عاشت إسبانيا قبيل قرارها القاضي باحتلال مدينة الجزائر مشاكل داخلية كبيرة بسبب حروبها داخل القارة الأوروبية، فعملت على تهدئة الصراع ضد الإيالة الجزائرية ولو لمدة معينة حتى تتفرغ لمواجهة هذه المشاكل لذلك أرسل الملك كارلوس الثالث مبعوثا عنه للداي علي باشا طالبًا منه عقد الصلح وعارضا عليه مبالغ مالية معتبرة، لكن طلبه قوبل بالرفض، غير أن الملك الإسباني لم ييأس من ذلك، وما إن تم تعيين الداي محمد بن عثمان باشا سنة ١٧٦٦م حتى أرسل إليه يهنئه بمنصبه الجديد وعارضًا عليه إقامة الصلح مقابل مبالغ مالية كبيرة، إلا أن الداي الجديد رفض هذا الطلب وكرر موقف سلفه قائلاً للملك الإسباني: «... إنني لا أخاف من القوات الإسبانية، وإن السلاح هو الفاصل بيننا».[٢٠]

ولما تأكد الملك الإسباني من فشل مساعيه لجأ إلى وساطة السلطان المغربي محمد بن عبد الله الذي وافق على طلب الوساطة بين الطرفين، وقام بجهود مضنية في سبيل تحقيق رغبة الملك الإسباني، لذلك أرسل إلى الداي محمد بن عثمان باشا كتابًا راجيًا منه باسمه وباسم أخوة الإسلام أن يتصالح مع الإسبان، في مقابل حصوله على أموال كثيرة، ولإنجاح هذه الوساطة اتصل السلطان المغربي بالدولة العلية لتمارس ضغوطها على الداي.[٢١] ومواصلة لجهوده في سبيل إقامة الصلح أرسل السلطان المغربي مبعوثه محمد الفزان إلى الجزائر للإشراف على تبادل الأسرى بين الجزائر وإسبانيا سنة ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م[٢٢]، وقد نجح المبعوث المغربي في مهمته وتم تبادل الأسرى على نطاق واسع بين الطرفين، على الرغم من رفض المجلس الملكي الإسباني ولمدة قاربت ٢٥٠ سنة مثل هذا الأمر، بحجة أن إطلاق سراح الأسرى المسلمين يزيد في عددهم وقوتهم.[٢٣]

ومما تجدر الإشارة إليه أن الداي محمد بن عثمان رفض إقامة الصلح، ورد على مبعوث السلطان المغربي بقوله: «... هل طلبت مشورتي ورأيي عندما عقدت أنت معاهدة الصلح مع إسبانيا سنة ١٧٦٧م»[٢٤] وأمام تعنت الموقف الجزائري الرافض لأي صلح مع إسبانيا مالم تتخلى عن وهران والمرسى الكبير تأكد الملك كارلوس الثالث أنه لا حل أمامه سوى استخدام القوة العسكرية لإسقاط الداي من الحكم وإخضاع مدينة الجزائر.

٦/٢-إطلاق سراح الأسرى المسيحيين

يعتبر القرن السابع عشر ميلادي قرن الجهاد البحري بامتياز، مما نتج عنه تكدس هائل للأسرى الأوربيين بالجزائر، وذلك راجع لازدياد الهجمات الجزائرية على السواحل الجنوبية الغربية لأوربا التي كانت هدفا مباشرا للبحرية الجزائرية انتقاما من إسبانيا، ومن أكثر السواحل عرضة للهجمات الجزائرية سواحل جنوة ونابولي، ليفورن، كورسيكا، صقلية، مالطة و ميورقة... وتعد هذه المناطق الأماكن المفضلة لنشاط القراصنة الأوروبيين الذين

ينطلقون منها لمهاجمة السفن الجزائرية والقيام بحملات على مدينة الجزائر.[٢٥] ولذلك ما إن فكرت إسبانيا في مهاجمة مدينة الجزائر حتى كانت الكنيسة في طليعة المؤيدين لها, زيادة على بعض المدن الإيطالية مثل نابولي، ليفورن وجنوة، وذلك بحجة حماية السواحل الإسبانية من الهجمات الجزائرية المتواصلة وإطلاق سراح أسراهم الذين يقدرون بالآلاف في ذلك الوقت[٢٦]، فكان هذا من أهم الأسباب التي تحجج بها الملك كارلوس الثالث في هجومه على مدينة الجزائر.

٢/٧-استقرار الأوضاع في إسبانيا وأوروبا

دخلت إسبانيا خلال الفترة الممتدة من سنة ١٧٣٢-١٧٧٥م في سلسلة من الحروب الأوروبية إلى جانب فرنسا فقد كانت طرفًا فعالاً في حرب الوراثة البولونية التي امتدت من ١٧٣٣-١٧٣٨م، وكانت أيضا ضمن التحالف المشكل من فرنسا، بفاريا، سردينيا، في مواجهة النمسا، روسيا وجرمانيا، لفرض مرشحهم ستانيسلاس لزينسكي «Stanislas le czinski» للوصول إلى سدة الحكم خلفا للملك أوغست الثاني «Augusts 2»[٢٧] وفي سنة ١٧٣٨م أبرمت الدول المتصارعة معاهدة فينا تم بموجبها إنهاء حرب الوراثة البولونية.

وبعد مدة قصيرة من توقف حرب الوراثة البولونية وجدت إسبانيا نفسها من جديد إلى جانب حليفتها فرنسا في حرب جديدة ضد ملكة النمسا مريا تريزا«Marie Thérèse»، وعرفت هذه الحرب تاريخيا بحرب الوراثة النمساوية، التي امتدت على مدار سنوات الأربعينيات من القرن الثامن عشر-ميلادي، إلا أن أشهر الحروب وأخطرها التي خاضتها إسبانيا في هذه الفترة حرب ٧ سنوات التي جرت وقائعها في الفترة الممتدة من ١٧٥٦-١٧٦٣م، وكان سببها الرئيس المنافسة الاستعمارية بين دول التحالف إسبانيا، فرنسا والنمسا، ضد إنجلترا وبروسيا، والتي استطاعت خلالها إنجلترا تحقيق مكاسب هائلة في العالم الجديد على حساب فرنسا وإسبانيا.[٢٨]

تكبدت إسبانيا خسائر فادحة في هذه الحروب، لذلك ما إن انتهى الصراع الأوروبي-الأوروبي حتى بدأ التفكير في كيفية استعادة هيبتها وتعويض الخسائر التي لحقت بها، فكان لزامًا على الساسة والعسكريين الإسبان إيجاد طرفًا أقل قوة من تلك الدول التي واجهتها في أوربا، فهداهم تفكيرهم إلى مدينة الجزائر التي يمكن السيطرة عليها بسهولة حسب ظنهم.

ثالثًا: استعدادات الطرفين

١/٣-إسبانيا

بعد أن توفرت العديد من الأسباب للقيام بهذه الحملة، أصدر الملك "كارلوس الثالث" أمرًا إلى كافة الموانئ الرئيسية بإسبانيا، مثل قرطاجنة، قادس، برشلونة، بضرورة التحضير الجيد كتجميع الفيالق الحربية والعتاد والمؤن والآليات الضرورية، وقد استمرت هذه التحضيرات طيلة شهر جوان ١٧٧٥م. استطاع الإسبان تجنيد حوالي ٢٠ ألف جندي و٣٠٠ فارس و٦٠٠ مدفعي مع مدافعهم، في ما كانت السفن تحمل حوالي ٣٥٠٠ بحار[٢٩]، و٥٠٠ سفينة، توجد منها ٥٠ باخرة حربية، ٢٠ بارجة و٢٠ مدمرة ٧ مراكب من نوع "شباك" و ٣٤٤ سفينة مزودة بـ ١٠٠ مدفع[٣٠]، وأسندت مهمة قيادة هذه الحملة للأميرال الأيرلندي الأصل الكونت (O’reilly Algandro) أليخندرو أورلي كقائد للجيش البري، فيما أسندت قيادة الجيش البحري إلى (Don Pedro Castejon) بيدور كاستيخون لتنطلق الحملة يوم ٢٣ جوان ١٧٧٥م من ميناء قرطاجنة لتصل إلى سواحل مدينة الجزائر يوم ٣٠ جوان.[٣١]

٢/٣-الجزائر

على عكس الحملة الأولى ضد وهران والمرسى الكبير سنة ١٧٣٢م علم الجزائريون مبكرًا بخبر هذه الحملة فعملوا على الاستعداد الجيد لها بقيادة وإشراف الداي محمد بن عثمان باشا الذي أصدر أوامره وأعلن النفير العام في كامل تراب الإيالة، وأمر الناس بالجهاد للدفاع عن الدين والوطن، حاثا السكان على التعاون فيما بينهم مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية ومستوياتهم المعيشية، ومن مختلف الفئات العمرية، حتى أنه أمر بتعيين الأولاد من فوق السبعة سنين للمساعدة على تعمير القلاع والأبراج[٣٢]. ثم وجه أوامره بضرورة تنظيم القوة العسكرية الموجودة بمدينة الجزائر وضواحيها، والتي قدر عددها بحوالي ١١٨٩٧ مجند منهم ٩٣٢٢ قادرًا على المشاركة الفعلية في المعارك، كانوا موزعين على ٤٢٤ فوجا، مقيمين بثماني ثكنات عسكرية داخل أسوار المدينة[٣٣]، وبعدها أصدر أوامره إلى باي قسنطينة بالمسير إلى الجزائر بعد أن كان مرابطا ناحية حمزة (البويرة) وفي ذلك يقول محمد الطاهر بن أحمد: «...فأخذ صالح باي المخازنية والعتاد والمشايخ والدواير والصبايحية وكل من أراد الجهاد من الطلبة والمرابطين وتوجه إلى الجزائر»[٣٤] وكذلك أصدر أوامره لباي التيطري، ولخليفة باي الغرب بالتوجه إلى الجزائر، فيما أمر الباي بالبقاء لتشديد الحصار على وهران، مخافة من تحرك القوات الإسبانية ومفاجأة القوات الجزائرية، أو مهاجمة مستغانم وتلمسان.[٣٥]

رابعًا: توزيع القوات الجزائرية المدافعة عن المدينة

قرر الداي محمد بن عثمان باشا توزيع وحدات الجيش الجزائري إلى خمس مجموعات، كل واحدة منها ترابط في مكان معين لتكون على أهبة الاستعداد للدفاع عن المدينة والتصدي للقوات الإسبانية، وكان توزيعها على النحو التالي:

-**المجموعة الأولى:** أسندت قيادتها "لحسن الخزناجي"، وكان مركز رباطها عين الربط (الحامة حاليًا) وواد الخنيس معه ٤٠ خُباء (فصيل أو سرية)، وفي كل خُباء ٣٠ نفرًا من العسكر، أي يوجد معه حوالي ١٢٠٠ جندي.

-**المجموعة الثانية:** أسندت قيادتها "لعلي آغا" آغا العرب ومركز رباطها واد خنيس (العناصر حاليا)، وأمر الداي أن يكون معه ٤٠ خُباء في كل خُباء ٣٠ نفرا من العسكر أي ١٢٠٠ جندي.

-**المجموعة الثالثة:** أسندت قيادتها للسيد "مصطفى خوجة" خوجة الخيل ومركز رباطها باب الواد، وأمر بأن يكون معه ٢٠ خُباء في كل خُباء ٣٠ نفر أي يوجد معه ٦٠٠ جندي.[٣٦]-
المجموعة الرابعة: باي التيطري "مصطفى باي" ومركز رباطه تمنفوست، تؤازره بعض القبائل وفرسان سباو.
-**المجموعة الخامسة:** خليفة باي الغرب يؤازره الخزناجي من الجهة الغربية من رباط (عين الربط) ومعه ٤ آلاف فارس من الدواير.[٣٧]

خامسًا: توزيع المدافع على الأبراج

- برج الفنار (برج البحرية) وبه ١٨٠ مدفعًا.
- برج السردين وبه بطاريتان من المدافع بها ٣٢ مدفعًا.
- برج الجديد (برج الزوينة) وقد جدد بناءه محمد بن عثمان باشا ما بين ١٧٧٣-١٧٧٤م فيه مجموعة من المدافع، وفي المحصلة يوجد حوالي ٢٠٠ مدفع جاهز للدفاع عن المدينة.[٣٨]

أما فيما يخص العدد الكامل للقوات الجزائرية المستعدة فعليا للدفاع عن المدينة، فإننا نستعين بالتقرير الذي قدمه سان ديدي حول الحملة الإسبانية نقلا عن جمال قنان وكان توزيعها كما يلي:

- بايلك الشرق بقيادة صالح باي، عدد قواته ٢٠ ألف رجل.
- بايلك التيطري بقياد مصطفى باي، عدد قواته ٤٠ ألف رجل، فيما ذكر الجديري رقم ٢٠ ألف.[٣٩]
- بايلك الغرب بقيادة الخليفة نائب الباي، عدد قواته ٢٠ ألف جندي.
- آغا العرب بالجزائر عدد قواته ٢٠٠٠ من العثمانيين.
- الخزناجي بالجزائر عدد قواته ٦ آلاف رجل.
- وكيل الحرج عدد قواته ٥ آلاف رجل من العثمانيين.[٤٠]

أما باي الغرب فبقي مرابطا في أرزيو يترصد تحركات الإسبان الموجودين في وهران والمرسى الكبير وكان عدد قواته يتراوح ما بين ٣٠ و٤٠ ألف رجل.[٤١]

سادسًا: سير الحملة ونتائجُها

١/٦-سير الحملة

في ٠٢ جمادى الثانية ١١٨٩هـ الموافق لـ٣٠ جوان ١٧٧٥م، بدأت تظهر القوات الإسبانية على سواحل مدينة الجزائر، وما إن بدأ الناس يخرجون من صلاة الجمعة حتى رست مقدمة الجيش بالحراش ونتيجة لهذا الوصول المفاجئ قام صالح باي بمناورة ذكية وأنزل قواته التي قدرت بحوال ٢٠ ألف جندي بمكان غير بعيد عن الحراش.[٤٢] ومع مطلع فجر يوم ٠١ جويلية ١٧٧٥م قام القائد العام للقوات الإسبانية الكونت أورلي بجولة استطلاعية رفقة العديد من الضباط والمستشارين على متن السفينة "سانتا كلارا" لاستطلاع الأوضاع على الساحل والتعرف على الدفاعات الجزائرية المنصوبة، لكنه تفاجأ عندما رأى المدافع والبطاريات موزعة على كامل المدينة من كل الجهات، وأكثر من ذلك اكتشافه لتحصينات قوية لا يمكن اختراقها، مما دفعه إلى اختيار حل آخر وهو النزول إلى البر ثم الزحف على مدينة الجزائر للسيطرة عليها.[٤٣]

قرر الكونت أورللي إنزال قواته على الشاطئ الشرقي للجزائر بين وادي خنيس (العناصر) والحراش وتم حشد حوالي ٢٠ ألف جندي بكامل معداتهم الحربية ومؤنهم، وقد وصف أحد قادة القوات الإسبانية الأميرال مزاريدو «Mazarrede» عملية النزول والظروف المحيطة بها قائلا: «...بعد أن تجمعت الحملة في خليج الجزائر في أول جويلية طلب مني الكونت أورللي على أساس أنني قائد الأسطول النزول إلى البر رفقة الأفواج الأولى للجيش ومعي ١٢ قطعة مدفعية من عيار٤، ثم يليها مباشرة إنزال ١٢ مدفع من عيار٨ بالإضافة إلى ٨ مدافع من عيار ١٢، إلا أننا تفاجئنا برياح قوية يوم ٠٣ جويلية[٤٤] مما صعب عملية الإنزال التي قرر لها ٤ جويلية ونتيجة هذه الأوضاع كلفت بوضع خطة نهائية لنقل الجنود واختيار السفن التي ستحملهم إلى الشاطئ على أن تنزل قوة قوامها ٧٦٠٠ رجل، ليلتحق بهم بعد وقت قصير قوة تعدادها ٧ آلاف رجل».[٤٥]

فيما أخذت القوات الجزائرية مواقعها استعدادا لملاقاة العدو متبعة إستراتيجية محكمة لتطويق القوات الإسبانية، حيث لم يتركوا أي مجال للصدفة، متخذة الشكل التالي:

- الجهة الغربية المؤدية بين الجزائر ووادي خنيس وعين الربط (الحامة، ساحة أول ماي)، أسفل مرتفعات عين الأزرقة، قوات حسن الخزناجي تؤازرها قوات علي آغا العرب بالقرب من وادي خنيس.
- الجهة الشرقية من ساحة الحراش جنوبا: قوات صالح باي ومعه الكثير من راكبي الخيل والجمال.
- الجنوب الغربي: قوات مصطفى خوجة الخيل.
- باب الوادي: فرقة الصبايحية، لمراقبة تحركات العدو في حال تغيرت خططه وتنقل إلى الجهة الغربية لمدينة الجزائر.
- فرق زواوة: لحماية الجهة الغربية للمدينة.
- الجهة الغربية: قوات خليفة باي الغرب محمد بن عثمان الكبير.[٤٦]
- سهل متيجة: قوات باي التيطري إلى غاية تامنفوست (البرج البحري حاليا)، لتأمين مؤخرة المدافعين والمكلفين بإيصال المؤن، والمبادرة بالهجوم في حالة الضرورة.[٤٧]

الملاحظ إذن أن المدينة أصبحت مطوقة من كل الاتجاهات، فما إن تنزل القوات الإسبانية إلى ساحة المعركة حتى تجد نفسها محاصرة من كل الجهات. أخذ كل قائد ينظم قواته ويعدها

لخوض المعارك في المنطقة التي خصصت له، وقاموا بحفر الخنادق والمتاريس، ومما ساعدهم على إتمام تجهيزاتهم تأخر نزول القوات الإسبانية أسبوعا كاملا نتيجة التردد وهبوب الريح وإلى ذلك أشار ابن رقية التلمساني بقوله: «...إن مكث العدو كان خيرا لنا، لأن قبائل العرب كانوا يجيؤون من كل ناحية إلينا».[٤٨] بدأت القوارب التي تحمل الجنود الإسبان بالتقدم نحو الساحل، وما إن وصلت حتى بدأ الجنود بالنزول إلى الشاطئ وفي نفس الوقت تقوم السفن الحربية بقصف معسكرات القوات الجزائرية مركزة قصفها على المنطقة التي توجد بها قوات حسن الخزناجي رغبة منها في تأمين عملية النزول، لكن البطاريات والمدافع الجزائرية كانت لهم بالمرصاد.[٤٩]

نزل الجنود الإسبان إلى البر وبيد كل واحد منهم بندقية ورمح برأسين حديديين، لتستعمل كمتاريس حول معسكراتهم، وفي نفس الوقت يعيقون بها تقدم الخيالة الجزائريين، كما أنزلوا معهم أكواما من الأخشاب مربوطة في شكل حزم ومهارس القنابل والمدافع ومعهم جميع ما يلزمهم، لتبدأ فرقهم العسكرية في بناء الاستحكامات باستخدام تلك الرماح، إلا أن القوات الجزائرية بتمركزها الجيد استطاعت أن تعيق تحركاتهم وتطوقهم وتحاصرهم في منطقة ضيقة بين مرتفعات حسين داي وشاطئ البحر، رغم تحصيناتهم التي بادروا منذ البداية بإقامتها.[٥٠]

بعد أن أدرك الإسبان خطورة الموقف حاولوا فك الحصار مبكرًا لذلك هرعت قواتهم نحو البساتين المجاورة والحقول الواقعة بين الحراش وخنيس، وقاموا باستخدام الأسطول في قصف تجمعات القوات الجزائرية التي أبدت مقاومة شرسة في التصدي لهم، والتي بقيت لمدة ٣ أيام وهي تحارب في نفس المنطقة إلى أن استطاع أحد المدافعين واسمه عمر براقنيس إدارة مدفعين إلى ناحية الحصن، الذي يتواجد به الإسبان فأحدث ثغرة في حائطه، مما مكن الجزائريين من توجيه قذائف مباشرة إلى تجمعات الإسبان وسفنهم، مما نتج عنه تدمير العديد من المتاريس، وبذلك بدأت المعركة تميل لصالح الجزائريين.[٥١] أسفرت هذه المعارك عن خسائر فادحة في صفوف الإسبان، فقد قتل حوالي ١١٩ ضابط و٢٠٨٨ جندي، أما من بقي من الجيش فقد أُحكم الحصار حولهم تماما وغدا الصمود لا يجدي نفعا، لأن القوات الجزائرية أحكمت سيطرتها على المنطقة.[٥٢]

٢/٦-اليوم الرابع من المعارك -بداية النهاية للقوات الإسبانية

على الرغم من مرور ثلاثة أيام على بداية المعارك، إلا أنه لا أحد من الطرفين استطاع حسم المعارك لصالحه، فحاول كل طرف إيجاد طريقة ما لحسم الأمر نهائيًا، ومن هنا خطر على بال صالح باي خطة حربية يفاجئ بها القوات الإسبانية ويشتت شملها ويقتحم معسكراتها المحصنة، ففي اليوم الرابع من المعارك صبيحة يوم الإثنين أشار صالح باي بتجميع كل الإبل التي قدم بها من قسنطينة، وكان عددها ٥٠٠ [٥٣]، ووضع فوقها الصوف وقام بإشعاله فاندفعت الإبل إلى الأمام نحو خنادق الإسبان فداستها واقتحمتها[٥٤]، فيما كانت قواته المقدرة بحوالي ٢٠ ألف رجل تمشي خلفها، وكان يهدف من وراء هذه الخطة حماية جنوده من رصاص الجنود الإسبان[٥٥]، زيادة على إرعابهم وبعث الخوف في نفوسهم لمشاهدتهم هذا الموقف الرهيب[٥٦]، وفي هذه الأثناء التحقت بقوات صالح باي قوات الخزناجي من جهة الغرب، ومن الجنوب قوات خليفة باي معسكر وقوات خوجة الخيل.

والتقى الطرفان في معركة رهيبة استطاعت فيها القوات الجزائرية دخول المتاريس وملاحقة القوات الإسبانية التي بدأت في الفرار باتجاه السفن بدون تنظيم، وما زاد الأمر تأزما بُعدهم عن البحر، حيث قدرت المسافة بنصف ميل، وقتل منهم الكثير وهرب بعضهم في الزوارق إلى سفنهم.[٥٧] على الساعة الثالثة صباحا من يوم ٨ و٩ جويلية تمكن بعض الإسبان الذين نجوا من نيران وسيوف الجزائريين من ركوب سفنهم، وكلهم فرح وسرور بتمكنهم من النجاة من هذه المجزرة الرهيبة، تاركين خلفهم مدافعهم ومعداتهم الثقيلة التي أنزلوها لإحكام الحصار على المدينة، وظل أسطولهم إلى غاية ٢٤ جويلية يحاولا إعادة القصف والهجوم من جديد، لكن المجلس الحربي رفض خطة أورللي، ليتحرك الأسطول باتجاه إسبانيا وسط خلافات حادة بين قادته، وكل واحد منهم محملاً مسؤولية الانهزام للآخر.[٥٨]

أما من جانب الجزائريين فقد زفت البشائر للداي محمد بن عثمان باشا وأُعلنت الأفراح، فقام بتوزيع الكثير من الأموال على السكان، وفي ذلك يقول أحمد الشريف الزهار: «... وقعد عند باب دار ملكه ومعه خزنداره وعماله وهم يفرقون الأموال بإذنه على كل من يأتي برأس نصراني، والمقدر بـ١٠٠ سلطاني على كل رأس بالإضافة إلى أصحاب المدافع، حتى ضاقت الأرض برؤوس النصارى والمدافع»[٥٩]، وهو دليل على كثرة الغنائم التي تحصل عليها الجزائريون. انتهت المعركة بانتصار الجزائريين على الإسبان الذين رجعوا خائبين مرة أخرى، وتحطمت آمالهم على عتبات مدينة الجزائر، التي بقيت صامدة بفضل عبقرية الداي محمد بن عثمان باشا ومعاونيه من أمثال صالح باي وأغا العرب وحسن الخزناجي وخليفة باي الغرب، زيادة على شجاعة الجنود الجزائريين سواء النظاميين أو المتطوعين من أبناء القبائل والعرب والسكان المحليين، وقد أسفرت هذه الحملة على عدة نتائج.

٣/٦-نتائجها

- فشل الإسبان بقيادة الكونت أورللي في احتلال مدينة الجزائر وخيبة آمال الملك كارلوس الثالث في تحقيق أمنية لطالما حلم بها أجداده من الملوك، وهي إخضاع المدينة لسلطة الإسبان.
- تكبد الإسبان خسائر مادية وبشرية فادحة، فقد أجمعت المصادر المحلية على أن الإسبان تركوا وراءهم جميع عتادهم وجثث جنودهم مقطوعة الرؤوس مرمية في ساحة المعركة، وقد قدرت هذه الخسائر بـ ٨ آلاف قتيل و٣ آلاف جريح منهم ١٢ مهندسا، ومن الضباط السامين ٢٥٠ ضابطًا منهم كاهية الجنرال"كاتبه"[٦٠]، فيما ذهبت رواية أخرى إلى أن

عدد القتلى كان١١ ألف قتيل[٦١]، بالإضافة إلى تركهم حوالي ١٠٠ مدفع وجميع الآلات الحربية.[٦٢]

أما التقارير الإسبانية فإنها حاولت التخفيف من هول الصدمة التي أصابتهم، والتقليل من الخسائر التي لحقت بهم، فالأمير جوزيف دي مازاريدو المسؤول عن عمليات الإنزال على الشاطئ حاول في تقريره التخفيف من الخسائر الإسبانية قائلاً: «... وما تركناه وراءنا على الساحل أربعة مدافع مشاة، وبعض قطع مدفعية عيار ١٨، بالإضافة إلى ١٩ رطلاً من رصاص البنادق، ورامي القذائف، وبعض الأدوات، وهذه الخسائر لا تعبر عن شيء لعدد الرجال الذين كنا سنتركهم قتلى لو انتظرنا إلى الصباح».[٦٣] وهذا التقرير في الحقيقة يعبر عن نظرة عسكري وجب عليه التحفظ في شأن إعطاء الخسائر الحقيقية والتدليل على عبقريته العسكرية، مفضلا الانسحاب على تكبد خسائر في أرواح جنوده، مع التقليل من الخسائر وعدم إظهار ذلك للعدو (الجزائريين)، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على ذكاء هذا الضابط في ذلك الوقت أو لنقل هي حرب كلامية مرتبطة عضويا بالحرب العسكرية، مع أن كل القرائن تكذب قوله، فهل يعقل أنه لم يتكبد خسائر في كل المدة التي قضاها في المعارك وأدرك هذه الحقيقة في يوم واحد فقط؟

أما بالنسبة للخسائر البشرية حسب الروايات الأجنبية فإنها جاءت مغايرة تماما لما أوردته المصادر المحلية ولم تتجاوز حسبهم ١٩١ قتيل و٢٧ جريحًا من الضباط، و٢٠٨٨ جندي قتيل و٥٠١ جريح في صفوف الجنود.[٦٤]

- أما خسائر الجزائريين فقد كانت ضئيلة مقارنة بحجم الخسائر التي مني بها الإسبان والمعارك التي جرت فلم تتجاوز عند البعض ٢٠٠ شهيد[٦٥]، أما عند البعض الآخر فقد بلغت ٣٠٠ شهيد[٦٦] فيما ذهب البعض الآخر إلى ٤٠٠ شهيد، جمعوا وجعلت لهم مقبرة بالرملية إزاء عين الربط[٦٧] (عرفت لدى العامة بحصن المجاهدين"ساحة أول ماي حاليا")
- زاد هذا الانتصار المحقق الإحساس بالفخر والاعتزاز لدى الجزائريين، والالتفاف حول قيادتهم التي قادتهم إلى الانتصار، فعمت الأفراح والاحتفالات كامل تراب الإيالة، وزف الخبر السعيد للسلطان عبد الحميد الأول[٦٨] مع بعض الهدايا وقدم له حفيد الداي محمد بك ووكيل خراج القصر تفاصيل هذا الانتصار الذي حققه الجزائريون، فيما توافدت جموع غفيرة للوفد الجزائري مهنئة ومباركة له هذا الانتصار.[٦٩]
- تركت هذه الهزيمة أثرا بالغا عند الإسبان، فقد ذكرتهم بحملاتهم الفاشلة السابقة، خاصة حملة شارلكان سنة ١٥٤١م، لتضاف هذه الهزيمة إلى انتكاساتهم السابقة على عتبات مدينة الجزائر، التي بقيت صامدة أمامهم دائمًا.[٧٠]
- سطوع نجم الداي محمد بن عثمان باشا في كامل العالم الإسلامي، وبخاصة في منطقة المغرب الإسلامي، وأصبح مشهورًا ومحبوبًا في قلوب الناس، لأنه استطاع بدهائه وعبقريته العسكرية ألا يترك شيئا للصدفة، ولذلك كافأه السلطان عبد الحميد الأول ببردة وسيف وطرة مرصعة بالجوهر والكثير من السفن ولوازمها والأشرعة تكريما وتعظيما له.[٧١]
- خلّد هذا النصر لدى الجزائريين وأطلق الشعراء العنان لقرائحهم، فنظموا العشرات من القصائد الشعرية والكتابات التي تخلد هذا النصر التاريخي، ومن هذه الأبيات ما قاله الشاعر الجزائري أحمد بن الشيخ سيدي السعيد قدورة وهو يُجيب فيها الشيخ محمد بن سعيد بن قريش التطواني عن أخبار هذه المعركة:

هِيَ الأَقْلَامُ تَنْطِقُهَا المَحَابِرُ ... لِتُسْمِعَكَ اليَقِينَ عَنِ الجَزَائِرِ
وَبَاؤُوا مِثْلَمَا جَاؤُوا خَزَايَا ... وَأَعْطَوْا مَا أَكَنَّ فِي الضَّمَائِرِ
وَكَمْ رَمَتْ الحُصُونُ عَلَيْهِمُ ... مِنْ صَوَاعِقٍ لِا تَعُدُ خِلَالَ زَاخِرِ
وَلَا تَحْزَنْ فَإِنَّ اللهَ مَعَنَا ... إِذَا الْتَقَتِ العَسَاكِرُ بِالْعَسَاكِرِ.[٧٢]

- استمرار حالة العداء بين الطرفين الجزائري والإسباني، فزادت الغارات من الجانبين وأصبح كل واحد منهما يترصد سفن الآخر، وقد اتبع محمد بن عثمان باشا سياسة تكثيف الغارات على سفن الإسبان والقيام بتشجيع العاملين في البحرية بزيادة المكافآت للرّياس والبحارة، ودفع الأجور لهم زيادة على نصيبهم من الغنائم، وشجع صناعة السفن، ولذلك اعتبرت السنوات الممتدة من ١٧٧٨-١٧٨٢م من أهم السنوات التي حقق فيها الجهاد البحري أعلى مستوياته، لأن المداخيل زادت فيها وقاربت المليوني فرنك سنويا.[٧٣]
- انتعاش الحركة التجارية بمدينة الجزائر نتيجة لكثرة الغنائم والأسرى، وفي ذلك يقول الزهار: «فوقع للتجار ربح عظيم، وكان السماسرة ينادون على الأسارى وقيمة كل أسير ٢٠٠ دورو، فإذا جاء الغداء يفتدونهم بألف دور لكل رأس»[٧٤]، وهذا دليل على انتشار الحركة التجارية وكثرة الغنائم والأسرى بمدينة الجزائر في ذلك الوقت.

سابعًا: العوامل المساعدة على انتصار الجزائريين

اختلف المؤرخون في تفسير العوامل والأسباب التي أدت إلى انتصار الجزائريين وهزيمة الإسبان، وكل واحد فيهم يحاول تفسير هذا الأمر من وجهة نظره، فهناك من أرجعها إلى الأخطاء الحربية التي وقع فيها الإسبان، وثان أرجعها إلى دهاء وعبقرية القادة الجزائريين بقيادة محمد بن عثمان باشا ومساعديه مثل علي خوجة وصالح باي...وغيرهم، وآخر أرجعها إلى تأييد الله بالملائكة وكراماته التي أنزلها على الجيش الجزائري نتيجة لإيمانه وصبره، ولذلك نلخص مجمل هذه الأقوال فيما يلي:

- التردد الذي طبع قرارات قادة الجيش الإسباني وعلى رأسهم الكونت أورللي والدون بيدرو كاستيخون في اختيار موقع الإنزال، فقد استغرق ذلك ٧ أيام كاملة[٧٥]، وهذا فيه إنهاك لقوى الجيش الذي أصابه العياء من قلة النوم والجهد المبذول خلال هذه المدة، وكان من المفروض أن يختار نقطة الإنزال مسبقًا قبل وصول الحملة إلى الجزائر، حتى يتم الإنزال بأقصى سرعة ممكنة.
- استهزاء الإسبان بقدرات الجزائريين على رد الحملة وعدم تقديرهم الجيد لمعطيات المعركة، سواء ما تعلق بقدرات الجزائريين العسكرية أو أرض المعركة نفسها، فقد دخلوا المعركة دون أن يقع اختيارهم على شاطئ حصين، كما أنهم فشلوا في معرفة أماكن تواجد المدافع الجزائرية التي وضعت على المرتفعات المطلة على مكان نزولهم[٧٦]، لذلك كانت تقديراتهم سيئة، زد على ذلك أن تخطيطهم لهذه المعركة كان أسوأ.
- قوة وفعالية المدفعية الجزائرية التي كانت متمركزة جيدا على المرتفعات وبين الأشجار والبساتين المحيطة بأرض المعركة، وتآزر وتدخل القوات الجزائرية في آن واحد ضد العدو، أدى إلى حسم المعركة لصالحهم.
- مهارة وكفاءة القادة الجزائريين وعلى رأسهم محمد بن عثمان باشا ومساعديه مثل صالح باي ومصطفى خوجة وخليفة باي الغرب... الذين عرفوا كيف يخططون لهذه المعركة.[٧٧]
- لعبت المكافآت المالية التي وعد بها الداي محمد بن عثمان باشا جنوده -لكل من يأتي برأس جندي إسباني- دورا مهما، وكانت دافعا لمزيد من الحماس والشجاعة لدى الجزائريين من أجل الحصول على ١٠ دنانير مقابل كل قتيل مسيحي[٧٨]،ومما نلاحظه في هذا الشأن أن جون وولف يفسر هذا الأمر على أنه جشع بحت لهؤلاء المقاتلين الذين يريدون الربح المادي فقط، وهذا هو ديدنه في كامل كتابه فيما يخص كل المعارك التي خاضها الجزائريون خاصة المتطوعون منهم، غير مبال تماما بعقيدتهم التي تدعوا إلى الجهاد والفوز بالجنة زيادة إلى حماسهم في الدفاع عن وطنهم وأرضهم التي يريد الإسبان الاستيلاء عليها، وهم في ذلك غير متناسين مأساة إخوانهم من الأندلسيين الموريسكيين الذين فعلوا الإسبان بهم الأفاعيل وطردوهم من أرضهم، زيادة على الانتقام من الإسبان الذين يحتلون وهران والمرسى الكبير.
- الشجاعة والإقدام اللذان تميزت بهما القوات الجزائرية المدافعة عن المدينة وذكائها الحربي وسرعة تحركاتها داخل أرض تعرف خباياها بالتفصيل.[٧٩]
- الخطة العسكرية المحكمة التي نفذها صالح باي هي التي رجحت الكفة لصالح الجزائريين وأثبتت ذكاءه وخبرته العسكرية، وكانت سببا في تحقيق هذا النصر.[٨٠]
- الكرامات التي حدثت للمجاهدين الجزائريين أثناء القتال، وقتال الملائكة معهم[٨١]، حتى قيل إن النار كانت تشتعل في جنود النصارى بعون الله سبحانه وتعالى.[٨٢]

وعمومًا فإن هذه العناصر مجتمعة هي التي قادت الجزائريين للانتصار ودحر الحملة الإسبانية، على الرغم من اختلاف التفاسير لهذه الأسباب، فهناك المتعاطف مع الإسبان خاصة الأوروبيين، وآخر متعاطف مع الجزائريين، ومع ذلك مهما كانت التفسيرات فإنها لا تنقص من هذا الانتصار، بل يبقى من أعظم الانتصارات التي حققتها الدولة الجزائرية الحديثة.

خَاتِمَةُ

تعتبر هذه المعركة التي درات وقائعها على أرض الجزائر بداية النهاية للصراع الجزائري الإسباني الذي دام حوالي ثلاثمائة سنة، حاولت فيها إسبانيا بكل ما أوتيت من قوة إبقاء الجزائر تحت سيطرتها، إلا أنه بانتهاء هذه المعركة تأكد للساسة والعسكريين الإسبان أن الجزائر الحديثة لا يمكنهم احتلالها أو إخضاعها، لذلك يجب التفكير في طرائق أخرى لعلهم يستطيعون بها تحقيق أهدافهم التي عجزوا عن تحقيقها بالقوة العسكرية، لذلك سنلاحظ فيما بعد أن الخيار الوحيد المتاح أمامهم هو الخيار الدبلوماسي الذي بدأ سنة ١٧٨٦م بتوقيع اتفاق صلح بين الطرفين، ليتوج مسار هذا الطريق الدبلوماسي بمعاهدة نهائية سنة ١٧٩١م، تم على إثرها انسحاب الإسبان النهائي من وهران والمرسى الكبير بعد احتلال دام حوالي ٢٨٠ سنة، وبذلك تضع الحرب أوزارها بين الجزائر وإسبانيا بعد صراع مرير وأليم كبد الطرفان خسائر فادحة في الأرواح والأموال.

الهَوامِشُ:

(١) في سنة ١٧٠٨ استطاع الداي محمد بكداش تحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير لأول مرة من الاحتلال الإسباني بعد احتلال دام ٢٠٣ سنة، ليعاد احتلالهما سنة ١٧٣٢ بقيادة الضابط الكونت دي مونتماريا.

(٢) جون وولف: **الجزائر وأوروبا**، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط٢، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٩م.، ص ٤٠٣.

(٣) نفسه، ص٤٠٣.

(٤) ولد الباي محمد بن عثمان الملقب بالكبير بمليانة ما بين ١٧٣٤-١٧٣٧م، كان ولده عثمان الكردي بايا للتيطري، وأمه تدعى زايدة كانت جارية ببلاط مولاي إسماعيل سلطان المغرب الأقصى، ولما قتل والده عثمان الكردي في معركة ضد أولاد نايل، حضى محمد الكبير وأسرته برعاية صديق والده الباي إبراهيم، الذي صار بايا للتيطري ثم بايا للغرب الجزائري سنة ١٧٥٩-١٧٦٠م، كان محمد الكبير يحظى بثقة الداي إبراهيم لخصاله الحميدة، وازداد قربا إليه بالمصاهرة، حيث زوجه ابنته فاطمة وأشركه في إدارة البايلك، وتدرج في المناصب إلى أن صار بايا للغرب الجزائري سنة ١٧٧٩-١٧٩٧م، وخلالها سجل الباي العديد من الإنجازات، قال عنه أبو راس الناصري «ذي المقام الذي أطلعت أزهاره غمائم جوده، واقتضى اختياره بركة جوده، الملك الأصيل الذي كرم منه الإجمال والتفصيل الرفيع الشأن، السيد محمد باي ابن عثمان أخلص الله جهاده ويسر في قهر أعداء الدين مراده بأبسط العدل والأمان، الرفيع المجاهد المرابط...»، محمد أبو راس الناصري: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، حققه، محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٠م، ص١٠٠؛ بلبراوات بن عتو: "**الإصلاح الثقافي للباي محمد الكبير في مدينة معسكر**"، حولية المؤرخ، ع٣/٤، الأبيار، الجزائر، ٢٠٠٣م، ص١٩٧؛ Gorgouos, Notice sur le Bey D'oran Mohammed Elkebir, R.Af, N°1, Alger, 1856, pp 403-406.

(٥) بوحفص تجاجنة: **الحملات العسكرية لدول غرب أوروبا المتوسطة على الجزائر ١١٤٥-١٢٤٦هـ/١٧٣٢-١٨٣٠م**، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، ١٤٣٢-١٤٣٣هـ/٢٠١٠-٢٠١١ م، ص٦٣

(٦) أحمد شريف الزهار: **مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر**، تحقيق، أحمد توفيق المدني، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٠م، ص٣٧.

(٧) عزيز سامح ألتر: **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، ط١، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م.، ص ٥٢٣.

(٨) نحن بدورنا نتساءل لماذا تأخر حكام الإيالة في فرض هذا النظام طوال المدة السابقة؟ على الرغم من عشرات الحالات التي تم فيها اغتيال الحكام نتيجة هذا التسيب في مقر الحكم، وربما راجع لضعف الحكام السابقين الذين كان يُتحكم فيهم من طرف الإنكشارية لأنهم هم من عينوهم فيبدون ضعفاء أمامهم، بالإضافة إلى فقدان حكام الإيالة الجزائرية لبروتوكولات الحكم كما كان يحدث في سائر دول أوروبا.

(٩) بلبراوات بن عتو: **الداي محمد بن عثمان باشا وسياسته ١٧٦٦-١٧٩١م**"، مجلة عصور، ع٦/٧، جامعة وهران، الجزائر، جوان/ ديسمبر ٢٠٠٥م، ص ٩٢، ٩٤.

(١٠) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٤٠، ٤١.

(١١) مجموعة رقم ٣٢٠٥، علبة رقم ٥٤، وثيقة رقم ١٦.

(١٢) من أهم هذه الشروط دفع ٥٠ ألف سكين، و٤ مدافع من البرونز، و٤٠٠ قنبلة و٥٠٠ قنطار بارود و٥٠٠ صارية للأشرعة، وكميات معتبرة من الأخشاب ومواد البناء، والعديد من الحبال الضخمة، ودفع جميع الهدايا المترتبة على السنوات الماضية أثناء قطع العلاقات...، عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص٥٢٦، بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص ١٠٠،

(١٣) عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ٥٢٤.

(١٤) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص٣٧.

(١٥) عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ٥٢٩.

(١٦) للمزيد عن هذا التقرير يُنظر: أرميورو، **وهران والغرب الجزائري في القرن الثامن عشر ميلادي حسب تقرير أرميورو**، تقديم وترجمة: محمد القورصو وميكال دي إيبيلزا، المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٧٨م.

(١٧) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص٤١.

(١٨) بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص ١٠٠.

(١٩) أحمد توفيق المدني: **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢م**، ط١، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٤٥١.

(٢٠) شكيب بن حفري: "**العلاقات الإسبانية الجزائرية في القرن الثامن عشر ميلادي من خلال مخطوط عثماني**"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع١، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٢م، ص ١٢٤.

(٢١) نفسه، ص١٢٥.

(٢٢) بوحفص تجاجنة: المرجع السابق، ص٦٩.

(٢٣) عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٢٤) شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٢٥) يحي بوعزيز: **الموجز في تاريخ الجزائر**، ج٢، الجزائر الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص ١٨٥.

(٢٦) ناصر الدين سعيدوني: **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر-الفترة الحديثة والمعاصرة**-، ج٢، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤م، ص ١٥٦.

(٢٧) امحمد موفقي: **العلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا ١٢٠٠-١٢٤٥هـ/ ١٧٨٦-١٨٣٠م**، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، ١٤٣١-١٤٣٢هـ/ ٢٠١٠-٢٠١١م. المرجع السابق، ص٣٣

(٢٨) جمال قنان: **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث ١٥٠٠-١٨٣٠م**، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٢٦

(٢٩) جون وولف: المرجع السابق، ص ٤٠٣، فيما ذكر جيمس ولسن ستيفانس أن عدد القوات كان ٢٥٤٤٧ شخص بما فيهم المشاة، الخيالة، الفرسان، رجال المدفعية...وغيرهم، أما السفن وتجهيزاتها فكانت ٦ سفن كبيرة،١٢ فرقاطة ٩ شباك، ٢٤ سفينة من نوع آخر، ١٧٦ قطعة مدفع و٢٩ مدافع هاون ...جيمس ولسن ستيفانس: **الأسرى الأمريكان في الجزائر** ١٧٨٥ -١٧٩٧ م، ترجمة، علي تابليت، منشورات ثالة، الجزائر، ٢٠٠٨ م، ص٥٨ – ٥٩.

(٣٠) أما المصادر المحلية والمراجع فقد تقاربت في إعطاء نفس الأرقام تقريبا ٢٠ ألف جندي و٥٠٠ سفينة حربية، أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٤٢، مجموعة ٣١٩٠، علبة رقم ١٦، الملف الثاني، وثيقة رقم P١٣، ص١، محمد أبوراس الناصري: **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، ج١، دراسة وتحقيق بوركبة محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ٢٠١١م، ص ٣٣٨
Dalarymple (Major), Expedition D'oreilly1775, R.Af, N°5, Alger, 1861, pp33.34

(٣١) مجموعة ٣١٩٠، علبة رقم ١٦، الملف الثاني، وثيقة رقم P١٣، ص٢.

(٣٢) ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص١٥٧.

(٣٣) محمد الطاهر بن أحمد: **ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أمير ببلدة قسنطينة**، مخطوط المكتبة الوطنية، تونس، رقم ٢٦٣، ص٢٢.

(٣٤) ابن رقية الجديري التلمساني: **الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة**، مخطوط، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم ١٦٢٦، ص٢٦.

(٣٥) نفسه، ص٢٦، ٢٧.

(٣٦) مجموعة ٣١٩٠، علبة رقم ١٦، الملف الثاني، وثيقة رقم P١٣، ص٠١.

(٣٧) جمال قنان: المرجع السابق، ص٢٥٦

(٣٨) ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص٢٧

(٣٩) ليكون بذلك عدد الجنود المدافعين عن المدينة يقدر بحوالي ١١٣ ألف مقاتل ويبدو الرقم مبالغًا فيه كثيرًا ولا يعبر عن الحقيقة، خاصة وأن المصادر المحلية لم تتطرق بتاتًا لهذا العدد الضخم.

(٤٠) جمال قنان: المرجع السابق، ص٢٥٦ – ٢٥٧.

(٤١) أوجين فايست: **تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي ١٧٩٢ - ١٨٧٣م**، ترجمة، صالح نور، تقديم، الشيخ عبد الرحمان شيبان، ط١، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر،١٤٣٢ هـ/٢٠١٠ م، ص٣١.

(42) Berbrugger (Adrien), Reprise D'oran par Les Espagnols en 1732, R.Af, N°8, Alger 1864, p174.

(٤٣) هكذا هو ديدن الأوربيين دائما عندما يتعلق الأمر بمعاركهم ضد الجزائريين، ولكي يبرروا هزائمهم يلجؤون إلى العوامل الطبيعية مثل الرياح والأمطار وغيرها، وهي كلها مبررات غير مقنعة تماما، ناسين أو متناسين قوات الجيش الجزائري وعبقرية قادته.

(44) Mazarredo (Joseph de), Expédition D'oreilly Contre Alger en 1775, R.Af, N°8, Alger, 1864, pp 255, 257.

(٤٥) أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص٤٦٥.

(٤٦) ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص١٥٨.

(٤٧) ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص٢٧.

(٤٨) امحمد موفقي: **العلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا ١٢٠٠-١٢٤٥هـ/ ١٧٨٦-١٨٣٠م**، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، ١٤٣١-١٤٣٢هـ/ ٢٠١٠-٢٠١١م، ص٣٧.

(٤٩) ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص١٥٩.

(٥٠) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٤٢.

(٥١) عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص٥٣٠.

(٥٢) مجموعة ٣١٩٠، علبة رقم ١٦، الملف الثاني، وثيقة رقم P١٣، ص٢.

(٥٣) مجهول: **تاريخ بايات قسنطينة، المرحلة الأخيرة**، تحقيق، حساني مختار، منشورات دحلب، حسين داي، الجزائر، ١٩٩٠م، ص١٠؛ الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص٢٥٠.

(٥٤) يُذكرنا هذا الأمر بما فعله المرابطون في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ بقيادة يوسف بن تاشفين، عندما استنجد بهم المعتمد بن عباد ضد النصارى، فهاجموا النصارى بالإبل وكانت المعركة فاصلة أبقت الأندلس إسلامية لمدة قاربت أربعة قرون من الزمن.

(٥٥) أوجين فايست: المصدر السابق، ص٣٣.

(٥٦) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٤٢-٤٣.

(٥٧) حساني مختار: "**شرح تنوير البصائر والأبصار في تحريض سلطان الجزائر على قتال الكفار**"، المجلة المغاربية للمخطوطات، أعمال الملتقى الوطني للتراث المخطوط، نوفمبر ٢٠٠٦م، ع٤، جامعة الجزائر، الجزائر،٢٠١٣ م، ص٢٢٨.

(٥٨) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص٤٣.

(٥٩) ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص٣١.

(٦٠) مجموعة ٣١٩٠، علبة رقم ١٦، الملف الثاني، وثيقة رقم P١٣، ص ٠٢.

(٦١) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص٤٣.

(62) Mazarredo (J. de), op.cit, p265.

(63) Berbrugger (A), op.cit, p184.

(٦٤) يقول جون وولف أن عدد القتلى بلغ ٢٧ ضابطا و٥٠٠ جندي وجرح ١٩١ ضابطًا وأكثر من ١٠٠٠ جندي، جون وولف، المرجع السابق، ص ٤٠٦؛ وهكذا هي عادة الأوروبيين يقللون من خسائرهم حتى ينقصوا من انتصارات الجزائريين ولا يعطونها حقها من القيمة والاهتمام، عكس انتصاراتهم ولو كانت في معركة بسيطة.

(٦٥) مجموعة ٣١٩٠، علبة رقم ١٦، الملف الثاني، وثيقة رقم P١٣، ص ٢.

(٦٦) ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص ٣١.

(٦٧) محمد أبو راس الناصري: **الحلل السندسية في تاريخ وهران والجزيرة الأندلسية**، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم ٣١٨٢، ص٣٣٨.

(٦٨) ولد سنة١١٣٨ هـ/١٧٢٦م، جلس على العرش سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م، ومدة حكمه ١٦ سنة، في عهده عرفت الدولة العلية عدة إصلاحات ابتداءً من سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م، مثل محاربة الفساد وبعض الإصلاحات الإدارية، وعرف عهده الكثير من الحروب ضد الدولة الصفوية وروسيا، توفي سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٩م، عن عمر يناهز ٦٦ سنة...، محمد فريد بك المحامي: **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق، إحسان حقي، ط١، دار النفائس، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص١٨٤، ١٨٦.

(٦٩) عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ٥٣٢.

(٧٠) أمحمد موفقي: المرجع السابق، ص٣٩.

(٧١) عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ٥٣٢.

(٧٢) عبد الرحمن الجيلالي: **تاريخ الجزائر العام**، ج٣، ج٥، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٠م، ص٢٤٥، ٢٤٦.

(٧٣) المنور مروش: **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني -القرصنة، الأساطير والواقع**-، ج٢، دار القصبة، سعيد حمدين، الجزائر، ص ٤٦٨.

(٧٤) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ١٤٤.

(٧٥) عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص٥٣١.

(٧٦) جون وولف: المرجع السابق، ص ٤٠٦.

(٧٧) ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص ١٦١.

(٧٨) جون وولف: المرجع السابق، ص ٤٠٤.

(٧٩) أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص ٤٦٩.

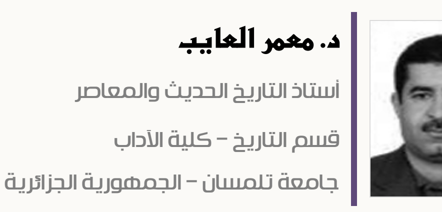
(٨٠) مجهول: **تاريخ بايات قسنطينة، المرحلة الأخيرة**، تحقيق، حساني مختار، منشورات دحلب، حسين داي، الجزائر، ١٩٩٠م، ص١٠.

(٨١) لا يمكننا نفي أو تصديق هذا الأمر، لكن نقول انه ثبت عبر التاريخ الإسلامي منذ غزوة بدر الكبرى مثل هذه الكرامات للمجاهدين المخلصين، لأن الله سبحانه وتعالى يمد عباده بالملائكة للقتال معهم نصرة لدينه وعباده المظلومين، ويمكن أن يكون حدث هذا الأمر في هذه المعركة.

(٨٢) مجموعة ٣١٩٠، علبة رقم ١٦، الملف الثاني، وثيقة رقم P١٣، ص٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

دور إيالة الجزائر في ظهور المصالح التجارية الأمريكية بغرب البحر الأبيض المتوسط خلال الفترة (١٧٩٥-١٨١٦)



د. معمر العايب
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

يحاول المقال تسليط الضوء على مرحلة هامة من تاريخ الجزائر في الفترة الحديثة، حين كانت الدول الأوربية توحد صفوفها ومواقفها ضد الجزائر (مؤتمر فينا ١٨١٥)، في الوقت نفسه أيضًا كانت الدولة الفتية الولايات المتحدة الأمريكية تبحث عن أماكن جديدة لترويج وتسويق تجارتها، وتبحث أيضًا عن سبل حماية سفنها التجارية في الحوض الغربي للمتوسط، وعليه فان إشكالية الموضوع تتمحور حول: دور الجزائر في ظهور المصالح التجارية الأمريكية في غرب المتوسط خلال أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ومطلع القرن التاسع عشر، والتي يمكن الإجابة عليها من خلال تناول الموضوعات التالية: (أهمية الجزائر في التجارة الخارجية الأمريكية، وضع التجارة الخارجية الأمريكية في غرب المتوسط أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، أهمية معاهدة ١٧٩٥ في ترسيم العلاقات الجزائرية الأمريكية، دور التجار اليهود المتواجدين بالجزائر في تعزيز المصالح التجارية الأمريكية في غرب المتوسط). معتمدين على المنهج التاريخي في سرد أحداث هذا الموضوع وتحليلها، والوصول إلى استنباط عدة نتائج: (تناول الموضوع يتيح الفرصة للباحثين لمعرفة مادته التوثيقية، وجوانبه الغامضة فيما يتعلق بالعلاقات الأمريكية الشمال أفريقية في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، العوامل التي ساعدت الولايات المتحدة الأمريكية، في توسيع نطاق مصالحها التجارية في غرب البحر المتوسط، إبراز دور الولايات المتحدة الأمريكية في إضعاف البحرية الإسلامية للإيالات الثلاث (الجزائر– تونس – طرابلس)، وخاصةً الجزائر التي فقدت ابرز ضباط بحريتها (الرايس حميدو)، في صراعها البحري مع أمريكا، في الوقت الذي كانت فيه الدول الأوربية منهمكة في حروبها مع نابليون بونابرت، والكشف عن الدور الهام والخطير الذي لعبه التجار اليهود المتواجدين بالجزائر في التأثير على دايات الجزائر في ربط علاقات مع أمريكا من جهة والدخول معها في من جهة أخرى، وفي مرحلة أخرى السعي لربط المصالح التجارية لليهود بتوسيع المصالح التجارية الأمريكية في غرب المتوسط.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٨	نوفمبر	٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر:	١٣	فبراير	٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
تاريخ الجزائر الحديث، المصالح الأمريكية، إيالة الجزائر، الدبلوماسية الجزائرية، معاهدة ١٧٩٥

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052960

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
معمر العايب. **"**دور إيالة الجزائر في ظهور المصالح التجارية الأمريكية بغرب البحر الأبيض المتوسط خلال الفترة (١٧٩٥-١٨١٦)".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص١٣٩ – ١٤٨.

مُقَدِّمَةُ

من خلال عنوان المقال قد يتبادر للبعض أن الدور الجزائري كان الوحيد، في ظهور المصالح التجارية الأمريكية في غرب المتوسط، بل سنلاحظ إن دور الجزائر وإيالات المغرب العربي الأخرى بما فيهم المغرب الأقصى سيأتي في المرحلة الأخيرة بعد الدور البريطاني حينما كانت الولايات المتحدة الأمريكية مستعمرة إنجليزية، وكانت السفن الأمريكية تدخل مياه غرب المتوسط وهي حاملة لراية التاج البريطاني وكانت الحكومة البريطانية توفر لها الحماية، في إطار بنود اتفاقياتها ومعاهداتها مع حكومة دايات الجزائر، وبعد ذلك يأتي الدور الفرنسي منذ أن

تبنت فرنسا قضية الثورة الأمريكية وقدمت مساعداتها المادية والمعنوية للثوار الأمريكان في حربهم ضد الإنجليز.

ومن دواعي هذا البحث أنه جاء كمحاولة لإزالة الغموض على تفاصيل بعض الأحداث التي عرفتها منطقة غرب المتوسط خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر والعقدين الأول والثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، المتصلة بظهور المصالح التجارية الأمريكية كقوة جديدة تدخل حلبة المنافسة في مياه غرب المتوسط، والتطرق إلى هذا الموضوع اقتضى بالضرورة العودة إلى الدراسات السابقة التي تناولته بمقاربات أخرى تميزت بالشمولية في تتبع أحداث مسار العلاقات الجزائرية الأمريكية (١٧٩٥-١٨١٦) أو العلاقات الشمال الأفريقية الأمريكية خلال نفس الفترة، وبهذا الشكل كان من المفيد العودة إلى هذه الكتابات وإعادة قراءتها واستنباط أهم النتائج المتعلقة بظروف المواكبة لدخول الدولة الفتية (الولايات المتحدة الأمريكية) إلى الحوض الغربي للمتوسط، والطرق التي استعملتها (الدبلوماسية والعسكرية) في الوصول إلى تحقيق مصالحها التجارية وحمايتها وتوسيع نشاطها في كامل حوض المتوسط ككل.

والدراسات السابقة حول الموضوع المعتمدة في هذا المقال، تنوعت ما بين الدراسات الجزائرية، والأجنبية المعربة والعربية، التي تناولت الموضوع بشكل مباشر، وهنا يمكن الإشارة إلى كتابات المؤرخ أبو القاسم سعد الله في هذا المجال ونذكر منها على سبيل المثال للحصر: "الدبلوماسية الجزائرية الأمريكية قبل الاحتلال"، مجلة المعرفة الجزائرية، العدد، ١٥، ١٦، ١٩٦٤، وكذلك الدراسة القيمة حول: "العلاقات الجزائرية الأمريكية (١٧٧٦-١٨٣٠)"، والتي نشرها في كتابه أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر الحديث، ج١، ش، و، ن، ت، الجزائر ١٩٧٨. أما الدراسات الأجنبية المعربة حول الموضوع فقد اعتمدنا على ما قدمه من مجهود المرحوم الأستاذ إسماعيل العربي وتمثلت في ترجمته لمؤلفين اثنين: الأول لصاحبه: راي ويل أروين: العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (١٧٧٦-١٨١٦)، ش ون ت الجزائر ١٩٧٨، والتأليف الثاني المترجم وهو لتشارلز أوسكار بولان، المفاوضات الدبلوماسية بين ضباط البحرية الأمريكية ودول المغرب (١٧٧٨-١٨٨٣)، ضمنه في كتابه القيم، فصول في العلاقات الدولية، م و ك، الجزائر، ١٩٩٠. دون إغفال الدراسات العربية المشرقية التي تناولت الموضوع في بعض جوانبه على غرار ما كتبته الباحثة هيفاء معلوم الأمام حول: العلاقات الأمريكية الشمال إفريقية في العصر الحديث، ونشرته في المجلة المغربية التي تصدرها مؤسسة عبد الجليل التميمي للبحث والمعلومات، بتونس، عددها١٥ و١٦، شهر جويلية، ١٩٧٩، ولتحليل أحداث هذا الموضوع اعتمدنا على المنهج التاريخي في سرد أحداثه.

تشير أهم الكتابات التاريخية الجزائرية[١] التي أرخت للعلاقات الجزائرية الأمريكية، خلال الفترة المعاصرة إلى الدور الذي لعبته إيالة الجزائر في ظهور المصالح الأمريكية في غرب المتوسط، فالولايات المتحدة الأمريكية الدولة الفتية التي احتكت بالجزائر مع أواخر القرن الثامن عشر- وعززت علاقاتها معها بتوقيعها معاهدة صداقة معها عام ١٧٩٥، الأمر الذي ساعدها في توسيع نشاطها التجاري عبر موانئ الجهة الغربية للمتوسط و التطلع نحو شرق المتوسط، وأمام تشابك المصالح التجارية الغربية في غرب البحر المتوسط سارعت الدولة الفتية المنتمية إيديولوجيا إلى الغرب المسيحي إلى الانضمام إلى التحالف الأوربي الذي جاء تنفيذا لتوصيات مؤتمر فينا ١٨١٥ الداعية إلى القضاء على الأسطول الجزائري واحتلال مدينة الجزائر. في خضم هذه الأحداث استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية تعزيز مكانتها في غرب المتوسط ونسج علاقات تجارية مع دول شمال إفريقيا وشرق المتوسط، هذا ما سنحاول التطرق إليه بالتفصيل في هذا المقال.

ظهور المصالح الأمريكية في غرب المتوسط

يعود ظهور المصالح الأمريكية في غرب المتوسط إلى الفترة التي سبقت الاستقلال، عندما كانت أمريكا مستعمرة بريطانية وهي الفترة التي سمحت لأمريكا بالاحتكاك بعالم البحر الأبيض المتوسط، من خلال تعاملاتها التجارية خصوصًا مع فرنسا ثم الجزائر، ففرنسا هي التي فتحت أعين أمريكا على البحر الأبيض المتوسط منذ أن كانت تقدم الدعم والمساندة للثورة الأمريكية.[٢]

أما الجزائر فهي الأخرى ساهمت في فتح المجال للتجارة الأمريكية في غرب المتوسط، "فحسب شهادة الأمريكان أنفسهم بأن تجارتهم قد تقدمت خلال هذه الفترة، وأن بلادهم قد بدأت تتعرف على أحوال الشرق أو العالم القديم بفضل معاملة الجزائر لهم"،[٣] والأكثر من ذلك أن الكثيرين من مؤرخي أمريكا الشمالية لهذه الفترة يؤكدون أن سياسة الجزائر البحرية هي التي جعلت الأمريكيين يعتمدون المال لبناء أسطول بحري قوي يستطيع الوقوف في وجه الأسطول الجزائري، وأن فرقة البحارة (المارينز) الأمريكية ما تزال تنشد عن انتصاراتها "على سواحل طرابلس"، وأن أول أسطول بحري للجمهورية الفتية قد أنشئ، وفي ذهنه البحارة الجزائريون.[٤] ومنذ إعلان استقلال أمريكا عن بريطانيا سعت جاهدة إلى الحصول على اعتراف الدول الأوربية باستقلالها وتحقيق دعم سياسي دولي لها، فأرسلت ممثليها إلى عواصم أوربا الغربية لعقد معاهدات صداقة وتجارة معها، وكانت فرنسا من أوائل الدول الأوربية التي اعترفت بها عام ١٧٧٦، وهذا الاعتراف كان نكاية في بريطانيا وتبعه عقد معاهدتين بين البلدين الأول سنة ١٧٧٦ والثانية عام ١٧٧٨.[٥]

أهمية الجزائر في التجارة الخارجية الأمريكية قبل استقلال أمريكا

يؤكد توماس برايسون[٦] وهو أحد المتخصصين في تاريخ العلاقات الدبلوماسية الأمريكية مع الشرق الأوسط أن أمريكا بعد استقلالها عن الإنجليز عام ١٧٧٦، وجدت نفسها في عالم معاد لها تهيمن عليه قوى استعمارية أوروبية بعد ما كانت أمريكا جزءًا من النظام الذي قامت عليه فلسفة التوازن الاقتصادي للإمبراطورية البريطانية، حيث أنها كانت تتمتع بحماية خاصة باعتبارها مجرد تابع يسير في ركاب الإمبراطورية البريطانية، أما بعد استقلالها ففي استطاعتها أن تدخل مجال المنافسة بل من الضروري أن تواجه هذه المنافسة في نطاق سوق عالمية، هذا الوضع أفقد الدولة الفتية عدة مزايا تجارية كانت تتمتع به قبل استقلالها عن التاج البريطاني، وكانت التجارة الخارجية مسألة ضرورية للحفاظ على بقاء الدولة الفتية، لذا سعى المؤسسون الأوائل لأمريكا سعيًا حثيثًا للبحث عن أسواق جديدة وكان الشرق الأوسط الإسلامي من أول الجهات التي قصدوها[٧].

إن ظهور السفن التجارية والحربية والتجار والدبلوماسيين الأمريكان في بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، يعود إلى أواخر القرن الثامن عشر أي بضع سنوات فقط من ظهور أمريكا كدولة مستقلة، أثناء هذه الفترة زاد اهتمام بهذه المنطقة من طرف الأمريكان نتيجة تجارة الأفيون، حيث كان التجار الأمريكيين يشترون الأفيون من أزمير وغيره من مرافق الإمبراطورية العثمانية وينقلونه عبر البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي- وحول رأس الرجاء الصالح وعبر المحيط الهندي، وفي هذا يشير دان ليسي- أيضًا: (.. أن من بين روابط الولايات المتحدة الأمريكية ببقية أوربا(...) التجارة الغير الشرعية التي كانوا يمارسونها مع سكان البحر الكاريبي، ومنها أيضًا بيع السمك والأرز لبلدان البحر الأبيض المتوسط ...)).[٨]

إن نجاح هذه العمليات التجارية كان يتوقف على موافقة حكام المغرب والجزائر وطرابلس الغرب، الذين كانوا يحصلون على رسوم وضرائب كثيرة مقابل السماح بمرور السفن الأمريكية المحملة بالأفيون في مياههم الإقليمية، وتزويدهم بالماء والمأكولات أثناء زيارة المرافئ العربية وضمان سلامتها. وفي شهر مايو ١٧٨٤ بدأت أمريكا علاقاتها الدبلوماسية مع الشرق الأوسط، عندما عين الكونغرس لجنة خاصة، تتكون من بنيامين فرانكلين وجون آدامز وتوماس جيفرسون لإقامة علاقات تجارية، والتفاوض مع بلدان المغرب العربي (المغرب الأقصى- الجزائر وتونس و ليبيا)[٩]، وتوصلت إلى عقد معاهدات معها فكانت المعاهدة الأولى مع المغرب الأقصى عام ١٧٨٦م ودفعت لحاكم المغرب حوالي ١٠٠٠٠ دولار سنويًا لقاء دعمه للتجار الأمريكان، وفي سنة ١٧٩٥ تم توقيع معاهدة مع الجزائر، وفي عام ١٧٩٧ تم توقيع معاهدة مماثلة مع طرابلس الغرب (الجمهورية الليبية حاليًا) وتونس.

لقد ذهب جيمس كاثكارت[١٠]، إلى التأكيد أن الدافع الوحيد الذي جعل الدول الأوروبية تخضع للدول المغربية هو التوسع التجاري وقال في هدا الشأن: (..أن الرشوة و الفساد تستجيب لأهدافها بطريقة أفضل وهي أقل تكليف من إعلان الحرب نبيلة....)[١١]. ضمن هذا السياق كتب ريتشارد أوبراين القنصل العام لأمريكا في الجزائر[١٢]: (..إن الدول التي ترتبط بعلاقات سلام مع دول المغرب لا ترغب في أن ترى دولاً أخرى ترتبط بعلاقات سلام معها وتجني الفوائد التي تجنيها هي من التجارة في البحر الأبيض المتوسط و "اللورد شيفليد" كان واثقًا من أنه نظرًا لاعتبارات تجارية، فإن الدول البحرية الكبيرة لا تود مساعدة أمريكا، على إقامة علاقات السلام مع الدول المغربية وقد قيل أن المثل السائد بين كبار التجار الإنجليز أنه لو لم تكن الجزائر موجودة لكان خلق الجزائر ضروريًا).[١٣]

فالأسطول البريطاني في البحر الأبيض المتوسط كان يقوم بمضايقات في بعض الأحيان ولكنها في الجملة كانت تتمتع بحرية أكبر مما كانت تتمتع به ملاحة أي دولة أوروبية أخرى، وهذه الوضعية كانت في مصلحة المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية، التي كانت تشارك بريطانيا الفوائد النسبية التي كانت تجنيها، وقبل إعلان الثورة الأمريكية كانت المستعمرات الأمريكية تقوم بتجارة واسعة النطاق في البحر الأبيض المتوسط[١٤]، وكانت المبادلات التجارية في البحر المتوسط هامة في القرن الثامن عشر- وكانت البلاد الشمال الأفريقية تصدر الحبوب من قمح والشعير وحمص وزيت الزيتون والصابون والصوف والجلود والخيول والمواشي والملح والفاكهة المجففة والعاج وريش النعام والشمع والسجاد، أما الواردات فكانت أكثرها من الأقمشة والسكر والشاي والقهوة والبهارات والحديد والفخار والعتاد الحربي، وكانت تلك المبادلات تنقل على السفن الأجنبية بامتيازات خاصة أو بواسطة شركات غربية وبعقود فردية.[١٥]

يقدر جيفرسون عدد البحارة الذين كانوا يعملون في التجارة في البحر الأبيض المتوسط بإثني عشر ألف بحار، وعدد السفن التي يعملون بها يتراوح بين ٨٠ و١٠٠ سفينة، حمولتها قدرت بـ ٢٠ ألف طن، وقد كانت موانئ البحر الأبيض المتوسط توفر سوقًا لنحو السدس من صادرات الحبوب والدقيق ونحو الربع من صادرات المستعمرات من السمك المملح المجفف والمنتجات الأخرى المهمة التي كانت تصدرها المستعمرات إلى جنوب أوروبا وإلى إفريقيا الشمالية، هي الأرز وخشب الصنوبر والبلوط وشمع النحل والبصل.[١٦]

لقد بلغ مجموع قيمة البضائع لأمريكية التي شحنت إلى هذه المنطقة في سنة ١٧٧٠ حوالي ٧٠٧,٠٠٠ جنيه، وكذلك قدرت قيمة البضائع الأجنبية التي شحنتها السفن الأمريكية في السنة نفسها، وخصوصًا من جزر الهند الغربية إلى جنوب أوروبا

وإفريقيا الشمالية بـ ٦٢٨٧ جنيها، أما في سنة ١٧٧٦ فإن قيمة مجموع صادرات المستعمرات الأمريكية في المنطقتين السالفتين الذكر كانت أقل من ذلك، وبالمقابل قدرت قيمة واردات المستعمرات من المنطقتين رسميًا في سنة ١٧٦٩ بـ ٢٢٨,٦٨٢ جنيها، وهي تتكون خصوصًا من الخمور والملح والزيت والجلد المدبوغ المستورد من المغرب الأقصى[١٧]، وفي عام ١٨٢٣ طالب أحد أعضاء الكونغرس، وزير المالية الأمريكي إعداد تقرير عن حجم تجارة أمريكا في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وذكر التقرير أن حجم تجارة أمريكا مع الشرق الأوسط بلغ ٢,٣ مليون دولار في الفترة (١٨٢٠-١٨٢٢)، وأنه تخطى ١,٢ مليون دولار في عام ١٨٢٣.[١٨] بواسطة الهدايا والمعاهدات واستعمال القوة في بعض الحالات تمكنت إنجلترا من حماية تجارتها من البحرية الجزائرية، وكانت سفن المستعمرات التي تحمل وثائق صادرة من وزارة البحرية البريطانية، أو التي يكون معظم بحارتها من الإنجليز تتمتع بوعد الحصانة وبعدم الاعتداء عليها بموجب نصوص معاهدات واحتاجت الحكومة البريطانية إلى الاحتفاظ بسفن مسلحة باستمرار في البحر الأبيض المتوسط.[١٩]

بعد الاستقلال

بحث الدولة الفتية عن الحماية لمصالحها التجارية في غرب المتوسط

بعد الثورة الأمريكية والاعتراف بالاستقلال بموجب معاهدة فرساي ٣ سبتمبر ١٧٨٣ تغير وضع المصالح التجارية الأمريكية في غرب المتوسط، وأصبحت السفن التجارية الأمريكية مهددة من قبل السفن الجزائرية، بعد أن سحبت بريطانيا حمايتها من مستعمرتها القديمة، وأصبحت أمريكا حرة في التعامل مع السفن الجزائرية، وكان عليها لكي تحمي تجارتها إما أن توقع معاهدة صداقة مع الجزائر أو تدخل في مواجهة معها، والخيار الأخير لم يكن في صالح الدولة الفتية على أساس أنها لا تملك أسطول حربي، فنظرًا للمشاكل الداخلية التي كانت تعاني منها وقوة الأسطول الجزائري من جهة أخرى، فإنها قررت التفاوض مع الجزائر بغرض عقد معاهدة صداقة معها، وللوصول إلى هذا الهدف، فإنها لم تسلك طريقًا مباشرًا لذلك فقد لجأت إلى أصدقائها الأوروبيين ليساعدوها على تحقيق ذلك.[٢٠]

الخطوة الأولى التي اتخذها الكونغرس في محاولة إيجاد حل لهذه الأزمة -توفير الحماية- هي أن تتضمن المعاهدات التي عقدت مع الدول الأوروبية نصوصا تعد بالحماية للسفن الأمريكية من نشاط الأسطول الجزائري[٢١]، فالمعاهدة التي وقعتها أمريكا مع فرنسا عام ١٧٧٨ احتوت على مادة يتعهد بموجبها ملك فرنسا باستعمال وساطته لدى الجزائر لحماية وراحة الولايات المتحدة الأمريكية.[٢٢] وفي معاهدة أخرى مع كل من هولندا عام ١٧٨٢[٢٣] وبريطانيا عام ١٧٨٣ حاولت أمريكا أن تضيف نفس المادة، حيث سعت للحصول على المساعدة الإنجليزية، وبعد التصديق على البنود المؤقتة لمعاهدة الصلح الأمريكية البريطانية فقبل عقد المعاهدة النهائية حاولت أمريكا إضافة بعض البنود التي تتعلق بالتجارة، وأحد هذه البنود يتصل بحماية المصالح الأمريكية من نشاط الأسطول الجزائري، غير أن هذه المساعي باءت بالفشل والسبب الحقيقي لهذا الفشل يعود للمخاوف من المنافسة التجارية الأمريكية في البحر الأبيض المتوسط[٢٤].

فالمشروع الذي تقدم به وليام بيت (w.Pitt) أمام البرلمان عام ١٧٨٣ والذي نص على حرية التجارة بين بريطانيا وأمريكا قد فشل في الحصول على الأغلبية، ومن الحجج التي أدلى بها اللورد شيفلد ضد مشروع القانون إشارته إلى أهمية دول المغرب فيما يتعلق بالتجارة مع أمريكا حيث قال: (... ليس من المرجح أن يحصل الأمريكيون على حرية كبيرة في التجارة في البحر الأبيض المتوسط فإنه ليس في مصلحة أية دولة بحرية حمايتهم من دول المغرب أما الدول المغربية فهي مفيدة للدول البحرية فهو شيء واضح لا غبار عليه...)[٢٥]، ورفضت بريطانيا إضافة أي مادة تتعلق بحماية المصالح الأمريكية في غرب المتوسط، مثلما رفضت فرنسا هي الأخرى من توفير الحماية لسفن الأمريكية، وهي المعروفة بصداقتها لأمريكا خلال هذه الفترة.

فالموقف الأوروبي كان يقوم على مبررين الأول أن معاهدات هذه الدول مع الجزائر لا تحتوي على تعهد بحماية أو تدخل بشأن أمريكا والثاني عدم الرغبة في إضافة منافس جديد لهم في غرب البحر الأبيض المتوسط[٢٦]، فالمبرر الأخير يقوم على تخوفات فرنسا وإنجلترا من ظهور منافس قوي في المتوسط، فقد اقتصر التنافس التجاري في المتوسط على فرنسا وبريطانيا بشكل خاص وظهر جليًا خلال المرحلة الأخيرة من القرن الثامن عشر وجاء هذا بعد أن فقدت الدول الأوروبية جزءًا كبيرًا من مستعمراتها في القارة الأمريكية، ولهذا وجهت أنظارها من جديد إلى البحر المتوسط وقد شجعها على ذلك ضعف البحرية الجزائرية وألقت إنجلترا بكل ثقلها في البحر المتوسط ساعية أخذ مواقع فرنسا في السواحل الجزائرية.[٢٧]

ترسيم العلاقات الجزائرية الأمريكية

بعد فشل المساعي الأمريكية في الحصول على الحماية لمصالحها من طرف الدول الأوروبية حاولت أمريكا تجريب القوة ضد الجزائر، حيث شنت حملة دبلوماسية ضد الجزائر كان الهدف منها هو تكوين تحالف أوروبي أمريكي لمواجهة الجزائر، وتعود هذه المحاولة إلى جيفرسون الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للخارجية ورئيسًا للجمهورية، وهو صاحب فكرة تكوين تحالف أوروبي ضد الجزائر، ففي عام ١٧٨٥ اقترح على فيرجين Vergennes سفير فرنسا في أمريكا، في شن حرب على الجزائر، غير أن هذا الاقتراح فيما يبدو لم يعجب فيرجين، وبمساعدة المغامر الفرنسي "لافاييت"، قام جيفرسون في عام ١٧٨٦، بتقديم

مشروع يتكون من إحدى عشر نقطة لتكوين ذلك الحلف وبعث به إلى الدول الأوروبية.[٢٨]

وافقت على المشروع كل من البرتغال، نابل، البندقية، صقلية، مالطة، الدانمرك، السويد، فيما رفضت الدول الكبرى بريطانيا وفرنسا المشاركة فيه، ويعود فشل هذا المشروع إلى سببين الأول: أنهذه الدول الصغيرة لم تكن متأكدة من قوة أمريكا على حمايتها في حالة حرب ضد الجزائر، والسبب الثاني راجع كون الكونغرس الأمريكي رفض تمويل المشروع. مع مطلع ١٧٩١ أصبحت الظروف مواتية لتبدأ أمريكا، مفاوضات جديدة مع الجزائر، ويبدوا أن من أهم العوامل التي ساعدت على انطلاق هذه المفاوضات هو انشغال أوروبا بأحداث الثورة الفرنسية، لا سيما بعد توتر العلاقات الجزائرية الفرنسية وعزم الجزائر على بداية عهد جديد لكسب صداقة أمريكا[٢٩]، لقد ازدادت أهمية الجزائر الاستراتيجية بشكل واضح في البحر الأبيض المتوسط خلال فترة الثورة الفرنسية. حيث حاولت حكومة الإدارة في فرنسا استخدام البحر الأبيض المتوسط كوسيلة للوصول إلى مصر ولضرب بريطانيا في الهند، وظهرت مدينة الجزائر في موقع متوسط بين القواعد البريطانية في جبل طارق وفي مالطة، مما يدعم السيطرة البحرية على البحر المتوسط في حالة استيلاء بريطانيا عليها، أو الحصول على تسهيلات من حكامها، وأقلقت فكرة إمكان قيام تقارب أو تحالف جزائري - بريطاني بال الحكومة الفرنسية في عصر الثورة ونابليون[٣٠].

وكانت فكرة الاستفادة من موقع الجزائر الاستراتيجي تراود نابليون بونابرت في حربه مع بريطانيا، ولا شك أن حصول فرنسا على قاعدة بحرية في شمال إفريقيا يسمح لها بالتعاون مع قاعدة طولون، إنما يحقق لفرنسا التفوق في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وتهديد الخطوط البحرية البريطانية التي كانت تمتد عبر هذا البحر بين الشرق والغرب.[٣١] قبل أن يشتد الصراع والتنافس بين فرنسا وإنجلترا كانت الأمور بينهما قد تطورت بشكل أدى إلى فرض إنجلترا حصارًا بحريًا شديد على السواحل الفرنسية (١٧٩٢-١٧٩٦)، ومنعت بعض الدول التعامل معها، بهدف تجويع الفرنسيين إلا أن خطة الحصار أثبتت فشلها إذ ظلت السفن الأمريكية التي دخلت حلبة الصراع في البحر المتوسط، تزود الموانئ الفرنسية بالمواد الغذائية[٣٢]، لهذا رأت إنجلترا أنه من الحكمة أن تنهي الحرب بين الجزائر والبرتغال، حتى يتمكن الأسطول الجزائري من التغلغل إلى المحيط الأطلسي، وبذلك يستطيع عرقلة ومنع السفن الأمريكية من الاتصال بالموانئ الفرنسية، وتوصلت إنجلترا بفضل دبلوماسييها إلى إقناع الجزائر والبرتغال إلى عقد هدنة مدتها عام خلال سنة ١٧٩٣[٣٣].

المعاهدة كانت كارثة بالنسبة للإدارة الأمريكية التي فشلت في توقعها وعجزت عن التصدي لنتائجها، وهذه الحقيقة أدركتها شركات التأمين البحرية بسرعة، فرفعت التأمين على الشحن البحري بالسفن الأمريكية في المحيط الأطلسي من ١٠% إلى ٣٠%، وفي غضون شهرين (أكتوبر ونوفمبر) ١٧٩٣، استولى الأسطول الجزائري الذي دخل المحيط الأطلسي على ١١ سفينة أمريكية بحمولاتها وبحارتها بذلك ارتفع عدد الأسرى الذين سعت أمريكا لفديتهم من ٢٠ إلى ١١٩ أسيرًا[٣٤]، وهكذا حققت إنجلترا ما كانت تصبو إليه حيث دخل الأسطول الجزائري في حرب ضد السفن الأمريكية بعد دخوله من جديد مياه الأطلسي، وبالتالي تم عرقلة عملية تموين الموانئ الفرنسية[٣٥] وبادرت بريطانيا إلى تقديم معلومات مهمة عن الطرق البحرية، التي تسلكها السفن الأمريكية في المحيط الأطلسي والمتوسط[٣٦].

شرعت الحكومة الفرنسية في البحث عن الوسيلة التي تمكنها من فك الحصار البحري الذي فرضته إنجلترا على سواحلها وفتح الطريق أمام سفن الأمريكية للوصول إلى موانئها عبر بحر المانش، واضطرت فرنسا لهذا الغرض إلى إرسال بعثة إلى تونس والجزائر لإقناع حكامها بالتفاوض مع أمريكا، غير أن تطور الأحداث بين الجزائر والبرتغال حيث تجددت الحرب بين البلدين خلال شهر أبريل ١٧٩٤، وأرسلت البرتغال أسطولها إلى مضيق جبل طارق وإغلاقه في وجه الأسطول الجزائري ومنعه من المرور إلى المحيط الأطلسي هذه الإجراءات البرتغالية، ساعدت السفن الأمريكية على مواصلة تموين الموانئ الفرنسية. إن هذه المستجدات كانت سببًا أساسيًا في تراجع فرنسا عن قرارها المتعلق بإيفاد بعثة إلى تونس والجزائر، هذا ما يفسره البعض من تخوف فرنسا هي أيضًا من احتمال تدخل أمريكا التجاري في البحر المتوسط، وبسط نفوذها فيه خاصة أنها كانت هي الأخرى قد أرسلت مبعوثًا لها يرافق البعثة الفرنسية لعقد معاهدة مع الجزائر وتونس، غير أن فرنسا فضلت إبقاء الوضع على ما كان عليه.[٣٧]

توقيع معاهدة ١٧٩٥

على الرغم من العراقيل الفرنسية الإنجليزية فإن أمريكا بفضل دبلوماسييها استطاعت التوصل إلى عقد معاهدة مع الجزائر خلال شهر سبتمبر ١٧٩٥[٣٨]، وكان هذا بداية لتعزيز وجودها في البحر المتوسط وأصبحت طرفًا مؤثرًا فيه، بعد أن عين الرئيس الأمريكي جون آدامز العقيد "دافيد همفريز"[٣٩]، مفوض أمريكا في البرتغال ليتفاوض مع الجزائر بغية الوصول إلى عقد معاهدة سلام معها، بحيث تضمن البحث عن السبل الكفيلة لإطلاق صراح الأسرى الأمريكان بالجزائر، وقد اختار همفريز، "جوزيف دونالدسون" كي يذهب إلى مدينة الجزائر ليقود المفاوضات ففي شهر سبتمبر ١٧٩٥ توصل إلى إبرام معاهدة سلام مع إيالة الجزائر.[٤٠]

بعد مفاوضات شاقة انتهى الطرفان إلى توقيع أول معاهدة سلام وصداقة بين البلدين بتاريخ ٥ سبتمبر ١٧٩٥ الموافق لـ٢١ صفر ١٢١٠هـ و قد وافق الكونغرس الأمريكي على هذه المعاهدة بتاريخ ٢ مارس ١٧٩٦ وأصبحت بذلك ملزمة للطرفين[٤١]، ونصت على أن تدفع أمريكا ما يعادل حوالي مليون دولار، منها ٢١,٦٠٠ دولار جزية سنوية تدفع كمعدات بحرية إلى الجزائر وتدفع إلى

الأيالة أيضًا ما مقداره ٦٤٢,٥٠٠ دولار كفدية لمائة أسير أمريكي بالجزائر(٤٢)، من جهته قبل الداي حسن باشا التدخل لدى تونس وطرابلس الغرب لتوقيع معاهدة مماثلة مع أمريكا.

المعاهدة الجزائرية الأمريكية تحتوي على ٢٢ مادة، معظمها تتصل بالاستيلاء على السفن والمطاردة والتحرش في عرض البحر، وتنص المعاهدة على تزويد السفن الأمريكية بجوازات مرور في ظرف ١٨ شهرًا بعد التوقيع عليها والبلدان الأجنبية لا تستطيع بيع سفن أمريكية في الجزائر، وفي نفس الوقت تسمح المعاهدة للأمريكيين ببيع سفنهم في الموانئ الجزائرية وإعفائهم من الضرائب الجمركية(٤٣). لقد وضعت هذه المعاهدة أمريكا، في نفس وضعية الأمم الأوروبية في العلاقات مع الجزائر وذلك على الرغم من الامتيازات الأقل تعرضًا للمخاطر، بسبب بعد المسافة بين الجزائر وأمريكا والجزية المنخفضة، ويمنح لأمريكا ممثلية دبلوماسية ممثلة في القنصل العام المقيم، الذي تأكدت وضعيته الدبلوماسية وأجر له منزل للإقامة من ورثة الداي مصطفى (١٧٩٨-١٨٠٥). ونتيجة لهذه المعاهدة بقيت العلاقات الجزائرية الأمريكية هادئة يطبعها السلام خلال مرحلة الاضطرابات الأوربية الكبرى خاصة أثناء الحروب النابليونية، وحصل القنصل العام لأمريكا توبياس لير Tobias lear وبعده وليام شالر William shaler على نفوذ معتدل لدى الدايات مما مكن أمريكا من الحصول على تفهم أكثر من مدينة الجزائر.(٤٤) من وجهة النظر الأمريكية فإن بعض المؤرخين يصرون على أن هذه المعاهدة كانت إهانة بالغة للشرف الأمريكي، ولكن البعض الأخر من المؤرخين المعاصرين للمعاهدة قد اعتبروه انتصار لبلادهم لأنها قد عقدتها مع أعظم دول شمال إفريقيا، ولأن المعاهدة نفسها قد أنهت الحرب مع الجزائر وفتحت الطريق التجاري لأمريكا في البحر الأبيض المتوسط(٤٥)

ما يلاحظ في تطور العلاقات بين البلدين بعد توقيع المعاهدة، أن أمريكا قد تأخرت في تنفيذ بعض بنود المعاهدة، مما جعل الجزائر تتصرف بطرقها الخاصة في الحصول على مستحقاتها من الحكومة الأمريكية، وكانت الفرصة المناسبة عندما أرست السفينة جورج واشنطن USS George Washington, 1798(٤٦)، في ميناء الجزائر عام ١٨٠١، حيث نجد أن الداي قد تقدم بطلب إلى القنصل الأمريكي وربان السفينة بنقل البعثة الجزائرية إلى إسطنبول.(٤٧) وتذكر المصادر أن قائد السفينة *William Bainbridge*(٤٨) قد رفض طلب الداي، لكن بعد تهديده بإعلان الحرب من جديد على أمريكا، قد رضخ للأمر الواقع وقامت السفينة جورج واشنطن، بتنفيذ المهمة ونقل البعثة الجزائرية إلى اسطنبول تحت الراية الجزائرية، على الرغم من الإهانة للشرف الأمريكي في نظر البعض، فإن البعض الآخر من الأمريكان يعترفون بأن ما قامت به السفينة جورج واشنطن كان فرصة في صالح أمريكا في عبور أول مرة لمضيق الدردنيل والوصول إلى إسطنبول لأول مرة في تاريخ الملاحة الأمريكية، وفتح المجال لها في الاحتكاك والاتصال بالدولة العثمانية والمشرق العربي الإسلامي.(٤٩)

علاقة التجار اليهود المتواجدين في الجزائر بالمصالح الأمريكية بغرب المتوسط

كان لتجار اليهود المتواجدين في الجزائر دورًا مؤثرًا في توجيه العلاقات الجزائرية الأمريكية خلال هذه الفترة، حيث نسجل أن جوزيف بكري Joseph Bocri قد حضر- جميع المقابلات التي أجراها القنصل الأمريكي "كاثكارت" مع الداي وحضر أيضًا توقيع الاتفاقية مع العقيد همفريز (Humphrey)، وكلف بكري بحمل مطالب الداي إلى الأمريكيين أثناء إجراءات معاهدة ١٧٩٥ بين البلدين، وتلقى مقابل هذه الوساطة من بارلو (Barlow) مبعوث أمريكا إلى الجزائر عمولة تقدر بـ١٨,٠٠٠ دولارًا أمريكي لم يكن للداي علم بها، لأنها دفعت له أساسًا من أجل أن يستدرجه إلى تمديد أجل الدفع إلى ثلاثة أشهر إضافية على الأقل، ريثما يحصل المفاوضون الأمريكيون على السيولة الضرورية للدفع والوفاء بما جاء في المعاهدة. عن طريق هذه الوساطة تظاهر بكري (Joseph Bocri) بالولاء للأمريكيين وفي نفس الوقت للداي من أجل ابتزازهما معا، غير أن القنصل الأمريكي كان واعيًا بخطر نفوذ بكري السياسي والاقتصادي لدى الإيالة وممارساته المشبوهة، حتى أننا نجد "كاثكارت" قنصل أمريكا بالمغرب العربي ركز عليها في كتابه "مذكرات أسير الداي".(٥٠)

خلال هذه الفترة رأى يهود الجزائر أن تجارة الأمريكيين في غرب المتوسط أصبحت في نمو متصاعد، وأصبحت تهدد مصالحهم في الحوض الغربي للمتوسط، ومن أجل عرقلتها عملوا على تحريض الداي، مؤكدين له ضرورة إيقاف النشاط التجاري الأمريكي، فأعلن الحرب على أمريكا مرة أخرى يوم ١٧ جويلية سنة ١٨١٢(٥١)، والملفت للانتباه انه خلال هذه الفترة بدأ يتشكل لوبي يهودي ذو مصالح واسعة في أمريكا وفي فرنسا بالجزائر(٥٢)، هذا اللوبي تشكل من التجار وأرباب الأعمال شكلوا كتلة متراصة عرفت باسم :"شركة بوسطن" أو "بزمرة إيسكس"، وقد صار أحد ممثلي زمرة إيسكس وهوكراونن شيلد وزيرًا للأسطول البحري، وكانت هذه الزمرة تمنح لأعضاء الكونغرس والوزراء رشاوى كبيرة، وتؤثر في سياسة أمريكا. لهذه الأسباب عندما طلب حكام إيالات المغرب العربي على إعادة تجديد المعاهدات القديمة، ووقف تعسف البحارة الأمريكان، وزيادة المدفوعات والإعانات، سلكت الحكومة الأمريكية على المكشوف تحت ضغط زمرة إيسكس طريق العدوان ضد إيالات المغرب، أما اللورد شيفيلد (Sheffield) كان يعتبر قوة الجزائر على أنها حاجز منيع لتقدم وازدهار التجارة البحرية لأمريكا.(٥٣)

خلال سنة ١٨١٤ تطورت الأوضاع في غير صالح العلاقات الجزائرية الأمريكية ومن بين المستجدات هزيمة نابليون عام ١٨١٤ على يد بريطانيا وحلفائها وعودة التقارب الأمريكي

البريطاني، بعد توقيع معاهدة" غانت Ghent"، التي أنهت النزاع بين البلدين ١٨١٢، هذه المستجدات جعلت أمريكا في غير حاجة لكسب صداقة الجزائر وعشية انعقاد مؤتمر فينا ١٨١٥[٥٤]، وجدت الجزائر نفسها في عزلة دبلوماسية فكانت الفرصة مواتية لأمريكا، لكي تتنصل من التزاماتها السابقة ففي نفس السنة، أجمع الكونغرس الأمريكي على ضرورة عدم تقديم الضريبة السنوية، وأمر بتوجيه حملة عسكرية ضد الجزائر، ولما كان رياس الجزائريين متغيبين حسب ما أورده السيد "بيليسي" قبل "عمر باشا" الشروط التي جاء بها قائد الأسطول، ويقول شالر: "...لقد أرسلت بنفسي في شهر مايو إلى الإيالة لإنجاز هذه المهمة فوصلتها يوم ٢٨ منه ولما كان بحارة الإيالة متغيبين قبلت السلطات الجزائرية شروطنا بدون نقاش، وتم توقيع المعاهدة يوم ٣٠ جوان من نفس السنة وفي نفس اليوم عينت قنصلاً عامًا لأمريكا على الجزائر..."[٥٥] فالجزائر تلقت عام ١٨١٢ ضربة قاسية من أمريكا بسبب إتباع الداي لنصائح بكري، بحيث أغراه هذا الأخير بنقض المعاهدة التي وقعت عام ١٧٩٥ مع الأمريكيين، والضغط عليهم لرفع نسبة الإتاوة السنوية المفروضة عليهم تدعيما لخزينة الدولة، ولكي يتمكن الداي من تسديد بعض الديون التي كان قد استلفها من بكري في وقت سابق، واستجاب الداي فعلاً لهذا التحريض وألغى المعاهدة في ١٧ جويلية ١٨١٢.[٥٦]

لقد كان دخول الجزائر في مواجهة أمريكا خلال هذه المرحلة بمثابة الكارثة، إذ كلفت الجزائر حياة أحد أكبر وأبرز قادتها وآخر عمالقة البحرية الجزائرية وهو "الرايس حميدو"[٥٧]* الذي لقي حتفه في معركة بحرية غير متوازنة القوى والإمكانيات مع الأمريكيين في مضيق جبل طارق. بالإضافة إلى فقدان سمعتها السياسية وهيبتها الدولية، كما أفقدتها نهائيًا الـ٢١,٠٠٠ دولارًا سنويًا التي كانت تدفعها أمريكا للجزائر كإتاوة سنوية، لأن الأمريكيين كانوا في أقصى قوتهم المادية والمعنوية بعد خروجهم منتصرين على بريطانيا من الحرب الثانية للاستقلال "The second war of indépendance"، وتوقيع معاهدة غانت (Traité de Ghent) سنة ١٨١٥، حيث قاموا بتوجيه قوة بحرية كبيرة بعد مقتل الرايس حميدو بضع أسابيع لتأديب من كانوا يسمونهم: "القراصنة" وتمكنوا من فرض شروطهم بالقوة على الداي.[٥٨]

خَاتِمَةٌ

إن تنصل أمريكا عن التزاماتها في تنفيذ معاهدة ١٧٩٥ جاء بعد توقيع المعاهدة مباشرة كما سبق ذكره، لكنها لم تعبر عنه صراحة مع بقائها تراقب الوضع من قريب، وحينما اطلعت على الوضع الدولي بعد مؤتمر فينا ١٨١٥، وظهور إجماع أوروبي على ضرورة القضاء على الأسطول الجزائري ووضع حد لنشاطه، سارعت إلى المبادرة بإرسال مراكبها إلى المتوسط تحت قيادة الضابط بنبريدج (w. Bambridge) والفصيلة الثانية تحت قيادة الضابط ستيفان ديكاتور (S. Decatur)[٥٩] ، الذي دخل البحر الأبيض المتوسط على رأس أسطول صغير واشتبك في معركة بحرية مع الرايس حميدو، وقضى عليه ثم توجه ديكاتور إلى مدينة الجزائر حيث أعلن عن نتائج المعركة وكانت النتيجة معاهدة جديدة (١٨١٥-١٨١٦) بين الجزائر وأمريكا، تضمنت حماية المصالح التجارية الأمريكية بغرب المتوسط دون دفع إتاوة. وكان ذلك في واقع الأمر النهاية العملية للأسطول الجزائري فبرغم من أن الجزائريين استطاعوا أن يستعيدوا إلى حد ما بعض من قوتهم فإنهم لم يعودوا يشكلون تهديدا للتجارة الأمريكية في غرب المتوسط.

الملاحق

ملحق رقم (١)

كانـت السـفينة جـورج واشـنطن (USS George Washington, 1798): في الأصل سفينة تجارية تم صنعها عام ١٧٩٣ ليشـتريها الكـونجرس في عام ١٧٩٨ وتحولت إلى قاذفة حرب لحماية النقـل البحـري الأمـريكي في البحر الكاريبي من السـفن الفرنسـية، ثـم أصبحـت فـيما بعـد أول سـفينة حربية أمريكية تدخل البحر الأبيض المتوسط، عندما أُرسـلت للتفـاوض مـع دايات الجزائـر قبـل انـدلاع الحـرب مـع إيـالات الشـمال الإفريقـي، قامت السفينة برحلة أخرى إلى البحر الأبيض المتوسط قبـل بيعهـا في فيلادلفيـا في عام ١٨٠٢.

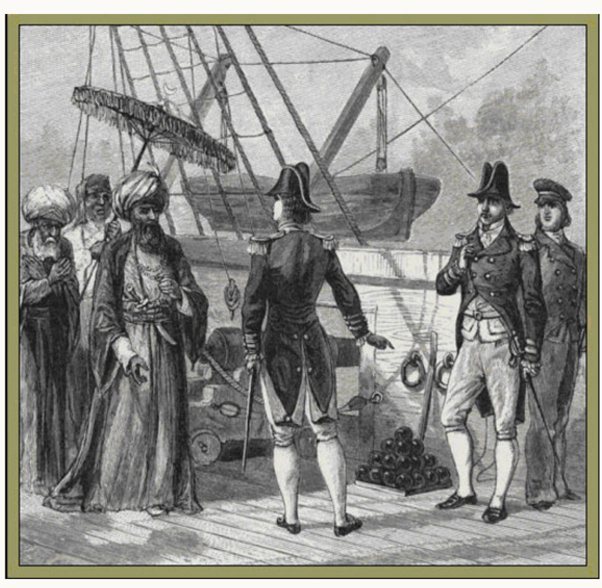


Typical Early 1800s Typical Sloop of War

المصدر:

انظر معلومات عن تاريخ سفينة جورج واشنطن:

Sam La Grone, Ships Named for Lincoln and Washington, *https://news.usni.org/2013/02/18/ships-named-for-lincoln-and-washington*



Une gravure montrant la rencontre des Américains avec le Maghreb

لوحة تظهر لقاء الأمريكيين مع المغرب العربي في القرن الثامن عشر الميلادي

الهَوامِشُ:

(١) من كتابات أبو القاسم سعد الله، في هذا المجال نذكر: "**الدبلوماسية الجزائرية الأمريكية قبل الاحتلال**"، مجلة المعرفة الجزائرية، العدد، ١٥، ١٦، ١٩٦٤، ص٦-٢٥. وكذلك؛ "**العلاقات الجزائرية الأمريكية (١٧٧٦-١٨٣٠)**"، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر الحديث، ج١، ش، و،ن، ت، الجزائر ١٩٧٨.ص ٢٠٣-٢٢٥. أما مجهود المرحوم الأستاذ إسماعيل العربي فتمثلت في ترجمته لمؤلفين اثنين: الأول لصاحبه: راي ويل أرين: **العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (١٧٧٦-١٨١٦)**، ش و ن ت الجزائر ١٩٧٨، والتأليف الثاني المترجم وهو لتشارلز أوسكار بولان، **المفاوضات الدبلوماسية بين ضباط البحرية الأمريكية ودول المغرب (١٧٧٨-١٨٨٣)**، نشره في كتابه، فصول في العلاقات الدولية، م و ك، الجزائر، ١٩٩٠.

(٢) كان لهذه الثورة أسباب عديدة والسبب المعلوم أكثر من غيره هو إصرار الحكومة البريطانية انطلاقًا من ١٧٦٨ على مستعمراتها بطلب مشاركتها المالية التي تتناسب مع النفقات التي اقتضاها دفاعها الخاص ضد هجوم الفرنسيين والأسبان والهنود وحاولت الحكومة البريطانية بلوغ ذلك بوضعها موضع التنفيذ بعض القوانين المجمدة منذ سنوات. للمزيد من التفصيل انظر: ماتيو أندرسون، **تاريخ أوروبا القرن الثامن عشر ترجمة نور الدين حاطوم**، ط١ دار الفكر، ١٩٧٧، ص ٣٤٥.وانظر أيضًا: دان ليسي، **الثورة الأمريكية دوافعها ومغزاها**، تر، سامي ناشد، ج٢، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦، ص١٤٦ وما بعدها.

(٣) أبو القاسم سعد الله: **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، الجزء الأول، ش.و.ن.ت الجزائر ١٩٧٨، ص٢٠٦.

(٤) جون ب وولف، **الجزائر وأوروبا (١٥٥٠-١٨٣٠)**. (تر) أبو القاسم سعد الله. م.و.ك الجزائر ١٩٨٦. ص٤١٧.

(5) DUPUY (EMILE), AMERICAINS ET BARBARESQUS (1776-1824), R, ROYER. PARIS, 1910, P16.

(٦) توماس برايسون: أستاذ بجامعة وست جورجيا كوليدج الأمريكية صاحب كتاب "علاقات أمريكا الدبلوماسية بالشرق الأوسط" (١٧٨٤-١٩٧٥) نشر الكتاب عام ١٩٧٧، للمزيد من التفصيل راجع: علاء بيومي، "**أقدم لوبي ضد الدول الإسلامية في أمريكا**"، المقال منشور في الموقع:

http://www.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=53091

(٧) دان ليسي، **الثورة الأمريكية دوافعها ومغزاها**، تر، سامي ناشد، ج٢، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦، ص٨٤.

(٨) دان ليسي، المرجع السابق، ج١، ص١٢٠.

(٩) علاء بيومي: المرجع السابق.

(١٠) جيمس كاثكارت: ولد في جبل موراه في مقاطعة سيث الغربية في ٢٢ سبتمبر ١٧٦٧ وقد انتقل مع والده إلى أمريكا في سن مبكرة في ١٧٨٧ وقع في الأسر حين استولى الجزائريون على السفينة "ماري بوسطن" وهي أو سفينة تقع في أيدي الجزائريين، في الجزائر استطاع أن يتخلص من الأسر ويصبح مديرًا لمكتب الداي في الجزائر. ثم أصبح بعد ذلك قنصلا لبلاده في طرابلس للمزيد من التفصيل عن هذه الشخصية راجع جيمس ليندر كاثكارت، **مذكرات أسير الداي**، (تر) إسماعيل الغربي د م ج الجزائر ١٩٨٢ ص ١٣.

(١١) راي ويل أروين: **العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (١٧٧٦-١٨١٦)** (تر) إسماعيل العربي: ش و ن ت الجزائر ١٩٧٨ ص ٣٩.

(١٢) خلال هذه الفترة كانت الجزائر خاضعة لحكم الدايات (١٦٧١-١٨٣٠) وهي المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني في الجزائر، وللإشارة فإن الجزائر ألحقت بالخلافة العثمانية رسميًا عام ١٥١٨ على يد خير الدين بربروس، واستمر الحكم العثماني في الجزائر إلى غاية عام ١٨٣٠ بعد وقوعها تحت الاحتلال الفرنسي. للمزيد من التفصيل عن المرحلة العثمانية في الجزائر، راجع الدراسات الأكاديمية التالية: **جمال فنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (١٥٠٠-١٨٣٠)**، الجزائر ١٩٨٧.- ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي في الجزائر في الفترة العثمانية (١٨٠٠-١٨٣٠)**، ش و ن ت الجزائر ١٩٧٩.

- Kaddache (M), L’Algérie durant la période ottomane, Alger 1982.

(١٣) راي ويل أروين: **العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب**...، المرجع السابق ص٣٩.

(١٤) إسماعيل العربي، فصول العلاقات الدولية، م و ك، الجزائر/١٩٩٠، ص٧٥.

(١٥) هيفاء معلوم الأمام، "**العلاقات الأمريكية الشمال أفريقية في العصر الحديث**"، المجلة المغربية، ع١٥و١٦، تونس، جويلية، ١٩٧٩، ص٦٥.

(16) NAVAL DOCUMENTS RELATED TO THE U.S.VOL.I.p22.

(١٧) راي ويل أروين: **العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب**....، المرجع السابق، ص٤٢.

(١٨) علاء بيومي، المرجع السابق.

(١٩) راي ويل أروين: **العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب**...، المرجع السابق، ص٤٢.

(٢٠) أبو القاسم سعد الله: **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، الجزء الأول، ش و ن ت الجزائر ١٩٧٨، ص٢٠٦.

(٢١) راي ويل أروين: **العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب**...، المرجع السابق، ص٤٤.

(٢٢) الإشارة إلى معاهدة التجارة والصداقة التي أبرمت بين فرنسا وأمريكا وقعت بين البلدين عام ١٧٧٨. وتشير المادة ٠٧ من بنودها على أن ملك فرنسا سيقوم بالمساعي الحميدة للتوسط لدى الدول المغربية، وذلك قصد توفير فوائد شاملة وفعالة بقدر الإمكان وأمن الولايات المتحدة. انظر: راي ويل أروين، **العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب**...، المرجع السابق، ص ٤٤.

(٢٣) جاء في آخر بنود هذه المعاهدة "أنه ينبغي للولايات المتحدة أن تجري مفاوضات مع الحكومات المغربية تتعلق بمنح وثائق المرور لسفنها في البحر المتوسط، وسيؤيد جلالته هذه المفاوضات بأفضل الوسائل: انظر راي ويل أروين، **العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب**...، المرجع السابق ص ٤٦. حول الموضوع راجع:

Freewalt.Jason andrew.the Barbary corsairs. University indina.april 9.1998.p7.

(٢٤) راي ويل أروين، **العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب**...، المرجع السابق، ص ٤٦.

(٢٥) نفسه، ص ٤٦.

(٢٦) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق: ص ٢٠٦.

(٢٧) أرزقي شويتام، **التنافس الدولي في البحر المتوسط خلال القرنين ١٨-١٩ وموقف الجزائر منه**" حولية المؤرخ، العدد " ٣-٤/ الجزائر ٢٠٠٤، ص١٧٣.

(٢٨) نلاحظ أن محاولة الولايات المتحدة الأمريكية لتشكيل حلف أوروبي ضد الجزائر جاء بعد عامين فقط، من المحاولة الفاشلة التي مني بها الأسبان ١٧٨٤ أثناء محاولة تكوين حلف أوروبي (أسبانيا، البرتغال، نابلي ومالطة)، وكانت آخر محاولة إسبانية ضد الجزائر واضطرت في آخر المطاف إلى عقد اتفاقية سلام وصداقة مع الجزائر توصلت إليها بعد أن دفعت أموالاً باهظة لحكومة الداي، تاريخ المعاهدة يوم ١٤ جوان ١٧٨٦ للمزيد من التفصيل راجع: مولاي بلحميسي، "**صفحات من تاريخ العلاقات الجزائر الإسبانية**"، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد ١١ ش.و.ن.ت، الجزائري، ص٥ – ٢٢.

(٢٩) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٢٠٨.

(٣٠) لقد ازدادت المخاوف الفرنسية من هذا التقارب، منذ أن تدخلت بريطانيا لدى الباب العالي لإجبار الداي مصطفى (١٧٩٨-١٨٠٥) بقطع علاقاته مع فرنسا وإعلان الحرب عليها، وتحت ضغط السلطات وتهديد الإنجليز أعلنت الجزائر الحرب على فرنسا، وازداد تدخل بريطانيا في الشأن الجزائري بعد تهديدات نابليون للجزائر حيث قام الداي أحمد بالاستيلاء على المؤسسات الفرنسية في الشرق الجزائر عام ١٨٠٧ ومنحها لإنجلترا مقابل ضريبة سنوية، راجع: أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص١٧٨.

(٣١) مرفت أسعد عطا الله: **التنافس البحري العسكري بين بريطانيا وفرنسا في البحر المتوسط بعد فتح قناة السويس (١٨٦٩-١٩٠٤)**، مركز الإسكندرية للكتاب مصر، ٢٠٠٥، ص ١٤.

(٣٢) أرزقي شوتيام: مرجع سابق، ص١٧٤.

(٣٣) تنص اتفاقية الهدنة الجزائرية البرتغالية على أن تكون نافذة المفعول لمدة ١٢ شهرًا وتدفع البرتغال للداي ثلث المبالغ التي تدفعها إسبانيا سنويًا، وطلب الداي أن تقوم الحكومة البريطانية بضمان الالتزام البرتغالي، وهذا دليل على أن الاتفاقية أبرمت بإيعاز من بريطانيا: انظر راي ويل أروين، المرجع السابق، ص٩٠.

(٣٤) للمزيد انظر إسماعيل العربي: فصول في العلاقات الدولية م.و.ك الجزائر ١٩٩٠- ص٣٠.

(٣٥) أرزقي شوينام: المرجع السابق، ص ١٧٤.

(٣٦) جيمس كاثكارت، مذكرات أسير الداي، (تر)، إسماعيل العربي، د،م،ج، الجزائر،١٩٨٢، ص١٦.

(٣٧) أرزقي شوينام: المرجع السابق، ص ١٧٥،

(٣٨) انظر النص الإنجليزي للمعاهدات الجزائرية الأمريكية ١٧٩٥-١٨١٥-١٨١٦على الموقع إلكتروني التالي:
http://avalon.law.yale.edu/18th_century/bar1795t.asp

(٣٩) **دهيفد همفريز** (١٧٥٢-١٨١٨): ديبلوماسي أمريكي وشاعر كان يتمتع بمؤهلات عسكرية عين أمينًا عامًا مع لجنة التفاوض مع إيالة الجزائر

(٤٠) وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، (تر) عبد القادر زبادية، ش و ن ت، الجزائر ١٩٨٠ ص ١٥٥.

(٤١) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق. ص ٢١١، انظر نص المعاهدة في الملحق رقم ٠١.

(٤٢) جون ب وولف، المرجع السابق، ص٤١٦.

(٤٣) إسماعيل العربي، فصول العلاقات الدولية، المرجع السابق، ص ٣٦.

(٤٤) وليام سبنسر، المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٤٥) ما يمكن ملاحظته على هذه المعاهدة أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تستطع تنفيذ كل بنود المعاهدة حيث تأخرت بعدة أشهر على توقيع المعاهدة ولم تصل المعدات البحرية المتفق تسليمها للجزائر. للمزيد من التفصيل انظر سعد الله، المرجع السابق، ص ٢١٣.

(٤٦) في شهر ماي من عام ١٨٠٠ تم تجهيزها وإعدادها للإبحار باتجاه البحر الأبيض المتوسط، تحت قيادة الضابط وليام بينبريدج في مهمة لدفع الإتاوات السنوية لدايات الجزائر بحمولة من المخازن والأخشاب وصلت مدينة الجزائر في شهر سبتمبر من نفس السنة، وهي أول سفينة حربية أمريكية تدخل البحر الأبيض المتوسط. ومع ذلك، لم تحتو السفينة على ما يكفي لإرضاء مطالب داي. وطالب داي باستخدام السفينة وطاقمها، مدعيًا أنه يمتلكها، خضع بينبريدج إلى التهديدات وحمل هدايا داي إلى السلطان سليم الثالث في القسطنطينية، غادرت الفينة جورج واشنطن الجزائر يوم ١٩ أكتوبر وعادت سفينة جورج واشنطن من إسطنبول إلى الجزائر في ٢١ يناير ١٨٠١، وبعد زيارة إلى أليكانت رجعت إلى الولايات المتحدة في ١٩ أبريل ١٨٠١. للمزيد انظر:

- *Harris, Gardner W. (1837). The Life and Services of Commodore William Bainbridge, United States navy. Carey Lea & Blanchard, Philadelphia. p. 254*

حول ظروف بناء هذه السفينة وشكلها انظر الملحق رقم: (١)

(٤٧) تمثلت مهمة البعثة الجزائرية إلى إستنبول ١٨٠١ في إعادة علاقات الصداقة مع الباب العالي بعد الأزمة التي ظهرت بين الجزائر والباب العالي عندما لم ترغب الجزائر في مواجهة الفرنسيين، بعد حملتهم على مصر ١٧٩٨، انظر أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٤٨) للمزيد حول حياة هذه الشخصية، انظر:

- *Harris, Gardner W. (1837-) ;opcit ;p254.*

(٤٩) انظر أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ٢١٦. وانظر أيضًا:

Charles ellms: the pirates oun book, originally published 1837

للاطلاع عليه عن طريق الإنترنت انظر الموقع www.gutenberg.net

(٥٠) فوزي سعد الله، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، شركة دار الأمة، الجزائر ١٩٩٦، ص ٢١٩.

(٥١) إسماعيل العربي، فصول العلاقات الدولية، المرجع السابق ص ٧١.

(٥٢) يرى فوزي سعد الله، أن الاستراتيجية الروتشيلدية قد استغلت الجزائر باعتبارها قاعدة استراتيجية في غرب المتوسط، في تضييق الخناق الاقتصادي على نابليون بونابرت عند إعلانه التمرد على الماس ونية واليهود، من خلال تحريك يهود ليفورنه بالجزائر ضد مصالحه بالجزائر. وعلى رأسهم عائلة بكري بوشناق، هؤلاء الماسونية وزعمائهم وظفوا الجزائر كورقة ضغط سياسية واقتصادية لضرب فرنسا بريطانيا – للمزيد راجع، فوزي سعد الله، المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٥٣) عبد الجليل التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي الجزائر وتونس وليبيا (١٨١٦-١٨٧١)** د.م.ج الجزائر ١٩٨٥، زغوان تونس ١٩٨٥، ص ٥٧.

(٥٤) **مؤتمر فيينا**: انعقد المؤتمر عام ١٨١٥ بالعاصمة النمساوية فينا ومن جملة القضايا الهامة التي أثيرة في المؤتمر مسألة الجزائر التي ظلت تواصل الجهاد البحري مقلقة بذلك سائر الدولة المسيحية، وبعد مداولات ومناقشات أجمع الحاضرون على ضرورة العمل المشترك للقضاء على حكومة الدايات.

(٥٥) محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص٧١.

(٥٦) سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ص٢٢٠.

(٥٧) *ولد سنة ١٧٦٥ويرجع نسبه إلى أسرة جزائرية في صغره تعلم الخياطة والطرز إلا أنه كان يتطلع إلى المراتب العليا فقرر الانضمام إلى رجال البحرية وكان لا يتجاوز العاشرة من عمره، إلى أن حقق أمنيته وانضم إلى البحرية الجزائرية فاشتهر من بين صفوف رجال البحر، لقي حتفه في معركة بحرية في المحيط الأطلسي، حول ظروف استشهاده راجع، جون ب وولف: الجزائر وأوربا (تر) أبو القاسم سعد الله، ش و ن ت، الجزائر، ١٩٨٦ المرجع السابق، ص ٤١٩

(٥٨) نفسه، ص ٢١٠.

(٥٩) **ستيفان ديكاتور:** (Decature Stephan) (١٧٧٩-١٨٢٠) ولد في ٥ جانفي ١٧٧٩، قام بأول رحلة بحرية رفقة أبيه الذي كان ضابطًا ساميًا وقائدًا لإحدى السفن التجارية، انخرط في البحرية الأمريكية عام ١٧٩٨، وشارك في الحرب البحرية ضد فرنسا، فارتقى إلى رتبة ملازم أول في ١٧٩٩، شارك في الحرب ضد طرابلس عام ١٨٠٤، ثم انخرط في الحرب ضد الجزائر عام ١٨١٢ وكان دخوله قويًا في البحر المتوسط. وكان أحد الأطراف المشاركة في توقيع معاهدة ١٨١٥ الثانية. بعد عودته إلى أمريكا عين مستشارًا لدى البحرية الأمريكية، وتوفي عام ١٨٢٠ بلاندرسبورغ (Blandeusburg) للمزيد من التفصيل انظر:

encyclopédie, 2003

وانظر أيضًا:

https://en.wikipedia.org/wiki/Stephen_Decatur

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

دراسات

الأزمات الداخلية لحزب الشعب الجزائري حركة انتصار الحريات الديمقراطية (PPA-MTLD) (١٩٤٥-١٩٥٤م)



د. سعاد يمينة شبوط
أستاذة محاضرة – قسم التاريخ
جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

تتفق المصادر التاريخية المتوفرة حول موضوع تطور الحركة الوطنية الجزائرية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥، على أن الأزمة المزمنة التي عصفت بهياكل (MTLD) (حركة الانتصار للحريات الديمقراطية) خلال مؤتمرها الثاني الذي انعقد أيام ٤،٥،٦ أفريل١٩٥٣، لم تكن وليدة حينها بل نتيجة عدة مشاكل وأزمات لم يتم تسويتها في وقتها الأمر الذي زاد من استفحالها عندما اتضحت المسائل الجوهرية في طبيعة النزاع بين اللجنة المركزية ومصالي الحاج وأنصاره واتخاذ دعاة العمل المسلح موقفًا معارضًا من الطرفين وتبلور المشروع العسكري الذي بلغ مستوى من النضج في خضم مرحلة مخاض عسير انتهى بميلاد فصل ثوري عرف باللجنة الثورية للوحدة والعمل(CRUA) في مارس ١٩٥٤ تلك اللجنة التي أخذت على عاتقها مسؤولية الإعداد الفعلي لتفجير الثورة في خريف ١٩٥٤وفي هذا السياق يشير المناضل محمد بوضياف بأن الشروع في العمل المسلح كان أنسب حل لإنقاذ الحركة الوطنية الجزائرية من المأزق الذي وقعت فيه.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٢ مارس ٢٠١٦
تاريخ قبـول النشـر: ٠٦ يونيو ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:

حزب الشعب، الأمين دباغين، الأزمة البربرية، المنظمة الخاصة، الحركة الوطنية الجزائرية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052949

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سعاد يمينة شبوط. "الأزمات الداخلية لحزب الشعب الجزائري: حركة انتصار الحريات الديمقراطية (PPA-MTLD) (١٩٤٥-١٩٥٤م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص١٤٩ – ١٥٨.

مُقَدِّمَةُ

شكلت سنة ١٩٥٣، منعطفًا حاسمًا في تطور مسار الحركة الوطنية الجزائرية بالنسبة للكثير من المختصين في تاريخ الثورة التحريرية، وممَنْ عاصروا تلك الفترة من مناضلي التيار الاستقلالي ورواد المشروع العسكري، الذي بلغ النضج في مرحلة مخاض عسير انتهى بميلاد فصل ثوري عرف باللجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA) في مارس ١٩٥٤ تلك اللجنة التي أخذت على عاتقها مسؤولية الإعداد الفعلي لتفجير الثورة في خريف ١٩٥٤[١] وفي هذا السياق يشير المناضل محمد بوضياف بأن الشروع في العمل المسلح كان أنسب حل لإنقاذ الحركة الوطنية الجزائرية من المأزق الذي وقعت فيه.[٢]

وتتفق المصادر التاريخية المتوفرة حول موضوع تطور الحركة الوطنية الجزائرية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥، على أن الأزمة المزمنة التي عصفت بهياكل الحزب (حركة الانتصار للحريات الديمقراطية) خلال مؤتمرها الثاني الذي انعقد أيام ٤،٥،٦ أفريل١٩٥٣، لم تكن وليدة حينها بل نتيجة عدة مشاكل وخلافات لم يتم تسويتها في وقتها الأمر الذي زاد من استفحالها عندما اتضحت المسائل الجوهرية في طبيعة النزاع بين اللجنة المركزية ومصالي الحاج[٣] وأنصاره واتخاذ دعاة العمل المسلح موقفًا معارضًا من الطرفين.[٤] ودون الاستطراد في تفاصيل الأزمة وخلفياتها التاريخية، يمكن حصر أهم الأزمات والمشاكل الصعبة التي اعترضت مسيرة حزب الشعب (PPA)-حركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD)-وترسبت بعمق طيلة

مرحلة عسيرة بدأت معالمها مع نتائج وآثار مجازر ٨ مايو١٩٤٥ وانعكاساتها على أهداف وتوجهات الحزب المستقبلية.

الأزمات الداخلية لحزب الشعب

حركة انتصار الحريات الديمقراطية (١٩٤٥-١٩٥٤)

١-ورطة حزب الشعب (المُحل) في مجازر٨ مايو ١٩٤٥

لقد وُجهت أصابع الاتهام خلال جلسات المؤتمر الأول للحركة يومي١٥-١٦ فيفري١٩٤٧[٥] إلى بعض العناصر النشطة في الخلايا السرية للحزب في الشرق الجزائري أمثال الشاذلي المكي وشوقي مصطفاي[٦] على مسؤوليتها المباشرة في دفع الشعب إلى الشارع الأمر الذي أدى إلى ردود فعل فرنسية عنيفة انتهت بأبشع مجزرة في تاريخ الجزائر[٧] وقد اعتبرت هذه الورطة من المشاكل والصعوبات التي تركت أزمة من الشكوك والريبة وانعدام الثقة بين الإطارات والمناضلين داخل هياكل الحركة، تخوفًا من تكرار تجربة وسيناريو ال٨ مايو من عام ١٩٤٥. وتعود خلفية هذه القضية إلى محاولة قادها عدد من مناضلي حزب الشعب من أجل توظيف الحركة الشعبية التي تزامنت مع الاحتفالات بانتصار الحلفاء على دول المحور في نهاية الحرب العالمية الثانية واستغلال الغطاء السياسي لحركة أحباب البيان والحرية من أجل الجهر بالمطالب الاستقلالية التي كان ينادي بها الحزب كحل للقضية الوطنية.

وقد رسم هؤلاء خطة تقضي بتحرير مصالي الحاج من إقامته الإجبارية في منطقة قصر شلالة بالتزامن مع مظاهرات الأسبوع الأول من شهر ماي ١٩٥٤ وهو الأمر الذي كان ينطوي على تدبير سياسي يسعى إلى تحويل التظاهرات إلى عصيان مدني وثورة شعبية معلنة من أجل الضغط على الإدارة الاستعمارية ودفعها إلى تبني فكرة "حق تقرير المصير السياسي" للشعوب المستعمرة، والتي كانت شديدة الرواج عند نهاية الحرب العالمية الثانية.[٨] لكن سوء تقدير طبيعة وحجم ردود الفعل الاستعمارية التي جوبهت بها المطالب والشعارات الوطنية جعل مشروع توظيف التظاهرات يتحول إلى إخفاق سياسي شديد كانت كلفته البشرية باهظة جدًا وهو ما جعله موضوعا لتبادل الاتهامات في صفوف قيادة حزب الشعب في الاجتماعات الأولى التي عقدت تحت غطاء حركة انتصار الحريات الديمقراطية غداة إعادة بناء الحركة الوطنية في خريف ١٩٤٦,

٢-الخلاف حول مسألة الانتخابية

دفع انبعاث النشاط السياسي في الجزائر عقب نهاية الحرب العالمية الثانية في خريف ١٩٤٥ مرة أخرى إلى محاولة بناء الحركة الوطنية من جديد دون أي تغيير في برامجها التي تجاوزتها الظروف المستجدات. وفي هذا السياق شرع زعيم الحزب-حزب الشعب الجزائري-مصالي الحاج بعد عودته من المنفى ببرازفيل في جمع أطراف التيار الاستقلالي وأعاد بناء حزب الشعب باسم حركة انتصار الحريات الديمقراطية MTLD في ديسمبر ١٩٤٦[٩] مع الاحتفاظ بطبيعة العمل السري إلا أن ما يلفت الانتباه في هذا اللقاء، بروز قضية جوهرية تمثلت في قضية المشاركة في الانتخابات[١٠].

ويمكن الإشارة إلى أن هذه المسألة تم عرضها في الأشهر الأولى لتأسيس الحركة الجديدة، إذ عرضت لأول مرة في اجتماع اللجنة المركزية بتاريخ ٢٣ أكتوبر١٩٤٦، لأن مصالي الحاج كان يعتقد أن الوضع آنذاك كان ملائمًا للعمل السياسي، لذلك سارع بطرح مسألة المشاركة في الانتخابات على طاولة النقاش الأمر الذي أدى إلى تباين المواقف بشكل واضح[١١]، وكان أول خلاف علني في نوفمبر ١٩٤٦ عشية الانتخابات المقررة في ذلك الشهر، وهو ما أوحى ببداية القطيعة الإيديولوجية داخل الحركة الثورية الجديدة حيث شبّ خلاف بين الإطارات والمناضلين فزعيم الحزب مصالي الحاج ألحّ على دعوته للمشاركة في الانتخابات ومسايرة السياسة الاستعمارية والعمل في إطار ما تسمح بع الشرعية الفرنسية[١٢]وقد دفعت هذه الخطوة بالعناصر النشطة (الشابة) من الجيل الجديد الذي التحق بصفوف النضال السياسي داخل الحركة إلى ترسيخ قناعتهم بفكرة العمل المسلح وامتعاضهم للأسلوب الذي انتهجه مصالي وأنصاره[١٣].

وتزعم التيار المعارض لفكرة المشاركة في الانتخابات في بداية طرحها للنقاش الأمين دباغين وعدد من الإطارات الشابة، ثم تنازل معظم هؤلاء عن موقفهم، ولم يبق سوى حسين لحول في موقف معارض لفكرة في سنوات ١٩٤٦-١٩٤٩. ثم ما لبِث إن تحول هو أيضًا إلى مناصر للفكرة عندما ترشح وانتخب رفقة آخرين لعضوية المجلس البلدي للجزائر العاصمة خلال تولي جاك شوفالي لرئاسته في سنوات ١٩٥٠-١٩٥٤. وتمكن عدد من مرشحي الحزب من الفوز في الانتخابات رغم عملية التزوير التي رافقتها بتدبير من الحاكم العام إدموند نايجلان، إذ وصل إلى عضوية البرلمان الفرنسي كل من دباغين ومحمد خيضر وحسن دردور ومسعود بوقادوم وأحمد مزغنة، لكن الأزمة حول فكرة المشاركة في الانتخابات استمرت بسبب قيام بعض الإطارات القدمية في نجم شمال إفريقيا وحزب الشعب بشن حملة انتقاد ضد مصالي الحاج والإطارات التي وافقت على العمل في ظل الشرعية الاستعمارية من خلال قبولها بالعضوية في الهيئات السياسية الفرنسية.

ويمكن تفسير استمرار الخلاف حول المشاركة في الانتخابات إلى سنوات متوالية إلى تباين مكاسب وإخفاقات تلك المشاركة، فقد كان الفوز في الانتخابات البلدية في أكتوبر١٩٤٧ مكْسبًا وحجة لدعاة العمل الشرعي العلني في حركة الانتصار في وجه المعارضين والمشككين من رفاقهم، لكن التزوير الذي رافق انتخابات الجمعية الوطنية الجزائرية في بداية عام ١٩٤٨، ورافق أيضًا الانتخابات الموالية في عام ١٩٤٩، سرعان ما أعاد الأصوات المعارضة إلى الواجهة بسبب الكلفة المادية الباهظة للمشاركة الانتخابات وتعرض عدد كبير من مرشحي الحركة للاعتقال والسجن والغرامات المادية التي سلطت على كل من حسين

لحول والحاج محمد شرشالي من أجل منعهما من الدعاية الانتخابية.

ومنذ ذلك التاريخ استمر الخلاف حول مسألة الانتخابية بين الرفقاء وتحول من مسألة عادية مطروحة للنقاش إلى صراع حمل في طياته اختلافات شديدة في تحديد الرؤئ والتصورات السياسية بين ثلاثة تيارات أحدهما مؤيد للعمل الشرعي والآخر معارض له بينما كان التيار الثالث يؤيد المشاركة السياسية كحل مؤقت للتغطية على المشروع الثوري الذي كان يجري الإعداد له في السرية من طرف عناصر المنظمة الخاصة. ويجدر توضيح أن محركات الخلاف حول مسألة المشاركة في الانتخابات التي كانت أحد أهم الأسباب في استمراره كانت ترتبط أحيانًا بالطموحات الشخصية والمنافسة على الموقع القيادة وأحيانًا بالتعصب السياسي وحب الزعامة الذي يمكن اعتباره سببًا مباشرًا في أصول الأزمة الحادة التي انتهت بتصدع الحزب في ربيع ١٩٥٣.

٣-مشكلة الأمين دباغين[١٤](١٩٤٧-١٩٤٩)

إذا كان الخلاف بين الأمين دباغين وبعض أعضاء قيادة الحركة وعلى رأسهم مصالي الحاج شخصيا يعود إلى ندوة الإطارات التي انعقدت في شهر ديسمبر١٩٤٦ بعد بروز الخلاف حول المسألة الانتخابية، إلا أن الموقف سيتبلور بوضوح ليصبح أكثر تعصبًا وصلابة بعد المؤتمر الأول (فيفري١٩٤٧) فالسياسة الجديدة التي حاول بعض القادة فرضها كمنهج عمل داخل الحركة تسببت بشكل مباشر في قيام المواجهة بين هيئة القيادة وعلى رأسها مصالي الحاج والدكتور الأمين دباغين الأمر الذي دفع به إلى الابتعاد بشكل رسمي عن الحركة وانقطع تمامًا عن حضور جلساتها والمشاركة في نشاطات القيادة[١٥]. كما امتنع عن تقديم التقارير عن نشاطاته النضالية خصوصا تلك المتعلقة بوجوده في البرلمان الفرنسي. وعلى الرغم من هذا الابتعاد لم يتوقف دباغين عن توجيه تهمه للمسؤولين بإدارة الحركة لاسيما مصالي الحاج الذي اتهمه بالسكر[١٦].

وفي محاولة لإعادة الأمين دباغين إلى صفوف قيادة الحركة شكلت لجنة من أربعة أشخاص وهم: مصالي الحاج ومحمد بلوزداد وبن يوسف بن خدة وأحمد بودا لتوضيح قضيته وموقفه من الحركة غير أنه رفض مقابلتهم ثم تمت محاولة أخرى من طرف القيادة الذين توجهوا إلى بيته لكنه رفض أيضا أي اتفاق معهم. وقد كانت آخر محطة لقاء بين دباغين مع إدارة الحركة هي الزيارة التي قام بها أحمد بودا إليه، حيث بلغه فيها بأن قيادة الحركة سوف تعتبره متمردًا أو عاصيًا في حالة عدم توضيح موقفه فأجابه الأمين دباغين بقوله "إذن فالحرب بيننا"[١٧].

ومما لا شك فيه؛ أن سبب الخلاف كان جوهريًا، حيث شكل إحدى دعائم الحركة إذ أنه تعلق ببرنامجها ومبادئها ومطالبها الأمر الذي اعتبره دباغين انحرافًا حقيقيًا وخطيرًا على نهجها وقد كان التوجه الجديد للحركة إحدى بدايات هذا الخلاف وقد أشاد الدكتور مصطفى الأشرف[١٨] بخصوص هذه المسألة "لقد انخدع كثير من المناضلين الشباب في الحزب الذين ناضلوا في السرية حتى سنة ١٩٤٦، بالسياسة البرلمانية الجديدة لحركة الانتصار والتخلي عن المبادئ والتنظيم وانسحبوا لترك المجال للقادمين الجدد مرشحين متمكنين.[١٩]

لقد أحدث انسحاب الأمين دباغين[٢٠]هزة عنيفة في صفوف المناضلين وخصوصًا الشباب الثوري الذي رأى فيه الأمل والريادة في البحث عن مخرج من تلك الشرنقة التي أبعدتهم عن جوهر الصراع مع السلطات الاستعمارية والإسراع بتفجير الثورة. كما ساد التذمر في أوساطهم معتبرين ذلك دليلاً آخر على انحراف إدارة الحركة عن المنهج الثوري الذي رسمته لنفسها منذ سنوات عازمة على تحقيق الطموحات الشعبية بقوة السلاح وفي هذا السياق يمكن الإشادة بالمناضل الأمين دباغين الذي اعتبر الدماغ المفكر للحزب ورجل حركة أحباب البيان والحرية سنة ١٩٤٤، ورجل المؤتمر الأول للحزب لكونه لا يميل إلى العمل الجماعي وذلك لتفضيله التفكير والدراسة المتأنية البعيدة عن الضوضاء وتعارض الآراء[٢١]. وبسبب كثرة الانتقادات ضده خاصة من المقربين الذين سبق الإشارة إليهم ضف إلى عزله من الحزب خلال مؤتمر زدين[٢٢] تشكلت صورة عن الحالة التي كان عليها خلال تلك الفترة حيث كان في حقيقة الأمر مُحبط المعنويات بشكل عميق.

إن ما يمكن قوله عن طبيعة هذه الأزمة وتداعياتها أنها بينت بشكل واضح حقيقة الصراع حول القادة بين جماعة من المناضلين القدماء بزعامة مصالي ومولاي مرباح ومزغنة من جهة وثلة من المثقفين النشطاء الشبان الذين تمكنوا من التسرب إلى هياكل الحزب بقة وبلوغهم مراكز قيادية عالية وفي وقت كان من المفروض على قيادة الحزب الشروع الجدي في البحث لإيجاد حلول جذرية لهذه الأزمة التي عرفت في أدبيات الحركة الوطنية بأزمة "دباغين" قامت بالمزج بينها وبين شق آخر من أزمة شهدتها سنة ١٩٤٩ وهي الأزمة البربرية وفي هذا السياق تشير بعض المصادر أن قيادة الحزب استغلت هذه الأزمة لإقصاء أنصار محمد الأمين دباغين من صفوف وقيادة الحزب[٢٣]. وإن اختلفت التفاسير والأطروحات في قضية دباغين فالمؤكد أن هذه الهزة عبرت عن تحول خطير في توجهات الحركة وسوف تكون لها انعكاسات خطيرة أيضا على مستقبلها ومستقبل مناضليها.

٤-الأزمة البربرية ١٩٤٩

اعتبرت الأزمة البربرية إحدى الأزمات التي مهدت للأزمة الكبرى وتركت آثارًا عميقة في مسار الحركة، كما شكّلت في الوقت نفسه منعطفًا حاسمًا في مسيرتها لارتباطها بأعقد قضية في تاريخ الحركة الوطنية وهي قضية الاستقطاب الجهوي والهوية في حد ذاتها[٢٤]. ويرجع البعض أسباب ظهور هذه الأزمة إلى انتخاب رشيد علي يحي[٢٥] لقيادة فدرالية الحركة بفرنسا خلال مؤتمرها الذي انعقد في شهر نوفمبر١٩٤٨ بدعم من واعلي بناي،[٢٦] وعمر ولد حمودة[٢٧] وهما من أبرز زعماء الدعوة البربرية،[٢٨] حيث قاما بتقديم أطروحات حول الهوية وطبيعة الدولة الجزائرية. وفي مقابل ذلك شرع اليساريون في العمل من أجل إنشاء شعبية للبربرية وأقر أعضاء اللجنة الفدرالية بأغلبية

٢٨صوتًا من جملة ٣٢ صوتًا استعمال القوة ضد اللجنة المركزية للحزب ورفض أية فكرة قائلاً "الجزائر ليست عربية ولكنها جزائرية، وإن كان من الضروري تشكيل اتحاد لجميع المسلمين الجزائريين دون تمييز للجنس العربي أو البربري نحن فوق المشكلة العرقية."[٣٩]

وتجدر الإشارة إلى؛ أن الحركة البربرية حُضيت بالمساعدات والدعم لدى الحزبين الشيوعي الجزائري والفرنسي وخلاصة هذا الدعم ما عرف بـ "نظرية البوتقة" التي جاء بها رئيس الحزب الشيوعي الفرنسي- موريس توريز "Moris Toreze" الذي يذهب في قوله بأن "إن الأمة الجزائرية لم تكن موجودة في السابق وهي اليوم في طريق التكوين من العرب والقبائل واليهود والمالطيين والأسبان والفرنسيين وغيرهم..."[٣٠]. ويعتبر أول من دق ناقوس الخطر حول هذه القضية هو المناضل أحمد بودة[٣١] في مؤتمر زدين الذي واجه آنذاك معارضة شديدة من قبل حسين أيت أحمد وعمر ولد حمودة وعلي بناي[٣٢].

أخذت قيادة الحركة القضية بشكل أكثر جدية، حيث كلفت المناضل حسين لحول الذي كان آنذاك أمينا عاما لها بمهمة احتواء الأزمة والقضاء عليها قبل استفحالها واستحالة السيطرة عليها وقام هذا الأخير بإرسال وفد يحسن التكلم بالقبائلية على رأس فدرالية الحزب بفرنسا وطلبت من السادة "راجف بلقاسم[٣٣] وسعيد صادق وشوقي مصطفاي" القيام بإعادة تنظيم خلايا الحزب بفرنسا كما قام كريم بلقاسم من جهته بالقضاء على مفتعلي الحركة البربرية وعلى رأسهم "رشيد علي يحي"[٣٤] بالإضافة إلى إيقاف جريدة النجم الإفريقي "التي كانت تصدر باسم الاتحادية"[٣٥].

وأدت هذه الإجراءات إلى وقوع صدمات ومواجهات بين أعضاء الوفد وبعض العناصر المتسببة في الأزمة البربرية أصيب على إثرها عدد من المناضلين بجروح من بينهم محمد خيضر[٣٦] وفي نفس السياق أصدر الوفد منشورًا ندد فيه ببربرية "رشيد علي يحي"، وقد ردت عليه بعض التنظيمات الطلابية القبائلية بتجميدها للمساهمات المالية وذلك تحت شعار "عاقبوا علي يحي دون مهاجمة البربر"[٣٧]. وفي الجزائر فقد قامت الحركة بتوجيه من الأمين العام حسين لحول بمعالجة القضية بحكمة وهدوء دون أن تصل إلى هياكل الحركة وقواعدها كما تم إبعاد المناضلين الذين ثبت أن لهم ضلع في القضية وهم "واعلي بناي" و"عمر أوصديق"، و"عمر ولد حمودة"[٣٨].

أما بالنسبة لحين أيت أحمد رئيس المنظمة، فقد أتهم بهذه القضية وتم استدعاؤه وأجرى معه المناضلان أحمد بودة والحاج محمد شرشالي تحقيقًا أنكر فيه التهمة واعتبرها مؤامرة من قيادة الحركة ضد مسؤولي منطقة القبائل فقررت الحركة عزله من الرئاسة المنظمة وتكليف المناضل أحمد بن بلة برئاستها[٣٩]. لقد أثارت هذه القضية الكثير من المتاعب للمناضلين داخل الحركة وكادت أن تعصف بقواعدها وأجهزتها باعتبارها قضية تشكيك في الهوية الوطنية ومساس بالأشخاص مباشرة في الحركة التي أصبح لها رصيدًا وطنيًا وشعبيًا كتيار ثوري استقلالي. ومما لا شك فيه أن للإدارة الاستعمارية ضلع في الأزمة حيث لها دور في ظهورها ومحاولة نشرها في إطار السياسة الاستعمارية "فرق تسد".

٥-نتائج وآثار اكتشاف وحل المنظمة الخاصة (LOS)[٤٠]

على إثر عملية اكتشاف المنظمة السرية في شهر أفريل ١٩٥٠ وتعرض الحزب لتلك الأعمال العنيفة قررت اللجنة المركزية حل المنظمة، مادامت الظروف لا تسمح بمباشرة أعمالها، وأوصت بأن تعود إلى عملها من جديد قبل بضعة أشهر فقط من بدء الحركة الفعلية، وكان لهذا الإجراء نتائج سلبية وشعور بالجفاء بين زعيم الحزب مصالي الحاج وبين الشبان الذين بذلوا الكثير في سبيل إعداد ذلك الجيش من المدربين، وتلك الخطط التي تقرر البثُّ في تحضيرها[٤١].

ويعتبر ذلك سببًا في تأجيل معركة التحرير في تلك الفترة[٤٢]، فسياسة الانتخابات كانت هي الأخرى إحدى محاور الخلاف[٤٣] بين قادة الحركة وقاعدتها، فقد دأب الحزب منذ تكوينه على المشاركة في الانتخابات البلدية والتشريعية في حين كان يواصل نشاطه الشرعي ويطالب بالاستقلال، ورأى المناضلون الشبان من أعضاء الحزب أن اشتراك حزبهم في المجالس الفرنسية التشريعية خيانة ومضيعة للوقت[٤٤] في حين كان الكهول والمتقدمون في السن منهم يرون عكس ذلك مادامت هناك مكاسب وطنية ولو بسيطة وقصيرة المدى. وفي عام ١٩٥٢ نقلت الحكومة الفرنسية مصالي الحاج نهائيًا من الجزائر وحددت إقامته الجبرية في فرنسا، وسبب بعده عن الجزائر اتساع شقة الخلاف بينه وبين الأعضاء الشبان في اللجنة المركزية.[٤٥]

والحقيقة أن الخلاف الذي ظهر بين مجموعة مصالي واللجنة المركزية كان خلافًا بين جيلين يختلفان في الطبيعة والتكوين والاتجاه وإن تقاربت، فمصالي كان يعتقد ويرى نتيجة لقدمه وأسبقيته في الحركة أن لاحق لأحد في أن يعارضه أو يشاركه في الرأي، ويريد أن يفرض سلطته الشخصية على الحزب، ويتصرف في مقرراته ما يشاء ويهوى، ويُسيّره وفق ما يعن له أما اللجنة المركزية فقد وضعت نصب أعينها تدعيم الحزب بدم جديد وفرض الزعامة الجماعية، ونبذ الشخصية الفردية وتحقيق الديمقراطية داخل إطارات الحزب، ضمانا لاتجاهه السليم وعدم انحرافه[٤٦].

انتابت حركة انتصار الحريات الديمقراطية أزمة داخلية فهلل الاستعمار لها، وعزز وسائل المحافظة على الأمن، لأن المشكل الجزائري في نظر أهل الفكر الاستعماري، مشكل "جندرمة" ليس إلا وحيث أن العربي لا يحترم إلا القوة، فما على الاستعمار إلى اللجوء إليها، وكانت الجرائد الفرنسية ببعد نظرها وثاقب بصرها في طول أعمدتها وعرضها تقنع قراءها بضرورة ذلك، ونذكر من تلك الجرائد:"ليكو دالجي"L'écho d' Alger، و"لاديبيش

كوتيديان "la Dépêche Quotidien" و"la Dépêche de Constantine"، و"وليكودوران " L'écho d'Oran.

٦-المؤتمر الثاني للحركة أبريل ١٩٥٣

يُعَدّ المؤتمر الثاني لحركة الانتصار من أهم المؤتمرات وأكثرها تأثيرًا على مسارها كما أنه يعد المؤتمر الأخير على مستوى الاجتماع داخله، وآخر محطة التقى فيها الإخوة الأعداء لأنه يمثل بداية الخلاف العلني والصراع الدامي بين الفريقين المتموقعين داخل الحركة ومن هنا جاءت أهمية وخطورة هذا المؤتمر بالإضافة إلى القرارات الحاسمة التي صدرت عنه سواءً على المستوى التنظيمي والهيكلي للحركة وطبيعة التركيبة البشرية التي انتخبت على هرم قيادتها أو على مستوى تحديد المسؤوليات وصلاحيات رئيسها مصالي الحاج، وهو ما اعتبر سابقة خطيرة في تاريخها بالنسبة للرئيس ولبعض أنصاره المتعصبين له والذين كانوا يرون فيه الزعيم الأبدي الذي لا ينافس بل ولا يجوز أن يكون محل جدل أو نقاش، من حيث مسؤوليته السياسية والروحية على الحركة، ومناضليها، وهو ممثل الشعب الجزائري بدون منازع رغم أن قضية تحديد المسؤوليات داخل أجهزة الحركة وكذلك قضية الرئاسة مدى الحياة قد نوقشت قبل هذا التاريخ، إذ كانت من أهم نقاط جدول أعمال دورة لجنتها المركزية في شهر ماس ١٩٥٠، حيث أشار تقرير تلك الدورة إلى مسألة تحديد سلطات رئيس الحركة ورفض صيغة الرئاسة مدى الحياة، إضافة إلى حق "النقض" وذلك رغم التباين الكبير الذي ساد أشغال الدورة حول هذه المسائل الحساسة، التي أجل البث والحسم فيها إلى وقت لاحق[٤٧].

والحقيقة أن هذا المؤتمر قد أخرج هذه المسائل إلى النور بعد أن كانت تدور بين عدد محدود معين من مناضلي قيادة الحركة وداخل لجنتها المركزية وهو ما عجل بظهور الخلاف إلى السطح، وبداية مرحلة من أخطر المراحل في تاريخ الحركة[٤٨].

أما فيما يتعلق بعقد هذا المؤتمر فيشير محفوظ قداش[٤٩] بأنه كان من المزمع عقده قبل هذا التاريخ وقد قررت له آجال تم تأجيلها في كل مرة وكان آخرها أيام ١٢، ١٣، ١٤ جويلية ١٩٥٢، وبعد التحضيرات الجدية له تم فجأة تأجيله مرة أخرى، وذلك لأسباب بعضها ظرفية ومنها زيارة مصالي الحاج للأصنام وما أعقبها من حوادث دامية، بالإضافة إلى قضية نفيه إلى **نيور** Niort بفرنسا.

في نهاية المطاف تم تحديد تاريخ انعقاد المؤتمر باتفاق أكثرية أعضاء اللجنة المركزية مع موافقة رئيسها الموجود آنذاك تحت الإقامة الجبرية بنيور بعد أن أوفدت إليه اللجنة المركزية لجنة من خمسة أعضاء سلمها مصالي تقريرًا احتوى على تسعة نقاط رئيسة عرض من خلالها التباين مع المواقف السياسية للقادة الآخرين منذ سنة ١٩٤٦، كما عين أثناء هذا اللقاء المناضل مولاي مرباح ناطقًا رسميًا له[٥٠].

وقد استقر الرأي النهائي على أيام ٤و٥و٦ من شهر أفريل١٩٥٣ لعقد المؤتمر الثاني وتم فعلاً انعقاده في هذا التاريخ، وذلك بصفة شبه سرية بمقر الحركة بساحة **شارتر**"Charter" بالجزائر العاصمة، بينما يذكر عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون أن المؤتمر انعقد بنادي المولودية بساحة شارتر[٥١]. وحسب المصدر نفسه فإن هذا المؤتمر انعقد في جوٍّ مشحون بالتوتر وانعدام الثقة، وظهر ذلك واضحًا على وجوه المجتمعين من خلال الترسبات السابقة والخلافات في الآراء ومشكلة اكتشاف المنظمة الخاصة، وموقف القيادة السلبي من مناضليها بالإضافة إلى المواقف والتوجهات التي سبقت انعقاد المؤتمر الثاني بين مصالي الحاج من جهة، وأعضاء اللجنة المركزية من جهة أخرى[٥٢]. وكل ذلك انعكس على جو المؤتمر وكان هناك أيضا ما يثير التوتر والتحفظ ويتمثل ذلك في مسألتين هما:

١- ضرورة محاولة الاحتفاظ بسر الخلاف الذي نشب بين رئيس الحركة واللجنة المركزية.

٢- ضرورة عدم التصريح ببعض قرارات المؤتمر لما فيها من خطر على الحركة ومناضليها ومستقبلها أمام السلطات الاستعمارية[٥٣].

وبالنسبة لطبيعة المؤتمرين وتوجهاتهم تؤكد بعض الدراسات بأن المشرفين على المؤتمر منعوا أعضاء المنظمة الخاصة من حضور أشغاله، وذلك تحت غطاء حجة الأمن، ومن هؤلاء محمد العربي بن مهيدي الذي أجبر على إرسال رمضان بن عبد المالك مكانه، أما بالنسبة لمصطفى بن بولعيد ورغم صفته كعضو باللجنة المركزية فإنه لا يستطيع الإدلاء بأي شيء[٥٤]. وكان محمد بوضياف المقيم بفرنسا آنذاك قد أرسل مبعوثين عنه للمؤتمر، وفي نفس الوقت للاتصال بديدوش مراد ليطلعه على الوضع داخل الحركة[٥٥]، ورغم الحصار والمضايقات التي تعرض لها النشطاء، فقد استطاعوا تمرير فكرتهم الأساسية والرئيسية وهي إعادة بعث المنظمة الخاصة من جديد، وقد تم في هذا الإطار تكوين لجنة خماسية تشكلت من: **مصالي الحاج وحسين لحول وبن خدة بن يوسف ومحمد دخلي ومصطفى بن بولعيد**[٥٦].

ومن خلال اللائحة العامة والتقرير النهائي الذي صدر عن المؤتمر فإن أشغاله قد تمحورت حول قضايا أساسية وهي:

(١) قضية التحالفات داخليًا وخارجيًا.

(٢) التكفل بمصالح الطبقة البرجوازية.

(٣) البحث عن مساندة لدى الدول الغربية خاصة الولايات المتحدة الأمريكية.

(٤) قضية المنظمة الخاصة العسكرية والتي طرحت بشكل سري وخاص، وقد سبقت الإشارة إلى ما قرر بشأنها.

(٥) قضايا تنظيمية خاصة بأجهزة الحركة ومسؤوليتها[٥٧].

ولقد أثارت النقطة الثالثة المتعلقة بالبحث عن مساندة لدى الدول الغربية جدلاً واسعًا، حيث لم تلق إجماعًا داخل المؤتمر، فمنهم مَنْ أيدها ومنهم مَنْ عارضها[٥٨]. وقد طرحت أثناء أشغال المؤتمر الثاني عدة تساؤلات جوهرية وجدية وهامة منها: ما هي وسائل تحرير الجزائر؟ ما هي المبادئ التي تبنى عليها الدولة الجزائرية المستقلة؟ وإذا كانت هذه الأسئلة قد طرحت بهدف إيجاد إجابات شافية ترضي مناضلي الحركة، فإن

القضايا التي طرحت لم تجد الحلول الكافية والمقنعة علما بأن المؤتمر عالج حتى القضايا الاقتصادية والاجتماعية، وأصدر بشأنها اقتراحات وحلول، كقضية الإصلاح الزراعي والتصنيع وهو ما تضمنه نص اللائحة العامة لأشغال المؤتمر[٥٩].

إلاّ أن القضية الحساسة والخطيرة التي شكلت بداية الأزمة الفعلية بين رئيس الحركة وأعضاء اللجنة المركزية الجدد تمثلت في نقطتين أساسيتين هما:

* **النقطة الأولى**: وتتمثل في القرار الخطير الذي اتخذه المؤتمر والقاضي بتحديد صلاحيات الرئيس وإدخال نوع من الديمقراطية والشورى داخل قيادة الحركة، واعتماد ما يعرف بمبدأ القرار للأغلبية وستكون هذه النقطة القنبلة المفجرة للحركة عندما يصر رئيسها على رفض هذا القرار، ويطالب لاحقًا بمنحه الصلاحيات المطلقة والتفويض التام لتسيير شؤون الحركة تسييرًا فرديًا، وعلى الجميع الطاعة والانصياع[٦٠].

***النقطة الثانية:** وتتمثل في القرار الثاني المتخذ بالأغلبية والقاضي بإبعاد أهم مساعدي مصالي الحاج وأقرب مقربيه عن عضوية المكتب السياسي، وهما أحمد مزغنة ومولاي مرباح وانتخاب بن خدة بن يوسف[٦١] أمينًا عامًا للحركة مع اختيار كل من حسين لحول وعبد الرحمن كيوان مساعدين له[٦٢].

لقد كانت هذه القرارات رغم طابعها الانتخابي الجماعي ذات تأثير كبير على مصالي الحاج وكانت بمثابة صدمة عنيفة لم يكن ينتظرها، نزلت عليه كالصاعقة جعلته يفقد صوابه واعتبر كل ذلك بمثابة انقلاب حقيق ضد شخصه، ومؤامرة حاك خيوطها في الخفاء أعضاء اللجنة المركزية لإقصائه وتهميشه، وكان ذلك بالنسبة له تجاوزًا للخط الأحمر من قبل أعضاء هذه اللجنة. لقد شعر مصالي الحاج بأن مكانته قد اهتزت وأنه أصبح معزولا خاصة بعد إبعاد أهم مساعديه وأقرب مستشاريه.

ورغم أن العلاقات بين رئيس الحركة والأمين العام الجديد بن خدة بن يوسف بدت ظاهريًا عادية، وذلك أثناء اللقاءين اللذين تما بين الرجلين في شهر جويلية وأوت سنة ١٩٥٣في منفاه بنيور" Niort " والخاص بعرض نتائج المؤتمر الثاني وقراراته، بالإضافة إلى قضية تسوية مشكلات البرامج وتنصيب المسؤولين رسميًا من قبل رئيس الحركة، إلا أن الواقع أثبت بعد فترة قصيرة أن مصالي الحاج لم يكن موافقًا البتة على تلك القرارات، وأعلن عن رفضها جملة وتفصيلاً وذلك من خلال المذكرة التي أرسلها في شهر سبتمبر ١٩٥٣، إذ كشف مصالي الحاج من خلال هذه المذكرة عن موقفه الحقيق من نتائج المؤتمر الثاني وقراراته، وانتقد بشدة ما سماه بـ "سياسة الإصلاح" التي انتهجتها القيادة الجديدة وطالب صراحة بتفويض كامل السلطات[٦٣].

وكان موقف اللجنة المركزية معاكسا تمام لرغبة مصالي الحاج، إذ أعلنت رسميًا عن تنصيب بن خدة بن يوسف أمينًا عام للحركة، وكذلك تنصيب المكتب السياسي، كما أعلنت عن رفضها المطلق لمطلب مصالي الحاج المتمثل في منحه تفويضًا كاملاً للصلاحيات[٦٤]. لكن هذا المطلب بقي بين أخذ ورد، كما بقي الصراع بين الطرفين قائمًا إلى غاية الانقسام النهائي والتام بانعقاد مؤتمري الطرفين في صائفة سنة ١٩٥٤، وعلى كل حال

فإن المؤتمر شكل محطة هامة جدًا من حيث تطورها والمستجدات التي طرأت عليها، بسبب ما ترتب عنه من قرارات حاسمة وخطيرة، وكذلك المواقف المتخذة إزاء العديد من القضايا المطروحة على الساحة السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والمذهبية الملخصة في اللائحة الختامية التي تبناها المؤتمر ومما جاء فيها: "... أن الحركة تحت عوامل داخلية وخارجية قد عرفت تطورات وتقلبات فقلة الكفاءات من أنواع مختلفة تجلب النظر، إذ دعت إلى المسارعة بمعالجتها حتى يمكن للحركة أن ترتقي إلى مستوى الحالة العامة الحاضرة وأن تتقدم بنجاح إلى الكفاح، ومن جهة أخرى فنظرا إلى الحاجة إلى التحديد والتدقيق لمواجهة القضايا التي تعترض الكفاح الحالي والجزائر مستقلة، كان من المحتوم تحديد سياسة عامة.... على ضوء تحليل السياسة التي تتعاطاها فرنسا ضد الجزائر ..."[٦٥].

لقد تضمنت اللائحة الختامية التي تبناها المؤتمر نقدًا موضوعيًا لوضعية الحركة وحالتها الراهنة والتناقضات الموجودة بداخلها، وانعدام التنظيم مع الإشارة إلى كثير من النقائص الواجب معالجتها والقضاء عليها، ونستنتج من خلالها أن المؤتمرين كانوا يهدفون للخروج بالحركة من تلك الدائرة المغلقة التي كانت تدور فيها، وجعلها حركة طلائعية قوية تضطلع بمهامها التي نذرت نفسها لها خاصة وأنها تمثل الحركة الوطنية في الجزائر، التي بنيت عليه آمال وأحلام جميع الوطنيين، كما نلاحظ الصراحة والجرأة التي طبعت صياغة ومناقشة تلك القضايا الحساسة التي تعترض سبيل الحركة سواء الداخلية أو الخارجية منها. إن هذه المحاولة التصحيحية لأوضاع الحركة خاصة قضية الإطارات والاختصاص في المهام والعلاقات الداخلية والخارجية هي التي ستثير حفيظة أولئك الذين يرغبون في إبقاء الحركة هيكلاً جامدًا بلا روح.

وقد أشارت اللائحة الختامية بصراحة إلى أن الحركة بوضعيتها تلك ستتجاوزها الأحداث في يوم ما وكان ذلك تنبأ سابقًا لأوانه أثبتت الأيام فيما بعد صحته، وكانت كذلك إحدى الأسباب العميقة والجوهرية التي أحدث تلك الأزمة العنيفة داخل قيادة الحركة، والتي ساهمت فيها أزمات فرعية تراكمت وترسبت أحداثها لتؤدي في النهاية إلى الانقسام النهائي لها[٦٦].

خَاتِمَةٌ

في خضم سلسلة الأزمات المتعاقبة التي تعرضت إليها حركة انتصار الحريات الديمقراطية منذ سنة ١٩٤٦ إلى غاية انفجار الحزب ووقوع القطيعة النهائية سنة ١٩٥٣ يمكن للباحث الوقوف على جملة من الاستنتاجات والنتائج التي يمكن أن نذكر منها:

تعدّ أزمة حزب الشعب (PPA) - حركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD)- أزمة قيادة وخلل في نظام وهياكل الحزب وتقاليده الموروثة منذ فترة النجم بالإضافة إلى الاختلافات في الرؤى والأطروحات والتوجّهات في صفوف المناضلين ثم برزت أزمة القيادة في ظل المتغيرات والظروف الداخلية والخارجية وردود الفعل الاستعمارية بين أنصار زعيم الحزب (المصاليون) وأعضاء اللجنة المركزية(المركزيين)، فالمصاليين يطالبون بمبدأ القيادة الفردية بزعامة مصالي الحاج مدى الحياة، والمركزيين يريدون هيكلة الحركة بإطارات جديدة شابة مثقفة بالاعتماد على مبدأ القيادة الجماعية بعيدًا تكريس عبادة الشخصية والقيادة الكريزماتية بطرائق ووسائل تماشى مع متطلبات الساعة في مواجهة السياسة الاستعمارية.

ساهم إبعاد مصالي ووضعه تحت الإقامة الجبرية في نيور بفرنسا في تفاقم الأزمة وزيادة الهوة بين المصاليين والمركزيين الأمر الذي أعطى الفرصة لبعض المناضلين في قيادة وهياكل الحزب باستغلال الظرف والمواقف لخدمة مصالحها الشخصية من خلال عرقلة الاتصالات بين مصالي واللجنة المركزية مثل مولاي مرباح وأحمد مزغنة.

يعتبر مصالي الحاج سببًا مباشرًا في خروج أزمة الحزب إلى الشارع في الجزائر وفرنسا، وبذلك كشف عن المستور فيما يتعلق بهياكل الحزب السرية منها ولم يسعى لحل المشاكل داخليًا بينه وبين أعضاء اللجنة المركزية بسبب التعنت والنزعة الفردية وهو ما ساهم في تصدع الحزب وكشف أسراره ومشاكله للمناضلين في القاعدة الأمر الذي أثر سلبًا على مستقبل الحركة.

الهَوامِشُ:

(1) Mohamed Harbi. La Guerre commence en Algérie, Ed Complexe, Bruxelles, 1984. P.P.20.23.

(٢) شهادة مناضل المرحوم محمد بوضياف في حديث له لجريدة الشعب ليوم ١٦ نوفمبر ١٩٨٨، ص٨.

(٣) **مصالي الحاج (١٨٩٨-١٩٧٤)** "ولد الحاج أحمد مصالي في عائلة من فقراء الفلاحين، كانت مهنة والده بسيطة لأنه كان اسكافيًا فعاش مصالي حياة متواضعة ولم يحتمل قساوة الحياة الصعبة في الجزائر من جراء المساوات الكولونيالية وبعد عودته من الخدمة العسكرية بفرنسا إلى الجزائر عاد مرة أخرى إلى فرنسا سنة ١٩٢٣ ومارس عدة حرف متواضعة، خطا خطواته السياسية الأولى في إطار جمعية نجم شمال إفريقيا التي ساهم في تأسيسها والحزب الشيوعي الفرنسي. بدأ صدامه مع هذا الحزب منذ سنة ١٩٢٨، لكنه لن يغادره بدون رجعة إلا عام ١٩٣٣، خلال مؤتمر بروكسل المعادي للإمبريالية ١٩٢٧، وفي اجتماع المؤتمر الإسلامي بالجزائر العاصمة ١٩٣٦ طرح مصالي نظريته حول الوطنية الجزائرية. لحقه القمع ولحق حركته ابتداء من سنة ١٩٢٩ عاش١٦سنة من حياته بين السجن والنفي، غير أن صموده لم يؤت أكله، أصبح منذ ١٩٤٥ أبرز شخصية للحركة الوطنية في الجزائر، وبقي معبود الجماهير حتى نوفمبر ١٩٥٤. وابتداءً من هذا التاريخ يسدل تلاميذه عليه الحجاب. وبعد إنشاء حزب الشعب ١٩٢٧ وحركة انتصار الحيات الديمقراطية سنة ١٩٤٦، أنشأ مصالي الحركة الوطنية الجزائرية (MNA) لكن جبهة التحرير الوطني رسّخت أقدامها في الأرياف وعقدت تحالفات بدون منازع في العالم العربي وحتى في فرنسا استطاعت العودة إلى المدن وقطع مصالي عن القوى الاجتماعية التي صنعت يومًا قوته وبعد معارك دامية خلفت وراءها الأحقاد والضغائن ودحضت بعض أنصاره إلى اليأس والارتماء في أحضان العدو. وفي ماي ١٩٦١ رفض مصالي الدخول في اللعبة الفرنسية ورفض المشاركة في مفاوضات ايفيان ضد جبهة التحرير الوطني. وبعد الاستقلال أسس مصالي حزب الشعب الجزائري دعى فيه إلى التعددية الحزبية وانصرف كمعارض حتى وفاته سنة ١٩٧٤ بفرنسا وتم دفنه بالجزائر. انظر: بن يامين سطورا مصالي الحاج، **رائد الوطنية الجزائرية ١٨٩٨-١٩٧٤**، ترجمة الصادق عماري مصطفى ماضي، دار القصبة للنشر، الجزائر،٢٠٠٧، وأيضًا: رابح لونيسي، بشير بلاح، **تاريخ الجزائر المعاصر(١٨٣٠-١٩٨٩)** ج١، دار المعرفة، الجزائر ٢٠١٠، ص٢٤٦.

(٤) عيسى كشيدة، **مهندسو الثورة**، تقديم عبد الحميد مهري، دار الشباب، الجزائر، ٢٠٠٣، ص ٥٩-٦١.

(٥) عقد أول مؤتمر لحركة الانتصار الحريات الديمقراطية في سرية تامة يومي ١٥-١٦ فيفري ١٩٤٧ حسب جل المصادر ولأسباب أمنية انعقد اليوم الأول منه في منزل ببوزريعة للمناضل مهدي عمار أما في اليوم الثاني فكان ببلكور في قاعة للمشروبات لصاحبها المناضل ملاين مولود وقد ضم المؤتمر حسب بعض المصادر ١٢٠ مناضلاً انظر:

Hocine Ait Ahmed, Mémoire d'un combattant l'esprit d'indépendance (1942-1952), Ed Bouchene, Alger, 1990. P90. Mahmoud Abdoune, Témoignage d'un militant du mouvement nationaliste, Ed. Dahlab, 1990, P.77. Mahfoud Kadache, Histoire du Nationalisme Algérien (1919-1951), tome 2, 2eme Ed, ENAL, Alger P.77.

وقد قال مصالي الحاج عن هذا المؤتمر "بأنه انعقد في جو منعدم الثقة، وفيه تصفية الحسابات، وحرب التكتلات والدسائس والتسابق نحو السلطة

ولم تدرس فيه أي مشكلة دراسة جدية انظر: يحي بوعزيز، **الاتهامات المتبادلة بين مصالي الحاج واللجنة المركزية وجبهة التحرير الوطني ١٩٤٦-١٩٦٢**، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٣، ص٣٠-٣١.

(٦) **شوقي مصطفاي**: ولد في ٠٥ نوفمبر ١٩١٩ بمسيلة حيث كان أبوه قائدا، ترعرع في برج بوعريرج قبل أن يرحل إلى سطيف لمواصلة الدراسة الثانوية. في معهد سطيف، انخرط في نجم شمال إفريقيا برفقة مولود بوقرموح وعبد الرحمن علاق من خراطة ، وهو طالب في الطب بكلية الجزائر العاصمة أنضم إلى الفرع الجامعي لحزب الشعب الجزائري PPA خلال الحرب العالمية الثانية وبعد انهزام فرنسا في جوان ١٩٤٠، بدأت تتبلور فكرة اللجوء إلى العمل المسلح ، بدأ الوطنيون في أفريل ١٩٤٥، يتهيئون للاحتفال بهزيمة النازية منفصلين لتكذيب الدعاية الفرنسية (أو الشيوعية) التي كانت تتهم حزب الشعب الجزائري وسار شوقي رافعًا راية الأمة الجزائرية التي فصلت خصيصًا للمناسبة، انتخب عضوًا في قيادة جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا في ٢٣ ماي ١٩٤٥، وهو بالذات من نقل الأمر المضاد للثورة الشاملة. تابع شوقي بين ١٩٤٥ و١٩٤٧ دراسته في الطب بتولوز ثم بباريس مع تكفّله مع بلقاسم راجف وآخرين بالإشراف على فيدرالية فرنسا لحزب الشعب الجزائري PPA-حركة انتصار الحريات الديمقراطية- MTLD خلال الأزمة البربرية. ذهب في صيف ١٩٥٠ إلى تونس، لإعادة عرض اقتراحات الوحدة المقدمة في جانفي ١٩٤٩ على حزب الدستور الجديد، بدون جدوى، دعا إلى وحدة العمل مع الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري والعلماء، ترك قيادة الحركة في ١٩٥١ مع ثلاثة من رفاقه، عمراني السعيد وحاج شرشالي وشنتوف عبد الرزاق احتجاجًا على التصرفات المتسلطة لمصالي، ولم يعد إلى الساحة السياسية إلا في عام ١٩٥٥، تاريخ بداية تعاونه مع مصالي الونشي مسؤول فدرالية ج ت و. بفرنسا وشارك في مصلحة الصحة إلى جانب الدكتور محمد نقاش في مستشفيات تونس وعلى الحدود بغار الدماء وفي ١٩٥٧عين بصفة مستشار سياسي لدى كريم بلقاسم ومسؤول القوات المسلحة في لجنة التنسيق والتنفيذ CCE ، ثم عين رئيس بعثة دبلوماسية بتونس ثم بالرباط التي لم يغادرها إلا سنة ١٩٦٢ لقيادة مجموعة جبهة التحرير الوطني في الجهاز التنفيذي المؤقت، للهيئة الانتقالية المكلفة بتحضير استفتاء تقرير المصير وانتخاب الجمعية التأسيسية الأولى لدولة الجزائرية ، قرر الانسحاب من جديد من الساحة السياسية، عمل مع الاتحاد الإفريقي بالحراش قبل أن يدخل للعمل في مستشفى مصطفى باشا في سنتي ١٩٦٤- ١٩٦٥وفي ١٩٦٦ طرد من الجامعة ليعود إلى الاتحاد الإفريقي إلى غاية تأميمه سنة ١٩٧١. انظر: عاشور شرفي، **قاموس الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢)**، تر: عالم مختار، دار القصبة الجزائر، ٢٠٠٧، ص٣٤٣.

(٧) **شهادة المناضل الشاذلي المكي في عبد الرحمان ابن إبراهيم بن العقون الكفاح القومي والسياسي** (من خلال مذكرات معاصر)، الجزء ٢، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦، ص ٢١٢.

(٨) محمد العربي الزبيري، **تاريخ الجزائر المعاصر(دراسة) الجزء الأول**، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩، ص.٦٥-٦٤.

(٩) عُرف هذا اللقاء بندوة الإطارات التي انعقدت ببوزريعة بالقرب من إقامة مصالي الحاج وتعتبر هذه الندوة تأسيسية للحركة وقد حضرها معظم إطارات الحركة المعروفين ويعتقد البعض ممَنْ عاصروا هذه المرحلة أن هذه الندوة شّكلت بداية الصراع والخلاف بشكل علني على الأقل داخل قيادة الحركة: انظر: محمد يوسفي، **الجزائر في ظل المسيرة النضالية (المنظمة الخاصة)**، ترجمة محمد الشريف دالي حسين، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر، ٢٠٠٢، ص ٧٩.

(١٠) بداية بأول انتخابات تشريعية للجمهورية الفرنسية الرابعة في (نوفمبر ١٩٤٦).

(١١) تباين رأي المشاركين في هذا اللقاء خصوصا بين مصالي الحاج ولحول حسين فالأول يدعو إلى المشاركة في الانتخابات باعتبارها وسيلة هامة من وسائل الكفاح السياسي وعلى ضوئها يتمكن الحزب من نشر أفكاره الاستقلالية في الأوساط الشعبية (عمال، طلبة، شباب، نساء) وفي إطار من الشرعية المعلنة. أما الرأي الثاني الذي مثله لحول حسين فكان يرى بأن ذلك مضيعة للوقت على حساب التفرغ التام لمتطلبات العمل المسلح، كما أن الإدارة الفرنسية سوف تقوم بمحاولة استمالتهم لمصالحها. وللمزيد من التفاصيل انظر عبد الرحمن بن العقون، المصدر السابق، ص١٦.

(١٢) ترجع بعض المصادر جذور الخلاف العلني الذي كان سببًا مباشرًا في أزمة حركة انتصار الحريات الديمقراطية إلى مرحلة التحضير للانتخابات المقرر إجرائها في ١٠نوفمبر ١٩٤٦ عندما رفع الحزب شعر "من أنتخب كفر" وهو ما كان يعارضه مصالي الحاج ومن هنا خطا الحزب الخطوة الأولى نحو الأزمة التي انفجرت خلال المؤتمر الثاني للحركة في شهر أفريل ١٩٥٣: انظر، نظيرة شتوان، **الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢) الولاية الرابعة نموذجًا**، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، ٢٠٠٧/٢٠٠٨، ص٣٣.

(١٣) هذه العناصر سوف تشكل فيما بعد تنظيم المنظمة الخاصة التي تعتبر القاعدة الأولى للعمل الثوري الجاد.

Mohamed Boudiaf, la préparation de 1(er) novembre 1954, In El Jarida, N° 15, Novembre. Décembre, 1974, P10. Mohamed Boudiaf la préparation de 1(er) novembre, in memoria Magazine, N° 01 le magazine l'histoire ed, Publicité, Alger, 1997, P 3-29.

(١٤) **محمد الأمين دباغين (١٩١٧-٢٠٠٣)** ولد سنة ١٩١٧ بمدينة شرشال ، دخل معهد الطب وانخرط في جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا فكانت البوابة التي دخل منها إلى عالم السياسة والنضال، لم يتجاوز دباغين العشرين من عمره عندما انخرط في حزب الشعب الجزائري الذي كان برئاسة مصالي الحاج حيث رفض التجنيد خلال الحرب العالمية الثانية وكان ثمن ذلك السجن ثم أفرج عنه، وفي أحداث ٠٨ماي ١٩٤٥ أصبح من قيادي حزب الشعب وفي جوان ١٩٥٥ ألقت السلطات الفرنسية القبض عليه بتهمة تكوين مجموعة أشرار وسجن لمدة ستة أشهر وبعد خروجه التحق بصفوف جبهة التحرير الوطني بواسطة عبان رمضان غادر الجزائر بعد أن حوصر ببيته ووضع تحت المراقبة الجبرية وأقام بباريس عدة أسابيع ثم انتقل إلى القاهرة حيث عين مسؤولا عن الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني. كان محمد الأمين دباغين عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية ثم في لجنة التنسيق والتنفيذ الموسعة عام ١٩٥٧ ليتولى منصب أول وزير للشؤون الخارجية في الحكومة المؤقتة الأولى. ابتعد الأمين دباغين عام ١٩٥٩ عن السياسة بعد دخوله في صراع ضد أول رئيس للحكومة المؤقتة فرحات عباس وعبد الحفيظ بوصوف رجل المخابرات القوي في الثورة الجزائرية. وبعد الاستقلال تفرغ لمهنة الطب في العلمة قبل العودة إلى العاصمة حيث توفي فيها يوم ٢٠ جانفي ٢٠٠٣.انظر: العمري مومن، **الحركة الثورية في الجزائر من نجم شمال إفريقيا إلى جبهة التحرير الوطني ١٩٢٦-١٩٥٤**، دار الطليعة، الجزائر، ٢٠٠٣، ص٢٠١.

(١٥) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص ١٠٩.

(١٦) العمري مومن، المرجع السابق. ص٢٠٢.

(١٧) نفسه، ص ٢٠٢

(١٨) **مصطفى الأشرف (١٩١٧-٢٠٠٧)**: من مواليد ٧ مارس ١٩١٧ بسيدي عيسى (المسيلة)، درس بالجزائر ثم بباريس، رئيس تحرير جريدة نجم "الجزائر" التي كانت تصدر بباريس، التحق بصفوف حزب جيش التحرير الوطني وعمل في مجال الاتصال والتنسيق السياسي. وكان يرافق بن بلة في تنقلاته، عمل سفيرًا للجزائر بالأرجنتين ثم

مستشارًا برئاسة الجمهورية ليتولى وزارة التربية الوطنية في السبعينات، توفي يوم ١٣ جانفي ٢٠٠٧. انظر: رابح خدوسي، «**موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين**»، دار الحضارة للنشر، الجزائر ٢٠٠٢، ص ٢٧.

(١٩) مصطفى الأشرف، **الجزائر الأمة والمجتمع**، ترجمة الدكتور حنفي بم عيسى المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ١٩٨٣، ص ٢٢.

(٢٠) وجد دباغين نفسه معزولاً بين اتجاهين في الحركة –اتجاه وسط كان يمثله مصالي وحسين لحول وأحمد مزغنة وبن خدة وبن يوسف واتجاه يميني مثلّه كل من شوقي مصطفاي ومحمد الحاج شرشالي وعمراني.

(٢١) تؤكد جل المصادر التاريخية أن المناضل الأمين دباغين كان من ألمع مناضلي الحركة وأكثرهم ثقافة ونشاطاً ووطنية وهذا ما يشير إليه المناضل حسين أيت أحمد بقوله "لقد كان الدكتور دباغين رجلاً مثقفًا جدًا ولم يكن رجل فكر فقط، بل كان رجل عمل كما كانت له القدرات فائقة في التحليل والمعرفة والحكمة". للمزيد من التفاصيل انظر: حسين أيت أحمد، **روح الاستقلال مذكرات مكافح ١٩٥٢-١٩٤٢**، ترجمة سعيد جعفر، منشورات البرزخ، الجزائر، ٢٠٠٢، ص ٩٢. وانظر أيضًا: عبد الرحمان بن العقون، **الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر**، ج٣، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،١٩٨٦، ص٢٨٢. وانظر أيضًا: يحي بوعزيز، **السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥، ص٣٨.

(٢٢) يشير سطورا بأن ذلك الصراع بين مصالي ودباغين تم حله بطريقة عنيفة عن طريق إقصاء هذا الأخير من الحركة في ٠٢ ديسمبر ١٩٤٩ لعدم الانضباط والعمل اللاإرادي ورفضه وضع تعويضاته كنائب تحت تصرف الحزب وقد كان هذا الإقصاء نتيجة أزمة عرفت بالأزمة البربرية، حيث صرح مصالي في تقرير قدمه لمؤتمر هورنو ١٩٥٤مشيراً إلى هذه المرحلة "لقد أقصيت بلا تمييز العناصر المزعجة باتهامها بالنزعة البربرية" للمزيد من التفاصيل انظر بنيامين سطورا، المرجع السابق، ص ١٩٨.

(٢٣) للمزيد من التفاصيل انظر: حسين أيت أحمد. المصدر السابق ص١٠٦-١٩٦-١٩٨. وأيضًا شهادة مبروك بلحسن في جريدة الشعب اليومية ٦ فيفري١٩٨٩، ص١٠، وانظر أيضًا: سليمان الشيخ، **الجزائر تحمل السلاح، دراسة في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة**، ترجمة محمد حافظ الجمالي. منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر، ٢٠٠٢، ص٥٩. وانظر أيضًا:
Hocine Ait Ahmed, Mémoire d'un Combattant 1942-1952, Alger, P.189-190.

(٢٤) محمد حربي، جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع، ترجمة كميل قيصر داغر، ط١، مديرية الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٣، ص ٦٢٠.

(٢٥) **رشيد علي يحي**: اسمه الكامل محند سيد علي المدعو رشيد أحد المتخرجين من الكنيسة النصرانية عرف بمواقفه العدائية للعروبة "الجزائر ليست عربية..." انظر أيضًا: محمد حربي، المصدر السابق، ص٦٤.

(٢٦) **بناي واعلي**: مسؤول حزب الشعب الجزائري-PPA- في منطقة القبائل سنة ١٩٤٣، وعضو اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية سنة ١٩٤٧وعضو في جبهة التحرير الوطني سنة ١٩٥٥، ولد بجمعة الصهاريج والده فلاح صغير وقد مرّ على التوالي في متيجة ثمّ مدينة الجزائر وعاد مسؤولاً بحزب الشعب في منطقة القبائل حيث كان مكلف بعملية التنسيق بين المنظمات الطلابية والحزب سنة ١٩٤٤كما شغل على تأمين مؤتمر رابطة أحباب البيان والحرية –AML-الذي عقد في شهر مارس ١٩٤٥بمدينة الجزائر، وبعد ماي ١٩٤٥ملاحقًا من طرف الشرطة الفرنسية فاضطر للإخفاء وممارسة نشاطه في السرية وكان من دعاة العمل المسلح وفي غضون الندوة التي عقدها حزب الشعب –حركة انتصار الحريات الديمقراطية في شهر أكتوبر١٩٤٦عُيّن عضوًا باللجنة المعروفة باسم لجنة اليقظة التي طالبت بعقد مؤتمر لإعادة مراجعة بناء الهيئات القاعدية في الحزب، التحق باللجنة المركزية سنة ١٩٤٧، ومنذ نشأة المنظمة الخاصة نظّم حملة لجمع الأموال لشراء الأسلحة للمنظمة الخاصة وقد تميز في تلك الفترة بميوله البربرية ففي هذا الإطار ومنذ سنة ١٩٥٥ عرض على اللجنة التنظيمية لحركة الانتصار توحيد منطقة القبائل بكاملها وقد تم ّتوقيفه بميناء وهران في سبتمبر ١٩٤٨، في هوية مستعارة وهو يريد الذهاب إلى فرنسا وخلال فترة تواجده في السجن تطورت الأزمة البربرية سنة ١٩٤٩، وانتهت بتصفية مجموعة من الإطارات بمنطقة القبائل، تمّ طرده من حركة الانتصار وبعد خروجه من السجن توجه لفرنسا وباشر في اتصالات مع الحزب الشيوعي الفرنسي-PCA-طالبًا منه دون جدوى مساعدته لإنشاء الحزب الوطني التقدمي ثم ّالتحق بجبهة التحرير الوطني واغتيل سنة ١٩٥٧، بسبب مواقفه خلال الأزمة البربرية سنة١٩٤٩. انظر محمد حربي، المرجع السابق، ٣٣٣. وأيضًا:
Benjamin Stora, Dictionnaire biographique de militants algériens (1954-1962), La harmattan, Paris, 1985, p233.

(٢٧) **عمر ولد حمودة**: من القبائل الكبرى انظم إلى حزب الشعب الجزائري سنة ١٩٤٢، انتقل إلى مراكز المقاومة في ١٤ ماي ١٩٤٥، عضو اللجنة المركزية (١٩٤٧-١٩٤٩) انظم إلى جبهة التحرير الوطني وتم اغتياله خلال الثورة بسبب مواقفه إبان الأزمة البربرية سنة ١٩٤٩. انظر محمد حربي، المرجع السابق، ص٣٣٣.

(٢٨) انكب هؤلاء رفقة علي عميش وحسين أيت أحمد على البحث في تاريخ وماضي البربر معتمدين في معارضهم على المنظّرين اللاتين وقد توصلوا في اكتشافهم لهذا الماضي من حيث معاداة العرب الأمر الذي بين أن هذه الأزمة من تدبير السياسة الفرنسية "فرق تسد" وأن سكان القبائل من أصول أوربية وبالضبط من جنس الرومان واستدلوا على ذلك بصفات خلقية بيولوجية انظر بالتفصيل: عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقون المصدر السابق، ص١١١.

(٢٩) العمري مومن، المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٣٠) محمد حربي، المصدر السابق، ص٦٨.

(٣١) **بودة أحمد (١٩٠٧-١٩٩٢)**: وجه من وجوه الحركة الوطنية، ولد يوم ٠٣ أوت ١٩٠٧ بعين طاية بومرداس في عائلة فلاحية انضم في ١٩٣٢ إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وفي ١٩٣٧ ناضل في صفوف نجم شمال أفريقيا في فترة حله. وفي صفوف حزب الشعب الجزائري ترقى بسرعة في سلم المسؤوليات، ففي ١٩٣٩ كان مسيرا للبرلمان الجزائري، وخلال الحرب العالمية الثانية أصبح عضوًا في قيادة حزب الشعب الجزائري الُمحل، في أفريل ١٩٤٣ إلى جانب حسين عسلة ومحمد بلوزداد. ثم عضوا في اللجنة المركزية، ومندوبا في الجمعية الجزائرية. في ١٩٤٨. شد إليه الأنظار من خلال تدخلاته بالعربية، ودفاعه عن الكشافة الإسلامية الجزائرية التي سعت الإدارة الاستعمارية إلى خلقها برفضها تقديم الإعانة المالية لها. عند عودته من رحلة قادته إلى القاهرة، برفقة مزغنة عام ١٩٥٢، شن بودة معركة مفتوحة ضد مصالي واللجنة المركزية. كان في هذا النزاع أحد خصوم مصالي، اعتقل إثر حل حركة انتصار الحريات الدمقراطية في نوفمبر ١٩٥٤، بعد أن أطلق سراحه في أفريل ١٩٥٥، شارك إلى جانب بن خدة في المناقشات التي جرت بين قدماء المركزيين وجبهة التحرير الوطني التي عرضت عليه مغادرة الجزائر وتمثيلها في العراق ثم في ليبيا. بعد النزاع بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وبن بلة

انسحب نهائيًا من المسرح السياسي، عاشور شرفي، المرجع السابق، ص٨٧.

(٣٢) يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص٤٦. وعكن أن نضيف إليهم علي ليماش وعمر أوصديق ومبروك بلحسين والصادق هجرس.

(٣٣) **بلقاسم راجف (١٩٠٩-١٩٨٩):** ولد المناضل في ١٩سبتمبر ١٩٠٩ بدوار أومالو (الأربعاء ناث إيراثن)، هاجر سنة١٩٢٤وفي أواخر ١٩٣٠ انخرط في حركة نجم شمال إفريقيا التي كانت في مرحلة التكوين على المستوى القاعدي وبعد ندوة ماي ١٩٣٣ عُين في المكتب السياسي للحركة رفقة مصالي وعمار أمعاش وسي الجيلالي وآكلي بانون، كان من مؤسسي حزب الشعب الجزائري الذي عقد مؤتمره التأسيسي في نانتير يوم ١١مارس ١٩٣٧، وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية تعاون مع الألمان طمعًا في خدمة استقلال الجزائر وكان يعد حصة إذاعية موجّهة للمهاجرين الجزائريين، استأنف النضال مع بوادر الهدنة وعمل مع عدد من المناضلين على إحياء حزب الشعب بفرنسا، التزم الحياد في خضم اشتداد الأزمة بعد الخلاف الحاد بين المصاليين والمركزيين وكان من الذين وجّهوا نداء إلى القاعدة بعنوان (نداء العقل) وهو النداء الذي حمل توقيعه، غير أن راجف وجد نفسه في نهاية المطاف مع المركزيين وقد حضّر مؤتمرهم بالجزائر في منتصف شهر أوت ١٩٥٤، ألقي عليه القبض في الحملة على المركزيين يوم٢٣ ديسمبر ١٩٥٤،ولم يفرج عنه إلا بعد سنتين وقد خرج من السجن وهو يعاني من مرض مزمن وبالرغم من ذلك لم يبخل على جبهة التحرير الوطني بماملك من خبرة ونصيحة ومعارف، عاد إلى بعد الاستقلال لإتمام رسالته النضالية في الأعمال الخيرية بقطاع الشؤون الاجتماعية وتوفي بالعاصمة في ٢٥ماي ١٩٨٩، انظر: محمد عباس، **رواد الوطنية شهادات ٢٨شخصية وطنية**، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٥، ص١٩،٢٠.

(٣٤) عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائرين من البداية ولغاية ١٩٦٢**، دار الغرب الإسلامي للطباعة، بيروت، ٢٠٠٠ ص٣١٩.

(٣٥) محمد حربي، المصدر السابق، ص٦٦

(٣٦) نفسه، ص ٦٦.

(٣٧) ثبت ذلك عندما اكتشفت رسالة موجهة من عمر أوصديق من السجن إلى صديقه "وعلي بناي" وبالتالي تم التعرف على محركي القضية ومفتعليها وثبت أيضًا تورط الحزب الشيوعي الجزائري وتواطئه مع هذه العناصر بالاتفاق والتنسيق مع مناضليه ومنهم "صادق هجرس". انظر التفاصيل في: يحي بوعزيز، **السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري (١٨٣٠-١٩٥٤)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥، ص ٤٧.

(٣٨) نفسه.ص٤٧

(39) Mahfoud Bennoune, Ali El Kenz, Le Hazard et l'histoire entretien avec Belaid Abedesselam, Alger, 1990, T1 P37,38.

(٤٠) **المنظمة الخاصة:** أطلقت عليها تسميات منها" المنظمة السرية العسكرية "أو " شبه العسكرية "، " الجناح المسلح "في حركة الانتصار، كما أطلق عليها اسم " العظم "، وكذلك تسمية " الشرف العسكري "، وهي تسميات مقبولة لكن تسميتها الصحيحة هي المنظمة الخاصة، وهذا استنادا للمناضل أحمد مهساس الذي يُعَدّ واحدًا من مسؤوليها فجعلها تتميز عن الحركة السياسية السرية التي يقصد بها حزب الشعب الجزائري. انظر: مومن العمري، المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٤١) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٤٢) عباس فرحات، **ليل الاستعمار**، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٥، ص١٥٩.

(٤٣) مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص ١٤٥.

(٤٤) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٤٥) نفسه، ص ١٢٩.

(٤٦) العمري مومن، المرجع السابق، ص ١٢٨.

(47) Mohamed Harbi, Op.Cit, P.40.

(٤٨) العمري مومن، المرجع السابق، ص١٩٤.

(٤٩) جيلالي صاري، محفوظ قداش، **المقاومة السياسية (١٩٠٠-١٩٥٤)**، ترجمة: عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص١٠٤.

(50) Mohamed Harbi, Op.Cit, p. 49.

(٥١) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص ٣٦٦. وكذلك: العمري مومن، المرجع السابق، ص ١٩٥.

(٥٢) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص ٣٦٦.

(٥٣) نفسه، ص ٣٧٣.

(٥٤) العمري مومن، المرجع السابق، ص ١٩٥-١٩٦.

(55) Mohamed Harbi, Op. Cit, P. 49.

(٥٦) العمري مومن، المرجع السابق، ص ١٩٦.

(٥٧) جيلالي صاري، محفوظ قداش، المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٥٨) نفسه، ص ١٠٣.

(٥٩) العمري مومن، المرجع السابق، ص ١٩٧.

(٦٠) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص ٣٧٦.

(٦١) **بن يوسف بن خدة (١٩٢٠-٢٠٠٣):** ولد بن يوسف بن خدة في ٢٣ أفريل ١٩٢٠ بمدينة البرواقية بدأ أول مراحل دراسته بمسقط رأسه ثم انتقل إلى البليدة ليتم المرحلة الثانوية وبعدها التحق بجامعة الجزائر بقسم الصيدلة. ناضل في صفوف الحركة الطلابية كما شارك في الكشافة الإسلامية الجزائرية والتحق بصفوف حزب الشعب الجزائري وفي أفريل ١٩٤٣ اعتقل وزج به في سجن الاستعمار لمدة ثمانية أشهر، وفي سنة ١٩٤٧ أصبح عضوًا في اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية وبعد اندلاع الثورة ألقي عليه القبض مع مجموعة من رفاقه وأطلق سراحه سنة ١٩٥٥ ثم اتصل به عبان رمضان ليصبح عضوًا في جبهة التحرير بالعاصمة ومساهمها في تحرير جريدة المجاهد، وعين بعد مؤتمر الصومام في لجنة التنسيق والتنفيذ ، وفي سنة ١٩٥٧ غادر إلى تونس وعين رئيسا لبعثة جبهة التحرير بلندن ثم وزيرا للشؤون الاجتماعية في حكومة فرحات عباس المؤقتة سنة ١٩٥٨ وخلفه سنة ١٩٦١ في ثالث حكومة مؤقتة بعد الخلاف الذي جرى في مؤتمر طرابلس. انسحب بن خدة من النشاط السياسي بعد أزمة صيف ٦٢، وفي سنة ١٩٨٩ أسس حزب الأمة ثم حل الحزب عند توقف المسار الانتخابي، وفي الرابع من فيفري سنة ٢٠٠٣ انتقل بن يوسف بن خدة إلى جوار ربه. كان معروفا بعمق التدين والتقوى وحب الوطن وسعة الثقافة والاهتمام بكتابة تاريخ الثورة والحركة الوطنية رحمه الله تعالى. كرمته السلطات الجزائرية بإطلاق اسمه على الجامعة المركزية بالجزائر. انظر: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، القرص المضغوط، المرجع السابق.

(٦٢) العمري مومن، المرجع السابق، ص١٩٨.

(٦٣) العمري مومن، المرجع السابق، ص ١٩٩.

(٦٤) نفسه، ص٢٠٠.

(٦٥) نفسه ص٢٠٠.

(٦٦) العمري مومن، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

قضية التعريب في الجزائر المستقلة من خلال الصحافة الوطنية

جريدة الشعب أنموذجًا (١٩٦٢ – ١٩٦٥)

غانم بودن
أستاذ مساعد التاريخ المعاصر
قسم العلوم الإنسانية –جامعة ابن خلدون
تيارت – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

تندرج قضية التعريب ضمن مخلفات الاستعمار الفرنسي في شقه الثقافي ذلك أن الجزائر خضعت سنة ١٨٣٠ لاستعمار استيطاني جعلها مقاطعة فرنسية، وشن عليها حربًا توسعية وإبادة روحية شملت مقوماتها اللغوية والدينية، فحارب الدين الإسلامي ومنع اللغة العربية من التعليم واعتبرها لغة أجنبية بهدف عزل الجزائر عن محيطها العربي الإسلامي، وبالمقابل فرض اللغة الفرنسية باعتبارها لغة الغالب فغدت هي اللغة الرسمية التي نشأ عليها من كان له حظ في التعليم من الجزائريين، وبقيت اللغة العربية تدرس على استحياء في المدارس القرآنية (الكتاتيب)، وبعد الاستقلال كان من الطبيعي أن تسترجع اللغة العربية مكانتها فطالب خريجو المشرق العربي من الجزائريين بتعميمها كمظهر لاستكمال الاستقلال وجعلها وسيلة البناء والتنمية، لكنهم اصطدموا بالمتخرجين من المدارس الفرنسية من الجزائريين الذين كانوا يسيطرون على الهيئات الإدارية بعد الاستقلال ويريدون استمرارية اللغة الفرنسية لتحقيق التطور، وللدفاع عن مواقفهم استخدم المعربون جريدة الشعب كمنبر للتعبير عن آرائهم وتوجهاتهم وحججهم حول ضرورة التعريب في الجزائر.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٠٣ أبريل ٢٠١٦
تاريخ قبـول النشـر: ١٧ يوليو ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
التعريب، اللغة العربية، القومية، التعليم، الهوية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052967

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
غانم نودن. "قضية التعريب في الجزائر المستقلة من خلال الصحافة الوطنية: جريدة الشعب أنموذجا (١٩٦٢ - ١٩٦٥)".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص١٥٩ – ١٧١.

مُقَدِّمَةُ

إن التعريب يكتسى أهمية كبرى في الجزائر المستقلة لأنه يمثل عودة لسانها وهويتها التي حرمت منها طيلة فترة الاحتلال الفرنسي الذي منع تعلّم وتعليم اللغة العربية واعتبرها لغة أجنبية وضيق على معلميها وحصرها في أمور العبادة فقط، ونظرًا لهذه لأهميته فقد احتل حيّزًا كبيرًا من النقاش بدأ منذ الاستقلال عام ١٩٦٢ وما يزال هذا النقاش محتدمًا إلى غاية اليوم بين التيار المعرب والتيار الفرانكفوني، وأردت من خلال هذا البحث التأصيل لظهور قضية التعريب لدى الرأي العام الجزائري في بداية الاستقلال في فترة حكم الرئيس أحمد بن بلة (١٩٦٢-١٩٦٥) من خلال أول جريدة ناطقة باللغة العربية بعد الاستقلال وهي جريدة الشعب[1] اليومية، وكانت النخبة المعربة محط أنظار الجماهير الشعبية في الدفاع عن مقوماتها خاصة اللغة التي تُجسّد الاستقلال الثقافي.

ومن خلال تصفح جريدة الشعب لاحظت تكرار عناوين مثل قضية التعريب، مشكلة التعريب، معركة التعريب، مستقبل اللغة العربية، التعريب ضروري لأمة عربية، وهذا ما يدل على وجود نقاش كبير في المجتمع الجزائري بشأن التعريب كانت الجريدة ميدانًا له وتتبعت تطوره لأكثر من عقدين، ونظرًا لكثرة المادة بحكم أنها جريدة يومية ارتأيت دراسة قضية التعريب من خلال الجريدة خلال الفترة (١٩٦٢-١٩٦٥)، فكيف رأى كتابها ضرورات التعريب ودواعيه؟ وما هو مفهوم التعريب في نظرهم؟ وما هي الحجج التي قدموها لخصومهم بشأن ضرورة التعريب؟

وفيما يخص الدراسات السابقة لموضوع التعريب فإنها قليلة رغم أهميته وذلك في بعض المجلات مثل "الأصالة" في السبعينيات، لكن لا توجد دراسة للرأي العام الجزائري حول قضية التعريب من خلال جريدة وطنية كالشعب التي لم يخل عددًا من أعدادها من مصطلح التعريب طوال الفترة المدروسة، وهذا ما يجعلها سجلاً حافلاً باهتمامات المجتمع الجزائري وحراكه الثقافي، ذلك أن الصحافة مرآة عاكسة لتطور المجتمع في جميع النواحي.

١-مفهوم التعريب في نظر كتاب الجريدة

إن التعريب في الجزائر اكتسى الطابع الوطني الرسمي بحيث لا يقتصر على مطالب فئة معينة في المجتمع وإنما شكل مطلبا وطنيا تقتضيه السيادة وتشارك فيه كل مكونات الشعب من طبقة سياسية ونخبة مثقفة وجماهير الشعب فهو يتطلب جهود الجميع لما فيه من مصلحة للهوية الوطنية دون إعفاء فئة وتحميل أخرى كل المسؤولية وفي هذا ورد مقال بتاريخ ٢٦-٠١-١٩٦٣ قائلاً: «إن التعريب قضية من قضايانا الوطنية الرئيسية التي يجب علينا أن نهتم بها وهو واجب نتحمله جميعًا».[٢] وهناك مَنْ يقرن التعريب باستكمال الشخصية المميزة للأمة مثل المرحوم رابح تركي الذي بين في مقال له بتاريخ ٠١-٠٦-١٩٦٣ بأن الأمم لا تستكمل شخصيتها إلا إذا عملت على بعث قوميتها حية متطورة بين قوميات العالم ومن أبرز مقومات القومية كما هو معروف اللغة والتاريخ والتراث الثقافي والحضاري[٣] فالجزائر استرجعت شخصيتها السياسية وحريتها المغتصبة سنة ١٩٦٢ لكن ذلك لم يشكل إلا جزءًا من السيادة الكاملة التي تشمل إضافة إلى الحرية السياسية الجوانب الفكرية واللغوية والحضارية وحرية الاختيارات.

كما فتحت الجريدة صفحاتها لأقلام من خارجها اهتمت بمناقشة موضوع التعريب خاصة المعلمين حيث يرى محمد عبد الرحيم أن التعريب يعني إزالة تلك السحنة الفرنسية التي علقت بالجزائر والتي كانت أكبر الآثار السيئة التي خلفها الاستعمار[٤] فقد أبقى الاستعمار على استمرارية وجوده في الجزائر المستقلة بضمان مكانة مهمة للغة الفرنسية من خلال ما جاء في اتفاقيات إيفيان ١٩٦٢ باسم التعاون الثقافي، والفني كما بقي الجهاز الإداري في مختلف المصالح الحكومية يتعامل باللغة الفرنسية وبقيت الشوارع والمدن الجزائرية تسيطر عليها الأسماء الجزائرية مما يمس بكرامة الشعب وتضحياته.

ونجد في رأي متقارب للمرحوم رابح تركي-وهو أكثر من تحدث عن التعريب في الجريدة-نشر في ٢٨-٠٥-١٩٦٤ مقالاً جاء فيه: «أن التعريب هو محافظة على كيان الشعب الجزائري الذي أهينت كرامته وقوميته زمنًا طويلاً»[٥] وتتجسد تلك المحافظة برد الاعتبار للغة العربية والتي من خلالها يتم رد الاعتبار للهوية والشخصية الوطنية. ويضيف شفيق عبد الرزاق السامرائي: «أن التعريب يعني إدخال الفكر العربي إلى أبناء الشعب الجزائري بما فيه من قيم وأن هذا الفكر يعتمد أساسًا على لغة القرآن الكريم الذي يعتبر بحد ذاته قمة الفكر العربي والمرجع الأصيل للغة العربية على مر العصور»[٦]، فاللغة العربية الفصحى لها خصوصية كونها لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فهي لغة توحد الشعوب الناطقة بها وتسهل التواصل بينها للاستفادة من منجزات التراث الحضاري العربي بحكم أنها ذاكرة الأمة تختزن فيها تراثها وقيمها وأصالتها.

ومن مشاركات المعلمين في الموضوع نجد ما نشرته الجريدة بتاريخ ٠٦-٠٣-١٩٦٥ حيث يرى أن التعريب تصحيح لأوضاعنا في عهد الاستعمار وإعادة المركز الحقيقي لشعبنا الجزائري في ركب الأمة العربية[٧]، فقد عانت اللغة العربية أثناء الاستعمار من الإبعاد والتهميش وحلت محلها اللغة الفرنسية تنفيذا للسياسة الاستعمارية في جانبها الثقافي لسلخ الجزائريين عن هويتهم حيث كتبت الجريدة مقالا بتاريخ ٢٧-١٢-١٩٦٢ بينت فيه أن الاستعمار طيلة مائة وثلاثين سنة لم يترك وسيلة صريحة أوخفية إلا واستعملها لانتزاع الجزائر من عروبتها وضمان فرنستها[٨]. وقد عبر المرحوم يحي بوعزيز في مقال له بتاريخ ٠٦-٠١-١٩٦٣ بأن الاستعمار حارب لغة الشعب القومية(العربية) بنفس العنف الذي نشر به الفكر الفرنسي واللغة الفرنسية[٩]، فكان من الواجب إعادة المكانة اللائقة لها بعد الاستقلال وكان من حق الشعب الجزائري التعلم بها والشعور بسيادته الثقافية من خلالها والتأكيد على هويته العربية، وقد ورد بتاريخ ١٤-٠٢-١٩٦٤ أفاد أن التعريب في الجزائر هو إعادة إلى إملاء السطر الفارغ بكلام عربي على صفحة الأرض العربية، وهو عودة الجزائر إلى إطار الفكر القومي الأصيل[١٠]

كما اهتمت الجريدة بنشر مختلف التقارير والدراسات الواردة عن الهيئات والمؤتمرات الخاصة بالتعريب كالمؤتمر الثالث للمعلمين العرب[١١] المنعقد بالجزائر في الفترة ما بين ٠٥ إلى ١٣ أوت ١٩٦٣ الذي بين أن مشكلة اللغة العربية في الجزائر قامت نتيجة لوضع غير طبيعي فرض عليها مدة قرن وثلث وما دام الاستعمار الفرنسي قد زال بفضل كفاح الشعب العربي الباسل بالجزائر فقد وجب أن تزول كل الآثار التي ترتبت عليه ومنها حلول لغة المستعمر محل اللغة القومية العربية[١٢] فالتعريب يرادف حل لمشكلة اللغة التي أوجدها الاستعمار بإزالة مخلفاته الثقافية بعد الاستقلال.

كما وضح المؤتمر نفسه أن التعريب في الجزائر ليس مجرد إحلال لغة محل لغة أخرى ولكنها مسألة حل لمشكلة أساسية هي مشكلة اللغة في الجزائر، تلك المشكلة التي أوشكت أن تعزل الشعب الجزائري عن لغته القومية وهذا من أخطر الأمور على شخصية أي شعب أو قوميته[١٣] فالتعريب في الجزائر لا يقوم على استبدال اللغة الفرنسية باللغة العربية فقط، وإنما هو أعمق من ذلك فهو يعيد للإنسان الجزائري هويته الثقافية التي ابتعد عنها مجبرا بسبب السياسة الاستعمارية التي عملت على فصله عن انتمائه وحضارته العربية من خلال حرمانه من لغته فتعلم اللغة العربية يتعدى إلى بناء الشخصية القومية التي دافعت عنها الجريدة كثيرًا فقد نشرت مقالا بتاريخ ٢٢-١٢-١٩٦٢ جاء فيه: «إذا كان شعبنا يريد استرجاع شخصيته كاملة

فإن اللغة العربية هي العنصر القومي الذي لا يزال ينقصنا ، والعنصر الفعال الذي سيلعب الدور الحاسم في اكتمال شخصيتنا القومية»[١٤].

والرأي نفسه عبر عنه مكتب الجامعة العربية الدائم للتعريب الذي نشرته الجريدة في عددها الصادر بتاريخ ١٢-١٠-١٩٦٣ حيث قال أن عملية التعريب في الجزائر تختلف شكلاً وموضوعًا عن عملية التعريب في أي قطر عربي آخر لأنها ليست قضية إحلال لغة عربية محل لغة فرنسية ولكنها أيضًا قضية بناء قومية وشخصية عربية فوق ذلك،[١٥] فالاستعمار الفرنسي عمل على هدم الشخصية الجزائرية من خلال محاربة مقوماتها المتمثلة في اللغة والدين والتاريخ وجعل لغته تكتسح المجتمع الجزائري لتغريب شخصيته وسلخه من انتمائه العربي لذلك كان التعريب مظهرًا لاستكمال الشخصية الوطنية واسترجاع الهوية العربية وتأكيدا لها، كما وضع مكتب الجامعة العربية الدائم للتعريب[١٦] تقريرًا نشرته الجريدة في عددها الصادر بتاريخ ١٢-١٠-١٩٦٣ وضح فيه وجهة نظر المسؤولين الجزائريين له: «بأن تكون اللغة العربية لغة التدريس والمخاطبة والتحادث ولغة تأليف الكتب المدرسية على اختلاف أنواعها وموادها وليس هو مجرد إدخال اللغة العربية في برامج التعليم كمادة قائمة بذاتها مع الاحتفاظ بالمواد الفرنسية الأخرى»[١٧].

فالتعريب هنا معناه جعل اللغة العربية أداة التعبير لأفراد المجتمع عن أفكارهم وعواطفهم ومعاملاتهم اليومية أي جعله لغة الحياة والعلم والعمل وبالتالي العودة إلى أصل الجزائر العربي ويتعدى عن إدخال اللغة العربية كمادة في برامج التعليم بينما تبقى المواد الأخرى تدرس باللغة الفرنسية فهذا إجهاض للتعريب.

٢-دواعي التعريب في رأي كتاب الجريدة

يرى كتاب الجريدة أن التعريب هو جعل اللغة العربية لغة الحياة في الجزائر وإدخالها في جميع التعاملات الرسمية والشعبية لتسريع ترسيخها في المجتمع وإعادته لطابعه العربي وتطويرها من خلال الاستخدام اليومي الذي به تبقى حية متطورة ملائمة للعصر ومستجداته. فالتعريب يؤدي لتطهير اللسان الجزائري من الكلمات الأجنبية الدخيلة عليه من مسميات للأشياء وأسماء للشوارع والمدن وبالتالي إعادة الكرامة للجزائر وشعبها وإعادة طابعها العربي إليها، وفي هذا كتب الأمين عبد العزيز بتاريخ ١٩-٠٢-١٩٦٤: «إن مَنْ يزور بلادنا اليوم ويلقي نظرة خاطفة على متاجرنا وشوارعنا فإنه لا يحس في نفسه أنه في بلد عربي حر نظرًا لما يشاهده من كتابات باللغة الفرنسية بالشوارع والمحلات التجارية، وما يسمعه أيضًا في الشوارع والمقاهي من تخاطب المواطنين باللسان الفرنسي»[١٨]. وقد عبر تركي رابح في مقال له بتاريخ ٣٠-٠٤-١٩٦٤ عن هذا الوضع بقوله: «إذ من العار أن تبقى أسماء الجنرالات والكولون (المعمرون الأوربيون) الذين كانوا سيفًا مسلطًا على رقاب شعبنا تحتل شوارع مدننا وميادينا، وكذلك بعض القرى والأحياء الهامة في جميع أنحاء القطر»،[١٩] فقد أثرت اللغة الفرنسية كثيرًا على لسان الجزائريين نظرًا لتهميش اللغة العربية الفصحى فدرج لسانهم على مزيج من التراكيب اللغوية أغلبه كلمات فرنسية حاولت الجريدة إزالتها تدريجيا بتخصيص مجال فيها يترجمها إلى اللغة العربية بعنوان "تطهير لغة التخاطب بيننا من الكلمات الأجنبية.[٢٠]

واستمر تركي رابح في توضيح دواعي التعريب في الركن الذي يشرف عليه في الجريدة "التعليم والتعريب" حيث كتب في ٢٨-٠٥-١٩٦٤: «بأن دعوتنا تقوم على أساس الدفاع عن الذات وعن الكيان الخاص في وجه الأخطار الأجنبية الزاحفة علينا خاصة الكامنة في النفوس كالرواسب الموجودة لدى طائفة من الجزائريين ممن نشأوا وترعرعوا في أحضان الاستعمار الثقافي والفكري الأجنبي»،[٢١] فالتعريب يؤدي لخلق الاعتزاز بالهوية والثقافة الوطنيتين من خلال الاعتزاز باستعمال اللغة العربية باعتبارها جزء من ميراث تاريخنا الاجتماعي والوطني[٢٢] لتجنيب الأمة خطر الانحلال والانهيار من الداخل والذوبان في الكيانات الأخرى الأجنبية التي تتأثر بلغتها وثقافتها فيمكن القول بأن اللغة الأجنبية في هذه الحال هي حصان طروادة. ويضيف تركي رابح في مقال آخر بأن بقاء اللغة الأجنبية خاصة في التعليم معناه أن تنشأ أجيالنا الصاعدة على الولاء لمصدر ثقافتها، ومنبع غذائها الفكري والروحي، وهو الثقافة الفرنسية والآداب الفرنسية، والعلوم التي درستها باللغة الفرنسية[٢٣].

وتتجسد مظاهر هذا الولاء للثقافة الفرنسية في أن التيار المفرنس لا يرى عيبًا في استمرارية اللغة الفرنسية بعد الاستقلال، وفي غياب مسألة الهوية عنده بحكم ثقافته الأجنبية، لذلك فالتعريب كفيل بتفادي هذه النتيجة. حيث يضيف في نفس المقال بأن المثقفين ثقافة فرنسية عند مناقشة قضايا التعريب يتساءلون: لماذا هذا الإلحاح في الدعوة للتعريب؟ أليس من الأجدى للوطن أن نجعل اللغة الفرنسية وسيلة للنهوض به في شتى المرافق الحيوية؟ وما يضرنا في ذلك؟ ألم نصبح دولة مستقلة في كل الميادين[٢٤] وكتبت جريدة المجاهد الأسبوعي في مقال لها بتاريخ ١٤-٠٣-١٩٦٣: «إن اللغة لها تأثيرها الفعال في الفرد فالمثقف منساق انسياقا لا شعوريًا إلى التأثر بثقافة اللغة التي يتقنها وبطريقة تفكير مجتمعها ، فالمثقف ثقافة فرنسية بحتة بالجزائر الذي يقرأ الكتاب الفرنسي، ويطالع أنباء وطنه من الصحافة الفرنسية، ليس من الغريب أن نراه يفكر تفكيرا فرنسيا ويفسر الأحداث في وطنه تفسيرًا فرنسيا، ويحاول إيجاد حلول فرنسية لمشاكله».[٢٥]

والمعنى نفسه عبرت عنه فاطمة عبد الله في مقال لها بتاريخ ٠٢-١٢-١٩٦٣ حيث بينت أن التعريب يجنبنا خطر الاستعمار الفكري الذي هو أخطر بكثير من الاستعمار العسكري لأنه يوجه ضربته للعقول بدلا من الأجساد، إذ أن فرنسا لم تنفض يدها من المعركة، لقد اتخذ سلاحها شكلاً آخر، إنه لغتها وثقافتها[٢٦] .فاللغة قطار الثقافة والإنسان يوالي مصدر ثقافته، فالمتعلم باللغة الأجنبية ينشأ أجنبيًا عن قوميته ويعمل في غير صالحها بحكم تأثير ثقافته الأجنبية، وفي هذا المعنى كتب أحمد على الغزالي في ١٠-٠٨-١٩٦٣ بمناسبة انعقاد مؤتمر المعلمين العرب

بالجزائر: «إن قرنا ونيفا من الاستعمار في الجزائر لا يمكن أبدا أن يمر هكذا سدى دون أن يترك آثارًا في حياتنا الثقافية والاجتماعية، ولهذا فمهمة مؤتمر المعلمين العرب هي إزالة هذا الصدأ الذي تراكم على مر الأيام على قلب بلادنا حتى كدنا أن نفقد شخصيتنا لولا إيمان هذا الشعب بعروبته وتاريخه».[٢٧] فالاستقلال لا يقتصر على الخروج المادي للاستعمار فقط، أي استقلال سياسي وإنما هو أوسع من ذلك حيث يشمل كل نواحي الحياة، وهو تأكيد للسيادة ووسيلة للتحرر والتحضر وهذا ما يوضحه حديث نقلته الجريدة على لسان محمدي السعيد[٢٨] النائب الثاني لرئيس الجمهورية بتاريخ ٠٥-٠٦-١٩٦٤ قال فيه: «والجزائر المستقلة ينبغي لها أن تسترجع استقلالها الثقافي واللغوي، وباستعمالنا للغتنا سوف نحقق أكبر أمنية لهذا الشعب الذي يصبو إلى الاحتفاظ بشخصيته في هذا البلد، يجب إذن القيام بمهمة نبيلة وبواجب ضروري هو تعليم لغتنا ونشرها في الإدارة وفي الشارع والبيت».[٢٩]

وكتبت الجريدة في عددها الصادر يوم ٠٨-٠١-١٩٦٤ بأن التعريب يؤدي إلى خلق جيل وطني لتحقيق الأهداف الوطنية موحد الاتجاهات العلمية والفكرية والعقلية تجاه القضايا الوطنية العليا، دون أن تؤثر فيه العوامل الخارجية التي لا تتلاءم مع فائدة بلاده المقدسة، وبهذا يمكن استكمال السيادة التي تتطلب الاستقلال السياسي والاقتصادي والثقافي، وإذا اختل شرط من هذه الشروط تعتبر تابعة لغيرها، وإذا كانت تابعة لغيرها تسير في اتجاه معاكس لرغبتها.[٣٠] كما أن التعريب يؤدي إلى رد الاعتبار للغة العربية في الجزائر المستقلة بعد معاناتها من الاستعمار الذي اعتبرها لغة أجنبية في عقر دارها، لذا وجب العمل على إعطائها المكانة اللائقة وهذا ما عبر عنه محمدي السعيد في كلمته الافتتاحية لمؤتمر السفراء العرب بالجزائر ١٩٦٣ حيث قال: «إن الجزائر دولة عربية ولغتنا الوطنية هي العربية، ويجب أن تستعيد العربية مكانتها عندنا من جديد، تلك المكانة التي احتلتها في العالم لعدة قرون».[٣١]

والمعنى نفسه عبر عنه ابن العربي في مقال نقلته الجريدة بتاريخ ١٤-١٢-١٩٦٢ حيث ورد فيه: «إن القالب الذي يصوغ فيه مجتمعنا الجزائري ثقافته الوطنية هو اللغة العربية وقد اختار هذه الأداة التعبيرية ليجعل منها وسيلته الوحيدة لتقرير حضارته»[٣٢]، وأضاف مؤكدًا الهوية العربية للجزائر ومعبرًا عن أمله وأمل الجزائريين: «إننا مجتمع عربي لنا تقاليدنا وعاداتنا وطريقتنا في التفكير، إن شخصيتنا القومية تتكون من اعتزازنا بلغتنا الوطنية وديننا الحنيف وبتاريخنا المجيد وبالقيم الثقافية التي تتجاوب مع أصالتنا، إننا نريد مجتمعا يتكلم لغته ويتعلم تاريخه ويمارس عاداته وتقاليده».[٣٣]

٣-دواعي التعريب في التقارير التي نشرتها الجريدة

لقد رصدت الجريدة مختلف التقارير والدراسات التي تطرقت لموضوع التعريب ونشرتها عبر صفحاتها لتوضيح أهمية الموضوع أكثر من خلال هذه التقارير التي أعطته بعدا قوميا اهتمت به الدول العربية والجامعة العربية. ومن بين الهيئات العربية التي أخذت على عاتقها مهمة تطوير آليات التعريب على المستوى العربي مؤتمر المعلمين العرب الذي احتضنت الجزائر دورته الثالثة من ٠٥ إلى ١٣ أوت ١٩٦٣ والتي خرجت بتوصيات مهمة، فقد اعتبر المؤتمرون أن اللغة العربية وعاء الثقافة العربية الإسلامية[٣٤] وبالتالي فمعرفتها ضرورية لفهم الثقافة العربية بكل روافدها الفكرية والفنية والحضارية، ولا نستطيع الوقوف على كنوز الفكر العربي من شعر ونثر وفلسفة وتاريخ وعلوم وحكمة إلا إذا أتقنا اللغة العربية التي هي مفتاح هذا الفكر، فاللغة تتعدى أن تكون وسيلة للتبليغ والاتصال فقط، فهي أداة للثقافة ووعاء لحضارة الأمة.

وأضاف المؤتمر بأن التعريب يساعد على فهم أمور الدين الإسلامي فهمًا صحيحًا، إذ أن اللغة العربي لغة القرآن الكريم ولغة الحديث النبوي الشريف، ولذلك فهي من أهم الأدوات لفهم الدين الإسلامي الحنيف ولا يستطيع شعب متمسك بإسلامه أن يتهاون في أهم أدوات فهمه لدينه وهي اللغة العربية.[٣٥] كما تبنى المؤتمر فكرة الوحدة القومية العربية بتثبيت اللغة العربية في الجزائر مما يؤدي لوحدة التوجه بين الشعوب العربية حيث نقلت الجريدة عنه: «إن اللغة العربية هي المقوم الأساسي للقومية العربية نظرا لأثرها الفعال في توحيد الأفكار والعواطف بين الشعب العربي، وبالتالي تربط الجزائر بالأقطار العربية بعد أن كان محرومًا من ذلك من خلال حرمانه من لغته»[٣٦]، فقد اجتهد الاستعمار محاولاً فصل الجزائر عن بقية الوطن العربي وتشويه التاريخ المشترك بالادعاء بأن الفتح الإسلامي هو غزو عربي للجزائر، كما منع الاستعمار دخول الصحف العربية للجزائر باعتبارها صحفًا أجنبية عن الجزائر.

ويرى المؤتمر أن التعريب يؤدي إلى إزالة آثار الاستعمار ومن أهم هذه الآثار مشكل اللغة حيث قام الاستعمار بفرض اللغة الفرنسية على الجزائريين مدة قرن وثلث، وإحلالها محل اللغة القومية العربية[٣٧] فالمدة الطويلة للسيطرة الاستعمارية على الجزائر أثرت عليها سلبا وبقيت لما بعد الاستقلال، حيث استمرت هيمنة اللغة الفرنسية على معظم أجهزة الدولة وهياكلها الإدارية وحتى في الحياة الاجتماعية. بالإضافة إلى هذا فقد نشرت الجريدة أيضا بعض تقارير مكتب الجامعة العربية الدائم للتعريب الذي اهتم بمتابعة المشاكل التي تواجه التعريب في الجزائر المستقلة في جميع المجالات من خلال إرسال وفد زار الجزائر بين ١٥ و٢٤ أوت ١٩٦٣ وقد بين التقرير أن التعريب في الجزائر يختلف عن أي بلد آخر، فهو يتعدى كونه مجرد إحلال اللغة العربية محل اللغة الفرنسية، وإنما يؤدي لبناء القومية والشخصية العربية للجزائر،[٣٨] فالتعريب هنا مطلب حيوي وضروري لإعادة بناء الشخصية الوطنية لأن الجزائر كانت مقاطعة إدارية فرنسية تطبق فيها القوانين الفرنسية وفي كل المجالات لأجل تجريد الجزائر من عروبتها ومن دينها كأبرز مقومات شخصيتها عكس باقي المستعمرات العربية التي

خضعت للحماية والانتداب فهي لم تتعرض لمعاول الهدم الحضاري.

٤-حجج أنصار التعريب

قام أنصار اللغة العربية عبر صفحات جريدة الشعب بالرد على المناهضين للتعريب والتأكيد على علمية اللغة العربية ودورها الحضاري، وقدموا لذلك حجج بيّنت ريادة اللغة العربية عبر التاريخ في جميع المجالات.

١/٤-اللغة العربية لغة علم وحضارة

ادعى بعض الجزائريين وغيرهم بأن اللغة العربية ليست بلغة العلم والتطور، وهذا ما كانت تقوله المدرسة التاريخية الاستعمارية، لذلك تضمنت الجريدة مقالات ومواقف أثبتت علمية اللغة العربية ودورها البارز في الحضارة الإنسانية.

وفي هذا المجال أوردت الجريدة تصريحا لوزير التربية الجزائري عبد الرحمان ابن حميدة[٣٩] بتاريخ ٢٧-٠٥-١٩٦٣ جاء فيه:« أما لغتنا العربية فلم تخلق عاجزة، لكن الاستعمار أرادها كذلك، ولا الأفق الواسع ينقصها، ولكن الاستعمار جعلها كذلك، ولا الأداء المعبر يعوزها، ولكن الاستعمار أخرسها، وإلا فلنرم النظرة بعيدا إلى المشرق العربي فهل عاقته اللغة العربية الرسمية في الدوائر الحكومية، والمقررة في المعاهد والكليات العملية والعلمية منها، هل عاقته اللغة العربية عن التطور؟ عن مسايرة ركب الحضارة؟ هل عاقته اللغة العربية في أن يأخذ مكانه في مصاف الأمم المتحضرة؟».[٤٠]

إن هذا التصريح كان ردًا على الذين اتهموا اللغة العربية بالعجز عن مسايرة التطور، فاللغة العربية واسعة الأفق ولا تعرقل التطور والحداثة حيث قال رابح تركي في مقاله "من معاركنا العاجلة، معركة التعريب": «إن الدول التي أنهت عملية التعريب لم تنفصل قط عن حركة التطور العالمي في ميدان العلوم أو التكتيك أو الصناعة أو الثقافة كمصر-سوريا، وهي تساهم كغيرها من دول العالم في كل مجالات النشاط الثقافي الدولي وكذلك في حركة التطور الفكري العالمي بشهادة منظمة اليونسكو»[٤١]. وفي رد آخر على متهمي اللغة العربية بالعجز ورد في مقال بعنوان "مكانة العربية بين اللغات" أكد أن اللغة العربية ملأت فراغ اللغات الأخرى ولا سيّما الأوربية، ودخلت ألفاظ كثيرة منها في هذه اللغات لعجزها وقصورها، ومن هذه الألفاظ التي لا تزال مستعملة في اللغات الأجنبية كأسماء لها دلالتها العلمية في ميدان علم الكيمياء نجد: الإكسير، الكحول، الزرنيخ وغيرها.[٤٢]

ونظرًا لهذا فالأجانب يحبون اللغة العربية ويعترفون بدورها العلمي عليهم وهذا ما أكده سليمان بورنان في مقال له بتاريخ ٢٧-١٢-١٩٦٣ حيث كتب: «إن الأجانب يحبون لغتنا وثقافتنا، يحبونهما اعترافًا منهم بفضلهما ودورهما الحضاري في رقي الإنسانية وبما تتضمنه هذه اللغة من تراث إنساني ضخم أذهل الدنيا وما يزال يشغل أفكار عباقرة العالم حتى الآن فالثقافة الرفيعة الأصيلة خالدة لا تفنى، واللغة الملهمة الفسيحة تحمل في ذاتها مقومات وجودها، وهي من أجل ذلك لن تبيد، وعنصر الأصالة في كل لغة يعبر دائمًا عن أصالة مبدعيها والمفكرين به، وهذا ما حدا بالأجانب إلى تعلم اللغة العربية ودراسة الحضارة الواسعة بشغف».[٤٣]

وفيما يخص دور اللغة العربية في بناء الحضارة الإنسانية بمختلف مجالاتها فقد تحدث عنه بإسهاب الأستاذ عبد المالك مرتاض في سلسلة مقالات نشرت في سبعة أعداد بعنوان "دور الثقافة العربية في بناء الحضارة الإنسانية" حيث أكد في العدد الأول الصادر بتاريخ ١٩-٠٦-١٩٦٤ بأن «اللغة العربية كانت حاضرة في كل الميادين، فقد اضطلعت بأدوار كبيرة في شتى أصناف العلوم العقلية والإنسانية، فنجد الكاتب مصطفى الرافعي[٤٤] في كتابه "حضارة العرب" يشير إلى الطبيب العربي ابن سينا،[٤٥] ويقول بأن كتبه نقلت إلى أكثر لغات العالم، وظلت مرجعًا عامًا للأطباء وأساسًا للمباحث الطبية في جامعات فرنسا وإيطاليا طوال ستة قرون، ولم ينقطع أطباء جامعة مونبلييه عن شرح نظرياته وتدريس كتبه إلا منذ أقل من قرن».[٤٦]

وللتأكيد أكثر يحيلنا نفس الكاتب على كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب" للألمانية سكريد هنك[٤٧] الذي أوردت فيه أن كلية الطب بباريس كانت منذ ستمائة عام تمتلك أصغر مكتبة في العالم، كان بها كتاب واحد، ولم يكن هذا الكتاب إلا لمؤلف عربي، وكان الملك لويس الحادي عشر[٤٨] يرغب في أن يرجع أطباؤه إلى هذا الكتاب كلما ألمّ به مرض ما، فمن هو صاحب هذا الكتاب؟ إنه أبوبكر بن زكريا الرّازي[٤٩]، أما كتابه الذي كان يدرّس بكلية الطب بباريس فهو "الحاوي"، وقد ترجم إلى اللاتينية تحت عنوان "كونتينينس"[٥٠].

كما يضيف في عدد آخر صادر بتاريخ ٢٦-٠٦-١٩٦٤ أن ابن هارون الترجالي[٥١] أول مَنْ علل الدورة الدموية في تاريخ الطب في كتابه "الكليات"، والزهراوي[٥٢] الذي قال عنه الغرب أنه أعظم طبيب في الجراحة العربية وقد اعتمده واستند على بحوثه جميع مؤلفي الجراحة طوال القرون الوسطى[٥٣]، وبعد سرده لمنجزات الثقافة العربية حمّل الأستاذ عبد المالك مرتاض العرب مسؤولية العجز والتأخر حيث توجّه مخاطبا خصوم اللغة العربية في العدد الثاني من دراسته بتاريخ ٠٣-٠٧-١٩٦٤: «إن العربية اخترعت وقادت أممًا، ونشرت علومًا، وبنت حضارات، والإنسانية مغرقة في جهل رهيب، أليست اليوم بعد كل هذا بقادرة على أن تنهض بدورها خير نهوض، فما عربيتنا بعاجزة عن أن تسع العلوم، وإنما نحن هم العاجزون، ولم نكن نحن عاجزين حتى عجّزنا الاستعمار، ولم يعجزنا الاستعمار حتى كنا منحلي الصفوف».[٥٤]

كما نجد أحمد علي الغزالي متفقا مع هذا الرأي وأرجع العجز إلى الأمة العربية وليس للغة العربية عندما كتب في ١٢-٠١-١٩٦٣ بأن تأخرنا عن الركب الحضاري لا يرجع إلى اللغة العربية كما يريد المثقفون باللغة الأجنبية أن يظهروه لنا، وإنما لتأخر الأمة وانحطاط حضارتها في العصور الحديثة، وبعبارة أخرى إن اللغة العربية هي ضحيتنا ولسنا ضحاياها كما يحاول الاستعماريون الجدد أن يبيّنوه، فقد كانت هذه اللغة التي تُتّهم اليوم بالعقم هي لغة العلم في العصر العباسي، ويزال كثير من

الكلمات الفرنسية العلمية مرجع أصلها إلى اللغة العربية(٥٥). فاللغة العربية أثبتت وجودها منذ القدم كلغة لمختلف العلوم العقلية والإنسانية وفاق صداها الحدود العربية، وكانت السباقة إلى إحداث نهضة علمية متطورة جدًا في العصور الوسطى ومنها استلهمت أوربا عوامل نهضتها العلمية، وقد بين هذا المعنى الأستاذ عبد المالك مرتاض في مقاله السابق حيث كتب: «فإذا كانت العربية لغة الأدب والشعر الجميل، فإنها أيضًا لغة الجبر والكيمياء والفيزياء والطب والصيدلة والفلسفات والعلوم !... وكيف تعجز العربية عن هذه العلوم بعد أن غذّتها ونمتها أمدًا طويلاً؟! هيهات»(٥٦). وتساءل في العدد الرابع الصادر بتاريخ ٢٤-٠٧-١٩٦٤ قائلاً: «إن العربية وسعت جميع العلوم التي عرفتها الإنسانية في العصور الوسطى، وأنها هضمت كل ما كان لدى اليونان والفرس والهند من ذخائر حضارية، فهل تعجز اليوم عن نقل ما لدى الغرب بعد أن نهضت بما نهضت به خلال أعصار التاريخ؟»(٥٧).

وفي هذا الصدد نشرت الجريدة بحثًا من بحوث المؤتمر الثالث للمعلمين العرب المنعقد في الجزائر في الفترة ما بين ٠٥ إلى ١٣ أوت ١٩٦٣ والذي تطرق إلى علاقة اللغة العربية بالعلوم الحديثة حيث ورد فيه: «لقد ثبت أن الذين زاولوا صناعة الطب والصيدلة من العرب كثيرون، أودعوا خبراتهم ومعلوماتهم مؤلفات قيمة اتخذها علماء الغرب لهم أساسًا بنوا عليه مجدهم في الحضارات الحديثة، لقد عرفوا التشريح والدورة الدموية وطب العيون، كما لم تصبح الكيمياء علمًا صحيحًا إلا بجهود علماء العرب ونزعتهم العلمية، وكان الحسن بن الهيثم(٥٨) أول مَنْ درس الضوء من حيث الانعكاس والانكسار والتفرق، ووضع النظريات العلمية التي كانت الأساس السليم لدراسة البصريات، والعرب هم الذين وضعوا علامة الكسر العشري»(٥٩).

٢/٤-العربية لغة القومية والشخصية والهوية

إن أي لغة هي تعبير عن هوية وانعكاس لثقافة مستعمليها وحضارتهم بكل روافدها فالتحدث باللغة القومية فيه حفاظ على الشخصية من الذوبان في القوميات الأخرى وحفاظ على الشعور بالانتماء القومي. ترى الجريدة أن اللغة أكثر من مجرد وسيلة للتفاهم والتخاطب، وأنها أصبحت عبر عصور التاريخ وعاء الحضارة الأول، اللغة معناها تراث وتاريخ وشخصية قومية متميزة، اللغة معناها انتماء إلى جذور معينة، وقد كان الاستعمار يدرك هذا قبل أن ندركه ولذلك كانت هجماته على اللغة العربية ومحاولاته لتدميرها وتحطيمها(٦٠).

ذلك أن اعتماد لغة أجنبية في التعليم والتعامل يؤثر سلبًا على المتحدثين بها حيث تدخلهم في فضاء فكري وثقافي أجنبي عنهم وبالتالي ضياع لغتهم وهويتهم وكان المرحوم تركي رابح أبلغ من عبر عن هذا في مقال له بتاريخ ٢٥-٠٦-١٩٦٤ جاء فيه: «اللغة ليست وسيلة للتعبير فحسب، ولكنها قبل كل شيء تعبير عن حضارة وفكر ومفهوم خاص عن الحياة، وفلسفة خاصة تترجم عن عقلية وروح أصحابها، لذلك فكل شعب يترك لغته ويستعمل لغة أجنبية عنه في التعليم والإدارة وغيرهما فإنه سرعان ما يجد نفسه بعد جيلين أو ثلاثة أجيال على الأكثر قد انسلخ عن قوميته وتراثه التاريخي، وذاب في كيان الشعب الذي تعلق بلغته وثقافته دون أن يشعر بذلك»(٦١).

وللتدليل أكثر على أن اللغة ليست مجرد وسيلة تعبير فقط هو ما حدث لجيل فترة الاستعمار الذي تثقف باللغة الفرنسية من تمزق فكري وابتعاد عن ثقافته الوطنية وجهله لها مما أدخله في حيرة عبر عنها سليمان بورنان في سلسلة مقالات بعنوان "الثقافة العربية وأزمة الجيل الحائر "منها ما ورد بتاريخ ٢٧-١٢-١٩٦٣ حيث كتب: «إن جيل فترة الاستعمار جيل هجين، مشوه، فاقد لمميزات قوميته وشخصيته الأساسية، فالاستعمار يعمد دائمًا لخلق جيل ممسوخ حائر، ممزق، مشدود بالحضارة الغربية، مبهور بأسخف ما فيها من ترهات وخزعبلات دون أن يثقفه ثقافة غربية حقيقية، ودون أن يتيح له الفرصة أيضًا لتعلم لغته والاتصال بثقافته وحضارته... فلا عجب بعد ذلك إذا ما وجدت إنسانا يفكر ضمن أطر وقوالب غربية وضعت وفق مخطط سابق بعيدًا عن اهتماماته وظروفه وهذا ما أحسه مالك حداد(٦٢) بعمق واكتوى بناره من سنين»(٦٣).

إن هذا التمزق جعل أفراد هذا الجيل الذي لم يتكون باللغة الوطنية القومية يعيش حيرة وأزمة نفسيتين لإحساسهم ببعدهم عن واقعهم وواقع مواطنيهم، فبعض الكتاب يكتبون باللغة الفرنسية لقراء جزائريين معربين بعد الاستقلال وهذا ما جعلهم يعيشون في حيرة ومنهم من توقف عن الكتابة باللغة الفرنسية التي اعتبرها منفى له ليحاول العودة إلى أحضان الثقافة الوطنية كمالك حداد، حيث يضيف سليمان بورنان معبرًا عن حاله: «أطلق مالك حداد صيحة مدوية ملء صدره يشهد بها التاريخ والعالم على مأساة جيل بأسره: أنا سجين واللغة الفرنسية هي سجني الرهيب ومنفاي الأخير، أجل أنا منفي ونحن جميعًا غرباء، ولسنا سوى حبة أسبرين مسكنة سيتلاشى مفعولها بالتدريج، وسنفقد كلنا مبرراتنا بعد حين»(٦٤).

إن التبعية اللغوية تؤثر سلبًا على أصحابها بخلق هذه الحيرة بين الانتماء القومي والانتماء الثقافي، فارتباطهم باللغة الأجنبية يفصلهم عن أوطانهم، وهذا ما يوضح أن اللغة أكبر من أن تكون وسيلة اتصال فحسب، بل هي وسيلة لبناء الهوية والفكر. وفي هذا كتب محمد بن الشريف في مقال له بعنوان "شخصية الجزائر العربية" بتاريخ ١٣-١٢-١٩٦٣: «أن الاستعمار سلبنا وسيلة التعبير عن فكرنا، فأزمتنا في الجزائر هي أزمة تعبير بلغتنا القومية التي هي الوسيلة الطبيعية والأداة الحقيقية التي يعبر بها شعبنا العربي في جميع أقطاره عن روحه وفكره عن ومشاكله وهمومه»(٦٥)، ووصف تركي رابح ضحايا التمزق الثقافي في مقال بتاريخ ٣٠-٠١-١٩٦٥ بقوله:« إن هؤلاء الأشخاص هم في الواقع ضحايا أكثر منهم متجنون؛ هم ضحايا ظروف شاذة نشأوا فيها وترعرعوا في أحضانها وطبعوا بطابعها العنيف الذي لم يستطيعوا الفكاك منه، لأنها استحوذت على عقولهم ونفوسهم استحواذا كليا، فهم إذا يعانون تمزقا رهيبا في شخصياتهم، وغربة قاتلة في أوطانهم وبين شعوبهم، كما يعانون انقساما رهيبا كذلك في الولاء بين وطنهم الذي يعيشون فيه وما يعنيه الوطن

للمواطن الصالح الصادق من قيم وحضارة وشخصية متميزة ولغة قومية، وبين مصدر ثقافتهم وتفكيرهم وهي ثقافة ولغة المستعمر التين يدافعون عنهما».[٦٦]

وعن دور اللغة في تكوين الشخصية كتب تركي رابح مقالاً في ٣٠-٠٤-١٩٦٤ جاء فيه: «إن تعلم ثقافة ما ليس تأثيره قاصرًا على التحدث بلغتها فقط، ولكنه يتغلغل إلى التشكل بها في التفكير والسلوك الاجتماعي والعادات والتقاليد والإعجاب بتاريخها وأشخاصها واتجاهها العام».[٦٧] إن الاستعمار ترك بعد خروجه صدوعًا في البنية الثقافية للجزائريين الذين درسوا باللغة الفرنسية واتخذوها مصدرا للثقافة ومنهجا في الحياة مما أثر على شخصياتهم وهوياتهم فناصبوا اللغة العربية العداء وانتقدوا دخولها التعليم وعودتها إلى مكانتها الطبيعية، فقد كشف سليمان بورنان في نفس المقال السابق عن وجود حرب ضد اللغة العربية من طرف هؤلاء عندما قال: « إن اللغة العربية تعاني عنتاً وإرهاقًا من طرف المتفرنسين من بعض الجزائريين الموتورين والمسجونين خلف قضبان الحرف اللاتيني، حتى لا تكاد تجد بينهم من يحمل بين جنبيه ولو ذرة من إيمان بأصالة وقيمة هذه اللغة ودورها الحضاري في ترقية وتقدم الانسانية...لماذا لا يكف هؤلاء عن التشهير والتنديد بها ومحاربتها بشتى الطرائق والوسائل، لا لشيء إلا لأنهم يجهلونها».[٦٨]

والرأي نفسه عبر عنه أحمد علي الغزالي في مقال له بتاريخ ٢٩-١٢-١٩٦٢ بقوله: «لم يستطع بعض الجزائريين أن يتخلصوا من الرواسب والسموم التي بثها الاستعمار فيهم فاعتقدوا أنها صحيحة، وراحوا يتهمون كل من يخالفهم الرأي بالعاطفة والتحيز، إن هذه العقلية توجد عند نخبة كبيرة مثقفة في بلادنا يساهم بعض منها في الحكم، إن هذه النخبة تستطيع أن تطبق في الجزائر برنامجًا استعماريًا لم تستطع فرنسا لمدة قرن ونيف أن تصل إلى تحقيقه نظرًا لمعارضة الشعب، وبعبارة أخرى إنهم يخدمون الاستعمار ولغته وثقافته سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا»[٦٩]، وأضاف في مقال آخر بتاريخ ٢٢-٠٦-١٩٦٣: «هناك بعض الجزائريين لم يستطيعوا إلى الآن بعد الاستقلال أن يتحرروا نهائيًا من رواسب الاستعمار الثقافي، تلك الرواسب التي كان يبثها المستشرقون طوال قرون للتشكيك في حضارتنا وقيمنا الاجتماعية».[٧٠]

وكتب محمد بن الشريف في مقال آخر بتاريخ١٧-٠١-١٩٦٤: «كما قيل لنا أن مبادئ بسيطة بالفرنسية أحسن وأولى من التبحر في العربية، وقد نجح الاستعمار إلى حد ما في بث هذا النوع من العقد الخطيرة لدى بعض شبابنا، وأخذوا ينظرون إلى لغتهم الأصلية بعجرفة وكبرياء وهكذا رأينا كيف نشأت أزمة التعبير في الجزائر وكيف كان لعامل الزمن تأثير كبير فيما قاسته ثقافتنا العربية من تشويه وحرمان ما لاقاه أهلها من استخفاف واحتقار»[٧١]، وفي مقال آخر عن معاداة اللغة العربية كتبت الجريدة في ١١-٠٤-١٩٦٣: «إن اللغة العربية هي منطلق ثقافتنا لم تزل في مدارسنا تعاني مثلما بالأمس من الغربة واللامبالاة، بل هي الآن تئن تحت ضغط المديرين الفرنسيين - ومن في حكمهم من غير الفرنسيين - وتختنق ضمن المناهج ذات الروح والقالب الفرنسي»[٧٢] ومن مظاهر التمزق الثقافي لدى المتفرنسين مناداتهم بتأخير عملية التعريب لأن التسرع يؤدي إلى نتائج عكسية في نظرهم وبالتالي إطالة عمر اللغة الفرنسية في الجزائر فقد كتبت (El moudjahid) جريدة المجاهد بتاريخ ٠٢-٠٣-١٩٦٣ «أن التعريب الشامل ليس أمرًا واقعيًا»[٧٣].

كما دعا مصطفى الأشرف[٧٤] إلى نفس الفكرة وقد رد عليه سليمان بورنان حيث وصفه بقوله: «إن الأستاذ الأشرف ما يفتأ يحارب فكرة التعريب، كما يحاول إبعاد اللغة العربية عن حياتنا ما أمكنه، أو على الأقل تأخيرها وتعطيلها ولو مؤقتًا، وفي المقابل يحاول أن يطيل من عمر اللغة الفرنسية، واضح أن تفكير الأستاذ الأشرف يعبر عن موقف هروبي مأساوي، وهو قدر هذا الجيل المهووس بمطارق الزيف والتمزق واللاحقيقة، وسيظل أبد هاربًا من ذاته ووجوده ، يحس لا جدواه تلاحقه ومع ذلك يتابع خط حياته المرقعة لأنه محكوم عليه بالحياة».[٧٥]

إن الإبقاء على اللغة الفرنسية في الجزائر بعد الاستقلال هو تكريس للتمزق الثقافي والاستلاب الفكري الذي عانى منه بعض الجزائريين المتفرنسين لأن الإنسان يفكر ضمن إطار اللغة التي درس بها، ومن خلالها ينظر إلى الأشياء فاللغة تدخل في تكوينه الإيديولوجي حيث كتب عبد الكريم غلاب في ١٢-١١-١٩٦٥: «واللغة كما لا أحتاج أن أقول ليست أداة ولكنها فكر وروح، ليست أسماء وأفعالاً وحروفا، ولكنها تحمل كل مقومات الأمة التي تبيّنت فيها وسايرت تاريخها وكل تطوراتها الاجتماعية والفكرية والحضارية»[٧٦]. وعلى هذا فالتعريب يحافظ على الشعور بالانتماء القومي للفرد ضمن أمة تجمع بين مواطنيها مقومات مشتركة أساسها اللغة، ومن خلال وحدة اللغة تنتج وحدة الفكر والآمال والأهداف، وتؤدي إلى خلق جيل منسجم فكريًا بعيدًا عن التناقض الذي أحدثته اللغة الفرنسية التي ينادى باستمرارها في الجزائر المستقلة أو الازدواجية التي قد تخلق صراعا فكريًا واجتماعيًا للتناقض في المشارب الفكرية بين أنصار كل لغة، ذلك أن استمرار تيار التفرنس الذي بدأه المشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر قد يفقد الاستقلال معناه الحقيقي ويؤدي لزيادة ابتعاد الجزائريين عن استعمال لغتهم الوطنية واتساع ظاهرة التمزق في الهوية الوطنية، وقد بين محمد بن الشريف في نفس المقال السابق: «أن الاستعمار تمكن من إنبات بعض البذور الثقافية التي زرعها وبقيت حية إلى ما بعد فترة الاستقلال، حيث ما تزال اللغة والثقافة الفرنسية سائدة شكلاً ومضمونًا»[٧٧]، ولهذا فإن مناصري التعريب أدركوا خطورة إبقاء اللغة العربية مبعدة عن ميادين الحياة المختلفة بعد الاستقلال، لأن غيابها يعني عدم تشكل الشخصية الوطنية بشكل سليم ونادوا بضرورة تقليص دور اللغة الفرنسية لتنشئة جيل سليم متشبع بثقافته الوطنية القومية.

٣/٤-التعريب لتوحيد اللسان والفكر

نظرًا لطول فترة الاستعمار بالجزائر وهيمنة اللغة الفرنسية بالجزائر في الإدارة والتعليم والتخاطب فإنها تغلغلت في النسيج الاجتماعي، وأثرت عليه فغدا اللسان الجزائري خليطًا من كلمات

دارجة وأخرى فرنسية، فإذا تكلم لا يعكس هوية عربية جزائرية، لذلك فالتعريب هو محاولة لتطهير اللسان الجزائري من الكلمات الدخيلة عليه من الفرنسية، ومن خلاله يتم تطهير الفكر وجعله موحدًا سليمًا ومبدعًا. ذلك أن بقاء الدارجة بكلماتها الفرنسية كلغة تخاطب يؤدي إلى إبعاد اللغة العربية الفصحى عن الاستعمال، وإلى تأخير استرجاع مكانتها اللائقة والطبيعية في المجتمع وبالتالي تستمر عزلتها التي بدأها الاستعمار، وفي هذا المجال يرى أبو القاسم قدوري في مقال له بتاريخ ٢٥-٠١-١٩٦٤ أن التعريب عامل مهم في تخليص لساننا العربي مما أصابه من لوثة من لغة الاستعمار، وآثار اللهجات المختلفة[٧٨]، لكنه طالب بضرورة تيسير الفصحى تيسيرا يتماشى مع الحياة، وارتفاع العامية ارتفاعًا يتماشى كذلك مع الحياة، حتى تلتقي اللغتان في مرحلة هي التي نصبو إليها.[٧٩]

ويحتج أبو القاسم قدوري في رأيه بالاهتمام بالعامية لما فيها من تاريخنا اللغوي والأدبي،[٨٠] إن الاستعمار أدى لإبعادنا عن لغتنا العربية الفصحى فغدت صعبة الممارسة على ألسنتنا بعد الاستقلال، لذا ظهرت أصوات تنادي بالاهتمام بالدارجة واللهجات العامية بحكم سهولتها، وقد ورد في مقال بتوقيع خروبي شريف عمر بتاريخ ٠١-٠٩-١٩٦٥ بأن الاستعمار منع تدريس اللغة العربية الفصحى في المدارس الرسمية للناس وقرر معاقبة كل من يحاول تعليمها، وأباح اختيار لغة لم تكن فصيحة أصيلة بل كانت عامية محلية ولعل قصده من هذا هو كسر شوكة اللغة الفصيحة وذلك لأنه يرى الخطورة الكامنة فيها، ويعتقد بأن شخصية الجزائر العربية ستبقى ما بقيت لغة التنزيل.[٨١]

كما نجد من الدعوات لصالح العامية ما نقلته الجريدة بتاريخ ٠٣-٠٨-١٩٦٣ عن جريدة "لاديبيش" (la Dépêche) حيث كتبت: «نشرت جريدة "لاديبيش" مقالا لأحد الأساتذة الجزائريين طالب بتعليم اللغة العامية في مدارسنا، وقال بأنها ستصبح لغة رسمية مثلما كان شأن الفرنسية والإسبانية والإيطالية التي كانت في بداية القرون الوسطى لهجات محلية ثم أصبحت على مر الزمان لغات رسمية، وإن مصير اللغة العربية الفصحى سيكون مثل اللاتينية، ولذا يجب أن نعتني بهذه اللغة المحلية التي هي لغة الشارع والتعامل بين الناس»[٨٢]، وقد علق الأستاذ عبد المالك مرتاض على هؤلاء في العدد الرابع من دراسته بقوله: «هناك طائفة من الناس المتعالمين، وطائفة من المستشرقين بنوع خاص يبيّتون للعربية الشر ويكيدون لها الكيد، بدعوى الإحياء والتجديد والتطور والتبسيط، يريد منا هؤلاء أن نغير لغة بنحوها، وصرفها، وأسلوب تركيبها، وتاريخها، ثم ننغمس في هذه الدارجة المتفشية التي كانت نتيجة جهل الشعوب العربية لما أصابها من أهوال الاستعمار الهائلة».[٨٣]

كما نقلت الجريدة عن مجلة لاتر فرونساز " lettres françaises" في عددها الصادر في شهر فيفري ١٩٦٣ دعوة كاتب ياسين[٨٤] إلى تعلم اللهجات المحلية وسماها باللغات الإقليمية، ومتعلمها يجب ألا يوصم بالإقليمية أو الوطنية الضيقة،[٨٥] فإذا سلمنا بهذا سنجد أنفسنا أمام عدة لغات إقليمية ولهجات جهوية، وهذا ما يزيد من الابتعاد عن اللغة العربية الفصحى وإبعادها عن الممارسة اليومية، ونكون بذلك قد واصلنا السياسة الاستعمارية التي شجعت العامية لتهميش الفصحى. وتابعت الجريدة قضية العامية بنشر مختلف الآراء والردود على من دعا لها، حيث نشرت مقالاً بتاريخ ٠٨-٠٢-١٩٦٤ جاء فيه: «أن العامية لا تمثل أمة بأجمعها، كما لا تعبر عن عادات القطر بأكمله، وهي مختلفة ومغايرة من منطقة لأخرى، وهي لا تمثل شخصية الجزائر ولا عاداتها ولا أخلاقها».[٨٦]

لذلك فالتعريب يؤدي إلى توحيد اللسان والفكر في الجزائر، وهذا يقتضي تثبيت اللغة الرسمية العربية الفصحى في البلاد لإزالة الضعف اللغوي الذي خلفه الاستعمار من خلال فسحه المجال لانتشار اللهجات المحلية التي كانت معاول هدم للغة العربية الفصحى، التي هي لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وفيما يخص العلاقة بين العربية الفصحى والعامية فقد تطرق لها المؤتمر الثالث للمعلمين العرب المنعقد بالجزائر بالشرح والتوضيح حيث نقلت الجريدة عنه: «...فالعامية تتأثر بالفصحى وتأخذ منها، وبمرور الزمن تصبح العامية لغة فصحى، والعامية الجزائرية خلال فترة الاحتلال لم تجد لغة فصحى في الجزائر تتأثر بها وتأخذ أسماء وسائل الحضارة الحديثة، وهذا بخلاف العامية في المشرق العربي، فهي تأخذ هذه الأسماء من اللغة العربية الفصحى، ولذلك خلت لهجة المشرق من الكلمات الأجنبية الدخيلة، والعامية الجزائرية لم تأخذ من الفرنسية مختارة، ولكنها كانت مضطرة».[٨٧] فالتعريب في هذا المجال يعمل على توحيد اللسان العربي الذي يحل محل اللهجات فيعوض التعددية اللغوية بلغة واحدة لضمان وحدة التفكير والرؤى والأهداف، ولهذا تبنت الجريدة قضية تطهير اللسان الجزائري من الكلمات الأجنبية بتخصيص ركن بعنوان «تطهير لغة التخاطب بيننا من الكلمات الأجنبية» بشعار «التعريب يتحقق أول ما يتحقق على ألسنة المواطنين وأحاديثهم»[٨٨] حيث يقدم الكلمات العامية وما يقابلها في العربية الفصحى.

وما يقال على العامية يقال على الداعين لبقاء اللغة الفرنسية في التعليم وما ينجر عنه من ازدواجية لغوية ومزاحمة للغة العربية، وآثار ذلك على الجيل الذي ينشأ بها، وفي هذا بين تركي رابح أن التعليم باللغات الأجنبية يشكل خطورة على المتعلمين، ذلك أن الأجيال تنشأ على الولاء إلى مصدر ثقافتها ومنبع غذائها الفكري والروحي، وهو الثقافة الفرنسية.[٨٩] فالتعريب خاصة في المراحل الأولى من التعليم يؤدي لتفادي التناقض الفكري بين الناشئة ويحافظ على وحدة اللسان العربي ويضمن تكوين جيل يتقن العربية ويؤمن بانتمائه القومي ويعتز بثقافته.

وفي مقال بدون توقيع بتاريخ ٠٨-٠١-١٩٦٤ ورد أنه لا يمكن للطفل الصغير أن يفتح عينيه على شيء غريب عنه ومتناف مع مجتمعه ووطنه، فيتعلم اللغة الأجنبية في سن مبكرة التي هي أداة للعادات والتقاليد، فيشب الطفل أجنبي الفكر وإن كان يعيش في بلده ثم نتهمه بعدم الإخلاص للوطن، وعدم الاحترام

للتقاليد القومية والدينية.[٩٠] وفي مقال صادر بتاريخ ٠١-٠٤-١٩٦٤ اقترح محمد عبد الرحيم توجيه الطفل الذي يدخل المدرسة توجيها عربيا خالصا قبل أن تتبلور نفسيته، وتأخذ صبغتها الأخيرة.[٩١] وفي المقال نفسه راح الكاتب لأبعد من ذلك وقال أن الحل لمشكلة الازدواجية هو إلغاء التعليم الفرنسي- لكل صف جديد يدخل المدرسة حديثا طيلة المرحلة الابتدائية، لأننا إذا منعنا التدريس الفرنسي- في كل صف جديد نضمن تعريب الابتدائي بعد ست سنوات، ويكون الطالب حافظ حفاظًا كليًا على شخصيته العربية، وتبلورت نفسه تبلورًا عربيًا، وانطلق لسانه منطلقًا عربيًا وسلم من عملية الازدواجية الخطرة، وإن كانت المشكلة من قلة المعلمين بالعربية فالواقع أن المعلم مستعار إن كان فرنسيًا أو عربيًا من البلدان الشقيقة العربية، فأفضل شيء أن يكون مستعارًا من الدول العربية.[٩٢] فإفراد اللغة العربية في التعليم وجعلها لغة التخاطب والإدارة يوحد المجتمع فكريا ويخلق انسجاما في تطوره، عكس الازدواجية التي غالبا ما تؤدي دور التقسيم بين أفراد المجتمع، وقد عبر تركي رابح عن هذا في مقال له بتاريخ ٢٥-٠٦-١٩٦٤ بقوله: «أن التعريب يؤدي إلى خلق جيل متكامل في كل مواهبه الفكرية والعقلية والعاطفية والوجدانية، وهذا عندما يصبح التعليم وتصبح الثقافة وكل وسائل الفكر في البلاد باللغة العربية وحدها».[٩٣]

٤/٤-التعريب تعبير عن السيادة

إن التعريب في الجزائر يرمي إلى إزالة آثار الاغتصاب اللغوي الذي قام به الاستعمار من خلال إعطائه مكانة متفوقة للغة الفرنسية مقابل إبعاد اللغة العربية، لذلك كان التعريب الوجه الثقافي للاستقلال والمكمل له، لأن بقاء الفرنسية يعتبر من مخلفات الاستعمار، فالسيادة تتطلب الاهتمام باللغة الوطنية من خلال تعميم استخدامها في شتى نواحي الحياة وحمايتها من التشويه الذي ينجم عن إهمالها أو غزو كلمات دخيلة عليها. فجميع الدول تحرص على سيادتها اللغوية التي تجسد كرامتها، وقد ضرب لنا سليمان بورنان مثالاً عن السيادة اللغوية من خلال ما كتبه في ٠٣-٠١-١٩٦٤ بأن الفرنسية عانت من غزو المفردات الأجنبية الإنجليزية حتى أصبحت تنازعها السيادة في فرنسا ذاتها، الأمر الذي جعل أحد أساتذة اللغات المقارنة في جامعة باريس يقترح اعتبار تسلل الكلمات الإنجليزية إلى اللغة الفرنسية جريمة وخيانة يعاقب مرتكبوها والمشجعون عليها كما يعاقب المجرمون والخونة[٩٤]، فهذا موقف يدل أن اللغة القومية رمز من رموز السيادة ومزاحمتها بلغة أخرى يعتبر انتقاصا للكرامة وإهانة للأمة، ولهذا فأنصار اللغة العربية يعتبرونها من مقتضيات السيادة التامة التي تبقى ناقصة في ظل استمرار الفرنسية بعد الاستقلال، وفي هذا الصدد نقلت الجريدة مقالا بدون توقيع صادر يوم ٠٨-٠١-١٩٦٤ اعتبر أن الأمة لا تكون كاملة السيادة إلا إذا كانت مستقلة ثقافيًا، سياسيًا واقتصاديًا.[٩٥]

وقد نقلت الجريدة مواقف أعطت الاهتمام باللغة القومية منزلة الحرص على الشرف، منها مقال بتاريخ ٠٣-١٠-١٩٦٤ الذي جاء فيه: «ونحن الآن تحت ظل الحرية والاستقلال، واجب علينا أن نسترجع قوميتنا العربية بعد أن حاول الاستعمار إبادتها، وفي ذلك شرف لنا وإكبار لشخصيتنا».[٩٦] وبين المقال نفسه أن الفرنسيين لم يتحدثوا العربية طول وجودهم فوق أرضنا، ليس عجزًا منهم على تعلمها، وإنما محافظة على شرفهم ولغتهم، فكيف نحن نتخلى عن هذا الشرف مع أننا أمة تتصف بالعزة والشهامة، وليس معنى هذا أننا ضد الفرنسية أو أي لغة أجنبية أخرى، لكن ليس معنى تعلمها أن نجعل منها لغة الشارع والمنزل، فإن هذا يعتبر من الخيانة للقومية والأمل.[٩٧]

وقد فتحت الجريدة صفحاتها لمشاركات القراء بآرائهم في مختلف القضايا المطروحة، ومنها ما تطرق لموضوع التعريب واعتبر استمرار التحدث بالفرنسية بمثابة الخيانة لتضحيات الجزائريين في سبيل الاستقلال فقد نشرت الجريدة مشاركة لأحد القراء بدون توقيع بعنوان "استعمال اللسان الفرنسي خيانة لدم الشهداء" ورد فيها بأن المسؤولين يخاطبون الشعب بالفرنسية، ومع ذلك يتكلمون عن التعريب فهذه مراوغة وتضليل، وهم بمقدورهم التكلم بالدارجة ثم التدرب على العربية لو كانوا حقًا يشعرون بقوميتهم ويؤمنون بلغتهم العربية، إن الاستمرار في هذه المراوغة هو خيانة لتضحيات الشهداء.[٩٨] وتضيف الجريدة في نفس المقال الصادر في ٠٨-٠١-١٩٦٤ بأننا لو تمادينا في تعليم أطفالنا باللغة الأجنبية نكون قد حققنا ما عجز عنه الاستعمار الفرنسي طيلة قرن وربع، وخلقنا أجيالاً مثقفة ثقافة أجنبية.[٩٩] فالاستقلال يستلزم قطع الصلة بالاستعمار وكل مخلفاته ، والتمتع بكل ما تقتضيه السيادة من أبعاد ثقافية واقتصادية، والتعريب أهم هذه الأبعاد، وكان على الجزائريين العمل على إنجاحه لتصحيح أوضاعنا الثقافية كجزء من معركة التحرير، لذلك فمعركة التعريب والبناء لا تقل أهمية عن معركة التحرير والاستقلال، وإذا أردنا أن نستأصل الداء من جذوره ونعيد طابعنا العربي الأصيل بالاسم والرسم يجب أن يقترن القول بالفعل.[١٠٠]

إن بقاء اللغة العربية مبعدة بعد الاستقلال مثل وضعا غريبا طالب أنصار التعريب بإلغائه لإعطاء الاستقلال معنى شاملا فقد أكد تركي رابح في مقال له بتاريخ ٣٠-٠٤-١٩٦٤ بأن الجزائر إذا كانت قد حطمت نهائيا سيطرة الاستعمار السياسية والعسكرية التي فرضت عليها بالقوة قرنا وثلاثين عاما، فإنها لا يمكن أن ترضى ببقاء سيطرة الاستعمار الثقافي عليها[١٠١]، واستمر تركي رابح يكتب عن موضوع الاستقلال الثقافي حيث اعتبر في مقال له بتاريخ ٢٥-٠٦-١٩٦٤ بأنه ليس من المعقول أن تبقى السيادة للغة الفرنسية في البلاد في عهد الاستقلال كما كانت لها هذه السيادة من قبل في عهد الاحتلال، مع ما يستتبع ذلك من آثار ثقافية وفكرية خطيرة على مستقبل أجيالنا[١٠٢]، وقد اعتبر محمد الميلي التعريب بُعدًا من أبعاد الثورة وخطوة هامة في طريق تحقيق الاستقلال الكامل، حيث كتب في العدد الصادر بتاريخ ١٨-٠٥-١٩٦٣ بأن القضاء على الاستعمار المباشر كان خطوة هامة في تحقيق التعريب، وأضاف بأن الدعوة إلى التعريب ليست دعوة عنصرية، وليست دعوة رجعية، إنها دعوة تقدمية

يجب أن تتجنّد من أجلها الطليعة الثورية الجزائرية سواء كانت مثقفة بالعربية أو بالفرنسية.[١٠٣]

ونقلت الجريدة في نفس العدد مقالاً نشر في مجلة "النقد الحديث" باللغة الفرنسية في شهر مارس ١٩٦٢ حول دور اللغة القومية في تعزيز الاستقلال من خلال التجربة الفيتنامية التي نجحت في جعل اللغة الفيتنامية لغة التعليم وكل الميادين العلمية والاجتماعية بعد ما كانت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية في البلاد، وهذا كحجة على ألسنة الذين يقاومون التعريب في الجزائر.[١٠٤] إن استمرار اللغة الفرنسية في الجزائر المستقلة ينقص من مفهوم السيادة، فالاستعمار فرض الفرنسية علينا بالقوة على حساب العربية، فكيف بنا إذا أزلنا هذا الاستعمار أبقينا على أحد أوجهه الخطيرة على مستقبل أجيالنا وهي لغته.[١٠٥] ونجد أن جريدة المجاهد الأسبوعي ساندت جريدة الشعب في موقفها من بقاء اللغة الفرنسية في الجزائر بعد الاستقلال فكتبت بتاريخ ٢١-٠٣-١٩٦٣: «ما دامت اللغة الفرنسية باقية كأداة التعبير والتخاطب بالجزائر فإن استقلالنا سيبقى ناقصا، إن معركة أخطر من المعارك المسلحة تنتظر النخبة الجزائرية المخلصة وأجهزة الثقافة في جميع أجزاء الوطن العربي من أجل تطهير الجزائر من ظاهرة الحضور الفرنسي الثقافي»[١٠٦]، فالتعريب هو تأكيد للسيادة الكاملة في حرية الاختيارات وتثبيت اللسان العربي في بلد عربي، كما تأكيد لانتصارنا على الاستعمار في كل مظاهره.

خَاتِمَةٌ

من خلال هذه الدراسة نلمس حراكًا فكريًا في مسألة الهوية نشطته النخبة المعربة المتخرجة من المشرق العربي، لمحاولة ترميم مكونات الشخصية الجزائرية وإعادة بنائها بعناصرها الرئيسية خاصة اللغة العربية لدمجها في محيطها العربي بحكم زوال الاستعمار، فجاءت مقالاتها في جريدة الشعب دفاعا عن التعريب كضرورة حتمية للاستقلال وردًا على التيار الفرانكفوني المتخرج من المدارس الفرنسية الذي يسيطر على الإدارة الجزائرية ودافع عن اللغة الفرنسية وأيد استمرارها كوسيلة ثقافة وعلم، ومن هنا يظهر التأثير الذي خلّفه الاستعمار الفرنسي في الجزائر ثقافيًا من خلال تكوينه لفئة تدافع عن امتداده اللغوي وما يرتبط به من مصالح اقتصادية واستراتيجية، والملاحظ أن الصراع اللغوي في الجزائر لم ينته خلال الفترة المحددة في هذا البحث بل استمر لأكثر من عقد ونصف على صفحات جريدة الشعب وما يزال إلى اليوم من خلال وصول فئة كبيرة من الفرانكفونيين إلى دواليب السلطة في الجزائر خاصةً قطاع التربية أين تتم عملية محاربة اللغة العربية وتهميشها رغم أنها اللغة الرسمية في البلاد.

الهَوامِشُ:

(١) أول جريدة يومية ناطقة باللغة العربية بعد الاستقلال، صدر العدد الأول منها يوم الثلاثاء ١١ ديسمبر ١٩٦٢ الموافق لـ ١٤ رجب ١٣٨٢ هـ أسستها نخبة متخرجة من المشرق العربي وأول رئيس تحرير لها هو محمد الميلي، لا تزال تصدر لغاية اليوم.

(٢) الأخضر بن عمر: «**المسؤولية على الشعب ثم على الحكومة**»، الشعب، ع٤١، (٢٦-٠١-١٩٦٣)، ص٠٣.

(٣) تركي رابح: «**لكي تنجح معركة التعريب**»، الشعب، ع١٤٦، (٠١-٠٦-١٩٦٣)، ص٠٦.

(٤) محمد عبد الرحيم: «**مشكلة اللغة العربية في الجزائر**»، الشعب، ع٤٠٩، (٠١-٠٤-١٩٦٤)، ص٠٤.

(٥) تركي رابح: «**المعركة من أجل التعريب**»، الشعب، ع٤٥٧، (٢٨-٠٥-١٩٦٤)، ص٠٣.

(٦) المقال نفسه.

(٧) الشعب: «**رد على مقال وجهة نظر في التعريب**»، ع، ٧٩٩، (٠٦-٠٣-١٩٦٥)، ص٠٤.

(٨) الشعب: «**العرب والعروبة والاستعمار**»، ع١٥، (٢٧-١٢-١٩٦٢)، ص٤.

(٩) يحي بوعزيز: «**مأساة تاريخ الجزائر وطرق علاجها**»، الشعب، ع، ٤١، (٢٦-٠١-١٩٦٣)، ص٣.

(١٠) علي بدور: «**القومية والثورية في الفكر العربي**»، الشعب، ع٣٧٠، (١٤-٠٢-١٩٦٤)، ص ٤.

(١١) مؤتمر المعلمين العرب يضم المعلمين العرب من جميع أنحاء الوطن العربي لدراسة أوضاع التعليم العربي، وقد انعقد أول مؤتمر للمعلمين العرب في شهر أوت ١٩٥٦ بمصر وقد شاركت في الجزائر الثورية بوفد من خمسة أعضاء من جبهة التحرير الوطني بالقاهرة وتطرق لوضعية التعليم في الجزائر وسياسة الإدارة الاستعمارية وقدم الضمانات للجزائريين الراغبين في الدراسة بأي قطر عربي وأوصى بالتعريف بالثورة الجزائرية لدى أبناء الأمة العربية، وانعقد المؤتمر الثاني بلبنان سنة ١٩٦١. (الشعب، ع٢٠١، (٠٥-٠٨-١٩٦٣)، ص٦.

(١٢) الشعب: «**توصيات المؤتمر الثالث للمعلمين العرب**»، ع، ٢٠٨، (١٣-٠٨-١٩٦٣)، ص٣.

(١٣) المقال نفسه.

(١٤) ابن العربي: «**مشكلة اللغة العربية في الجزائر**»، الشعب، ع١١، (٢٢-١٢-١٩٦٢)، ص٤.

(١٥) الشعب: «**تقرير من مكتب الجامعة العربية الدائم للتعريب**»، ع، ٢٦٢، (١٢-١٠-١٩٦٣)، ص٦.

(١٦) انبثق عن مؤتمر التعريب الذي عقدته جامعة الدول العربية في الرباط في الفترة ما بين (٠٣ و٠٧ أفريل ١٩٦١) للنظر في تنسيق جهود التعريب في العالم العربي، وتوحيد المصطلحات المعربة في الأقطار العربية وتطهير اللغة العربية الفصحى من الكلمات الدخيلة، وتقرر أن يكون مقر المكتب بالرباط. (الشعب: نبذة عن مكتب التعريب بالرباط، ع٢١٣،١٩(-٠٨-١٩٦٣، ص٦)

(١٧) المقال نفسه.

(١٨) الأمين عبد العزيز: «**لنخلق مظهرا عربيا في بلادنا**»، الشعب، ع٣٧٣، (١٩-٠٢-١٩٦٤)، ص ٤.

(١٩) تركي رابح: «**من معاركنا العاجلة: معركة التعريب. محو الأمية.. وخلق ثقافة عربية ثورية**»، الشعب، ع، ٤٣٤، (٣٠-٠٤-١٩٦٤)، ص٣.

(٢٠) منها: الأعداد ٥١٤(٠١-٠٨-١٩٦٤)، ٥٢٠ (٠٨-٠٨-١٩٦٤)،٥٢٦(١٥-٠٨-١٩٦٤)،٥٢٢(٢٢-٠٨-١٩٦٤)

(٢١) تركي رابح: «**المعركة من أجل التعريب، لماذا ندعو إلى تعريب التعليم والثقافة**»، الشعب، ع،٤٥٧، (٢٨-٠٥-١٩٦٤) ص٣.

(٢٢) ابن العربي: «**مشكلة اللغة العربية في الجزائر**»، الشعب، ع،١١، (٢٢-١٢-١٩٦٢)، ص٤.

(٢٣) تركي رابح: «**المعركة من أجل التعريب**»، الشعب، ع، ٤٨١، (٢٥-٠٦-١٩٦٤)، ص٣.

(٢٤) المقال نفسه.

(٢٥) المجاهد الأسبوعي: «**كاتب ياسين وعروبة الجزائر**»، ع، ١٥٣، (١٤-٠٣-١٩٦٣)، ص١٢.

(٢٦) فاطمة عبد الله: «**العربية لغتنا**»، الشعب، ع،٣٠٦، (٠٢-١٢-١٩٦٣)، ص٤.

(٢٧) أحمد علي الغزالي: «**حول مؤتمر المعلمين العرب، التعريب مسؤولية عربية شاملة**»، الشعب، ع، ٢٠٦، (١٠-٠٨-١٩٦٣) ص٣.

(٢٨) من مواليد ١٩١٢ بأيت فرح الأربعاء ناثراثن بتيزي وزو، ضابط في الجيش الفرنسي، اشتغل أثناء الحرب العالمية الثانية مع مفتي القدس حاج أمين حسيني، عمل مع الاستخبارات الألمانية، سجن في ١٩٤٣ وحرر في ١٩٥٢، ساعد كريم بلقاسم في الولاية الثالثة، ساهم في مؤتمر الصومام، عضوا إضافيا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية، خلف كريم بلقاسم على رأس الولاية الثالثة، عين على رأس أركان جيش التحرير في ٠١-١٠-١٩٥٨، وزير دولة في ١٩٦٠، وفي أزمة صائفة ١٩٦٢ التحق بأحمد بن بلة وكان عضو المكتب السياسي لجماعة وجدة، وزيرًا لقدماء المجاهدين ١٩٦٢، نائبًا ثانيًا للرئيس ١٩٦٣، كلف بالتعريب في ٢٤-٠٤-١٩٦٤، غاب عن الساحة السياسية حتى ١٩٨٨ أين ترشح مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ في ١٩٩١، توفي في ٠٦-١٢-١٩٩٤.

(Achour cheurfi: dictionnaire encyclopédie d'Algérie, éditon anep,2007, P. 836).

(٢٩) الشعب: «**محمدي السعيد يتحدث عن التعريب**»، ع،٤٦٤، (٠٥-٠٦-١٩٦٤)، ص٣.

(٣٠) الشعب: «**التعريب ضروري لأمة عربية**»، الشعب، ع،٣٣٨، (٠٨-٠١-١٩٦٤)، ص٤.

(٣١) الشعب: «**في افتتاح مؤتمر السفراء العرب والوفود العربية**»، ع، ١٧٦، (٠٦-٠٧-١٩٦٣)، ص٣.

(٣٢) ابن العربي: «**قضايا وآراء، مشكلة الثقافة العربية في الجزائر**»، الشعب، ع، ٠٤، (١٤-١٢-١٩٦٢)، ص٦.

(٣٣) المقال نفسه.

(٣٤) الشعب: «**توصيات المؤتمر الثالث للمعلمين العرب**»، ع،٢٠٨، (١٣-٠٨-١٩٦٣)، ص٣.

(٣٥) المقال نفسه.

(٣٦) المقال نفسه.

(٣٧) المقال نفسه.

(٣٨) الشعب: «**تقرير مكتب الجامعة العربية الدائم للتعريب**»، ع،٢٦٢، (١٢-١٠-١٩٦٣)، ص٦.

(٣٩) ولد في ٢١-١٠-١٩٣١ في مدينة دلس، درس بمدرسة الإصلاح بدلس التابعة لجمعية العلماء المسلمين كما درس في المدارس الفرنسية، انخرط في صفوف الكشافة الإسلامية الجزائرية، انضم إلى صفوف جبهة التحرير الوطني في فيفري ١٩٥٥ بالعاصمة وتقلد عدة مسؤوليات سياسية وعسكرية، عضو مؤسس للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذي عقد مؤتمره التأسيسي بباريس في صيف ١٩٥٥، ألقي عليه القبض من قبل السلطات الاستعمارية في أكتوبر ١٩٥٧ وسجن ببربروس وحكم عليه بالمؤبد ثم الإعدام وبقي خمس سنوات متنقلاً بين سجون سركاجي، الحراش، البرواقية وسجون فرنسا، أطلق سراحه في أفريل ١٩٦٢ من سجن بربروس، عُين نائبًا بالمجلس التأسيسي الجزائري وعضو قيادي في اتحادية الجزائر لجبهة التحرير الوطني، وزير التربية والتعليم (١٩٦٢-١٩٦٣) أسس للمدرسة الجزائرية، ثم عُين مدير عام لمؤسسة مواد البناء، توفي سنة ٢٠١٠.

(٤٠) الشعب: «**ابن حميدة يضبط حدود المعركة الثقافية التي تخوضها الجزائر**»، ع، ١٤١، (٢٧-٠٥-١٩٦٣)، ص٤.

(٤١) تركي رابح: الشعب، ع، ٤٣٤، (٣٠-٠٤-١٩٦٤)، ص٣.

(٤٢) أحمد أحمد: «**مكانة العربية بين اللغات**»، الشعب، ع، ٧٩٤، (٠٦-٠١-١٩٦٥)، ص٤.

(٤٣) سليمان بورنان: «**الثقافة العربية وأزمة الجيل الحائر**»، الشعب، ع، ٣٢٨، (٢٧-١٢-١٩٦٣)، ص٤.

(٤٤) (١٨٨١-١٩٣٧) كاتب عربي مصري من أصل لبناني، متعلق بالتراث القديم من كتبه: تاريخ أدب العرب، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، حديث القمر، المساكين، أوراق الوردة. (منير البعلبكي: **معجم أعلام المورد**، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٠٣).

(٤٥) **أبو علي الحسن** (٣٧٠-٤٢٨ هـ/٩٨٠-١٠٣٧م) فيلسوف وطبيب عربي، يسمى بالشيخ الرئيس، اعتبر منظم الفلسفة والعلم في الإسلام كما كان أرسطو في اليونان، تجاوزت مصنفاته المائة، أشهرها كتاب القانون في الطب الذي نقل إلى اللاتينية، وظل يدرس في معاهد الطب الأوربية حتى القرن السابع عشر، اشتمل على اشتمل على قسم خاص يبحث في نحو سبعمائة وستين من العقاقير والأدوية، كما برع في الشعر وله قصيدة مشهورة في النفس. (منير البعلبكي: **معجم أعلام المورد**، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٧).

(٤٦) عبد المالك مرتاض: **الشعب**، ع،٤٧٦، (١٩-٠٦-١٩٦٤)، ص٤.

(٤٧) مستشرقة ألمانية وزوجة المستشرق شولتز، كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب "ثمرة جهود سنين من البحث والدراسة، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٤ وطبعته العاشرة ٢٠٠٢ عن دار آفاق جديدة، بيروت، لبنان.

(٤٨) (١٤٢٣-١٤٨٣) ملك فرنسا من ١٤٦١ إلى ١٤٨٣، من أسرة les valois عمل على تقوية فرنسا وتوحيدها بعد حرب الأعوام المئة، كسر شوكة النبلاء وأرسى دعائم الملكية المطلقة. (منير البعلبكي: **معجم أعلام المورد**، ط١، دار العلم للملايين، بيروت،١٩٩٢، ص٣٩٤).

(٤٩) (٢٥٠-٣٢١هـ / ٨٦٠- ٩٢٣م) أبو بكر محمد بن زكريا الرازي من علماء القرن الثالث الهجري، ولد بمدينة الري جنوب طهران، أعظم أطباء العرب، صاحب كتاب الحاوي وهو موسوعة اشتملت على معارف العرب الطبية، وله رسالة في الحصبة والجدري وهي أقدم رسالة في موضوعها، وله الحصى في الكلى والمثانة، دفع مضار الأغذية، برء ساعة، الفائق في الطب، ترجمت كتبه إلى اللاتينية فكانت مرجعًا للمشتغلين بالطب في أوربا خلال القرون الوسطى. (منير البعلبكي: **معجم أعلام المورد**، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٠١-٢٠٢).

(٥٠) عبد المالك مرتاض: المقال السابق.

(٥١) أبو جعفر ابن هارون الترجالي (توفي نحو ٥٧٥هـ/١١٨٩ م) ولد بترجالة بالأندلس وتوفي بإشبيلية، طبيب محقق للعلوم الحكمية، متميز في صناعة الطب، عالمًا بصناعة الكحل، كان من طلبة الفقيه أبي بكر بن العربي واشتغل عليه بعلم الحديث، ترجمه ابن أبي صبيعة في (عيون الأنباء في طبقات الأطباء).

(٥٢) أبو القاسم الزهراوي (توفي بعد عام ٤٠٤هـ/١٠١٣م) طبيب عربي أندلسي، يُعَدّ من أعظم الجراحين العرب على الإطلاق، ابتكر آلات

جراحية مختلفة وألف كتاب "التصريف لِمَنْ عجز عن التأليف"، وهو كتاب جامع لأبواب الطب كلها، ظل طوال خمسمائة سنة عمدة المشتغلين بالجراحة في أوربا، وقد تكلم الزهراوي فيه عن جراحة العين، الأذن، الأنف، الفتق وعن تفتت الحصى في المثانة، وعن تعقيم الجراح وتشريح الأجسام ميتة وحية، وضمن بعض فصوله رسومًا لآلات جراحية يزيد عددها عن مئتين. (منير البعلبكي: معجم أعلام المورد، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٢٣).

(٥٣) عبد المالك مرتاض: «**دور الثقافة العربية في بناء الحضارة الإنسانية**»، الشعب، ع، ٤٨٣، (٢٦-٠٦-١٩٦٤)، ص.٤.

(٥٤) عبد المالك مرتاض: «**دور الثقافة العربية في بناء الحضارة الإنسانية**»، الشعب، ع،٤٨٩، (٠٣-٠٧-١٩٦٤)، ص.٤.

(٥٥) أحمد علي الغزالي: «**العربية ضحيتنا ولسنا نحن ضحاياها**»، الشعب، ع،٢٩، (١٢-٠١-١٩٦٣)، ص.٤.

(٥٦) عبد المالك مرتاض: «**دور الثقافة العربية في بناء الحضارة الإنسانية**»، الشعب، ع،٤٨٩، (٠٣-٠٧-١٩٦٤)، ص٤.

(٥٧) عبد المالك مرتاض: «**دور الثقافة العربية في بناء الحضارة الإنسانية**» **الشعب**، ع،٥٠٧، (٢٤-٠٧-١٩٦٤)، ص٤.

(٥٨) أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم ولد بالبصرة في ٣٥٤ هـ/٩٦٥م عمل كاتبا لبعض لولاة البصرة، درس العلوم والفلسفة والهندسة، من مؤلفاته: كتاب في تحليل المسائل العددية كتاب في الأشكال الهلالية، كتاب في مسألة التلاقي، كتاب استخراج خط نصف النهار بظل واحد، كتاب صورة الكسوف، وغيرها بالإضافة إلى عديد المقالات والرسائل في الضوء والمرايا والظلال والحساب والتركيب، كما له تشريح للعين ورسم دقيق لطبقاتها، توفي بمصر في ٤٣٠ هـ/١٠٣٩ م. (الشعب: ع٧٣٩، (٢٥-١٢-١٩٦٤)، ص٤).

(٥٩) الشعب: «**اللغة العربية والعلوم الحديثة**»، ع،٢١٢، (١٧-٠٨-١٩٦٣)، ص٦.

(٦٠) الشعب: «**الشعب راية تحمل أحرفًا عربية**»، ع،٠١، (١١-١٢-١٩٦٢)، ص٦.

(٦١) تركي رابح: «**المعركة من أجل التعريب**»، الشعب، ع،٤٨١، (٢٥-٠٦-١٩٦٤)، ص ٣

(٦٢) ولد بقسنطينة في ٠٥-٠٧-١٩٢٧، درس بها الابتدائي والثانوي، سافر إلى فرنسا ودرس القانون بجامعة إيكس، بدأ نشاطه الأدبي بنظم الشعر ثم الرواية، أثرت عليه أحداث الثامن ماي ١٩٤٥ واعتبرها بمائة ألف جريمة، منذ ١٩٦١ توقف عن الكتابة بالفرنسية معتبرًا إياها منفاه، تولى إدارة الثقافة بوزارة الأخبار في الستينات، أشرف على الصفحة الأدبية في جريدة النصر الصادرة في قسنطينة بين ١٩٦٨ و ١٩٧٢، توفي بالجزائر في جوان ١٩٧٨، ترك عدة أعمال أدبية ترجمت إلى اللغة العربية منها الروايات: الانطباع الأخير ١٩٥٨، سأهبك غزالة ١٩٥٩، التلميذ والدرس ١٩٦٠، رصيف الأزهار لم يعد يجيب، وله في الشعر: الشقاء في خطر، اسمع أناديك، وله كتاب بعنوان " الحرية ومأساة التعبير لدى كتاب الجزائر ١٩٦٠". (أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي** ١٩٥٤-١٩٦٢، ج ١٠، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ١٨٢,١٨٣)

(٦٣) سليمان بورنان: «**الثقافة العربية وأزمة الجيل الحائر**»، الشعب، ع،٣٢٨، (٢٧-١٢-١٩٦٣)، ص٤.

(٦٤) المقال نفسه.

(٦٥) محمد بن الشريف: الشعب، ع،٣١٦، (١٣-١٢-١٩٦٣)، ص٤.

(٦٦) تركي رابح: «**على هامش التعريب...مناقشة...وتوضيح**»، الشعب، ع،٧٧٠، (٣٠-٠١-١٩٦٥)، ص٤.

(٦٧) تركي رابح: «**من معاركنا العاجلة، معركة التعريب.. ومحو الأمية.. وخلق ثقافة عربية ثورية**»، الشعب، ع،٤٣٤، (٣٠-٠٤-١٩٦٤)، ص٣

(٦٨) سليمان بورنان: المقال السابق.

(٦٩) أحمد علي الغزالي: «**الرواسب الفكرية، التشويه الحضاري**»، الشعب، ع،١٧، (٢٩-١٢-١٩٦٢)، ص ٤

(٧٠) أحمد على الغزالي: «**اللغة العربية يفرضها الواقع الجزائري**»، الشعب، ع،١٦٤، (٢٢-٠٦-١٩٦٣)، ص ٣

(٧١) محمد بن الشريف: «**شخصية الجزائر العربية**»، الشعب، ع،٣٤٦، (١٧-٠١-١٩٦٤)، ص ٤

(٧٢) الشعب: «**أتجربة أخرى على حساب العربية**»، ع،١٠٣، (١١-٠٤-١٩٦٣)، ص ٤

(73) El moudjahid: «les problèmes scolaires» ,n 117,02-03-1963,p 7.

(٧٤) من مواليد دوار أولاد بوزيان بسيدي عيسى بالمسيلة في ٠٧-٠٣-١٩١٧، تلقى تعليما مزدوجا، بعد إنهاء الدراسة الابتدائية واصل دراسته بثانوية بن عكنون بالعاصمة ثم الثعالبية إلى غاية ١٩٤٠، ثم انتقل إلى فرنسا وواصل دراسته بجامعة السربون بباريس، التحق بالتعليم في مستغانم ثم بثانوية لويس لوقرون بباريس، في ١٩٣٩ انخرط في حزب الشعب الجزائري، كان رفقة أحمد بن بلة أثناء اختطاف طائرة زعماء الثورة في ٢٢-١٠-١٩٥٦، شارك في مؤتمر طرابلس ١٩٦٢، شغل مدير تحرير جريدة المجاهد ١٩٦٢، سفير للجزائر بالأرجنتين ١٩٦٥ وكذلك البيرو والمكسيك، وزير التربية بين ١٩٧٧-١٩٧٩ توفي سنة ٢٠٠٨، له عدة مؤلفات منها:

chonsons des jeunes filles arabes 1953- l'Algérie: nation et societé 1965-écrits didactiques sur la culture,l'histoire et la societé en Algérie88.- Algérie et tiers monde :agression, résistances et solidarité intercontinentales 1989. Achour cheurfi: l'encyclopédie maghrébine, casbah édition, Alger, 2007, P. 267- 268.

(٧٥) سليمان بورنان: «**الثقافة العربية وأزمة الجيل الحائر**»، الشعب، ع،٣٤٠، (١٠-٠١-١٩٦٤)، ص٤.

(٧٦) عبد الكريم غلاب: «**الأدب والغزو الفكري**»، الشعب، ع١٠١٣، (١٢-١١-١٩٦٥)، ص٤.

(٧٧) محمد بن الشريف: الشعب، ع،٣١٦، (١٣-١٢-١٩٦٣)، ص٤.

(٧٨) أبو القاسم قدوري: «**بين العامية والفصحى**»، الشعب، ع،٣٥٣، (٢٥-٠١-١٩٦٤)، ص٤.

(٧٩) المقال نفسه.

(٨٠) المقال نفسه.

(٨١) خروبي شريف عمر: «**اللغة القومية والاستعمار**»، **الشعب**، ع،٩٥١، (٠١-٠٩-١٩٦٥)، ص٤.

(٨٢) أحمد على الغزالي: «**بين الفصحى والعامية ما هي الجذور التاريخية للدعوة التي ظهرت في جريدة لاديبيش**»، الشعب، ع ٢٠٠، (٠٣-٠٨-١٩٦٣)، ص ٣.

(٨٣) عبد المالك مرتاض: «**دور الثقافة العربية في بناء الحضارة الإنسانية**»، **الشعب**، ع،٥٠٧، (٢٤-٠٧-١٩٦٤)، ص٤

(٨٤) من مواليد السمندو بقسنطينة في ٠٢ أوت ١٩٢٧،درس في المدرسة القرآنية ثم المدرسة الفرنسية ثم بثانوية سطيف، شارك في أحداث الثامن ماي ١٩٤٥ واعتقل ثم فصل من الثانوية، في ١٩٤٧ ذهب لباريس و انخرط في الحزب الشيوعي الجزائري عاد للجزائر وعمل صحفيًا بين ٤٩ - ١٩٥١ بجريدة Alger républicain ، ثم عمل بالمرفأ بالعاصمة ثم استقر بفرنسا إلى غاية ١٩٥٩ حيث غادرها بعد مضايقة مديرية مراقبة الإقليم وعاش متنقلاً بين بلجيكا، ألمانيا،

إيطاليا، يوغسلافيا والاتحاد السوفياتي، في سنة ١٩٦٢ عاد للجزائر واستأنف عمله في جريدة Alger républicain ، في ١٩٧٠ بدأ العمل في المسرح الشعبي الملحمي الهجائي باللغة الدارجة، توفي بفرنسا في ٢٨-١٠-١٩٨٩، اشتهر برواية نجمة التي نشرت بفرنسا سنة ١٩٥٦، وله رواية أخرى "المضلع المرصع بالنجوم ١٩٦٦ نشرت بفرنسا أيضا، كما له عدة عروض مسرحية منها: محمد خذ حقيبتك ١٩٧١، صوت النساء ١٩٧٢، حرب الألفي عام ١٩٧٤، ملك الغرب ١٩٧٥، فلسطين المغدورة ١٩٧٧، (الوكالة الجزائرية للإشراق الثقافي: كاتب ياسين، ١٧/١٣ ديسمبر ٢٠٠٩)

(٨٥) الشعب: «**الجزائر في نظر كاتب ياسين**»، ع،١١٢، (٢٢-٠٤-١٩٦٣)، ص ٦

(٨٦) محمد عبد الرحيم: «**بين العامية والفصحى**»، الشعب، ع،٣٦٥، (٠٨-٠٢-١٩٦٤)، ص ٤

(٨٧) الشعب: «**مؤتمر المعلمين العرب يدرس طرق ووسائل تعريب التعليم**»، ع،٢٠٧، (١٢-٠٨-١٩٦٣)، ص ٣

(٨٨) الشعب: منها الأعداد ٥٠٨ (٢٥-٠٧-١٩٦٤)، ٥١٤ (٠١-٠٨-١٩٦٤)، ٥٢٠ (٠٨-٠٨-١٩٦٤)، ٥٢٦ (١٥-٠٨-١٩٦٤)

(٨٩) تركي رابح: «**المعركة من أجل التعريب**»، الشعب، ع،٤٨١، (٢٥-٠٦-١٩٦٤)، ص ٣

(٩٠) الشعب: «**التعريب أمر ضروري لأمة عربية**»، ع،٣٣٨، (٠٨-٠١-١٩٦٤)، ص ٤

(٩١) محمد عبد الرحيم: «**مشكلة اللغة العربية في الجزائر**»، الشعب، ع،٤٠٩، (٠١-٠٤-١٩٦٤)، ص ٤

(٩٢) المقال نفسه.

(٩٣) تركي رابح: «**المعركة من أجل التعريب**»، الشعب، ع،٤٨١، (٢٥-٠٦-١٩٦٤)، ص ٣

(٩٤) سليمان بورنان: «**الثقافة العربية وأزمة الجيل الحائر**»، الشعب، ع،٣٣٤، (٠٣-٠١-١٩٦٤)، ص ٤

(٩٥) الشعب: «**التعريب أمر ضروري لأمة عربية**»، ع،٣٣٨، (٠٨-٠١-١٩٦٤)، ص ٤

(٩٦) صالح عجرود: «**اهتمامنا باللغة العربية معناه حرص على شرفنا**»، الشعب، ع،٥٦٨، (٠٣-١٠-١٩٦٤)، ص ٤

(٩٧) المقال نفسه

(٩٨) الشعب: ع،٢٩، (١٢-٠١-١٩٦٣)، ص ٢

(٩٩) الشعب: «**التعريب أمر ضروري لأمة عربية**»، ع،٣٣٨، (٠٨-٠١-١٩٦٤)، ص ٤

(١٠٠) محمد عبد الرحيم: المقال السابق.

(١٠١) تركي رابح: «**من معاركنا العاجلة، معركة التعريب. ومحو الأمية. وخلق ثقافة عربية ثورية**»، الشعب، ع،٤٣٤، (٣٠-٠٤-١٩٦٤)، ص٣.

(١٠٢) تركي رابح: «**المعركة من أجل التعريب**»، الشعب، ع،٤٨١، (٢٥-٠٦-١٩٦٤)، ص ٣

(١٠٣) محمد الميلي: «**المعركة من أجل التعريب جزء من الثورة**»، الشعب، ع،١٣٤، (١٨-٠٥-١٩٦٣)، ص٦.

(١٠٤) الشعب: «**استعمال اللغة القومية سلاح فعال لتعزيز الاستقلال**»، ع،١٣٤، (١٨-٠٥-١٩٦٣)، ص٦.

(١٠٥) وفي هذا قال المرحوم الدكتور أبو القاسم سعد الله "فالفرنسيون وصفوا لغتهم أثناء الاحتلال بأنها لغة سيادة لغة منتصر، فبأي حق تستمر سيادتها في الجزائر المستقلة ونحن المنتصرون" (أبو القاسم سعد الله: **في الجدل الثقافي**، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٥، ص ١٤٢).

(١٠٦) المجاهد الأسبوعي: «**كاتب ياسين وعروبة الجزائر**»، ع،١٥٤، (٢١-٠٣-١٩٦٣)، ص ١٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

العلاقات الجزائرية – التركية بين الإرث التاريخي والتحديات الراهنة

د. حنان رزايقية
أستاذ مؤقت – جامعة البليدة (٢)
دكتوراه علوم سياسية – جامعة الجزائر (٣)
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

تتميز العلاقة الجزائرية–التركية بكونها علاقة لها جذور تاريخية عريقة امتدت عبر العصور، لذلك فالباحث يسعى من خلال هذه الورقة البحثية، إلقاء الضوء على طبيعة العلاقة بين البلدين منذ بداية تشكلها، خلال فتراتها المختلفة، بدايةً بارتباطها بالإمبراطورية العثمانية، مرورًا بفترة الاستعمار الفرنسي للجزائر، ووصولاً للفترة الراهنة التي عرفت نوعًا من التغير في هذه العلاقة. إن البحث في العلاقة الجزائرية–التركية، تكشف عن مجموعة من المتغيرات التي حكمت هذه العلاقة، حيث انتقلت من علاقة ديناميكية أيام الإمبراطورية العثمانية بمختلف جوانبها الإيجابية والسلبية، إلى علاقة شبه جامدة أو منعدمة إبان الاستعمار الفرنسي، لتعود لها الحيوية أثناء الفترة الراهنة. لقد توصلت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج التي تؤكد على أن العلاقة الجزائرية–التركية في موروثها التاريخي لم تكن علاقة استعمارية مبنية على السيطرة والهيمنة، حيث مثلت الجزائر بالنسبة لتركيا بمثابة حليف استراتيجي أكثر منها مستعمرة، أما في الوقت الراهن فهي علاقة تصالحية، تهدف لتحقيق تحالف استراتيجي يخدم مصالح الطرفين. تم الاعتماد على المنهج التاريخي باعتباره منهج يتيح للباحث فرصة الحصول على معلومات عن طريق الماضي بقصد فهم وتحليل القضايا الحاضرة، انطلاقا من اعتبار الحاضر كامتداد للماضي، فمن أجل دراسة العلاقات الجزائرية–التركية وتتبع مسارها كان لابد من تفكيك هذه العلاقة عبر العودة للموروث التاريخي بين البلدين.

بيانات المقال:
تاريخ استلام المقال: ١٢ فبراير ٢٠١٦
تاريخ قبـول النشـر: ١٧ مايو ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
التوجه الاستراتيجي، العلاقات، الجزائر، تركيا، إفريقيا، الإمبراطورية العثمانية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052953

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
حنان رزايقية. "العلاقات الجزائرية – التركية بين الإرث التاريخي والتحديات الراهنة".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص١٧٢ – ١٧٩.

مُقَدِّمَةُ

مرت الدولة الجزائرية كغيرها من دول العالم، بالعديد من الفترات والمراحل التاريخية الحافلة بالأحداث المثيرة للاهتمام، والتي يعتبر التواجد العثماني فيها من بين أهم هذه المراحل، هذا التواجد الذي لم يكن نتيجة معارك حربية خاضتها القوات المسلحة ضد الأهالي، على غرار ما حدث في الشام أو مصر أو العراق، ولكن كان بناءا على طلب الدولة والسكان لإنقاذهم من خطر الزحف الصليبي الاستعماري الأوروبي وخاصة بعد الهجوم الاسباني، وبالتالي هذه الوضعية جعلت الوجود العثماني في الجزائر يتميز بطبيعة خاصة، تختلف عن وجودها في بقية الدول الأخرى، إلا أن هذه الرابطة الجزائرية العثمانية تلاشت بمجيء الاستعمار الفرنسي لتعود هذه العلاقة من جديد في الفترة الراهنة وفقًا لمعطيات وعوامل تحركها مصالح البلدين، بناءً على ما تقدم سيتم معالجة إشكالية رئيسة في هذا الموضوع تم صياغتها في التساؤل المركزي التالي: **إلى أي مدى يمكن اعتبار الرابط التاريخي عامل مهم لتوجيه العلاقات الجزائرية التركية في الفترة الراهنة؟**

تتمثل أهم الأهداف الكامنة وراء إجراء هذه الدراسة، في سعي الباحث لتوضيح بعض محددات العلاقة الجزائرية-التركية في أبعادها الماضية والحاضرة والمستقبلية، بغية الوقوف عند مختلف مضامين هذه العلاقة في الفترة الراهنة، وهو ما يساعد

الباحثين والمهتمين بجوهر هذه العلاقة، في معرفة مساراتها المستقبلية، والتنبؤ لأهم تحولاتها، خاصة وأن موضوع العلاقات الجزائرية-التركية في الفترة الراهنة لم يحظى بالكثير من الاهتمام، ذلك بسبب انقطاع العلاقة بين الطرفين لمدة طويلة، فترة الاستعمار الفرنسي.

طبيعة التواجد العثماني في الجزائر وموقف السلطنة من احتلال فرنسا للجزائر

السياق التاريخي للتواجد العثماني في الجزائر وأسبابه

الأوضاع الجزائرية قبيل فترة الحكم العثماني

تميزت الفترة السابقة لوصول العثمانيين للجزائر بقيام الدولة الزيانية (١٢٣٥-١٥٥٤م)، التي تنسب إلى زيان بن ثابت والد يغمراسن[١]، هذه الدولة التي كانت عاصمتها تلمسان دخلت في صراعات وحروب متواصلة، تارة مع المرينيين، وتارة مع الحفصيين، كما عانت من الصراعات والانشقاقات الداخلية بين القادة الزيانيين أنفسهم من أجل الحصول على السلطة، وكانت نتيجة هذه الأوضاع تحالف بعض القادة المحليين مع الإسبان ضد الدولة الزيانية. في هذا الوقت تمكن الإسبان من الاستيلاء على غرناطة بالأندلس سنة (١٤٩٢م)، وفي نفس الفترة تم تقسيم دول المغرب بين الدول الأوروبية، حيث تمكنت البرتغال من التوسع في المغرب، وايطاليا في تونس، وإسبانيا في الجزائر[٢]. ففي سنة ١٥٠٥م قامت إسبانيا بإرسال حملة إلى ميناء المرسى الكبير في غرب الجزائر فاستولت عليه في العاشر من سبتمبر ١٥٠٥م، واتسع نطاق الحملة الإسبانية سنة ١٥٠٩م، ليستولوا على بجاية بعد سقوط وهران، وهكذا مع بداية القرن السادس عشر بدأ الصراع المغاربي مع الدولة الإسبانية[٣]، هذا ما دفع بسكان شمال إفريقيا عامة وسكان الجزائر خاصة، للالتجاء إلى السلطان العثماني "السلطان سليم الأول" برسالة استنجاد. فاستجابت الدولة لاستغاثاتهم. ولذلك لم يكن دخول العثمانيين إلى شمالي إفريقيا نتيجة معارك حربية خاضتها القوات المسلحة العثمانية ضد أهالي البلاد، أو تدخل مباشر من الحكومة العثمانية على غرار ما حدث في الشام أو مصر أو العراق[٤].

التواجد العثماني في الجزائر (قدوم الأخوين عروج وخير الدين بربروس)

استنجد الجزائريون بالإخوة الأتراك عروج وخير الدين نظرا للروابط الدينية المشتركة، ولكون الأخوين بحارين ماهرين اشتغلا بالقرصنة ضد المسيحيين واكتسبا خبرة كبيرة في هذا الميدان، لهذا استنجد بهم الحاكم الحفصي لبجاية لطرد الإسبان، وقد لبى عروج وأخوه خير الدين النداء والتحقا ببجاية عام ١٥١٢م، و فور وصول الأخوين عملا على طرد الإسبان، وفي عام ١٥١٦م استنجد سكان العاصمة بهما بما في ذلك حاكمها سالم التومي الثعالبي[٥]، وفي ذلك الوقت كان عروج متواجد في جيجل التي بويع أميرا عليها عام ١٥١٣م، فتوجه إلى الجزائر العاصمة لكنه لم يتمكن من طرد الإسبان منها، وقام بقتل حاكمها سالم التومي الثعالبي ليعلن نفسه سلطانا عليها، واستولى الأخوان فيما بعد على مدن المدية ومليانة وتنس ودلس، وبعد انتصار الأخوين على الإسبان في الجزائر (نوفمبر١٥١٦)، توجه عروج إلى تلمسان سنة١٥١٧م فدخلها دون مقاومة، إلا أن القوات الإسبانية عاودت الهجوم على تلمسان واستطاعت حينها قتل عروج وجنوده عام ١٥١٨م[٦].

ليقوم خير الدين بعدها بالاستعانة بالدولة العثمانية رسميًا، وقد وصلت مساعدة السلطنة قبل وصول القوات الإسبانية إلى السواحل الجزائرية[٧]، وقد جاء دعم السلطنة تلبية لطلب خير الدين وسكان الجزائر الذين وجهوا رسالة استغاثة إلى السلطان سليم الأول عام ١٥١٩، لموجهة الغزو الإسباني بعد استيلاء السلطان سليم على مصر وذلك في مقابل ضم الجزائر إلى الإمبراطورية العثمانية وإقرار سيادة السلطان عليها[٨]. وبذلك أصبحت الجزائر تحت حكم الدولة العثمانية رسميا، ودعم السلطان هذا القرار بقرارات تنفيذية، فأرسل إلى الجزائر قوة من سلاح المدفعية، وحوالي ٢٠٠٠ من الجنود الإنكشارية للقضاء على الإسبان، كان هذا الدعم ضروري للقضاء على الإسبان وتحقيق الأمن والاستقرار الداخلي والخارجي في المنطقة، وبذلك كانت الجزائر أول إقليم في شمال إفريقيا يدخل تحت السيادة العثمانية[٩].

مراحل الحكم العثماني في الجزائر (١٥١٨م-١٨٣٠م)

وتتمثل هذه المراحل فيما يلي:

عصر البايات[١٠] "أمير الأمراء" (١٥١٤-١٥٨٧م):

مثلت هذه الفترة أزهى مراحل الحكم العثماني في الجزائر، فقد عرفت البلاد الازدهار والرقي في مختلف الجوانب التعليمية، والاقتصادية، والعمرانية وهذا راجع إلى التعاون بين فئة "الرياس"[١١] في القيادة وأبناء المنطقة، كما ساهم مهاجروا الأندلس في تنمية البلاد وازدهارها بفضل خبرتهم ومهارتهم التي وظفوها في ترقية المهن والبناء العمراني، وتقوية الاقتصاد الجزائري. كما تميزت هذه الفترة التي دامت ٧٠ سنة بسيطرة رياس البحر أو جنود البحرية على السلطة، وكان قرار تعيين الحاكم يأتي من طرف السلطان العثماني، كما عرفت الحياة السياسية نوعا من الاستقرار والتحالف ضد العدو الإسباني[١٢].

حكم الباشوات[١٣] الثلاثين (١٥٨٦-١٦٥٩م):

جاء هذا الأسلوب في الحكم نتيجة خوف الباب العالي من استقلال الجزائر عن السلطنة العثمانية، لهذا قرر الباب العالي بتركيا أن ينصب على الجزائر باشا يعين لمدة ثلاث سنوات، وأول باشا عين على الجزائر هو دالي أحمد سنة ١٥٨٦م، هذا الأخير الذي كثرت في عهده الغزوات البحرية الجزائرية ضد السواحل الأوروبية (إسبانيا، صقلية وكورسيكا، ونابولي)، لقتل أثناء المعركة

التي خاضها جيشه ضد المتمردين الليبيين. فخلفه خضر باشا الذي قمع ثورة المقراني لسبب هجومه على الثكنات العسكرية التركية، إلا أنه تم سجنه من قبل السلطة العثمانية بسبب وشاية اليولداش (هم القوة برية التركية كان سكان الجزائر يكرهونهم لتصرفهم الغليظ) بنهبه لأموال الخزينة، ليخلفه شعبان باشا ثم مصطفى باشا...إلخ[١٤]. لقد كان تعيين الباشا لمدة قصيرة مقدرة بثلاث سنوات عامل مهم في تعزيز حلقة البحث عن الثروة والنهب ومحاولة تحقيق أكثر ربح في هذه الفترة، هذا ما جعل من مقومات السلطة تتلاشى لتبقى مجرد مظاهر وشكليات تتمثل في القصر والحرس الخاص، أما السلطة الحقيقية فقد انتقلت من الباشا إلى الديوان بعدما كان هذا الأخير لا يملك إلا رأيًا استشاريًا أصبح هو المرجع في تسيير شؤون الدولة[١٥].

حكم الأغوات[١٦] (١٦٥٩-١٦٧١م):

حظي حكم الباشوات على سخط السكان وغضبهم، هذا ما دفع بالدولة العثمانية إلى تبديله بحكم الأغوات، فاستغل اليولداش هذه المناسبة لتقلد مناصب الحكم ولم تستطع فرقة الرياس البحرية التصدي لمخططهم بسبب ضعفها الناتج عن هلاك أغلب أسطولهم في معركة البندقية، فقرر قادة اليولداش إعطاء السلطة التنفيذية لأحد أعضائهم، وأطلقوا عليه تسمية الآغا، وكانت مدة حكمه لا تتجاوز ثلاثة أشهر. أما السلطة التشريعية فقد تم إسنادها إلى الديوان، وقد أثبت هذا الحكم فشله منذ البداية كسابقه، حتى أنه يعتبر أسوء منه حيث كان مآل كل الأغوات القتل بسبب الفتنة التي كانت سائدة، وفي هذه الفترة برز الصراع الفرنسي الإنجليزي حول السيطرة على شمال إفريقيا[١٧].

حكم الدايات (١٦٧١-١٨٣٠م):

في هذا الحكم أصبح الحاكم الذي أطلق عليه تسمية الداي[١٨] يعين في منصبه مدى الحياة، على عكس الأنظمة السابقة، حيث يتم تعيينه بناءً على اقتراح من الديوان العالي، وتعيين رسمي من طرف السلطان العثماني. كما أنه في ظل هذا الحكم أصبحت الجزائر أكثر استقلالاً عن الإمبراطورية العثمانية، فالداي ينتخب من طرف الديوان العالي (المجلس) كما سبق الذكر هذا الأخير الذي يعتبر السلطة التشريعية في الجزائر، ليتم تثبيت اختيار الديوان العالي للحاكم عبر إصدار مرسوم"فرمان"من طرف السلطان العثماني ليقضي بالتعيين الرسمي لهذا المنتخب، ومنه فالدولة العثمانية كانت سلطتها شكلية على الجزائر في هذه الفترة تمثلت في الاعتراف بمراسيم التعيين والتعاون في مجال الحروب كتقديم المساعدة العسكرية للسلطنة في حالة تعرضها لاعتداء خارجي كما حدث بالنسبة لمعركة نافارين سنة ١٨٢٧م[١٩].

التنظيم السياسي والإداري للجزائر في العهد العثماني

قسمت الجزائر في ظل الحكم العثماني إلى ديوانيين: الديوان[٢٠] الخاص وهو مجلس الدولة، والديوان العام وهو المجلس العمومي، فالديوان الخاص الذي هو المجلس التنفيذي للدولة يترأسه الداي صاحب الحكم المطلق ويساعده في مهامه خمس موظفين سامين من الأتراك بمثابة وزراء (والمتمثلين في: الخزناجي وهو نائب الداي المكلف بالخزينة العمومية، وآغا الصبايحية وهو القائد العام للجيش، ووكيل الخرج وهو المسئول عن الوراشات التي تبنى فيها السفن وتموين الأسطول بالأسلحة وصيانة الموانئ البحرية والحربية وتحصينها فهو بمثابة وزير البحرية، وخوجة الخيل مكلف بالجباية والمرافق العامة التابعة للدولة، وبيت المالجي الذي يسهر على تسيير بيت المال والعقود والمواريث)، ثم تأتي مرتبة الكتاب المتكونة من أربعة أعضاء يرأسهم الباشكاتب يتولون مهام إدارية متنوعة مثل تحرير الرسائل وغيرها، بالإضافة إلى شيخ الإسلام المكلف بالعدل والشؤون الدينية، ووكيل الخرج المكلف بالمئونة الغذائية للسكان، كذلك هناك رجال الأمن وقائد الفحص المكلف بتحصيل الضرائب، في حين أن الديوان العام الذي يمثل المجلس التشريعي يتكون من الموظفين السامين الأتراك[٢١].

أما فيما يتعلق بالتنظيم الإداري فقد تم تقسيم الجزائر إلى أربعة مقاطعات إدارية وهي كالتالي[٢٢]:

١-دار السلطان:

توجد هذه المقاطعة الإدارية في الجزائر العاصمة ونواحيها، حيث تمتد من مدينة دلس في الشرق إلى مدينة شرشال غربا، أما في الجنوب فيحدها البايليك التيطري، كما أن مقر نائب السلطان العثماني يقع في هذه المقاطعة.

٢-بايليك[٢٣] الشرق:

وعاصمتها قسنطينة وتمتد هذه المقاطعة من الحدود التونسية شرقًا إلى غاية بلاد القبائل الكبرى في الغرب، أما من الشمال فيحدها البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب الصحراء.

٣-بايليك الغرب:

تمتد هذه المقاطعة الإدارية من الحدود المغربية غربا إلى غاية بايليك التيطري شرقا، أما في الجنوب فتحدها الصحراء ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط، كما أن هذه المقاطعة شهدت تغيرا في مقر عاصمتها، فبعد أن كانت مازونا هي العاصمة إلى غاية عام ١٧١٠م، انتقلت العاصمة إلى مدينة معسكر، ثم صارت وهران هي العاصمة بعد مغادرة الإسبان منها عام ١٧٩٢م.

٤-بايليك التيطري (الوسط):

وتعتبر أصغر المقاطعات الإدارية، كانت عاصمتها المدية، تتوسط سهل المتيجة والصحراء من الشمال إلى الجنوب.

الحياة الاقتصادية والاجتماعية الجزائرية في ظل الحكم العثماني

فيما يتعلق بالجانب الاقتصادي فكانت الوضعية لا بأس بها في الجزائر إبان هذه المرحلة، فعلى الرغم من أن الصناعة لم تكن متطورة بالمقارنة مع الدول الأوروبية المجاورة، إلا أنها كانت تعرف معظم الصناعات التي تعرفها أوروبا مثل صناعة النسيج والأحذية والدباغة والسروج ومواد السفن والسلاح والبارود... إلخ، هذا بالإضافة إلى صيد السمك، وأغلب هذه صناعات كانت تسد حاجيات السكان بالإضافة إلى تصدير الفائض، أما المبادلات التجارية مع الخارج فقد كانت تجرى مع كل من تونس والمغرب بالإضافة إلى بعض الدول الأوروبية[٢٤]، وكانت الصناعة المحلية منظمة تنظيما دقيقا بحيث كان الحرفيين منخرطين في نقابات حسب التخصص، كما لعبت الهجرة الأندلسية دورا مهما في تحريك النمو الاقتصادي من خلال إدخال العديد من الحرف المتطورة في مختلف الميادين العمرانية، والفلاحية، والصناعية، أما سكان الريف فيمثلون أغلبية السكان ويشتغلون في الفلاحة من تربية المواشي وزراعة الأراضي الخصبة بمختلف المنتجات خاصة القمح والشعير[٢٥]

أما الحياة الاجتماعية[٢٦] فقد كان المجتمع الجزائري في العهد العثماني مقسم إلى عدة طبقات وطوائف كل حسب الأصول والجهات التي ينتمي إليها. حيث كان الأتراك يمثلون الطبقة الحاكمة التي تسند إليها أهم المسؤوليات وتتمتع بكل الصلاحيات والامتيازات لممارسة السلطة، والكراغلة (أب تركي وأم جزائرية)، وهناك أهل المخزن من القبائل الحليفة الذين يملكون أراضي خصبة، وهناك القادمون من وادي ميزاب بالإضافة إلى السود المتحررون الذين كانوا يحترفون الموسيقى وفنون البناء ...إلخ [٢٧]

الحياة الثقافية والدينية

تميزت هذه المرحلة بسيادة الإسلام الذي كان رابطا متينا محكما بين مختلف أصناف السكان، وكان يعمل على صهر السكان ليشعروا بالانتماء إلى أمة واحدة، أما فيما يتعلق بالمحتوى الحضاري لهذه الفترة فقد شهد العديد من الفرنسيين في فترة الاحتلال بأن الأمية كانت منعدمة تقريبا في الجزائر، فكل السكان كانوا يعرفون القراءة والكتابة، وباعتبار الأتراك لم يكونوا يعتنون بالثقافة مثل الحرب فإن هذا يدل على أن هذا الرقي والازدهار نابع من الجزائريون أنفسهم[٢٨]. إلا أن مكانة الجزائر تراجعت فيما بعد لتقع تحت وطأة الاستعمار وينتهي بذلك التواجد العثماني.

العلاقات الجزائرية في الفترة العثمانية

- **على المستوى المغاربي:** كانت العلاقات المغاربية متوترة، فكانت الجزائر تعتبر تونس إقليما تابعا لها، أما تونس فترفض ذلك، في مقابل ذلك فإن تونس كانت لها أطماع في قسنطينة، أما المغرب فكان لها هي الأخرى أطماع قديمة في تلمسان، وهو ما دفعها لإقامة مؤامرات وتحالفات كثيرة بين البلدان المغاربية من أبرزها زحف تونس وليبيا من تونس إلى قسنطينة عام ١٧٠٢م، وكذا زحف المغرب نحو تلمسان، وكانت أحيانا تلجأ لتحالف مع الدول الأوروبية ضد الجزائر.
- **على المستوى الأوروبي:** كانت الجزائر لاسيما في عهد البايلربايات تتمتع بمكانة مرموقة، إذ أن الدول الأوروبية كانت تقدم لها الهدايا وتدفع لها الضرائب في أوقات الضعف وتبادر بحملاتها العسكرية في أوقات القوة، أما الأسبان فقد كانت العلاقة معها متوترة بسبب هجوماتها وحملاتها الصليبية التي كان يقوم بها على السواحل الجزائرية، والتي منيت أغلبها بالهزيمة، أم فيما يتعلق بعلاقة الجزائر بفرنسا في هذه الفترة فقد كانت جيدة حيث منحتها امتيازات تجارية هامة، وسمحت لها بإنشاء مؤسسات في عنابة والقالة والقل لصيد المرجان وتصدير الحبوب إلى أوروبا مقابل دفع ضريبة للحكومة الجزائرية، كما أن الجزائر اعترفت بالجمهورية الفرنسية بعدما قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م، وكانت تقرض فرنسا أموالاً طائلة ولم يبدأ التوتر بين البلدين إلا بمجيء نابليون بونابرت للحكم وبداية الأطماع الاستعمارية[٢٩].

أما فيما يتعلق بعلاقة الجزائر بالولايات المتحدة الأمريكية فالجزائر أول دولة اعترفت بالولايات المتحدة الأمريكية كدولة مستقلة كاملة السيادة والحقوق، وقد طبعت العلاقة معها بنوع من التعاون تارة، والتوتر تارة أخرى، وذلك بسبب مشكلة مرور السفن الأمريكية عبر البحر الأبيض المتوسط.

الاحتلال الفرنسي للجزائر

أ. انهيار الأسطول الجزائري:

لقد مارست الجزائر هيمنتها على البحر الأبيض المتوسط بفضل أسطولها البحري الذي ساعدها في فرض الضرائب على السفن التي كانت تعبر البحر الأبيض المتوسط مقابل تقديم الحماية لها، هذه الوضعية التي دفعت الدول الأوروبية لتفكير في وضع حد لهذه السيطرة فتحالفت ضدها، ففي عام ١٨١٦ نجحت إنجلترا بضرب الأسطول الجزائري وحطمت جزء منه[٣٠]، وبعد هذه الضربة الموجعة للأسطول الجزائري، قام السلطان العثماني "محمود الثاني" سنة ١٨٢٠م بطلب المساعدة من الأسطول الجزائري لمواجهة الثوار اليونانيون وحلفائهم الأوروبيين، فلبت الجزائر النداء، وفي سنة ١٨٢٧ عاودت الدولة العثمانية طلب المساعدة من الأسطول الجزائري لتعزيز أسطولها

لمواجهة التحالف المسيحي (إنجلترا، وروسيا، وفرنسا) في معركة نفارين البحرية ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧م التي أسفرت عن تحطيم معظم قوات الأسطول العثماني الذي نجت منه حوالي ثلاثين باخرة من بينها عشر بواخر جزائرية، وبهذا خسرت كلا الدولتين أسطولهما في هذه المعركة[٣١].

ب.وقائع الاحتلال الفرنسي للجزائر:

كانت فرنسا تسعى لاحتلال الجزائر منذ خروج إسبانيا نهائيا من وهران ١٧٩٢م، وقد تجسدت هذه المطامع أكثر مع تولي نابليون بونابرت الحكم الذي كان يتوعد بخوض الحرب ضد الجزائر إثر احتجاز الجزائر سفينتين فرنسيتين، وكذا من أجل تحرير الأسرى الإيطاليون والكورسكيين المعتقلين من طرف الحكومة الجزائرية، فبعث بجواسيس ومن بينهم الضابط بوتان boutin سنة ١٨٠٨م من أجل تحقيق مخططها الاستعماري، إلا أن انشغال نابليون في مواجهة الثورة الإسبانية وخوض حملته ضد روسيا حالت دون تنفيذ مخططه في الجزائر[٣٢]، كما طرحت مسألة الجزائر في مناقشات مؤتمر فيينا الذي عقد سنة ١٨١٤-١٨١٥م بعد مرحلة الحروب الثورة الفرنسية، والذي تم فيه طرح مسألة تأسيس الرابطة البحرية من طرف بريطانيا تكون مهمتها إعطاء الأوامر للقناصل المعتمدين في الجزائر، إلا أن المشروع لم يلقى رضا الحاضرين نظرًا لتناقض المصالح الأوروبية، لكن بريطانيا ورغم فشلها في تمرير مشروعها فإنها أرسلت حملة عسكرية بقيادة اللورد اكسموث لضرب الجزائر العاصمة في ٢٧أوت ١٨١٦م، ثم جاء مؤتمر اكس لاشبيل ١٨١٩م الذي اتفقت فيه الأمم المسيحية على ضرورة إبعاد القوة العسكرية الجزائرية ووضع حد لسيطرتها على البحر الأبيض المتوسط، حيث وافقت ٣٠ دولة أوروبية على فكرة القضاء على الجزائر وأسندت المهمة إلى فرنسا وإنجلترا.[٣٣]

وفي عام ١٨٣٠م نفذت فرنسا نواياها تجاه الجزائر بدعوى منع تعدي قراصنة البحر المسلمين على مراكبها التجارية لكن في حقيقة الأمر كانت تبحث عن مركز حربي لها بشمال إفريقيا حتى لا تكون إنكلترا صاحبة السيادة بمفردها على البحر الأبيض المتوسط، فكانت حادثة المروحة ذريعة مناسبة لها، هذه الحادثة التي تعود وقائعها إلى الخلاف الواقع بين الحكومة الفرنسية والباي حسين بسبب بعض الديون الجزائرية على الحكومة الفرنسية[٣٤]، وتتلخص قضية هذا الدين (ثمن القمح) في المؤامرة التي كان طرفيها التاجرين اليهوديين في الجزائر بوخريص (المدعو بكري) وبوشناق من جهة والوزير الفرنسي- تاليران والقنصل الفرنسي في الجزائر ديفال من جهة ثانية، حيث تعهد بوخريص وبوشناق بإعطاء نصيبا من الديون إلى الوزير والقنصل في حال نجحا في إقناع الحكومة الفرنسية على تسديدها، وبالفعل استطاع كل من تاليران وديفال في إقناع الحكومة الفرنسية التي دفعت عدة أقساط إلى شركة بوشناق وبوخريص دون أن تدفع شيئا إلى الخزينة الجزائرية، وأبقت جزءًا من هذه الديون تحت الرهن في حالة ما إذا كان هناك أشخاص أو شركات لهم دين على بوشناق وباكري، وقد اتضحت للداي المؤامرة وعرف أن طرفها القنصل ديفال[٣٥]، وفي ٠٣ أفريل١٨٢٧م حظر القنصل الفرنسي- ديفال لتهنئة الداي بعيد الفطر في القلعة الداخلية بمحضر جميع أعضاء الديوان، فكان استقبال الداي له غير بشوش وبعد الحفل، سأل الداي القنصل الفرنسي عن سبب عدم رد الحكومة الفرنسية عن رسائله العديدة بخصوص الدين، فرد عليه القنصل بسوء أدب واستهزاء، فقال له: "**إن حكومتي لا تتنازل لإجابة رجل مثلكم**".[٣٦]

هذا الرد أغضب الداي ودفع به لضرب دوفال بمروحته، فانسحب على الفور من المجلس مهددا بتبليغ حكومته بكل شيء، استحسنت فرنسا تصرف ديفال، وكلفته بتحذير الجزائر و طلبت من الداي تقديم الاعتذار ودفع التعويضات لها عن هذه الإهانة في مدة أقصاها ٢٤ ساعة، انتهت مدة الإنذار ولم يستجيب الداي لهذه الشروط، وأمام هذا الرفض أعلنت فرنسا الحرب على الجزائر، ففرضت عليها حصار طويل دام ثلاث سنوات عانت منه فرنسا والجزائر على حد سواء[٣٧]، وفي جوان عام ١٨٣٠م نزلت القوات الفرنسية المكونة من ٣٧٠٠٠ جندي في سواحل سيدي فرج (الذي كان يبعد ٢٣ كيلومتر غربي الجزائر)، وقد كانت المقاومة عنيفة حيث فقدت فرنسا إثر هذه المعركة ٤٠٠ شخص، في حين استشهد ١٠ آلاف من الجيش الجزائري (الأتراك) ليتم بعد ذلك توقيع وثيقة الاستسلام مع الداي حسين[٣٨].

ويرجع سبب سقوط الجزائر بهذه السهولة في أيدي الفرنسيين يوم ٠٥ جويلية ١٨٣٠م إلى إنفراد الداي بالحكم واعتماده على جيش صغير متكون من جنود أتراك، في حين تم استبعاد أبناء الجزائر من السلطة وكل ما يتعلق بها من مسؤولية الجيش والدفاع عن الوطن[٣٩]، وقد غادر الأتراك الجزائر نهائيا بناء على طلب فرنسا، حيث كانت البداية بمغادرة الداي حسين الأراضي الجزائرية إلى نبولي بناءً على اختياره الشخصي، بعد ذلك جاء دور الأتراك الآخرين الذين تم ترحيلهم يوم ١١ جويلية ١٨٣٠م، عبر السفن الفرنسية التي قامت بحمل الأتراك إلى أسيا الصغرى (أنظوليا)[٤٠].

موقف الإمبراطورية العثمانية من الاحتلال الفرنسي للجزائر

(المشكلة الجزائرية في السياسة الخارجية العثمانية)

لقد عملت الدولة العثمانية على الضغط على عاملها الداي حسين في الجزائر من أجل التساهل مع فرنسا وتلبية شروطها فيما يتعلق بتقديم الاعتذار والتعويضات المطلوبة، فأرسلت الدولة العثمانية مندوبا إلى الجزائر يطلب منه قبول الشروط الفرنسية وتسوية الخلاف القائم بين الدولتين، غير أن مهمة هذا المندوب لم تكتمل بسبب خطف السفن الفرنسية للمركب التي كان هذا المندوب على متنها ولم تطلق سراحها إلا بعد إتمام

فرنسا لمهمتها باحتلال الجزائر[٤١]، وهذا يدل على النوايا الفرنسية بعدم الموافقة على التسوية السلمية وأن شروطها ما هي إلا حجة مكملة لحادثة المروحة لإضفاء الشرعية على حملتها ضد الجزائر، فبرفض الداي للتسوية تكون قد كسبت تأييدًا داخليا وخارجيا لمشروعها الاستعماري.

حاولت الدولة العثمانية استرجاع الجزائر بالطرق الدبلوماسية، وبذلت مساع مكثفة لدى بريطانيا والنمسا وروسيا وفرنسا مؤكدة حقها في بقاء هذا الإقليم تحت سيطرتها انطلاقا من أن السيادة العثمانية عليه معترف بها من قبل المجموعة الدولية، وأن الجزائريين هم رعايا السلطان، كما حاولت استخدام القوة بعد فشل اتصالاتها الدبلوماسية لاسترجاع الجزائر إلا أنها تراجعت عن ذلك بسبب عدم تمكنها من شن حرب على فرنسا لضعف أسطولها وجيشها[٤٢]. لقد كانت الدولة العثمانية تعتبر الجزائر مقاطعة مستقلة لحد أنها كانت ترفض التدخل في شؤونها وكأنها ليست تابعة لها حتى مع علمها بالحملة الفرنسية، ولكن بعد استيلاء فرنسا على الجزائر، أدركت تركيا خطأها بتخليها عن حقها السياسي دون مقابل، وبدأت في إرسال السفراء والبعثات الدبلوماسية[٤٣] لفرنسا ودول أوروبا من أجل استرجاع المنطقة، وقد تم تكليف مصطفى رشيد باشا (سفير تركيا لدى فرنسا) لبدء المفاوضات مع الحكومة الفرنسية من أجل سحب قواتها من الجزائر[٤٤].

واقع العلاقات الجزائرية التركية في الفترة الراهنة وفرص تطورها في المستقبل

تتسم العلاقات التركية-الجزائرية في الفترة الراهنة، بالتعاون في مختلف المجالات خاصة المجال الاقتصادي، حيث أن تركيا تسعى لاسترجاع دورها في القارة الإفريقية كما كان في الماضي، بعد انفصال طويل عن العالم العربي والإسلامي خلال الفترة الاستعمارية التي اجتاحت هذه المنطقة، وحتى بعد الاستقلال، وذلك بسبب السياسة الخارجية التركية في تلك الفترة المعادية للقضايا العربية والإسلامية، حيث كانت تعتبر نفسها دولة أوروبية ساعيًا منها لقبول الاتحاد الأوروبي لعضويتها، ولكن برفض هذا الأخير لهذا المطلب، وكذا حدوث الكثير من التحولات في المنطقة العربية والإسلامية، تتيح لتركيا لعب دورًا استراتيجيًا، لذلك عملت تركيا على استرجاع رابطتها التاريخية مع هذه المنطقة فالمصلحة التركية تحتم عليها التوجه نحو أفريقيا عامة والجزائر على وجه الخصوص باعتبارها بوابة إفريقيا، وبذلك أصبح الطرفين يعملان على تعزيز علاقتهما الاقتصادية والسياسية لتحقيق مصالح مشتركة، فالجزائر تبحث من خلال تعزيز علاقتها مع تركيا لتعزيز موقعها الاقتصادي في الساحة الدولية، أما تركيا فهي تسعى للسيطرة على السوق في شمال إفريقيا واسترجاع مكانتها في المنطقة، فتركيا تهدف في المقام الأول من هذه العلاقة إلى الاستفادة من الثروات التي تتمتع بها الجزائر والتي يأتي النفط في مقدمتها.

إن العلاقات الجزائرية التركية تحكمها الروابط والمصالح الاقتصادية فقط، في ظل تراجع الرابطة السياسية والتي تسعى أغلب الدول الأوروبية وخاصة فرنسا إلى منعها لضمان مصالحها في المنطقة، لذلك يعمل البلدين على تعزيز علاقتهما السياسية وهو ما أكدته زيارة الوزير الأول التركي رجب طيب أردوغان جوان ٢٠١٣ للجزائر التي كانت زيارة ذات طابع اقتصادي وأبعاد سياسية[٤٥]، فتركيا تعمل على تكثيف التعاون البيني وخلق أسواق مشتركة تحفز قوى الإنتاج، كما أنها تعمل على حل المشكلات الأمنية التي تعيق ازدهار المنطقة، فهي تبحث عن السلام في المنطقة من أجل التوسع التجاري وكذا للعب دور الفاعل الإقليمي في المنطقة حيث تستثمر بسخاء، ومن ثم تأتي أهمية الزيارات المتتالية بين قادة البلدين من ذلك زيارة الوزير الأول التركي كما سبق الذكر[٤٦]. فمن الناحية الاقتصادية تعتبر تركيا ثالث أكبر شريك تجاري للجزائر خارج أوروبا، في حين أن الجزائر هي الشريك الإفريقي الأول بالنسبة لتركيا، حيث يبلغ حجم التبادل التجاري بين الجزائر وتركيا، حاليا ٥ مليار دولار، كما يبلغ حجم الاستثمارات التركية في الجزائر ٧مليار دولار، فأكثر من ٢٠٠ شركة تنشط في الجزائر لاسيما في قطاعات التجارة والبناء و"الصناعة"، وقد بلغت صادرات تركيا إلى الجزائر ٢ مليار دولار في عام ٢٠١٣ و٢٠١٤ وتسعى تركيا في هذا الإطار لإقامة منطقة تبادل حر مع الجزائر من أجل دفع العلاقات التجارية الثنائية بين الطرفين، في حين أن الصادرات الجزائرية لتركيا تقدر ب ٣ مليار دولار، وتتشكل على وجه الخصوص من المحروقات(وتستورد تركيا نحو ٤ ملايين متر مكعب من الغاز المسال سنويًا من الجزائر منذ عام ١٩٨٨) والمواد الكيميائية والمواد الأولية لقطاع النسيج[٤٧].

وفي الشق السياسي فالعلاقات بين البلدين تربطهما التوازنات الجيو-استراتيجية المبنية على المصالح المشتركة فهي علاقات يغذيها الاقتصاد وتربطها شرايين الاتفاقيات[٤٨]، فتركيا تنظر إلى الجزائر كبوابة جديدة لإفريقيا لاعتبارين الأول هو تنامي دور الديبلوماسية الجزائرية التي تكاد تنهي الأزمة في مالي وتعمل على تقريب بين الخصوم في ليبيا، كما أنها تعي بأن الجزائر تتمسك على الدوام بمبادئها القائمة على عدم التدخل في الشأن الداخلي للدول فيما تحاول تركيا التطلع إلى أداء سياسي جديد تمليه مرحلة ما بعد موجة الحراك في العالم العربي يبقى أن تركيا والجزائر تحاولان تحقيق مصالح متقاطعة منها دعم تركيا لمساعي الجزائر إلى الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية والاستفادة من الطفرة الاقتصادية في تركيا، فالطرفان يدركان لأهمية تعزيز العلاقات السياسية والاقتصادية مستقبلا انطلاقًا من الروابط التاريخية، لاسيما في ظل التحديات التي يواجهها البلدان وفق رؤية مشتركة[٤٩].

خَاتِمَةُ

عمومًا لقد تم التوصل من خلال هذه الدراسة إلى مجموعة من الاستنتاجات التي تلخص طبيعة العلاقات التركية-الجزائرية من جانبها التاريخي في مختلف تفاصيله والتي تم صياغتها في النقاط التالية:

- لم تكن علاقة الدولة العثمانية بالدولة الجزائرية علاقة السيد بالعبد أي علاقة استعمارية مبنية على سيطرة وهيمنة، وهذا بسبب الظروف التي أوجدت الدولة العثمانية في الجزائر بدرجة كبيرة، فالاهتمام العثماني لم يكن منصب على ضم هذه المناطق البعيدة عنها بقدر ما كان تركيزها على منطقة الشرق الأوسط التي كانت تعتبرها منطقة نفوذ مهمة بالنسبة لها فخاضت الحروب مع هذه الدول لضمها لها كما حدث مع سوريا والعراق، في حين اختلف الأمر مع الجزائر التي كانت بالنسبة للدولة العثمانية حليف استراتيجي أكثر منها مستعمرة أو مقاطعة تابعة لها.
- طبع التواجد العثماني بالجزائر بمميزات إيجابية وأخرى سلبية، فالإيجابية تتمثل في إكسابها أسطول قوي مكنها من بسط سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط والاستفادة من مختلف الغنائم المتأتية من الغزوات والضرائب المفروضة على السفن في مقابل توفير الحماية لها، كما أنها أكسبتها هيبة دولية خاصة بعد القضاء على الإسبان مما جعل الدول الأوروبية تتخوف من مهاجمتها إلى غاية ضعفها الذي فتح المجال أمام الأطماع الفرنسية، أما فيما يتعلق بالجوانب السلبية فتتمثل في تركيز الأتراك على القوة العسكرية وإهمال الجوانب الأخرى، وهو ما انعكس بالسلب على مختلف المجالات الأخرى خاصة المجال الاجتماعي وما تعلق بتحقيق الانسجام والوحدة المعنوية مثلما حققت الوحدة الترابية، هذا بالإضافة إلى عدم قدرة العثمانيين على الاندماج في المجتمع الجزائري بسبب التوجس والخوف من استقلال الدولة الجزائرية عن الدولة العثمانية، كذلك عمل الأتراك في ظل تواجدهم في الجزائر على احتكار السلطة ومختلف المناصب الإدارية والسياسية فيما بينهم وعدم السماح لأبناء الوطن من الوصول إلى هذه المناصب، ونفس الشيء ينطبق على التوظيف في المناصب العسكرية التي كانت حكرًا على الأتراك الأمر الذي حال دون تكوين جيش كبير وقوي، خاصة القوة البرية، فالقوة العسكرية كانت مقتصرة على القوة البحرية على حساب القوة البرية.
- اقتصار القوة الجزائرية العسكرية على القوة البحرية المتكونة من الجنود الأتراك سهل من مهمة الاحتلال الفرنسي للجزائر، هذا الأخير الذي لم يجد مقاومة حقيقية تذكر لعدم وجود جيش برية منظم يقف في وجه هذا العدوان.
- يتضح مما سبق تردد الدولة العثمانية فيما يتعلق بقضية الاحتلال الفرنسي للجزائر، فهي لم تتخذ موقف واضح وصريح بشأنه، كما أنها لم تعر التهديدات الفرنسية بغزو الجزائر أهمية، و لم تقدم مساعدة فعلية لهذه الأخيرة بعد وقوع العدوان، وعلى الرغم من جهودها الدبلوماسية لحل الأزمة فهي لم تكن مثمرة لعدة أسباب: أهمها زمن هذه المفاوضات والتي جاءت في وقت متأخر(بعد الاحتلال وليس أثنا حدوث الاضطراب بين الدولتين والتجهيز الفرنسي للحملة ضد الجزائر)، كما أنها لم تستطع الضغط بشكل فعلي على الحكومة الفرنسية لخوفها من الإضرار بعلاقاتها مع الدولة فرنسية خاصة أنها كانت تهدد بمساندة الحاكم المصري.
- العلاقات الجزائرية التركية الراهنة تحكمها مصالح البلدين، فتركيا حاليًا تسعى لتتصالح مع ذاتها الحضارية الإسلامية، فهي تعتز بماضيها العثماني متعدد الثقافات والأعراق، وبالتالي تعمل على إقامة علاقات متوازنة مع الشرق الإسلامي، ومنه تحقيق التوازن الحضاري بين إرث الماضي ومعطيات الحاضر، الذي يستدعي من تركيا تحقيق مصالحة تاريخية مع محيطها العربي والإسلامي والأفريقي وإقامة شراكة استراتيجية مع دول شمال إفريقيا وبخاصة الجزائر، هذه الأخيرة التي أصبحت تربطها بها في الوقت الراهن علاقات اقتصادية هامة ذات أبعاد سياسية.
- تشهد العلاقات التركية الجزائرية تطورًا إيجابيا يخدم مصالح الطرفين، وهو الأمر الذي يجعل من مستقبل هذه العلاقة سوف يشهد مزيدًا من الترابط، وهو أمر لا تسعى خلفه تركيا فحسب، وإنما الجزائر أيضًا لأن في هذه العلاقة مصلحة مشتركة لطرفين في مختلف المجالات

الهَوامِشُ:

(١) **يغمراس** هو أول ملك للدولة الزيانية سنة (١٢٣٥م).

(٢) عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر: من البداية ولغاية ١٩٦٢**، الطبعة الأولى، (بيروت: دار العرب الإسلامي، ١٩٩٧)، ص٤٧.

(٣) محمد مورو، **بعد ٥٠٠ عام من سقوط الأندلس ١٤٩٢م-١٩٩٢م الجزائر تعود لمحمد صلى الله عليه وسلم**، (القاهرة: المختار الإسلامي للطبع النشر والتوزيع،١٩٩٢)، ص١٧.

(٤) إسماعيل أحمد ياغي، **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**، الطبعة الثانية، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٨)، ص ٢٣٨.

(٥) لقد دبر سالم التومي رفقة بعض الأعيان مؤامرة ضد الأتراك بسبب سوء معاملة الجنود الأتراك للجزائريين، فتفطن لها عروج وقضى على هذه المؤامرة بقتل التومي بيده في حمام منزله وأعلن نفسه سلطانا على مدينة الجزائر.

(٦) عمورة عمار، **موجز في تاريخ الجزائر**، الطبعة الأولى، (الجزائر: دار ريحانة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢)، ص ٩٠.

(٧) مبارك بن محمد الهلالي الميلى، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، الجزء الثالث، (الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية، ١٩٦٤)، ص ٥١.

(٨) أحمد عبد الرحيم مصطفى، **في أصول التاريخ العثماني**، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٣)، ص ٩٣.

(٩) علي محمد الصلابي، **الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط**، الطبعة الأولى، (دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠١)، ص ٣٥٤-٣٥٧.

(١٠)**الباي** هو بمثابة نائب الرئيس، فهو يقوم بأعماله في الإقليم الذي يشرف عليه نيابة عن الداي الذي هو رئيس الدولة، وهو يعتبر من كبار موظفي الدولة.

(١١) **طبقة الرياس:** هم رجال البحر، أي قادة السفن البحرية.

(١٢)عمار بوحوش، مرجع سابق، ص٥٧-٥٨.

(١٣)**الباشا:** أصلها في التركية مأخوذة من كلمة "باش" والتي تعني رأس أو طرف أو قمة أو زعيم، البداية، المبدأ، ...إلخ. وتوضع قبل الصنعة أو الوظيفة مثل باشكاتب، والباشا هو لقب فخري رسمي تقتضيه مكانة الشخص في المجتمع يرتبط بالمدنيين والعسكريين على حد سواء. أنظر مصطفى بركات، المرجع سابق، ص ٨٠.

(١٤)عمورة عمار، المرجع السابق، ص ٩٧.

(١٥)مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مرجع سابق، ص ١٣٨-١٣٩.

(١٦)**الأغا:** في اللغة التركية مأخوذة من المصدر "أغمق" ومعناه الكبر وتقدم السن، وتطلق تسمية الآغا في التركية على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة، ورئيس العسكر، وعلى الخادم الخصي الذي يؤذن له بدخول غرف النساء. لمزيد من التفصيل أنظر: مصطفى بركات، **الألقاب والوظائف العثمانية: دراسة في تطور الألقاب والوظائف لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية (من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات)١٥١٧-١٩٢٤م**، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠)، ص ١٧٣.

(١٧)عمورة عمار، المرجع السابق، ص ٩٩.

(١٨)**الداي:** هو رئيس الدولة (الحاكم الأعلى) وهو القائد العام للجيش في البلاد، وهو المسؤول الأول عن سياسة الدولة.

(١٩)عمار بوحوش، مرجع سابق، ص ٦٠.

(٢٠)**الديوان:** كلمة فارسية استعملت في العهد العثماني وتعني سجل أو دفتر، وهو بمثابة مجلس الوزراء في يومنا هذا ويضم شخصيات المقربة للرئيس، فهو بمثابة الساعد الأيمن لرئيس الدولة.

(٢١)المرجع نفسه، ص ١٠٤.

(٢٢)عمار بوحوش، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٢٣)مقاطعة، عمالة.

(٢٤)المرجع نفسه، ص ٣١٤.

(٢٥)عمورة عمار، مرجع سابق، ص ١٠٦.

(٢٦)لقد احتفظت الجزائر في العهد العثماني، بالتقسيم الاجتماعي ذاته الذي كان سائدًا خلال الفترات التاريخية التي سبقت هذا العهد، فالأتراك اكتفوا بوضع تقسيمًا إداريًا مرنًا، حقق الوحدة الترابية للجزائر (الحدود التي وجدتها فرنسا هي نفسها التي كانت إبان العهد العثماني) دون تحقيق الوحدة المعنوية، هذا ما دفع بالمؤرخين الغربيين للقول بأنه لم يكن هناك وجود للأمة الجزائرية في العهد التركي بسبب عدم الانسجام الاجتماعي ووجود أصناف اجتماعية مختلفة من عروش وقبائل، هذه الآمة حسب رأيهم لم تظهر إلا بعد الاحتلال الفرنسي.

(٢٧)مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مرجع سابق، ص ٣١٦.

(٢٨)المرجع نفسه، ص٣١٧-٣١٨.

(٢٩)عمورة عمار، المرجع السابق، ص ١١٣.

(٣٠)نيلي ألكسندر وفنا دولينا، **الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية: في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر**، ترجمة: أنور محمد إبراهيم، (الإسكندرية: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩)، ص ٣٩.

(٣١)مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مرجع سابق، ص ٣٢٠.

(٣٢)عمورة عمار، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٣٣)بن قايد عمر، محاضرات في تاريخ الجزائر، تم تصفح الموقع على الساعة ٢٠:٠٠ يوم ٢٠١٥/٣/٥ على الرابط:

elearn.univ-ouargla.dz/2013.../document.php?

(٣٤)محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، الطبعة الأولى، (بيروت: دار النفائس، ١٩٨١)، ص ٤٤٧.

(٣٥)مبارك بن محمد الهلالي الميلى، مرجع سابق، ص ٢٧١.

(٣٦)حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، ترجمة: محمد العربي الزبيري، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ١٩٧٥)، ص ١٤٢.

(٣٧)عزيز سامح التر، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، الطبعة الأولى، ترجمة: محمود علي عامر، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٩)، ص ٦٣١ ٦٣٢.

(٣٨)فائقة محمد حمزة عبد الصمد بحري، **"أثر الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا"** (رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث، جامعة أم القرى السعودية، ١٩٨٩م)، ص١١٥.

(٣٩)عمار بوحوش، مرجع سابق، ص ٩٠.

(٤٠)أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية ١٨٣٠-١٩٠٠**، الجزء الأول، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م)، ص ٢٠.

(٤١)محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٤٤٧.

(٤٢)إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

(٤٣)ولابد من الإشارة إلى أنه من العوامل التي دفعت بالدولة العثمانية استئناف المفاوضات مع فرنسا بخصوص القضية الجزائرية عام ١٨٣٤م هو العريضة التي رفعها حمدان أفندي -السكرتير السابق لباي الجزائر -للسلطان محمد الثاني في ١٨ يوليو سنة ١٨٣٣م، يشكو فيها ما يعانيه الشعب الجزائري من الاحتلال ويطلب مساعدته، فبدأ مصطفى رشيد رسميًا مفاوضاته مع الحكومة الفرنسية في ديسمبر عام ١٨٣٤م بناءً على أمر السلطان، فدارت المفاوضات مع وزير الخارجية الفرنسي الأدميرال دى ريني. وقدم له السفير التركي مذكرة حكومته بشأن القضية لكنه رفضها بسبب عزم فرنسا على عدم ترك الجزائر، وبعد جهود كثيرة لهذا السفير سواء مع فرنسا أو بريطانيا والنمسا وروسيا وغيرها من الدول التي عقد عليها الأمل في حل هذه المشكلة إلا أن جهوده باءت بالفشل في نهاية المطاف.

(٤٤)نيلي ألكسندر وفنا دولينا، مرجع سابق، ص ٣٩-١٤٠.

(٤٥)سليم قلالة، **"مصلحة الجزائر اليوم تكمن في تقوية علاقتها مع تركيا"**، جريد المقام، تم تصفح الموقع يوم ٢٠١٥/٠٣/٢٨ على الساعة ١٤:٣٠ على الرابط التالي:

http://www.elmakam.com/?p=2076

(٤٦)**العلاقات الجزائرية التركية... التاريخ والجغرافيا**، تم تصفح الموقع يوم ٢٠١٥/٣/٢٨ على الساعة ١٦:٢٠ على الرابط التالي:

http://elraaed.com/ara/sahebrai/

(٤٧) **باحثون جزائريون يرشحون العلاقات الجزائرية التركية للتطور مستقبلاً**، تم تصفح الموقع يوم ٢٠١٥/٣/٢٨ على الساعة ٢٢:٠٠ على الرابط التالي:

http://almagharibia.tv/

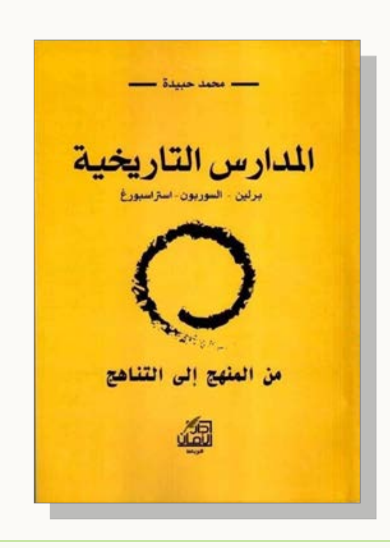
(٤٨)معاهدات واتفاقيات الصداقة والتعاون والتشاور المبرمة سنتي ٢٠٠٦ و٢٠٠٨ التي تهدف لإعادة صياغة أرضية جديدة للانطلاق نحو أداءات سياسية أكثر تطابقًا.

(٤٩)**زيارة أردوغان للجزائر-الإذاعة الجزائرية**، تم تصفح الموقع يوم ٢٠١٥/٠٣/٢٩ على الساعة ٢١:٠٠ على الرابط التالي:

www.radioalgerie.dz/news/ar/article/.../20059.html



المدارس التاريخية: برلين، السوربون، استراسبورغ
من المنهج إلى التناهج





محمد أبـرهموش
أستاذ التعليم الثانوي – وزارة التربية الوطنية
باحث في التاريخ الاجتماعي – كلية الآداب
القنيطرة – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

محمد حبيدة
المدارس التاريخية: برلين، السوربون، استراسبورغ.
من المنهج إلى التناهج

دار الأمان
الرباط، الطبعة الأولى ٢٠١٨
٢١٦ صفحة

كلمات مفتاحية:
المدارس التاريخية، أوروبا، المنهج، التناهج، الكتابة التاريخية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052966

مقدمة

قطع البحث التاريخي أشواطًا مهمة في القرون الماضية الأخيرة، سواء على المستوى النظري أو المنهجي أو العملي، مما ولد نماذج إسطوغرافية، لا يمكن للمهتمين بالمناهج وبالكتابة التاريخية تغافلها. فهذه المدة الزمنية، لم تخل من تحولات متواصلة، فعفعت النظريات والمناهج والنتائج، إذ من بناء المنهج التاريخي إلى البحث عن التناهج، شهدت المعارف الإنسانية تدافعات إبستمولوجية، ساهمت في ولادة مدارس تاريخية رائدة. من برلين إلى السوربون ثم استراسبورغ. من الوضعانيين إلى المنهجيين وصولا إلى الحولياتيين. في هذا المبحث، الذي تفوح منه قضايا عميقة وسياقات غزيرة، ينخرط محمد حبيدة بكتابه: "المدارس التاريخية"، الصادر عن دار الأمان هذه السنة (٢٠١٨).

يتكون متن الكتاب من ٢١٦ صفحة، يتتبع فيها المؤلف بحس نقدي، إشكالية المنهج والتناهج في الإسطوغرافيا الأوروبية والغربية. وينتظم هندسيا في قسمين: قسم أول، يقارب طور مدرستي برلين والسوربون: الوضعانية والمنهجية/الوثائقية. وقسم ثان، يتوقف فيه أكثر عند تجربة الحوليات الفرنسية وآثارها، ليس على مستوى نمط الكتابة التاريخية فحسب، بل كذلك على مستوى تلاقحاتها وانفتاحها على مناهج العلوم الاجتماعية الأخرى، أي التشوف إلى تحقيق التناهج، قبل أن يخوض في أزمتها الإبستمولوجية أو منعطف "التاريخ المفتت"، بتعبير أطروحة فرنسوا دوس[1]. إضافة إلى مقدمة عامة، تجود على القارئ بالمفاتيح الأولية لمتابعة الإنتاج الإسطوغرافي في الغرب. ثم خاتمة نقدية تركيبية، تنتصر لأهمية الكتابة في إنتاج المعرفة التاريخية.

ومن خلال العنوان، يبدو أن هذه الدراسة تنصهر في بوتقة اهتمامات مؤلفها، ذات الصلة بالمناهج والترجمة والأنثربولوجيا التاريخية والتاريخ الاجتماعي. إن الكتاب في الأصل، عبارة عن محاضرات ودروس وسيمنارات، راكمها الأستاذ محمد حبيدة منذ ثلاثين سنة مضت، أي المدة التي مارس فيها تدريس المناهج التاريخية، قبل أن يعمل على تحويلها إلى بحث أكاديمي موجه للباحثين والطلاب، يبرز فيه مدارات الخطاب التاريخي. من المدرسة الوضعانية، إلى المنهجية، إلى الحوليات. من برلين، إلى السوربون، إلى استراسبورغ. من تأسيس المنهج، إلى ممارسته، إلى البحث عن التناهج. هو ما يعبر عنه العنوان الفرعي للكتاب: "من المنهج إلى التناهج". إنه مسار التجديد والابتكار والتأثير والتأثر، تظهر فيه الكتابة التاريخية كأنها دائرة مفتوحة،

متواصلة، متجددة باستمرار[٢]، كما ترمز لها واجهة غلاف الكتاب.

والجدير بالذكر، أن المؤلف ذيّل مصنفه بملحق يضم باقة من النصوص، بلغ عددها ٤٠ نصًا مترجمًا، وتشغل حوالي ٦٠ صفحة من حجم الكتاب، تغوص في إبستمولوجيا وقضايا البحث الإسطوغرافي. وهي من إنجاز باحثين في تخصصات العلوم الاجتماعية والإنسانية. من أمثال: إميل دوركايم، وشارل سنيوبوس، ومارك بلوك، ولوسيان فيفر، وفيرناند بروديل، وكلود ليفي ستراوس، وجاك لوغوف، وميشال دوسيرتو، وبول ريكور، وغيرهم. إن هذه الشبكة من النصوص، التي لمها الكاتب وخبرها أثناء تدريسه للمناهج التاريخية، لمدة تزيد عن ربع قرن، قد مكنته من التوصل إلى تقنية بيداغوجية تساعد الطلاب على تعرّف واستيعاب أساسيات المدارس التاريخية، انطلاقا من نصوص أو فقرات مرجعية من مختلف خطابات المنهج والتناهج[٣].

في سياقات المنهج التاريخي:

من الوضعانيين إلى الوثائقيين

حاول المؤرخ محمد حبيدة، في القسم الأول أن يجول بالقارئ، المتخصص وغير المتخصص، في فضاء تقدم الدراسات التاريخية، بالتركيز على العوامل الممهدة لوضعانية القرن التاسع عشر، عصر التخصص، حين غلب التجريب على التجريد، مما أتاح إمكانيات لبناء قواعد المنهج العلمي على الملاحظة والتجربة. هذا ما تحقق أولاً في مجال علوم الطبيعة، قبل أن تتأثر بها علوم الإنسان ثانيا، في إطار بناء قواعد موضوعها ومنهجها.

على مستوى التاريخ، يبرز المؤلف أن مخاض ظهور التاريخ كعلم قائم بذاته، كان عسيرًا، فقد استلزم ذلك المرور من مرحلتين: التحرر من التصور الديني من جهة، حيث صارت الكتابة التاريخية نمطًا علميًا، وواقعيًا، وعلمانيًا. ثم الابتعاد ما أمكن عن الفلسفة والنظريات من جهة ثانية، بحيث لم يعد المؤرخ يهدف إلى سبر منطق تطور الحضارات والشعوب، بل أصبح عمله ينحصر في ملاحقة سير التاريخ وتفاصيلها الدقيقة. ضمن هذه اللقطات الابستمولوجية المثيرة، يرى صاحب الكتاب، أن القرن الثامن عشر، عصر الفلسفة، حرّر التاريخ من اللاّهوت، بينما القرن التاسع عشر، قرن العلم بامتياز، خلّص البحث التاريخي من السجالات الفلسفية بفضل توجهات الوضعانيين بألمانيا. ذلك أن المؤرخ توشح بزي جديد، "زي العلماني والعالِم، زي المحلل والناقد"[٤].

يقارب محمد حبيدة في هذا العمل، وفي أعمال أخرى إبستمولوجيا المناهج وعمل المؤرخ، قصد تقديم إضاءات تكشف عن مجاري المعرفة التاريخية في أوروبا قبل القرن التاسع عشر. من عصر الفلسفة إلى عصر العلم والتاريخ الوضعاني، وصولاً إلى القرن العشرين، قرن التاريخ الحولياتي، قبل أن ينتقل إلى استحضار نماذج واعدة في الكتابة التاريخية، من قبيل "التاريخ من أسفل"، والتاريخ المجهري أو "الميكروسطوريا". متسلحًا في ذلك بالمؤلفات الأصلية، التي اعتنت بقضايا المنهج والإسطوغرافيا، الفرنسية منها والإنجليزية والمترجمة من الألمانية إلى الإنجليزية. إضافة إلى اطلاعه على دراسات باللغة العربية تهم قواعد منهج التاريخ في أوروبا. ومن نافلة القول، أن الباحث نشر قبل سنوات نصوصا مختارة، عن توجهات إسطوغرافية متنوعة، نقلها إلى العربية في صيغة كتاب، بعنوان: "من أجل تاريخ إشكالي"، يتناهج مع العلوم الاجتماعية الأخرى، ويستحضر ورشي الذاكرة والعقليات[٥]. إنه هم معرفي يهدف إلى تحديث المعرفة التاريخية في الأوساط المغاربية والعربية، تصورا، ومنهجا، وكتابة.

يُعَدّ القرن التاسع عشر، حسب المؤلف، مرحلة مفصلية في محطات مهنة المؤرخ، خصوصا بين أروقة جامعتي برلين والسوربون الرحبة، بقيادة مؤسسي التاريخ الوضعاني، كالمؤرخ الألماني ليوبولد فون رانكه، أبو التاريخ المنهجي، وأنصاره بفرنسا، أمثال: إرنست لافيس، وشارل سنيوبوس، وشارل لونغلوا، وغابريل مونو، وكاميل جوليان. مع هؤلاء انتعش التاريخ الوضعاني ووصل أوجّه، ذلك بفضل تضافر الحس الأرشيفي الوطني والمنهج التاريخي المتبع في ألمانيا. وهو ما عبرت عنه بفرنسا تجربتا، "المجلة التاريخية" وكتاب "مدخل للدراسات التاريخية"، اللتان ركزتا على كتابة التاريخ، كتابة موضوعية علميا وصارمة منهجيا، تقوم على الوثائق، ولا شيء غير الوثائق المكتوبة الأرشيفية، كما أقر واضعو التاريخ المنهجي[٦]، مما أفضى إلى بروز صنف من الإسطوغرافيا، متقوقع على نفسه في رحاب الثانويات والجامعات، لا يتجاوز المكاتب المكيفة بتعبير لوسيان فيفر[٧]. بيد أنه رغم قصور هذا المنهج، وقوقعة إنتاجه في التاريخ الحدثي السياسي والعسكري والدبلوماسي، سواء في النموذج الألماني أو الفرنسي. فإليه يعود الفضل في تأطير عمل المؤرخ وابتكار قواعد علم التاريخ[٨]، بل وضعه أيضا، الحجر الأساس لكتابة "تاريخ توليفي يلم شتات ما تفرق في السابق من التآليف والدراسات، على نحو وصفي، حدثي، تحقيبي"[٩].

فكك صاحب الدراسة تحدي آخر، اعترض البحث التاريخي في نهاية القرن التاسع عشر، تمثل في السوسيولوجيا الدوركايمية، التي شنّ أنصارها نقدا لاذعا على المؤرخين والدراسات التاريخية. فقد عمل فرانسوا سيمياند على تحطيم المعبودات الثلاثة للمؤرخين: السياسي، الفردي، التسلسل التاريخي، مع إبداء رغبته في تاريخ إشكالي، تفسيري، اجتماعي، يهتم بالظواهر الاجتماعية والجماعات والمؤسسات[١٠]. إن هذا النقد يتقاطع بشكل كبير مع ما عدّده دوركايم من عيوب يتسم بها نهج الإسطوغرافيا الوضعانية، خاصة غياب المقارنة والتفسير. لقد دفع علم الاجتماع المؤرخين، إلى "إعادة صياغة تصوراتهم واستشكال موضوعاتهم وتنويع مصادر معطياتهم"[١١].

محطة ميلاد الحوليات وأفق التناهج

أمام كل التحديات التي أثارها السوسيولوجيون أمام المؤرخين، عمل مارك بلوك على تخصيب مقاربته التاريخية للأزمنة الوسيطية، بمفاهيم ومناهج ومقولات سوسيولوجية، كي "يستطيع الانتقال من المستوى الأفقي، مستوى الكتابة الإخبارية إلى مستوى عمودي، مستوى الكتابة المفاهيمية"[١٢]، لإنتاج نصوص توليفية تعالج الماضي من زاوية البنيات والعقليات بدل الأحداث والتفاصيل، اعتمادا على شبكة منهجية ثلاثية: السؤال والتركيب والمقارنة من أجل التفسير والتأويل. فـ"السؤال لاستنطاق الوثائق والتركيب لتجاوز التفاصيل وتوليد الأفكار، والمقارنة لتجاوز التوصيف وبلوغ درجة التفسير"[١٣]. إن هذه الرؤية النظرية من شأنها أن تحرر التاريخ من سجون الوثيقة المكتوبة والمنهج الوضعاني والتاريخ الحدثي. هو ما التزم به مارك بلوك في دراساته وأبحاثه الغنية، كأول مؤرخ يكتب التاريخ الاجتماعي المقارن: مقارنة أفقية مجاليا، ومقارنة عمودية زمنيا. هذا الواقع، يقول محمد حبيدة: هو الذي "أهل أرباب الحوليات الأوائل لزرع روح مفاهيمية حية في تخصص راكم قاعدة منهجية كانت قد شاخت من فرط التدقيق في السنوات والتفاصيل"[١٤].

في هذا الكتاب، المتسلسل زمنيًا، والمتداخل موضوعاتيًا وسياقيًا، يشرع الكاتب نافذتين على روافد مجلة الحوليات قبل نشوئها. متوقفا عند أفكار كل من المؤرخ جول ميشلي والفيلسوف هنري بير، اللذان لقحا الكتابة التاريخية بفيض نابض بالحياة وبروح مشبعة بالتركيب. فقد لامس الأول، تاريخ المجتمع والأحاسيس في كتاباته وأعماله المنفردة إبان عصره، التي تعج بوجدان وعقليات الهامشيين في السرديات التاريخية المصدرية والمرجعية.

أما الثاني: هنري بير، فقد هيج انتباه رواد الحوليات قبل نشوئها، إلى أهمية التركيب في التاريخ. إلى أهمية الانعتاق من التفاصيل وتوليد الأفكار لتفسير الماضي. إن هذا الرجل، يقر فيرناند بروديل، "هو إلى حد ما الحوليات قبل نشوئها منذ سنة ١٩٠٠، وربما منذ عام ١٨٩٠"[١٥]. لقد أقبل على تأسيس "مجلة التركيب التاريخي"، جامعا حوله باحثين من مختلف التخصصات، شغفا في تعميق النقاش وإنتاج أفكار توليفية، تجسر العلاقات بين العلوم الاجتماعية، وتجمع بين التحليل والمقارنة والتركيب. لكن رغم استجابة بعض المؤرخين لنداءات هنري بير، فقد اتجهت رؤاهم التناهجية، لا سيما مارك بلوك ولوسيان فيفر، نحو السوسيولوجيا والجغرافيا وعلم النفس الاجتماعي.

أفرد المؤلف القسم الثاني من دراسته لمدرسة استراسبورغ، ولا غرابة في ذلك. فقد شكل ظهور مجلة الحوليات الفرنسية سنة ١٩٢٩، منعطفًا مفصليًا في توجهات الدراسات التاريخية. لحظة بارزة في انتقال الإسطوغرافيا من الهوس بالمنهج إلى الرغبة في التناهج، بفضل أعمال الثنائي: لوسيان فيفر، المتخصص في التاريخ الحديث، ومارك بلوك المهتم بالقرون الوسطى، إذ بهدف تحقيق تقدم المعرفة التاريخية ومواجهة تحديات العلوم الأخرى، بلور الرجلان في فضاء جامعة استراسبورغ مشروع الحوليات، الذي يقوم على تخصيب المقاربة التاريخية بنتائج أبحاث علوم الاقتصاد والاجتماع والجغرافيا والنفس، لاستعارة المفاهيم وتمديد الإشكاليات وبسط الأسئلة. لقد "نقل هذان المؤرخان التاريخ من البحث في الأحداث إلى البحث في البنيات"[١٦]، مما استدعى توظيف شواهد تاريخية متنوعة، ليس الوثيقة المكتوبة الأرشيفية فحسب، بل كل ما خلفه الإنسان من آثار مادية وغير مادية، أي "كل ما قاله الإنسان، وما كتبه أو ما صنعه"[١٧].

وبصفة عامة، يُنبه محمد حبيدة إلى أن المتقصي لحصيلة إنتاجات مارك بلوك ولوسيان فيفر، لا شك أنه يتحسس انشغالهم الكبير بقضايا المنهج التاريخي. ألّف الأول بحثا منهجيا "دفاعا عن التاريخ"[١٨]، أما الثاني فقد نسج مقالات منهجية أدمجت بين دفتي كتابه: "معارك من أجل التاريخ"[١٩]، بيد أنه رغم اقبالهم المشترك على شق طريق الحوليات بالعديد من المباحث والإشكاليات التاريخية، فقد اختلفا في وجهة الانفتاح والاقتباس. ففي الوقت الذي استحضر بلوك الخلفية السوسيولوجية الدوركايمية، اقترب فيفر من الجغرافيا الفيدالية الإمكانية في البداية، قبل أن يستقر اختياره على السيكولوجيا الاجتماعية، لفض بكرة تاريخ الأنساق الثقافية والتمثلات والحساسيات الجماعية المهمشة.

لقد حذق هذان المؤرخان، رفقة مؤرخين شباب ومخضرمين، في تشييد ونشر ملامح تيار إسطوغرافي مجدد، خلف العديد من الإنتاجات والانتصارات في معاركه المفتوحة من أجل التاريخ والتناهج بين علوم الإنسان، خاصة حين خفتت أصوات علم الاجتماع والجغرافيا، بعد وفاة السوسيولوجي إيميل دوركايم والجغرافي فيدال دولابلاش.

عاشت الحوليات منذ تأسيسها سنة ١٩٢٩ تغيرات كثيرة في العناوين الفرعية لمجلتها[٢٠]. هو ما يفصح حسب أحد الباحثين، "عن التحولات النظرية والمنهجية الأساسية في حياة هذا الاتجاه التاريخي. ويكفي لإدراك ذلك التمعن في دلالة هذه العناوين وتطورها"[٢١]. نعم لا شك في ذلك، فعناوينها الفرعية تعبر عن معارك معرفية خاضها الخطاب الحولياتي عبر تاريخه الفكري الطويل، وانتصر فيها مرارًا بفضل تعاقب أجيال من المؤرخين على إدارة المجلة، واصلوا التناهج على جبهات علمية مختلفة، ما مكنهم من التكيّف مع التحديات المعرفية والمستجدات النظرية[٢٢]. هو ما لعب كذلك، دورًا كبيرًا في سمعة الحوليات وانتشارها خارج فرنسا، حتى أصبح لها ممثلون ومنتسبون في كل أنحاء العالم[٢٣].

إذا كان جيل ثنائي استراسبورغ، تعاطى لأوراش التاريخ الاجتماعي والثقافي، فقد ركزت أعمال الجيل الثاني من الحوليات على التاريخ الاقتصادي والثقافة المادية بقيادة

فيرناند بروديل، الذي عمل على توسيع مساحة التناهج والحوار بين العلوم الاجتماعية. كما ابتكر تصورا ثلاثيا للزمن التاريخي: الزمن الجغرافي أو الأمد الطويل، الزمن الاجتماعي أو الأمد الدوري، الزمن الفردي أو الأمد القصير. أي من البنيات إلى الأحداث مرورًا بالظرفيات[٢٤]. يشير هذا التقطيع الزمني إلى تعدد وجهات التناهج والاقتباس من علوم مجاورة، كالجغرافيا وعلم الاقتصاد والسوسيولوجيا والأنثربولوجيا.

منح بروديل أهمية كبيرة للزمن الطويل، بغرض مواجهة بريق التحليل البنيوي مع الأنثربولوجي كلود ليفي ستراوس. هذا على الأقل ما تعبر عنه أطروحته: "الحوض المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليبي الثاني"، التي ناقشها سنة ١٩٤٧ تحت إشراف أستاذه لوسيان فيفر. إضافة إلى كتابه: "الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية" سنة ١٩٦٧. يقول حبيدة: "تبقى دراسة البنيات المادية هي الخيط الناظم بين الكتابين، وذلك بفضل الاحتكاك الكبير والمثمر مع الماركسية والبنيوية"[٢٥]. إن الأمد الطويل يتصل بمفهوم البنية. فهو تاريخ بنيات مادية وذهنية شبه ثابتة، بطيئة، ومتكررة. إنه تاريخ شمولي انعكس كثيرا على كتابات ثلة عريضة من المؤرخين في فرنسا وأوروبا، بل ذاع صيته في العالم، وألهم العديد من الباحثين والجامعات. فأنشئت عدة مراكز علمية للبحث في التاريخ الاقتصادي والحضارات في أوروبا وخارجها. هنا إذن، "كان اللقاء مع كليو وهي ملهمة تأخذ شكل شبح يخيم على عقول عالمنا الحديث"[٢٦].

بيّن محمد حبيدة أنه مع الجيل الثالث من الحوليات، في السبعينيات من القرن العشرين، غير مؤرخو الحوليات عدسة التناهج، من التاريخ الشمولي نحو التاريخ الأنثربولوجي أو الأنثربولوجيا التاريخية، في إطار مشروع "التاريخ الجديد"، الذي تزعمه جاك لوغوف باهتمامات تُشرّح حقول الذهنيات والمخيال والرموز، مما دفعه إلى تبني الحس الأنثربولوجي، للغوص في ثنايا الطقوس والسلوكيات والتمثلات في القرون الوسطى.

لقد وصلت رغبة التناهج حد التخمة في هذه المحطة، بفعل الاقتباس المفرط لمفاهيم العلوم الاجتماعية، خاصة الأنثربولوجيا. فأمست الأبحاث التاريخية مولعة بتاريخ العقليات أو الذهنيات. عبارة عن خليط من الفكر الإثنولوجي والفلسفي وعلم النفس الاجتماعي. من أجل ذلك وظف الحولياتيون قوائم بيبليوغرافية، تزاوج بين المصادر المادية وغير المادية، بين الوثائق المكتوبة والشفهية، مع الانتقال من البحث في أطوار البنيات المادية إلى مستويات الإشارات والرموز، من الديمغرافيا التاريخية إلى تاريخ التصورات والتمثلات، من تاريخ الأفعال إلى تاريخ الطقوس والرموز[٢٧]. يكفي الاطلاع على أبحاث مؤرخين مرموقين، من قبيل ميشيل فوفيل وفليب أرياس وبيير شوني، رفقة جاك لوغوف، لاستقصاء ما خلفه هذا الجيل من روائع، تهم تاريخ الموت والحياة والجنس والعائلة والتغذية وغيرها من المباحث، التي تندرج ضمن أوراش التاريخ الاجتماعي والثقافي بشكل عام.

أزمة التفتت والمنعطف الجديد

معلوم أن الخطاب الحولياتي وصل إبان الثمانينيات من القرن العشرين، إلى منعطف إبستمولوجي جديد، تطبّع بأزمة وتفتت التاريخ وضياع موضوعه، بفعل استعارته المفرطة لأزياء الأنثربولوجيين[٢٨]. فانحرف التاريخ عن الشمولية والتركيب. لكن جاك لوغوف، زعيم "التاريخ الجديد" له رأي آخر، حيث اعتبر أن "كل شكل من أشكال التاريخ الجديد هو محاولة لإنشاء تاريخ كلي"[٢٩]. ومع ذلك، فإنها أزمة لم تمس فقط الخطاب التاريخي، بل ابتلت معظم العلوم والمعارف، في سياق "المنعطف اللساني النقدي"، وموضة تحليل أنساق الخطاب لسبر الواقع الاجتماعي[٣٠].

يشير المؤرخ محمد حبيدة إلى أن الجيل الرابع من الحوليات، جيل برنار لوبوتي ومجموعته، بلور منعطفا نقديا مغايرا همّ سياسات التناهج، كي تلتئم شقوق الكتابة التاريخية، ويسترجع التاريخ مكانته، من خلال حمايته من التفتت، والانحباس، والانصهار الكلي في خطابات العلوم الاجتماعية الأخرى. ثم الاعتناء بحقول الفرد والسياسة والزمن القصير، في مقابل الأوراش الرمزية والثقافية والزمن الطويل. إن عودة المؤرخين إلى البيوغرافيا، إلى الفرد، إلى السياسة، بعثت التاريخ السياسي من جديد، من رماد التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، بعدما صارت الشبكة الزمنية للمؤرخين تستهدف التاريخ المعاصر وقضايا الراهن، عكس ما كان عليه الوضع في الأجيال السابقة، حيث كانت الهموم المعرفية تتجه أكثر نحو أزمنة ما قبل الحداثة. وعودة التاريخ السياسي هذه، لم تتم بالزي الوضعاني، بل برغبة جديدة تنير الأضواء في بنيات الثقافة السياسية والأشكال الثقافية للسلطة[٣١]. وبصيغة أخرى، "الإحالة على السلطة" بتعبير جاك لوغوف[٣٢].

لقد انتعش خطاب مجلة الحوليات، بفعل قدرتها على نشر أفكارها وتصوراتها، اعتمادًا على خطة الهيمنة كما يعلن صاحب الكتاب. لا تقوم هذه الاستراتيجية على التحكم في دور النشر، لإيصال كتب التاريخ إلى المؤرخين والسوسيولوجيين، بل أيضا على تعميم المعرفة التاريخية، عن طريق وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة، مع البحث الدائم والمستمر عن الدعم الأكاديمي من مؤسسات جامعية رائدة.

عمومًا، ما منح خطاب الحوليات قوة وأهمية أكثر بين علوم الإنسان، قدرته على المراجعة الدائمة، على إعادة الصياغة، على الابتكار المستمر، نظريًا، ومنهجيًا، ومعرفيًا، من خلال تعاقب أجياله. هذا ما جعل "عجلة البحث والكتابة لا تتوقف، وآلة النشر لا تتعطل"[٣٣].

في هذه الفسحة الإبستمولوجية، المفعمة بروح التوثيق، والمنهج، والنقد، والكتابة، ينتصر المؤلف لقضية الكتابة والسرد في التاريخ، على غرار رواد مشروع تحديث العلوم الاجتماعية، أمثال: بول فين وبول ريكور وميشال دوسيرتو وهايدن وايت. فالرهان يقتضي -يضيف محمد حبيدة- في

زمن الإجماع الإبستمولوجي بدل زمن المدرسة الفكرية، في زمن المنعطف اللساني، والدراسات الثقافية، والتأويل، وما بعد الحداثة، ابتكار أنماط حديثة من الكتابة التاريخية، تستحضر مناهج العلوم الإنسانية، وتبدع أفكارها في قوالب ونصوص أدبية، تتسم بالروح العلمية والنفس الإبداعية، بالصرامة الأكاديمية والصياغة الأدبية السلسة[٣٤].

وما دامت الكتابة حلقة رئيسة في توليد الأفكار والمعاني[٣٥]. فقد أنهى الكاتب دراسته، بمقتطفات من كتاب نقدي معبر، يحمل عنوان: "التاريخ أدب معاصر"، للمؤرخ الفرنسي الشاب إيفان جابلونكه. نقرأ منه ما يلي: "في خريطة الكتابة، توجد قارتان: القصة الروائية واللأنص الأكاديمي. وهما معا ظهرا في القرن التاسع عشر (...) ولذلك، أقترح أن نخرج من القرن التاسع عشر هذا. فثمة قارة ثالثة تنفتح أمامنا، هي قارة الإبداع في العلوم الاجتماعية: بحث متعدد الاختصاصات، تلاقح، نص بحثي، أدب حقيقي، مغامرة فكرية مثيرة"[٣٦].

صفوة القول، إن كتاب "المدارس التاريخية" بمثابة دليل بيداغوجي للطلاب والمهتمين بالمناهج في المعرفة الإسطوغرافية. فمعلوم أن هذه الزاوية من البحث، هامشية في الإنتاج التاريخي المغاربي والعربي، رغم أنها لبنة أساسية لتحديث العملية التاريخية، إذ تساعد على إعادة التفكير في الإشكاليات والمناهج والمباحث. إن الملاحظ في أبحاث تاريخية حديثة الإصدار، "غياب المنهج، ورؤية الزمن، وبناء الموضوع"[٣٧]، ويكفي الاطلاع على بعضها لاكتشاف مكامن الخلل والضعف والقصور. فليس سويًا أن يخوض باحث في ورش تاريخي مستحدث دون أن يحيل إلى مؤسسيه. إلى أهم الإشكاليات والمفاهيم والمناهج التي اعتمدوها أو بلوروها في دراساتهم. فما أحوجنا إلى ثقافة الانفتاح على المنجز الإنساني والاعتراف به كذلك!

الهوامش

(١) فرنسوا دوس، **التاريخ المفتت. من الحوليات إلى التاريخ الجديد**، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩.

(٢) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ١٥.

(٣) نفسه، ص ١٧.

(٤) نفسه، ص ٢٧-٢٨.

(٥) عبارة عن مجموعة من النصوص تهم التوجهات المعاصرة للمعرفة التاريخية، انتقاها محمد حبيدة من كتب ودوريات رائدة وترجمها إلى العربية. فعمل على إصدارها سنة ٢٠٠٤ تحت عنوان: "من أجل تاريخ إشكالي"، قبل أن يتوجها بطبعة ثانية سنة ٢٠١٥ في حلّة منقحة سماها "الكتابة التاريخية". انظر: محمد حبيدة، **من أجل تاريخ إشكالي. ترجمات مختارة**، القنيطرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٤. محمد حبيدة، **الكتابة التاريخية: التاريخ والعلوم الاجتماعية، التاريخ والذاكرة، تاريخ العقليات**، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ٢٠١٥. أنجزت قراءة في هذا المنجز، بعنوان: "أوراش الكتابة التاريخية"، نشرت بتاريخ ٨ يونيو ٢٠١٥. يمكن الاطلاع عليها في موقع أرنتروبوس: **www.aranthropos.com**

(6) Charles LANGLOIS et Charles SEINGBOS, **Introduction aux études historiques**, Paris, Armand colin, 1992, p.13.

(7) Lucien FEVBRE, Combats pour l'histoire, in: **Lucien Febvre, Vivre l'histoire**, édition établie par Brigitte Mazon, Paris, Robert Laffont, 2009.

(٨) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ٥١.

(٩) محمد حبيدة، "مؤرخون في خدمة الدولة: أحمد الناصري وإرنست لافيس، مقاربة مقارنة"، **أسطور**، ع ٧، ٢٠١٨، ص ١٧٨.

(١٠) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ٥٥. فرنسوا دوس، **ن م**، ص. ٤٩.

(١١) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ٥٨.

(١٢) نفسه، ص ٦٠.

(١٣) نفسه، ص ٨١.

(١٤) نفسه، ص ٦٢.

(١٥) محمد حبيدة، **الكتابة التاريخية، م س**، ص ٥٢.

(١٦) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ٧٦.

(17) Marc BLOCH, **Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien**, Paris, Armand colin, 1949, p. 42.

(18) **Ibid.**

(19) Lucien FEVBRE, **Ibid.**

(٢٠) تغير اسم مجلة الحوليات طيلة القرن العشرين. فمن "حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" سنة ١٩٢٩، إلى "الحوليات: التاريخ والعلوم الاجتماعية" عام ١٩٩٤، مرورا باسم "حوليات التاريخ الاجتماعي" سنة ١٩٣٩، و"مزيج التاريخ الاجتماعي" سنة ١٩٤٢، و"حوليات التاريخ الاجتماعي" سنة ١٩٤٦، و"الحوليات: اقتصاديات، مجتمعات، حضارات" عام ١٩٤٦. انظر: محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ٧٧.

(٢١) محمد العيادي، **دراسات في المجتمع والتاريخ والدين**، الدار البيضاء، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، ٢٠١٤، ص ٥٦-٥٧.

(٢٢) خالد طحطح، **عودة الحدث التاريخي**، الدار البيضاء، دار توبقال، ٢٠١٤، ص ٢٨.

(٢٣) عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ**، جزآن، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥، ص ١٨٩. يمكن العودة كذلك إلى مقدمة المؤرخ التونسي محمد الطاهر المنصوري في

ترجمته لكتاب "التاريخ الجديد". يشخص فيها أثر هذا الأخير على المؤرخين المغاربيين والعرب. راجع: جاك لوغوف، **ن م**، ص١٩-٢٧.

(٢٤) محمد حبيدة، "النص رقم ٢٢: التاريخ المفاهيمي. الأزمنة الثلاثة"، ضمن: **المدارس التاريخية، م س**، ص ١٧٤. هذا المقال هو في الأصل مقتطفات من تقديم أطروحة بروديل المشهورة حول المتوسط. للمزيد من التفاصيل، راجع:

Fernand BRAUDEL, **La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II (1558-1598)**, Paris, Armand Colin, 1949, Tome I, pp. 16-19.

(٢٥) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص٩٧.

(٢٦) فرنسوا دوس، **ن م**، ص ٥٢.

(٢٧) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص١٠٥.

(٢٨) فرنسوا دوس، **ن م**، ص ٥٣.

(٢٩) جاك لوغوف، **ن م**، ص ٧٩.

(٣٠) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص١١٣.

(٣١) نفسه، ص ١٥.

(٣٢) روني ريمون، "عودة السياسي"، ترجمة محمد العفاس، **مجلة أمل**، ع ٥٠، ٢٠١٨، ص١١١.

(٣٣) نفسه، ص ١٢٠.

(٣٤) نفسه، ص ١٣٤.

(٣٥) محمد حبيدة، **كتابة التاريخ. قراءات وتأويلات**، الرباط، دار أبي رقراق، ٢٠١٣، ص١٠.

(٣٦) نفسه، ص ١٣٠.

(٣٧) محمد حبيدة، **بؤس التاريخ. مراجعات ومقاربات**، الرباط، دار الأمان، ٢٠١٥، ص ٧.

سياسة المغرب الإفريقية
حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات التدخل الإسباني
خلال القرن الخامس عشر الميلادي

د. العربي بنرمضان
باحث في التاريخ الوسيط والحديث
دكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية
فاس – المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة دكتوراه تاريخ وسيط وحديث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس، فاس
جامعة سيدي محمد بن عبد الله

الباحث: العربي بنرمضان
إشراف :أ.د. ماجدة كريمي
٢٨٢ صفحة - المغرب - ٢٠١٣

كلمات مفتاحية:
العصر الوسيط، بلاد السودان الغربي، المجال الصحراوي، الدراسات الإفريقية، الاستعمار الإسباني

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052964

ملخص

تعالج الأطروحة الموسومة بـ "سياسة المغرب الإفريقية: حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات التدخل الإسباني خلال ق١٥م" والتي يصل عدد صفحاتها ٢٨٢ صفحة، العلاقات المغربية الإفريقية ومدى تطورها عبر الزمن خاصة خلال العصرين الوسيط والحديث، حيث لعب المغرب دور الوسيط التجاري بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، ومن تم نشطت باقي أوجه العلاقات بين المغرب وعمقه الإفريقي. كما تعالج هذه المساهمة البحثية في إبراز الاهتمام الكبير للأسر التي تعاقبت على حكم المغرب برعاية وتنمية التجارة الصحراوية في ظل ظروف سياسية جد متميزة مع دول إفريقيا جنوب الصحراء، بل وحرص المغرب طيلة فتراته التاريخية على الحضور الفاعل والمتميز بالمجال الجنوب الإفريقي، وأضحى مصدر كل التطورات التي تعرفها إفريقيا جنوب الصحراء، فمنه وعبره كان يتم نقل كل المقومات الحضارية نحو هذه الأخيرة.

كما ركزت هذه الأطروحة من حيث الزمن على الفترة الوسيطية باعتبارها الوعاء الزمني الذي ترجم بامتياز الحضور الفاعل للمغرب في إفريقيا جنوب الصحراء، والفترة الحديثة التي تزامنت مع حكم الأسرة السعدية التي ضمت بلاد السنغاي سنة ١٥٩١م على عهد أحمد المنصور السعدي، والتي شكلت انعكاسا لمجموعة من المتغيرات الدولية بالبحر الأبيض المتوسط بظهور قوى سياسية جديدة في الشمال كإسبانيا والبرتغال والإمبراطورية العثمانية المتوثبة بالشرق، وبرغبة دفينة للأسرة السعدية لإعادة أمجاد بعض دول المغرب الوسيط التي امتدت حتى حدود نهر السنغال. كما لفتت هذه الأطروحة الانتباه إلى أن التراكم التاريخي الذي راكمه المغرب في علاقته بإفريقيا جنوب الصحراء، عرف انكماشًا خطيرًا بعد اكتشاف السواحل الغربية الإفريقية من طرف بعض القوى الأوربية التي تمكنت من الوصول عبر السواحل الأطلسية وتجاوز الوساطة المغربية، فتضررت العلاقات التجارية وتراجع الحضور السياسي المغربي بإفريقيا جنوب الصحراء. ومن ثَمَّ أصبحت الحاجة ملحة لإحياء الدور المغربي في إفريقيا بإحياء إرثه التاريخي داخل القارة السمراء، وبإماطة اللثام عن مدى قوة حضور إفريقيا جنوب الصحراء في علاقاته الدولية، خاصة ونحن في ظل عالم متغير يفرض اتخاذ قرارات استراتيجية تمليها النزعة الدولية نحو التكتلات الإقليمية والجهوية.

مُقَدِّمَةُ

إن المتتبع للعلاقات المغربية الإفريقية يلمس الازدهار والتطور الكبيرين الذين شهدتهما هذه العلاقات لفترات تاريخية طويلة، فقد لعب المغرب دور الوسيط التجاري بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، ومن تم نشطت باقي أوجه

العلاقات بين المغرب وعمقه الإفريقي. فعلاً لقد اهتمت الدول التي تعاقبت على حكم المغرب بشكل كبير برعاية وتنمية التجارة الصحراوية في ظل ظروف سياسية جد متميزة مع دول إفريقيا جنوب الصحراء، بل وحرص المغرب طيلة فتراته التاريخية على الحضور الفاعل والتميز بالمجال الجنوب الإفريقي، وأضحى مصدر كل التطورات التي تعرفها إفريقيا جنوب الصحراء، فمنه وعبره كان يتم نقل كل المقومات الحضارية نحو هذه الأخيرة.

وإذا كان العصر الوسيط الوعاء الزمني الذي ترجم بامتياز الحضور المغربي الفاعل بإفريقيا جنوب الصحراء، فقد توج ذلك على يد الدولة السعدية التي ضمت دولة السنغاي سنة ١٥٩١م على عهد أحمد المنصور السعدي لدواعي مختلفة، يدخل ضمنها رد فعل الدولة السعدية اتجاه المتغيرات الدولية بالبحر الأبيض المتوسط المرتبطة بظهور قوى سياسية جديدة في الشمال والشرق من جهة، ومن جهة ثانية في إطار رغبة الأسرة السعدية في إعادة أمجاد بعض دول المغرب الوسيط التي امتدت إلى حدود نهر السنغال. غير أن هذا التراكم التاريخي عرف انكماشًا خطيرًا بعد اكتشاف السواحل الغربية الإفريقية من طرف بعض القوى الأوربية التي تمكنت من الوصول عبر السواحل الأطلسية وتجاوز الوساطة المغربية، فتضررت العلاقات التجارية وتراجع الحضور السياسي المغربي بإفريقيا جنوب الصحراء. واليوم أكثر من أي وقت مضى تبدو الحاجة ملحة لإحياء الدور المغربي في إفريقيا بإحياء إرثه التاريخي داخل القارة السمراء، وبإماطة اللثام عن مدى قوة حضور إفريقيا جنوب الصحراء في علاقاته الدولية، خاصة ونحن في ظل عالم متغير يفرض اتخاذ قرارات استراتيجية تمليها النزعة الدولية نحو التكتلات الإقليمية والجهوية.

وعليه فاختيارنا البحث في موضوع: "سياسة المغرب الإفريقية: حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات التدخل الإسباني خلال القرن الخامس عشر الميلادي" يندرج ضمن الدراسات الإفريقية التي تشكل إحدى الحقول المعرفية الهامة. والحق أن هذا الحقل المعرفي حضي باهتمام متزايد من طرف العديد من الباحثين من مختلف الأجناس والمشارب، فجاءت الكتابات التاريخية متنوعة ومتباينة فيما بينها تبعا لاختلاف الرؤى والمناهج، الأمر الذي يدفعنا لطرح تساؤلات تبتغي تثمين بعض ما ورد بها وتطمح إلى تعميق النقاش بخصوصها، فنقول:

- ما نسبة حضور تاريخ المغرب بشكل عام وتاريخ العلاقات المغربية الإفريقية ضمن هذه الدراسات؟
- ماهي الخطابات التاريخية التي تقاسمت هذا المنتوج المعرفي؟
- ما هي خصوصيات ومنطلقات ومواضيع كل خطاب من هذه الخطابات؟

نسلم جميعًا بأن تاريخ المغرب في علاقته بإفريقيا جنوب الصحراء تجاذبته العديد من الخطابات، وذلك بمختلف الحقب التاريخية سواء منها الحقبة القديمة أو الوسيط أو الحديثة أو المعاصرة، مع الإشارة إلى أن التاريخ القديم لهذه العلاقات لم يحض بنفس الاهتمام الذي حضي به التاريخ الحديث والمعاصر. ونظرا لاختلاف المناهج والمنطلقات يمكن القول، أن هذه الخطابات قد أخذت منها الكتابات الأجنبية: أمريكية – فرنسية – إسبانية حصة هامة وانقسمت إلى شطرين: أولهما تعرض لانتقادات كثيرة، إلا أنه لا يمكن إغفال الدور الكبير الذي لعبته هذه الكتابات في التعريف بهذه العلاقات نظرا للتراكم المعرفي الذي حصل لأصحابها حول تاريخ الغرب الإفريقي، وشطر ثاني تناول تاريخ هذه العلاقات بموضوعية علمية رصينة فباتت مرجعًا أساسيًا لا يمكن تجاوزه من طرف الباحثين المحدثين[١].

ونستحضر هنا البعض منها وفق الفترات التاريخية المدروسة فهذا: كورنفان (cornevin) الذي كتب "**تاريخ إفريقيا من الجذور إلى الحرب العالمية الثانية**"، ودافدسون(Davidson) "**إفريقيا القديمة**"، ودولاشبيل (De lachapelle) "**لمحة تاريخية حول الصحراء الغربية**"[٢]. أما في العصور الوسطى فيمكن القول أن هذا النوع من الكتابات أصبح أكثر غزارة نذكر منها كتابات: جوزيف كيوك(Joseph Cuoq) "**تاريخ أسلمة إفريقيا الغربية من الجذور إلى نهاية ق١٦م**"[٣]، ورايموند موني (Rymond Mauny)"**اللوحة الجغرافية للغرب الإفريقي في العصر الوسيط**"[٤]، وفانسون مونتاي (Vincent Monteil)"**الإسلام الأسود كدين لغزو إفريقيا**"[٥]، وجاك مونيي (Jaques Meunié) "**المغرب الصحراوي من الجذور إلى سنة ١٦٧٠**"[٦].

والشيء نفسه ينسحب على الكتابات الأجنبية حول العلاقات المغربية الإفريقية في العصر الحديث، ولا نجد أفضل مما كتب حول هذه الفترة ما قدمه ميشيل أبيتبول (Michel Abitbol) في كتابه المشهور عن العلاقات المغربية الإفريقية خلال العصر الحديث والمعنون بـ: "**تومبوكتو ومجتمع الرماة من الغزو المغربي للسودان سنة ١٥٩١م إلى إمبراطورية ماسينا سنة ١٨٣٣**"[٧]. يضم هذا الكتاب الذي طبع بباريس سنة ١٩٧٩م ٢٩٥ صفحة من الحجـم المتوسط و٥٠ صفحة للهوامش مقسم إلى أربعة أقسام أساسية، الباب الأول يعالج غزو السودان من طرف السلطة السعدية أسبابه ونتائجه العامة، كما يعالج تطور مؤسسة الباشوية إلى أواسط القرن السابع عشر الميلادي في الباب الثاني، أما الباب الثالث فتطرق فيه للحياة الاجتماعية والاقتصادية للباشوية في حين خصص الباب الرابع لانهيار الباشوية منذ وفاة المولى إسماعيل. تكمن أهمية هذا الكتاب في كونه يكشف النقاب عن التاريخ القديم لشعوب البول والتكرور

عرض أطروحة

حيث ساهم في إعادة الاعتبار للهوية الجماعية لشعوب النيجر الأعلى التي فقدتها خلال السيطرة الاستعمارية، كما تكمن أهميته في اعتماده دراسات عديدة ومتنوعة خاصة مصادر التاريخ السوداني والمصادر المغربية مثل "مناهل الصفا" للفشتالي و"نزهة الحادي" للوفراني و"الترجمان المعرب" للزياني و"الإستقصا" للناصري وكذا مراجع حديثة مثل "رسائل سعدية" لعبد الله كنون وما كتبه المختار السوسي في "خلال جزولة" و"إيليغ قديمًا وحديثًا" ومراجع أخرى أوربية.

أما بخصوص الخطاب التاريخي الجنوب إفريقي: ويتعلق الأمر هنا بكتابات تاريخية وطنية خرجت إلى الوجود بعد موجة الاستقلالات التي عرفتها القارة السمراء خلال مرحلة الستينيات من ق٢٠م، ونسجل أنها قد حاولت أن تجعل لنفسها موطئ قدم لها بين الكتابات الأجنبية وأن تنتزع الاعتراف من جديد بالتاريخ الأصلي والحقيقي للقارة الإفريقية، وإن ظلت حبيسة التوجهات التي حكمت بعض الكتابات الأجنبية. هي كتابات لا بأس بها على المستوى الكمي، نذكر على سبيل الإستئناس لا الحصر: زكاري دراماني ايسيفو(Zakari Dramani Issifou) "**إفريقيا السوداء في العلاقات الدولية خلال ق١٦م، تحليل للأزمة بين المغرب والسنغاي**"[٨]، وآدم با كوناري (Adam Ba Konaré) "**العلاقات السياسية والثقافية بين المغرب ومالي عبر العصور**"[٩]، وكي زيربو(Ki-Zerbo) "**تاريخ إفريقيا السمراء**"[١٠]، وسكيني مودي سيسكو(S.M.Cissoco) "**تاريخ إفريقيا الغربية**"[١١]....

لكن على المستوى النوعي، يعتبر ما كتبه" دراماني اسيفو" من أهم ما كتب حول هذه العلاقات خلال الفترة الحديثة، فقد تطرق إلى الدوافع الأساسية لاحتلال السنغاي من طرف الدولة السعدية في مقدمتها مسألة البيعة التي ارتبطت بشكل أساسي بمسألة الخلافة والتي تدخل في إطار الصراع السياسي المغربي العثماني بمنطقة شمال إفريقيا. هذا وقد أوضح أنه كان للأزمة المالية التي عرفها المغرب في عهد الدولة السعدية دورًا كبيرًا في الحملة العسكرية على بلاد السنغاي إلى جانب الحلول الإجرائية الأخرى التي لجأ إليها أحمد المنصور، كما تعرضت هذه الدراسة إلى دور المالح في تأزم العلاقات المغربية السنغية.

إضافة إلى هذه الدراسة الهامة هناك دراسات أخرى تناولت العلاقات بين ضفتي الصحراء، ونقصد هنا دراسة فليكس إيروكو(Félix Iroko) المعنونة ب "**السياسة المغربية ببلاد السودان خلال القرنين ١٦و١٧م**"، والتي أشار فيها إلى التلاقح الحضاري الهام الذي تم بين ضفتي الصحراء والمتمثل في انتقال العديد من العادات والتقاليد إلى بلاد السودان الغربي، ناهيك عما شكلته بلاد السودان كمجال مزود للمغرب بمواد إنتاجية مختلفة كالذهب والملح والرقيق الذي شكل أحد العناصر الأساسية المكونة للقوة العسكرية للدولة العلوية خلال القرن السابع عشر الميلادي[١٢].

أما باقي الكتابات فتميزت بالإجحاف الكبير في حق المغرب، حيث ذهب أصحابها إلى أن الحملة السعدية على السودان هي المسؤولة على جميع ويلات هذه المنطقة إذ دمرت الحضارة المزدهرة بها، كما أوقفت نهضة كبيرة خلال حكم آل أسكيا، لذا اعتبرت المد المغربي على السودان بمثابة الصدمة التي أذهلت هذا البلد كله، وجرت عليه كل الأزمات التي هزت كيانه وحالت دون إقلاعه، ومنعته من مسايرة تحولات عصره. فإذا كانت في نظر سيسوكو كارثة عظيمة حلت ببلاد السودان فقد وصفها كي زيربو بالوحشية والنهب والسلب وإتلاف الثروات، الشيء الذي تسبب في سقوط البلاد في سلسلة من الأزمات الاقتصادية أعقبتها أوبئة ومجاعات دمرت البلاد.

وأخيرًا نصل إلى الخطاب التاريخي المغربي: ونقصد به الكم المعرفي الذي كتب حول تاريخ علاقات المغرب بإفريقيا جنوب الصحراء بأقلام مغربية والتي انصب اهتمامها على تتبع مسار هذه العلاقات عبر العصور، وإن لم تحض الفترة القديمة منها باهتمام كبير، إذ لم نعثر على دراسة متخصصة في هذا المجال مقارنة مع العصرين الوسيط والحديث اللذين حظيا بالنصيب الأوفر من هذه الدراسات، حيث تطرقت لمختلف الروابط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الطرفين، وذلك إما على شكل أطروحات أو رسائل أو مقالات[١٣]. وهنا نسجل أنه لم تقف هذه المحاولات الجادة عند دراسة العلاقات بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء بل تعدتها إلى التطرق لتاريخ السودان الغربي نفسه والتي همت جوانب مختلفة كالمجتمع والسياسة والثقافة[١٤].

وفي هذا الباب لا تفوتنا الإشارة إلى أنه على المستوى الرسمي شكلت فترة الثمانينيات من القرن العشرين منعطفا هاما في تاريخ البحث في هذه العلاقات، ويظهر ذلك من خلال إحداث مؤسسة مهمة للدراسات الإفريقية، إضافة إلى إدراج تخصصات في مجال البحث التاريخي حول جوانب التواصل بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء ببعض المؤسسات الجامعية[١٥]. كل هذه المجهودات سواء على المستوى المؤسساتي أو الجامعي، كان الهدف منها تطوير البحث العلمي في هذا المجال والاهتمام بالتراث المغربي-الإفريقي المشترك. وفي هذا الإطار لا بأس من ذكر بعض الإنتاجات العلمية حول هذا التاريخ المشترك والتي جاءت متنوعة إما على شكل دراسات أو تحقيقات لبعض المخطوطات[١٦]، أو على شكل دراسات تحليلية أو مونوغرافية عالجت بعض الجوانب من تاريخ المغرب في علاقته بإفريقيا جنوب الصحراء[١٧].

وعلى الرغم من هذه المحاولات الجادة يجوز القول، أن الخطاب المغربي المهتم بهذه العلاقات لازال لم يحصل بعد على التحرر من التبعية للكتابات الأجنبية التي كانت سباقة لهذه المواضيع والتي أطرتها حسب تصوراتها ومنطلقاتها. خلاصة القول إذن، أنه على الرغم من التنوع الكبير للكتابات التي

تناولت مجالات التواصل المختلفة بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء عبر العصور، فإنه لازالت العديد من جوانب هذا التواصل لم تحض بالاهتمام الكافي من طرف الباحثين حتى تعطى لهذه العلاقات المكانة اللائقة بها والمعبرة على مدى عراقتها وكثافتها.

دواعي اختيار الموضوع

إذا كانت دواعي البحث الخاصة بعملي السابق الذي تقدمت به للحصول على (د.د.ع.م) بوحدة التكوين والبحث "المغرب والعلاقات الدولية شمال-جنوب" والذي انكب أساسًا على تفكيك "ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية" تستوجب بالأساس المقاربة التاريخية، إذ عملت على عرض الإطار التاريخي لوضعية القارة السمراء نتيجة الاستعمار الأوربي وما ترتب عن ذلك من اتخاذ رؤساء الدول الإفريقية من قرارات حاسمة ومصيرية أخرجت للنور ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية، فإن الرغبة في تعميق معرفتي بكل ما يتعلق بالعلاقات المغربية الإفريقية سياسيا حفزني على اختيار البحث في موضوع: "سياسة المغرب الإفريقية: حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات الاستعمار الإسباني خلال القرن الخامس عشر الميلادي".

وعليه جاء اختياري لهذا الموضوع للاعتبارات التالية:

١. أن موضوع: "ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية بين التنظير والتطبيق: دراسة تاريخية" الذي اشتغلت عليه للحصول على د.د.ع.م، فتح لي مجالاً أكاديميًا خصبًا يتناول أكبر القضايا الإفريقية التي طرحت على هذه المنظمة خاصة منها قضية الوحدة الترابية للمغرب ومما زاد من شحذ فضولي العلمي حدث انسحاب المغرب من المؤتمر الإفريقي سنة ١٩٨٤، رغم البعد الإفريقي القوي في السياسة المغربية والمترتبة عن تاريخ مشترك ومن ثم بات تأصيل هذا البعد يستأثر بكل اهتمامي.

٢. أن استحضاري للإرث التاريخي المشترك بين المغرب والقارة السمراء بشكل قوي منذ العصر الوسيط (غرب إفريقيا) شحذ حماسي لتأكيد هذا الأمر بالاعتماد على وقائع تؤكدها الجغرافيا ويثمنها التاريخ.

٣. أن المغرب الذي ارتبط عبر الصحراء ببلدان إفريقيا السمراء مدعو الآن إلى إعادة التفكير الجدي في إعادة استغلال طرق قوافله التجارية بأشكال مختلفة، مستحضرًا اعتبارات الوسائل التقنية العصرية والظرفيات السوسيو-اقتصادية والسياسية الجديدة بالقارة السمراء وباقي جهات العالم.

تحديد الموضوع:

(الحقبة المدروسة والإشكالية)

يبدو أن اختيار موضوع البحث من الأمور الهامة والحاسمة في الكتابة التاريخية، لذلك يتطلب تحديده بدقة مع كثير من التريث والتبصر، وبمجرد الاستقرار على موضوع معين يكون الباحث قد خطا خطوة هامة في بحثه التاريخي.

واختياري البحث في إشكالية "**المغرب وإفريقيا: حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات الاستعمار الإسباني**" فرض عليّ المزيد من التحديد، لأنه من خلال هذه الإشكالية الكبرى يظهر تداخل العنصر الاقتصادي والجغرافي والاجتماعي ضمن بوتقة واسعة ألا وهي الإطار السياسي، ذلك أن هذا الإطار هو العنصر الرابط بين كل هذه المجالات، بل فرض عليّ تحديد الإطار الزمني الذي ستسلط أطروحتي عليه الضوء والتي تتناول بالبحث الاستعمار الإسباني للمجال الصحراوي. فإذا كانت جل الكتابات تعتبر سنة ١٨٤٤م الانطلاقة الأولى لذلك فاللبنات الأولى لهذه النزعة الاستعمارية إنما تعود إلى قرون سابقة يكون القرن الخامس عشر الميلادي وعاؤها، وعليه فقد وجهت بحثي إلى هذه المحطة الزمنية مركزًا على إيضاح ملامح هذا التاريخ المشترك خلال العصر الوسيط الذي يمثل العصر الذهبي له.

وعلى هذا الأساس تتمحور الإشكالية الكبرى لهذه الدراسة حول تساؤل كبير يهم معرفة تموجات العلاقات السياسية بين دول المغرب وممالك السودان الغربي خلال العصرين الوسيط والحديث وأهم العوامل المتحكمة فيها تتفرع عنها مجموعة من الأسئلة:

- ماهي الامتدادات الجغرافية لدول المغرب الوسيط خاصة في اتجاه الجنوب؟
- كيف شكل المجال الصحراوي الخيط الرابط بين دول المغرب الوسيط وممالك السودان الغربي؟
- لماذا اهتمت إسبانيا باكرًا بالجنوب المغربي في إطار التنافس على المجال الإفريقي؟
- ما هي الآليات التي لجأت إليها لتوظيف الحزام الجنوبي المغربي في هذا المخطط التوسعي؟
- ما السر في تحول المجال الصحراوي من عنصر ربط هام بين المغرب وممالك السودان الغربي إلى عنصر توتر في هذه العلاقات ما بعد فترة الاستقلالات؟

منهجية البحث

لقد فرضت علينا إشكالية الدراسة وإطارها الزمني أن يكون موردنا العلمي الأساسي هو المصادر الوسيطية بمختلف تشعباتها التاريخية منها والجغرافية والفقهية علمًا أن المعلومات متناثرة بها، الأمر الذي يتطلب الكثير من الجهد

لتحليل وتركيب هذه المعطيات للخروج بأجوبة كافية لتفسير العوامل المتحكمة في قضايا هذه الإشكالية المطروحة.

كما فرض علينا تناول الموضوع في تسلسله الزمني الوقوف على كل مرحلة من مراحل العصر الوسيط، حتى نتمكن من استجلاء خصائص ومواصفات كل مرحلة على حدة وإبراز العوامل المتحكمة فيها والخروج باستنتاجات توضح لنا الأسئلة الفرعية للإشكالية المحورية. هذا وقد فرضت علينا طبيعة الموضوع انتقاء نصوص تاريخية أو جغرافية لتدعيم معلوماتنا واجتهاداتنا في ظل غياب معطيات تاريخية تهم عقد اتفاقيات أو تبادل سفارات أو رسائل توضح لنا أسماء وتواريخ ومضامين هذه الاتفاقيات أو الرسائل.

وبناءً على ذلك، فإن معالجة الموضوع استوجبت منا: قراءة النصوص المختلفة ومحاولة استنباط كل ما يعرف بالعلاقات السياسية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. والمقارنة بين هذه النصوص المختلفة والخروج باستنتاجات تخدم طبيعة الموضوع الذي نحن بصدد دراسته. والوقوف على مختلف العوامل التاريخية الداخلية والخارجية لتفسير العلاقات السياسية خلال هذه الفترة. والوقوف عند المتغيرات الدولية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وبوادر ظهور الإمبريالية الغربية مع مطلع القرن الخامس عشر الميلادي.

المادة المصدرية والمرجعية

بما أن الإطار الزمني للإشكالية المدروسة كان الموجه الرئيس لاعتماد مادة مصدرية ومرجعية تعود بالخصوص إلى العصر الوسيط مع انفتاح على فترات قريبة أو بعيدة عن الفترة المدروسة، كان همنا الأول هو رصد الإطار المصدري لدراسة هذا الجانب (تاريخ العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي خلال العصر الوسيط)، ثم الإكراهات التي خلفها الاستعمار الإسباني والبرتغالي والتشويش على هذه العلاقات، علما أن الفترة الوسيطية تتميز بغنى المادة المصدرية التي يمكن حصرها في أعمال المؤلفين المرتبين زمنيا على الشكل الآتي:

- القرن الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين، فلا محيد عما كتبه كل من ابن عبد الحكم وابن خرداذبة واليعقوبي والبلاذري.
- القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، نجد كل من ابن الصغير والإصطخري وابن حوقل ....
- القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، نجد البكري.
- القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، نجد كل من الشريف الإدريسي وأبي حامد الغرناطي.
- القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، نجد كل من كتاب الاستبصار لمؤلف مجهول وابن عذاري المراكشي وياقوت الحموي.
- أما القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فيبدو أن المادة المصدرية أكثر غزارة مقارنة مع باقي الفترات المتقدمة من العصر الوسيط، حيث نجد كل من ابن أبي زرع الفاسي وأبي الفدا والعمري وابن بطوطة وابن الخطيب وابن خلدون والقلقشندي والحميري، ليأتي الوزان في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

أما المصادر الغربية والأبحاث الحديثة فتبدو كثيرة ومتنوعة تكاد لا تحصى تتناول مواضيع مختلفة ذكرنا بعضها سابقًا مثل (Jaque Meunié) جاك مونيي، و(Joseph Cuoq) جوزيف كيوك، وروزينبيرجي (Resenberger)، ورايموند موني (Raymond Mauny)، وبازيل دافيدسن (Basil Davidson)، والتي شكلت قيمة مضافة للأبحاث التاريخية والجغرافية المهتمة ببلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. فقد ساهمت في إغناء وتفسير العديد من المعطيات التاريخية المصدرية كما ساهمت بشكل أو بآخر في تتبع تاريخ العلاقات السياسية بين المغرب وبلاد السودان الغربي، ناهيك عن مساهمتها في التعريف بالعديد من المجالات الجغرافية والمواقع الأركيولوجية ببلاد المغرب والسودان الغربي.

الصعوبات

من البديهي أن تعترض أي باحث في أي موضوع كان نوعه أو طبيعته صعوبات معينة قد تتعلق بطبيعة الموضوع نفسه أو بأدوات التناول، ومن جملة الصعوبات التي واجهت عملنا نذكر:

- أن المعطيات التاريخية المرتبطة بموضوع العلاقات السياسية خلال العصر الوسيط غير واضحة في المصادر التي اعتمدنا عليها مما فرض علينا البحث عنها بين ثنايا المعلومات المقدمة، ثم تحليلها وتفسيرها وتركيبها في قالب قابل للدراسة والفهم.
- الاختلاف والتناقض في الكثير من المعطيات التاريخية المتعلقة بالسنوات أو أسماء الأماكن أو الأشخاص مما فرض علينا بدل جهد كبير من أجل التوفيق بينها وترجيح الصحيح من الخطأ.
- تركيز الدراسات الحديثة التي تناولت موضوع العلاقات بين الطرفين على جوانب مختلفة اقتصادية، اجتماعية، ثقافية ودينية دون تركيزها على العلاقات السياسية باستثناء بعض الدراسات التي أشارت بشكل عابر إلى هذه العلاقات (أحمد الشكري ، آدام باكوناري ...).
- تركيز جل الدراسات الحديثة على العلاقات السياسية بين الطرفين في الفترة الحديثة والمعاصرة.
- شح إن لم نقل انعدام المعلومات المتعلقة بظروف وحيثيات وصول الإسبانيين إلى الجنوب المغربي، والآثار المترتبة عن ذلك.

- إشارة بعض الدراسات الحديثة للوصول الإسباني إلى السواحل الجنوبية الغربية من المغرب منذ القرن الخامس عشر الميلادي دون الإشارة إلى مصدر المعلومة.

كل هذه الصعوبات وغيرها لم تثن من عزمنا لسبر أغوار هذا الموضوع حتى نتمكن من ربط ماضينا الإفريقي بحاضرنا واستشراف مستقبل علاقات بلادنا بمجاله الإفريقي، ولم يتأت لنا ذلك إلا بفضل المجهودات الكبيرة المبذولة من طرف أستاذتنا المشرفة الدكتورة: ماجدة كريمي، التي لم تبخل علينا بتوجيهاتها السديدة وبنظرتها العلمية الدقيقة، ومن أجل ذلك اعتمدنا تقسيم الموضوع إلى ثلاث محاور كبرى أساسية.

تصميم الموضوع

لقد أسفر العمل المتواصل في البحث إلى تقسيم الموضوع إلى ثلاث أقسام كبرى تندرج تحتها فصول ومباحث، إضافة إلى مدخل تمهيدي وخاتمة عامة.

الباب الأول: الوقوف عند مفاهيم تشكل مفاتيح القضية الإشكالية (سياسة المغرب الإفريقية)، وقد ركزت فيه على إبراز ملامح المجالات الجغرافية المؤسسة للعلاقات السياسية:

- المفهوم السياسي والجغرافي للمغرب وبلاد السودان الغربي خلال العصرين الوسيط والحديث حتى نتمكن من ضبط المجال وامتداداته ورفع الالتباس حول الامتداد الجغرافي للمغرب خاصة في اتجاه الجنوب.
- التعريف بالمجال الصحراوي سياسيًا وبشريًا باعتباره صلة الوصل بين الكيانين، والذي يحتضن كنه إن لم نقل سر هذا التوجه المغربي صوب إفريقيا الغربية، كما يشكل الخيط الرفيع لفهم سياسة المغرب الإفريقية في الماضي بل وفي الحاضر خاصة بعد استئثار الاستعمار الإسباني بهذه البقاع، وعليه فقد شكل هذا المجال الطبيعي جزءًا هامًا من بحث الأطروحة.
- مفهوم السياسة الخارجية حتى نتمكن من الوقوف على العوامل المختلفة سواء منها الداخلية أو الخارجية التي تحكمت بشكل مباشر أو غير مباشر في العلاقات السياسية بين الطرفين خلال العصر الوسيط والحديث.

الباب الثاني: الوقوف على أحداث تاريخية تؤصل للحضور المغربي بإفريقيا الغربية على المستوى السياسي، وذلك منذ الفتح العربي الإسلامي للغرب الإسلامي ودور المغرب في نشر الديانة الإسلامية بالسودان الغربي ابتداء من الأدارسة ومرورًا بالمرابطين ثم الموحدين فالمرينيين في قالب تبادلي تجاري وكذا علاقات ثقافية وسياسية ليستمر الأمر حتى على عهد المنصور السعدي.

الباب الثالث: وقد خصصناه لأوضاع المغرب الداخلية ومساهمتها في تطلع الإمبريالية الغربية للسيطرة على السواحل الغربية الجنوبية، لدوافع سياسية واقتصادية ارتبطت بشكل رئيس بالتحولات التي عرفتها أوربا مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي، والتي دشنتها بحركة الاكتشافات الجغرافية والوصول إلى أقصى الجنوب الإفريقي وبالتالي التأثير على مسار العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي عند نهاية العصر الوسيط.

الخلاصات

من بين أبرز الخلاصات التي توصلنا إليها من خلال هذا العمل هي:

- إن تطور وازدهار العلاقات المغربية على الساحة الإفريقية خاصة خلال العصر الوسيط باعتباره العصر الذهبي لعلاقات المغرب مع عمقه الإفريقي، والفترة الحديثة باعتبارها مرحلة الأزمة السياسية، تحكمت بشكل كبير في النهج السياسي للمغرب اتجاه إفريقيا بعد تخلصها من نير الاستعمار.
- إن تاريخ المغرب فرع من فروع تاريخ القارة الإفريقية العتيق، بل الفرع الأكثر فعالية في أحداثها خلال الفترة المدروسة، فنظرًا للسبق التاريخي للمغرب أصبح مصدرًا ومعبرًا للعديد من المقومات الحضارية نحو الجنوب. فعبر المغرب تسرب الإسلام وانتشر انتشارًا واسعًا بالسودان الغربي عن طريق التجارة والتجار والعلماء والفقهاء والهجرات البشرية، وهو المشروع الذي بدأ مع الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي وأتمته كل من دولتي الأدارسة والمرابطين حتى أضحى الإسلام الدين الرسمي لعدد كبير من الفئات الاجتماعية بمختلف مستوياتها داخل السودان الغربي، كما أصبح المذهب السني المالكي أكثر المذاهب شيوعًا بين شعوب السودان الغربي. ولم ينحصر مستوى التأثير على العنصر البشري والروحي فحسب، بل مست هذه التأثيرات مختلف أوجه الحياة المادية والفكرية من لغة عربية وطرق للتدريس وأشكال التعامل والزي والجانب المعماري والعديد من عادات وتقاليد شعوب السودان الغربي.
- إن التأثير الكبير للمغرب وفرض حضوره السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي في السودان الغربي، لم يتأت إلا من خلال امتداده الجغرافي الكبير في الجنوب، فمن خلال استعراضنا لمفهوم المغرب الجغرافي والسياسي خلصنا إلى أن التأثير المغربي نابع من امتداده السياسي والجغرافي الكبيرين في الضفة الجنوبية للصحراء، واستغلاله أحد العناصر الأساسية الفاعلة في التاريخ البشري، وهو العنصر الطبيعي المتمثل في الصحراء بمكوناتها الطبيعية والبشرية، أسهم بشكل كبير في إخصاب العلاقات بين الشمال والجنوب على جميع المستويات.
- إن الخيط الناظم بين جل الكيانات السياسية بالمغرب خلال العصرين الوسيط والحديث، ارتكانها إلى مبدأ أساسي في علاقاتها الدولية، وهو استكمال مشروع الفتح الإسلامي، أي تمديد رقعة الإسلام بالقارة السمراء خاصة بالغرب الإفريقي. وقد اختلف هذا الهدف من حيث الأولوية بالنسبة للدول المغربية، فهناك من الدول من رفعت شعار "راية الجهاد" أولاً،

ثم بعد ذلك القيام بعملية التوحيد ثانيًا، والعكس بالنسبة لبعض الدول الأخرى التي ركزت على عملية التوحيد أولاً ثم بعد ذلك القيام بعملية الجهاد.

وقد انتهت هذه الدراسة بطرح **بعض التساؤلات ستظل مفتوحة إلى حين الإجابة عليها مستقبلاً**: ألا يمكن للمغرب أن يستغل هذا الإرث التاريخي لتطوير علاقاته مع دول إفريقيا جنوب الصحراء؟ ألا يتوفر المغرب على إمكانيات اقتصادية واجتماعية وثقافية يمكن استغلالها للرفع من مستوى الشراكة والتعاون مع الدول الإفريقية؟ أما حان الوقت للمغرب أن يسخر كل هذا وذاك لربط قضاياه الوطنية في مقدمتها قضية الوحدة الترابية؟

الهوامش:

(١) جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**، ط١، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ١٩٨٦، ص: ١١-٣٢.

(2) Cornevin (Robert et Marianne), Histoire de L'Afrique des origines à la 2ème guerre mondiale, Payot, Paris, 1964. / B.DAVIDSON, L'Afrique ancienne I, Maspero, Paris-V1973. /De Lachapelle (F), Esquisse d'une histoire du Sahara occidental, Hespéris, tome XI, Librairie Larose, Paris1930.

(3) Joseph Cuoq, Histoire de L'islamisation de l'Afrique de l'ouest des origines à la fin du XVIe siècle, Paris, 1984.

(4) Raymond Mauny, Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen âge, Dakar 1961.

(5) Vincent Monteil, L'islam noir une religion à la conquête de l'Afrique, collection Esprit/Seuil.

(6) Jaque Meunié, Le Maroc Saharien des origines à 1670, Paris 1982.

(7) Michel ABitbol, Tombouctou et les arma de la conquête marocaine du SOUDAN en 1591 à l'hégémonie de l'empire PEULH du MACINA en 1833.

(8) Zakari Dramani Issifou, L'Afrique noire dans les relations internationales au XVIe siècle, analyse de la crise entre le Maroc et le Sonrhaï .éditions Karthala, Paris1982.

(9) Adam Ba Konaré, Les relations politiques et culturelles entre le Maroc et le Mali à travers les âges, publications de l'institut des études africaines-Rabat, 1991.

(10) Ki-Zerbo, Histoire de L'Afrique noire, Hatier, Paris, 1970.

(11) S.M.Cissoco, Histoire de L'Afrique Occidentale, Paris, Présence Africaine, 1966.

(12) Félix Iroko, La politique marocaine au soudan XVI-XVII S, Sorbonne, Paris I, 1971.

(١٣) ونشير هنا إلى بعض الدراسات: -أحمد التوفيق، **العلاقات بين المغرب وإفريقيا من خلال كتاب تاريخ الفتاش وتاريخ السودان**، م.ج.م. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، منشورات عكاظ، الرباط ١٩٨٧. -ماجدة كريمي، **العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني**، د.د.ع.م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ١٩٨٨-١٩٨٩. -ماجدة كريمي، **آثار التجارة الصحراوية على المغرب: سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا من ق٥ه/١١م إلى أواخر ق٨ه/١٤م.** دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة ١٩٩٥.

*- Abdelaziz El Alaoui : Le Maghreb et le commerce transsaharien (milieu du XIème-milieu du XIVème s).contribution à l'histoire économique sociale et politique du Maroc Médiéval. Thèse eu vue du doctorat de 3ème cycle, Bordeaux, 1983, p : 251.

(١٤) دراسة خالد أوشن حول **"النشاط الاقتصادي في النيجر الأعلى ٦٢٨-٩٩٩ه/١٢٣٠-١٥٩١م"**، الرباط ٢٠٠١.- خالد الشكراوي، **"الدين والسلطة في إفريقيا الغربية مساهمة في دراسة بعض البنيات السياسية بالسودان الغربي ٦٢٨-١٠٠٠ه/١٢٣٠-١٥٩١م"**، الرباط ١٩٩١.- سالم المعلول، **مملكة كانم-برنو**، الدار البيضاء ٢٠٠٠.

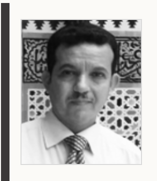
(١٥) ونقصد بذلك معهد الدراسات الإفريقية الذي تم تأسيسه سنة ١٩٨٦ بالرباط، إضافة إلى مواد تخص الدراسات الإفريقية الذي تم إحداثه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سنة ١٩٨٦/١٩٨٧، وكذلك بكلية الآداب ظهر المهراز بفاس تدرس ببعض الشعب على رأسها شعبة التاريخ وكذلك شعبة الآداب، أدب عربي/ فرنسي/ إنجليزي.

(١٦) نشير هنا إلى الدراسات الهامة لكل من: الطالب أبو عبد الله، **فتح الشكور في معرفة أعيان التكرور**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،١٩٨١.- فاطمة الحراق، **معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط ٢٠٠٠.- بهيجة الشاذلي، **إنفاق الميسور لمحمد بيلو/** تحقيق بهيجة الشاذلي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط ١٩٩٦. بهيجة الشاذلي، **الفكر السياسي عند عثمان بن فودي**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق الدار البيضاء ٢٠٠٠-٢٠٠١.

(١٧) ونشير هنا إلى دراسة كل من الحسين العماري، **المغرب والتجارة العابرة للصحراء من ق١٥م إلى ق١٨م، إسهام في دراسة تاريخ المغرب وعلاقته مع السودان الغربي في العصر الحديث**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ٢٠٠٣.- أحمد الشكري، **الإسلام والمجتمع السوداني، إمبراطورية مالي ٦٢٨-٨٣٤ه /١٢٣٠-١٤٣٠م** د.ك. أ. ع. إ. الرباط ١٩٩٠ - ١٩٩١.- محمد الغربي، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٢، ص: ١٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

تدنيس المقدس في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية
الدين والجنس



أ.د. إمام الشافعي محمد حمودي
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
رئيس قسم التاريخ – كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر – جمهورية مصر العربية



د. أشرف صالح محمد سيد
أستاذ مساعد تاريخ وتراث العصور الوسطى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن رشد – هولندا

مُلَخّص

كان الواقع في القرن الحادي عشر الميلادي مهيأ تمامًا للحركة العسكرية الاستعمارية الخطيرة التي عُرفت باسم "الحروب الصليبية"، فالشرق ممَّزق ضعيف، والغرب ممَّزق ضعيف، وفي خضم هذه الأمواج المتلاطمة شرقًا وغربًا، وانهيار نُظُم الحكم، وضياع الأراضي المقدّسة، ونفوذ رجال الدين، وقدسية البابا في الغرب، وخليفة المسلمين في الشرق، تأتي رسالة البابا أوربان الثاني لتوحد صفوف الغرب وتدعو إلى فرصة بدت سانحة لاستعادة المناطق المسيحية التي استولى عليها العرب. وعلى مدى ما يقارب قرنين من الزمان، بين الدعوة إلى الحملة الأولى على الشرق (١٠٩٥م/ ٤٨٨هـ)، وطرد الصليبيين من عكا آخر معاقلهم في بلاد الشام (١٢٩١م/ ٦٩٠هـ)، لم تخل سنة واحدة من سيل المسلحين المتدفق إلى الشرق. وتكشف لنا الدراسة المتفحصة عن التاريخ الواقعي للصليبيين، وليس كما حرصت كتب الحوليات المبكرة على تصويرهم أنهم أطهار وجند المسيح، ولا تحركهم سوى الزاوية الدينية، فهم عمليًا كانوا أشخاص عاديين التصقت بهم روح الميوعة والانحلال الخلقي منذ بداية قدومهم إلى بلاد الشام، فانغمسوا في كثير من الانحرافات التي اعتادوا عليها في مجتمعاتهم الأوربية، حيث سادت حياة الفساد والمجون طبقات المجتمع الصليبي المختلفة. وتتناول هذه الدراسة الدين والخطيئة الجنسية خلال هذه الفترة في بلاد الشام والفساد الجنسي بين رجال الدين، ودور الكنيسة في الحد من هذا الفساد، والآثار الدينية لتلك الخطيئة، بهدف إبراز صورة وتطور أخلاقيات الغزاة، فلم يكن لديهم ما يمكن وصفه بقضية صليبية حقيقية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٨ فبراير ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ٠٩ مايو ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

الخطيئة الجنسية، رجال الدين، الحملات الصليبية، العصور الوسطى، الكنيسة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052957

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إمام الشافعي محمد حمودي، أشرف صالح محمد سيد. "تدنيس المقدس في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية: الدين والجنس".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون؛ يونيو ٢٠١٨. ص١٩٣ – ٢٠٢.

مُقَدِّمَةُ

يقبل الفكر العبراني الجنس كجزء طبيعي في الحياة، ويحث على الزواج بشدة،(١) وفي العهد القديم (التوراة) شُجب الزنى في الوصايا العشر واعتبر عملاً يسئ إلى حق القريب، وقد جعل الزنى من بين المحرمات التي تجعل الإنسان دنسًا بحسب الشريعة، فاعتبر الزنى خطيئة يعاقب الله الإنسان بسببها، وفي الشرق القديم كله صار الزنى خطيئة ذات بُعد ديني.(٢)

على الرغم من كل هذه التعاليم الواردة في التوراة بتحريم الزنى، فإن (Astarte) عشتاروت إلهة النبات والخصب، رديفة عشتار البابلية انتشرت عبادتها الفاسقة (البِغاءُ الْمُقَدَّسُ) في الشرق كله، ولا سيما في فلسطين، حيث كان لها تأثير خطير في بني إسرائيل،(٣) حيث لعبت النساء دورًا هامًا في البِغاءُ الْمُقَدَّسُ،(٤) وهو الذي كان يمارس في ظل المعابد الكنعانية، بل وصل حتى إلى هيكل أورشليم (بيت المقدس)، وكان البغاء يمارس في شعب إسرائيل كما في البلدان المجاورة، وهو لا يشجب على المستوى الأخلاقي، بل على مستوى المصلحة الشخصية.(٥)

وقد ورد في العهد القديم فقرات لا تحرم البغاء في حد ذاته، وإنما تُحرَم على العبرانيين أن يدعو بناتهم يعملن بهذه المهنة، وهناك فقرات تحرم على الكهنة الزواج من عاهرات وهو تحريم ليس عام أو مطلق، وإنما مقصور على أفراد معينين وتحت ظروف معينة، ويحرم التلمود البغاء بين اليهود تمامًا، وهناك أجزاء كثيرة من التلمود تنعت البغاء بكل الصفات السلبية، وتبين عقوبة مَنْ يعمل بهذه المهنة البغيضة.(٦)

أما عن آراء آباء الكنيسة عن الجنس، فما تزال هذه الآراء محل جدل كبير حتى اليوم، فيتفق جميع آباء الكنيسة على أن للاتصال الجنسي غرض واحد فقط، هو إنجاب الأطفال، وهم يؤمنون إيمانًا قاطعًا بأن إشباع الرغبة الجنسية بحد ذاتها خطيئة، كما أنها نتيجة الانحلال الخلقي لدى الإنسان، ويعبر القديس جريجوري عن هذا المبدأ بقوله: "حين لا يكون حب إنجاب الذرية، بل حب المتعة هو الذي يحكم عملية الاتصال الجنسي فإن الأزواج يرتكبون أمرًا يجعلهم يبكون ويحزنون بسببه"، إن الدين المسيحي أباح لهم ذلك، ولكنه حذرهم من أن يكون الاتصال الجنسي بقصد المتعة، وفي رأي كثير من العلماء البروتستانت لا يمكن أن نجد في الإنجيل تحقير للحب الجنسي والزواج الذي نادي به آباء الكنيسة.(٧)

وتمسك آباء الكنيسة بأن الطُهر والنقاء هما الحالة المُثلى للرجال والنساء، وأن السيدة مريم أم المسيح - عليهما السلام - كانت عذراء، وأن الكنيسة هي عروس المسيح العذراء، ومن ثَمَّ فإن الحالة المُثلى هي الإحجام عن الاتصال الجنسي بل وحتى عن الزواج، لذا يقول القديس أمبروز: "إن أولئك الذين لا يتزوجون كالملائكة في السماء"،(٨) وهو ما يُعرف بالإمساك الجنسي (Continence) وهو إمساك اختياري مؤقت، أو إمساك دائم عن العلاقات الجنسية.(٩)

جاء على لسان القديس بولس نفسه ما يفيد منه إباحة الزواج لرجال الدين، فالمسيحية لم تحرم الزواج على رجال الدين، ولكنها فضَلت لهم حياة العزوبة، فقد حرصت الكنيسة على مبدأ عزوبة رجال الدين في تشريعاتها وطلبت من جميع القساوسة أن يطردوا من منازلهم مَنْ يحللن لهن من النساء، مع السماح لأولئك الذين كانوا قد تزوجوا قبل ترسيمهم قساوسة بالاحتفاظ بزوجاتهم بشرط أن يعاملهن كأخوات ولا يعاشرنهن كزوجات، والواقع أن البابوية لقيت في ذلك العصر معارضة شديدة عند تطبيقها هذا المبدأ من رجال الدين، ومن بعض بعيدي النظر الذين خشوا عاقبة انتشار الزنا، والزواج العرفي بين رجال الدين.(١٠)

إن موضوع عزوبية رجال الكنسة أدى إلى كثير من الرذائل لأنه مخالف في الواقع للطبيعة البشرية، فكان لرجال الدين مغامرات جنسية غير مشروعة تفوق بكثير مفاسد غيرهم من غير رجال الدين.(١١) وقد وضعت الكنيسة العديد من التشريعات التي تعمل على الحد من انتشار الانحراف الجنسي خاصةً في المجتمع الأوروبي، فقد وجدت الكنيسة بعد القرن (الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري)، ضرورة مصادقتها على الزواج حتى يصبح شرعيًا، وفرضت حضور أحد القسس حفل الزواج، أما السن المألوفة للزواج فهو سن البلوغ، فقد كان الثانية عشر للبنت والرابعة عشر للولد، وهناك بعض الحالات الاستثنائية خاصةً إذا وجدت حقوق ملكية.(١٢)

رفعت مبادئ المسيحية من مكانة المرأة، كما قدستها المسيحية على أساس أنها السيدة مريم العذراء والدة السيد المسيح - عليهما السلام - ولكن نظريات الكنيسة كانت بوجه عام معادية للمرأة باعتبارها حواء التي أخرجت آدم - عليه السلام - من الجنة، ولذلك غالت بعض قوانين الكنيسة في إخضاع المرأة، فقد نظر رجال الدين إلى المرأة على أنها شرًا وإغواء، وكارثة، وخطرًا، وفتنة، ولكنها أيضًا عنصرًا مرغوبًا.(١٣) في المرحلة المبكرة من العصور الوسطى تكونت نظريات تنادي بأن "المرأة بوابة الشيطان، وطريق الشر، ولدغة الحيه، وفي كلمة موجزة المرأة موضوع خطير"،(١٤) بل إن آباء الكنيسة استكثروا أن تكون للمرأة روح علوية، فبحثوا في ذلك وأوشكوا أن يلحقوها بزمرة الحيوان الذي لا روح له بعد فناء جسده.(١٥)

وإذا كانت المرأة هي حواء التي خسر بسببها الجنس البشري جنات عدن، وأنها أداة الشيطان التي تقود الرجال إلى الجحيم، فقد أصبحت في نظر البعض في منزلة أقل من منزلة "رقيق الأرض"،(١٦) وساد الاعتقاد في العصور الوسطى أن المرأة تخضع للرجل بحكم ضعفها الجسمي والعقلي، ورغم ذلك نادى القانون الكنسي بوجوب حماية الرجل للمرأة، وكما أن الله مبدأ كل شيء ومنتهاه، فإن الرجل مبدأ المرأة.(١٧)

كان السادة الإقطاعيون في العصور الوسطي الأوروبية ينظرون للنساء باعتبارهن أدوات للمتعة الجسدية وإنجاب الأطفال لا غير،(١٨) وفي الوقت نفسه ظهرت في أوروبا بعض الأفكار الدينية المتطرفة الخاصة بالجنس وعلاقة الرجل بالمرأة، فقد كان المذهب الكاثاري (الألبجنسي Albigenses) يمنع من أكل أية لحوم أو حتى البيض، الذي نتج عن اللقاء الجنسي وكانت المرأة الحامل بالنسبة لهم شخصًا منبوذًا، وفي الوقت نفسه كانوا يتمتعون بحرية واسعة في أسلوب حياتهم لاسيما في شئون الجنس.(١٩)

كان أحد الملامح الأصلية لاتجاهات الناس الجنسية قبل اندلاع الحروب الصليبية، يتمثل في أنهم محكومون بردود الأفعال تجاه الخطيئة وتقديرهم لعواقبها، ولم يكن أي جانب من السلوك الإنساني والتفاعل الاجتماعي محصنًا ضد وصمة الوقوع في براثن الرذيلة، وأولئك الذين كانت حياتهم موجهة عمدًا في بيئة اجتماعية وأنظمة بشكل صارم - مثل القساوسة العُزاب والزُهاد والرهبان والراهبات - هم فقط الذين كان يمكنهم أن يأمنوا في تجنب بعض السقطات التي لا تحصى في الوجود اليومي.(٢٠)

لقد أجمع مَنْ كتبوا حول الموضوعات الأخلاقية في العصور الوسطى على أن ممارسة الجنس شيء نجس، عمل آثم يدنس الجسد والروح معًا،(٢١) وهكذا كان من الصعب أن يكون الجنس بأي شكل على وفاق مع المُثل العُليا المسيحية، وحتى في الزواج، كان الجماع يشوبه دائمًا نحو من خطية الشهوة الجنسية. ولكنه في الوقت نفسه كان لزامًا على الزوجين إقامة علاقات جنسية عند الحاجة. مع الامتناع عن الجماع لفترات قصيرة برضاء الطرفين اتباعًا لتعاليم القديس بول، فضلاً عن ذلك فقد تضاربت الأقوال في كتب الغفران إبان بداية العصور الوسطى حول إلزام المتزوجين بالابتعاد عن الجماع خلال فترات هامة من العام الكنسي. أما الأشخاص الذين يؤدون كفارة مثل الحجاج على سبيل المثال، فهؤلاء كان يجب عليهم الامتناع التام عن الجنس.(٢٢)

الواقع أن العصور الوسطى كانت بوجه عام أكثر تسامحًا في مسائل الحياة الجنسية عن كثير من العصور التي سبقتها أو التي

جاءت بعدها، فلم يكن هناك أحد من أهل تلك العصور – مع استثناء القساوسة والرهبان والراهبات – يرغب في كبت نزعاته الجنسية، إنما كان ينفث عن هذه النزاعات بشكل مستور فيه الكثير من الرياء والمواربة، فإذا ما أفلح الشخص في ذلك أمكنه الاستمتاع بهذه اللذائذ الجسدية كما يرغب ويريد، في حين كان رجال الدين يريدون القضاء على هذه النزعات ويعتبرونها رجس من عمل الشيطان.[٢٣]

لقد طرأ على الحياة في العصور الوسطى الكثير من التغيرات والتطورات البعيدة الأثر، وإذا أردنا أن نصف تلك العصور وصفًا دقيقًا متميزًا فلا نجد أحسن وأدق من قولنا إنها كانت في جوهرها عصر التملق والرياء والمظاهر الكاذبة، وهذا ينطبق على العلاقات السياسية كما ينطبق بشكل أدق على العلاقات الجنسية. فقد كان كل شيء في ظاهر المر يتركز حول مبدأ الولاء والإخلاص، فنظام الإقطاع كان يعتمد كل الاعتماد على ولاء وإخلاص التابع أو رفيق الأرض لسيده صاحب الأرض، وإن كان يحمل في قرارة نفسه ضغنًا مريرًا لصاحب الأرض، والحياة الزوجية بدورها تعتمد على الإخلاص الزوجي ذلك الإخلاص الذي لم يترك موضعًا لأية علاقة جنسية أخرى غير شرعية، وإن كان كل من الزوجين يهفو إلى رفيق آخر، وإن لم يفصح عن ذلك جهرًا وعلانية.[٢٤]

غير أن هذا التسامي بعقيدة الولاء والإخلاص كان له رد فعل آخر يتصف هو أيضًا بالتسامي، ولكنه سمو من نوع آخر عجيب، أي سمو بالخيانة الزوجية والارتفاع بها إلى مستوى رفيع، فهي ليست عارًا، ولكنها فن جميل، مادام الشخص الذي يمارسها يراعي تقاليد المجتمع المتأدب وعنده الاستعداد لانتضاء السيف بل والموت في سبيل مَنْ يحب إذا اقتضى الأمر ذلك. ومن عجب أن الألفاظ المستعملة في قانون الأدب والأخلاق الفاضلة مثل الشرف والطهر والفضيلة قد استخدمت بعينها في ميدان الفسق والفجور والخيانة الزوجية، إذ كانت هذه الألفاظ وأمثالها تدور على ألسنة الأبطال الذين غدروا بزوجات الرجال الآخرين واتخذوا منهن عشيقات ومحظيات.

لقد كان من النادر أن يتزوج فارس من فرسان العصور الوسطى قبل أن تكون له غزوات ومعارك مشهودة في ميدان الفسق والفجور وتمرس في فن إغراء الزوجات، وأن يكون قد خرج من تلك المعارك العديدة التي خضاها بتذكارات تشهد بانتصاراته في هذا الميدان العجيب، ميدان الجنس، وإلا عُدّ من الفرسان الخاملين الذين لا يستأهلون ولا حتى مهماز الجواد الذي يمتطونه، لقد كان الفسق والفجور والزنا عبارة عن تسلية اجتماعية بين أهل الطبقة العليا.[٢٥]

الدين والخطيئة الجنسية

على الرغم من أن الدين كان يجب أن يكون وازعًا للصليبيين في الامتناع عن الأعمال الجنسية المخالفة لتعاليم المسيحية، إلا أن تم استغلال الدين في حثّ الأوروبيين على ارتكاب الفاحشة على الأقل مع أعداء المسيحيين كالمسلمين والمسيحيين الشرقيين على أقل تقدير.[٢٦]

لقد داعبت خيال التابع الإقطاعي الشاب والعازب أحلام عن أعاجيب الشرق والثراء والقصور وجمال الحريم.[٢٧] وفي سنة (١٠٩٦م/ ٤٩٠هـ)، رحل البابا أوربان الثاني عن فرنسا عائدًا إلى إيطاليا حيث تابع خطبه في إلهاب حمية الجماهير، محرضًا إياها للاشتراك في الحرب ضد المسلمين، وقد رافقت دعوة البابا هذه دعايات شفهية وكتابية مزورة ومختلقة قام بها بعض المتعصبين، وكانت غايتهم منها تحريض فرسان أوروبا الغربية لشن الحرب على المسلمين، والاستيلاء على خيرات بلادهم التي تدرُ لبنًا وعسلاً، وعلى نساء آسيا الصغرى الجميلات، وسوى ذلك من مباهج الحياة في الشرق.[٢٨]

تفشت جريمة الزنا بين الصليبيين في زحفهم نحو بلاد الساحل الشامي، حيث اعتبر كثير من المشاركين أن القلم قد رُفع عنهم بمشاركتهم في الزحف نحو الأرض المقدسة، وأن كافة جرائمهم مُعفى عنها بموجب الوعد البابوي، وعلى ذلك شاع في المدونات التاريخية الصليبية عن الحملة الصليبية الأولى أخبار كثير من حالات الزنا، حتى بين الرهبان والراهبات.[٢٩] فاعتقد الصليبيون أن مجرد المشاركة في الجهد الصليبي من شأنه أن يغفر لهم خطاياهم، ويخلصهم من الكفارة المستحقة على ذنوبهم،[٣٠] فانغمسوا في كثير من الانحرافات التي اعتادوا عليها، ومنها الخطايا الجنسية، كارتكاب فاحشة الزنا واللواط (السَدُوميَّة).[٣١]

بل كان البعض يعتقد أن صلاته يوم الأحد في كنيسة البلدة تكفر عما اقترفه من إثم خلال أيام الأسبوع.[٣٢] وكان فرسان الغرب الأوروبي على الجملة، لا يفهمون من الدين سوى أنه حيازة الذخائر المقدسة،[٣٣] أو الهبات التي كانوا يغدقونها بسخاء على الأديرة والكنائس تكفيرًا عن ذنوبهم، إذ كان التكفير عن الذنوب أيسر لهم من الالتزام بالفضيلة.[٣٤]

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل كانت بعض العاهرات الأوروبيات تعتبر أن ممارسة الدعارة مع العُزّاب من الأوروبيين في الأراضي المقدسة قُربة دينية لا يساويها أي ثواب. فقد ذكر آنفًا وصول مركب بها ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر – جزر البحر المتوسط – وقصدن من خروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن من العزباء، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة، لاسيما فيمن اجتمعت فيه عُزبة وغُربة.[٣٥]

إلى جانب استغلال الدين كدافع للانحراف الجنسي كان لضعف الوازع الديني في نفوس الصليبيين أثر كبير في نشر رذيلة الزنا والدعارة داخل المجتمع الصليبي،[٣٦] يقول ألبرت فون آخن عن وصول الصليبيين إلى مدينة صيدا في الحملة الصليبية الأولى: "في ضواحي صيدا فقدَ الكثير من الحجاج أرواحهم بفعل لدغ الثعابين لهم، وتعرف الحجاج على دواء وهو أن الرجل الملدوغ يجب عليه فورًا أن يعاشر امرأة فيُشفى ويتحرر من الورم".[٣٧] فقد أدى عدم تأصيل الشعور الديني إلى تيسير الأمر لمرتكبي الجرائم الجنسية.

ومن الأسباب الدينية للانحراف الجنسي فساد الهيئة الكنسية التي كان من المتوقع أن تقوم بدور الرقيب الأخلاقي في المجتمع الصليبي، فنجدها تنحرف وتتحول عن غرضها الأساسي

إلى جمع المال بشتى الطرق حتى تأجير المنازل التابعة لهم لمحترفي الدعارة، مما ساعد على انتشار تلك الحرفة على نطاق واسع في المدن الصليبية.(٣٨) وكان من رجال الدين مَنْ يقوم بتسهيل الانحراف الجنسي- ومخالفة تعاليم الكنيسة لبعض القادة الصليبيين، فقد قام البطريرك أرنولف بطريرك بيت المقدس بإغراء الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس، بالزواج من امرأة أخرى في الوقت الذي كانت زوجته لا تزال حيَة.(٣٩)

إضافة إلى ما سبق من أسباب دينية للانحراف الجنسي عصر- الحروب الصليبية، أن جريمة الزنا لم يكن لها جزاء رادع، فحتى لو ثبتت على امرأة فلم تكن عقوبتها سوى النفي بدلاً من الموت، فما بالنا بالمحترفات اللائي ليس لهن أزواج يطالبون بحقوقهم في عفاف زوجاتهم.(٤٠) يقول الرحَالة بورشارد عن رجال الدين في مملكة الأرمن والجورجانيين: "عندما يموت الكاهن يجب على زوجته أن تكون عفيفة، وإذا تزوجت مرة ثانية، فإنها سوف تُحرق حيَة، وإذا أصبحت مومس، فلا يصيبها أي أذى"،(٤١) أي أن ضعف القوانين أو عدم فعاليتها في إنزال العقوبة بمرتكبي تلك الجريمة، كل ذلك منح النساء قدرًا كبيرًا من الحرية لممارسة تلك الجرائم الجنسية البشعة.(٤٢)

الفساد الجنسي بين رجال الدين

امتد الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية إلى طبقة مهمة من طبقات صفوة المجتمع هي طبقة رجال الدين، والتي كان من الأولى أن تقوم بدورها في حث الناس على الابتعاد عن هذه الموبقات، ولكن من المؤسف أن كثيرًا من أبناء هذه الطبقة قد انغمس في هذا الانحراف الجنسي، بكل المستويات بداية من البطاركة وحتى أصغر رتبة دينية كنسية آنذاك.(٤٣)

كان بعض هؤلاء الأساقفة من المقربين للملك الصليبي، وقد وصل هؤلاء الأساقفة إلى أعلى المراتب الدينية باختيار الملك الصليبي، وربما كان الأساقفة الآخرون من المتدينين، وتعلم البعض، وربما البعض الآخر لم يتلق تعليمًا، وفي أفضل الحالات، كان هؤلاء الأساقفة من الرجال متوسطي القدرات والمواهب ومن الرجال متواضعي القدرات. وكانوا نمطًا من رجال الدين المستوطنين، فالرجال الذين جاءوا إلى الأراضي المقدسة ارتقوا إلى مراكز عالية ومكانة مرموقة بفضل ظروفهم الاجتماعية الخاصة وشهرة مزاراتهم المقدسة، هذا الوضع وتلك المكانة التي لم يكن باستطاعتهم الوصول إليها من خلال كفاءتهم.(٤٤)

انضم عدد من الرهبان إلى الحملة الصليبية الأولى دون الحصول على إذن من رؤسائهم، وكان أحدهم من دير كلوني (Cluny) وقد شارك في الحملة ليس بدافع الورع، وإنما من منطلق الطيش، فقد ضبطوه مع امرأة، وضربوه بالسياط علنًا أمام الجميع.(٤٥)

لقد لازم الانحراف الأخلاقي بعض رجال الدين منذ اللحظة الأولى التي وضعوا فيها أقدامهم في بلاد الشام، من ذلك أن أدلبرو اللوكسمبورجي (Adelbero of Luxembourg) قريب الإمبراطور هنري الثالث، كان شابًا أرستقراطيًا وشغل منصب رئيس شمامسة (متز Metz)، وأثناء حصار الصليبيين لمدينة أنطاكية في الحملة الصليبية الأولى، كان يلعب النرد مع امرأة جميلة مرموقة جدًا في إحدى الحدائق القريبة من أبواب المدينة، بين الشجيرات النامية بالقرب من أنطاكية، فتسلل الأتراك خفية من الباب، وهاجموه ونصبوا له كمينًا وقتلوهم.(٤٦)

وعندما أعلن (بطرس بارثليميو) حلم الحربة المقدسة التي أثرت كثيرًا في فَك الحصار عن مدينة أنطاكية المحاصرة من قبل المسلمين، كانت حجة المندوب البابوي (أدهيمار دي مونتيل) في إنكار حلم الحربة المقدسة الذي ادعاه (بطرس بارثليميو) أنه رجل لم يؤثر عنه شيء من التقوى، بل كان أقرب ما يكون إلى الميل للأخذ بشهوات الدنيا، والإقبال على متاعها دون رعاية لنواهي الدين والعُرف والأخلاق،(٤٧) فكان أدهيمار دي مونتيل يعلم بأن بطرس بارثليميو سيء السمعة ولا يمكن الاعتماد عليه.(٤٨)

يقول وليم الصوري عن أحوال رجال الدين المسيحي في الشرق اللاتيني بعد وفاة المندوب البابوي أدهيمار دي مونتيل:(٤٩) "لقد هوى الدين القيم وكل معاني الشرف إلى الحضيض عند رجال الدين، فاستشرى الفساد في كل ناحية، وسار في مسيرات مُحرَمة منذ أن غادر دنيانا النائب الرسولي الطاهر الذيل والسيرة أدمار أسقف بُوي".

فقد كان (ديمبرات) رئيس أساقفة (بيزا) يقف إلى جانب البابا أوربان الثاني في مشروعه الصليبي الكبير لاسترداد الأراضي المقدسة في الشرق، الأمر الذي جعل البابا أوربان الثاني يُعيّنه مندوبًا بابويًا في الأراضي المقدسة بدلاً من أدهيمار دي مونتيل الذي توفي في مدينة أنطاكية، وذلك على الرغم مما أحاط بديمبرات من شائعات عن عدم استقامته وانحراف سلوكه.(٥٠)

ومن رجال الدين الذين أفاض وليم الصوري في الحديث عن انحرافهم الجنسي (أرنولف)، الذي كان من رجال الدين، إلا أنه مذموم السيرة مغموزها، ثم إنه فوق ذلك ابن أحد القساوسة، وكانت الألسن تلوك طول الرحلة سيرته بالسوء وتتغامز عليه، كما أن سفلة المُهرجين كانوا يجعلون منه أضحوكة أغانيهم الجنسية،(٥١) بل كان وليم الصوري يطلق عليه لقب (الفاجر أرنولف).(٥٢)

إن (أرنولف) هذا لم يتورع حتى وهو في كرسي البطركية - بطركية بيت المقدس- عن ممارسة حياة الدنس، حتى صار عاره أمرًا معروفًا للجميع غير خاف على أحد، ولم يحاول هو كتمان هذه الحقيقة.(٥٣) وقد وصلت انحرافات (أرنولف) الجنسية إلى مسامع البابا في روما، فوفد الأسقف (ورنج المبجل) نائبًا عن البابا لتقصي- الحقائق فيما بلغه من مسلك البطرك أرنولف الرذيل، وما تلوكه الألسنة عن حياته الخليعة التي يحيى فيها. وتم خلع أرنولف من وظيفته الكهنوتية، ولكنه مضى إلى كنيسة روما واستطاع بكلماته الناعمة وإسرافه في تقديم الهدايا أن يتغلب على شكوك البابا ورجال الكنيسة فيعود إلى مستقره ورُدَ إلى كرسي البطركية في بيت المقدس، فرجع إلى حياة التبذُل التي كانت سببًا في خلعه.(٥٤) وفي ١٨ إبريل سنة (١١١٨م/٥١٢هـ)، توفي أرنولف بطرك بيت المقدس، وكان رجلاً يُكثر من اختلاق المتاعب، ولا يكترث بمراعاة مهام وظيفته المقدسة.(٥٥)

غير أن أهم الانحرافات الجنسية في طبقة رجال الدين كانت خاصة بالبطرك هرقل (Heracles) (١١٨٠- ١١٩١م/ ٥٧٩-

٥٨٧هـ) ففي سنة ١١٨٠م، مات بطرك بيت المقدس (أموري) فحلَ محله هرقل أسقف مدينة قيسارية، وهو رجل أُميّ تقريبًا غير أنه جميل المنظر إلى حد مُلفت، ولم تكن سمعته طيبة، ويرجع اختياره إلى حد كبير إلى نفوذ أم الملك.[٥٦]

كان (هرقل) منذ بدايته رجلاً عديم الحياء وليس له من العلم إلا النزر اليسير، وكان رجلاً ضخم الجُثة، كما كان في الوقت ذاته مُنحل الأخلاق أشد الانحلال، منكبًا على ملذاته، عبدًا لشهواته، وكانت (أجنس) أُم الملك الأبرص شديدة الولع به والعشق له، فدفعها ميلها المفرط إليه أن تجعله رئيس شمامسة بيت المقدس، ثم رئيس أساقفة قيصرية، ثم انتهي بها الأمر أخيرًا أن جعلته البطرك، فلما صار هو البطرك اتخذ خليلة له امرأة اسمها (باسك دي ريفري Pasque de Riveri)، وكانت هذه المرأة زوجة تاجر أقمشة وثياب في نابلس التي كانت تبعد عن القدس أربعة وعشرين ميلاً، لكنه اعتاد أن يأتي بها إلى القدس فتقيم معه خمسة عشر يومًا، وقد تزيد هذه الفترة من الزمان، وكان هو يغدق عليها وعلى زوجها المال الكثير حتى صارت هي وبعلها من الأثرياء والأغنياء، ومن أجل هذا اعتاد زوجها أن يغمض عينيه ويتغافل عنها فيفعل البطرك معها ما شاء. ثم مات زوجها تاجر الأقمشة فحمل البطرك أرملته وجعلها تعيش معه على الدوام في داره ولا تغادره، ثم اشترى لها دارًا وأغدق عليها المجوهرات الثمينة والأحجار الغالية، حتى صارت أغنى امرأة شاهدتها القدس، وما من غريب رآها إلا ظنها (كونتيسة) أو حسبها (بارونة) لكثرة ما تتحلى به من الأحجار الكريمة وما ترتديه من الثياب الغالية الموشاة بالذهب، وما تتحلى به من غالي الأحجار. أما الخلق الذين يعرفونها فإنهم كانوا يقولون إن مرت بهم: "انظروا ها هي البطريكة".[٥٧]

حدث في إحدى المرات أن كان الملك وبارونات المملكة في جلسة داخل قصر البطرك يتناقشون في بعض الأمور الهامة، ويستعرضون في هذه الجلسة احتياجات البلد ويتدبرونها. فجاء خادم إلى القصر حيث كان هؤلاء السادة الكبار مجتمعين، وصاح بالبطرك: "سيدي البطرك، لقد جئتك بنبأ طيب سار !! فإن كافأتني مكافأة طيبة سخية أفضيت به إليك" ظن البطرك والملك وبقية المجتمعين أنه سوف يذكر خبرًا فيه نصر للمسيحية، فقد جرت عادة هذا الخادم أنه إذا جاء إلى القدس أخبار طيبة أسرع إلى البطرك فقصَها عليه، ومن ثَمَّ قال له البطرك: "هات ما عندك أيها التعيس!! هات ما عندك على أن يكون سارًا" فقال له الخادم: "لقد وضعت السيدة باسك دي ريفري الساعة ابنة لك"، فرد عليه البطرك قائلاً: "اخرس أيها الأحمق ولا تزد"، ولما كان رئيس أساقفة مدينة صور (وليم الصوري المؤرخ المشهور) يعرف عن حياة البطرك (هرقل) هذه الأمور وكثيرًا مثلها، فإنه التمس من كبار القوّامين على القبر المقدس ما ذُكر آنفا، لكنهم أصموا آذانهم وكأن بها وقرا، ورفضوا أن يفعلوا ما التمسه منهم وليم الصوري، بل فعلوا عكس ما طالبهم به.[٥٨]

هذا، وقد استملح عدد من الرهبان والراهبات هذه الانحرافات الجنسية، فغادروا صوامعهم ونزلوا إلى بيوت الدعارة حتى ينهلوا من معينها الآثم، ومن ثرواتها المدنسة،[٥٩] ليس هذا فقط بل كانت الانحرافات الجنسية تمارس داخل الأديرة ذاتها.

يقول المؤرخ بيير دوبوا عن ذلك الأمر:[٦٠] "غالبًا ما يمارس الرهبان في هذه الأديرة حياة كلها رفاهية ومجون واحتساء للخمور، مع حياة أخرى من حياة الفجور". وفي سنة (١١٠٢م/٤٩٦هـ)، عقد (أنسلم) رئيس أسلقفة كانتربري مجمعًا في لندن في كنيسة القديس بولس، وجرى في هذا المجمع الحرمان كنسيًا للكهنة الذين لديهم خليلات، ما لم ينفصلوا عنهن على الفور.[٦١]

ومما يؤكد على انتشار الفساد الأخلاقي بين رجال الدين في الأديرة، أن (وليم) راعي دير (وستمنيستر) اتهم من قبل رهبانه، بتبديد النفقات، وبعدم القدرة على كبح نفسه جنسيًا.[٦٢]

في سنة (١١٢٥م/ ٥١٩هـ)، جاء إلى انجلترا (جون أوف كريما Crema) كاردينال الحضرة البابوية – نائبًا عن البابا- بترخيص من الملك، وزار الأسقفيات والأديرة، وعقد مجمعًا مهيبًا في لندن تحدث فيه بحدة ضد اتخاذ الخليلات، ولكن حدث في تلك الليلة بالذات، أن فوجئ برفقة عاهرة كان يجامعها، وكانت الحقيقة واضحة بحيث لا يمكن انكارها، وهكذا تحولت مكانته السامية إلى خزي عظيم،[٦٣] وهذا خير مثال على الانحراف الجنسي عند كبار رجال الدين في هذا العصر.

وإذا كانت الجماعات الدينية العسكرية مثل فرسان المعبد، وجماعة التيوتون، والاسبتاريين، قد كانت أكثر التزامًا بالدين، وقامت بدور كبير في مد أمد الوجود الصليبي في بلاد الشام، إلا أنها لم تخل أيضًا من الانحرافات الجنسية على الرغم من قوانينها الصارمة حيال ذلك.

إن وجود قوانين تعاقب حالات الزنا داخل الهيئات الدينية الحربية الصليبية الاسبتارية (Hospitallers)،[٦٤] يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك على أن الفساد تطرق إلى تلك المؤسسات التي صورتها المصادر التاريخية الصليبية الباكرة على أنها عناصر من الأتقياء والأطهار وجند المسيح (Militia Christi).[٦٥] فبعد تدفق الثروات في يد الداوية – مثلاً – اتهم عامة الناس في أوروبا الداوية بسوء الأخلاق، فوجهت عدة اتهامات ضد الهيئة منها تهمة تعاطي الخمور، حتى أصبحت كلمة (الداوي) تطلق على الشخص الذي يتعاطى الخمور بكثرة (Boire comme un templar)، كما أصبحت كلمة (Temple House) صفة لكل بيت سيء السمعة.[٦٦] كما أن اللواط –على سبيل المثال- لم يُسجل سوى مرة واحدة في تاريخ جماعة فرسان الهيكل – الداوية – الذي امتد لمائتي سنة.[٦٧]

أما الدعارة التي كانت مهنة شائعة في كل مدن العصور الوسطى وأكثر شيوعًا في الموانئ، فقد كانت مُكلَفة للغاية في مدينة ساحلية مثل مدينة عكا.[٦٨] فقد تفشت حرفة الدعارة في عكا تفشيًا كبيرًا، حتى لم يتورع رجال الدين عن تأجير منازلهم لمحترفي تلك الحرفة المشينة، وصار الأمر متفشيًا مما جعل البابا (أنوسنت الرابع) يرسل في منتصف القرن (الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري)، خطابًا إلى رجال الدين الكاثوليك في مدينة عكا ينتقدهم بسبب تأجير أملاك الكنيسة للفاسدين أخلاقيًا.[٦٩] فكان البابا يحذر رجال الدين من مغبة تأجير المنازل للمومسات في عكا.[٧٠]

هذا، ويمكن القول بأن الانحراف الجنسي عصر الحروب الصليبية قد امتد إلى سمعة البابا ذاته، فقد عقد الإمبراطور

هنري الرابع[٧١] مجمعًا دينيًا أيده فيه القساوسة الألمان الذين أزعجتهم سياسة البابا جريجوري الرابع، وأرسلوا إليه رسالة حادة الكلمات تقول: "قررنا بالإجماع أنه لن يكون بمقدورك أن تتولى رئاسة الكرسي الرسولي بعد الآن، وبأنك راهب مُزيف تُعاشر امرأة في الحرام، وأن الكنيسة كلها تحكمها هذه المرأة."[٧٢]

ربما كانت هناك بعض الشواهد التاريخية قبل عصر الحركة الصليبية التي تؤكد ذلك. فقد كان يوحنا الثاني عشر (٩٦٤-٩٩٥م/ ٣٥٣-٣٨٥هـ) ذلك الولد الفاسد في الثامنة عشرة من عمره عندما اعتلى العرش البابوي، وقد مات بسبب إفراطه الجنسي أثناء نومه مع إحدى عشيقاته، وهذا مثالاً واضحًا على فساد البابوية والكنيسة الكاثوليكية عامةً في ذلك العصر.[٧٣]

وخلال الفترة (١٣٠٩ - ١٤٣٩م)، التي تمثل نهاية الحركة الصليبية ونهاية العصور الوسطى، تدهور المستوى الأخلاقي بين رجال الكهنوت، فقد كان الالتزام بالعفة، وعدم الزواج، لا يتفق لا مع الغرائز الطبيعية للإنسان ولا مع التعاليم الكتابية التي تشجع على الزواج، فانغمس العديد من رجال الكهنوت في علاقات غرامية مع نساء من كنائسهم، بل واتخذوا لأنفسهم عشيقات ثابتات، بل إن بعضهم انشغل عن واجباته الرعوية بانشغاله بالعناية بالأطفال غير الشرعيين الذين ولدوا نتيجة لهذه العلاقات، وكانوا يمثلون مشكلة حقيقية في ذلك الوقت.[٧٤]

دور الكنيسة في الحد من الانحراف الجنسي

أمام هذا السيل الجارف من الانحرافات الجنسية التي عمّت كل طبقات المجتمع في عصر الحروب الصليبية، كان لابد للكنيسة الغربية أن تقوم بدور مهم للحد من هذ الانحطاط الأخلاقي الذي وصل إليه أبناء الغرب الأوروبي سواء في أوروبا ذاتها، أو في المدن الصليبية في بلاد الشام. وقد اتخذت الكنيسة عدة إجراءات للحد من ذلك الانحراف متسلحة في ذلك بسلطتها الدينية على طبقات المجتمع المختلفة، وتمثلت أهم هذه الإجراءات في عقد المجامع الدينية.[٧٥]

والمجمع عبارة عن مجلس يُدعى إليه جميع الأساقفة، ويرأسه أسقف - بابا - روما بنفسه أو على يد مفوضين، للبحث في القضايا الكبرى، أو للقيام ببعض الأعمال ذات الطابع الرسمي الخاص.[٧٦] منذ سنة ١٠٥٤م، أصبحت المجامع الدينية التي تُعقد في الغرب الأوروبي لا تختص إلا بشئون الكنيسة الغربية.[٧٧]

في سنة (١١٣٩م/ ٥٣٤هـ)، عُقد في روما مجمعًا أيضًا، اتخذت البابوية فيه خطوة أخيرة بالنسبة لزواج رجال الدين، حيث قررت أنه لا يجوز لأحد من رجال الكنيسة أن يعاشر امرأة، وأن زواج أي واحد منهم يعتبر غير شرعي، وبناءً على ذلك تُصبح ذُرّية رجال الكنيسة أبناء سفاح.[٧٨]

توالت المجامع الدينية بعد ذلك للحد من الانحراف الجنسي-خاصةً بين رجال الدين، فبعد أن اعتلى البابا (أنوسنت الثالث) العرش البابوي سنة (١١٩٨م/ ٥٩٥هـ)، عقد مجمع (اللاتيران الرابع) في روما سنة (١٢١٥م/٦١٢هـ)، واتخذ عدة قرارات للإصلاح الكنسي منها: المراسيم التي أدانت السُكر وإدمان الخمر بين رجال الكنيسة، وشجبت احتفالاتهم، وخروجهم للصيد بالصقور، وحفلات الرقص، وحياتهم مع المحظيات.[٧٩]

من الطرائق التي اتخذتها الكنيسة للحد من الانحراف الجنسي في أوساط المجتمع الصليبي، قرارات وعظات رجال الدين لطبقات المجتمع المختلفة وحثهم على الالتزام بالفضيلة، والعمل على الحد من اختلاط الرجال بالنساء كأحد الأسباب المباشرة لهذا الانحراف.

وكان رجال الدين يعملون على بناء بعض الأديرة الخاصة بالراهبات والنساء غير الراهبات، للحد من عدم الاختلاط بين الجنسين، وما يمكن أن يترتب على ذلك من مفاسد جنسية. يقول يعقوب الفيتري عن مستشفى ودير القديس (يوحنا) في القدس الشريف:[٨٠] "مع اعتقاد الكهنة بأنه من غير اللائق إسكان النساء من الحجاج داخل الدير، قام هؤلاء بمرور الزمن ببناء دير آخر خارج أسوار الكنيسة كمقر للراهبات، حيث تقوم بعض النساء المتدينات بخدمة النساء من الحجاج اللاتين، والترفيه عنهم في ذلك المكان".

ومن القرارات الدينية التي ساعدت على التقليل من الانحراف الجنسي في صفوف الصليبيين، قرارات وقوانين الهيئات الدينية العسكرية.

وجاء في نظام قانون (ريموند دوبري) قائد جماعة الإسبتارية، إذا حدث واقترف أحد من الرهبان ما ينبغي عدم حدوثه، أي اقترف الزنا، فإذا أذنب بشكل سرّي عليه أن يفرض على نفسه توبة مناسبة، وإذا ما بات هذا معروفًا، عليه بالتعري أمام الجميع ويُجلد من قبل رئيسه الديني، هذا إذا كان راهبًا دينيًا، أما إن كان راهبًا مدنيًا، فينبغي جلده بشدة متناهية بواسطة أسواط أو عصى من قبل رجال الدين.[٨١] "وإذا حدث بعد أن يتم تطبيق تلك العقوبة عليه، وهداه الله وأراد التوبة، والعودة مرة أخرى إلى جماعته، فإن على الجماعة أن تقبله مرة أخرى كعضو ضمن بقية الأعضاء، وتقوم الجماعة في تلك الحالة بفرض عقوبة عليه مناسبة لحجم الجريمة، ويعامله أعضاء المجموعة بمثابة عضو غريب عنهم، وذلك لمدة عام كامل، ويتم وضعه تحت المراقبة من قبل رجال الدين الآخرين، حيث يتم تقديم تقرير واف عن سلوكه وتصرفاته خلال تلك الفترة، ثم بعد ذلك يتم التشاور فيما بينهم بخصوص ذلك المذنب، ومدى منفعته للجماعة."[٨٢]

ويلاحظ من خلال ذلك القانون عدم المساواة في تطبيق العقوبة بين أفراد الجماعة، بل اختلفت العقوبة حسب مكانة كل واحد، والطبقة الاجتماعية التي قدم منها، مما يدل على عدم النزاهة في تطبيق القوانين بين أفراد الهيئة الواحدة، مما كان يؤدي بالضرورة إلى زيادة معدل الجريمة بين أفراد الهيئة من ناحية، وزيادة وانتشار الفساد بين أفراد الهيئة من جهة أخرى، ومن ناحية ثالثة أصبحت الجماعة قدوة لأفراد المجتمع الصليبي في التعصب ورفض الآخر.[٨٣]

وقد وضع ريموند دي بوي قانونًا آخر في حالة "إذا قام أحد الرهبان باتهام زميل له بتهمة الزنا دون دليل واضح على ذلك، ففي تلك الحالة يتم تطبيق عقوبة الزاني عليه، والتي كان من المفترض أن يتم تطبيقها على زميله المذنب".[٨٤] وعلى الرغم من ذلك؛ تم تطبيق عقوبة أخرى على الفارس الذي يتم ضبطه متهمًا بممارسة الزنا، فإنه كان يختار بين أن تأخذ المرأة العاهرة

بمقوده في المعسكر وهو في قميصه، وتقوم بشده بحبل تجريحًا له، وبين أن يتخلى عن حصانه وسلاحه ويطرد من الجيش، أو أن يتم تجريد الاثنين من ملابسهما ويجبران على المشي أمام الجيش وهما مقيدا اليدين خلف ظهريهما، ويقوم جلادان بجلدهما بالعصى بشدة، وكان الهدف من ذلك هو تخويف الآخرين.(٨٥)

أما عقوبة الزنا عند هيئة فرسان التيتون، فكانت بالتوبة لمدة عام كامل، هذا إذا كانت جريمته فعلها بشكل سري، أما إذا تم كشفها أمام العلن وكانت فعلته فاضحة، يطلق على بيته أسوء الأسماء، ويقوم بالخدمة مع العبيد، ويخدم بدون ارتداء الصليب، ويأكل مع الأجراء جالسًا على الأرض، ويصوم ثلاثة أيام من كل أسبوع على الخبز والماء.(٨٦) وبذلك تكون العقوبات التي عرفت عند هيئات الفرسان مقسمة حسب نوع المخالفة التي يرتكبها العضو، وذلك لوجود عقوبات ثانوية وعقوبات بسيطة وأخرى جسيمة، فالمخالفات الثانوية كانت تتراوح ما بين سبعة أيام وأربعين يومًا.(٨٧)

ومن الملاحظ التفريق في تطبيق عقوبة الزنا، فلم يكن هناك مساواة في تطبيق العقوبة بين كافة الرعية، سواء أكان رجل من العامة أو من عناصر الهيئات الدينية، وكان ذلك العامل أحد أهم أسباب الانهيار الداخلي للمجتمع الصليبي في بلاد الشام. وبصفة عامة، فإن وجود قوانين تعاقب حالات الزنا داخل الهيئات الدينية الحربية الصليبية، يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك على أن الفساد تطرق إلى تلك المؤسسات التي صورتها المصادر التاريخية الصليبية الباكرة على أنها عناصر من الأتقياء والأطهار جند المسيح.(٨٨)

وتجدر الإشارة أخيرًا إلى؛ أن الكنيسة لجأت أحيانًا إلى رسم بعض الصور التخويفية التي تهدف إلى تهديد أصحاب الرذائل باللعنة الأبدية، ما لم يمتنعوا عن الانحراف الجنسي. ففي لوحة "عواقب الخطيئة" صُور في الجانب الشمالي منها ملاك يحبس المذنبين، بما فيهم الملوك والقساوسة في الجحيم، وعُري الملعونين مؤشر على أن السلوك الجنسي الذي كانت الكنيسة تحاول الحد منه، كان يُنظر إليه باعتباره أحد الطرق الرئيسة للخطيئة، وعن طريق التناقض – في الوجه الآخر من الصورة -، كان هناك اعتقاد بأن السماء بعد يوم الحساب ستكون ممتلئة بأُناس ممَنْ تحرروا من الشرور الجنسية.(٨٩)

الآثار الدينية للخطيئة الجنسية

من بين الآثار التي ترتبت على الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية، العديد من الآثار الدينية التي تمثلت في تعطيل الطقوس الكنسية في بعض البلدان بقرار من السلطة الكنسية كرد فعل منها ضد هذه الانحرافات، كذلك ضعف المكانة الدينية لرجال الدين في نفوس العامة، نظرًا لبعض الانحرافات الجنسية التي قام بها بعض رجال الدين أنفسهم.(٩٠)

قبل اندلاع الحروب الصليبية استطاعت البابوية أن تستغل حالة التردي الأخلاقي في المجتمع الأوروبي، فدفعتهم إلى الانخراط في الحركة الصليبية من باب الحصول على الغفران وتكفير الذنوب، فكان هذا من الآثار الدينية الإيجابية التي استفادت منها الكنيسة الغربية أحسن استفادة. يقول البابا أوربان الثاني معبرًا عن ذلك في مؤتمر كليرمونت: "أنتم يا مَنْ تقهرون الأطفال، وتنهبون النساء الأرامل، وأنتم يا مَنْ غرقتم في خطيئة الزنا، يا مَنْ تسرقون حقوق الآخرين، إذا كنتم حقًا تريدون أن تحرصوا على أرواحكم، فاندفعوا بأقصى سرعة ممكنة للدفاع عن الكنيسة الشرقية".(٩١)

اعتبر رجال الدين أن جريمة الزنا سببًا لكل المصائب التي تعرضت لها مملكة بيت المقدس،(٩٢) يقول المؤرخ المجهول عن سبب نكبة الصليبيين في معركة حطين:(٩٣) "زاد غضب الرب على المسيحيين بسبب آثامهم التي زادت زيادة جمَة أسفرت عن سرعة قضاء صلاح الدين عليهم، حتى صارت الغلبة له عليهم في تلك الساحة – حطين – بأكملها، وذلك بين الضُحى والعصر". فكان من أهم الآثار الدينية للانحراف الجنسي تفسير الهزائم والنكبات التي تعرض لها الصليبيين في بلاد الشام تفسيرًا دينيًا، وكانت هذه الانحرافات هي الأساس الذي بُني عليه هذا التفسير.

وكان من أهم الآثار الدينية التي ترتبت على الانحرافات الجنسية لرجال الدين أنفسهم، أن تلاشت مكانتهم الدينية في نفوس عامة الصليبيين. يقول متى باريس:(٩٤) "إن الكهنة إذا انشغلوا بزواجهم، أو كانت لهم علاقة غير شرعية بالنساء، فإن المُحصلة ستكون دمار الأرواح".

من الشواهد التاريخية على أثر انحراف رجال الدين جنسيًا في انحطاط مكانتهم بين عامة الصليبيين. أنه في أول أغسطس سنة (١٠٩٩م/٤٩٣هـ)، تم انتخاب أرنولف كبطريرك لبيت المقدس، وهو كاهن كونت نورماندي، وذلك خلافًا لرغبة رجال الدين الطيبين، الذين اعترضوا لأنه لم يكن مساعد شماس وكان من أصل كهنوتي، والأهم من ذلك كله، أنه اتهم بأنه كان يداعب النساء أثناء الرحلة – الحملة الأولى- حتى إنه كان موضوعًا لقصص فاحشة، وقد حطَ مولده المُشين وانعدام ضميره من شأن رجال الدين الطيبين.(٩٥)

وقد صوَر وليم الصوري الفساد الأخلاقي الذي دبَ في صفوف رجال الدين وما تبع ذلك من آثار على الدين، بعد وفاة المندوب البابوي للحملة الصليبية الأولى أدهيمار دي مونتيل، فقال عن ذلك:(٩٦) "لقد هوي الدين القيم وكل معاني الشرف إلى الحضيض عند رجال الدين، فاستشري الفساد في كل ناحية، وسار في مسيرات مُحرمة، منذ أن غادر دنيانا النائب الرسولي الطاهر الذيل والسيرة أدهمار أسقف بوي".

ومن الآثار الدينية للانحرافات الجنسية للقادة الصليبيين، أنها رفعت من الحماسة الدينية لدي الأوروبيين وكانت سببًا في خروج حملات صليبية جديدة نحو الشرق العربي. فقد أثبتت الأحداث أن الأباطرة والملوك وكبار الإقطاعيين والجيوش الهائلة قد فشلت في تخليص الأراضي المقدسة، وذلك بسبب كبريائهم ورذائلهم، فقد سقطت القدس برذائل العُظماء.(٩٧) فخرجت على إثر ذلك حملة الأطفال الصليبيين (Children's crusade) سنة (١٢١٢م/٦٠٩هـ)، والتي كانت من الأحداث المؤسفة في تاريخ الحملات الصليبية، فقد زحف أطفال فرنسا وألمانيا بقيادة ولدين لم يبلغا سَن المراهقة، زحفًا عبر أوروبا الجنوبية نحو إيطاليا، على

افتراض أن براءتهم وطُهر حياتهم ستضمن لهم النجاح فيما فشل فيه آباءهم بسبب خطاياهم.[٩٨]

ومن الآثار الدينية الإيجابية للانحرافات الجنسية، اتجاه بعض النساء إلى الدين وحياة الزهد والرهبنة كرد فعل للخيانات الزوجية المتكررة من أزواجهم. ومن الشواهد التاريخية لهذا الأثر، أن وليم التاسع دوق أكوتين في فرنسا كانت له عشيقة دائمة هي دانجروسا كما ذكر آنفًا، فلم يكن أمام زوجته (فيليبا) سوى اللجوء للكنيسة، وإقناع المبعوث البابوي (جيرارد Girard) للتأثير على زوجها، بيد أن وليم التاسع رد بسخرية على المبعوث البابوي الذي كان أصلعًا تمامًا بقوله: "سوف تنمو خصلات الشعر على رأسك قبل أن أُفارق الكونتيسة"، وتحدى التهديد بعقوبة الحرمان الكنسي برسم صورة دانجروسا على درعه قائلاً: "سوف أحملها إلى القتال مثلما حملتها من الفراش"، فما كان من زوجته فيليبا إلا أن اتجهت إلى الدين بشكل متزايد علّها تجد السلوى والعزاء، وانجذبت مثل غيرها من النساء لآراء وشخصية أحد النُسَّاك الجوالين من بريتاني يدعى (Robert de Arbrissel) روبرت دي أربرسيل الذي أسس في سنة (١١٠٠م/٤٩٤هـ)، في أقص شمال بواتو قرب الحدود الأنجوية ديرًا فريدًا من نوعه أراد له مؤسسه أن يكون مختلطًا، تحت إشراف رئيسة للدير يخضع لها الجميع رهبانًا وراهبات، بدافع من إيمانه أن النساء هن الجنس الأفضل والأقدر الذي يعرف كيف يدير أسرة ضخمة، وأنهن أكثر نجاحًا من الرجال في إدارة الممتلكات، بسبب خبراتهن التنظيمية التي اكتسبنها من تكوين وإدارة الأسرة. وهذا رأي يعكس اعترافًا بالتفوق النسائي، الذي كان جديرًا بأن يجذب فيليبا التعيسة، التي كانت قد أقنعت زوجها أن يمنحه بعض الأراضي شمال بواتو، بهدف تأسيس جماعة دينية تكريسًا لمريم العذراء، وأمسى هذا الدير مقصدًا للنساء الأرستقراطيات، والزوجات المقهورات.[٩٩]

وأدت بعض الانحرافات الجنسية أيضًا إلى تعطيل الحياة الدينية في بعض الإمارات الصليبية، وزيادة العداء بين السلطة الدينية والسلطة المدنية. فعندما استمر بوهيموند الثالث أمير أنطاكيا في ممارسة الخطيئة مع (سيبيلا) صدر قرار الحرمان ضده، فلم يكترث بذلك، بل أسرف في ممارسة حياته النجسة وعامل البطرك والأساقفة وغيرهم من كبار الشخصيات الكنسية في تلك الإمارة كما لو كانوا أعداء له، وأفحش في ايذائهم، فنهب ما تحويه الكنائس والأديرة من الأشياء المقدسة، وحاصر البطرك ومَنْ لاذوا به من رجال الدين والكهنوت، مما ألجأهم إلى قلعة تابعة للكنيسة فرارًا من بطشه واتقاء لشره، ثم شنَ عليهم بضع هجمات ضارية، كما لو كانت قلعة من قلاع العدو.[١٠٠] فقام بطريرك أنطاكيا بحرمان بوهيموند الثالث وحرم القسيس الذي عقد زواجه على تلك الزانية، وحرم المدينة كلها لأجله، فأبطل قرع النواقيس، وأوقف تناول القرابين[١٠١] والصلوات على الأموات قبل دفنهم، فقام بوهيموند الثالث بنهب كنائس الإفرنج والأديرة، وبعد مدة اجتمع القضاة وجملة من النبلاء برئاسة بطريرك بيت المقدس، حيث توسطوا مع بطريركهم، فأعاد بوهيموند الثالث كل ما خطفه، وثبّتوا له تلك المرأة واصطلحوا.[١٠٢]

خَاتِمَةُ

إن محاولة البابوية إظهار الحملات الصليبية، التي تم تغليفها بإطار ديني، بصورة مقدسة لم تمنع الصليبيين من إظهار سلوكهم البربري، والقيام بأعمال تنطوي على الفسق والفجور، فالعناصر الأوربية التي شاركت في أعمال هذه الحملات إنما أتت إلى الشرق بما جُبلت عليه من أخلاق وطبائع بعيدة كل البعد عن الإطار الديني، فقد فشلت البابوية في إظهار الحركة الصليبية كعمل من أعمال الرب، فغلبت طبائع الفرنج على سلوكياتهم وعلاقاتهم ببعضهم البعض، وظهر حب النفس والأنانية والخضوع للشهوات الجسدية، فمشاعر التقوى والورع لم تنجح في إخفاء التناقض الأخلاقي لفرنج هذه الحملات.

كان لضعف الوازع الديني في نفوس الصليبيين أثر كبير في نشر رذيلة الزنا والدعارة داخل المجتمع الصليبي، ولم يخجل رجال الدين من الإنجاب من الزانيات والمحظيات، بل وتأجير أماكن العبادة لممارسة الرذيلة مقابل رشوة مادية، فكانت حالات الزنا جماعية ومنتشرة في مختلف الأديرة والكنائس. والحق أن الانحراف الجنسي انتشر على نطاق واسع بين مختلف طبقات المجتمع الصليبي في بلاد الشام وبلا استثناء على مدى القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين، السادس والسابع الهجريين.

الهَوامِشُ:

(١) نورمان. ف. كانتور (١٩٨١)، **التاريخ الوسيط**/ ترجمة: قاسم عبده قاسم.- القاهرة: دار المعارف. (ج١/ ص١٦٢).

(٢) الخوري بولس الفغالي (٢٠٠٩)، **المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم**.- بيروت: المكتبة البولسية. (ص٦٢٣).

(٣) صبحي حموي اليسوعي (١٩٩٨)، **معجم الإيمان المسيحي**.- بيروت: دار المشرق. (ص٣٢٧).

(٤) إبراهيم الحيدري (٢٠١١). **النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب**. بيروت: دار الساقي.

(٥) الخوري الفغالي (٢٠٠٩، ص٢٦٧).

(٦) عبد الوهاب المسيري (١٩٩٩)، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**.- بيروت: دار الشروق. (ج٢/ ص٢٩٨).

(٧) نورمان. ف. كانتور (١٩٨١، ج١/ ص١٦١- ١٦٣).

(٨) نورمان. ف. كانتور (١٩٨١، ج١/ ص١٦٢).

(٩) صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٦٥).

(١٠) سعيد عبد الله عاشور (١٩٥٩)، **أوروبا العصور الوسطى**.- القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. (ج٢/ ص١٥- ١٧).

(١١) أحمد الشنتناوي (١٩٦٩)، **تطور العلاقات الجنسية**.- القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. (ص١٣٩).

(١٢) محمود سعيد عمران (١٩٩٨)، **حضارة أوروبا في العصور الوسطى**.- الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية. (ص٢٨٦- ٢٨٧).

(١٣) إمام الشافعي محمد حمودي، أشرف صالح محمد سيد (٢٠١٨)، **الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية (١٠٩٥ – ١٢٩١م) صورة الآخر الفرنجي**.- القاهرة: دار البشير. (ص١٩).

(١٤) راجع: اسمت غنيم (١٩٨٣)، **المرأة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى**.- القاهرة: دار المعارف. (ص١٥- ١٦).

(١٥) Friedrich Heer (1962, PP. 264 – 265).

(١٦) الفلاح أو القن في العصور الوسطى كان يتبع الأرض أينما ذهبت، فإذا بيعت مساحة من الأرض من أمير إلى قرينه، بيعت بِمَنْ عليها من الفلاحين، ومن هنا جاءت تسميتهم برقيق الأرض. انظر: أشرف صالح محمد، عمرو عبد العزيز منير (٢٠١٨)، **التاريخ الأوربي في العصر الوسيط: قراءة جديدة**.- الإسكندرية: دار التعليم الجامعي.

(١٧) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٨٩).

(١٨) زينب عبد المجيد عبد القوي (٢٠٠٩)، **الإنجليز والحروب الصليبية**.- القاهرة: دار عين للدراسات. (ص٢٤).

(١٩) موريس كين (٢٠٠٧)، **حضارة أوروبا العصور الوسطى**/ ترجمة: قاسم عبده قاسم.- القاهرة: دار عين للدراسات. (ص١٢٨). اكتسب الألبجنسيون لقبهم من تكاثر عددهم في المنطقة المحيطة ببلدة (ألبي) في جنوب فرنسا، وكان هؤلاء يستخدمون العهد الجديد (الإنجيل) كأساس لأفكارهم، إلا أن تلك الأفكار كانت منحرفة. إيرل كيرنز (١٩٩٢)، **المسيحية عبر العصور**/ ترجمة: عاطف سامي برنابا.- القاهرة: دار نوبار. (ص٢٦٠). وللمزيد عن المذهب الكاثاري، راجع: Weber, N. (1907). Albigenses. In The Catholic Encyclopedia. New York: Robert Appleton Company. Retrieved September 15, 2017 from New Advent: http://www.newadvent.org/cathen/01267e.htm. Costen, Michael D. (1997). The Cathars and the Albigensian Crusade. Manchester and New York: Manchester University Press. (pp.59 – 78). Nicholson, Helen J. (2004). The Crusades. Westport, Connecticut: Greenwood Press. (Pp.56-57, 164-166). Cross-, Frank Leslie; Livingstone, Elizabeth A. (2005). Oxford Dictionary of the Catholic Church. Oxford, UK: Oxford University Press. (p.303). Lock, Peter (2006). The Routledge Companion to the Crusades. New York, NY: Routledge. (pp.162-164). Barber, Malcolm (2014). The Cathars: Christian Dualists in the middle Ages. New York, NY: Routledge. (p.78).

(٢٠) جوناثان ريلي سميث (٢٠٠٩)، **تاريخ الحروب الصليبية**/ ترجمة: قاسم عبده قاسم.- القاهرة: المركز القومي للترجمة. (ج١/ ص٥٧).

(21) Mary Douglas (1966). Purity and Danger: An Analysis of Concepts of Pollution and Taboo. New York: Frederick A. Praeger. (p.3, 130, 132). Pierre J. Payer (1980). “Early medieval regulations concerning marital sexual relations”. In: Journal of Medieval History vol. 6. (353-376). vol. 6, Pp.370-371). Jean-Louis Flandrin (1982). La vie sexuelle des gens mariés dans l'ancienne société: de la doctrine de l'Église. à la réalité des comportements.in Communications: Sexualités occidentales, 35. Paris: Seuil, (Pp. 102–15).

(٢٢) حسن عبد الوهاب حسين (١٩٩٧)، **مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية**.- الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية. (ص١٧١).

James A. Brundage (1985). “Prostitution, Miscegenation and Sexual Purity in the First Crusade” in Peter Edbury ed. Crusade and Settlement University College Cardiff Press; Cardiff. (p.57).

(٢٣) أحمد الشنتناوي (١٩٦٩، ص١٤١).

(٢٤) إمام الشافعي محمد، أشرف صالح محمد (٢٠١٨، ص٢٣).

(٢٥) أحمد الشنتناوي (١٩٦٩، ص١٤٢).

(٢٦) إمام الشافعي محمد، أشرف صالح محمد (٢٠١٨، ص٦٨).

(٢٧) يوشع براور (١٩٨١)، **عالم الصليبيين**/ ترجمة: قاسم عبده قاسم.- القاهرة: دار المعارف. (ص٤٢).

(٢٨) سعيد أحمد برجاوي (١٩٨٤)، **الحروب الصليبية في المشرق**.- بيروت: دار الآفاق الجديدة. (ص٩١).

(٢٩) محمد فوزي رحيل (٢٠٠٩)، **نهاية الصليبيين**.- القاهرة: دار عين للدراسات. (ص٢١٨).

(30) *See*: Paul Rousset (1945). Les origines et les caractères de la première croisade, Neuchâtel: Éd. de la Baconnière. (Pp.134 - 137). James A. Brundage (1969). Medieval canon law and the crusader, University of Wisconsin Press, Madison. (Pp.10 - 18).

(٣١) حسين عطية (٢٠٠١)، "**مجلس نابلس وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية**".- حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، مج١، ج١، القاهرة. (ص٤٦). أحمد عبد الله أحمد (٢٠١٦)، **الجرائم والعقوبات في المجتمع الصليبي في بلاد الشام**.- القاهرة: دار الآفاق العربية. (ص١٠٧).

(٣٢) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص٢٨٦). محمد حمزة حسين، لبنى رياض عبد المجيد (٢٠١٥) **تاريخ أوربا في العصور الوسطى**.- عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع. (ص٣٧٤).

(٣٣) هي رفات القديسين، وملابسهم، وأدواتهم الشخصية، وما إلى ذلك. قاسم عبده قاسم (١٩٩٠)، **ماهية الحروب الصليبية**.- الكويت: المجلس الوطني للثقافة، سلسلة عالم المعرفة. (ص١٨).

(٣٤) قاسم عبده قاسم (١٩٩٩)، **الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية**.- القاهرة: دار عين للدراسات. (ص٨٥).

(٣٥) أبو شامة (١٩٩٧): عبد الرحمن بن إسماعيل (ت. ٦٦٥هـ)، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**/ تحقيق: إبراهيم الزيبق.- بيروت: مؤسسة الرسالة. (ج٤/ ص١٠٥).

(٣٦) دندل جبر (١٩٨٧)، **الزنا**.- الزرقاء: مكتبة المنار. (ص٧٢). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١١١).

(٣٧) ألبرت فون آخن (٢٠٠٧)، **تاريخ الحملة الصليبية الأولى**/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية.- دمشق: دار الفكر. (ص١٢٧).

(٣٨) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٧).

(٣٩) وليم الصوري (١٩٩٤)، **الحروب الصليبية**/ ترجمة: حسن حبشي.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (ج٢/ ص٢٩٤).

(٤٠) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٧).

(٤١) بورشارد من دير جبل صهيون (١٩٩٥)، **وصف الأرض المقدسة**/ ترجمة: سعيد البيشاوي.- عمان: دار الشروق. (ص١٧٨).

(٤٢) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٠٩).

(٤٣) إمام الشافعي محمد، أشرف صالح محمد (٢٠١٨، ص٩٩).

(٤٤) يوشع براور (٢٠٠١)، **الاستيطان الصليبي في فلسطين**/ ترجمة: عبد الحافظ البنا. الجيزة: دار عين للدراسات. (ص٢٢٨).

(٤٥) جوناثان ريلي سميث (١٩٩٩)، **الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية**/ ترجمة: محمد فتحي الشاعر.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (ص١٥٢).

(٤٦) ألبرت فون آخن (٢٠٠٧، ص٦٢). جوناثان سميث (١٩٩٩، ص١٥٢).

(٤٧) حسن حبشي (١٩٥٨)، **الحرب الصليبية الأولى**.- القاهرة: دار الفكر العربي. (ص١٤٠).

(48) Kenneth. M. Setton (1969). A history of the crusades. London: The University of Wisconsin press. (vol.1, P.321).

(٤٩) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص١٤٥).
(٥٠) سعيد عبد الله عاشور (١٩٨٢)، **الحركة الصليبية**.- القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. (ج١/ ص٢٧٣ – ٢٧٤).
(٥١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص١٤٥).
(٥٢) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص٢٤١).
(٥٣) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص٢٩٤).
(٥٤) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص٣١٦).
(٥٥) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص٣٤٤).
(٥٦) ستيفن هوارث (٢٠١٣)، **فرسان الهيكل**/ ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم.- القاهرة: المركز القومي للترجمة. (ص١٥٩).
(٥٧) مجهول (٢٠٠٢)، **ذيل وليم الصوري**/ ترجمة: حسن حبشي.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (ص٨١).
(٥٨) مجهول (٢٠٠٢، ص٨٢- ٨٣).
(٥٩) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢٢٢).
(٦٠) بيير دوبوا (١٩٩٩)، **استرداد الأرض المقدسة**/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية.- دمشق: دار الفكر. (ج٣٦/ ص١١٨).
(٦١) ويندوفر (٢٠٠٠): روجر أوف ويندوفر (ت. ١٢٣٧م)، **ورود التاريخ**/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية.- دمشق: دار الفكر. (ج٣٩/ القسم الأول/ ص١٠٧).
(٦٢) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ القسم الأول/ ص٦٢١).
(٦٣) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج٣٩/ القسم الأول/ ص١٣٥).
(64) *See*: Frederick Charles (1879). The military religious orders of the middle Ages: the Hospitallers, the Templars, the Teutonic knights, and others. London: Society for Promoting Christian Knowledge. (P.23). Edgar Erskine Hume (1940). Medical Work of the Knights Hospitallers of St. John of Jerusalem.- Baltimore: The Johns Hopkins University Press. (p.3).
(٦٥) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٩٦).
(٦٦) نبيلة إبراهيم مقامي (١٩٩٤)، **فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر**.- القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة. (ص١٩٨).
(٦٧) ستيفن هوارث (٢٠١٣، ص١٤٤).
(٦٨) يوشع براور (١٩٨١، ص١٥٣).
(٦٩) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢٢١).
(٧٠) يوشع براور (١٩٨١، ص١٥٣).
(٧١) هنري الرابع (Henry IV): ولد الإمبراطور هنري الرابع في ١١ نوفمبر سنة (١٠٥٠م/ ٤٤٢هـ)، وتولى عرش ألمانيا سنة (١٠٥٤م/٤٤٦هـ)، وتوفي في أغسطس سنة (١١٠٦م/ ٥٠٠هـ).
See: Encyclopedia Britannica (1991, Henry IV).
(٧٢) قاسم عبده قاسم (١٩٩٠، ص٨١).
(٧٣) قاسم عبده قاسم (١٩٩٠، ص٧٨).
(٧٤) إيرل كيرنز (١٩٩٢)، **المسيحية عبر العصور**/ ترجمة: عاطف سامي برنابا.- القاهرة: دار نوبار. (ص٢٨٣).
(٧٥) إمام الشافعي محمد، أشرف صالح محمد (٢٠١٨، ص١٤٨).
(٧٦) صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٤٣٦- ٤٣٨).
(٧٧) سعيد عاشور (١٩٥٩، ج٢/ ص١١).
(٧٨) سعيد عاشور (١٩٥٩، ج٢/ ص١٨).
(٧٩) موريس كين (٢٠٠٧، ص١٣٢).
(٨٠) يعقوب الفيتري (١٩٩٨)، **تاريخ بيت المقدس**/ ترجمة: سعيد البيشاوي.- عمان: دار الشروق. (ص٨٧).
(٨١) أ . ج . كينغ (١٩٩٨)، **الإسبتارية في الأرض المقدسة**/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية.- دمشق: دار الفكر. (ج٣٣/ ص٢٨٥ – ٢٨٦).
(٨٢) ريموند دوبري (١٩٩٨)، **قانون ريموند دوبري**/ ت. سهيل ذكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق. (ج٣٣/ ص٢٨٣ – ٢٨٤).
(٨٣) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٩٥).
(٨٤) ريموند دوبري (١٩٩٨، ج٣٣/ ص٢٨٩).
(٨٥) جان دي جوانفيل (١٩٦٨)، **القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام**/ ترجمة: حسن حبشي.- القاهرة: دار المعارف. (ص٢٢٤). جوناثان ريلي سميث (١٩٩٩، ص١٦٤). محمود محمد الحويري (١٩٧٩)، **الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد**.- القاهرة: دار المعارف. (ص٧٨). حسن عبد الوهاب (٢٠٠٠)، **دراسات في تاريخ الحضارة الأوربية في العصور الوسطى**.- الإسكندرية. (ص١١). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٩٥).
(86) Indrikis Sterns (1982)."Crime and Punishment among the Teutonic Knights", Speculum 57, no.1 (Jan): P.91.
(٨٧) علي السيد علي (١٩٨٠)، **المجتمع المسيحي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية**.- (د. م): دار السويدي للنشر والتوزيع. (ص١٥٦ – ١٥٧).
(٨٨) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص١٩٦).
(٨٩) جوناثان سميث (٢٠٠٩، ج١/ ص٦٢).
(٩٠) إمام الشافعي محمد، أشرف صالح محمد (٢٠١٨، ص١٨٥).
(٩١) قاسم عبده قاسم (٢٠١٠)، **الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية**.- القاهرة: دار عين للدراسات. (ص٨٧).
(٩٢) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص٢١٨).
(٩٣) مجهول (٢٠٠٢، ص٨٨).
(٩٤) باريس (٢٠٠١): متّي باريس (ت. ١٢٧٣م)، **التاريخ الكبير**/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية.- دمشق: دار الفكر. (ج٤٠/ ص٩٤).
(٩٥) ريمونداجيل (١٩٩٠)، **تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس**/ ترجمة: حسين محمد عطية.- الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية. (ص٢٥٨ – ٢٥٩).
(٩٦) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٢/ ص١٤٥).
(٩٧) عبد الغني محمود عبد العاطي (١٩٨٣)، "**صليبية الأطفال**" ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. (ص١٥٩).
(٩٨) إيرل كيرنز (١٩٩٢، ص ٢٥٦). عن صليبية الأطفال، راجع:
Munro, Dana C. (1914). The Children's Crusade is an article from The American Historical Review, Volume (19). (Pp.516 - 524). Wolff, R. L.; Hazard, H. W. (ed.) (1969). The later Crusades, (1189-1311).- University of Wisconsin Press. (Pp.325 - 342).
(٩٩) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص٢٨).
(١٠٠) وليم الصوري (١٩٩٤، ج٤/ ص٢٦٣ – ٢٦٤).
(١٠١) القربان (Blessed Sacrament): هو الخبز والخمر اللذان تمَّ تقديسهما وحُفظا ليُمنحا للمرضى والمحتضرين، ويراد به تعزيز إيمان جميع المؤمنين ومحبتهم في المسيح. صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص٣٧٧).
(١٠٢) ميخائيل السوري الكبير (١٩٩٥)، **روايات المؤرخ ميخائيل السوري الكبير**/ ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية.- دمشق: دار الفكر. (ج٥/ ص٢٨٥).

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

Silenced historical sources and the Qur'anic narrative on the history of Palestine and Jerusalem



Dr. Badi' Al-'Abed
Professor of Architecture
Former Dean – Faculty of Engineering
Consultant Architect, Amman, Jordan

ABSTRACT

This paper introduces the historical sources: ancient Egyptian, Assyrian, Babylonian, Persian, Greek, and Roman that deal with the history of Palestine and Jerusalem. These sources have been overlooked and silenced, since they contest, refute and invalidate the occurrence of the events of the Jewish narrative and expose the fallacy and fabrication inherent in it. This paper also demonstrates the technicality of putting these silenced sources into use. In order to achieve this objective, it reviews the narrative of the written Jewish sources and the silenced historical ones and demonstrates how the latter contradict the former and invalidate them, and how the silenced historical ones are totally devoid of any of the false claims related to the historical events as mentioned in the written Jewish narrative.This paper juxtaposes both the written Jewish and the Qur'anic narratives. The latter, for the most part, registers ultra-historic religious miracles, and not real human historical events. The paper exposes the exaggerations and fabrications in the written Jewish narrative that transforms the 'religious miracle' into a 'lived human historical event', in an effort to incorporate the Jews into the history of Palestine and the Arab region.

Keywords:
ancient historical narratives on Palestine and Jerusalem; Islamic narrative on the Exodus; Tanakhian distortion on the holy land

DOI: 10.12816/0052955

Article info:
Received: 11 May 2018
Accepted: 27 May 2018

Citation:
Badi' Al-'Abed, "Silenced historical sources and the Qur'anic narrative on the history of Palestine and Jerusalem". - Historical kan Periodical. - Vol. (11) Issue (40); June 2018. Pp. 203 – 221.

Introduction

Except for some rare exceptions for researchers who dare to contradict the Tanakhian (Old Testament) narrative (Torah narrative and the written Jewish sources); it is the one imposed on researchers dealing with the history of Palestine and Jerusalem. As for other historical sources that include ancient Egyptian, Assyrian, Babylonian, Persian, Greek, Roman and Qur'anic narratives, they are either relegated to silence or forgotten. They are deliberately silenced by Jewish and Western researchers because such sources contradict, and even negate, the narrative of written Jewish sources and the Jewish presence in history. This in turn, may lead to the negation of the written Jewish narrative altogether. As for Arab researchers, both old and contemporary, the majority adopt the narrative of the written Jewish sources. This is manifested in their reliance on Jewish and Western sources when writing about the history of Palestine and Jerusalem. The reasons as to why Arab researchers refrain from making use of the historical sources that contradict the written Jewish narrative may be because they either do not know of their existence, or their inability to make use of them, or both.

Strangely enough, most Muslim historians and interpreters (*mufasireen*) of the Qur'an, have adopted the Jewish narrative to explain the verses (*ayat*) that speak about Jews.[1] Some have even claimed that al-Aqsa mosque was built by the prophets David and Solomon. Ibn Katheer, the Damascene, (d.775 H.) took notice of this fact, when he cited a hadith narrated by Al-Bukhari in his Sahih, which says, (Ibn Katheer 1985: 6-7):

> *"Relate my sayings, even if one verse, and speak about the children of Israel and there's nothing wrong with that. Narrate my sayings but do not lie. He, who deliberately lies about my sayings, let him take his seat in Hell.*
>
> Ibn Kateer described this hadith as:*"belonging to the Israelites that are silenced in our heritage. We have nothing to support them and nothing to confute them. Therefore, they might be narrated just as a warning. And this is what we do in this book* [*Al-Bidaya wa Nihaya - the Beginning and the End*]. *Whichever of them proved false by our religion, is rejected and should not be narrated except by way of denial and revocation. Since God, Glory be to Him, has made us dispense with all other religions by our prophet Muhammad (peace be upon him), and dispense with all holy books by our Qur'an; we should not, then, rush to their texts, with all their contents of random talk and confusion, lies and fabrication, distortion and alternation, and added to all that, repealing and changing."*

The above clearly demonstrates that Ibn Katheer knew well that the narrative of the written Jewish sources was not authentic. Therefore, he resorted to the Qur'anic narrative to evaluate it. Had Ibn Katheer had access to the contemporary historical and archaeological data that negate the written Jewish narrative, he would not have hesitated to negate it altogether. Hence, he recommended that its use be restricted to a warning. In my opinion, the Qur'anic material that conforms with the narrative of the written Jewish sources, limited as it was, in the most part, served to introduce miracles that functioned as examples and warnings, a motivation for contemplation and meditation, preaching and reproaching, and was not to be understood as lived historical events. Since miracles are divine and metaphysical acts, they are, therefore, ultra-historic. They are unlived, immediate and instantaneous events, even if they did occur at a specific moment in time. While, in contrast, historical events are lived human experiences.

Narrative of the written Jewish sources

The narrative of the written Jewish sources, related to the history of Palestine and Jerusalem, on the one hand, is founded on silencing Palestinian history altogether and on denying the Palestinian human presence. On the other, its focus is on inserting the Jews into the history of the Arab region by transforming the religious miracle into a lived human historical event. Thus, the said narrative became an undisputable lived reality in the Jewish and Western Christian collective conscience, and regrettably to a great extent, in the Arab-Islamic collective conscience. This is in spite of the fact that the written Jewish narrative acknowledges the Canaanite presence in Palestine[2], and that the ancient Egyptian, Assyrian, Babylonian, Greek and Persian historical sources do not contain any allusion to the Jewish narrative.

In the 1970s, the aforementioned facts encouraged the appearance of some exceptional cases that contradicted the written Jewish narrative, although they could not refute it completely. Nevertheless, the said narrative was undermined. But regrettably, Arabs did not make proper use of the aforesaid cases, and therefore, the presence of the narrative of written Jewish sources remained prominent in the Arab historical and religious sources, in spite of the irrational exaggerations in the narrative, and of its putting the religious miracle to use as a human historical event.

Among the exceptional cases, mention should be made of some contemporary Jewish and Western historical trends that contradicted the written Jewish sources and demonstrated their falsity and their prejudice against Palestinian history, in an effort to obliterate this history and to obscure its human presence. All this is to support the false claims of the Jews' right to Palestine. In his *The Invention of the Jewish People* (2010), the contemporary Jewish historian, Shlomo Sand, professor at Tel Aviv University, at the town of Sheikh Mu'anis, occupied Palestine, denies the false claims in the written Jewish narrative of the diaspora

and the exile of the Jewish "people" by the Romans.

We can also cite Western historians, such as the American Thomas Thompson, author of *The Mythic Past, The* Bible *in History* (2000), who also raised doubts about the written Jewish narrative and concluded that it is a mere fable and not suitable for constructing historical events.

Furthermore, the British historian Keith Whitelam , in his book, *Invention of Ancient Israel: The Silencing of Palestinian History* (2000) raises doubts about the Biblical narrative altogether. In his displaying the history of the Israelites, he considers it a device for suppressing the Palestinian history for the benefit of the Jews. Whitelam condemns scholars who exploit the written Jewish narrative for suppressing Palestinian history to uphold Zionist claims.

Arabs and Muslims researchers should honor such tendencies and make proper use of them. They should also refute, and even negate, the written Jewish narrative altogether. In addition to the aforementioned tendencies, use should be made of the Qur'anic narrative that demonstrates that the religious miracle is but an instantaneous, immediate and ultra-historic act of God, and not a lived human historical event, as claimed by the exaggerations and detail of the written Jewish narrative. The latter is demonstrated below.

Silenced historical sources

Ancient Egyptian sources

These sources have been completely silenced. In the ancient Egyptian sources (the papyri) there is no mention of the story of the exodus. In the Qur'an, the story of the exodus - clear as it is – does not specify that its location was in Egypt (Misr) as we know it today, as stated in the Jewish narrative. The following verse (*aya*):

> *"And (remember) when you said, O Musa (Moses)! We cannot endure one kind of food. So invoke your Lord for us to bring forth for us of what the earth grows, its herbs, its cucumbers, its Fum [wheat or garlic], its lentils and its onions. He said, Would you exchange that which is better for that which is lower? Go you down to* [Misran] *any town and you shall find what you want! ..."*[3]

Describes a situation that existed <u>after</u> and not before the exodus. According to linguists and experts of the Qur'anic text, the inflection (*at-tanween – "ً" - "an"*) in the word (Misran-مصراً), does not imply a specification, but rather a generalization. The word 'Misr' in Arabic means a city, and not the Egypt of today. (Ar-Razi 1985, vol.3: 105-110) The content of the verse does not support the narrative of the written Jewish sources, neither in time, since it refers to a situation existing after the Jewish exodus, nor in place, since according to the rules of Arabic grammar the inflection (*at-tanween*) in the word 'Misran' negates a specified place.

As for the description and recording of the actual life of the Jews prior to the exodus, the location of their residence is not specified anywhere in the Qur'anic chapters of "Al-Baqarah", "Al-A`r'af", "Al-Ma'idha", "Yunus", "Ta-Ha", "Ash-Shu`ara' " and "Al-Qasas", as well as in other chapters. Most probably, they may have been living in Egypt. They may also have been living in another place, as stated in the above-mentioned verse. The destination of their exodus is not named or specified in the Qur'an either; that is, there is no explicit mention of Palestine. The Qur'an says:

> *"O my people! Enter the holy land which Allah assigned to you and turn not back [in flight]; for then you will be returned as losers."*[4]

This contradicts what is stated in the *Book of Exodus* (Torah) – the first five books in the Tanakh (Old Testament) and one of the written Jewish sources - which says positively that the Jews were in Egypt; they then headed for the land of the Canaanites i.e. Palestine.[5]

But we do not find a confirmation of this fact in the ancient Egyptian sources (*papyri*). According to Immanuel Velikovsky, (1995:23-64) in his book, *Ages in Chaos*, the papyri have, so far, not been found to contain any allusion to the Jewish exodus from Egypt. This fact, however, does not contradict the description of the Jews actual life in accordance with the Qur'anic verses, as the Qur'anic method of recording the historical events does not specify the time and the geographical locus of the events. This provides an opportunity for all kinds of opinions. The aim of mentioning and recording the historical events in the Qur'an is to give examples and warnings, and to provide

a motive for contemplation and meditation on the fate of bygone peoples and civilizations, in an effort to preach and warn against disobedience of God or against polytheism.

This might be considered a kind of consolidation of the historical philosophy in Islam that rests on: *at-tawasul at-tharikhiy* (**historical continuity**), *at-tafaker wa-at-t'amol* (**thinking and speculation**), *ad-duroose waal-`iber* (**lessons and eruditions**), and *at-tanaw` dakhil al-wihda* (**variety within unity**). This is in contrast to the Torah and the written Jewish sources fallacy that specifies the date and the geographical locus of the historical events, thus facilitating the process of refuting and negating the relevant event. Therefore, the Qur'anic style of narrating and recording the event of the exodus, and the absence of the said event from the Egyptian papyri, refute the Jewish narrative of the exodus and negate the details of the event related in the book of *Exodus* in the Torah.

This, in turn, leads to two probabilities. The first is that Jews were not, in fact, in Egypt, and hence, the exodus did not start there. Thus, we can explain the absence of the event in the old Egyptian sources, irrespective of the exaggerations of the written Jewish narrative. And the Qur'anic narrative of the exodus can, thereby, be confirmed as well, which assures that the said event did indeed take place and started from some place where an insignificant number of Jews had existed. In this regard, the Qur'an states:

> *"And We revealed to Musa (Moses), saying: "Depart by night with my slaves verily, you will be pursed." The Fir`aun (pharaoh) sent callers to [all] cities. [Saying]: "Verily, these indeed are but a small band."* [6]

The second probability is that the Jews did exist in Egypt, somewhere on the peripheries. But due to the insignificance of their number, their exodus was not an important historical event; hence, the absence of the event in the ancient Egyptian sources. The Qur'anic narrative, however, made use of it in the frame of the miracle of Moses for providing examples and for preaching, reproaching and as a motive to draw conclusions. Since miracles are by definition metaphysical events, they do not leave any trace to indicate their occurrence.

It would be appropriate to add at this point that even if it is more likely that the Jews did exist in Egypt or on its periphery, the fact that their exodus is not referred to the ancient Egyptian sources indicates that this was an insignificant event in the ancient history of Egypt. This is likely to be for the reason that this occurrence did not happen in the amplified way it is described in the Torah, either in manner or in number. The Torah, in the *Book of Exodus* mentions that the number of men who accompanied Moses was 600,000[7]. Hence, and according to the estimations in the interpretations of the Bible (Arabic Life Application Bible - LAB) (٢٠٠٢), the total number of Israelites, men, women and children who accompanied Moses in the exodus, is 2 million. This contradicts logic and confirms the Qur'anic narrative that they were but a few persons. In his '*Introduction*' Ibn Khaldun (No history of Publication: 10-11) asserts and proves their number as small.

What is implied here is that the small number of Jews may be the reason why the story or the event of the exodus is overlooked in the old Egyptian sources. This in turn refutes the exaggerations of the written Jewish narrative but does not contradict the Qur'anic one, because the latter is concerned with giving examples, with warnings, as providing a motive for contemplation and meditation and for preaching and reproaching. All this is realized through narrating the punishment that had befallen the Jews and the ancient Egyptians because they were polytheists and had disobeyed God. The Qur'anic narrative is not concerned with chronicling the event of the eexodus perse.

Generally, the only available ancient Egyptian source relating to the history of Jerusalem is one of the Tell el-Amarna letters that go back to 15th century BCE. The letter is a grievance submitted by Abdi-Hepat, King of Orsalem (Jerusalem), to the Pharaoh, wherein he complains about the Bedouin raids on the city. But this does not confirm the narrative of the written Jewish sources; neither does the Egyptian invasion of Palestine confirm it. Therefore, exploiting this absolute absence of the Jews from the old Egyptian sources by Arab and Muslim scholars engaged in studying the history of Palestine and Jerusalem – places that are geographically adjacent to Egypt and historically attached to it with regards to history and security - might help to refute, and

even invalidate, the exaggerations of the Jewish narrative concerning the exodus altogether.

As for Velikovsky's attempt (1995: 23-125) to insert the Jews into the history of ancient Egypt by using the contents of the Epoire papyrus (later known as the Leiden papyrus) and the Hermitage papyrus to make predictions about future events and catastrophes, even he himself admits that the contents of the papyrus are mere prophecies. They do not describe a historical event that took place in the past, or an event that took place during the time of the predicator or the writer of the papyrus. In other words, they are not a record of a lived event. He also admits that there is no document or inscription dating back to the history of ancient Egypt that directly points to the episode of the exodus.

The same might be said about Velikovsky's (1995:129-172) attempt to compress the history of ancient Egypt into 600 years, so as to synchronize the journey of the Egyptian queen Hatshepsut (1508-1458 BCE) to Punt (Ethiopia or Somalia) with the Queen of Sheba's (Balqis) visit to the Prophet Solomon (957-917 BCE). He was at pains to substantiate that Punt is Palestine and that Hatshepsut is the queen who visited the Prophet Solomon. In his effort, Velikovsky sometimes adopted a methodology of proximity (nearness) and comparison; at other times he resorted to twisting and altering the facts, or to guesswork and probability. It was far less convincing and ineffectual than his previous above mentioned attempt. All the gifts brought by Hatshepsut in her journey, back to Egypt from Punt which included ivory, ebony, incense, myrrh, sandal wood and animals (lions, elephants) do not exist in Palestine.

The design of the Deir el-Bahri temple of (Hatshepsut), which Velikovsky claimed had been inspired by the design of the alleged Temple of Solomon, is completely different with regard to the structure and the building materials used for the alleged Temple of Solomon. Added to that, the Deir el-Bahri Temple is 600 years older than the alleged Temple of Solomon. The latter is not a Jewish structure, but a Phoenician one constructed by the engineer Hiram al-Suri (of Tyre), as claimed by the written Jewish narrative. As for Deir el-Bahri, it is a genuine Egyptian structure that embodies all techniques, elements, ornaments, features and characteristics of ancient Egyptian architecture.

From the viewpoint of archaeology, the episode of Balqis and Prophet Sulaiman (Solomon), as related in the written Jewish narrative, is but a myth. There is not a single piece of physical evidence to substantiate the authenticity of the written Jewish narrative.

The Qur'anic narrative concerning the meeting of the Prophet Sulaiman (Solomon) with the woman who ruled Saba' (Sheba), with all the concurrent details and considerations, runs as follows:

> *"He inspected the birds, and said: What is the matter that I see not the hoopoe? Or he is among the absntees? I will surely punish him with a severe torment, or slaughter him, unless he brings me a clear reason. But the hoopoe? Stayed not long: he (came up and) said: I have grasped (the knowledge of a thing) which you have not grasped and I have come to you from Saba' with the true news."*[8]

> *"... A `Ifrit (strong one) from jinn said: I will bring it to you before you rise from your place (council). And verily, I am indeed strong, and trustworty for such work. One with whome was knowledge of the Scripture I will bring it to you within the twinkling of an eye! Then when Sulaiman (Solomon) saw it placed before him he said: This is by the Grace of my Lord – to test me wheter I am greatful or ungreatful! And whoever is grateful, truly, his gratitude is for (the good of) his ownself; and whoever is ungrateful (he is ungrateful only for the loss of his ownself). Certainly, my Lord is Rich [Free of all needs], Bountiful."*[9]

The woman mentioned in the above-cited Qur'anic verses was called Balquis by Muslim historians and interpreters of the Qur'an. As the act was effectuated by the Jinn, whom God had subjugated to assist Prophet Solomon, and not by human beings, it might be classified as a miracle that aims to give examples and to warn, to preach and to reproach, (Ar-Razi 1985, vol.24:188-201). Miracles record a phenomenon or an instantaneous, immediate and transient event, even if they took place in a certain moment of time. That means miracles do not leave indicative signs, because they are

not historical man-made events, but an ultra-historical event effectuated by God. In most cases, a miracle records an unfamiliar event, an incomprehensible one, because it infringes the laws of nature. Such an event aims at demonstrating the Creator's ability to daze and to impress the contemporaries who witness the miraculous act; thereby preaching and reproach reach their full impact and the miracle brings about its desired objective, as in the following verses:

> *"Thamud and `Ad people denied the Qari`ah (the striking Hour of Judgement)! As for Thamud, they were destroyed by the awful cry! And as for `Ad, they were destroyed by a furious violent wind! Which Allah imposed on them for seven nights and eight days in succession, so that you could see men lying overthrown (destroyed) as if they were hollow trunks of date-palms! Do you see any remnants of them! And Fir`aun [pharaoh] and those before him, and the cities overthrown [the towns of the people of (Lot)] committed sin. And they disobeyed their Lord's Messenger, so He seized them with a strong punishment."*[10]

Hence, the 'miracle' should not be recorded, or understood as an ordinary historical event, because it is instantaneous and immediate, even if it takes place at a certain moment in time. This might explain why ancient historical Egyptian and Yemeni sources did not record such events as lived historical realities. It could also explain why the aforesaid events are not recorded and documented archeologically. There is no archaeological evidence of their occurrence because they infringe the laws of nature, and are, therefore, beyond human history.

The Qur'anic narrative records an instantaneous, immediate and transient event, in the form of a miracle that infringes the laws of nature, in an effort to realize its religious objectives of preaching, reproaching, giving lessons and examples and prompting contemplation and meditation. It does not record a historical man-made event that involves actual facts. No doubt this contradicts the written Jewish narrative that transformed into lived historical events the meeting between Prophet Solomon with the woman who ruled Saba' (Sheba); as well as other transient events in Judaism and in the Jews' relations with God. This also contradicts the reason behind the occurrence of those events. All this constitutes an effort made by Jews to insert themselves into history, as equals to ancient Egyptians, Assyrians, Babylonians, Canaanites, and other peoples. The histories of these people do not mention Jews since they represented, for the latter-mentioned peoples, a community that lived on the edge of their history. They - the Jews - therefore tried to insert themselves into history by transforming the transient events in their religious life into lived historical events. But while doing so, they forgot, or they pretended to forget, that geography (place) is the most important element in historical events, and that geography is the very element that they lacked in the past and still lack in the present. The 'no-place' complex is inseparable from the incidents of their life. Their Torah was revealed in the wilderness, that is, in no-place. Their endless wandering and diaspora reinforced their 'no-place complex'. Geography is their primary enemy; it has ousted them from history in the past, and is still doing so in the present.

As for the existence of some Jews in Palestine, it is a transitory existence, regardless of how long it may last, because it is nothing more than extortion and occupation. Extortion never provides a geographical welcoming environment for the extorting party. Because the resulting events, no matter how important, are listed as criminal deeds that do not make history; they are only recorded in the margin of history. Therefore, Jews were, are still and will always occupy a marginal place in history, since they lack the principal element for making history, i.e. geography.

As I have already demonstrated, all the past attempts by Jews aimed at transforming the religious event into a historical one in order to provide themselves with the element of geography, which they presently lack, and which would enable them to make an entrance into history and to participate in making historical events, are simply desperate and futile.

Assyrian, Babylonian (Mesopotamian ccivilizations) sources

The written Jewish narrative is the only source that spoke about the two incidents of enslavement, (the minor and major) and about

the destruction of the alleged temple. The first enslavement, according to the written Jewish narrative, was done by the Assyrian emperor,[11] Sargon II, in 721 BCE; the second was done by the Babylonian emperor, Nebuchadnezzar, in 586 BCE.[12]

These two incidents are not mentioned in the Assyrian and Babylonian sources. Assyrian and Babylonian archaeology never contributed convincingly in recording the presence of the written Jewish narrative in the aforesaid sources. The books dealing with ancient Levantine history, founded on archaeology, also never recorded a convincing presence of the Jewish narrative. This fact negates the occurrence of the two aforesaid incidents.

Strangely enough, the Western historical sources remain silent about the absence of the Jewish narrative from the Assyrian and Babylonian sources. This silence has bestowed a kind of historical credibility upon the said narrative. And this, in turn, has prompted the Arab scholars engaged in the ancient history of the Levant - Palestine and Jerusalem in particular - to adopt the Jewish narrative, instead of refuting it as based on the fact that it is absent from Assyrian and Babylonian sources. The reason for this is that by refuting the occurrence of the two enslavement incidences - the major enslavement attributed to Nebuchadnezzar in particular - leads in turn to invalidating the claims related to the existence of the alleged temple and of its destruction by Nebuchadnezzar. Our intention here is not negation *per se*, notwithstanding its scientific credibility and historical importance, but that negation should be put to use to refute the Jews' claims about their alleged temple.

Negation does not contradict the Qur'anic narrative related in the chapter *surah al-Isra'* ("The Night Journey"), where God's punishment of Jews is said to have taken place during two main periods and other subsequent periods, dependent on their behaviour. This is stated in the following verses from *surah al-Isra'*:

> *Glorified [and Exalted] is He (Allah) [above all that evil they associate with Him] Who took His slave (Muhammad) for a journey by night from Al-Masjid-al-Haram (at Makkah) to Al-Masjid-al-Aqsa (in Jerusalem), the neighbourhood whereof We have blessed, in order that We might show him (Muhammad) of Our Ayat (proofs, evidences, lessons, signs, etc.). Verily, He is the All-Hearer, the All-Seer. And We gave Musa (Moses) the Scripture and made it a guidence for the Children of Israel (saying): Take none other than Me as (your) Wakil (protector, Lord or Disposer of your affairs). O offspring of those whome We carried (in the ship) with Nuh (Noah)! Verily, he was a grateful slave. And We decreed for the Children of Israel in the Scripture: indeed you would do mischief in the land twice and you will become tyrants and extremely arrogant! So, when the promise came for the first of the two, We sent against you slaves of Ours given to terrible warfare. They entered the very innermost parts of your homes. And it was a promise (completely) fulfilled. Then We gave you a return of victory over them. And We helped you with wealth and children and made you more numerous in man-power. (And we said): If you do good, you do good for yourselves, and if you do evil (you do it) against yourselves. Then, when the second promise came to pass, (We permitted your enemies) to disgrace your faces and to enter the mosque (of Jerusalem) as they had entered it before, and to destroy with utter destruction all that fell in their hands. [And We said in the Taurat-(Torah)]: It may be that your Lord may show mercy to you, but if you return (to sins), We shall return (to Our Punishment). And We have made Hell a prison for disbelivers."*[13]

Before displaying the said periods, an attempt will be made to highlight the true details relating to the building of al-Aqsa mosque.

Al-Aqsa mosque

Firstly, it should be mentioned that at the time of the Prophet Muhammad, al-Aqsa mosque had not yet been built. It was built during the reign of the Caliph Abdul Malek ibn Marwan (65-85H/685-705 CE) and his son, Caliph al-Waleed (85-96 H/705-715 CE). The content of the Qur'anic verses refers to what would be a mosque later on. That is, the Prophet Muhammad was carried in the night journey to the location of the where the future mosque would be located. This was God's way

of specifying the two sites of worship in Makkah and Jerusalem, due to their religious value as the two successive Qiblas [the direction to which Muslims turn in prayer]. The Construction of al-Ka`bah was passed through three distinct stages:

1- The inhabitation of Makkah by the settling of Ibrahim (Abraham), his wife Hajar and his son Ism`ail in the vicinity of the sacred House, and specifying the religious function of the city, as in the verses:

> *"O our Lord! I have made some of my offspring to dwell in an uncultivable valley by your Sacred House (the Ka`bah at Makkah) in order, O our Lord, that they may perform As-Salat (Iqamat-as-Salah). So fill some hearts among men with love towards them, and (O Allah) provide them with fruits so that they may give thanks."*[14]

God had already specified the site of al-Ka`bah. Therefore, Ibrahim was instructed to accommodate his offspring in the vicinity of the location specified by God for constructing al-Ka`bah and the sacred Mosque. And God demonstrated to Ibrahim the purpose of inhabitation is worship as expressed by prayers.

2- Specifying the location of al-Ka`bah that had been known only to God, as in the verses:

> *"And (remmeber) when We showed Ibrahim (Abraham) the site of the (sacred) House (the Ka`bah at Makkah) (saying): Associate not anything (in worship) with Me, [La ilaha illallah (none has the right to be worshipped but Allah) – Islamic Monotheism], and sanctify My House for those who circumambulate it, and those who bow (submit themselves with humility and obedience to Allah), and make prostration (in prayer)."*[15]

That is, God had specified to Ibrahim the site allocated for constructing the sacred mosque and indicated the conditions for its use; i.e. worship as expressed by believing in God and avoiding polytheism, as well as by keeping it clean and pure.

3- Constructing al-Ka`bah after specifying its location, as in the verse:

> *"And remember when Ibrahim (Abraham) and (his son) Isma`il (Ishmael) were raising the foundations of the House(the Ka`bah at Makkah), (saying), Our Lord! Accept (this service) from us. Verily, You are the All-Hearer, the All-Knower."*[16]

Here the process of locating the site ended in constructing the building, thus settling the question of the holiness of the site and its dedication to worship. The same stages apply to al-Aqsa mosque, that is:

a) The destination of the 'night journey' was the site already chosen and designated by God to be the location of a mosque - al-Aqsa. It is not the mosque claimed to be constructed by prophets David and Solomon in some Islamic sources that had resorted to the allegations of the Jewish narrative. Neither is it the alleged temple promoted by the Tanakh and the written Jewish sources. If the location of al-Aqsa mosque was the same location of the alleged temple, then why would God abstain from referring to this fact? He did that with al-Ka`bah constructed by Ibrahim, where the rites of the tolerant Hanifism (the religion of Ibrahim) had been performed. After that, polytheists started to perform their worshipping rites inside al-Ka`bah and erected their idols in its vicinity, known as the sacred mosque. Ultimately, God dedicated al-Ka`bah for Islam, after the Prophet Muhammad removed the idols from it. All this proves that the site of al-Aqsa mosque was a location specified for constructing a mosque for Muslims which God had designated for al-Aqsa mosque.

b) The Caliph Umar ibn al-Khattab (13-24 H/634-645 CE) came upon the site of al-Aqsa mosque in 15H/636 CE, after liberating Jerusalem, by concluding a peaceful agreement with Patriarch Sophronius, and after cleaning the site he, Umar, dedicating it for praying.

c) The Umayyed Caliph Abdul Malek ibn Marwan (66-86H/685-705CE), constructed the mosque of the Dome of the Rock in 72 H/692 CE, in side al-Masjid al-Aqsa (al-Haram). He then began to construct al-Qibliy mosque (also known as al-Aqsa mosque), because it is located in the Qibla (sought) side of al-Masjid al-Aqsa (al-Haram). His son, Calliph al-Waleed (86-97/86-97CE), completed the construction of al-Qibliy mosque in 96 H/715 CE. [the al-Aqsa mosque refer to al- Qibliy mosque, and to the whole area (144,000 m^2) that contain: the mosque of the Dome of the Rock, al-Qibliy mosque (or al-Aqsa mosque), and more than 40 schools in the western and northern sides of it, the women's mosque and the museum in the south, al-Masjid al-Marwaniy together with the old al-Aqsa mosque in the basement, and all the other buildings inside the area of al-Aqsa mosque, known also as al-Haram al-Qudssiy or al-Haram ash-Sharief].

Remarkably enough, the site of al-Aqsa mosque was completely vacant during the time of the 'night journey'. Also remarkable is the fact that specifying the two sites of worship by God was confined to Islam. There is no such specification of worship buildings either in Judaism or in Christianity. The Tabernacle, mentioned in the *Book of Exodus*, in the Torah, was founded in the wilderness; that is in no-place. It was not located in a specific place but was folded and carried from one place to another during the 40 years of the *at-Teeh* (wanderings of the Jews), and even later. In addition, the site of the alleged temple was never specified. We have only claims about its existence and its location in more than one place. There is no written or physical archaeological evidence of its existence. Jews suffer a 'place' complex. And that is why they claim that the site of al-Aqsa mosque is the site of the alleged temple.

So much for al-Aqsa mosque and its site. As for the absence of any allusion to the two enslavement incidents in the Assyrian, Babylonian sources, the following section will examine and analyze the Qur'anic verses that revealed to the Israelites their future and their fate, as a result of their corruption and disobedience. These verses spoke about the transgressions committed by the Jews, and threatened them if they did not refrain from their corruption. I will analyze the stages of their punishment in the Qur'anic narrative.

Stages of the Jews' punishment in the Qur'anic narrative

The written Jewish narrative specifies dates and geographical sites; it also defines adversaries. In order to magnify a certain event, it resorts to excessive detail and exaggeration. All this facilitates attempts to refute, even invalidate, the narrative, since such a level of detail and bias are solely mentioned in the Jewish narrative and are not supported in the historical sources of the civilizations that were directly concerned with the event described. Just as the exodus episode is neglected in the old Egyptian sources because it was a transient event, the episode of the two enslavement incidents is also absent from the historical Assyrian and Babylonian sources. Such sources are supposed to be concerned with the invasion and destruction of Jerusalem, with the burning down of the alleged temple and with the enslavement of the Jews, as the written Jewish narrative claims. The aforesaid events are historical, and had they been committed by the two civilisations, the Assyrian and Babylonian sources would not have neglected recording and documenting them, regardless of their magnitude. This means that the written Jewish narrative is incorrect because the sources concerned with the events of this narrative have not recorded them; or it might also mean that the events in the Jewish narrative are exaggerated, as in the case of the exodus.

Now we turn to the Qur'anic narrative that seems to conform superficially to the written Jewish narration, as related in the verse, "*And We decreed for the Children of Israel in the Scripture: indeed you would do mischief in the land twice [...]*", and thematically to the silence of the historical Assyrian and Babylonian sources. The latter verse matches the written Jewish narrative that speaks of two events - the minor and major enslavements. As for the theme, the details and exaggeration in the written Jewish narrative, the Qur'anic narrative conforms with the silence of the Assyrian and Babylonian sources, since it does not specify who will fight the Jews, nor does it specify the country, the geographical site, the place where the Jews live or where war takes place. The verse says: "... *They entered the very innermost parts of your homes (lands)...*". The Qur'anic

narrative does not specify the land or mention what befell the Jews after the war, such as the "destruction of the alleged temple, looting its vessels and enslaving the Jews", as the written Jewish narrative claims.[17] Note that the written Jewish narrative settled for making mention of the minor enslavement (Assyrian), while it focused on the major enslavement (Babylonian), aggrandized it and tended to exaggerate its details and its link with Persian history.

Remarkably, many Moslem jurists and interpreters of the Qur'an worked hard to explain the aforesaid verses. Some upheld the written Jewish narrative as related in the Tanakh, such as At-Tabari (1980, vol.15:17-35) in his Tafsir, but with a difference with regard to names. The Tanakh says that the minor enslavement was carried out by Assyrian Sargon II, while At-Tabari says it was Sennacherib (704-681 BCE) also an Assyrian king. Other jurists and interpreters never transcended the Qur'anic narrative but without contradicting the written Jewish narrative, such as ar-Razi in his Tafsir (ar-Razi 1985, vol.20:156-159). He claimed that Nebuchadnezzar carried out the minor enslavement, Goliath carried out the major enslavement, and that Talut (David) represented the phase of *"then we granted you victory over them ..."*. Here we find support for the written Jewish narrative, with some differences in interpretation. Goliath remains outside the written Jewish narrative that attributes its events only to Sargon II and the Babylonian Nebuchadnezzar. This means that, according to the Jewish narrative, Sargon II carried out the minor enslavement, and not the Babylonian king Nebuchadnezzar, who carried out the major enslavement. In addition, the minor enslavement took place three centuries after the reign of the Prophet David, and the major enslavement took place five centuries later, as claimed by the Tanakh. Therefore the interpretation of ar-Razi is invalid.

Other Islamic jurists and interpreters mentioned the written Jewish narrative as a citation from at-Tabari, but disagreed with and approved of it, such as the Damascene jurist, historian and Qur'anic interpreter, Ibn Katheer (1991, vol. 3:.29-30) in his interpretation. He says, "If we had found something correct, or not far from being correct [in the Jewish narrative], it would have been admissible to write it and to narrate it. God knows better than us".

The Qur'anic narrative, therefore, did not confirm the written Jewish narrative of the enslavement in its viewpoints and detail, but it confirmed it as regards the number of times the Qur'anic narrative specifies as twice. It left open the issue of the Jews' accountability and punishment for their corruption and disobedience, and for a third and may be fourth, fifth, sixth revenge and more. In other words, an open revenge, dependent on their behaviour, as in the holy verse, "*If you shall return (to sins), We shall return (to our punishment)...* "[18] This was what happened to them in their wars as recorded in the *Tanakh*. The last of which was the war waged by the military commander Titus (later emperor 79–81 CE), who led a military campaign during the reign of his father, Vespasien (69 -79 CE), and invaded Jerusalem in 70 CE.

Could the two incidents mentioned in the written Jewish narrative have happened during the period between their entering Palestine and their defeat by Titus in 70 CE? Or could they be the episodes of their punishment, after the year 70 CE, up to this date, such as happened at the beginning of Islam, when Prophet Muhammad expelled them from al-Medina and its surroundings? Could the event related in the Qur'anic narrative be a third revenge? And how can we explain the persecution and expulsion that befell them much later in France, from where they were expelled four times during 1182–1322 CE? How can we explain what befell them in Britain in 1290 CE, in Austria, in 1421CE, and in Spain in 1492 CE? And how can we understand the way they were treated in Germany before and during the Second World War (1933–1945 CE)? During all the previously-mentioned events in Europe, the Jews did not belong to a specific land. They have not been in Palestine; they did not build the alleged temple. Could we consider this as a revenge and punishment for the fourth, fifth, sixth, and more times?

How then can we explain the revenge and punishment awaiting them in Palestine that they can expect at every minute and which they spare no effort to evade? It might even be said that the achievements of the Islamic Lebanese Resistance (Hezbullah) in 2006 CE, and those of Palestinian Resistance in the Gaza Strip in 2014 CE, were part of the awaited revenge. The latter could immobilize the civil aviation sector in occupied Palestine. The two resisting movements were able to force approximately 2

million Jews to live in bomb-shelters during the period of the two wars. They were also able to cripple the economy of the Zionist-Jewish entity during the same period.

At this point, we cannot be positive about the conformity of the Qur'anic narrative with the written Jewish narrative. The first is open to all probabilities, while the latter is confined to two historical events that are not supported by the Assyrian and Babylonian historical sources concerned with the two events. Hence, the term "twice", in the Qur'anic narrative does not necessarily refer to the minor and major enslavements. Nor can we be positive that the Jews have twice become transgressors in the past in order to align the Qur'anic and the written Jewish narratives. Given that the Jews, at present, are in a state of transgression that is unprecedented in their history, supposing they actually did have a history. How can the present transgression be described?, Is it the first or the second or a third? That justifies the phrase: "*If you shall return (to (sins), we shall return (to our punishment*)...".

Conformity between the two narratives is difficult to acknowledge. The Qur'anic narrative is absolute in time and unlimited in place. It is open for all past, present and future events. It is not concerned with history as events and facts. It is concerned with the philosophy of history, serving as lessons and example, for contemplating and considering the affairs of non-Muslims, so that Muslims can draw conclusions. Therefore, the Qur'anic narrative does not comprise dates, human temporal experience and specific place names. It leaves the historical events open for all interpretations.

As for the written Jewish narrative, it is limited in time and place and is linked to the Jews as a human community. It records alleged facts and events, human temporal experience, and specific place names that cannot be found in any other source. They lack historical support and geographical presence. I have demonstrated this as applied to the silenced ancient Egyptian and Assyrian, Babylonian sources that do not support the written Jewish narrative. In addition, archaeological physical evidence has not bestowed any credibility to the written Jewish narrative. Therefore, it cannot be drawn upon as a historical narrative. This, in turn, invalidates all the events the narrative relates: The destruction of Jerusalem, the destruction of the alleged temple and the enslavement and dispersion of Jews. Based on some of sources indicated at the beginning of this paper, Arabs and Muslims, in carrying out their research, need to discard this narrative from their collective conscience, their history books and the interpretation of the Qur'anic verses that speak about Jews, so as to avoid and even invalidate the religious, historical and political repercussions of the aforesaid narrative. The non-conformity between the narratives will now be clarified in the review of the Persian and classical Greek and Latin source.

Persian sources

The written Jewish narrative of the Babylonian enslavement involves the Persian civilisation that destroyed the Babylon state. The narrative claims that the Persian King Cyrus (560-529 BCE), who defeated Babylon in 539 BCE, gave permission to Jews to return to Jerusalem in 535BCE. It also claims that Cyrus permitted them to build their alleged temple (The Temple of Zerubbabel, or the Second temple).[19] The narrative claims as well that disputes arose among the Jews and they sent a letter of complaint to the Persian King Artaxerex, which is the Jewish name given to King Cambyses, son of Cyrus (529-522 BCE), who responded to the complaint and issued a written decree to stop the construction of the alleged temple,[20] as claimed in the written Jewish narrative. So, although Cambyses was busy fighting Egypt all throughout his reign, he invaded that country and installed himself as pharaoh there.

During the reign of Darius (522-486 BCE), the Jews - both those opposing the building of the temple and those supporting it - kept sending complaints to the king. Eventually, Darius issued orders to resume the building of the alleged temple.[21] The written Jewish narrative claimed that it was completed by Zerubbabel in 516 BCE .

Strangely enough, the alleged letters exchanged between Jews (those opposing the building of the temple and those supporting it) and the Persians, through the reigns of the above-mentioned kings, have never been mentioned in the Persian sources. They have only been mentioned in the written Jewish narrative; the Western and Jewish sources have never cited a Persian source to support this narrative. The Persian sources do not relate anything whatsoever that supports such allegations. Hence, this invalidates the said

allegations altogether, and therefore, also invalidates the question of building the so-called temple of Zerubbabel or the second temple. Furthermore, it completely negates the episode of the Babylonian enslavement.

The silence in the Western historical sources that adopt the allegations of the written Jewish narratives (with some exceptions that have already been mentioned) about the absence of the said narrative from the Persian sources, should not deter Arab scholars engaged in studying the history of Jerusalem from taking advantage of this absence. Exploiting their complete absence from the Persian sources should be an objective and the methodological approach used by all Arab scholars engaged in the history of Jerusalem. Such absence confirms the unconformity with the Qur'anic narrative and, hence, negates the building of the alleged second temple. Having juxtaposed the written Jewish narrative with the Qur'anic narrative, the idea of the construction of the alleged first temple is invalidated in the section of the Assyrian, and Babylonian sources. The same notion becomes null on the basis of evidence presented on the logic of engineering, and religion in my book, *The Architectural Identity of Jerusalem(2010)*. The silence of the Persian sources on the Jewish narration of the Babylonian is equally confirmed in the classical Greek sources which will be displayed in the following discussions.

Classical Greek and Latin sources

The classical Greek and Latin sources are perhaps the only sources in the history of the ancient world that are written and documented in books. Harvard University has had all these books translated into English. I reviewed all the books and did not find a single allusion to the written Jewish narrative. The most important book among them- Herodotus,(5th BCE) *The History of Herodotus* (2001) does not even mention the Jews. Remarkably, Herodotus chronicled the Persian Empire and the wars of Cyrus, Cambyses and Darius, who reigned during the period (560-465BCE). A period is very close to that chronicled by Herodotus, (450-420 BCE). The time span is 66 years between the date when Darius gave the Jews permission to build their alleged temple in 516 BCE, as the Jewish narrative claims, and the date when Herodotus began his history (516-450 BCE). If the written Jewish narrative about the Babylonian enslavement were true, it would have been mentioned by Herodotus who spoke about the destruction of Babylon by Cyrus in 539 BCE. Moreover, Herodotus described Babylon and the traditions of its inhabitants in great detail. Had the Jews been living in Babylon during that or the previous period, he would undoubtedly have mentioned them. Hence, it may be concluded that the written Jewish narrative is incorrect, and that the Qur'anic narrative does not conform to it, as has been demonstrated above in the Assyrian and Babylonian sources. Therefore, the claims of the Jew concerning the destruction of Jerusalem, their enslavement and the existence of an alleged temple that was destroyed and then rebuilt, are all false. These claims have been shown to be mere fallacy by all the above-mentioned sources, as well as by the Qur'anic narrative. A complete a review of the Qur'anic narrative will be sought after displaying the Roman sources.

Roman sources

The relationship between the Jews and the Romans has been documented in two main sources. The first is the history of Josephus Flavius, a Jew who accompanied the commander Titus after the latter had invaded Jerusalem and defeated the Jews in 70 CE. This was during the reign of Titus' father Vespasian (69-79 CE). Josephus wrote two books of interest here: *Wars of the Jews* (75CE) and *Traces of Jews* (94CE). In these, he claims that Titus had destroyed Jerusalem, torn down the alleged temple and looted the vessels inside it. Juxtaposing his narrative about the alleged temple with other narratives demonstrates how they contradict each other. I have negated the existence of the alleged temple in my book, *The Architectural Identity of Jerusalem* (2010).

The second source is the Arch of Triumph (Arch of Titus), erected by Emperor Domitian (Titus' brother) in Rome 82CE, whereupon Titus' military feats in the Judean wars were recorded. There is no mention of any temple; only depictions of vessels used for offerings, as cited by some Western sources. It is well known that it was Emperor Hadrian (117-138 CE) who planned the city of Jerusalem and named it Aelia Capitolina. He built a temple to Jupiter on the current site of al-Aqsa mosque and forbade Jews from entering the city.

During the reign of Constantine, (306-337CE), the Romans of the Eastern Roman Empire (Byzantines) embraced Christianity. The Byzantine period continued until the Muslims liberated Palestine and Jerusalem in

(15 H/636 CE). The Patriarch of Jerusalem, Sophronius, surrendered the city peacefully to Caliph Umar ibn al-Khattab by virtue of *The Treaty of Umar/Custody of Umar* that put an end to the existence of the Jews in the city and prevented them from entering it, at the request of Patriarch Sophronius as stated in the said Treaty.

Strikingly, the history of Josephus conforms to the written Jewish narrative that pivots around the alleged temple, but which is negated by the Roman sources.

According to the above-mentioned, it is clear that only the written Jewish narrative records historical, social and religious incidents and events that do not appear in the historical sources concerned with them; these include the ancient Egyptian, Assyrian, Babylonian, Persian, Greek and Roman sources. The said incidents and events are contradicted, some are even negated by the Qur'anic narrative, as I have already demonstrated and shall further demonstrate in the following discussions.

The Qur'anic narrative

In the following review and analysis, I will demonstrate how the Qur'anic narrative of the Jewish history confirms the distortion of the Torah and worship, and nullifies the racial superiority of the Jews, as claimed by the written Jewish sources.

The Qur'anic narrative is distinguished not only for its credibility, but also because it was known to the Jewish scholars, as in the holy verses:

> *"And truly, this (the Qur'an) is a revelation from the Lord of 'Alamin (mankind, jinn and all that exists). Which trustworthy Ruh [Jibril] (Gabriel) has brought down, upon your heart (O Muhammad) that you may be (one) of the warners, in the plain Arabic language. And verily, it (the Qur'an, and its revelation to prophet Muhammad is (announced) in the Scriptures [i.e. the Taurat (Torah) and the Injeel (Gospel)] of former people. Is it not a sign to them that the learned scholars of the children of Israel knew it (as true)?"* [22]

Therefore, whatever appears to be inconsistent with the Qur'anic narrative which is known to the Jewish scholars is considered mere distortion. This, in turn, leads to the distortion of the Torah.

Distorting the Torah

The Qur'an speaks directly and indisputably about the distortion of the Torah. As in the verse:

> *"Then woe to those who write the Book with their own hands and then say, this is from Allah, to purchase with it a little price! Woe to them for what their hands have written and woe to them for that they earn (thereby)."* [23]

As well as in the verse:

> *"Veril This Qur'an narrates to the children of Israel most of that in which they differ"*.[24]

Also in the verse:

> *"O People of the Scripture (Jews and Christians)! Now has come to you our Messenger Muhammad explaining to you of that which you used to hide from Scripture and pass over (i.e. leaving out without explaining) much Indeed, there has come to you from Allah a light (Prophet Muhammad) and a plain Book (this Qur'an)."* [25]

Hence, the distortion of the Torah is not a recent Western discovery by some Jewish theology specialists, but an Islamic Qur'anic one that goes back more than 14 centuries.(ar-Razi 1958, vol. 1:193-194/vol. 3:148-151) This fact should oblige and even compel Arabs and Muslims engaged in research on all Jewish affairs, and not only on the history of Palestine and Jerusalem, to put the Qur'anic narrative to use, and to distance themselves from the written Jewish narrative. Regrettably, the majority of Arab and Muslim scholars are not aware of this fact, and despite its usefulness, have not exploited it.

If the Torah is distorted, then so are all its allegations about the history of Palestine and Jerusalem. The unmistakable significance of the Qur'anic narrative in refuting the allegations of the written Jewish narrative should be given prominence by Arab and Muslim scholars who need to put the Qur'anic narrative to use in their research, since it is the most efficient factor in refuting the allegations of the written Jewish narrative.

At the beginning of this paper I examined the viewpoint of Ibn Katheer, who asked that the Qur'anic narrative be exploited for research and that the written Jewish narrative should be ignored. He considers the latter as being associated with the Israelites silence surrounding Islamic heritage, and that the

Jewish narrative is merely a bunch of random and confused lies and fabrications, distortion and the twisting of fact. This point of view will be upheld in the following discussions.

Distortion concerning rites of worship

The Qur'anic narrative reveals that in Judaism the worshipping rites practised by the Jews are their own invention; they were not divine revelations. Here again, the Qur'anic narrative does not mention a temple. In the Qur'anic narrative, Jewish worship rites indicate praying and the paying of zakat (alms-tax), and not donating offerings and collecting poll tax, amounting to half a shekel for every Jew from 20 years old and above,[26] as practised by the priests in the tabernacle and in the alleged temple later on. In addition, the said rites do not have to be practised inside a temple. This clearly appears in the verses where God addresses the Jews:

"And perform As-Salat (Iqamat-as-Salat), and give Zakat, and bow down (or submit yourselves with obedience to Allah) along with Ar-Raki`un."[27]

This means that worship in Judaism did not include donating offerings as was practised by Jewish priests since the time of Moses up to 70 CE, when Titus invaded Jerusalem. (where rabbis plotted with him against the priests and changed the worship practices in Judaism from donating offerings to reciting Psalms, and from complying with the tampered version of the Torah (the false revelation)- to comply with the Talmud as written by the rabbis); Rather worship, in the Islamic sense, involves praying and paying zakat (alms-tax), kneeling, prostrating, supplication. It does not involve dealings with ill-gotten money and collecting taxes as worship in Judaism. In the following verses, God addresses Jews stressing that worship is prayer:

"And seek help in patience and as-Salat (the prayers) and truly it is extremely heavy and hard except for Al-Khashi`un [i.e. the true believers in Allah - and those who obey Allah with full submission, fear much from His punshment, and believe in His Promise (Paradise) and his Warnings (Hell)]."[28]

God also says:

"And (remember) when we took covenant from the children of Israel, (saying): Worship none but Allah (Alon) and be dutiful and good to parents, and to kindred, and to orphans and to Al-Masakin (the needy), and speak good to people (i.e. enjoin righteousness and forbid evil, and say the truth about Muhammad), and perform As-Salat (Iqamat-as-Salat) and give Zakat. Then you slid back, except a few of you, while you are backsliders.[29]

The evidence that the worship rite of donating offerings in Judaism was not a divine revelation, but one invented by the Jews is clear in the following verses:

"Then why did those whom they had taken for alhah (gods) besides Allah, as a way of approach (to Allah) not help them? Nay, but they vanished completely from them (when there came the torment). And that was their lie, and their inventions which they had been inventing (before their destruction)."[30]

There is further evidence of this as stated clearly in the following verses:

"Those Jews who said: Verily Allah has taken our promise not to believe in any Messenger unless he brings us an offering which the fire (from heaven) shall devour. Say: verily, there came to you Messenger before me, with clear signs and even with that you speak of; why then did you kill them, if you are truthful?"[31]

God re-asserts, in the following verses, that worship in Judaism involves praying and paying zakat (alms-tax):

"Indeed, Allah took the covenant from the children of Israel (Jews), and we appointed twelve leaders among them. And Allah said: I am with you if you perform As-Salat (Iqamat-as-Salat) and give Zakat and believe in My Messengers; honour and assist them, and lend a good loan to Allah, verily, I will expiate your sins and admit you to Gardens under which rivers flow (in Paradise). But if any of you after this, disbelieved, he has indeed gone astray from the Straight Path."[32]

Again, this means that worship in Judaism does not require a temple for donating offerings. Hence, this rite of worship is distorted.

The alleged precedence

As for the alleged precedence, promoted by the written Jewish narrative as an absolute racial precedence, it is a mere temporal. It means that Jews were chosen to be charged with a specific task, that is, the mission of Judaism. It is not racial, but selective, temporally restricted by the mission. The holy verse says:

> *"O Children of Israel, remember My Favour which I bestowed upon you and that I preferred you to `Alamine (Mankind)."*[33]

Interpretation of the verse demonstrates clearly that the precedence in this context is restricted. (ar-Razi 1985, vol.3:55-57) It is not absolute, as claimed by Jews, that God had given them precedence. They were selected only for undertaking the mission of Judaism. But they monopolized the faith and considered the precedence to be absolute, racial and innate, and not selective and temporal, and restricted only to the specific mission of Judaism. This is clear in the following verse of the Qur'an:

> *"And indeed we gave knowledge to Dawud (David) and Sulaiman (Solomon), and they both said: All praise and thanks are Allah's who has preferred us to many of His believing slaves!"*[34]

Precedence here is based on knowledge, that is, Jews were selected from among God's believers to undertake the mission of Judaism. This asserts that precedence is not racial bounds as they claimed. This idea is clear, in the following verse of the Qur'an:

> *"... And they were covered with humiliation and misery, and they drew on themselves the Wrath of Allah. That was because they used to disbelieve the Ayat (proofs, evidences, verses, lessons, signs, revelation, etc.] of Allah and killed the Prophets wrongfully. That was because they disobeyed and used to transgress the bounds (in their disobedience to Allah, i.e. commit crimes and sins)."*[35]

This begs the question why those servile people who had gone astray and incurred the wrath of God became God's chosen people, enjoying innate and racial precedence over other nations? The Qur'anic narrative invalides the racial precedence in the written Jewish narrative altogether, and restricts it to the Jews being charged with the mission of Judaism alone.

The yellow (red) cow

> *"And (remember) when Musa (Moses) said to his people: Verily Allah commands you that you slaughter a cow. They said, Do you make fun of us? He said, I take Allah's refuge from being Among Al-Jahlilun (the ignorant or the foolish). They said, Call upon your Lord for us that He make plain to us what it is! He said, He says Verily, it is a cow neither too old nor too young, but (it is) between the two conditions', so do what you are commanded. They said, call upon your Lord for us to make plain to us its colour. He said, He says, It is a yellow cow, bright in its colour, pleasing the beholders. They said, Call upon your Lord for us to make plain to us what it is. Verily to us all cows are alike. And surely, if Allah wills, we will be guided. He [Musa (Moses)] said, He says, it is a cow neither trained to till the soil nor water the fields, sound, having no other colour except bright yellow. They said, Now you have brought the truth. So they slaughtered it though they were near to not doing it. And [remember] when you killed a man and fell into dispute among yourselves as to the crime. But Allah brought forth that which you were hiding. So we said: Strike him (the dead man) with a piece of it (the cow). Thus Allah brings the dead to live and shows you His Ayat (proofs, evidences, verses, lessons, signs, revelations, etc.) so that you may understand."*[36]

As stated in the verse of the Qur'an cited above, the aim of slaughtering the yellow cow was to reveal the murderer by hitting the body of the murdered victim with it, so as to revive him from death. It was not meant to be an offering, i.e., a worshipping rite, as in the rite of the red cow, which the Jews offer on Yom Kippur (the day of repentance). The latter was a religious rite adopted from the ancient Egyptian religion. Here, the Qur'an asserts that worship was not about donating offerings, as the Jews practised it, in imitating ancient

Egyptian and Canaanite religions. The Qur'an also asserts with regard to the Jews distortion of religious obligations that God says:

"And indeed Musa (Moses) came to you with clear proofs, yet you worshipped the calf after he left, and you were Zalumun (polytheists and wrong-doers). And (remember) when we took your covenant and we raised above you the mount (saying), Hold firmly to what we have given you and hear (our word). They said, we have heard and disobeyed. And their hearts absorbed (the worship of) the calf because of their disbelief. Say: Worst indeed is that which your faith enjoins on you if you are believers."[37]

The Jews' disobedience, then, was not out of ignorance. They knew the truth perfectly well about their religion, which required worshipping God, and had nothing to do with worshipping the calf. It required praying and paying alms-tax; and not donating offerings, as already demonstrated. Thus, the Qur'anic narrative reveals the truth about Judaism as a divine religion founded upon worshipping God through prayer and paying alms-tax. The Qur'anic narrative also reveals the Jewish distortion of their own religion. It demonstrates that they did not need the alleged temple and refutes their historical claims that they were God's chosen people.

The Qur'anic narrative not only contradicts the written Jewish narrative, but also invalidates most of its detail and exaggeration. Moreover, all the ancient Egyptian, Assyrian, Babylonian, Persian, Greek and Roman historical sources disregarded the written Jewish narrative. This invalidates the Jewish presence in geography, and, hence, in history. That being so, they therefore, tried to distort archaeological findings in an attempt to support their fabricated narrative.

Archaeology

Archaeology has never provided any physical or written documented evidence that supports the allegations of the written Jewish narrative. That is in spite of all the attempts made by Western and Jewish historians - with the few exceptions already mentioned - to twist the archaeological findings when attempting to make them conform to the said narrative. Velikovsky is one such historian whose desperate efforts in his book, (1950), *Ages in Chaos*, to come up with a match between archaeology and the written Jewish narrative, failed completely to provide any evidence of such a match. Moreover, the excavations carried out by Western and Jewish archaeologists in Jerusalem failed to provide a single piece of physical evidence to support the written Jewish narrative. So much so, that this prompted the Jewish archaeologist, Meir Ben Dov- to declare the excavations terminated in the surroundings of the al-Aqsa mosque and to admit that the alleged temple could not be found in Jerusalem. Armed with these facts, the scholars engaged in the history of Jerusalem should also put archaeology to use for refuting the written Jewish narrative, in order to invalidate its claims that the alleged temple really ever existed; and that the Jews have an alleged historical right in Palestine and in Jerusalem.

Ottoman archives

The Ottoman archives are among the richest modern sources on the history of Palestine and Jerusalem. They are well documented and preserved in Istanbul and they cover the period 1517-1917CE, i.e., four centuries. But, except for a few, very limited, and superficial examples, few attempts have been made, so far, to put these archives to use by Arab and Muslim scholars engaged in the general history and political history of Palestine. In contrast, Western and Jewish researchers have exploited the said archives and examined them thoroughly. By adding their own distorted interpretation of some of the documents, Western and Jewish researchers have managed to insert the Jewish presence into Palestine, and specifically into Jerusalem. Hence, their research has become a reference for all Arab scholars and researchers engaged in the history of that region. That being the case, the Arab League and Arab universities should facilitate access to the Ottoman archives, and oblige researchers to benefit from them directly and not by citation from Western and Jewish researches. Arab researchers need to be directed and encouraged to liberate themselves from the authority of the said research in the process of shaping their own awareness, and from any attempts by those researchers to dictate their perspective. In this context, the powerful presence of the Western and Jewish researchers is the main impediment hindering the shaping of an independent Arab historical and political consciousness. To be freed from such an impediment can only occur through

sheer willpower and by the direct and thorough study of and referral to the authentic sources, and the Ottoman archives, and independently of the Western and Jewish perspectives that regrettably continue to shape the consciousness of Arab scholars and researchers engaged in the history of Palestine and Jerusalem. This cannot be done superficially and is an issue now addressed.

The superficial dealing of historical documents

The superficiality of the papers and researches submitted at seminars, meetings and publications that address the issue of Jerusalem is clearly visible to any participant at such events. The limited historical and cultural background of most participants is evident. This was clearly manifested in the 2009 CE conferences held, in Amman, Jordan on the occasion of choosing Jerusalem as the capital of Arab culture. The papers suffered from lack of academic sincerity, epistemological depth and methodological seriousness, and a failure to put historical facts to use to the advantage of the Arab cause of Jerusalem; hence, an inability to come up with a purely Arab viewpoint on Jerusalem.

Regrettably, some organizations, forums and bodies concerned with Jerusalem, behave like sheikhdoms and less as organizations whose main concern is serving the Arab cause of Jerusalem. They keep qualified persons away and instead bring their own cronies in as participants. They still insist on inviting foreign - and not Arab - researchers to participate in the conferences dedicated to Jerusalem. This indicates the extent of the cultural and historical hollowness of those in charge of the organizations; it also indicates their lack of self-esteem and inferiority complex with regard to foreigners.

Historical errors and fallacies are numerous. One history professor who participated in the conference on Jerusalem – the capital of Arab culture- even denied that the Treaty of Umar was drawn up by Umar ibn al-Khattab and claimed that it was written after him. Had that professor had any historical sense, he would not have made such a claim and would have adhered to the commonly-agreed narrative that the treaty was concluded during Umar's reign. By adhering to that particular historical source, he failed to uphold the fact that the treaty had been concluded by a Muslim and in an Islamic spirit, whether it be Umar ibn el-Khattab or another, and that it characterized Islam's respect for the freedom of worship and safety of the lives and property of non-Muslims.

Another participant iterated the Jewish narrative that claims that Sultan Salim I (1512-1520) gave permission to the Jews to gather and pray at al-Buraq Wall (Wailing Wall). Such a claim has no basis. The Ottoman archives do not contain anything to support it. I have refuted this claim in my *The Traditional Center of the City of Jerusalem Between Continuity and Demolition* (2008*)*.

Among other frequent examples of faulty reasoning is the use of Jewish terms and designations for certain places instead of Arab ones, such as using the 'Wailing Wall' instead of al-Buraq Wall; 'The Jewish quarter' instead of 'The Islamic southern quarter or al-Magharbah quarter', and the 'Arc of Wilson' instead of 'The Umayyad bridge' on the Western wall of al-Aqsa mosque that connects the Umayyad palaces with the mosque. These are but a few examples. This serves to enhance the presence of the Jewish allegations in the Arab and Islamic collective consciousness, and must be avoided.

We also feel the superficiality of some Arab participants at the conferences shared with Jews. In "The Future of Jerusalem", conference, held in Jerusalem in 1993CE, the Jews sent their best experts in international law, while the Palestinian participants did not have a single expert on international law expert among their delegation. The Jews were well-prepared for the conference, while the Palestinians participated without preparation in a spirit of instantaneous mobilization. The Palestinians even left it up to the Jews to edit the conference proceedings. Typically, the Jews who edited the proceedings falsely ascribed to the Palestinian participants that the Jerusalem the Palestinian delegation was negotiating was located east of Wadi Jahannam (Valley of Hell), or Abu Dees (east of the eastern wall of the old city), and not east Jerusalem (the Old City inside the Wall and its suburbs) which was occupied in 1967CE. (Gershon p.1-5).

The same occurred at the conference, held in two rounds, dedicated to the planning of Jerusalem. The first round was held in Jerusalem in 1997CE, the second in Bellagio, Italy in 1999 CE. A book - *The Next Jerusalem* edited by Sorkin, (2002) - was compiled after the conference and held that some Palestinian participants had adopted the Jewish planning projects. Remarkably, here again the Jewish

editor of the book resorted to further distortion. He falsely ascribed to the Arab participants that they had spoken of Jerusalem as located east of Wadi Jahannam (Valley of Hell), or Abu Dees (east of the eastern wall of the old city), and not east Jerusalem (the Old City inside the Wall and its suburbs) that was occupied in 1967CE. I have reviewed this book in my book (al-'Abed, 2010: 113-131) and pointed out the danger that such projects represent for Jerusalem.

Some publications about Jerusalem abound in historical fallacies. One such publication, entitled *Jerusalem in the Conscience* (2012) contains a map entitled "Jerusalem is the Centre of the World" drawn by the German Heinrich Bunting in 1581CE. It is illustrated as being the Madaba Mosaic map that goes back to the sixth century! Strikingly, the Madaba Mosaic map is still existed in the city of Madaba, south of Amman, Jordan!

The truth is that the superficiality with which the history of Palestine and Jerusalem, in particular, is treated is too formidable to be revealed in its entirety here. Regrettably, it is an apparent characteristic in the research that deals with Palestine and Jerusalem. We hope it will be soon be overcome.

In conclusion, Arab and Muslim historians, scholars, politicians, intellectuals, and free thinkers all over the world must dissociate themselves from the distorted Jewish written narrative and adopt a mere scientific and comprehensive – particularly the Qur'anic narrative - approach in rewriting the history of Palestine and Jerusalem, in order to free it from the lies and distortion of the Jewish written narrative.

Disclosure statement

No potential conflict of interest was reported by the author.

Notes

1 For the translation of the verses of The Noble QUR'AN in the English Language I used the translation approved by The Islamic University at al-Madinah al-Munawwarah. Al-Hilali, M. T., & Khan, M. M. 2006. *Translation of the Meanings of THE NOBLE QUR'AN IN THE ENGLISH LANGUAGE. Madinah:*, King Fahed Complex For The Printing Of The Holy Qur'an.
2 *Tanakh*, Exodus, 3:17 and 13:5–6
3 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya* (verse): 61.
4 Al-Qur'an, surah, *al-Ma'idah*, *aya*: 21.
5 *Tanakh*, Exodus, 3:8–13, 17:5–6, 33:1–3 and 34:11–12
6 Al-Qur'an, surah ash-Shu`ara', *ayat* (verses): 52–54.
7 *Tanakh*, Exodus, 12:37–39.
8 Al-Qur'an, surah an-Naml, *ayat*: 20–22.
9 Al-Qur'an, surah an-Naml, *ayat*: 39–40.
10 Al-Qur'an, surah al-Haqqah, *ayat*: 4–10.
11 *Tanakh*, Ezra, 4:1–4.
12 *Tanakh*, Chronicles 2, 36:5–8.
13 Al-Qur'an, surah al-Isra', *ayat*: 1–8.
14 Al-Qur'an, surah Ibrahim, *aya*: 37.
15 Al-Qur'an, surah al-Hajj', *aya*: 26.
16 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya*: 12
17 *Tanakh*, Chronicles 2:22, 36:5–8; and Ezra, chs 4 and 10.
18 Al-Qur'an, surah al-Isra', *aya*: 8.
19 *Tanakh*, Ezra, chs 1–3.
20 *Tanakh*, Ezra, 4:6–24.
21 *Tanakh*, Ezra, ch. 5 and 6:1–17.
22 Al-Qur'an, surah ash-Shu`ara', *ayat*: 192–197.
23 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya*: 79.
24 Al-Qur'an, surah an-Naml, *aya*: 76.
25 Al-Qur'an, surah *al-Ma'idah*, *aya*: 15.
26 *Tanakh*, Exodus, 3:13–17.
27 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya*: 43.
28 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya*: 45.
29 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya*: 83.
30 Al-Qur'an, surah *al-Ahqaf*, *aya*: 28.
31 Al-Qur'an, surah '*al-'Imran*, *aya*: 183
32 Al-Qur'an, surah *al-Ma'idah*, *aya*: 12.
33 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya*: 47.
34 Al-Qur'an, surah an-Naml, *aya*: 15.
35 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya*: 61.
36 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *ayat*: 67–73
37 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *ayat*: 92–93.

References

Al-'Abed, Badi'. 2008. *The Traditional Center of the City of Jerusalem between Continuity and Demolition*. Amman: Amman City Cultural Directorate.

Al-'Abed, Badi'. 2010. *The Architectural Identity of Jerusalem*. Amman: Ministry of Culture.

Al-Hilali, M. T., and M. M. Khan. 2006. *Translation of the Meanings of the Noble Qur'an in the English Language*. Madinah: King Fahed Complex for the Printing of the Holy Qur'an.

Arabic Life Application Bible (LAB), (2002). New Arabic Version (NAV) "Book Life", International Bible Society, frist print, Tyndal House Publisher, Inc. Great Britain.

At-Tabari, Abu Ja'far Muhammad ibn Jarir. 1980. *Jami' Al-Bayan Fi Tafsir Al-Qur'an: Tafsir Al-Tabari* [The Statement on the Interpretation of the Qur'an: Interpretation of Al-Tabari], Vol. 30, 4th edn (1400 H., vol. 15: 17–35). Beirut: Dar Al-Ma'refa.

Forum of Arab Thought. 2012. *Jerusalem in the Conscience*. Amman: Forum of Arab Thought.

Gershon, B. & Twite, R. 1993. (Editors), the Future of Jerusalem. Jerusalem: Israel Palestinian Centre for Research and Information (IPCRI)

Herodotus. 2001. *The History of Herodotus*. Translated by Abdul-Ilah Al-Mallah. Abu Dhabi: Al-Mujamma' Al-Thaqafi – The Cultural Assembly.

Ibn Khaldun, Abu Zeid bin Abdul Rahman bin Muhammad. (Without history of publication). *The Introduction*. Beirut: Al-A'lami Institute.

Ibn Katheer, Abu al-fida' Isma'il ibn Umar. 1985. *Al-Bidaya wa Nihaya, the Beginning and the End*, Vol. 1. (1406 H., 14 vols). Beirut: Al-Ma'arf Library.

Ar-Razi, Abu Baker Muhammad. 1985. *at-Tafsir al-Kabir (Mafateeh al-Ghayb)* [Interpretation of Ar-Razi (Keys to the Unknown or the Great Interpretation)] (1405 H., third edn). Beirut: Dar Al-Fikr.

Sand, Shlomo. 2010. *The Invention of the Jewish People*. Translated by Sa'id Ayash Amman: Al-Ahlia.

Sorkin, M., ed. 2002. *The Next Jerusalem*. New York: Monacelli.

Thompson, Thomas. 2000. *The Mythic Past, the Bible in History*. Translated by Adnan Hasan. Damascus: Cadmus House.

Velikovsky, Immanuel. 1995. *Ages in Chaos: From the Exodus to King Akhnaton*. Translated by Rif'at Al-Sayed. Cairo: Sina'.

Whitelam, Keith. 2000. *Invention of Ancient Israel: The Silencing of Palestinian History*. Translated by Mamdouh Udwan. Damascus: Cadmus House.

المصادر التاريخية والرواية القرآنية المغيبة في تاريخ فلسطين والقدس

الأستاذ الدكتور بديع العابد
عميد سابق لكلية الهندسة – جامعة الإسراء – الأردن

ملخص

هناك مصدر يفرض حضوره على الباحثين في تاريخ فلسطين والقدس وهو الرواية التاناخية (التوراتية-المصادر الكتابية اليهودية) مع بعض الاستثناءات المحدودة التي تعارضها. أما المصادر التاريخية الأخرى فهي مغيبة ومنسية، وهي: المصرية القديمة، والسامية، واليونانية، والفارسية، والرومانية، والرواية القرآنية. التي يُتَعَمَدْ تغييبها من قبل الباحثين اليهود والغربيين لمعارضتها، بل لنفيها، لرواية المصادر الكتابية اليهودية، وللحضور اليهودي في التاريخ. الأمر الذي يترتب عليه نفي الرواية الكتابية اليهودية شكلاً وموضوعًا. أما الباحثون العرب، قديمهم وحديثهم، فالغالبية الساحقة منهم، تتبنى رواية المصادر الكتابية اليهودية، من خلال اعتمادها على المراجع اليهودية والغربية في كتابة تاريخ فلسطين والقدس. وربما يعود السبب في عدم توظيف الباحثون العرب للمصادر التاريخية التي تعارض الرواية الكتابية اليهودية، إما لعدم معرفتهم بها، أو لعدم قدرتهم على توظيفها، أو للسببين معًا. واللافت أن معظم المؤرخين والمفسرين المسلمين تبنوا الرواية اليهودية في تفسير آيات القرآن الكريم الخاصة باليهود. كما زعم بعضهم أن المسجد الأقصى من بناء النبيين داود وسليمان. يهدف هذا البحث للتعريف بالمصادر التاريخية المغيبة (المصرية القديمة، السامية، اليونانية، الفارسية، الرومانية) في تاريخ فلسطين والقدس، ويبين آلية توظيفها. ولتحقيق ذلك سيعرض البحث لرواية المصادر الكتابية اليهودية، ثم للمصادر التاريخية المغيبة، ويبين معارضة ونفي الثانية للأولى، وخلو الثانية بالمطلق من مزاعم الأحداث التاريخية التي سجلتها الرواية الكتابية اليهودية، الأمر الذي ينفي حدوثها ويكشف زيفها وكذبها. ثم يقابل البحث الرواية الكتابية اليهودية بالرواية القرآنية التي تسجل، في الأعم الأغلب، معجزات دينية، فوق تاريخية، وليس أحداث تاريخية بشرية معاشة. ثم يبين البحث مبالغات وزيف الرواية الكتابية اليهودية، التي عمدت إلى تحويل المعجزة الدينية إلى حدث تاريخي بشري معاش في محاولة لإقحام اليهود في تاريخ فلسطين والمنطقة العربية.



Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

info@kanhistorique.org